سيرة

كريم جمال

أم كلثوم
سنوات المجهود الحربي

الطبعة 2

تنمية

إهداء

إلى سيدتين لولاهما ما كُنت وما كان هذا الكتاب.
إلى أمي صانعة التضحيات وصاحبة الواحة الخضراء
والظل المديد.

إلى صاحبة السِّفر والمعجزة.
إلى السيدة التي لم أعاصر مُنجزها الغنائي
ولكن لا تزال أصداؤه تملأ مسامعي؛
إلى أم كلثوم.

تقديم

بين الفن والسياسة

علاقة لا تنفصم

د. ڤكتور سحاب

أكرمني الأستاذ كريم جمال بمنحي الثقة لأخطّ تقديمًا لكتابه: أم كلثوم سنوات المجهود الحربي.

وأودّ بدايةً أن أؤكد للقارئ العزيز إنّني لم أتشرف بمعرفته إلا من خلال هذا الكتاب. وقد قرأت سطور الكتاب إذن، غير متأثر بأي علاقة مودة أتمناها بيننا.

يطرح الكتاب، في موضوعه المهم، مداخل عديدة للنظر في هذا الموضوع: موضوع علاقة كوكب الشرق، في السنوات التي فصلت بين نكسة يونيو/ حزيران 1967، واعتزال مطربة العرب الكبرى.

-أولًا: مدخل الكتابة التاريخيّة وأصولها، وما تقتضيه من شروط، لتتفق هذه الكتابة مع أحكام نقد الكتابة التاريخيّة، كما وضعها ورسمها المنظّرون للنقد التاريخي، أكانوا علماء غربيّين، مثل الفرنسيَّين: شارل فكتور لانجلوا وشارل سنيوبوس، في أواخر القرن التاسع عشر، أم

كانوا أكاديميّين عربًا عالجوا النقد التاريخي، مثل فريد بن سليمان. فالكتابة التاريخيّة الجديرة بالاحترام، هي تلك التي تنطوي على التزام شروط عديدة:

1- اكتمال جمع المصادر والمراجع اللازمة ما أمكن لتكوين صورة شاملة عن الموضوع الذي يؤرِّخ له.

2- تقييم هذه المصادر، بين أجودها وأجدرها بالثقة، وبين ما يدعو منها إلى الشك أو حتى الاستبعاد.

3- تقييم الوقائع التي ترويها تلك المصادر، لفرز مكوّناتها، وتقدير وزن هذه المكوّنات في مجرى الأحداث التي ستروِيها الرواية التاريخيّة.

4- حسن صوغ الرواية التاريخيّة لإبراز المهم فيها، وتظهيره بموضوعية متجرّدة عن الغرض من أجل إبراز الحقيقة قدر المستطاع.

التزم كريم جمال جميع هذه الشروط، فذهب في جمع المصادر إلى مجموعة واسعة من الكتب، والمجلات والصحف، التي راوحت بين الخبر اليومي، وهو الأدق موضعيًّا في تحديد زمان وقوع الأحداث، وبين الكتب التي حلّلت تلك الأحداث، من وجهات نظر متنوّعة.

ومضى في حسن صوغ الرواية التاريخية لحملة أم كلثوم القومية في مصر والبلدان العربية، وحتى في باريس، إلى حد أن كثيرًا من صفحات الكتاب تصل بالقارئ إلى إدماع عينيه تأثرًا، من الحرارة التي انطوت عليها الكتابة، إحساسًا صادقًا بمجريات تلك الحملة القومية التي أنهت بها كوكب الشرق سيرتها المشرّفة، من أجل «إزالة آثار العدوان»، بمجهود فردي خارق، قامت به فنانة في أواخر عمرها، حين كانت الشيخوخة تحاول إقعادها عن متابعة العمل.

وأضاف المؤلف إلى هذه الحرارة في مواكبة الأحداث سمةً ممتازة أخرى، هي الدقّة الزمانيّة في مسايرته للوقائع، حتى باليوم

والساعة، إضافة إلى الصورة، ليكتمل المشهد أمام القارئ، على أكمل وجه ممكن.

وعلى الرغم من أنّ المؤلف التزم حدود الموضوعيّة المقبولة في الكتابة التاريخيّة، فأنّه لم يمتنع عن إبداء مشاعره الوطنية المصريّة والقوميّة العربيّة، فيما لا يحصى من المواضع، على ما يمكن للقارئ الحصيف أن يقرأه في السطور أو ما بين السطور. وتلك مشاعر لا يمكن لكاتب أن يتجرّد منها، وهو يُشكَر، ولا يؤاخذ عليها بالطبع.

وعلى الرغم من أنّه أظهر في كثير من المواضع تقديرًا لجمال عبد الناصر، وانتصاراته الوطنية والقومية، وانحياز أم كلثوم الواضح إلى القضيّة الوطنية والقومية وإلى قيادة ذلك الزعيم الخالد، فإنّ المؤلف لم يوفَّق في انتقاده الجموع التي نزلت إلى شوارع المدن المصرية يومي 9 و10 يونيو، للمطالبة ببقاء الزعيم المهزوم في 5 يونيو، بإشارته إلى أن تلك الجموع ربما نزلت بتوجيه (في تلميح إلى أن الأمر ربما كان مدبرًا لدى أجهزة الاستخبارات). فإذا كانت أجهزة الاستخبار تستطيع أن تحرك المئات، وربما الألوف، لا الملايين، وهي تستطيع أن تدبِّر الأمور في مصر، فأين دور الملايين العربية التي نزلت يومي 9 و10 يونيو، في شوارع العواصم العربيّة من المحيط إلى الخليج؟ كذلك لم يُبدِ المؤلف تقديرًا للتنحي، يوم 9 يونيو، مع أنّه كان تحمّلًا للمسؤولية يستحق الاحترام، أين منه حكام اليوم؟ وحسنًا فعل المؤلف حين أشار إلى حرب الاستنزاف، بعد النكسة وحتى وفاة عبد الناصر، ولو في إشارات سريعة.

الكتاب كذلك شديد الأهميّة، في تناوله، بوضوح كامل، تلك العلاقة بين الفن والسياسة، أي بين الثقافة والمشاعر الوطنيّة والقوميّة. وهذا أمر يسجَّل في رصيد هذا الكتاب، منذ عنوانه. وقد تجسّدت هذه

العلاقة في مواضع عديدة في الكتاب، لا سيما في السؤال الذي طرحه محمد حسنين هيكل على أم كلثوم، حين سألها كيف استطاعت أن تجمع بين الفن والسياسة.

لكاتب هذا التقديم كتاب عنوانّه: ضرورة التراث، صدر عام 1984، يدقّق في هذه المسألة. لم يكن ذلك الكتاب أول ما صدر في هذا الشأن المهم، بالطبع. فمنذ القرن التاسع عشر، تناول الألماني فريدريش ماينيكه، موضوع الفروق بين القوميّة الفرنسيّة والقومية الألمانية، فوصف الأولى بأنّها Staatsnation، أي قوميّة دولة، فيما الثانية هي Kulturnation، أي قوميّة ثقافة، في توضيح لجذور نشوء هاتين القوميّتين الجارتين. فالقومية الألمانيّة، كما القومية الإيطالية، قامت على الثقافة الواحدة التي كانت منتشرة في دويلات عديدة، فأدّت تلك الثقافة إلى توحيد تلك الدويلات. إذن، الثقافة الواحدة توحّد أبناءها سياسيًا. وكان توحيد الأمة العربيّة من أهم أدوار محمّد عبد الوهّاب وأم كلثوم، وإن لم تكتمل وحدة المشاعر والثقافة هذه بالوحدة السياسيّة... بعد!

في عام 1980، دُعيَت فرقة بيروت للموسيقى العربيّة، التي أسّسها وكان يقودها المايسترو سليم سحّاب، لتقديم حفلتين في باريس. وبينما كنا في العاصمة الفرنسيّة، استقل أعضاء الفرقة حافلة نقل عام، للذهاب إلى قصر فرساي. وفي الحافلة، التي كان فيها ركّاب فرنسيّون بالطبع، جلس أعضاء الفرقة في المؤخرة. وفي لحظة معيّنة، بدأت إحدى المنشدات تغني أغنية أم كلثوم: «على بلد المحبوب ودّيني». في وسط الحافلة كانت تقف سيدة غريبة، تنظر إلينا ونحن نردد الغناء. وعند إحدى المحطات، توقفت الحافلة، وهمّت هذه السيدة بالنزول، فالتفتت إلينا وقالت لنا، بلهجة مغربيّة، وبانفعال متفجّر حار: «ربّنا

ينصركم». هذه الحادثة تعيد تحريك مشاعري كلمّا تذكرتها. لكن الاعتبار في الأمر كثير المغازي هنا؛ فها هي فرقة من المشرق العربي، في إحدى العواصم الغربيّة، وها هي سيّدة من أقصى المغرب العربي، فما الذي جمع تلك الفرقة مع هذه السيّدة بهذا الرباط العاطفي المتين: أنّه التراث، أنّها أم كلثوم.

في كتابي «ضرورة التراث» فصولٌ أربعة، تناول الأول منها تفسيرَ هزيمتنا أمام الحضارة الغربيّة، وردّ الاعتبار لتراثنا العربي. وتناول الفصل الثاني دورَ التراث في الوحدة بين أبناء الثقافة الواحدة، وفي الفصل الثالث عولجَتْ مسألةُ دور التراث في الاستقلال عن الحضارات الأخرى، فيما تناول الفصل الرابع دور التراث بالعلاقة بين الحاكم وشعبه، في ما يسمَّى: الديموقراطيّة.

وكتاب كريم جمال يؤكد تمامًا كل تلك المقولات، في وصفه جولات سيدة الغناء العربي، أفي باريس، أمام الجاليات العربيّة، أم في المغرب وتونس وليبيا ولبنان والكويت والإمارات، حيث أقبل محبو صوت أم كلثوم لسماع غنائها، لكن أيضًا تبرّعًا للمجهود الحربي المصري من أجل إزالة آثار عدوان يونيو 1967.

لقد أماطت الهتافاتُ العروبيّةُ التي أحاطت بأم كلثوم في جولاتها العربية اللّثامَ عن مشاعر دفينة أو ظاهرة، قد لا يعرفها تمامًا جيل اليوم، بعدما تباعد الزمن عن تلك المرحلة الناصرية، حين كانت قلوب الجماهير العربيّة تنبض على وقع واحد، وتسبح في بحر الثقافة الواحدة، الواسعة، البالغة الثراء والحيويّة... أنّه زمان آخر، أعادنا إلى كثير من مشاعره هذا الكتاب الممتاز.

د. ڤكتور سحّاب

مقدمة المؤلف

عزيزي القارئ، هذه الأوراق ليست سيرة تاريخية بمعناها المتعارف عليه لأم كلثوم، ولا محاولة للتلصص على حياتها كعادة معظم ما كُتب عنها في وجودها أو بعد مماتها، ولا محاولة لأرشفة هزيمة عسكرية كبرى مُنيتْ بها مصر والمنطقة العربية مع قرب نهاية عقد الستينيات في القرن الماضي، وأخيرًا هي ليست تحيزًا لمرحلة سياسية أو اتجاهًا أيديولوجيًّا، لإنّني لا أظن نفسي قد بلغت من الجرأة والقدرة على أن أكون حكمًا على مراحل التاريخ وأشخاصه. ولكني لا أكتم عنك سِرًّا عزيزي القارئ: إنّ هدف تلك الأوراق هو محاولة للبحث عن وجه آخر لأم كلثوم، وجه غابت عنا معظم ملامحه منذ وفاتها في منتصف السبعينيات، والتنقيب عن خفايا سيرتها الموازية؛ تلك السيرة الوطنية التي جعلتها في الوعي الشعبي بمنزلة هرم من أهرامات القومية المصرية. فعلى مدار سنوات حياتها الطويلة، لعبت أم كلثوم أدورًا عديدة في تاريخنا الحديث، واختلفت وتنوعت صور حضورها بما يناسب المرحلة ورجالها، ولكن بعد هزيمة 1967، وبعد أن تشربت أم كلثوم دموع النكسة، تلبستها روحٌ فتيّة متخمة بالأمل وقادرة على قهر المحنة، وزاد على طغيان حضورها، كأهم صوت نسائي في تاريخ العروبة، حضورٌ سياسي ووطني، إذ تقدّمت أم كلثوم

المشهد الفني، وجنّدت سلاحها وهو صوتها، ليبرز وجودها في ساحة المعركة كرمز للإرادة المصرية الجسورة التي أبت أن تحطمها الهزيمة، وكنموذج للفنان الذي لم تكسره الشِدّة ولم تُسكتْ له صوتًا، أو ربما صورة جديدة للإلهة المصرية «إيزيس» التي بُعثت هذه المرة من تحت ركام المعركة لتدرك حدود الواجب وتُقدر حجم المأساة، فهبت واقفة وراء المجهود الحربي تجوب الكرة الأرضية من مشرقها إلى مغربها، في محاولة للبعث وإعادة الروح إلى «أوزوريس»، ذلك الإله المتجسد في الشعب الذي منحها هالات القدسية والعصمة، ورفعها إلى مصاف أنبياء الوطن وبطلات السِيَر الشعبية.

لا أدري مدى نجاحي في بلوغ هدفي هذا، ولكن ما أعرفه جيدًا أن كل حكاية في هذا الكتاب قد حدثت بالفعل، وكل معلومة أو جملة حوارية أوردتها بين دفتي هذا العمل، كان مصدرها تحقيق صحفي أو تليفزيوني رافق السيدة أم كلثوم في سنوات المجهود الحربي، لذا حاولت قدر المستطاع وأنا أتبع سيرة السيدة أم كلثوم ومسيرة مجهودها الوطني عقب هزيمة 1967، أن أكون شديد الأمانة في سرد المعلومات ونقل العبارات، لعل ما جمعته يصير في يوم وثيقة تاريخية لذلك الدور الملحمي وتلك المرحلة التاريخية المهمة، لكن ما ستقرأ بالطبع لا يسجل الحالة بالكامل، فهل يمكن للنص المكتوب أن ينقل مشاعر عربي جلس في مسرح «الأولمبيا» في باريس عام 1967 يشاهد ويسمع معجزة الشرق تغرد أمامه، وتزيل من حلقِه قسوة المرارة التي خلفتها الهزيمة؟

وهل يمكن للكلمات أن توضح أثر بُحَّة صوت عابرة من أم كلثوم في نفس تونسيّ أو مغربيّ أو سودانيّ كاد أن يُحلّق في سماء بلاده من نشوة الترنيم الإلهي؟

وكيف لي أن أتبع مجهودًا دام ستَّ سنوات كاملة، لم تتخلّف فيها أم كلثوم يومًا عن أن تكون لبلدها عونًا ولأمّتها سندًا في تلك المحنة القاسية؟

وكيف للحرف أن يسجل جلال مواقف أم كلثوم الاجتماعية في تلك السنوات، وكيف أصبحت بعد الهزيمة يدًا حانية على جراح أهل القناة، وصوتًا عذبًا يشد من أزر المُهَجّرِين من ديارهم، ويقوّي من عزيمتهم على المقاومة واسترداد الأرض والكرامة؟

وكيف للقلم أن يحكي عن حماس مُجند بسيط كان يربض على الجبهة ولا يؤنس وحدته غير صوت أم كلثوم المُعجز وهو يغني من أجل يوم نصره؟ وكيف؟ وكيف؟

أعذروني لتوقفي عند تفاصيل كثيرة صغيرة، ربما لإنّني أراها كبيرة، إذ ربما لأن دونها لن يكتمل المشهد وتتضح الرؤية، ولن ترى عزيزي القارئ صورة أم كلثوم التي حاولتُ أن أجمع لك بعض تفاصيلها، فهذا الكتاب ليس فقط حكاية حب لأم كلثوم، ولا توثيقًا لصفحة مشرقة في تاريخ فن الغناء المصري الحديث، بل إضاءة على دور كبير لسيدة مصرية صعدت بقوة الإيمان والعمل إلى قمة القمم، معتمدة فقط على المثابرة والجهد والإخلاص لأرضها وترابها الذي نبتت منه وعاشت من أجله، ذلك الكتاب مجرد إضاءة عابرة على زمن جميل مضى، زمن كان فنّانه يشبك مع أحداثه، ويعايش أتراح وطنه قبل أفراحه، ويجنّد نفسه في خدمة قضاياه، وهو ما نحتاج إليه اليوم جميعًا، لعلّنا ننجو مما وصلنا إليه من ملهاة ومأساة!

كريم جمال

الإسكندرية، مارس 2021

«أبيت أن أستسلم لليأس بعد النكسة، لم يكن أمامي إلا أحد أمرين: فإمّا إن ألتزم الصمت، وأقبع في ركن من الأنّهيار النفسي، وإمّا أن أمضي بسلاحي، وهو صوتي، أبذل ما أستطيع من جهد من أجل المعركة، واخترت الأمر الثاني.

أحسست أنّني أكون سلبية لو امتنعت عن الغناء، وأحسست أنّني أقف وراء رسالة عبد الناصر، لو غنيت داخل الحدود وخارج الحدود، لأرفع صوتي باسم وطني، وأجمع ما أستطيع أن أجمع من عدة وعتاد من أجل المعركة، لعلي أرد بعض جِميل مصر».

السيدة أم كلثوم، مجلة الهلال، أكتوبر 1971

أم كلثوم معكم في المعركة

لم يكن شعار «أم كلثوم معكم في المعركة» الذي أطلقته الإذاعة المصرية في نهاية شهر مايو 1967 بعيدًا عن الدور الذي لعبته السيدة أم كلثوم طوال سنوات المد الثوري التي أعقبت حركة الضباط في يوليو 1952، فعلى مدار خمسة عشر عامًا هي عمر تلك الثورة حتى ذلك التاريخ، لم تنفصل السيدة أم كلثوم عن الواقع السياسي في الجمهورية الوليدة، ولم تقف بعيدة عن المتغيرات الحادة التي لحقت بالمجتمع بعد الثورة، فشاركت وتفاعلت في كل عيد ومهرجان، وكان صوتها حاضرًا في كل مناسبة وطنية أو قومية، وساعدها ذكاؤها الفطري على تطوير قدراتها على ملاحقة التغيرات السياسية، واستيعاب منطق العصور المتغيرة والوجوه المتعاقبة، فاستطاعت خلال سنوات الثورة الأولى تدعيمَ علاقاتها برجال المرحلة الجديدة، وتجاوز أزمة كونها مطربة العهد البائد وصاحبة العصمة السابقة، إلى تصدير صورة جديد عن نفسها كسيدة مصر الأولى، وصوت لثورتها ورمزًا لقوميتها ووحدتها العربية. وربما ساعد في اكتمال ذلك المشهد تلك العلاقة الخاصة والوثيقة التي ربطت أم كلثوم بقائد الثورة وزعيمها جمال عبد الناصر، فبالإضافة إلى المحبة الشخصية التي كنّها عبد الناصر لأم كلثوم كنموذج لمصرية صعدت بقوة الموهبة إلى قمة الهرم

الاجتماعي، وحطمت كل الحدود الطبقية الفاصلة بين قريتها النائية في الدلتا وفيلتها المنيفة في الزمالك، بالإضافة إلى فرادة موهبتها الغنائية ومشروعها الفني العريق، كان عبد الناصر يرى في أم كلثوم ركنًا أَسَاسِيًّا في تدعيم مشروعه القومي العربي، وسلاحًا سريًا خطيرًا في توصيل أفكاره وتكثيف حضور أهدافه في الوعي العربي، لتشكل تلك الرعاية الناصرية لأم كلثوم نوعًا من أنواع الاعتراف بسلطة فنها على الشخصية المصرية والعربية، في زمن غابت فيه كل أنواع السلطات بجوار سلطة الزعيم والقائد.

وبعيدًا عن تلك الجدلية التاريخية الخاصة بعلاقة الفن والسلطة، إذ يتّفق أغلب المهتمين بذلك الشأن على أن الظاهرة الأكثر حضورًا في التاريخ هي سعي الفن والفنان إلى السلطة والاحتماء بظلها، إلى درجة تصل حدَّ التبعية والطاعة العمياء أحيانًا، خصوصًا في النظم السياسية السلطوية والقمعية، فإن هذه النظرة لا تنفي إمكانية الصيغة المعكوسة؛ أي حاجة السلطة إلى الفن والفنان، واستخدام النظم السياسية باختلاف توجهاتها -ديمقراطية كانت أو قمعية- للقوة الناعمة في ترسيخ أدوات الدولة وتدعيم أفكارها الأيديولوجية، وهنا يتداخل الدور الفني والسياسي في التركيبة الفنية، فيعتبر الفنان نفسه جزءًا من السلطة القائمة، وأنّه طرف في معادلة تدعيم مشروعية النظام وذلك، في الأغلب، بسبب إيمانّه العميق بنبل مهمته في خدمة وطنه، وتقر الدولة ذاتها بسلطة الفنان ونفوذه، فترى فيه نموذجًا يجسد أفكارها وقيمها وعاملًا هامًا في نشر عقيدتها، ويتمكن الفنان من التعبير عن مواقفه السياسية بصورة فنية وجمالية غير محددة سلفًا، إذ تقوم هذه العلاقة في معظم الأحيان على مبدأ التجاوب بين الحركة الفنية والسلطة السياسية، حيث يغيب منطق التوجيهات والإملاءات

أو الموالاة والإقصاء، وهذا ما ميّز فِعلِيًّا علاقة السيدة أم كلثوم بدوائر السلطة في مصر طوال عقود عدة. فبقدر ما كانت تخطو أم كلثوم خطوة تجاه النظام، كان النظام يخطو نحوها خطوتين، خاصّةً في سنوات المجد الناصري.

غير أن العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر قد تجاوزت تمامًا تلك الجدلية، أو حتى ذلك التميز بين ما يُعرف بسلطة الفن في مواجهة فن السلطة، إذ انتقلت العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر إلى دائرة إنسانية أرحب وأرقى وأوسع، فتوثقت العلاقة الشخصية والعائلية بينهما، وصارت أم كلثوم وجهًا مألوفًا في منزل الزعيم، وتوطدت العلاقة بين الزوجة تحية عبد الناصر وأم كلثوم حتى وفاة الأخيرة. كل هذا عمل على تكريس دور سياسي مهم للسيدة أم كلثوم في مرحلة ما بعد يوليو بخلاف دورها الفني كأهم صوت غنائي في تاريخ العروبة، وعمل على رفعها تَدرِيجيًّا إلى مصاف مقدس بعيدًا عن النقد لتجاور الزعيم ذاته في الوعي الشعبي، ويحولها إلى صوت مهم وقادر على التأثير في المعركة المرتقبة التي كانت تستعد الدولة المصرية لخوضها منذ نهاية مايو 1967.

كان الوضع السياسي في القاهرة منذ منتصف شهر مايو 1967 ساخنًا ويتجه نحو لحظة انفجار تتجاوز المحلي إلى الدولي؛ فبعد أن وصلت إلى القاهرة في مطلع الشهر معلومات سوفيتية مغلوطة، تفيد بأن إسرائيل تحشد قواتها العسكرية على حدودها مع الجبهة السورية، صدرت تعليمات من نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية المشير عبد الحكيم عامر (1919، 1967) بالتعبئة العامة في الجمهورية العربية المتحدة يوم 14 مايو 1967، ورفع درجة الاستعداد داخل المؤسسة العسكرية من درجة الاستعداد الدائم إلى الاستعداد

الكامل، ليحشد في ظرف ساعات قليلة أكثر من مئة ألف جندي مصري في سيناء، ويفاجئ كبار القادة داخل المؤسسة العسكرية بتلك الأوامر التي كانت توحي بمواجهة مرتقبة، لم يكن الجيش المصري قادرًا على استيعابها في ذلك الوقت، خصوصًا في ظل وجود ثلثي قوته الكبرى في اليمن منذ عام 1962.

وإكمالًا لمشهد الحشد العسكري، أرسل الفريق أول محمد فوزي (1915، 2000) رئيس هيئة أركان القوات المسلحة في يوم 16 مايو خطابًا إلى قائد قوات الطوارئ الدولية الموجودة على خط المواجهة بين طابا ورفح، يطلب فيه إليه سحب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من قطاع غزة وخليج شرم الشيخ، وهي القوات التي وافقت الجمعية العامة للمنظمة الدولية في نهاية 1956على وضعها في تلك المنطقة في أعقاب العدوان الثلاثي، وذلك وقفًا للأعمال الفدائية، وتفاديًا للاحتكاك العسكري بين القوات المصرية والإسرائيلية، وهو ما كان يضمن حرية الملاحة في البحر الأحمر.

ليأتي يوم الذروة الذي فجر الأزمة كُلِيًّا؛ فبعد أقل من أسبوع من قرار سحب قوات الأمم المتحدة، تحدث الرئيس جمال عبد الناصر في اجتماعه يوم 22 مايو 1967 مع مجموعة من الطيارين العسكريين في قاعدة «أبو صوير» الجوية عن أسباب الأزمة التي افتعلتها إسرائيل بحشد قواتها على الحدود السورية، وحاول تبرير تلك الترتيبات العسكرية المتلاحقة، ليعلن في نهاية كلمته قراره بغلق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وأن العلم الإسرائيلي لن يمر بعد ذلك في الخليج المصري، ليقول في نهاية خطابه إلى ضباطه «بيهددوا بالحرب، اليهود، بنقول لهم أهلًا وسهلًا.. احنا مستعدين للحرب، قواتنا المسلحة وشعبنا، وكلنا مستعدين للحرب، ولكن لا يمكن بأي

حال من الأحوال أن نتنازل عن حق من حقوقنا، هذه المياه هي مياه إقليمية». وفي اليوم التالي، أغلقت مصر فعلًا مضيق تيران، وأعاقت مرور السفن الإسرائيلية إلى ميناء إيلات، ولم يكتف عبد الناصر بذلك، بل أقدم على خطوة جدية أخرى، وهي منع السفن الإسرائيلية وسفن الدول الأخرى من الدخول في خليج العقبة عبر مضيق تيران، وشرح عبد الناصر للسفير السوفيتي أن هذه القرارات تهدف إلى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل عدوان 1956، لتتباين بعد ذلك ردود الأفعال على قرار ناصر، فبينما توالت مظاهر التأييد العنيفة من معظم البلاد العربية وإعلان حالة التعبئة العامة، كان هناك أيضًا مظاهر النقد القوية من الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب وبالطبع إسرائيل ذاتها!

هذا الفيض من القرارات المتلاحقة والواثقة بإفراط في قدراتها العسكرية أثار حماسة المصريين، وخصوصًا تلك الأجيال التي آمنت بالمشروع الناصري وصدقته وتفانت في الدفاع عنه، حتى مع شيوع أخطائه وتداول الألسنة في الخفاء بعضًا من سلبياته. ومثلها مثل بقية المصريين، كانت السيدة أم كلثوم تتابع تلك الأحداث في ترقب وحماس، وتجري اتصالاتها مع دوائرها المطلعة على تفاصيل الموقف لعلها ترصد قراءة سياسية واضحة لذلك المشهد المرتبك، لكن الأكيد والذي لا شك فيه أنّها كانت تؤمن بقدرات الجيش وقائده ورجاله، وهي التي تابعت مع غيرها من المصريين في عام 1966وفي عيد 23 يوليو الأخير، العرض العسكري المهيب الذي أقيم في القاهرة وشهده عبد الناصر ذاته، حيث ظهر الجيش المصري في ذلك العرض قَوِيًّا ومسلحًا وقادرًا على المواجهة، في رسالة واضحة إلى الغرب العدو التاريخي اللدود لناصر ومشروعه، بل أنّها في مساء ذات اليوم

وقفت تغني على مسرح «نادي الضباط» بالزمالك ابتهاجًا بذلك المُنجز الناصري، وتمجيدًا لبطل الثورة الذي حقق المستحيل مؤكدة أنّه «لم تعطنا الدنيا سواه ولا نريد لها سواه[1]»، وربما زادها حماسة ما تحدثت عنه فيما بعد رؤيتها لتحركات الجيش في صبيحة اليوم التالي لقرار التعبئة 15 مايو 1967، وهي تعبر شوارع العاصمة متوجهة نحو سيناء، لتمر بأكثر الميادين القاهرية ازدحامًا بالمرور المدني، حيث عبرت تلك التشكيلات الضخمة على مرأى من الجميع تحت شرفات أكبر السفارات الأجنبية في القاهرة، رغم وجود طريقين رئيسيين خارج العاصمة لتسهيل التحركات العسكرية عند اللزوم، لكن الأمر لم يكن عَفوِيًا؛ فالقيادة المصرية التي كانت تندفع نحو تلك الهاوية بسرعة كبيرة، كانت تريد استعراض قوتها أمام الداخل والخارج، وبث رسالة ثقة لأنصارها ومواطنيها.

وَتَدرِيجيًّا بدأت تعلو نغمة الصدام في الإعلام المصري، وتزداد مشاعر الحمى الوطنية وتسيطر على الموقف صحفيا وإذاعيًّا وتليفزيونِيًّا، وكما أُعلنتْ التعبئة العسكرية، أعلن الفنانون المصريون حالة التعبئة الفنية، وخلال الأسبوع الأخير في شهر مايو 1967 عاش قطاع الموسيقى والغناء تحديدًا في الإذاعة المصرية في حالة طوارئ وتعبئة استعدادًا للمعركة الفاصلة بكل قوة وحماس، الكل كان يغني أناشيد المعركة المرتقبة، والكل يردد الألحان الحماسية ذات الإيقاعات العسكرية، الإستديوهات محجوزة طوال اليوم،

---

(1) قصيدة «الفجر الجديد» من كلمات الشاعر محمود الماحي (1931-1972)، وألحان رياض السنباطي، غنتها السيدة أم كلثوم للمرة الأولى والأخيرة ليلة 23 يوليو 1966 على مسرح «نادي الضباط» بالزمالك وبحضور الرئيس جمال عبد الناصر وكبار قادة الجيش.

والملحنون لا ينامون الليل، وقد بلغت الحماسة ببعضهم أن وضع ثلاثة ألحان لثلاثة أناشيد في يوم واحد، مثل الملحن محمود الشريف (1912، 1990) صاحب نشيد «الله أكبر» درة أناشيد معركة 1956، وخلال الثلاثة أيام الأخيرة في مايو 1967 كان قد سُجل في الإذاعة المصرية ما يقرب من ستين نشيدًا من الأناشيد التي لا يستغرق أداؤها أكثر من دقيقتين. وكانت أم كلثوم تدرك أهمية دورها في تلك اللحظة الفارقة، وضرورة انضمامها إلى ركب التعبئة العامة سريعًا، فأخرجت من أدراجها الخاصة أغنية وطنية بعنوان «راجعين بقوة السلاح/ الله معك» من كلمات الشاعر صلاح جاهين (1930، 1986)، الذي سبق وتعاملت معه أم كلثوم في ثلاثة لقاءات وطنية سابقة هي: «والله زمان يا سلاحي» عام 1956 الذي أصبح بعد ذلك النشيد الوطني المصري، وأغنية «محلاك يا مصري» عام 1957، التي أرخت لمعركة التأميم ومؤامرة انسحاب المرشدين الأجانب من هيئة قناة السويس، أما اللقاء الثالث فكان رائعة «ثوار» عام 1961.

ويروي صلاح جاهين ذاته قصة «راجعين بقوة السلاح» لمجلة «آخر ساعة» الصادرة في 7 يونيو 1967 «لقد استغرقت هذه الأغنية في تأليفها 6 سنوات، وبدأت تأليفها منذ عام 1961 لأني كنت أريد أن أكتب عن فلسطين، وقدمت جزءًا من الأغنية إلى السيدة أم كلثوم في ديواني الذي أصدرته «القمر والطين»، وبالرغم من أنّه كان جزءًا من الأغنية، فإن السيدة أم كلثوم أعجبت بها وظلت في درج مكتبها 6 سنوات حتى خرجت هذه الأيام مع بداية المعركة لتؤدي دورها في المعركة». دفعت أم كلثوم بتلك الأغنية إلى ملحنها التاريخي الأثير رياض السنباطي (1906، 1981) الذي كثف جهوده كي يستطيع إنجاز ذلك اللحن في ظرف أيام قليلة، لكي تستطيع أم كلثوم تقديمه بعد

تسجيله في الإذاعة المصرية في حفلها الشهري القادم في دار «سينما قصر النيل» يوم 1 يونيو 1967.

غير أن الإذاعة المصرية لم تكتفِ بذلك، فعرضت إذاعة «الشرق الأوسط» على السيدة أم كلثوم توجيه بعض النداءات الحماسية إلى الجنود في الخطوط الأمامية، وذلك تأكيدًا لأيديولوجية النصر المرتقب التي حملتها نصوص معظم الأغنيات الوطنية التي سُجلت في تلك المرحلة، وكذلك رفعًا للروح المعنوية الشعبية في الشارع العربي. رحبت السيدة أم كلثوم بالفكرة، ودعت جميع الفنانين ليشاركوها برامج التعبئة، واشتركت أيضًا في تقديم مقترحاتها وأفكارها بخصوص برامج الإذاعة في تلك الأيام، وتذكر مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 7 يونيو 1967، أن السيدة أم كلثوم تقدمت بطلب رسمي إلى القادة العسكريين للسماح لها بالسفر إلى الجبهة المصرية، ومخاطبة الجنود في أرض المعركة على الطبيعة، ولكن خطورة الموقف بالطبع حالت بين رغبتها وبين تنفيذ ذلك الطلب، غير أن تلك النداءات الإذاعية التي ظلت أم كلثوم تتنقل طوال الأسبوع الأخير في شهر مايو بين إستديوهات الإذاعة لتسجليها، لم يُعَدْ بثها بعد ذلك، ولم يصلنا بعض منها حتى ذلك اليوم، وربما لم تصل أيضًا آنذاك إلى الجنود أنفسهم على الجبهة، في ظل حالة التعبئة العامة التي كانت تعيشها القوات المسلحة المصرية. ولكن بالبحث عن نصوص تلك النداءات المهمة، نجد أن مجلة «الكواكب» المصرية الصادرة في يوم الثلاثاء 30 مايو 1967 نشرت نصوص النداءات السبعة التي سجلتها السيدة أم كلثوم في ذلك الأسبوع، لتكون تلك الصفحة في هذه المجلة هي الوثيقة الوحيدة والشاهد الأخير على تلك النداءات الإذاعية، التي ربما تكشف قراءتُها بعضًا من ملامح وعي السيدة أم

كلثوم باللحظة التاريخية، وبَعْضًا من إيمانها بالسلطة القائمة واعتقادها بحتمية النصر في المعركة، وهذه هي نصوص النداءات السبعة:

النداء الأول: «يا جنودنا البواسل.. لم يهتز وجداني فرحة، مثلما اهتز على وقع أقدامكم، وأنتم تعبرون طرقات القاهرة، لتواجهوا العدو الغادر، تأملتكم وطوتني تأملاتي، فإذا بكرامة مصر بين أيديكم، وعزة العرب في قلوبكم، وكبرياء النصر في عيونكم. وخرجت من تأملاتي وقد ملئت أمنا على أمن، واطمئنانًا على اطمئنان. فتوجهت إلى الله أدعوه، يا رب انصرهم.. يا رب».

النداء الثاني: «أخي في وقفتك من أجل الملايين، أخي في كبريائك من أجل حقها في الحياة، تحية من القاهرة، لا بل من كل شبر في أرض العرب، فأنت حيث أنت، من أجل العرب. الله ينصرك.. الله ينصرك».

النداء الثالث: «أناديك يا أخي، أناديك يا رافع السلاح، أناديك يا بطل الكفاح، هذا هو يومك الذي تصنع فيه غدك، هذا هو يومك الثائر ينادي مستقبلك الظافر. أناديك يا أخي، ومن هنا.. من هنا أسمع جواب النداء، نداء الرجولة والعروبة والفداء».

النداء الرابع: «أيها الرجال.. يا عمالقة النصر في بورسعيد، يا مشعل النور في أرض اليمن، يا حماة الوطن العظيم. أيها الرجال.. هذا يومكم يا أعز الرجال».

النداء الخامس: «جنودنا البواسل.. شدني الماضي وأنتم على الطريق إلى الحدود، ورأيتها فتاة صغيرة تسعى تحت رصاص العدو، وترتعد خوفًا وذعرًا. ورأيته يقول: يمكن

ده يحصل بكره لبنتي.. أنتم تعرفون الفتاة، الفتاة فلسطين. وتعرفون الرجل.. رجلنا جمال عبد الناصر. ترى أين هي اليوم هذه الفتاة؟ لتسمع صوته يدعوكم إليها، الله في عونكم ما دمتم في عونها».

النداء السادس: «يا أخي الجندي.. ترقبك عيوننا، وترعاك قلوبنا، ونتوجه بالدعاء إلى الله، أن يحفظك وأن يؤيدك وأن ينصرك».

النداء السابع: «يا أيها الجنود.. يا أبناء الأرض الطيبة، أرض الخير والنماء والعطاء، أرض الرسالات والإيمان والأنبياء. يا حماة الحياة.. هبوا من أجل الحياة، ضد أعداء الحياة».

ربما يتضح من نمط صياغة تلك النداءات الإذاعية عبارات دالة وكاشفة لما كان يدور في نفس السيدة أم كلثوم من حماسة ولهفة في هذه الأيام، وبعض من ملامح قداستها المجتمعية التي أهلتها لتقوم بذلك الدور التعبوي في حشد الجماهير وشحذ الهمم ومخاطبة الجنود على الجبهة من أجل المعركة الفاصلة، إذا عمّقت تلك النداءات الإذاعية التي كانت تذاع يوميًا عبر موجات الإذاعة من إيمان المصريين بأن النصر قادم، وأنّه سوف يمحو بلا أدنى شك مرارة النكبة السابقة، كما أسهمت بشكل واضح في جعل أمل النصر حتمية أكيدة في القلوب والعقول، وإن كنت أعتقد أن يدًا ما من دوائر أم كلثوم الأدبية قد تدخلت وساعدتها في صياغة تلك النداءات، أو ربما أعادت كتابتها بما يتوافق مع الأيديولوجية الاستعراضية التي كان ينشدها النظام في ذلك التوقيت، وأغلب الظن أن الشاعر صالح جودت (1912، 1976) هو الذي تلقف أفكار السيدة أم كلثوم بخصوص تلك النداءات، وأعاد كتابتها بالشكل الذي أذيعت عليه فِعلِيًّا في برامج الإذاعة المصرية.

في تلك الأيام التي بدأت فيها أم كلثوم تسجيل نداءاتها الإذاعية وتجري بروفاتها على أغنيتها المرتقبة «الله معك»، كتب الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل (1923، 2016) في ركنه الشهير «بصراحة» في صحيفة «الأهرام» مقالًا بعنوان «الصدام بالسلاح مع إسرائيل محتم.. لماذا؟»، نشر في العدد الصادر يوم الجمعة 26 مايو 1967، أشار هيكل إلى ملاحظتين مهمتين: الأولى: أنّه يعتقد بحتمية الصدام المسلح بين الجمهورية العربية المتحدة وبين العدو الإسرائيلي، وأن هذا الصدام قد يقع في أي وقت وفي أي مكان على طول خط المواجهة بين القوات المسلحة المصرية وبين قوات العدو الإسرائيلي، وذلك في البر أو الجو أو البحر على المنطقة الممتدة من شمال قطاع غزة إلى الطرف الجنوبي من خليج العقبة عند شرم الشيخ.

أما الملاحظة الثانية وهي النقطة الأخطر في المقال هي أن علينا أن نتوقع أن يوجه العدو إلينا الضربة الأولى في المعركة، لكنه يتعين علينا ونحن ننتظر الضربة الأولى من العدو أن نقلل إلى أقصى حد مستطاع من تأثيرها، ثم تكون الضربة الثانية في المعركة هي ضربتنا الموجهة إليه رَدًّا وردعًا إلى أبعد حد أيضًا.

أثارت الملاحظة الأخيرة في مقال هيكل لغطًا كبيرًا داخل أركان النظام الناصري، وربما أربكت قادة الجيش أنفسهم، وذلك لعدة أسباب؛ فمنذ عام 1957كان ركن «بصراحة» هو المساحة الصحفية الأشهر عَربِيًّا لمقال سياسي أسبوعي، وذلك بالطبع بحكم قرب هيكل من الزعيم عبد الناصر، فلم يكن مقال هيكل يقرأ على أنّه قراءة شخصية لأحداث سياسية، بل كان يُقرأ كمؤشر دقيق ومعبر عن مجمل توجهات السلطة في مصر آنذاك، أي أنّه يعكس تفكير عبد الناصر ذاته وتوجهاته العامة وطنيًّا وقوميًّا. وفي شهادته المهمة التي رواها هيكل ذاته عن

الهزيمة، وأذيعت ضمن برنامجه التليفزيوني الشهير «مع هيكل»[1] ذكر الكاتب الكبير أثر تلك المقال على الدوائر القريبة منه والبعيدة، وكيف عاتبه الرئيس عبد الناصر عليها، وكيف خرجت التظاهرات من «الاتحاد الاشتراكي» لتقف تحت نافذة مكتبه في «الأهرام» رافعة شعار «العقبة.. وما أدراك ما العقبة؟». غير أن هيكل ذكر ضمن معرض حديثه أن السيدة أم كلثوم قد أثارها أيضًا ذلك المقال، وأنّها زارته في نفس اليوم 26 مايو 1967 في مبنى «الأهرام» القديم بشارع الساحة في وسط البلد، لتعاتبه على ما كتبه، وتتهمه بحكم الود القديم بينهما بأنّه يحبط المصريين في هذه الظروف الدقيقة بما يكتب، وأنّه يصدّر الروح الانهزامية لعموم القراء، ثم تعرض عليه كلمات أغنيتها الوطنية الجديدة التي كانت لا تزال في طور الإعداد. ويصف هيكل حالة السيدة أم كلثوم في ذلك اللقاء بأنّها «كانت واخداها الحماسة من غير حدود»، ويذكر هيكل أنّه بعد أن قرأ كلمات الأغنية تعجّب من حمى الموقف المسيطرة على أم كلثوم، لتتهمه السيدة أم كلثوم بالعقلانية التي تصل إلى حد البرود، على حد قول هيكل ذاته. وفي أثناء ذلك اللقاء، اتصل المشير عبد الحكيم عامر مع هيكل تليفونيًا للتباحث في تبعات مقاله، وما قد يثيره من مشكلات داخل المؤسسة العسكرية. وعندما علمت السيدة أم كلثوم بأن هيكل على موعد مع المشير عامر، طلبت إليه أن يبلغ المشير رغبتها في مقابلته لمدة خمس دقائق كي تطمئن على الوضع العسكري. يتذكر هيكل ذلك الموقف «قلت له أم كلثوم كانت بتقول أنّها عاوزة تشوفك خمسة دقائق تستعد، تأخذ جرعة ثقة لأنّه عندها بتعمل كذا، وقلت له الكلام بتاع الغنوة كان

---

(1) أذيعت الحلقة ضمن برنامج «مع هيكل» على قناة «الجزيرة» القطرية بتاريخ 4 ديسمبر 2008.

قدامي واللي وريتهالي أم كلثوم، فقال لي هاتها معاك تقعد معنا عشر دقائق، ثاني يوم السبت (27 مايو 1967) رحت أنا والسيدة أم كلثوم وهي في سيارتي، ودخلنا القيادة العامة وفي مئات الضباط والعساكر شافونا وإحنا طالعين، وطلعنا عند عبد الحكيم عامر».

وفقًا لسردية هيكل التاريخية فإن السيدة أم كلثوم جلست قرابة ربع ساعة مع المشير عبد الحكيم عامر، الذي طمئنها على الموقف العسكري، وأكد لها حتمية الغلبة في المعركة المرتقبة، وعدم وجود ثغرة واحدة يستطع العدو أن ينفذ منها، وأن الانتصار على إسرائيل مسألة وقت ليس إلا، وأن الجيوش العربية الجرارة ستتقابل أخيرًا في تل أبيب، حيث تعاد الأرض المسجونة، كما وصفها صلاح جاهين، إلى أصحابها الأصليين. حَمّس ذلك اللقاء السيدة أم كلثوم وزادها إيمانًا بكلمات أغنيتها الجديدة، فأبلغت المشير عامر أنّها تقدم مبلغ خمسة آلاف جنيه إلى القوات المسلحة تبرعًا منها للمجهود الحربي، ليكون أول تبرع تقدمه السيدة أم كلثوم إلى الجيش المصري مع بداية طلائع حرب الأيام الستة، لكن هيكل الذي كان حاضرًا تلك الجلسة لم يعجبه ما جرى في مكتب المشير، فيذكر في شهادته عن ذلك اليوم «لكن هو، المشير عامر، بدأ يطمئن أم كلثوم وحتى أسلوبه في طمأنة أم كلثوم لم يعجبني، وناقشته فيه بعدما نزلت، لأنّها قعدت معنا ربع ساعة أخذت فيها فنجان قهوة، وبعدين أنا مشيت معها من مكتبه وأخذتها لغاية الأسانسور بتاع القيادة العامة، ونزلتها لغاية عربيتي علشان تأخذها ترجعها تاني البلد».

يؤكد هيكل في روايته عن ذلك اليوم أنّه عاتب المشير على تلك الحماسة المفرطة التي أظهرها في حواره مع السيدة أم كلثوم، والرؤية الواثقة وغير الواقعية لموقف عسكري خطير، لكن عبد الحكيم عامر

في حواره الانفرادي بهيكل بعد مغادرة أم كلثوم لمبنى القيادة العامة ظل على موقفه من قدراتنا على المواجهة، وهو ما أكده أيضًا ذلك المنشور الصادر عن المخابرات الحربية المصرية، الذي أمر بتوزيعه عبد الحكيم مساء يوم 2 يونيو على الضباط والجنود، إذا أكد المنشور أن إسرائيل لن تقدم على عمل عسكري هجومي، وأن الصلابة العربية الراهنة ستجبر العدو بلا شك على تقدير العواقب المترتبة على اندلاع الحرب في المنطقة، كل تلك الثقة العمياء بالقدرة العسكرية دفعت السيدة أم كلثوم إلى التعجيل بتسجيل أغنيتها الوطنية «الله معك»، لتحجز فعلًا إستديو 35 بالإذاعة يوم 30 مايو 1967 لتسجيل الأغنية مع فرقتها الموسيقية، وتعلن أنّها ستكون وصلتها الأولى في حفلها الشهري القادم والأخير لذلك الموسم الغنائي، الذي كان عادة ما يبدأ في الخريف وينتهي مع بشائر الصيف.

وفي عدد «الأخبار» الصادر صباح الخميس 1 يونيو 1967، أكدت الصحيفة في صفحتها التاسعة أن التليفزيون العربي سيذيع حفل السيدة أم كلثوم في تلك الليلة على الهواء مباشرة، في تمام العاشرة مَسَاءً، إذ ستسجل كاميرات التليفزيون العربي الوصلة الأولى والثانية فقط، على أن تذاع الوصلة الثالثة عبر موجات الأثير. وفي تمام الساعة العاشرة إلا ربع مَسَاءً، كان الإذاعي القدير جلال معوض (1920-1997) يجلس في المقصورة الخاصة بفريق الإذاعة داخل دار «سينما قصر النيل» ليراجع كلمته التي سيقدم بها الحفل عبر الموجات الإذاعية، التي ألغت جميع برامجها وانضمت جميع موجاتها لنقل الحفل على الهواء.

وبعد مقدمة طويلة دامت قرابة العشر دقائق، تحدث فيها معوض عن الجيوش العربية التي وصفها بالأسُود الرابضة على الحدود

والواقفة على أعتاب النصر، لتزيل لطخة العار التي لحقت بالعرب في عام النكبة، وتدافع عن الكرامة والشرف والعزة العربية، سُمعت دقات المسرح التقليدية التي كانت تميز بداية وصلات أم كلثوم إيذانًا بفتح الستار، الذي انفرج لتظهر السيدة أم كلثوم على المسرح وخلفها فرقتها الموسيقية ومعهم مجموعة كبيرة من «الكورال» الرجالي الذي كان نادرًا ما يرافق غناءها حتى الوطني منه، وبعد موجة من التصفيق وصيحات التكبير التي كانت توحي بتفرد تلك الليلة الغنائية، بدأت الفرقة الموسيقية في عزف مقدمة الوصلة الأولى أغنية «الله معك» التي وصفها جلال معوض بأنّها تحية من أم كلثوم للجيوش العربية.

غير أن شيئًا ما في مشهد تلك الليلة قد بدا غريبًا على الجماهير العربية التي حضرت الحفل أو شاهدته عبر شاشة التليفزيون، إذ ظهر على المسرح شخص يجلس خلف السيدة أم كلثوم مباشرة ويمسك بورقة صغيرة لتلقينها كلمات الأغنية. كان الثّنائي صلاح جاهين ورياض السنباطي قد فرغ لتوّه من إعداد الأغنية في يوم 30 مايو 1967 ومن ثَم لم يتسنَّ للسيدة أم كلثوم حتى يوم 1 يونيو أن تحفظ كلمات النشيد وترسخ مقاطعه في ذهنها، خصوصًا وأنّها أدخلت العديد من التعديلات الشعرية على النص الأصلي الذي كتبه صلاح جاهين قبل أن تغنيه، وهو ما جعلها تطلب من مدير مسرح دار «سينما قصر النيل» أن يحضر ملقّنًا يساعدها في التقاط مطلع أبيات النشيد، فُطلب إلى الأستاذ سعيد المصري الذي كان يشرف مشرفًا على تسجيلات أم كلثوم بشركة «صوت القاهرة» منذ عام 1959 أن يؤدي هذه المهمة. ويروي سعيد المصري بعضًا من ذكرياته عن ذلك اليوم لموقع «تراثيات»: «جاءتني كلمات أغنية جيش العروبة مع مدير المسرح وذهب بي إلى الست وسلمت عليها، كانت يداها ترتعش كعادتها قبل

أي أغنية، فطمأنتها أني لن أعيقها، فابتسمت، ثم سألتها: هو فيه إيه؟ فأجابتني: الوطن نادانا على غفلة.. فقلت: الفن مش بالطلب.. فردت عليَّ: كل شيء وقت الحروب ينهار.. فسألتها السؤال الأخير: ألم تحفظيها؟، فابتسمت: مينفعش أقولك ربنا يكفيك شر ساعة الغفلة، عشان أنت فيها!».

يكمل سعيد المصري شهادته: «ابتلعت ريقي وطالعت الكلمات وأعجبتني، وجلست خلف الست لأؤدي دوري كملقن أم كلثوم في أغنية جيش العروبة، لكني لم أشعر بطعم لمهمتي ولا حتى سعادتي بالجلوس خلف كوكب الشرق، فصوتها فيه قلق، والصخب من الجمهور ليس إعجابًا وإنما توترًا بحماسة فتوترت أنا الآخر وكنت ألقنها وأنا أعصابي مشدودة».

غنت أم كلثوم وصلتها الأولى بشيء من التعجل، إذ لم تدم أغنية «الله معك» أكثر من اثنتي عشرة دقيقة فقط، بدت فيها أم كلثوم قلقة وعلى غير طبيعتها الغنائية، وربما يرجع ذلك بسبب عدم حفظها للكلمات وعلمها بأنّها أخطأت في أكثر من موضع في بعض المقاطع، وفي الوصلة الثانية فاجأت أم كلثوم الجماهير العربية بغناء قصيدتها الدينية الكبرى «سلوا قلبي» لأمير الشعراء، التي كانت قد انقطعت عن غنائها بعد أدائها التاريخي الأخير لتلك الرائعة في 20 أكتوبر 1958، عندما قدمتها في مهرجان شوقي الذي أقيم في دار الأوبرا المصرية، أما الوصلة الثالثة فقدمت فيها قصيدتها «حديث الروح» من كلمات الفيلسوف الباكستاني محمد إقبال وكانت قد أطلقتها في حفلها الشهري السابق في 4 مايو 1967.

بمتابعة ما كتبته الصحافة المصرية عن الحفلة، نجد احتفاء بتلك الليلة المفصلية، إذ تحدثت مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 7 يونيو

1967 بأنّ القاعة تحولت إلى تظاهرة وطنية كبرى، وأنّ وصلة أم كلثوم الأولى كان أثرها كالمدافع المضادة للعدو، وتنقل ذات المجلة وقع تلك الأغنية في الصحافة الغربية، فتذكر «آخر ساعة» أن برقية عاجلة طارت من لندن إلى مراسل صحيفة «الديلي ميل» الإنجليزية الذي أوفدته صحيفته إلى القاهرة لمتابعة تطورات الموقف في الشرق الأوسط، تطلب إليه تحقيقًا عن السيدة أم كلثوم، وقد ذكر المراسل الإنجليزي في ضمن تحقيقه بأن أغنية أم كلثوم الجديدة «الله معك» كانت أشبه بالقنبلة الذرية التي فجرت مشاعر الجماهير العربية في تلك الليلة من المحيط إلى الخليج. أما عدد مجلة «الكواكب» الصادر في 6 يونيو 1967 فقد نقل مدى تجاوب الجماهير مع وصلات الحفل الثلاث، وبعضًا من الهتافات الحماسية التي أطلقتها الجماهير للتنديد بالاستعمار والدعاء لقواتنا المسلحة، إلّا أنّ أهم ما أشارت إليه «الكواكب» هو تصريح السيدة أم كلثوم نفسها لمحرر المجلة الصحفي سيد فرغلي في نهاية الحفل «الحفلة القادمة ستكون في تل أبيب!».

غير أن ما كان بعد تلك الليلة بأربعة أيام لم تتوقعه أم كلثوم بالطبع. ففي صباح يوم الاثنين 5 يونيو 1967 قطعت الإذاعة المصرية إرسالها في تمام الساعة العاشرة إلا عشر دقائق بتوقيت القاهرة لتعلن أن قوات العدو قد بدأت تهاجم الجمهورية العربية المتحدة، وأن القوات المصرية بدأت في التصدي لها. وكانت العملية العسكرية الإسرائيلية قد بدأت قبل ذلك التوقيت بغارات جوية مكثفة في سيناء قوضت خلالها سلاح الجو المصري، وأصبح مئة ألف جندي في الصحراء بلا غطاء جوّي، لتحسم نتيجة المعركة لصالح إسرائيل عند الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا من صباح ذلك اليوم.

وفي ظرف ساعات قليلة، فقدت القيادة العسكرية أعصابها واتّزانها، وقررت سحب القوات عبر صحارى سيناء نحو قناة السويس يوم 6 يونيو 1967، وذلك بعد أن تكبدت القوات المصرية خسائر عسكرية فادحة. كان جيش العروبة الذي غنت له السيدة أم كلثوم قبل أيام قليلة «ما أروعك ما أعظمك» قد سقط منه خلال ساعات معدودات عشرة آلاف جندي أي عشر عدد جنوده الذين زُج بهم إلى سيناء منذ قرار التعبئة العامة، في حين ترك الجنود والضباط أسلحتهم ومعداتهم العسكرية في عراء الصحراء دون أي مقاومة، ليصبح الطريق إلى القاهرة مفتوحًا والبلد بلا جيش يحميه.

ومن شرفتها المطلة على نيل الزمالك شاهدت السيدة أم كلثوم يوم 7 يونيو 1967 بقايا الجيش المصري وفلوله الجريحة وهي تعود إلى ميادين القاهرة التي غادرتها منذ أيام قليلة، لكن هذه المرة تسربت تلك القوات إلى الميادين وهي مطأطئة الرأس تجر خلفها مشاهد الموت والهزيمة، كانت تلك المشاهد غير مفهومة بالنسبة إلى أم كلثوم وصوت الإذاعي أحمد سعيد (1925، 2018) في «صوت العرب» لا يزال يبشر المصريين بقرب دخول تل أبيب، في حين تؤكد صحيفة «الأخبار» أنّ قواتنا تطارد في عنف مقاتلات أمريكا وبريطانيا، وأننا كبّدنا العدو خسائر فادحة في الطائرات، وأنّ البوارج العربية قد ضربت قلب تل أبيب، وأنّ القوات العراقية والسورية تدك المستعمرات الصهيونية في فلسطين المحتلة. لكنّ ذلك المشهد الكاذب لم يدم طويلًا، فبحلول مساء يوم الجمعة 9 يونيو 1967 تكشفت كل الحقائق وتوقف سيل الأكاذيب، كانت الساعة في حدود السابعة مساء حين أطل جمال عبد الناصر على شاشة التليفزيون العربي بوجه عابس وحزين ليعلن مسؤليته عمّا حدث، ويقرر مواجهة الهزيمة بخطاب عاطفي كتبه

محمد حسنين هيكل بحِرَفِيّة عالية. تابعت السيدة أم كلثوم ذلك الخطاب التاريخي مع عائلتها في الطابق الثاني من فيلتها بالزمالك في لهفة وترقب، لعلها تسمع ما يطمئنها ويكذب الهواجس التي تشغل ذهنها منذ أن علمت بقرار الانسحاب في يوم 7 يونيو 1967. في بداية الخطاب، أقر عبد الناصر بالهزيمة ثم أعلن تنحيه عن السلطة وموقعه الرئاسي. كان حلم النصر في تلك اللحظة يغادر أم كلثوم بلا رجعة كما غادر ملايين العرب، فبعد أن كانت الإذاعات العربية تمهد الطريق لنصر عسكري قريب فإذا بهزيمة مروعة تقع، بدت صورة القائد الذي وضعت معه أم كلثوم وفيه كل آمالها تترنح أمام عينيها، كان القائد الملهم الذي عرف بصلابته يعلن أكبر انكساراته، ويؤكد ضياع أحلامه التي غنت من أجلها أم كلثوم ودغدغت مشاعر ملايين العرب من المحيط إلى الخليج، كان وقع الصدمة عليها في تلك اللحظة هائلًا بقدر الأحلام والثقة الكبيرة التي غنت بها في حفلها الشهري الأخير، وبعد نهاية الخطاب وبينما كان ليل القاهرة الحالك يخيم على المدينة، كانت الجماهير تخرج صارخة من كل بيت وتصيح في كل اتجاه وهي تردد اسم عبد الناصر، وفي شهادته[1] عن تلك الليلة الكئيبة يروي المهندس محمد الدسوقي رئيس مجلس الهيئة العامة للسينما ومدير الإستديوهات المصرية آنذاك، وابن شقيقة السيدة أم كلثوم، أنّها في ذات اللحظة التي أنّهى فيها عبد الناصر خطابه انسحبت باكية من جلستها العائلية، ونزلت إلى «بدروم» فيلتها الذي كان مجهزًا من أجل بروفات أغنياتها، إذ كان من طقوسها الخاصة حين تمر بكارثة كبرى، أن تنزل إلى «بدروم» المنزل، وتعيش في خلوة شبه صامتة،

---

(1) ذكر المهندس محمد الدسوقي تلك الشهادة ضمن تسجيل تليفزيوني في نهاية التسعينيات.

تغلق عليها كل باب، وتطفئ كل الأنوار، وتربط رأسها بمنديل لعله يخفف بعض الآلام، وترفض الحديث مع الجميع. كانت أم كلثوم في تلك اللحظة تريد أن تفكر في المصير والقضية، وأن تجد مخرجًا لأزمة مصر وأزمتها الذاتية. كانت تحاول البحث عن دور قادم لها، ولكن هذه المرة وسط ضباب الهزيمة وقسوة الكابوس!

السيدة أم كلثوم في كواليس دار «سينما قصر النيل» تراجع نشيد «راجعين بقوة السلاح/ الله معك» مع فرقتها الموسيقية، قبل بداية الوصلة الأولى، يوم الخميس 1 يونيو 1967.

مصادر هذا الفصل:،

1، سعيد الشحات، أم كلثوم وحكام مصر، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2010

2، مجموعة باحثين، في تشريح الهزيمة لمجموعة، دار المرايا للإنتاج الثقافي، الطبعة الثانية 2017

3، أناتولي أجاريشيف، ناصر، ترجمة سامي عمارة، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2018

4، حنفي المحلاوي، أم كلثوم وخمسون سنة سياسة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 1999

5، صلاح الدين الحديدي، شاهد على حرب 1967، دار الشروق، القاهرة 1974

6، د. عبد العظيم رمضان، تحطيم الآلهة، قصة حرب يونيو 1967، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية 1988

7، مجموعة مؤلفين، الفن والسلطة، وزارة الثقافة والفنون، الدوحة 2010

8، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 مايو 1967

9، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 27 مايو 1967

10، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 28 مايو 1967

11، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 29 مايو 1967

12، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 30 مايو 1967

13، صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 1 يونيو 1967

14، صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 7 يونيو 1967

15، مجلة الكواكب، القاهرة، 30 مايو 1967

16، مجلة الكواكب، القاهرة، 6 يونيو 1967

17، مجلة الكواكب، القاهرة، 13 يونيو 1967
18، مجلة آخر ساعة، القاهرة، 31 مايو 1967
19، مجلة آخر ساعة، القاهرة، 7 يونيو 1967

المواطنة الأولى

كان وقع هزيمة 5 يونيو 1967 صعبًا على المصريين بعد سنوات من الحلم الناصري، فلم تقتصر المرارة التي خلفتها الهزيمة على مستوى المؤسسة العسكرية فقط، بل إنّها ضربت جذورها في جميع أركان النظام السياسي والاجتماعي الناصري، فكانت النكسة هزيمة مجتمع كامل عاش الحلم وصدق أضغاثه. شعر كل من في الجمهورية أنّه هُزم وهُزمت معه مكانة مصر التي كانت قد تنامت تَدْرِيجيًّا مع مُنجزات ثورة يوليو الصاعدة. وكعادتها، كانت أم كلثوم في طليعة المصريين، تتابع الموقف وتعايش اللحظة منذ أن بدأت بوادر الحرب وكشف الأفق عن غبارها، ولذلك عندما اكتمل المشهد ووضعت الحرب أوزارها شعرت أم كلثوم بالفجيعة، أو كما وصفت هي إحساسها في تلك الأيام «شعرت بأنّ ألمًا يحرق قلبي ويمزقه!».

في الأيام التي أعقبت 5 يونيو ربما قد ساعدها على تكوين تلك الرؤية الحزينة إحساسُها الفطري بالأشياء؛ ذلك الحدس الريفي العميق الذي ينذر صاحبه دائمًا بنوائب الأيام وتأزمها، وبقي السؤال الذي شغل بالها طوال الأيام التي تلت الهزيمة: هل يمكن اختزال النكسة في هزيمة الجيش؟ أم أن المشكلة أعمق من هزيمة مؤسسة واحدة؟

وبعد تفكير طويل دام أيامًا قضتها أم كلثوم في «بدروم» فيلتها، توصلت إلى أن نتيجة حاسمة كان لها بالغ الأثر في تحديد ملامح دورها بعد عام 1967، فقد رأت أم كلثوم أن هزيمة الروح المصرية أكثر خطورة من الهزيمة العسكرية، فالحروب جولات والأيام دُول، وإذا كانت الجولة الأولى من الصدام قد انتهت بالنكسة العسكرية المروعة، المؤقتة، فإن المعركة على المدى البعيد قد فرضت على المصريين ضرورة ثبات الروخ المصرية وإزالة آثار العدوان على المستويين المادي والنفسي، وكذلك وجوب إعادة الثقة إلى المصريين ورفع معنوياتهم، ودعم إيمانهم بحقهم وعدالة قضيتهم، تلك هي الأهداف التي يجب وضعها على قائمة الأولويات لتخطي تلك المرحلة، وهنا أدركت أم كلثوم أهمية دورها؛ فبعد أن كانت مطربة عظيمة تلهب الحماس بصوتها قبل المعركة، وتشيع النشوة والطرب بغنائها في أيام السّلْم، جاء دورها لتعيد للروح المصرية ثباتها، أو كما قالت هي عن تلك اللحظة: «عندئذ رأيت في صوتي رغبة في الانطلاق، وأصبح غنائي مُجندًا لهدف عظيم قادم: تحويل الهزيمة إلى انتصار والثأر من النكسة»، فتحولت أم كلثوم إلى المكافحة التي لا تهدأ لحظة، ولا تكف عن الحركة، ولا تبالي بقواعد النظام الصارم الذي سبق ووضعته لحياتها الفنية ومن قبلها حياتها الخاصة.

فبعد أيام قليلة من صباح يوم الهزيمة، دشنت السيدة أم كلثوم حملتها غير المسبوقة لصالح دعم المجهود الحربي، وبدأتها فِعلِيًّا في يوم 20 يونيو 1967 عندما حولت شيكًا بمبلغ 20 ألف جنيه إسترليني إلى خزانة الدولة المصرية، كانت قد تلقته من دولة الكويت مقابل إذاعة بعض تسجيلاتها الغنائية هناك، ولم يعلن عن ذلك التبرع إلا بعدما سرّب أحد العاملين في وزارة المالية ذلك الخبر إلى الصحافة

المصرية، فكتب تفاصيله الكاتب موسى صبري (1925-1992) في مقال قصير في صحيفة «الأخبار» في 27 يونيو 1967 تحت عنوان: «خذوا القدوة من أم كلثوم» دعا فيه الفنانين المصريين إلى الاقتداء بمواقف أم كلثوم الوطنية، خصوصًا وأن البعض وسط أجواء الهزيمة قد سافر إلى لبنان بحجة حر الصيف في القاهرة!

وقد بادرت أم كلثوم بتكوين هيئة أطلقت عليها «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» لإسعاف الجنود المصابين وتوحيد صف سيدات مصر للمشاركة في حملة دعم المجهود الحربي عبر التبرع بالنقود والمصاغ، ومحاولة منها للإسهام في ترميم المشاعر الوطنية للمرأة المصرية ثم تعبئتها، وأصل فكرة «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» كما راودت أم كلثوم، أنّ المرأة المصرية يجب أن يكون لها دور في المعركة، وأن أولويات الحركة النسوية المصرية لا بد أن تتغير بعد العدوان، فحتى عام 1967 كان في مصر ما يزيد على 147 جمعية نسائية تقريبًا، تنقسم إلى نوعين: إمّا جمعيات تقدم جهودها في مجال معين من الخدمة العامة كالدرن وتحسين الصحة ورعاية المكفوفين، وإمّا جمعيات تقدم جهودها في قطاع محلي معين كحي أو مدينة ولا تتعدى ذلك النطاق الجغرافي. ورأت السيدة أم كلثوم أن هذين النوعين لا يكفيان، كما أنّ مثل هذه الجمعيات تملك من طاقة أعضائها ما يزيد على حاجتها، لكنها لا تعرف كيف تصرف هذه الطاقة في خدمة البلد، فكان لا بد من إخراج هذه الجمعيات عن نوعيتها ومحليتها المحدودة، وتوجيه طاقتها الزائدة إلى خدمة المعركة، بلا تعقيد أو شكل إداري أو شخصية معنوية تسجل في وزارة الشؤون الاجتماعية، مجرد عملية تنسيق وتنشيط لجهود الجمعيات النسائية وتوحيد لصفوفها، لتعبر فوق حدودها المحلية والنوعية، وتصب في

بحر المعركة الأم. وقد شرحت المحامية والرائدة النسوية مفيدة عبد الرحمن (1914-2002) الغرضَ من التجمع في أول اجتماع لهيئة التجمع الوطني الذي شهدته سيدات ثلاث وعشرين جمعية نسائية مصرية، ثم تكلمت السيدة أم كلثوم واقترحت تسميتها «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية»، وقالت إنّه يجب ألا يكون للهيئة مقر أو شكليات، وأنّ مقر تجمّع الهيئة سيختلف في كل مرة، فمرة تجتمع الهيئة في جمعية «النور والأمل» ومرة أخرى في جمعية «تحسين الصحة» وهكذا.

وفي يوم 10 يوليو 1967 دعت السيدة أم كلثوم سيدات الجمعيات النسائية إلى اجتماع كبير عقد في جمعية «النور والأمل» في حي مصر الجديدة، وحضر الاجتماع كل رئيسات وعضوات الهيئات النسائية بالقاهرة، ومثّل جمعية «الهلال الأحمر» في هذا الاجتماع السيدات زهرة رجب واستقلال راضي وعلية الفار وعزيزة حسين وليلى البنان وثريا مكاوي وسلوى عمر مكرم، وكذلك حضرته جميع أعضاء مجلس الأمة. وفي بداية الجلسة قالت أم كلثوم: «إنّ الوقت قد حان لأن تقوم المرأة المصرية بواجبها في هذه الظروف الصعبة»، وأكدت أنّ «التجمع الوطني للمرأة المصرية» يستطيع أن يقوم بعمل كبير من أجل بدء مرحلة جديدة تلتقي فيها جميع سيدات مصر من مختلف المستويات، كل سيدة منهن في ميدان مختلف وفي مجال تخصصها. وقبيل نهاية الاجتماع، تقرر تشكيل لجنة تنفيذية من السيدة استقلال راضي والسيدة ليلى دوس والسيدة مفيدة عبد الرحمن لتنسيق العمل، واختارت اللجنة السيدة أم كلثوم رئيسة للهيئة باعتبارها صاحبة الدعوة إلى تجميع نشاط المرأة العربية في مصر داخل هيئة واحدة، وتقرر إنشاء لجان رئيسية لهيئة التجمع الوطني، لتكون كل لجنة مسؤولة عن

نشاط محدد، وبعد عدة مداولات استقرّ الرأي على إنشاء تلك اللجان الأربع:

1- لجنة للتبرعات: تنظم وسائل جمع التبرعات سواء كان التبرع ذهبًا أو نقودًا أو ملابس، ويتوازى نشاط تلك اللجنة مع النشاط الحكومي الذي كان يجمع أيضًا التبرعات، وحاولت تلك اللجنة أن تبتكر وسائل جديدة لحثّ المواطنين على التبرع، وذلك عن طريق تجنيد الطالبات في كل المحافظات لخدمة ذات الغرض. وفي اجتماع تالٍ بين هيئة مكتب التجمع وأعضاء لجنة التبرعات اتُّفِقَ على أن يكون التبرع النقدي عن طريق دفاتر معونة الشتاء، وقد تسلمت السيدة أم كلثوم 10 دفاتر يوم السبت 15 يوليو 1967وزعتها على أعضاء اللجنة، لتنتشر بعدها السيدات الأعضاء في البيوت والأندية، ويسلّمن الحصيلة لأم كلثوم التي وَرّدت ما جُمع من تبرعات لخزينة معونة الشتاء، وتسلمت دفعة أخرى من الدفاتر.

2- لجنة المستشفيات: وهدفها زيارة الجرحى والجنود والترفيه عنهم، وحل بعض مشكلاتهم المادية، من تأخير صرف مرتباتهم عن طريق التنسيق مع القوات المسلحة المصرية، وحل بعض مشكلاتهم العائلية التي يعجزون عن حلها بحكم التزامهم المستشفيات.

3- لجنة محاربة الإسراف والإشاعات: وكانت تقوم على أساس تقديم كل عضوة مقترحات مبتكرة لتقليل المصروفات وترشيدها من واقع تجربتها اليومية وقراءاتها المتخصصة، بما يتوافق ويتسق مع مفهوم اقتصاد الحرب، حيث تطبقها على نفسها أولًا لتضرب المثل، ثم بالتوعية لكي تنتقل تلك الوسائل إلى باقي السيدات خاصة قطاع ربات البيوت، وقد ركزت تلك اللجنة جهودها في توعية السيدات المصريات بأهمية تلك المرحلة وضرورة الاقتصاد والترشيد.

4- لجنة الاتصال: ومهمتها شرح القضية المصرية على المستويين العربي والعالمي، والتعريف بدور الجمهورية المتحدة خاصة، والأمة العربية عامة في المعركة القائمة، وشرح خطورة إسرائيل على الأمن والسلام الدوليَّين. وفي اجتماع تالٍ بين هيئة مكتب التجمع وأعضاء لجنة الاتصال، تقرر أن تنبثق من اللجنة لجنتان: واحدة للاتصال العربي والثانية للاتصال الدولي، كما تقرر استثمار جهود سيدات السلك الدبلوماسي العربي في عواصم العالم، وكذلك الطالبات المبعوثات، وقد ساعدت وزارة الخارجية المصرية تلك اللجنة عن طريق تقديم جميع التسهيلات التي تدعم عملها وهو ما عملت على تحقيقه أيضًا مصلحة الاستعلامات المصرية.

وفي اليوم التالي، 11 يوليو 1967، عقد اجتماع آخر في منزل السيدة أم كلثوم بالزمالك، وضعت فيه الخطة التفصيلية لعمل التجمع الوطني لعام 1967، لتنسيق عملية جمع التبرعات، التي بلغت خلال الأسبوع الأول فقط من شهر يوليو 15 ألف جنيه قدمتها السيدة أم كلثوم لوزارة الشؤون الاجتماعية.

وعلى صعيد آخر بدأت حملة شعبية لجمع التبرعات بالذهب لتعويض خزانة الدولة المصرية عن نقص العملة الصعبة، وكانت تلك الحملة قد بدأت فِعْلِيًا عقب الهزيمة مباشرة وانتشرت في كل محافظات الجمهورية تقريبًا، بعدما دعا إليها العديد من الشخصيات العامة في مصر وعلى رأسهم الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ محمد التابعي (1896- 1976)، الذي كتب في صحيفة «الأخبار» كلمة يدعو فيها المواطنين للتبرع بدبل الزواج، فكان أول المتبرعين شقيقان من مدينة قليوب الأول اسمه محمد صالح أبو عيطة والثاني أحمد صالح أبو عيطة، اللذان أعجبتهما الفكرة وشكلا مع أسرتهما رابطة

للمشاركة في عملية جمع الذهب إسهامًا في المجهود الحربي، حتى أُطلق على هذه الرابطة آنذاك «كتيبة قليوب». وعلمت السيدة أم كلثوم بقصة الشقيقين، والدور الذي تلعبه أسرتهما في حملة التبرع بالذهب، وأعلنت استعدادها لمقابلتهما، وتحدد الموعد بالفعل في الأسبوع الثالث من يوليو 1967، وحمل الشقيقان بعضًا مما جمعاه من دبل وأقراط ذهبية جُمعت من أهالي مدينة قليوب، ومئة جنيه نقدية تبرع بها ابن الشقيق الثاني، وذهبا إلى السيدة أم كلثوم ومعهما هذه الحصيلة، وبعدما تلقت السيدة أم كلثوم التبرعات عرض عليها الشقيقان أن تزور مدينة قليوب للإسهام في توسيع دائرة التبرع، وتشجيع المواطنين على المشاركة في الحملة، وقالت لهما السيدة أم كلثوم «إننا شعب عظيم، وسننتصر انتصارًا باهرًا، وأنا تحت أمركم بعيدًا عن أي مظاهر، بس أجيب ذهب وأموال علشان وطننا الكبير».

ومنذ ذلك الحين كثفت السيدة أم كلثوم نشاطها في التواصل مع سيدات المجتمع وزوجات الوزراء والدبلوماسيين من أجل جمع أكبر قدر ممكن من الذهب والمصاغ، وفي الواحدة من ظهيرة يوم 17 يوليو 1967 توجهت السيدة أم كلثوم إلى فرع بنك القاهرة بشارع «عدلي»، وقدمت إلى لجنة قبول تبرعات الذهب كيسين كبيرين بداخلهما ألفي جنيه ذهبًا وزنها 15 كيلو و800 جرام، كان الملك سعود بن عبد العزيز أهداهما إليها، وقيمتها بالعملة المصرية آنذاك نحو 15 ألف و168 جنيهًا، وقالت السيدة أم كلثوم إنّ هذه هي الدفعة الأولى من حصيلة التبرعات بالذهب التي تقدمها لصالح المجهود الحربي، وأنّها ستقدم مجموعة أخرى من الحلي الخاصة بها وبعض التحف النادرة التي تقدر قيمتها بأكثر من قيمة الذهب، ومنها قلادة تاريخية مكونة من جنيهات ذهبية أثرية، وحتى تتمكن لجنة قبول التبرعات بالذهب في

بنك القاهرة من تسلم هذه الحصيلة من التبرعات بدقة بعيدًا عن زحام الجمهور الذي تجمع حول أم كلثوم، طلب مدير الفرع إلى السيدة أم كلثوم أن تحدد موعدًا تنتقل فيه اللجنة إلى منزلها لتسلم التبرعات، وفي الموعد المحدد بالفعل ذهب مدير بنك القاهرة السيد إبراهيم الجوهري إلى فيلتها بشارع «أبو الفدا» بالزمالك لتسلم حصيلة التبرعات بنفسه.

ومع أن ذكرى 23 يوليو في ذلك العام قد جاءت ضمن ظروف سياسية وعسكرية قاسية، فإنّ السيدة أم كلثوم لم تشأ أن تنفصل عن ذكرى الثورة وقائدها حتى في أصعب الأوقات، فكما حاول الرئيس جمال عبد الناصر أن يتجاوز مرارة الهزيمة ويدفع بروح المقاومة في خطابه الصريح الذي ألقاه يوم 23 يوليو 1967 في قاعة «الاحتفالات الكبرى» بجامعة القاهرة حين قال في نهاية خطاب طويل «إني أثق أن أجيالًا قادمة سوف تلتفت إلى هذه الفترة وتقول كانت تلك من أقسى فترات نضالهم، لكنهم كانوا على مستوى المسؤولية». وقد كتبت السيدة أم كلثوم مع مجموعة من أدباء وسياسيين مصريين رسائل للنظام تحت عنوان «ما يجب أن يقال في يوليو»، وذلك في عدد «روز اليوسف» الصادر يوم 23 يوليو 1967، والمحتفي بعيد الثورة الخامس عشر، وقد تباينت تلك الرسائل فيما بينها في درجة التأييد والمساندة لثورة يوليو ولشخص جمال عبد الناصر، لكن رسالة السيدة أم كلثوم هي الرسالة الوحيدة التي حملت طياتها المفهوم ذاته الذي تحدث عنه الرئيس عبد الناصر في خطابه في جامعة القاهرة، إذ ربطت أم كلثوم بين مُنْجَز الثورة السابق والمسؤولية التي فرضتها الفترة الحالية «كإنّني ابنة صغيرة تكتب كلمة في أتوجراف والداها! ومتى؟ في لحظات خطر جسيم، إن ثورة يوليو بدأت نبضات حالمة في ضمائرنا،

ولكنها بعد أن تحققت صارت أكبر منا جميعًا، أصبح عمرها في يوم واحد عمر الشعب العريق، وتضاءلنا نحن، وانطوينا تحت جناحها مع الملايين، ومع القائد الذي كان يدعونا دائمًا أن نتعلّم منها لا أن نعلمها، وقد علّمتنا الثورة الكثير، وحمتنا مع الملايين من أبناء الشعب من ذل العبودية ومن خطر الرجعية، والاستعمار، والذبح على أيدي تجار الحروب وصانعي الأحلاف الموجهة ضد الشعوب، واليوم تقف الثورة في مواجهة الخطر،

ويشعر كل مواطن بأنّه قد جاء عليه الدور كي يحميها، يشعر بأنّه قد كبر فجأة ليتولى مسؤولية أكبر من كل ما سبق، وخير ما نقوله في مثل هذا الموقف للثورة هو: «نعم كبرنا.. وسنحميك من كل ما حميتنا منه».

أكدت السيدة أم كلثوم في رسالتها مفهومَ المسؤولية الجماعية في تخطي الهزيمة، وضرورة ربط الواقع المأزوم بالماضي المشرق للثورة، فكانت رسالتها القصيرة تلك هي الأكثر توافقًا مع كلمة الرئيس عبد الناصر في ذكرى ثورة يوليو الخامس عشر، ومع هدفه الذي حدده لهذه المرحلة.

وفي نهاية يوليو 1967 عقدت أم كلثوم اجتماعًا بوصفها رئيسة «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» في منزلها بكبار تجار الذهب في مدينتي القاهرة والإسكندرية، بعد أن وجهت إليهم الدعوة للمشاركة في حملة التبرع بالذهب لصالح المجهود الحربي، إذ بلغت الحصيلة الأولية لتلك الحملة في شهر أغسطس 1967 قرابة ستة عشر كيلو ذهبًا، الأمر الذي ظل يتضاعف طوال شهري أغسطس وسبتمبر 1967، حتى بلغت قيمة ما جمعته السيدة أم كلثوم مع نهايات شهر أكتوبر أكثر من مئة كيلو ذهب.

وعلى المستوى الرسمي، طالبت السيدة أم كلثوم وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية آنذاك حسن عباس زكي (1917- 2014) بوضع خطة لتنظيم عملية جمع التبرعات، مما دفع الوزير إلى أن يدعو جميع تجار الذهب في القاهرة والإسكندرية إلى اجتماع موسع حضرته السيدة أم كلثوم، اتّفق فيه بين التجار والوزارة على طريقة جمع التبرعات، خصوصًا تبرعات الفنانين وطرق إيداعها في البنوك الرسمية. ومن أجل تعزيز حملتها في جمع التبرعات، عادت أم كلثوم إلى تسجيل نداءاتها الإذاعية في بداية شهر أغسطس 1967 داعية الجماهير إلى التبرع والمشاركة في حملتها الكبرى. ورغم أن السيدة أم كلثوم قد بدأت في تسجيل نداءاتها الإذاعية في نهايات مايو 1967، فإن نداءاتها في تلك المرحلة اختلفت بالطبع عما قبل الهزيمة؛ فتحولت من حماسية إلى نداءات يغلب عليها فكرة المشاركة المجتمعية في إزالة آثار العدوان، وغاب طابع حمى الحماسة الوطنية، وقد قضت أم كلثوم في بداية أغسطس 1967 ست ساعات متتالية مع الإذاعي طاهر أبو زيد في إذاعة «الشرق الأوسط» لتسجيل نداءاتها للشعب العربي، التي كان يتبعها عادة مجموعة من أغنياتها التي كانت تختارها بنفسها حتى تتناسب مع تلك النداءات لتذاع في البرنامج اليومي للإذاعة، وبدأت إذاعة تلك النداءات الجديدة في الساعة التاسعة والنصف من مساء 5 أغسطس 1967، حين أذيع عبر موجات الأثير ثلاثة نداءات للسيدة أم كلثوم كان نصهم:

• «إنّهم في أمريكا يقولون ادفع دولارًا نقتل لك عَربِيًا، ونحن نقول: ادفع قرشًا نحمي لك عَربِيًا، فنحن لسنا مصاصي دماء، ولكننا حماة الحرية والسلام.»

• «أغلى من الذهب.. العمل المخلص.»

• «الطابور الخامس هو الجواسيس، والطابور السادس هم الكسالى، والطابور السابع هم المسرفون، ونحن نحارب الجواسيس والكسالى والمسرفين.»

وفي الوقت نفسه كشفت الصحافة المصرية آنذاك عن نيّة أم كلثوم جمع مليون جنيه مصري عبر إقامة أربع وعشرين حفلة في أربع وعشرين مدينة مصرية[1]؛ ليخصص دخل كل حفلة من تلك الحفلات لدعم المجهود الحربي، ودعم أعمال المقاومة العربية، وكانت مدينة دمنهور هي المحطة الأولى التي انطلقت منها شرارة الزحف الغنائي نحو إزالة آثار العدوان.

***

عادت السيدة أم كلثوم لتغني في تلك المدينة بعد ثلاثة وعشرين عَامًا من أخر زيارة فنية لها فيها، فلم يكن الحفل الذي أقيم ليلة 17 أغسطس 1967 في مدينة دمنهور وامتدّ حتى ساعات الفجر الأولى حفلًا عَادِيًا في حياة السيدة أم كلثوم الفنية، بل كان إيذانًا ببدء رحلة طويلة استمرت ما بين أغسطس 1967 حتى سبتمبر 1972، قادت فيها السيدة أم كلثوم التعبئة بصوتها؛ تعبئة المشاعر بالتضحية، وتعبئة الخزائن بالنقود، وتعبئة البنادق بالرصاص، وصالت بفرقتها الموسيقية في أرجاء الأراضي العربية لإثبات بقاء الصوت المصري مجسدًا كُلِيًا في حنجرتها، يقول الكاتب الصحفي الكبير محمود عوض (1942- 2009) الذي لازمها في سنواتها الأخيرة عن بداية تلك المرحلة في حياتها «هنا بالضبط بدأت شخصية أم كلثوم تنمو في اتجاه جديد، بدأت تنمو في السن التي يتكور فيها الجسم ويتجمد

(1) لم تقم السيدة أم كلثوم حفلات لدعم المجهود الحربي إلا في أربع محافظات مصرية فقط هي: البحيرة، الإسكندرية، المنصورة، الغربية.

الوجه وتتساقط الأسنان وتنطفئ الذاكرة، هنا تعود أم كلثوم شابة من جديد، في السن التي تتدهور فيها الصحة، وينكمش العقل، وتضعف الرؤية، وتتثاقل الخطوات، بدأت أم كلثوم تسرع خطواتها إلى هدف جديد. في السن التي يتحول فيها الماضي إلى حاضر، السن التي يبدأ فيها الإنسان يجترّ ماضيه، يبدأ في الحياة على سمعة ماضيه، بدأت أم كلثوم تعيش على سمعة حاضرها، وسمعة مستقبلها. في هذه المرحلة، في هذه السن، في هذه الظروف بدأت أم كلثوم تصعد من جديد إلى قمة جديدة، قمة خيالية، في هذه المرحلة، هذه الأيام، بدأ الجزء الفني في شخصية أم كلثوم يتراجع إلى الخلف، مفسحًا مكانه إلى الجزء الأساسي في شخصيتها، الجزء الوطني. من الآن فصاعدًا سوف تصبح مواطنة أولًا، وفنانة بعد ذلك، المواطنة تقرر، والفنانة تنفذ القرار». عادت أم كلثوم إلى مدينة دمنهور رافعة شعارها الجديد «الفن من أجل المجهود الحربي» ليتحول صوتها منذ تلك الليلة إلى مدفع، ونبراته إلى طلقات، وفرقتها الموسيقية إلى كتيبة جيش كاملة تحارب بها أينما ذهب وأيّما غنت. ذهبت الجماهير في تلك الليلة الحارة في أغسطس 1967 لتستمع إلى سيدة الغناء العربي كعادتها، ولكنها في هذه المرة ذهبت أيضًا لتسهم في إعادة بناء وطن وإزالة آثار عدوان؛ فعلى أرض مركز شباب دمنهور وعلى مساحة ما يقرب من ثمانية آلاف متر، صُمّم مسرح كبير يليق بالسيدة أم كلثوم وحفلتها الأولى من أجل دعم المجهود الحربي، إذ حضر في تلك الليلة ما يقرب من 3500 مستمع من تلك المدينة وما جاورها من قرى، ليدفعوا 38 ألف جنيه ثمنًا لتذاكر الحفل، بعدما بيعت تلك التذاكر في ثلاثة أيام فقط، فكان دخل ذلك الحفل هو الأعلى في سجل حفلات السيدة أم كلثوم حتى ذلك التاريخ، إذ كان دخل حفلاتها في العادة لا يتجاوز

14 ألف جنيه مصري عن الحفلة الواحدة، لكنّ خصوصية ذلك الحفل وغرضه النبيل ضاعفا تلك الحصيلة، خصوصًا بعدما زاد الفرق بين أسعار التذاكر ليتراوح ثمن التذكرة الواحدة من ثلاثة جنيهات حتى مئة جنيه كاملة.

ومن بين تذاكر الحفلة كانت هناك مئتا تذكرة ثمن الواحدة منها مئة جنيه، نفدت عن آخرها منذ اليوم الأول لطرحها في منافذ البيع، بعدما اشتراها مئتا شخص أغلبهم من التجار والمزارعين وأصحاب الورش وصيدلي واحد وعضو في مجلس الأمة. وأول من اشترى واحدة من تلك التذاكر هو السيد توفيق صاحب ورشة لإصلاح السيارات، أما صاحب التذكرة الثانية فهو أنور أبو شقرة تاجر خضروات في البحيرة، وبمجرد أن نفدت جميع التذاكر من فئة المئة جنيه، طلب محافظ البحيرة وجيه أباظة[1] كشفًا بأسمائهم وعناوينهم وزارهم جميعًا في منازلهم ليشكرهم على مساهمتهم في المجهود الحربي، وعندما عجز أحد الذين اشتروا تلك التذاكر ذات المئة جنيه عن الحضور، اتّصل بوجيه أباظة محافظ البحيرة معتذرًا، وأرسل له التذكرة متنازلًا عن قيمتها، لأنّه أراد لهذه القيمة أن تذهب من أجل الإسهام في المجهود الحربي، وطلب أن يعاد بيعها مرة ثانية، وهكذا وصل سعر التذكرة الواحدة إلى مئتي جنيه، وهو شيء لم يسبق له مثيل في حفلات السيدة أم كلثوم. وقد طُبع على تذاكر الحفل عبارة وجيزة توحي بأهمية تلك الليلة وخصوصيتها، فكُتب عليها «تتشرف السيدة أم كلثوم بدعوة سيادتكم لحضور الحفل الذي تقيمه لصالح المجهود الحربي

---

(1) وجيه أباظة (1917-1994) من ضباط الصف الثاني في تنظيم الضباط الأحرار، عين محافظًا للبحيرة عام 1960، وفي عام 1968 عين محافظًا لمحافظة الغربية لعامين، ثم محافظًا للقاهرة لعام واحد فقط.

بمركز الشباب بدمنهور»، وقبل أن يبدأ الحفل وقف فنان تشكيلي من الإسكندرية وقد رسم صورة كبيرة للسيدة أم كلثوم وأعلن في مدخل مركز شباب دمنهور أنّه سيبيعها في المزاد العلني ليضاف ثمن اللوحة إلى حصيلة الحفل المخصصة لدعم المجهود الحربي، فأقبل عليه أحد تجار محافظة البحيرة وأعلن أن صور أم كلثوم أغلى من أن تباع، ودفع ثمنها على الفور مئتين وخمسين جنيهًا أضيفت في نهاية الليلة إلى صافي دخل الحفل.

وما إن انفرجت الستارة حتى وقفت أم كلثوم تحيّي جمهورها الذي احتجبت عنه منذ حفلتها الأخيرة في دار سينما قصر النيل في 1 يونيو 1967، كانت أم كلثوم ترتدي فستانًا من «الأورجانزا» الأخضر وتمسك في يديها مروحة من ريش النعام، وتقدم وجيه أباظة محافظ البحيرة لمصافحتها وقدم لها شيكًا بمبلغ 38 ألف جنيه وسبعمئة وخمسين جنيهًا كتب باسم السيدة أم كلثوم إبراهيم، وحمل رقم 69865 «بنك مصر» فرع مدينة دمنهور محافظة البحيرة. وبعد أن أنهى المحافظ كلمته ظهر على المسرح عضوان من المكتب التنفيذي للعمال والفلاحين في «الاتحاد الاشتراكي»، وصافحا السيدة أم كلثوم وقدما إليها 30 كيلو من سبائك الذهب ثمنها 27,600 جنيه، جمعاها من مواطني البحيرة ومن عمال مقاومة الدودة وعمال النسيج في المحافظة مساهمة منهم في دعم المجهود الحربي، وما إن تسلمتها السيدة أم كلثوم حتى وقعت إيصالًا بالتسلم أقرّت فيه أنّها ستقدم هذه السبائك إلى الجهات المختصة باسم سيدات التجمع الوطني من أجل المجهود الحربي، وقبل أن يغادر المسرح خاطب وجيه أباظة الجماهير المحتشدة في السرادق «إننا لا نستقبلها كفنانة عظيمة فقط يأسرنا فنها ويروينا، وإنما نستقبلها كمناضلة في طليعة المناضلين

بأمضى سلاح، سلاح الفن، خاصة إذا كان فن أم كلثوم». ثم بدأت الفرقة الموسيقية التي صاحبت سيدة الغناء العربي في العزف، وكان من بين أفرادها للمرة الأولى عازف «الكمان» الشاب أحمد السنباطي ابن الموسيقار رياض السنباطي الذي لم يكن تجاوز عمره آنذاك 22 عامًا، بعدما انضمّ إلى الفرقة حديثًا عازفًا على آلة «الكمان». وقبل أن تغني السيدة أم كلثوم تركت مروحتها المصنوعة من ريش النعام والمصبوغة باللون الأخضر بجوار قائد فرقتها محمد عبده صالح، ثم أمسكت بمنديلها التقليدي المصنوع من نفس لون فستانها، لتشدو في وصلتها الأولى بأغنية «أمل حياتي»، إذ غنتها في نحو الساعتين تقريبًا، وطوال الأغنية كانت تبتسم وهي تغني عندما تسمع نداءات سميع من رواد حفلاتها القديمة اسمه الحاج حافظ عبد العال العمدة، وهو يناشدها طالبًا الإعادة، وربما الحاج حافظ هو الوحيد من بين الحضور في تلك الليلة الذي جاء من خارج محافظة البحيرة، وتحديدًا من محافظة الإسكندرية، حيث يعمل هناك تاجرًا شهيرًا، وقد اعتاد على حضور جميع حفلات أم كلثوم الشهرية منذ عام 1939 تقريبًا.

ومن طرائف الحفل التي ذكرتها مجلة «الكواكب» في عددها الصادر يوم 22 أغسطس 1967، أن الحاج حافظ عبد العال العمدة عندما بلغ به الوجد في أثناء الوصلة الأولى وقف وهتف «يا ست ياللي لا قبلك ولا بعدك ست»، وهنا انفجرت أكف السيدات في الحفل تصفيقًا وكأنّهن يسلّمن بمضمون الهتاف، وعندما انساب صوت أم كلثوم حاملًا كلمات «أمل حياتي» وغنت «وسيبني أحلم سيبني» وضمت يداها أمام وجهها كأنّها من صدق التعبير تحلم فعلًا، انطلق صوت العمدة هاتفًا «يا سلام يا أستاذة.. والله العظيم أستاذة جامعي» قاصدًا وصفها بالأستاذة الجامعية!

ويذكر الصحفي جليل البنداري (1916-1968) في زاويته اليومية الشهيرة «أنا والنجوم» في صحيفة «الأخبار» في عدد 8 سبتمبر 1967 بعض ما شاهده من شطحات الحاج حافظ في ذلك الحفل «رأيت في حفلة دمنهور حافظ عبد العال العمدة وهو ينهض متحمسًا ويقول لأم كلثوم: لقد جعلت الدمنهوريين ينطقون الراء! وسألت أحد أبناء البلد عن هذا التعبير، فقال لي أن المعروف عن أهل دمنهور أنّه بخلاء، فلما سمعوا أن أم كلثوم ستزور دمنهور، وتغني لهم، لم يبخلوا بشي، ومنهم من دفع في التذكرة الواحدة مئة جنيه! وقال لي ابن البلد الدمنهوري: إن كل مواطن هناك لا ينطق الحرف الأخير من دمنهور، فهم ينطقوها هكذا: دمنهو! وهذا الاختصار أو الاقتصاد في النطق من فرط الحرص والبخل! ثم جاءت أم كلثوم فجعلتهم يضحون بالفلوس وينطقون بالحرف الأخير من كلمة دمنهور».

وانتهى الحلم بانتهاء وصلتها الأولى، وفي الغرفة الملحقة التي أُقيمت بجوار المسرح وخُصِّصت لأم كلثوم، جلست ثومه تستريح بعد غناء الوصلة الأولى وتستعد لغناء الوصلة الثانية. وبعد دقائق لحق بها في غرفتها المحافظ وجيه أباظة مباركًا على نجاح الوصلة ومتمنيًا لها كل التوفيق في وصلتها الثانية، وكالعادة لم تترك الصحافة أم كلثوم تستريح فحاول مراسل صحيفة «أخبار اليوم» الوصول إليها وسؤالها عن انطباعها في أول ليلة غنائية في مسيرة المجهود الحربي التي أطلقتها أم كلثوم، وعن مدى رضاها عن حجم تبرعات تلك الليلة، وبعد أن أجابته السيدة أم كلثوم عن جميع أسئلته سألها عن حفلها القادم في سلسلة المجهود الحربي، فقالت:

- إنّه سيكون في مدينة الإسكندرية في 31 أغسطس.

سألها:

- وحفلك الثالث؟

أجابت:

- ربما في طنطا أو المنوفية.

سألها:

- وبعد أن تنتهي من الغناء في جميع محافظات الوجه البحري؟

قالت:

- سأغني في محافظات الوجه القبلي!

وفي النهاية سألها:

- هل تتوقعين أن يكون إيراد الحفلات في المحافظات الأخرى مثل إيراد حفلة دمنهور؟

قالت وهي تبتسم:

- أرجو ذلك.

وهنا تدخل وجيه أباظة في الحوار:

- أتمنى أن تكون محافظة البحيرة صاحبة أقل إيراد بين المحافظات!

وانتهت فترة الاستراحة، وبدأت السيدة أم كلثوم تستعد للوصلة الثانية، وما إن رفع الستار حتى ظهر المحافظ وجيه أباظة على المسرح ليقول «إن أم كلثوم ثروة قومية يجب المحافظة عليها، وهي من أجل الحفلات التي قررت إقامتها من أجل دعم المجهود الحربي قد تُضطر للغناء كل خمسة عشر يومًا[1] في محافظة من محافظات مصر، ولهذا طلبت منها أن تغني وصلتين فقط».

---

(1) كانت صحيفة «الأخبار» قد نشرت في عددها الصادر يوم 20 يوليو 1967 خبرًا مفاده أن السيدة أم كلثوم قررت أن تغني كل 15 يومًا من أجل دعم المجهود الحربي، وهو ما لم يحدث فعليًا إلا في شهر أغسطس 1967 فقط، إذ غنت في دمنهور يوم 17 أغسطس وفي الإسكندرية يوم 31 أغسطس 1967.

وهنا صاح أحد الحاضرين:

- إذا كان علشانها بس معلش!

وهذا هو التقليد الذي اتّبعته فيما بعد السيدة أم كلثوم منذ حفل مدينة دمنهور في 17 أغسطس 1967 وحتى حفلتها الشهرية الأخيرة في 3 يناير 1973، إذ اعتمدت نظام الوصلتين فقط في كل حفلاتها، ولم تخالف ذلك التقليد الجديد طوال تلك المدة إلا في حفلتي باريس في 13 و15 نوفمبر 1967 عندما غنت ثلاث وصلات في الحفلين. ويشير البعض إلى دور الرئيس جمال عبد الناصر في تغيير برامجها الغنائية عقب النكسة، فيروي الدكتور منصور فايز الطبيب الخاص للرئيس جمال عبد الناصر وطبيب السيدة أم كلثوم أيضًا في كتابه «مشواري مع عبد الناصر» شهادتَه عن ذلك الأمر «نتيجة الضغط المستمر لم يكن لدى عبد الناصر الوقت لهوايات يروح بها عن نفسه، ولكنه كان حريصًا على سماع السيدة أم كلثوم التي كان يقدرها، ويسألني دائمًا عن صحتها، وحين بدأت السيدة أم كلثوم تشعر ببعض التعب في إحدى المراحل طلب مني أن أقترح عليها أن تكتفي بأغنيتين في الحفلة الواحدة بدلًا من ثلاث، ولما عرضت عليها وافقت وألغت الوصلة الثالثة، وكنت قد طلبت منها ذلك من قبل ولم تستجب لي».

وعقب كلمة المحافظ وجيه أباظة، تقدم رئيس مجلس المدينة ليقدم للسيدة أم كلثوم مفتاحَ مدينة دمنهور الذهبي تقديرًا لدورها وخططتها الوطنية التي أعلنتها في أعقاب النكسة، وكانت تلك المرة الأولى التي يُهدى فيها مفتاح مدينة دمنهور لشخصية عامة مصرية.

غنت أم كلثوم في وصلتها الثانية أغنية «فات الميعاد» في أكثر من ساعتين ونصف الساعة، ورغم أن تسجيلات ذلك الحفل ما زالت في عداد المفقودات، فإنّه يبدو من طول تلك الوصلة الذي أشارت

إليه الصحف أن أم كلثوم كانت في أحسن حالاتها المزاجية، وكانت تلجأ إلى التفاريد الغنائية والارتجالات النغمية طوال الحفل، وقد تحدثت الصحف عن تلك التصرفات في الوصلة الثانية تحديدًا، لدرجة أن الحاج حافظ العمدة بدأ يخرج عن شعوره وبدأ في شد شعر رأسه صائحًا «الجنة خضرة زي فستانك يا ست.. والنبي الجنة تحت رجليكِ!».

وفي نحو الساعة الثانية والنصف صباحًا انتهت أم كلثوم من أداء وصلتها الثانية، وبدأت الجماهير بالخروج من السرادق الكبير، في حين استقلت السيدة أم كلثوم سيارة المحافظ وجيه أباظة لتعود بها إلى منزله حيث قضت ليلتها هناك في ضيافة عائلته. وفي صباح اليوم التالي 18 أغسطس 1967، استيقظت أم كلثوم لتقوم بجولة في المدينة، زارت فيها مع المحافظ مراكز التدريب المهني لأطفال البحيرة، وزارت المستشفى الأميري، وهناك كانت تنتظرها مفاجأة، فقد قدمت لها إدارة المستشفى شيكًا بمبلغ عشرة آلاف جنيه تبرع بها المستشفى للمجهود الحربي، ووضعت السيدة أم كلثوم الشيك مع الشيك الأول الذي تسلمته في الليلة السابقة من المحافظ، وضمّت إليهما شيكًا ثالثًا قيمته مئة وخمسون جنيهًا تبرع به أطفال مركز التدريب المهني لدعم المجهود الحربي.

وانتهت زيارة أم كلثوم لمحافظة البحيرة بعد أن جمعت ما قيمته نحو 75 ألف و900 جنيه مصري للمجهود الحربي. وقد عقّبت صحيفة «أخبار اليوم» في عددها الصادر يوم 19 أغسطس على تلك الحفلة 1967 «إن أم كلثوم ليست مجرد فنانة، وليست مجرد متطوعة لجمع التبرعات ولكنها أكثر من هذا، إنّها صوت مصر.. إنّها وجه مصر».

***

الإسكندرية، أغسطس 1967؛ الثغر لم تكسره الهزيمة ولم تبدل روتينه المعتاد، وفود المصطافين تملأ شواطئ المدينة وشوارعها التي لا تنام صيفًا، حملة في كنائس الإسكندرية للتبرع بالذهب دعمًا للمجهود الحربي، فتيات المدينة يرتدين الزي العسكري ويقتحمن النيران ويحضرن قنابل «المولوتوف» ويقذفن القنابل اليدوية ويتخطين موانع الأسلاك، بعدما نظم لهن مركز التدريب الملحق بمعهد التربية البدنية تلك التدريبات لتخريج دفعة من قائدات المقاومة الشعبية، اللواء محمد البشبيشي نائب مدير أمن الإسكندرية يصرح لصحيفة «الأخبار» بأن جنود المدينة وضباطها قد تنازلوا عن مرتباتهم لتضاف إلى باقي تبرعات الإسكندرية التي ستُسَلم إلى السيدة أم كلثوم في نهاية الشهر لصالح المجهود الحربي، بينما قال العميد عبد الحليم حتاتة مساعد مدير الأمن إن هذه الحفلة ستكون من الحفلات النموذجية التي تحييها أم كلثوم من أجل تخطي العدوان، بعد أن بلغت إيرادات الحفل قبل موعده بأسبوعين ما يزيد على عشرين ألف جنيه، ووصل ثمن التذكرة الواحدة إلى عشرين جنيهًا في الدرجة الأولى. وكان الرئيس عبد الناصر قد طار إلى السودان يوم 29 أغسطس 1967 لحضور مؤتمر القمة الأول بعد الهزيمة والمعروف تَارِيخيًا باسم «اللاءات الثلاث»: لا للصلح ولا للاعتراف ولا للتفاوض مع إسرائيل، ونقلت «الأهرام» في عددها الصادر يوم 31 أغسطس أهم ما جاء في كلمة الزعيم التي دامت 90 دقيقة أمام المؤتمر، وجعلت تصريحه «ليس أمامنا إلا طريق المقاومة ولا سبيل لنا غيرها لأنّها طريق الحياة» عنوانًا رَئِيسِيًا للصحيفة العريقة. وكانت مقاهي الإسكندرية تزدحم في أوقات نشرات الأخبار لمتابعة تصريحات الرئيس بخصوص المعركة والقضية من السودان، وتستعد لاستقبال روادها في المساء الذين لم يتمكنوا من شراء تذاكر

حفل أم كلثوم في استاد المدينة، حيث موعد الإسكندرية وشعبها مع ليلة من لياليها المضيئة، ليلة غناء من أجل الوطن ومن أجل المعركة، ليلة أم كلثوم الثانية في رحلة دعم المجهود الحربي.

في صباح 29 أغسطس 1967، وقبل يومين من حفلها في الثغر، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مدينة الإسكندرية، واستقبلها محافظها محمد حمدي عاشور[1] ومساعد مدير الأمن العميد عبد الحليم حتاتة الذي طلب إليها وبشكل خاص أن تشدو بقصيدة «الأطلال» في الحفل المنتظر، فوعدته السيدة أم كلثوم بذلك، وصرّحت أم كلثوم للكاتب الصحفي جليل البنداري الذي رافقها إلى مدينة الإسكندرية في ذلك اليوم «إنّ وعي المجهود الحربي والادّخار من أجل البلد قد انتشر بين الأطفال الذين يترددون عليها ليقدموا مصروفهم اليومي والشهري من أجل مصر»، ويتوافق ذلك التصريح مع شهادة الكاتب الكبير أنيس منصور الذي كتب من مدينة الإسكندرية مقالًا في صحيفة «الأخبار» الصادرة صباح يوم الحفل، الخميس 31 أغسطس 1967، في زاويته الشهيرة «مواقف» يسرد فيه اللقاء الأول الذي شهده بين السيدة أم كلثوم والمحافظ حمدي عاشور في استاد مدينة الإسكندرية الذي أقامت فيه المحافظة مسرحًا كبيرًا صمّم ديكوره المهندس عبد الحميد الغايش لتغني عليه سيدة الغناء العربي «كان حمدي عاشور يشرح لأم كلثوم نظام الحفلة الكبرى التي ستقيمها في الإسكندرية للمجهود

---

(1) محمد حمدي عاشور (1918-1985) من ضباط الصف الثاني في تنظيم الضباط الأحرار، عين في يوليو 1956 سكرتيرًا عامًا لديوان رئاسة الجمهورية، ثم محافظًا لدمياط عام 1960، ثم محافظًا للإسكندرية ما بين عامي 1961-1968، اختير وزيرًا للتموين والتجارة الداخلية في عام 1970، وفي عام 1972 عُيّن محافظًا للقاهرة واستمر في منصبه حتى عام 1974.

الحربي، فوقفت أم كلثوم لتمسح دمعة على خدها، فقد مر عدد من الأطفال الصغار بالقرب منها يغنون بصوت بريء «إنّا فدائيون، نفنى ولا نهون، إنّا لمنتصرون»، ولم تكن دمعة أم كلثوم لأن أطفالًا يرددون إحدى أغنياتها، ولكن لأنّهم استجابوا لنداء الوطن، ولأنّهم لا يدرون أن أم كلثوم تستمع إليهم، وكان أطفالٌ آخرون قد قدموا لأم كلثوم خواتم صغيرة ذهبية، وسلاسل ذهبية، وكانت هذه الهدايا الصغيرة تساوي أكثر من الذهب، لأنّها رمز للمساهمة من أجل الوطن، ودليل على حب الوطن، وهي الدروس الأولى في التربية الوطنية، وكل ما يقدمه المواطنون في القاهرة وفي دمنهور وفي الإسكندرية ليس مظهرًا من مظاهر الإسهام بشيء، والشيء لا يهم، ولكن المساهمة وروح التضحية هي التي تهم، وهي التي تساوي وزنها ذهبًا وبلاتينًا، بل تساوي ما هو أغلى من كل المعادن الكريمة. وفي هدوء ونظام وإيمان استطاع رجال الأمن في الإسكندرية مصطفى صادق ومحمد البشبيشي وعبد الحليم حتاتة وألوف غيرهم أن يحققوا هذه الأمنية الغالية لأبناء الإسكندرية، ولأم كلثوم أيضًا، لقد اختاروا من أم كلثوم أن تغني لهم قصيدة «الأطلال» وأن تغني «أنت عمري»، وسوف تتقدم أم كلثوم المسرح وتهتف مع قلوب 12 ألف متفرج لجمال عبد الناصر الذي يتعاون مع إخوانه ملوك ورؤساء العرب من أجل وحدة الصف العربي في مواجهة الإرهاب الاستعماري. كانت أم كلثوم تغني هذه المرة تحية لكل من أسهم بشيء، تشكره بأجمل حنجرة وأروع أداء وأصدق حس، وأبدع لحن، وأحلى كلمات، استحقت كوكب الشرق، إعجاب مئات الملايين عشرات السنين، وأم كلثوم مطربة الشعب العربي، تستحق الاحترام ما بقي من العمر، عمرها وعمر الأمة العربية».

وفي صباح يوم الحفل وصلت إلى مدينة الإسكندرية بعثة مكونة من ستة خبراء في التليفزيون الفرنسي، موفدين من قِبل وزارة الثقافة الفرنسية لتصوير حفل مدينة الإسكندرية تليفزيونيًا، استعدادًا لحفل السيدة أم كلثوم المرتقب في مدينة باريس في نوفمبر 1967، وكي يتسنى للتليفزيون الفرنسي عرض لقطات مصورة للسيدة أم كلثوم في أشهر برنامج للمنوعات في فرنسا وكان يعرف باسم «من قريب»، من أجل الترويج لرحلة أم كلثوم الغنائية الأولى في أوروبا، ورافق تلك البعثة كمترجم منذ وصولها إلى مدينة الإسكندرية الدكتور علي السمان (1929–2017) رئيس وكالة أنباء «الشرق الأوسط»، والحاصل على الدكتوراه من باريس عام 1966، الذي قضى سنوات عديدة في أثناء وجوده في باريس صحفيًا في الصحافة اليومية الفرنسية، وهو ما جعل الدولة المصرية تكلّفه بمرافقة معظم الزيارات الثقافية المتبادلة بين الجمهورية العربية المتحدة وفرنسا، مثلما حدث حين رافق الدكتور علي السمان الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (1905–1980) والكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار (1908–1986) في زيارتهما إلى القاهرة في نهاية شهر فبراير عام 1967. وقد ذهل أعضاء البعثة الفرنسية عندما علموا من الدكتور علي السمان أن عدد المتفرجين الذي سوف يحضر حفلة السيدة أم كلثوم في استاد المدينة 12 ألف متفرج، فكانت هذه أول مرة يرون فيها مطربة تغني لهذا العدد الضخم من المستمعين في حفلة واحدة.

ومنذ العاشرة مساءً والمدينة تفتح ذراعيها للقاء المرتقب، ويخفت ضوء المدينة تَدْرِيجيًا ما عدا أنوار المنطقة المحيطة بالإستاد التي تلألأت بأضواء باهرة تعكس فرحة الثغر وشعبه بالنغم الحلو ومجهوده الوطني، وبعد دقائق من توافد الجماهير على الإستاد وصل

السيد الليثي عبد الناصر شقيق الرئيس جمال عبد الناصر وجميع أفراد أسرة الرئيس المقيمين في مدينة الإسكندرية، حيث جلسوا جميعًا في الصف الأول بجوار مقاعد كبار رجال المحافظة ومديرية الأمن. وفي الساعة الحادية عشرة إلا الثلث انفرج الستار عن السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، وبدت أم كلثوم متألقة بفستان من الدانتيل الأخضر المطرز بالقصب، وهو ذات الفستان الذي ارتدته في حفلها الشهري الأخير في دار سينما قصر النيل ليلة 1 يونيو 1967، وممسكة في يديها بمنديل من الشيفون من نفس لون الفستان، وصعد العميد عبد الحليم حتاتة مساعد مدير الأمن إلى خشبة المسرح ليقدم السيدة أم كلثوم إلى جماهير مدينة الإسكندرية، ويعلن منحَها مفتاح المدينة وشهادة تقدير على غرار ما فعلته محافظة البحيرة تقديرًا لجهودها الوطنية، ودعا مساعد مدير الأمن محافظ الإسكندرية السيد حمدي عاشور للصعود إلى المسرح ليسلمها بنفسه مفتاح المدينة نيابة عن مليوني مواطن سكندري، ويعلن عن مجموع التبرعات التي ستقدمها مدينة الإسكندرية في حملة أم كلثوم لصالح المجهود الحربي «أيها المواطنون.. باسم الإسكندرية مدينة العلم والمعرفة والفنون، باسم الإسكندرية بطوائفها وهيئاتها يسعدني أن أرحب وأحيّي فنانة الشعب السيدة أم كلثوم، كما يشرفني أن أعلن أن مجموع تبرعات السيدة أم كلثوم في مجهودها للإسهام في المجهود الحربي قد بلغت 100 ألف جنيه مصري، وبذلك قد أصبحت حصيلة مدينة الإسكندرية أكثر من 400 ألف جنيه مصري». وماج الإستاد بالتصفيق لتلك الحصيلة التي تخطت حصيلة تبرعات الحفل الأول للمجهود الحربي الذي أقامته السيدة أم كلثوم منذ أيام في مدينة دمنهور، وصفقت أم كلثوم للجماهير المحتشدة في الإستاد تحية منها لدورهم في الاستجابة

السيد الليثي عبد الناصر شقيق الرئيس جمال عبد الناصر وجميع أفراد أسرة الرئيس المقيمين في مدينة الإسكندرية، حيث جلسوا جميعًا في الصف الأول بجوار مقاعد كبار رجال المحافظة ومديرية الأمن. وفي الساعة الحادية عشرة إلا الثلث انفرج الستار عن السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، وبدت أم كلثوم متألقة بفستان من الدانتيل الأخضر المطرز بالقصب، وهو ذات الفستان الذي ارتدته في حفلها الشهري الأخير في دار سينما قصر النيل ليلة 1 يونيو 1967، وممسكة في يديها بمنديل من الشيفون من نفس لون الفستان، وصعد العميد عبد الحليم حتاتة مساعد مدير الأمن إلى خشبة المسرح ليقدم السيدة أم كلثوم إلى جماهير مدينة الإسكندرية، ويعلن منحَها مفتاح المدينة وشهادة تقدير على غرار ما فعلته محافظة البحيرة تقديرًا لجهودها الوطنية، ودعا مساعد مدير الأمن محافظ الإسكندرية السيد حمدي عاشور للصعود إلى المسرح ليسلمها بنفسه مفتاح المدينة نيابة عن مليوني مواطن سكندري، ويعلن عن مجموع التبرعات التي ستقدمها مدينة الإسكندرية في حملة أم كلثوم لصالح المجهود الحربي «أيها المواطنون.. باسم الإسكندرية مدينة العلم والمعرفة والفنون، باسم الإسكندرية بطوائفها وهيئاتها يسعدني أن أرحب وأحيّي فنانة الشعب السيدة أم كلثوم، كما يشرفني أن أعلن أن مجموع تبرعات السيدة أم كلثوم في مجهودها للإسهام في المجهود الحربي قد بلغت 100 ألف جنيه مصري، وبذلك قد أصبحت حصيلة مدينة الإسكندرية أكثر من 400 ألف جنيه مصري». وماج الإستاد بالتصفيق لتلك الحصيلة التي تخطت حصيلة تبرعات الحفل الأول للمجهود الحربي الذي أقامته السيدة أم كلثوم منذ أيام في مدينة دمنهور، وصفقت أم كلثوم للجماهير المحتشدة في الإستاد تحية منها لدورهم في الاستجابة

السريعة لحملتها الكبرى، وتسلمت من حمدي عاشور إيصالات التبرعات التي وقعت عليها وسلمتها بدورها إلى مندوب بنك القاهرة، ثم تابع محافظ الإسكندرية «وتفاصيل المبلغ أن إيرادات وتبرعات هذا الحفل قد بلغت 64 ألف جنيه مصري بالإضافة إلى ثمن 40 كيلو من الذهب تبلغ قيمتها 36 ألف جنيه، تقدم بها تجار الصاغة والجواهرجية بمدينة الإسكندرية وسيدات الجمعيات الاجتماعية والخيرية بمحافظة الإسكندرية، وأنّه لشرف كبير أن نهدي السيدة أم كلثوم مفتاح مدينة الإسكندرية. واسمحوا لي أيها الإخوة أن أتلو عليكم شهادة التقدير التي منحناها من محافظة الإسكندرية للسيدة أم كلثوم «تقديرًا للدور الوطني الكبير الذي تقوم به السيدة أم كلثوم إبراهيم في تجميع القوى وحفز النفوس وجمع الأموال التي يقدمها الشعب للمجهود الحربي، يسعدني باسمي وبالنيابة عن محافظة الإسكندرية بجميع هيئاتها الشعبية والرسمية أن أهدي مفتاح مدينة الإسكندرية إلى فنانة الشعب السيدة أم كلثوم إبراهيم، أهديه رمزًا وتقديرًا للجهود الصادقة والخدمات المخلصة والمعاونة البناءة التي بذلتها وتبذلها في سبيل تدعيم المجهود الحربي لجمهوريتنا الفتية تحت قيادة الرئيس المناضل جمال عبد الناصر، إنّني باسمي وباسم الاتحاد الاشتراكي يسعدني أن أقدم الشكر لكل من أسهم في هذا الحفل، وأخص بالذكر رجال الشرطة الذين عملوا جاهدين على نجاح هذا الحفل، أشكر تجار الصاغة والمجوهرات الذين أسهموا في هذا الحفل، أسهموا بما قيمته 30 كيلو من الذهب، وأشكر سيدات الجمعيات الخيرية والاجتماعية بمحافظة الإسكندرية لأنّهن يقدرن إنسانية السيدة أم كلثوم في إحياء حفلاتها على مدار السنة، ويسعدني أن أوجه الشكر لكل من حضر وأسهم في هذا الحفل». وأكمل عاشور

كلمته مشيرًا إلى دور الرئيس جمال عبد الناصر قبل الهزيمة وبعدها «وبعد أيها الإخوة والأصدقاء، في مثل هذا المكان من كل عام، كان يجتمع معنا وتعودنا أن نجتمع مع الرئيس المناضل جمال عبد الناصر، كنا نجتمع به ونستمع إليه هنا في نفس المكان، وقد حالت ظروف العدوان في هذا العام دون أن نلتقي بالرئيس في هذا المكان، وقد اختصرت احتفالاتنا بعيد الثورة الخامس عشر على لقاء واحد تم بين الرئيس وبين الشعب في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، واليوم هو على بعد أميال منا في الخرطوم يناضل ويجاهد من أجل مستقبلنا. اسمحوا لي أن أرفع تحية من شعب الإسكندرية من نبضات قلوبنا تحية وتقديرًا للرئيس المناضل جمال عبد الناصر».

وبمجرد أن أنهى المحافظ كلمته الطويلة، خفتت الأضواء المسلطة على المسرح، وانسابت الحوارية الموسيقية الشهيرة بين آلتي القانون والكونترباص معلنة أن أم كلثوم ستغني في وصلتها الأولى أغنية «أنت عمري»، وركزت البعثة الفرنسية كاميراتها على السيدة أم كلثوم وفرقتها بعدما افترش أعضاؤها ومعهم الدكتور علي السمان الأرض أمام خشبة المسرح مشدودين لذلك الأداء الفريد، يرقبون في شغف ذلك المشهد الباهر، ويلتقطون المشاهد تلو الأخرى لذلك التفاعل الجماهيري الذي يميز أداء السيدة أم كلثوم، وقد أدت أم كلثوم وصلتها الأولى في 62 دقيقة تقريبًا لم تخلُ من تفاريد سريعة في مقطع «الليالي الحلوة والشوق والمحبة»، وبمجرد أن انتهت الوصلة الأولى، حاولت الصحافة المصرية رصد انطباعات رجال البعثة الفرنسية حول ما سمعوه وشاهدوه من أداء السيدة أم كلثوم، فتابعت مجلة «الإذاعة والتليفزيون» الصادرة يوم 9 سبتمبر 1967 تعابير وجوه تلك البعثة الفرنسية، وردود أفعالهم تجاه غناء السيدة أم كلثوم في تلك الليلة،

فبعد أن سجل التليفزيون الفرنسي أغنية «أنت عمري» كاملة، استأذنت البعثة الفرنسية في تسجيل الوصلة الثانية أيضًا بعد موافقة أم كلثوم، وخرجت جاكلين إحدى المخرجات في البعثة من حجرة السيدة أم كلثوم تقول لمن حولها «إنّها سيدة عظيمة، متواضعة، بصوتها وأدائها وفنها، تصبح إمبراطورة الغناء في العالم، لقد استمعت إلى أشهر الأصوات في أوروبا وأمريكا لكنّني لم أجد أروع من هذا الصوت وقوته!». وبين الوصلتين دخل أعضاء البعثة لتسجيل حديث قصير مع أم كلثوم، وألقت المخرجة الفرنسية سؤالها باللغة الفرنسية، وبينما كان الدكتور علي السمان يبحث عن كلمات تسعفه ليترجم السؤال إلى العربية، كانت أم كلثوم قد أجابت عن السؤال، ولم تكتفِ بذلك بل ترجمت السؤال للصحفيين المصرين الحاضرين الذين لا يعرفون الفرنسية، وكان السؤال: طريق الفن طويل وصعب، فكيف استطاعت الفنانة العظيمة أن تجتاز المشوار الطويل، وكيف استطاعت أن تنال إعجاب 100 مليون عربي؟

وكان رد السيدة أم كلثوم باللغة العربية «إنّني أجتاز طريقي بالهواية، هواية الفن، وبالدراسة، دراسة الفن، وبالكفاح، الكفاح عن طريق الفن». وقبل أن تبدأ الوصلة الثانية قالت جاكلين عن صوت أم كلثوم «لو استطعت أن أجمع كل أصوات الطيور، وأحلى أصوات البشر، ثم عصرت كل هذا ليخرج منه صوت واحد، لكان هذا الصوت المُركَّب أقلَّ بكثير من حلاوة صوت تلك السيدة. إنّها صوت، وطاقة، وفن، وأداء عجيب!». وصرح المصور الفرنسي للبعثة لمجلة «الإذاعة والتليفزيون» «هذه العملاقة لا تغني بالعربية، بل تغني بالفن، والفن يفهمه كل الناس، من كل مكان، الناس في باريس يشدها الصوت القوي الملائكي والأداء الجيد والتعبير الصادق، وأظن أن أم

كلثوم أستاذة لا شك في ذلك، في باريس كل الناس تعرفها بالاسم، لكن عندما يستمعون إليها سيدركون على الفور لماذا يحب أم كلثوم مئة مليون عربي». وكان مع البعثة مصورة صحفية ظلت مشدودة طوال الوصلتين لغناء أم كلثوم، وفي نهاية الحفل علقت للصحفيين المصريين على ما سمعته «إنّها سيدة شيك جِدًا، وحشمة، وذوقها أصيل ونابع من تراثكم الشرقي، والصور التي سجلتها لأم كلثوم ستنشر في أشهر صحف باريس»، ويحكي المخرج الفرنسي إيلوار، مخرج البعثة التليفزيونية، للصحفي سيد فهيم ما سمعه في باريس عن أم كلثوم، لا سيما عندما كانت تعلن آراءها السياسية في فترة ما قبل ثورة يوليو 1952، ويذكر ما قالته لإحدى الصحف مطلع عام 1948ومصر في خضم المعركة التفاوضية مع الإنجليز، وبعد الفشل في تدويل القضية المصرية وحِفظ مجلس الأمن لها لأجل غير مسمى مع إدراجها في جدول أعماله، إذ نقلت الصحف الفرنسية عن أم كلثوم قولها: «قضيتنا لن تحل بالسياسة، ولا بمجلس الأمن أو الفقه أو القانون، الوسيلة الوحيدة أمامنا هي القوة»، ويذكر إيلوار أن الصحافة الفرنسية قد علقت على تصريح أم كلثوم هذا بأنّها تعبر بمنطق وأصالة المقاتل، وليس فقط بروح الفنان الذي يعايش هموم وطنه، وأنّها امرأة تستلهم من قضايا مجتمعها ما تُعلي به فنها وتخلده، ويختم المخرج حديثه مع محرر مجلة «الإذاعة والتليفزيون» «إنّ أم كلثوم ستثير دَوِيًّا في باريس!».

وفي وصلتها الثانية غنت أم كلثوم قصيدة «الأطلال» كما وعدت العميد عبد الحليم حتاتة، ورغم أن تلك الوصلة الغنائية ما زالت في عِداد المفقودات الكلثومية، ولم تُذعها الإذاعة المصرية منذ ذلك الحين، فإنّ مجلة «الكواكب» الصادرة يوم 5 سبتمبر 1967 أشارت إلى

أن أم كلثوم أدت تلك الوصلة في ساعة ونصف تقريبًا، بعدما استعاد جمهور مدينة الإسكندرية مقاطع القصيدة مرارًا وتكرارًا، وقرب الساعة الرابعة صباحًا أُطفئت أنوار إستاد مدينة الإسكندرية، وأُسدل الستار عن سيدة الغناء العربي بعدما حرصت الجماهير على صحة نغمهم الخالد، واكتفوا بنظام الوصلتين الغنائيتين كي تستطيع أم كلثوم إكمال مسيرتها ورسالتها الفنية والوطنية في محافظات الجمهورية، وذلك طبقًا للبرنامج الذي وضعته أم كلثوم لزيارة المحافظات من أجل جمع مليون جنيه للمجهود الحربي. وبعد أن عادت السيدة أم كلثوم إلى القاهرة وتحديدًا يوم 20 سبتمبر 1967 استقبلها السيد حسين الشافعي (1918-2005) نائب الرئيس جمال عبد الناصر ووزير الأوقاف والشؤون الاجتماعية آنذاك، حيث قدمت له السيدة أم كلثوم مبلغ 100 ألف جنيه قيمة تبرعات محافظة الإسكندرية لدعم المجهود الحربي، كما قدمت مبلغ 76 ألف جنيه قيمة تبرعات محافظة البحيرة، وسلمته كذلك 4 آلاف دولار كان قد أرسلها إليها الشيخ دعيج السلمان الصباح في الأسبوع الأول شهر أغسطس عام 1967 مشاركة منه في المجهود الحربي، ومنذ ذلك الحين والصحافة المصرية تستعد لمواكبة أولى رحلات أم كلثوم الخارجية من أجل دعم المجهود الحربي، فلا يمر يوم إلا وتذكر الصحف المصرية شيئًا عن رحلة باريس المرتقبة، وعن استعدادات أم كلثوم لتلك الرحلة التي ستشكل علامة فارقة في مسيرتها الفنية والوطنية، وقد اعتمدت الصحافة ألقابًا جديدة صارت تسبق اسم السيدة أم كلثوم في الصحف اليومية مثل: المواطنة الأولى، فنانة الشعب، المناضلة أم كلثوم، بل إن عددًا كبيرًا من الصحفيين الذين كانوا قد اعتادوا الهجوم على عبارات التفخيم التي كان يحلو للإعلام إطلاقها على السيدة أم كلثوم

قبل نكسة 1967، عادوا وراجعوا أنفسهم واعترفوا أنّها تستحق أكثر مما كان يكتب عنها، فيكتب الكاتب والروائي القدير محمد جلال أحمد (1929-2010) مقالًا نشر في مجلة «الإذاعة والتليفزيون» عدد 2 سبتمبر 1967 «أقول الحقيقة، إنني كنت أغضب للعبارات التي كان يحلو لبعض الزملاء الصحفيين إطلاقها على أم كلثوم، ولكن الآن أقول إنّ أم كلثوم تستحق أكثر مما كُتب عنها، ومهما كُتب عنها فلن نعطيها حقها، أنّها الآن وأكاد أقول، بمفردها، تصنع حقيقة مبهرة، تقول إنّ الفلاحة المصرية، بنت التراب، التراب الأسمر تستطيع إذا عملت أن تفوق الكثير من الرجال.

لقد تحولت إلى عملاقة، وحولت الكثيرَ من الصور التي ترسم حول نفسها ملامح العملقة إلى أقزام، أقزام دميمة! ورفعت شعارًا جادًا، فلم يعد العمل العادي الآن يكفي لهذه المرحلة، لقد أعطت الجماهير، قبل المعركة وبعدها، الكثير من الأغنيات للشعب، وهذا لم يعد يكفي، لا بد من أن تضع كل إمكانيتها، إخلاصها، أيامها بل كل حياتها في خدمة التراب المصري، والإنسان المصري، والمستقبل المصري، ونجحت أم كلثوم في أن تقدم نموذجًا فريدًا لهذا الشعار الذي يجب أن يطرح على كل المستويات في مختلف المجالات، تحية للتراب، التراب الذي أعطاها كل هذا الحب، وهذا الإخلاص، وهذا الإيمان».

السيدة أم كلثوم تُسلّم مدير بنك القاهرة حصيلة التبرعات الذهبية في منزلها بالزمالك، يوليو 1967.

السيدة أم كلثوم قبل بداية حفل المجهود الحربي الأول في
مدينة دمنهور، يوم 17 أغسطس 1967.

المحافظ وجيه أباظة يقدم السيدة أم كلثوم للجماهير في
مدينة دمنهور، يوم 17 أغسطس 1967.

أوّل شيك من دخل الحفلات تقدمه السيدة أم كلثوم لصالح المجهود الحربي، نشرته مجلة «آخر ساعة» في عدد 23 أغسطس 1967.

إعلان نشر في الصفحة الأولى من صحيفة «الأخبار» الصادرة في 17 أغسطس 1967.

أم كلثوم تغني في حفلها الثاني لصالح المجهود الحربي في مدينة الإسكندرية، يوم 31 أغسطس 1967.

مصادر هذا الفصل:

1- منصور فايز، مشواري مع عبد الناصر (مذكرات)، دار الهلال، القاهرة 1991.

2- محمود عوض، أم كلثوم التي لا يعرفها أحد، كتاب أخبار اليوم، الطبعة الأولى، القاهرة أغسطس ١٩٦٩.

3- إيزابيلا صياح، أم كلثوم كوكب الشرق، ترجمة سونيا محمود نجا، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2008.

4- صحيفة أخبار اليوم، القاهرة، عدد 19 أغسطس 1967.

5- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 27 يونيو 1967.

6- صحيفة أخبار اليوم، القاهرة، عدد 1 أغسطس 1967.

7- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 11 يوليو 1967.

8- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 18 يوليو 1967.

9- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 18 يوليو 1967.

10- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 22 أغسطس 1967.

11- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 22 أغسطس 1967.

12- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 19 يوليو 1967.

13- مجلة روز اليوسف –القاهرة، عدد 24 يوليو 1967.

14- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 20 يوليو 1967.

15- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 31 يوليو 1967.

16- مجلة المصور، القاهرة، عدد 4 أغسطس 1967.

17- الأخبار، القاهرة، عدد 1 أغسطس 1967.

18- الأخبار، القاهرة، عدد 8 أغسطس 1967.

19- الأخبار، القاهرة، عدد 13 أغسطس 1967.

20- الأخبار، القاهرة، عدد 15 أغسطس 1967.

21- الأخبار، القاهرة، عدد 31 أغسطس 1967.
22- الأهرام، القاهرة، عدد 31 أغسطس 1967.
23- الأخبار، القاهرة، عدد 1 سبتمبر 1967.
24- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 8 سبتمبر 1967.
25، الأخبار، القاهرة، عدد 21 سبتمبر 1967.
26- مجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، عدد 2 سبتمبر 1967.
27- مجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، عدد 9 سبتمبر 1967.
28- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 5 سبتمبر 1967.
29- مجلة المصور، القاهرة، عدد 25 أغسطس 1967.
30- مجلة المصور، القاهرة، عدد 8 سبتمبر 1967.
31- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 20 أكتوبر 1967.
32- مجلة الموعد، لبنان، عدد 6 يونيو 1968.

بعد منتصف الليل
كانت أم كلثوم لا تزال تغني!

على مدار خمسة عقودٍ كاملة هي عمر أم كلثوم الفني، لم تحظَ رحلة خارجية لها باهتمام عالمي وعربي مثلما حَظِيتْ به رحلة باريس في نوفمبر 1967، ليس فقط بسبب اعتبارها البداية الحقيقية لحفلات المجهود الحربي الخارجية، ونقطة الانطلاق لمشروعها الوطني من أجل تخطي آثار المحنة والعدوان، ولكن أيضًا لما قدمته تلك الرحلة من خدمة كبيرة لمشروع أم كلثوم الفني، حين قربت الإنسان الغربي للمرة الأولى من عالم تلك السيدة، وساعدته في إيجاد تفسير لتلك الظاهرة العربية بصورة مباشرة، دون الحاجة إلى وساطة من الإعلام الغربي، الذي ظل سنوات عدة يعتبر أم كلثوم مجرد لغز فني مرتبط بأسرار الشرق المعقدة والبعيدة عن إمكانية التحليل، فالنموذج الفني الغربي يخلو من نظير لأم كلثوم، ولا يوجد في تاريخ الفن الغربي على قدر اتساعه فنانة حازت على تلك الشعبية الجارفة التي حازتها أم كلثوم عقودًا عدة دون أن يصيب تلك القواعد الشعبية تَدرِيجيًّا التآكل والتراجع.

ذلك التفرد جعل السيدة أم كلثوم في نظر المواطن الفرنسي عام

1967 ظاهرة فنية كبرى، وربما صورة فنية لمفهوم «الزعامة الكاريزمية» ذلك المفهوم الذي نما مع صحوة بعض الشعوب في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكن نموذج زعامة أم كلثوم أقدم من زعامات الكاريزما السياسية، وأكثر رسوخًا من بعضها، فجذور قواعدها الشعبية عميقة، وقائمة على بناء واضح ومحكم لا قواعد مصطنعة ولا زائفة، وربما ذلك البناء الفني الذي كانت تقف عليه هو الذي شجعها عندما وفدت إلى «مدينة الجن والملائكة» عام 1967، أن تحاول قدر استطاعتها أن تُقدم نفسها بالطريقة التي اعتادت إلى المجتمع العربي، فلم تلجأ إلى تعديل نمط غنائها أو إعادة صياغته بما يتوافق مع مفهوم الفن الغربي، فكان وقوفها الأسطوري على مسرح «الأولمبيا» في باريس لا يختلف كثيرًا عن وقوفها على مسرح «الأزبكية» في القاهرة. ذلك التناغم والتماهي في المشروع الغنائي وفي علاقتها بالجماهير العربية، جعلها في نظر الغرب نموذجًا موسيقيًا أسطوريًا يكسر أسس الغناء الغربية المألوفة من خلال حنجرة إعجازية لا تُضاهى، وهو ذاته ما عبر عنه الإنجليزي روبرت بلانت عضو فرقة الروك الشهيرة لد زبلين (Led Zeppelin) عند سماعه صوت السيدة أم كلثوم للمرة الأولى بقوله «لقد زعزعت لدي مفهوم الغناء!».

يظن الكثيرون من الكُتاب ممن تناولوا سيرة السيدة أم كلثوم أن رحلة باريس في نوفمبر 1967 التي كانت بداية رحلاتها الخارجية من أجل المجهود الحربي، قد جاء الاتفاق عليها ضمن سلسلة الحفلات التي تعاقدت عليها أم كلثوم في أعقاب النكسة، وذلك ضمن ما أسمته هي «رحلة المليون جنيه» من أجل إزالة آثار العدوان، لكن بالبحث في المصادر الصحفية في سنوات ما قبل الهزيمة، نجد أن بوادر تلك الرحلة قد بدأت فِعْليًّا في التشكل قبل عام 1967، وأنّه اتفق عليها بالفعل

في نهاية عام 1966، وتحديدًا في الأسبوع الأخير من ديسمبر من ذلك العام، فبرغم ما أظهره الجنرال ديجول (1890-1970) من تعاطف مع القضية العربية بعد ساعات من هزيمة 1967، حين لم يتردد في نعت إسرائيل بالمعتدية، وفرضه حظرًا عامًا على إرسال الأسلحة الفرنسية إلى المتحاربين في الجبهتين، فإنّه كان لا يمكن بحال من الأحوال إتمام زيارة أم كلثوم التاريخية تلك أو مجرد التفكير فيها بعد هزيمة 1967، وذلك لأن الوجود الصهيوني داخل فرنسا كان أقوى من الإجراءات الرئاسية، فقد كانت العلاقات الفرنسية الإسرائيلية في مستواها الشعبي قوية بفعل وجود أكبر جالية يهودية في أوروبا على الأراضي الفرنسية، وظهر هذا التأييد الواسع في المساعدات الهائلة التي قدمتها الحركة الصهيونية والمؤسسات اليهودية في فرنسا إلى إسرائيل قبل حرب 1967 مباشرة. وبعد عام واحد من الهزيمة، نما هذا الوجود والتغلغل الصهيوني بشكل واضح، وذلك عندما نشبت مناوشات في فرنسا سقط فيها أكثر من قتيل، بعدما احتج سكان مدينة «بيلفيل» من الجالية العربية على احتفالات الصهاينة الفرنسيين بالذكرى الأولى لانتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة. وطال ذلك الوجود والتأثير الصهيوني مؤسسات سياسية وثقافية كبرى داخل فرنسا، وكان قادرًا على أن يقف عقبة في سبيل أي عمل دعائي للقضية العربية داخل فرنسا بعد النكسة، ولم يكن يوافق على زيارة فنية ذات بُعد سياسي من شخصية عربية مرموقة في حجم السيدة أم كلثوم بهدف الترويج للقضية العربية، لكن إبرام الاتفاق في نهايات عام 1966 بين السيدة أم كلثوم ومدير مسرح «الأولمبيا» سهّل كثيرًا إتمام تلك الزيارة التاريخية، فلم تقدر التنظيمات الصهيونية في باريس على وقف الإجراءات وفسخ التعاقد المُوقّع بين أم كلثوم والمسرح الفرنسي.

وبالعودة إلى الظروف والملابسات التي جاءت فيهما الزيارة المهمة في تاريخ أم كلثوم ومشروعها الوطني، نجد مجلة «المصور» الصادرة في 30 ديسمبر 1966 تذكر بعضًا من تفاصيل ذلك الاتّفاق التاريخي الذي جرى في القاهرة بين السيدة أم كلثوم وبين برونو كوكاتريكس (1914-1979) مالك مسرح «الأولمبيا» ومديره ومكتشف النجوم والنجمات، الذي تعمّد بعد ذلك في كل لقاءاته التليفزيونية أن يسرد هو ذاته وقائعَ ذلك العقد التاريخي وتفاصيله في حياته الفنية ومشوار مسرحه العريق.

ففي مطلع عام 1966 جاء كوكاتريكس إلى القاهرة من أجل البحث عن فرقة شعبية أو فلكلورية تمثل مصر في مهرجان فني كان يقام في قاعته الشهيرة في باريس كل عام، وذلك ضمن سياسة الانفتاح الثقافي على شعوب العالم المختلفة التي انتهجها مسرحه منذ منتصف الستينيات تقريبًا، وهو تحديدًا ما كان يعرف باسم «أولمبيات الميوزيك هول» وكانت تشرف على تنفيذه وزارات الثقافة في العالم بعدما تبناه الوزير والكاتب الفرنسي آندريه مالرو (1901-1976) وأشرف بنفسه على تنفيذه. وخلال الزيارة، التقى كوكاتريكس بوزير الثقافة المصري آنذاك الدكتور ثروت عكاشة (1921-2012)، الرجل الذي ارتبط اسمه بأوسع عملية بناء ثقافي في التاريخ المصري الحديث، والذي اقترح على كوكاتريكس أن يدعو السيدة أم كلثوم للغناء في باريس، وأن يكون غناء أم كلثوم على خشبة مسرحه هو الهدية الكبرى التي يقدمها ذلك المسرح إلى الجالية العربية المقيمة في أوروبا، وفي فرنسا على وجه الخصوص، لكن كوكاتريكس لم يكن يعلم من هي أم كلثوم، وقال للوزير المصري «من هي أم كلثوم؟ أهي راقصة شرقية؟»، فنهره عكاشة بحزم «لا تقل ذلك، إنّها مطربة عظيمة.. إنّها من نسل النبي

محمد، وتغني أول خميس من كل شهر، وإنّ العرب يحجزون تذاكر حفلاتها قبل موعدها بسنتين، فالمسلمون يذهبون للحج إلى مكة، ويأتون لسماع أم كلثوم في القاهرة». حَمّس حديث ثروت عكاشة كوكاتريكس وحاول البحث عن أم كلثوم، فقرأ تحقيقًا صحفيًّا كُتب عنها في مجلة «باري ماتش» الفرنسية، وكان يستغل فرصة لقائه بكل مصري في تلك الزيارة ويسأله عن أم كلثوم، فيقول له الجميع: «إنّ أم كلثوم ظاهرة من ظواهر الفن في القرن العشرين»، فعزم على تنفيذ فكرة الوزير ثروت عكاشة الذي كان مقتنعًا ومتحمّسًا لإتمام الزيارة حماسة كبرى، ومن وزارة الثقافة صحب كوكاتريكس مسؤولًا رسميًّا إلى بيت السيدة أم كلثوم المطل على نيل الزمالك، وبعدما عرض مدير الأولمبيا فكرته على السيدة أم كلثوم، قالت أم كلثوم إنّها ترحب بالفكرة من حيث المبدأ، وحين بدأ الحديث عن الأجر، قالت أم كلثوم إنّها تقاضت عن كل حفلة في رحلة الكويت الأخيرة عام 1963 سبعة آلاف جنيه إسترليني، وأنّها ستقبل نفس الأجر بالنسبة لباريس!

كان وقع الرقم على كوكاتريكس مهولًا، فلم يصدق ما سمعه، وقال إنّه لم يقم حفلات عربية من قبل، وإنّه يقترح عشرة آلاف جنيه إسترليني للحفلتين، لكن أم كلثوم لم تشأ أن ترد كلمتها الأولى والتزمت الصمت، فقال كوكاتريكس «إذن دعيني أدرس الموقف في باريس!». وقبل عودته إلى بلاده، قابل الوزير ثروت عكاشة وشكا له من تعنت أم كلثوم في ما يخص المبلغ الذي اقترحته، إذ كان يأمل أن يتدخل عكاشة في المفاوضات بينه وبين أم كلثوم ويقنعها بتخفيض أجرها، ولكن المفاجأة أن الوزير انتصر لموقف أم كلثوم، وقال لكوكاتريكس «وقّع ذلك العقد وستكون أنت الرابح في النهاية، وستعود إليك أموالك مع ربح وفير فوقها».

عاد كوكاتريكس إلى باريس بعدما اتفق مع فرقة «رضا» على أن ترقص على مسرحه، وبالفعل قدّمت الفرقة عروضها الشعبية على مسرح الأولمبيا في عام 1966، ووقف كوكاتريكس يراقب جمهور فرقة «رضا» من الجاليات العربية ويجري استفتاء سريعًا على حفلات السيدة أم كلثوم، وكانت عبارات عدم التصديق التي سمعها من العرب مصحوبةً بالتمني والتأكيد على أنّه مهما رُفع ثمن التذكرة، فإن جمهور أم كلثوم سيأتي ويسمعها، وتناقل العرب في باريس الخبر، وعندما نشرته إحدى الصحف الفرنسية، تلقى كوكاتريكس مئات المكالمات التليفونية، ولم يبقَ جار له أو صديق من الجالية العربية في باريس إلّا وسأله عن الحدث الكبير، ثم بدأ يستقبل كوكاتريكس عربًا يطلبون حجز تذاكر لحفلتي أم كلثوم، بغض النظر عن موعد تلك الحفلتين!

كل هذا أقنع كوكاتريكس بضرورة التعاقد مع أم كلثوم، وخوض تلك المغامرة المالية إلى نهايتها، وبالفعل بعث إلى القاهرة نائبه الشخصي جون ميشيل بوريس، وأرفق معه نسخة من العقد المقترح بينه وبين أم كلثوم، وفي بيتها في الزمالك أُطلعت أم كلثوم على نسخة العقد في حضور القانوني الكبير محمود أبو عافية، لكن السيدة أم كلثوم وقفت أمام ثلاث نقاط وطلبت إيضاحًا لا يحتمل اللبس فيها.

أولًا: أن يوفر لها كوكاتريكس فرصة لعمل بروفاتها هناك، أي أن يعطيها المسرح ساعات كافية لهذا الغرض قبل حفلتيها.

ثانيًا: أن يتحمل هو مصاريف إقامة الفرقة الموسيقية، لأن هذه المصاريف قد تلتهم الأجر كله إن تحملتها هي.

ثالثًا: أنّها سوف تتفرغ لفنها وحده، ولن تنشغل بأي أمر من الأمور الإدارية والإجراءات والاتصالات بأي جهة رسمية، مثل الجوازات والإقامة وما شابه ذلك.

وبعد أيام عاد الدكتور محمود أبو عافية إلى فيلا السيدة أم كلثوم، وأكد لها أن المتعهد الفرنسي وافق على شروطها كافة، وبالفعل وُقِّع بين الطرفين في ديسمبر 1966، والاتّفاق على شهر أكتوبر موعدًا مبدئيًا للحفلتين، وتحديدًا ليلتي 2 و4 أكتوبر من عام 1967. وفي 2 فبراير 1967 نشرت مجلة «المصور» المصرية نص خطاب أرسله كوكاتريكس إلى الدكتور جلال صادق رئيس المكتب الصحفي بسفارة الجمهورية العربية المتحدة في باريس، جاء فيه «يسرني أن أخبركم بأن حجز التذاكر للحفلتين اللتين ستحييهما السيدة أم كلثوم على مسرح الأولمبيا في 2 و4 أكتوبر 1967، والذي بدأ من أيام قليلة، يلاقي إقبالًا منقطع النظير، لهذا السبب رأيت أن أخبركم من الآن حتى تبادروا إلى حجز الأماكن التي ستحتاجون إليها. وفيما يلي الأسعار التي حددتها:

كرسي أمامي: 120 فرنك (نحو 25 جنيهًا مصريًا وقتئذ)، 200، 150، 120، 100، 50 فرنك فرنسي

اللوج: 300 فرنك

كرسي جانبي: 200، 150 فرنك.

بلكون: 120، 100، 80، 50، 30 فرنك.

وإنّني على استعداد لتزويدكم بكل ما تحتاجون إليه من معلومات، ولحجز ما تريدون من الأماكن من الآن».

ويفسر ذلك الصعود الكبير في أسعار التذاكر والذي نلمسه في نص الرسالة السابقة، رغبةُ مدير مسرح الأولمبيا في تحقيق هامش ربح بعدما عقد تلك الصفقة مع السيدة أم كلثوم ووافق على شروطها المالية الصعبة، فاضطُرَّ إلى مضاعفة ثمن التذاكر التي كانت تباع عادة في ذلك التاريخ بين 30 و50 فرنكا فَرنسيًّا، لتقفز مع أم كلثوم إلى نحو

300 فرنك، وهو مبلغ ضخم في ذلك التاريخ، ولم يكن متاحًا للجميع، وهو ما تذكره كوكاتريكس بعد ذلك «كنت أقول لنفسي لا أدري من سيأتي لأن هذا المبلغ لن يستطيع العامل الجزائري أو التونسي أن يدفعه». وكان ضمن الشروط التي وضعتها أم كلثوم أيضًا، ألا تقام الحفلتان في ليلتين متتاليتين، وذلك ليس بسبب الإرهاق المتوقع، ولكن كي تترك صدى للحفلة الأولى، ويتحقق مردود صحفي في الصحافة الفرنسية والعربية، وهو ما وافق عليه أيضًا.

ثم وقعت الهزيمة العربية في يونيو 1967، وتأزم موقف كوكاتريكس، الذي أدرك بحسه التجاري أن احتمالية فسخ أم كلثوم للتعاقد بحجة النفوذ الإسرائيلي داخل باريس قائمة، وأنّها غير مُلامة على ذلك، لما لمسه بنفسه من نشاط للمنظمات والحركات الصهيونية داخل فرنسا في الأشهر التي أعقبت النكسة، لكن أم كلثوم بعد مرحلة طويلة من التفكير والاستشارة، وبعدما بدأت نشاطها الوطني وإعلانها الإسهام بدخل حفلاتها لصالح المجهود الحربي، تواصلت مع مدير مسرح الأولمبيا، وأكدت له أنّها ستغني في باريس حسب اتفاقهما السابق.

كانت أم كلثوم ترى أن غنائها في العاصمة الفرنسية خطوة ضرورية في إيصال مجموعة من الرسائل المهمة عن القضية المصرية، وكان أهم تلك الرسائل أنّ الإنسان المصري لم يمت ولم تكسره الهزيمة، وأنّ الصوت المصري ما زال قادرًا على الغناء حتى في أحلك الظروف، بالإضافة إلى اعتبارها فرصة لملاقاة الجاليات العربية المقيمة في أوروبا، وهي الجاليات التي شعرت بعد يونيو 1967 بالانكسار والتحطم وضياع الهيبة وسط النفوذ الصهيوني والدعاية المسمومة في معظم دول أوروبا، وصرّحت السيدة أم كلثوم للصحافة المصرية التي

أعلنت عن خبر غنائها في باريس لصالح المجهود الحربي «سوف أغني في أوروبا من أجل قضية بلدي، سوف أقول لكل أوروبي أقابله أن كل «سنتيم» أو «سنت» يدفع لإسرائيل يمكن أن يتحول إلى رصاصة تقتل عربيًّا». وعندما عُرض على مسرح «الأولمبيا» في أغسطس عام 1967 عرض إسرائيلي مدته ثلاث ساعات، ضربت فيه الفرقة الإسرائيلية حدود اللياقة والضيافة، وداومت في كل ليلة من ليالي العرض على الاستهزاء بالعرب وهزيمتهم الحربية في المعركة الأخيرة، وهو ما استهجنه حتى الصحافة الفرنسية، طالب بعض الصحفيين المصريين ردًّا على ذلك العرض من السيدة أم كلثوم أن ترفض الغناء في باريس، وأن تفسخ عقدها مع كوكاتريكس ما دام لم يتدخل ليوقف تلك المهزلة في نظرهم، أو أن تكتب خطابًا شديد اللهجة إلى وزير الثقافة الفرنسي أندريه مالرو تحتج فيه على نوعية تلك العروض الفنية، والحقيقة أن السيدة أم كلثوم التزمت الصمت تمامًا، بعدما نشرت مجلة «المصور» تلك المطالب، وعندما سُئلت أم كلثوم أكدت أن منافع الغناء في باريس تفوق رفضها الغناء هناك، وأن الوقوف على تلك الخشبة يعني مخاطبة الجمهور الغربي للمرة الأولى، وتوصيل رسائل مهمة للشعوب الغربية التي اعتادت أن تسمع فقط عن إسرائيل ومن إسرائيل!

وبسبب نشاطها الداخلي وتكريس معظم وقتها في تلك المرحلة في مساعدة «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» التي أسستها من أجل المجهود الوطني، والتي تضاعف نشاطها في شهر سبتمبر من عام 1967، ليضاف إليه مهامها العديدة مهمة الترويج للقضية العربية في المطارات والموانئ المصرية، طالبت السيدة أم كلثوم السيد كوكاتريكس بتأجيل حفلتي باريس لشهر نوفمبر بدلًا من أكتوبر،

وبالفعل نشرت الصحافة اليومية المصرية في صباح يوم 18 سبتمبر 1967 ذلك الخبر، ونشرت «الأهرام» «رأت السيدة أم كلثوم أنّ مكانها الطبيعي ومجال نشاطها في الوقت الحاضر يجب أن يكون على أرض الوطن، وهكذا كان قرارها تأجيل موسم باريس شهرين حتى تتضح الظروف»، وبالطبع أدخلت تلك التعديلات المفاجئة بعض القلق في نفس كوكاتريكس الذي رد على السيدة أم كلثوم بالموافقة، وأنّه سيزور القاهرة قريبًا من أجل مقابلتها ومناقشتها في بعض التفاصيل المهمة. وبالفعل وصل إلى القاهرة يوم 9 أكتوبر 1967، إذ قضى يومًا واحدًا في مصر، قابل فيه السيدة أم كلثوم لمدة ساعة واحدة فقط، اتّفقا خلالها اتفاقًا نهائيًا على إقامة حفلتيها في باريس يومي 13 و15 نوفمبر. وعقب عودته إلى باريس، أرسل إلى السيدة أم كلثوم نسخًا من الإعلانات التي وُضِعَتْ في شوارع العاصمة الفرنسية، وأمام مسرح الأولمبيا من أجل الحفلتين، وكانت الإعلانات تحمل صورة أم كلثوم ومنقوشًا عليها الحرف الأول من اسمها باللغة الفرنسية.

ومنذ الإعلان النهائي عن قدوم السيدة أم كلثوم إلى باريس في شهر نوفمبر 1967، والدعاية الفرنسية لذلك الحدث لا تتوقف، ورغم أن الإقبال على شراء التذاكر قد بدأ فِعليًا منذ الإشارات الأولى للحدث في شهر ديسمبر عام 1966، فإنّ الوضع بعد نكسة يونيو اختلف قليلًا؛ فضعف ذلك الإقبال جِدًا، وعزفت الجماهير عن شراء التذاكر، وذلك لاعتقاد ترسخ في ذهن معظم الجاليات العربية في باريس أن قدوم السيدة أم كلثوم إلى أوروبا في ظل تلك الظروف العصيبة، والدعاية الإسرائيلية المسيطرة على الصحف الفرنسية والمخترقة للمجتمع الغربي أمرٌ شبه مستحيل، وأنّه رغم كل تلك الترتيبات المعلنة، فإنّ أم كلثوم سوف تتراجع في اللحظة الأخيرة عن القدوم إلى باريس على

الأقل خوفًا على حياتها. وقد حاول كوكاتريكس بشتّى الطرق زيادة الإقبال على شراء التذاكر، بعدما تأكد له أن العناصر المستهدفة لإعادة تحريك عجلة بيع التذاكر توجد في مناطق تمركز الجاليات العربية في باريس وما جاورها من مدن، فلجأ إلى نقط بيع متحركة جابت أماكن إقامة العرب في باريس وركز على العمال البسطاء الذين أدرك مدى ارتباطهم روحيًا بغناء أم كلثوم، ولكن كل تلك المحاولات لم تأتِ بفائدة تذكر، وظلت حركة البيع متوقفة تمامًا، ويحكي كوكاتريكس أنّه كان يقول لهم في شعاراته الدعائية «أم كلثوم في شارع «Capucines»» وهو الشارع الذي يقع فيه مسرحه، فكان العرب يستهزئون بكلامه مرددين «آه يا عيني!»، ويتذكر جون ميشيل بوريس نائب كوكاتريكس تلك الأيام لأحد البرامج العربية التي تذاع من باريس «كانت التذاكر والإعلانات أمام مدخل القاعة دون أدنى بيعٍ يذكر، وقد أرسلت أحد المندوبين لبيع التذاكر في المصانع والأحياء التي توجد فيها الجالية العربية، لكنّه عاد مثلما ذهب، ولم يستطع بيع ما يكفي منها، وسألته لماذا؟ أجابني: الكل يعرف أم كلثوم، لكنهم يسخرون مني لعدم تصديقهم بحضورها لإحياء حفلةٍ في باريس. وحينها بدأ القلق على نجاح الحفل!».

اِعتقد كوكاتريكس بسبب تلك الظروف أنّه للمرة الأولى في حياته قد عقد صفقة خاسرة، وأنّه على وشك خسارة مالية فادحة لم تكن متوقعة، لكن ما هي إلا أيام قليلة حتى تغيرت الأوضاع، ففي الساعة السادسة من مساء يوم الخميس 9 نوفمبر 1967 وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار القاهرة الدولي تحمل ست حقائب كبيرة، وأعلنت شركة الطيران العربية قيام «طائرة أم كلثوم» وأنّ على الركاب المسافرين الاستعداد للتوجه إلى الطائرة، وهذا النداء جاء على خلاف العادة؛

فقد اعتادت الشركة الإعلان في كل مرة عن قيام الطائرة برحلتها رقم 517 المتجهة إلى باريس، لكن سفر السيدة أم كلثوم إلى باريس جعل تلك الرحلة علمًا، ورأت الشركة ضرورة تسمية الرحلة باسمها.

وقبل أن تغادر أم كلثوم أرض المطار وقّعت على 40 أسطوانة تحمل أغنية «أنت عمري»، كما وقّعت على 40 صورة لها، إذ قرّرت إهداء تلك الأسطوانات والصور إلى الركاب المسافرين معها على متن الطائرة نفسها، وبعد أن وقعت أم كلثوم على «الإقرار الجمركي» زارت المنطقة الحرة بالمطار، واتفقت مع السيد يحيي الشناوي مدير المطار على أن يخصص جزءًا من المنطقة الحرة لبيع منتجات سيدات «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» داخل صالة «الترانزيت» وذلك بدءًا من يوم الاثنين 13 نوفمبر 1967، إذ كان مقررًا أن تباع تلك المنتجات بالعملة الصعبة ويذهب إيرادها لصندوق المجهود الحربي، وصرّحت أم كلثوم للصحفيين الذين التفوا حولها قبل صعودها إلى الطائرة «سألبي جميع رغبات المواطنين العرب المقيمين في باريس، حتى لو غنيت أكثر من ثلاث وصلات في الحفلة الواحدة». وفي حدود الساعة السابعة صعدت أم كلثوم الطائرة وجلست في أول مقعد في الطائرة وبجوارها ابن شقيقتها محمد الدسوقي، وبعد أن صافحها طقم الطائرة المكون من الكابتن مجدي عبد السيد والكابتن تيمور سامي ومساعدهما الكابتن محسن موسى، حلّقت الطائرة باتّجاه باريس.

كانت ترافق السيدة أم كلثوم في تلك الرحلة بعثةٌ إعلاميّةٌ أوفدتها الجمهورية العربية المتحدة لتغطية الرحلة إذاعيًّا وتليفزيونيًّا وصحفيًّا، وكان على رأسها: الإذاعي الكبير جلال معوض كبير المذيعين، والإعلامية والشاعرة سلوى حجازي (1933، 1973) التي كُلّفت

بتغطية الرحلة تليفزيونيًّا تحت إشراف المخرج التليفزيوني روبير صايغ والمصور سعيد بكر، كما رافقها مجموعة من الصحفيين من مؤسسات صحفية مختلفة كان أهمهما: جلال الجويلي عن مؤسسة «الأهرام»، والصحفية المصرية ذات الأصول الكردية درية عوني عن دار «الهلال». وتخلف عن تلك الرحلة الفرقة الموسيقية المكونة من 25 عازفًا وزوج السيدة أم كلثوم الطبيب الشهير حسن الحفناوي[1]، بعدما تقرر سفرهم إلى باريس واللحاق بالسيدة أم كلثوم بعد ساعات من ذلك التاريخ، وتحديدًا مساء يوم السبت 11 نوفمبر 1967.

ويذكر الصحفي جلال الجويلي في أول رسالة صحفية بعث بها من باريس، ونشرتها صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 11 نوفمبر 1967، أن السيدة أم كلثوم وصلت وبرفقتها وفدها المرافق إلى مطار «لو بورجيه» في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الخميس 9 نوفمبر حسب توقيت فرنسا (منتصف الليل في القاهرة)، بعد رحلة استغرقت خمس ساعات متواصلة من القاهرة إلى باريس، وكان من المفترض أن تهبط الطائرة في مطار «روما» لكن برج المراقبة في المطار أبلغ قائد الطائرة عدم إمكان الهبوط في المطار الذي يغطيه الضباب الكثيف، ما جعل برج روما يطلب إلى قائد الطائرة الهبوط في مطار «زيورخ» أو

---

(1) د.حسن الحفناوي (1915-1986) طبيب أمراض جلدية شهير، تخرج في كلية طب القصر العيني عام 1940 وكان من الأوائل على دفعته، عُيّن في البداية نائبًا بقسم الأمراض الجلدية، ثم حصل على درجة الدكتوراه في الأمراض الجلدية وعُين مدرسًا في الجامعة عام 1945، تدرج في وظائف هيئة التدريس حتى صار أستاذًا مرموقًا للأمراض الجلدية والتناسلية عام 1955م. تزوج السيدة أم كلثوم في 30 يونيو 1954 وأعلن الزواج رسميًا في سبتمبر من ذات العام.

مطار «جنيف» إذا أراد، لكن قائد الطائرة قرر تغير اتجاهه إلى مطار «لو بورجيه» الفرنسي بعدما استطلع رأي السيدة أم كلثوم فيما إذا كانت تفضل الهبوط في أحد المطارين السويسريين، وفضلت أن تواصل الطائرة الرحلة إلى فرنسا مباشرة. والغريب أن تلك الرسالة الصحفية المنشورة في صحيفة «الأهرام» تخالف تمامًا ما ذكره مدير مسرح «الأولمبيا» في حديث إذاعي لأحد البرامج في الإذاعة الفرنسية؛ فقد أكد أن السيدة أم كلثوم هي التي اشترطت أن تنزل في أحد المطارات الصغيرة والنائية عن باريس، وأن ذلك الشرط وضعه في موقف شديد الصعوبة، فقد وجد نفسه مطالبًا أن يسابق الزمن حتى يحصل على التراخيص اللازمة في مطار «لو بورجيه» الذي يبعد مسافة 11 كيلومترًا عن شمال شرق باريس، ويحكي كوكاتريكس ضمن ذكرياته عن خواطره في تلك الليلة، وعن مدى غضبه من السيدة أم كلثوم التي أمطرته بشروطها التي لا تتوقف، وغضبه من نفسه بعدما عقد صفقة فاشلة لم يجنِ منها سوى أن ألزم نفسه بدفع أربعة عشر ألف جنيه إسترليني لسيدة عربية، وبصعوبة شديدة استطاع كوكاتريكس أن يجمع فريقًا إعلاميًا من التليفزيون الفرنسي لتصوير لحظة وصول أم كلثوم، لعل ذلك يفلح في إقناع العرب في باريس بحقيقة زيارة أم كلثوم لباريس والغناء على خشبة أحد مسارحها.

ورغم أن الوقت كان متأخرًا، فقد وجد العاملون في مطار «لو بورجيه» الهادئ -فجأة ودون سابق إنذار- حركةً غير عادية في ساحات المطار؛ عشرات الصحفيون يدخلون إلى المطار، كاميرات التليفزيون الفرنسي تُثبت في صالة المطار الرئيسية، ومئات الوجوه السُّمر التي توحي بأنّها عربية تدخل من بوابات الصالة وهي تحمل باقات الزهور. وقبل وصول الجميع كان الدكتور علي السمان قد

وصل إلى المطار، بعدما طلبت إليه السفارة المصرية في فرنسا مرافقة السيدة أم كلثوم طوال رحلتها في باريس، والقيام بمهمة الترجمة وتسهيل التواصل بينها وبين الفرنسيين. وبعد أن هبطت السيدة أم كلثوم من الطائرة، ودلفت إلى صالة المطار الرئيسة فوجئت بذلك الحشد الذي كان في انتظارها، ونظرًا إلى عدد الصحفيين الكبير، طلب الجميع إلى الدكتور علي السمان أن يستأذن السيدة أم كلثوم في عقد مؤتمر صحفي سريع في صالة المطار، على أن يُعقد مؤتمرٌ آخرُ في اليوم التالي في مقر إقامتها، وذلك لتوضيح بعض الأمور المهمة، وبالفعل وافقت السيدة أم كلثوم وجلست تجيب عن الأسئلة في مواجهة الكاميرات والميكروفونات، في حين يتولى الدكتور السمان مهمة الترجمة بين السيدة أم كلثوم والصحفيين. ويروي الدكتور علي السمان لصحيفة «الأهرام» الصادرة في 26 ديسمبر 2012، أن السيدة أم كلثوم عندما سمعته يحاور الفرنسيين في تلك اللحظة بطلاقة شديدة، داعبته «عندي إحساس بأني هاتعكز عليك في هذه الرحلة»، وبعد ساعة كاملة من وصول الطائرة لم تستطع أم كلثوم أن تترك المطار، واستمر التصوير وأسئلة الصحفيين، وسألها الصحفيون الفرنسيون: «هل فعلًا ستغني في «الأولمبيا» كما تقول الدعاية؟»، أجابت أم كلثوم «لن أتكلم اليوم.. سأغني وأغني»، وسألها الصحفيون الإنجليز: «هل ستغنين في لندن قريبًا أم لا؟»، فأجابت أم كلثوم أنّها تلقت عرضًا بذلك لكن لم تُبدِ فيه حتى الآن رأيًا نهائيًا. كالعادة، كانت إجابتها قاطعة وصغيرة ومختصرة، ونجحت من أول وهلة في كسب قلوب الصحفيين الأجانب الذين بقوا حتى النهاية يسألونها بدافع الفضول لمعرفة تلك السيدة التي تعتبر معبودة الجماهير العربية، والظاهرة التي نجحت في التأثير على ملايين العرب.

وتذكر الصحفية درية عوني في رسالتها من باريس التي نشرتها مجلة «المصور» أنّها في تلك اللحظة قد سمعت صحفيًّا يقول لزميله: «نعم.. إن في صوتها عندما تتكلم شيئًا يسحرك، فما بالك عندما تغني!»، وآخر يعلق على أجابتها: «إنّ شخصيّتها قوية جِدًّا.. إنّها في منتهى الذكاء، فهي تعرف بالضبط ما تريد»، وقبل خروجها من بوابات المطار الخارجية وقفت السيدة أم كلثوم أمام كاميرات التليفزيون الفرنسي، حيث وقف صحفي عربي مقيم في باريس ويقول بالفرنسية «أم كلثوم هي في نفس الوقت ريجين كريسبان (Crespin Régine) وإديث بياف (Edith Piaf) وأكثر من ذلك، فإذا كانت كريسبان وبياف من ناحية فنية، فإنّها من الناحية الشعبية معبودة الثمانين مليون عربي، من المغرب إلى السعودية، فإذا كان هناك فنان واحد يمكن تسميته فهي أم كلثوم. وهي ظاهرة؛ فهي ليست معبودة العالم العربي منذ سنة أو سنتين أو عشر سنوات بل منذ أكثر من أربعين سنة، منذ جيلين كاملين، فلا يمكن أن يقام حفل زفاف كبير أو احتفالية كبيرة أو مهرجان كبير دون مشاركة أم كلثوم. واليوم أم كلثوم هي ضيفة فرنسا وضيفة باريس وستحيي حفلتين، حفلتين فريدتين في باريس، وأود أن اسألها سؤالين -وهنا تكلم الصحفي بالعربية مخاطبًا أم كلثوم-، «أولًا ما سر جمال الأغنية العربية؟»، فابتسمت السيدة أم كلثوم «سر جمالها هو صدقها في التعبير». أمّا السؤال الثاني فكان «ما سر فنك الخاص؟» فاتسعت ابتسامة أم كلثوم وقالت في حرج شديد: «سره هو حبي له!».

بعثت حفاوة الصحافة العربية والعالمية بوصول السيدة أم كلثوم إلى باريس بتطمينات في نفس كوكاتريكس، الذي فوجئ بعد أن عرضت تلك اللقطات المصورة في التليفزيون الفرنسي بوابل من الطلبات على التذاكر، وطوابير لا حصر لها أمام مسرحه من أجل الحصول

على تذكرة واحدة لإحدى الحفلتين. ويتذكر كوكاتريكس ما حدث: «حين عرضت الصور على الشاشات هُرِعَ العرب الذين لم يصدقوا أنّها كانت ستأتي فلم يحجزوا أماكنهم، هُرعوا حين سمعوها تعلن أنّها ستغني.. لم يهرع مسلمو فرنسا فحسب بل من كل أنحاء أوروبا، فجاءت الطائرات محملة بمسلمين من بريطانيا وألمانيا وكانوا في أغلبهم شبابًا، وكان كل هذا عبئًا اقتصاديًا كبيرًا بالإضافة إلى مصاريف السفر والإقامة». فخلال الساعات الأولى لوصول أم كلثوم إلى باريس دبت حالة استنفار في بعض أحيائها العربية، فتوافدت الجاليات العربية المختلفة التي كانت تُقدّر في ذلك الوقت في باريس بنصف مليون عربي على منافذ بيع تذاكر مسرح الأولمبيا، ولم يتوقف الأمر عند حدود عرب فرنسا، بل زاد عليهم العرب في البلاد المجاورة؛ بلجيكا وألمانيا وهولندا وبعض الدول الإسكندنافية، الذين طاروا إلى باريس في رحلات عاجلة من أجل حضور ذلك المؤتمر العربي في قاعة مسرح الأولمبيا. وللمرة الأولى في تاريخ شركات الطيران والسياحة، تخصص الشركات موظفين لشراء التذاكر، فقد كانت أغلب برقيات حجز الطائرات تصل إلى باريس مشفوعة برجاء حجز التذاكر لليلتي أم كلثوم. وفي يوم وليلة وجد كوكاتريكس نفسه في مأزق جديد، ولكنّه هذه المرة مأزق مُربح، فكيف يستطيع أن يوفر لكل هؤلاء العرب تذاكر للحفلتين، وعدد مقاعد القاعة لا يزيد على 2200 مقعد، خصوصًا بعد أن انضمّت إلى العرب فئات أخرى غير عربية ولا تفهم لغة المشرق، لكنهم جاؤوا بعدما سمعوا عن تلك المعجزة التي استولت على قلوب وعقول أصدقائهم العرب، فوفقًا لتصريحات الصحافة الفرنسية، فإنّ الفرنسيين ذاتهم قد حجزوا ما لا يقل عن 20٪ من تذاكر الحفلتين، رغم العوائق الكثيرة التي قد تحول بينهم وبين فهم غناء أم كلثوم،

لكن الدعاية والحفاوة التي استقبلت بها تلك المرأة زادت رغبتهم في اكتشافها ومعرفة سرها الفني. وهنا وجد كوكاتريكس نفسه مُضطرًّا إلى اختراع ما أسماه «تذاكر للوقوف»، إذ بلغت قيمة التذكرة الواحدة خمسة جنيهات إسترلينية، وما هاله فعلًا هو الإقبال الشديد حتى على تلك النوعية من التذاكر، وهنا فقط أدرك أنّه قد عقد صفقة رابحة، وأن حديث الوزير ثروت عكاشة معه في العام الماضي كان حقيقيًا، حين أكد له أن أمواله سترد إليه وفوقها أضعافها ربحًا، لتنفد التذاكر بشكل كامل ورسمي من المسرح خلال الساعات الأولى من يوم 11 نوفمبر 1967، ولتبدأ تباع في السوق السوداء الفرنسية بأضعاف سعرها الحقيقي، فقد وصل ثمن التذكرة الواحدة إلى مئة جنيه إسترليني كاملة. ويتذكر كوكاتريكس واقعة طريفة فسرت له مدى هوس العرب بالسيدة أم كلثوم «أذكر ذلك الأمير أو الشيخ العربي الذي قدم ووضع مئة ألف فرانك قديم وطلب مقعدًا في الصف الأول، لكن موظفة التذاكر قالت له إنّه لم يعد هناك مقاعد متاحة للحجز، فعرض عليها مائتي ألف فرنك، ثم أراد أن يدفع خمسمئة ألف، ولكن الموظفة أكدت له أنّه ليس في وسعها فعل شيء، وأنّه لا يمكنها أن تجد له تذكرة، فغضب وأخرج مسدسه، لا أظنه كان سيطلق النار ولكن ليهدد فقط وفي نهاية الأمر أعطيناه كرسيًا بين صفين!».

أقامت أم كلثوم في فندق «جورج الخامس» القريب من جادة باريس الشهيرة «الشانزليزيه»، وهو فندق تاريخي شُيّد في العشرينيات من القرن الماضي، ويعتبر إلى اليوم من أفخم وأرقى الفنادق، ليس فقط في باريس، بل في العالم أجمع. وفي صباح يوم السبت 11 نوفمبر 1967، عُقد للسيدة أم كلثوم مؤتمرٌ صحفيٌّ كبير في قاعة الاستقبال الكبرى داخل الفندق، استمر لأكثر من ساعتين كاملتين، وُجّهتْ فيهما

للسيدة أم كلثوم أسئلةُ ممثلي الصحافة والإذاعة والتليفزيون في باريس، وكذلك أسئلة مندوبي وكالات الأنباء الأوروبية المختلفة، وامتدت الميكروفونات وأجهزة التسجيل الإذاعية نحو السيدة أم كلثوم، لتسجل كل همسة تخرج من بين شفتيها. كانت أم كلثوم تستخدم العربية أحيانًا في إجابتها، وأحيانًا أخرى تلجأ إلى الفرنسية البسيطة بمساعدة وتدقيق من الدكتور علي السمان. أجابت أم كلثوم عن أسئلة كثيرة، وقد نشرت صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 13 نوفمبر 1967 بعضًا من إجاباتها، فقالت مثلًا رَدًّا على رأيها في مدينة باريس: «باريس موش عاوزه رأي حد فيها، باريس دي مدينة الحرية والنور والفن، أعظم عاصمة في العالم للفن». وأجابت عن سؤال آخر عن دورها السياسي في مصر بعد نكسة 1967 بشيء من الحزم: «أنا مجرد فنانة، إذا كان الشعب الفرنسي يعتبرني شخصية سياسية، فلازم يعرف أن ده غلط»، وسألها صحفي عن رأيها في الرئيس جمال عبد الناصر، فأجابت «رأيي فيه أنّه إنسان، أعظم ما في عبد الناصر أنّه إنسان!». ثم راحت تجيب عن عشرات الأسئلة حول أكبر أجر تقاضته في حياتها، وعن مقارنتها بإديث بياف وماريا كالاس (Maria Callas)، وعن الأغنيات التي ستغنيها في الحفلتين وهوايتها وإقامتها في باريس ومشاريعها الوطنية بعد النكسة. وبعد نهاية المؤتمر طلبت أم كلثوم إليه الدكتور علي السمان أن يرافقها في جولة خارجية في مدينة باريس، التي ستزورها كما قالت في المؤتمر للمرة الأولى بصفتها مطربة لا زائرة، ويذكر السمان ما دار بينهما في تلك الجولة «طلبت أن تتمشى قليلًا، فذهبت أنا وهي وابن شقيقتها إلى حديقة لوكسمبورج أمام مجلس الشيوخ الفرنسي بالحي اللاتيني، وتحدثت معي عن جمال المدينة، ثم قالت إنّها حضرت إلى باريس لأنّه واجب وطني، وكلّنا جنود في معركة

واحدة، ولن نترك مصر أبدًا فريسة لأيّ عدوان أو استعمار مهما كانت قوته، وسنضحي بأرواحنا من أجل وطننا!».

وفي اليوم نفسه، قابلت أم كلثوم كوكاتريكس لتوضيح بعض الأمور قبل الحفلة الأولى، فسألته السيدة أم كلثوم في أي ساعة تبدأ الحفلات في قاعة الأولمبيا، فقال لها في التاسعة مَسَاءً، وأنّه يمكن تغير ذلك الموعد إذا أرادت أو كانت تلك الساعة لا تناسبها، لكن أم كلثوم أكدت له أنّه وقت مناسب جِدًّا لبدء السهرة، ثم عاد وسألها هو عن موعد نهاية الحفلة، فقالت له أم كلثوم إنّها لا تعرف تحديدًا متى تنتهي حفلاتها، فهي تعلم متى تبدأ لكن متى تنتهي هذا خاضع لطلبات الجماهير، ثم أتبعت أم كلثوم أنّها سوف تغني ثلاث أغنيات فقط طوال الليلة، وهنا وجم وجه كوكاتريكس، وأراد أن يعترض على هذا، فقد كان سوء الفهم نابعًا من أن كوكاتريكس قد اعتاد على الأغنيات القصيرة السريعة التي عادة ما يقدمها المطربون الغربيون في دقيقتين تقريبًا، لكن أم كلثوم ابتسمت وقالت له «لا تقلق سأغني ما يكفي من الأغنيات». ويقول كوكاتريكس عن هذا «اكتشفت الحقيقة في المساء أن كل أغنية تدوم ساعة ونصف الساعة، ثم عشرين دقيقة استراحة، ثم ساعة ونصف الساعة، ثم استراحة، وهكذا فقد غنَّت نحو ست ساعات تقريبًا».

في صبيحة يوم الحفل الأول الاثنين 13 نوفمبر 1967، صدرت صحيفة فرنسا الأولى «لو موند» وبها مقال شاعري يحتفي فيه كاتبه بقدوم السيدة أم كلثوم إلى باريس، ويتساءل عن كيفية تلقي الجمهور الفرنسي لطبيعة غناء تلك السيدة العربية في هذه الليلة، فكتب تحت عنوان «أم كلثوم في باريس»: «ها قد حلت بيننا تلك التي يسمونها في القاهرة بالست «السيدة». هي ثروة أزلية، صوت مخملي من حرير،

منارة فرعونية، إنّها أم كلثوم المصرية. كيف نعبّر عمّن تكون؟ كيف نقيس في الغرب قيمة أم كلثوم؟ هل نعتبرها ماريا كلاس وهي في نفس الوقت إديث بياف؟ هذا قليل بالنسبة إليها، أحرى أن تُقارن بما تمثله بيسي سميث (Bessie Smith) بالنسبة إلى السود الأمريكيين. سنكتشف إذن أن البعد المزدوج في عبقرية أم كلثوم متمثل في سلطة الأمومة الحريصة على تقاليد المجموعة، وقيم القبيلة وعنفوان الإبداع الدائم الذي لا ينضب، وعلى غرار المغنية السمراء بيسي سميث، عرفت أم كلثوم كيف تخلق تنويعات في طبقاتها الصوتية بأداء من الأرابيسك، بحيث يأخذ كل شيء معها معناه، فهل نتحدث هنا عن الغناء أم عن الطرب؟ تمسك أم كلثوم الموضوع الذي يقترحه عليها شاعرها المفضل أحمد رامي وتطوّره وتغيّر فيه ثم تبعثه، فلا يوجد عندئذ مستمع عربي إلّا ووقع تحت أسر النشوة والإعجاب. سلطتها لا نظير لها وبقليل يمكن أن تنافس سلطة الدولة لكن أم كلثوم لم تصطدم قط مع نظام الحكم القائم.

مساء كل خميس، يسارع الموظفون والعمال لإنهاء أشغالهم والدخول إلى مساكنهم حتى لا يفوتهم بث حفلة أم كلثوم، هذه الفلاحة الصغيرة التي تعلمت أصول فنها بترديد القرآن الكريم، تثبّتت أقدامُها في الغناء قبل صعود فاروق على العرش. وعلى امتداد سنوات طويلة، لم يكن ضباط مجلس قيادة الثورة وعلى رأسهم عبد الناصر يتخلفون عن حفلتها مساء كل خميس وكنا نشاهدهم مصطفين في الصف الأول بكل وقار.

واليوم لم يعد الرئيس عبد الناصر يواظب على حضور حفلاتها كما في السابق. خلال الانتخابات الرئاسية الأخيرة كانت أم كلثوم تتقاسم الظهور على شاشة التليفزيون مع عبد الناصر لتحث الشعب

على التصويت للقومية العربية ولرئيسها. في مساء 9 يونيو الماضي حين أعلن تليفزيون القاهرة تراجع الرئيس عن قراره بالتنحي تحت ضغط المطالبات الشعبية، كانت أغنية لأم كلثوم هي التي سبقت الإعلان الرسمي.

فهل سيستمتع جمهور الأولمبيا بدقة أدائها الساحر لأنغام الربع تون؟ بهذا التطريب شبه الأسطوري؟ بهذا الصوت الجبار الذي دخل التاريخ في زماننا؟ في جميع الأحوال فإنّ الجمهور بسماعه أم كلثوم، سيستمع إلى صوت طبع مخيلة أمة على مدار نصف القرن».

ومن المؤكد أن الدكتور علي السمان أو الإعلامية سلوى حجازي قد قرأ أحدهما على السيدة أم كلثوم ذلك المقال في صباح ذلك اليوم، ولعلها توقفت عند عبارات المديح التي أطلقها ذلك الصحفي عليها، فحمّسها هذا وجعلها تثق في قدرتها على النجاح في تلك المدينة الغربية الباردة. وبعد ظهر ذات اليوم توجهت السيدة أم كلثوم ومعها سلوى حجازي والمخرج روبير صايغ وابن شقيقتها محمد الدسوقي وبعض أفراد بعثة التليفزيون العربي إلى مسرح الأولمبيا، لإجراء بروفة شاملة ونهائية على أغنياتها قبل أن تبدأ السهرة الأولى في باريس. وفي المسرح تجمع حولها عشرات من مصوري الصحف والتليفزيون الفرنسي، يلتقطون لها الصور وهي تقف بمفردها على المسرح وتغني، وبعد أن انتهت البروفة، تقدم كوكاتريكس نحوها منبهرًا بما سمعه، وانحنى أمام أم كلثوم ليُقَبّل يديها، فضحكت السيدة أم كلثوم، والتقطت الصحافة الفرنسية تلك الصورة، لتقرر أم كلثوم إهداء كوكاتريكس حقيبة يدها المصنوعة من جلد التمساح، كتذكار على تلك الليلة التاريخية.

في تلك الليلة بدا كل شيء في باريس غريبًا، ثمّة حركة نشطة قد

دبت في المدينة خصوصًا في الأحياء ذات الكثافة السكانية الكبيرة من الجالية العربية؛ العمال العرب تركوا مصانعهم مبكرًا وعادوا سريعًا إلى منازلهم على خلاف عادتهم، المقاهي العربية في ضواحي باريس أغلقت أبوابها بعدما وضعت على واجهاتها صورًا كبيرة لأم كلثوم وفي خلفيتها الأهرامات والعلم المصري، زحام مروري بدأ يخنق المدينة ويشل حركتها، وتزداد حدته تَدرِيجًّيا كلما اقتربت السيارات من محيط دار الأوبرا الفرنسية أو مسرح الأولمبيا في الدائرة التاسعة بالعاصمة الفرنسية، مخبرون سرّيون انتشروا في شارع كابوسينز تحسّبًا لأي مناوشات قد تحدث بين العرب والمناوئين للقضية العربية من الجماعات الصهيونية، التي اتصلت بالفعل باليهود الشرقيين في فرنسا لتثنيهم عن حضور حفلة أم كلثوم، وتهددهم باتهامهم بخيانة إسرائيل إذا حضروا حفلة أم كلثوم أو دفعوا لها «سنت» واحدًا. لذلك تحركت تشكيلات من البوليس الفرنسي نحو مسرح الأولمبيا لتنظيم عملية الدخول إلى المسرح والحصول على التذاكر، أما المسرح ذاته، فقد زين واجهته الخارجية أفيش كبير أنيق مُضاء باسم السيدة أم كلثوم معلنًا عن حفلتها. كان الزحام يزداد لحظة بعد لحظة، وكلما ضاق مدخل المسرح بالجماهير العربية الوافدة. كانت سيارات الأجرة تصل إلى المكان لتفرغ المزيد منهم. الجميع جاؤوا بأزيائهم الوطنية. الصحفيون ومراسلو الإذاعات الفرنسية بدأوا يحددون جنسيات الجماهير من أزيائهم ولكنات الكلمات المتبادلة بينهم: سودانيون، جزائريون، كويتيون، مغربيون وهكذا، بعض الفرنسيين المارين في تلك المنطقة قد دفعهم الفضول لاكتشاف تلك الظاهرة العربية التي أشادت بها الصحافة الفرنسية منذ إعلان وصول أم كلثوم إلى فرنسا، ووقفوا يسألون العرب عن صوتها وهل هي فعلًا معبودة

الجماهير العربية كما تقول الصحافة الفرنسية؟ كانت اللغة الفرنسية تختلط باللغة العربية في مدخل المسرح وتشكل جوًا غريبًا وغير مألوف في ذلك المكان الذي لم يشهد ظاهرة مماثلة من قبل. كانت الصفوف أمام المسرح وكأنّها بلا نهاية، وحسب شهادة الإعلامية سلوى حجازي فقد بلغ طول الصف الواحد أكثر من كيلومتر كامل، وبالرغم من نفاد التذاكر فقد كانوا يأملون في العثور على بعض التذاكر الباقية في منافذ المسرح، أو على أمل أن يُجدي رجاؤهم مع موظفي التذاكر فيخصّصوا لهم مقاعد صغيرة بين الصفوف، أو أن يسمح لهم بالدخول والجلوس على الأرض في ممرات المسرح.

في الساعة الثامنة مَسَاءً وصلت إلى المسرح السيدة أم كلثوم وهي ترتدي معطفًا أسود فوق فستانها، وتغطي شعرها الأسود الفاحم والمشدود إلى الوراء بمنديل حريري أخضر، ويرافقها ابن شقيقتها المهندس محمد الدسوقي والدكتور علي السمان، اللذان وصفا شعورها في تلك الليلة بأنّها كانت في غاية التوتر والقلق، كانت تتساءل كيف ستواجه جمهورًا جديدًا للمرة الأولى، وكيف ستتلقى الجماهير الغربية ذلك الغناء الغارق في الشرقية والطرب، وما إن وصلت إلى المسرح حتى صدمها ذلك المشهد الخارجي أمام بوابات المسرح، فاندهشت من الزحام الشديد في المنطقة وأمام مدخل «الأولمبيا» الرئيسي، ثم ولجت داخل المسرح من بوابته الخلفية حتى لا يراها أحد من الصحفيين أو الجماهير، ورغم أن إدارة المسرح قد خصصت لها حجرة لتغير الملابس وفرشتها بالورود والزهور، فإنّ أم كلثوم رفضت دخولها وجلست في حجرة الاستراحة المخصصة لها تنتظر ساعة الصفر والمواجهة الأولى.

لم تغادر بعثة التليفزيون العربي المسرح منذ البروفة الصباحية،

وكان كبير المذيعين جلال معوض على اتّصال دائم بإذاعة القاهرة من أجل تجارب البث المستمرة لنقل الحفل على الهواء مباشرة من باريس، ولكن تعثر تلك التجارب أعاق عملية النقل، فتقرر تسجيل الحفل الأول على أن يذاع فيما بعد، بينما تكثّفت التجارب في اليوم التالي كي ينقل الحفل الثاني، وثبتت كاميرات التليفزيون العربي في مختلف أرجاء المسرح، بينما ثبتت الكاميرا الرئيسية للتليفزيون العربي في أحد البلكونات العليا في القاعة، كي تنقل الكاميرا صورة بانورامية للمسرح وأم كلثوم، وكانت الإعلامية سلوى حجازي في مدخل المسرح تجري لقاءات عدة مع العرب الذين وفدوا من بلادهم وتحديدًا من شمال أفريقيا من أجل سماع السيدة أم كلثوم في باريس، وكانت الأمنية الوحيدة على شفاه الجميع أن يمتد بهم العمر ويشاهدوا أم كلثوم تغني في بلاد المغرب العربي، أما في الداخل فقد جلس في الصفوف الأولى ثلاثة عشر سفيرًا عربيًا، من بينهم سفير الجمهورية العربية المتحدة عبد المنعم النجار، ومدير مكتب الجامعة العربية في باريس، وأميرات وأمراء سعوديون، والملك الحسين بن طلال (1935-1999) ملك الأردن جاء إلى باريس وبصحبته شقيقه الأمير حسن بالأساس من أجل سماع أم كلثوم، ودخلا إلى المسرح متنكرين كي لا يعرفهما أحد، ولكن كانت عيون الصحافة قد رصدتهما ونشر خبر حضورهما في اليوم التالي، أما من تونس فقد جاءت السيدة نائلة بن عمار شقيقة السيدة وسيلة بن عمار زوجة الرئيس الحبيب بورقيبة، ومن لبنان طارت إلى باريس السيدة نهلة القدسي زوجة الموسيقار محمد عبد الوهاب. كانت قاعة الأولمبيا في تلك الليلة تبدو مثل جزيرة عربية صغيرة، يجلس فيها السفير بجوار العامل العربي البسيط في موانئ فرنسا.

تركت السيدة أم كلثوم حجرتها الصغيرة وصعدت الدرجات الخلفية للمسرح وهي تتمتم بآيات القرآن الكريم، ثم تابعت مع الفرقة الاستعدادات النهائية للغناء وأخبرتهم بأنّها ستشدو برائعة «أنت عمري» في الوصلة الأولى، كان يرافقها في تلك اللحظة كوكاتريكس مدير «الأولمبيا» ووصيفتها السيدة إحسان، التي هدّأت قليلًا من روعها، وخلعت عنها معطفها الأسود، فظهر للجميع أن أم كلثوم ترتدي فستانًا من الدانتيل الأخضر بنقوش عربية وفرعونية جميلة، وهو ذاته الفستان الذي ارتدته في حفلها الشهري الأخير يوم 1 يونيو 1967، ثم ارتدته في حفل مدينة الإسكندرية يوم 31 أغسطس من ذات العام.

وفي الساعة التاسعة وخمس وعشرون دقيقة، وبعد أن جلست السيدة أم كلثوم في مقعدها الذي يتوسط فرقتها الموسيقية، بدأت الستارة تتحرك يمينًا ويسارًا لتفتح تدريجيًّا، وتظهر السيدة على خشبة الأولمبيا فتنتفض الصالة واقفة لتحييها هي وفرقتها الموسيقية، وتضج القاعة بالهتاف والتصفيق المتواصل وغير المنقطع. وقف الجالسون في أماكنهم يصيحون من أعماق قلبهم «تعيش أم كلثوم.. تعيش ثومة»، والواقفون في جنبات المسرح ظلوا يضربون الأرض بأرجلهم تعبيرًا عن فرحتهم بتلك اللحظة التاريخية، وما بين ست إلى ثماني دقائق كاملة من الهتاف والتصفيق الذي لا ينتهي، حاولت أم كلثوم أن تعود أكثر من مرة إلى مقعدها المذهب من طراز «لويس السادس عشر» وسط فرقتها، لكن الجماهير كانت تعيدها في كل مرة إلى مقدمة المسرح، لتقف وترفع كفها على رأسها وكأنّها تحيي كل من في القاعة، ثم تهز رأسها بإيماءة صغيرة، وتعلو وجهها ابتسامة رضا تنم عن بوادر اطمئنان بدأ يعانق قلبها القلق وربما تفاؤل بنجاح الليلة، لتبدأ مقدمة

«أنت عمري» تخترق صيحات العرب في القاعة، وتتداخل نقرات «القانون» الأولى مع الهتاف بحياة السيدة أم كلثوم، لكن ما هي إلا ثوانِ قليلة حتى أجبرت الموسيقى الجماهير على الهدوء والجلوس في المقاعد لتبدأ الليلة. كان كوكاتريكس يقف في الكواليس يتابع ذلك الاستقبال الجنوني لأم كلثوم، الذي قال عنه فيما بعد أنّه لم يشاهد نظيرًا لها طوال حياته في ذلك المسرح وعلى تلك الخشبة، وتذكر جون ميشيل بوريس نائب مدير «الأولمبيا» في ذلك الوقت تلك اللحظة «كنت واقفًا خلف الستار أراقب هذا المشهد الخلاب الذي لم يسبق لي أن شاهدت مثيلًا له من قبل في أي حفل موسيقي غربي، مشهدًا يبعث حقًا على الدهشة والروعة والفرحة، كل هذه المشاعر المرسلة إليها.. وهي بكل كبرياء ووقار تستقبل هذا الحب من معجبيها وهي في العقد السابع من عمرها».

غنت أم كلثوم أغنية «أنت عمري» في أكثر من ساعة كاملة، لم تتوانَ فيها عن استغلال مقاطع معينة في تطريب الجماهير، فتعمّدت الارتجال في مقطع «الليالي الحلوة والشوق والمحبة « ثم عادت إلى الخط الإلزامي للّحن سريعًا، في حين كانت الجماهير تصيح مع كل زيادة نغمية تشدو بها أم كلثوم فكان يعلو وجهها ابتسامات سعيدة، فقد حصلت المعجزة كما قالت الصحافة الفرنسية، وتجاوبت الجماهير جميعها العربية والفرنسية ووقع الحضور جميعه تحت سحرها الذي لا يقاوم. وربما كان أعجب ما في تلك الليلة هو ذلك الحضور الكبير لليهود الشرقيين في فرنسا، فبرغم ما قامت به الوكالات الصهيونية في فرنسا من محاولات إثناء العرب عن حضور حفل أم كلثوم، إذ كانوا يجوبون الأحياء العربية والمعابد الشرقية في باريس وخصوصًا في حي «بيلفيل» وحي «مونت مارتر» من أجل إقناعهم بأن أم كلثوم تعمل

ضد وجود إسرائيل، وأن أموال حفلاتها تذهب إلى المجهود الحربي في مصر، فإنّ اليهود الشرقيين ضربوا بكل تلك المحاولات عرض الحائط، وحجز العديد منهم تذاكر الحفلة الأولى بل والثانية أيضًا، وتفاعلوا مع غناء السيدة بشدة، لدرجة أن كوكاتريكس قد لاحظ ذلك وعلَّق عليه «كان هناك يهود من شمال أفريقيا بين الحاضرين، وقد أقلقني الوضع لعلمي أنّها غنت أغنيات تحريضية ضد إسرائيل في أثناء حرب الستة أيام، وكنت أعتقد أنّهم لا يحبونها، ولكن كان هناك نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ يهودي، وكانوا من الشباب من أصول جزائرية ومغربية وتونسية، وكانوا يحيّونها بحرارة، يصفّقون ويضربون الأرض بأرجلهم، وقد سألت أحدهم كيف تعظمها هكذا وهي كانت ضد شعبك؟ فقال «لا يهم فهي الأفضل»». ويضيف «التقيت بالكثير من الفنانين، لكني لم ألتقِ بموهبة بمثل هذا الحجم، وهذا دليل على أنّ الحدود تُلغى أمام الموهبة وهزني ذلك، فيمكن لأي شخص أن يأتي ولا أفهم لغته لكن هذا لا يهم إذا كان لديه موهبة وإحساس وصدق».

في العاشرة والنصف مَسَاءً أُسدل الستار عن أم كلثوم بعدما غنت وصلتها الأولى، وفي الكواليس اندفع نحوها أعضاء البعثة المرافقة يقَبّلون يديها ويهنئونها على النجاح الساحق الذي لاقته. كانت أم كلثوم تشعر وكأنّ جبلًا كبيرًا قد أزيح من على صدرها، فقد كانت المواجهة الأولى مع ذلك الجمهور كفيلة ببعث الطمأنينة في نفسها، بعدما عاشت في قلق وترقب منذ أن جاءت إلى باريس. وفي فترة الاستراحة زارها العديد من الشخصيات العربية والفرنسية، الكل حاول أن يعبر لها عن مدى اندهاشه من قدرتها العجيبة على التجاوب مع الجماهير، ومقدرتها المتفردة في السيطرة على المستمعين، حتى وإن كانوا عربًا مغتربين أفقدهم حضور أم كلثوم وغناؤها اتّزانهم،

إلّا أنّ أهم من زار أم كلثوم في تلك الاستراحة الأولى كانت السيدة فاتن حمامة (1931-2015) التي غادرت مصر في عام 1966 في ما يشبه الهجرة المؤقتة متنقلة بين لبنان وأوروبا، ولم تعُد إلى مصر إلّا مطلعَ عام 1971، بعدما توفي الرئيس جمال عبد الناصر، وذلك لأسباب تخص زواجها من عمر الشريف (1932-2015)، وإن عزا البعض تلك الهجرة المفاجئة إلى ظروف سياسية وضغط مخابراتي مورس عليها في الحقبة الأخيرة. وكانت فاتن حمامة تعيش في تلك السنوات أسوأ حالاتها النفسية، فقد غابت عن الشاشة البيضاء التي طالما ملأتها ببريقها الفني، ثم وقعت النكسة وعاشت فاتن كل تفاصليها في الغربة، وشاهدت وسمعت ما كان ينقله الإعلام الغربي بشكل متحيز ضد مصر في أثناء المعركة، حتى أنّها أكدت فيما بعد أنّها لم تبكِ في حياتها مثلما بكت وقت وقوع النكسة، وبالأخص عندما استمعت إلى عبد الناصر يوم 9 يونيو وهو يلقي خطاب التنحي الذي اعترف فيه بالهزيمة. شعرت فاتن بأنّها لم تكن بحاجة إلى أن تكون في مصر أكثر من هذا الوقت، غير أنّها وقفت عاجزة لم تستطع أن تفعل شيئًا، حتى علمت بوجود السيدة أم كلثوم في باريس لإحياء حفلتين في الأولمبيا، فقررت أن تتصل بها فور وصولها، وخلال المكالمة وعدت سيدةُ الشاشة العربية السيدةَ أم كلثوم أن تزورها بين وصلات الحفلة الأولى، وهو ما كان، وبمجرد أن دخلت فاتن حمامة على أم كلثوم، تلقتها السيدة أم كلثوم بالأحضان. كان اللقاء حَارًّا وحميميًا، بكت فاتن حمامة بكاء شديدًا، حسب ما ورد في مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 22 نوفمبر 1967، وقالت ودموعها تسبق كلماتها «كنت مشتاقة بشكل جنوني لزيارة القاهرة، فلما رأيتك وسمعتك أحسست أن أغنياتكِ قد نقلت القاهرة كلَّها إلى قلب باريس!»، فردت عليها

أم كلثوم «وبكره تسمعيني في القاهرة»، فسكتت فاتن قليلًا وقالت متنهدة «إن شاء الله». حاولت السيدة أم كلثوم في هذا اللقاء السريع أن تصارح فاتن حمامة بضرورة عودتها إلى القاهرة، وإقناعها بخطورة التضحية بمشوارها الفني من أجل أي شيء، وأن خروجها من مصر هذا يثير حولها حالة ضبابية لا معنى لها، وأخيرًا نصحتها «إذا كنتِ خسرتِ حياتك الزوجية، بلاش كمان تخسري جمهورك وفنك!».

في تلك الأثناء كانت الإعلامية الكبيرة سلوى حجازي تجوب صالة «الأولمبيا» مع كاميرا التليفزيون العربي، وتجري لقاءات عدة مع العرب الذين شهدوا الوصلة الأولى، وتعمدت الحديث مع بعض الفرنسيين الذين حضروا أولى وصلات الحفل، في محاولة لفهم شعورهم تجاه غناء أم كلثوم، وكيف تلقوا ذلك النوع من الغناء خصوصًا وهم لا يعرفون العربية ولا يفهمون ما تقوله تلك السيدة، وكانت من الحاضرات في تلك الليلة المطربة الفرنسية الشهيرة ماريا لافوجيه (1939-2019) التي ما إن سألتها سلوى حجازي عن رأيها في ما سمعته حتى باغتتها «أنا أعرفها منذ فترة، وبدأت أقتني أسطواناتها منذ 5 سنوات تقريبًا، والآن معجبة بها بشكل كبير»، ثم حاولت أن تقدم وصفًا دقيقًا لطبيعة ما سمعته، فقالت لسلوى حجازي إنّها شعرت وهي تسمع أم كلثوم وكأنّها كانت في «معبد مقدس»، وأبدت ماريا تعجبها من تلك القدرة الكلثومية على تلوين الجمل الغنائية لذات المقطع، فكل جملة غنائية تخرج منها يكون لها أداء خاص ومختلف عن سابقه.

غنت أم كلثوم في وصلتها الثانية قصيدة «الأطلال» فيما يزيد على الخمسين دقيقة، ومن يدقق السمع في تلك الوصلة يلاحظ أن السيدة أم كلثوم تحررت قليلًا من قلقها الذي سيطر عليها خلال

الوصلة الأولى، فكان تجاوبها مع الجماهير في أعلى درجاته، بل إنّها عندما وصلت إلى المقطع المؤسس داخل القصيدة «أعطني حريتي أطلق يَدَيَّ» غنته بانفعال عجيب، وهو ما عبرت عنه فيما بعد للصحافة العربية، أنّها كانت تريد أن تصرخ في وجه الغرب مطالبة بالحرية لبلادها التي طُعنت في كرامتها مذ شهور قليلة. كان تكرار أم كلثوم لذلك المقطع مثار إعجاب الممثل الفرنسي الشاب آنذاك جيرارد ديباردیو الذي كان حاضرًا الحفل، فقد ظلت تعبيرات وجه أم كلثوم وهي تغني هذا المقطع تحديدًا عالقة في ذهنه، لدرجة أنّه بعد سنوات عدة من تلك الليلة استعاد بعض ذكرياته عن ذلك الحفل، وذلك ضمن حوار معه أذاعته قناة «فرانس 3» في مارس 2015، قال «ديباردیو» أنّه تأثّر بما سمعه خلال حفل أم كلثوم، وإنّ إحساسًا رُوحِيًّا عميقًا قد غمره وملأ وجدانه في تلك اللحظة، مؤكدًا أنّه بكى خلال استماعه لصوتها وهي تغني هذا المقطع تحديدًا، وقد وصل ذلك الشعور نفسه إلى العرب الذين حضروا الليلة الأولى، فاندفع البعض نحو المسرح متخطيًا كل الحواجز الأمنية، غير مبالين برجال البوليس السري الواقفين في حواف المسرح، وصعدوا خشبة الأولمبيا لتقبيل يد السيدة أم كلثوم، التي كانت تنظر في اندهاش كبير لحجم ذلك التفاعل العجيب مع جمهور يسمعها للمرة الأولى، لكن ربما يفسر ذلك الانسجام الجماهيري الكبير مع تلك الوصلة أنّها كانت قصيدة باللغة العربية وليست بالعامية المصرية، فكان وقع الكلمات أعمق في نفوس العرب الذين هزتهم القصيدة ومعانيها الشاعرية، بالإضافة إلى قدسية مقطع «أعطني حريتي أطلق يَدَيَّ» تحديدًا، وما وراءه من معانٍ تحتمل التأويل السياسي، فكان ذلك المقطع رسالةً معبرة عن خواطر كل عربي أوجعته الهزيمة وشهد الحفل، وهو ما عبر عنه أحد

الحاضرين لحفل 13 نوفمبر، ويدعى وسام بن محمود، في حديثه لأحد البرامج الفرنسية التي أنتجت عن أم كلثوم «يجب وضع حفلتي أم كلثوم في باريس في السياق التاريخي لذلك الوقت، كانت هناك هزيمة عربية مهينة لكل الشعوب العربية، وذهبت هي إلى باريس بسبب هذا السياق، وهناك وجدنا من جديد هذا الشعور العربي بالكرامة وبالوحدة في وجه صدمة الهزيمة، كنا نشعر أن لهذا الحفل أبعادًا أكبر من كونه مجرد حفل موسيقي».

وفي الاستراحة الثانية التي دامت عشرين دقيقة، حاول مندوبو بعض الإذاعات العالمية الموجودون في القاعة التواصلَ مع الجماهير لعلهم يظفرون بتفسير منطقي لذلك التفاعل العجيب، وكما حاورت سلوى حجازي بعض الفرنسيين في الاستراحة الأولى، حاور مندوب القسم العربي في «الإذاعة البريطانية» نعيم البصري بعضَ الفرنسيين في الاستراحة الثانية، وأذاعت «الإذاعة البريطانية» تلك الحوارات في صباح اليوم التالي للحفل، لتنشر بعضها مجلة «الشبكة» الصادرة في 20 نوفمبر 1967. ومن بين هذه الأحاديث على سبيل المثال، تطوع شاب فرنسي وقال لمندوبي الإذاعة البريطانية «إنّني لم أفهم شيئًا مما قالته، ولكنّي ما إن سمعت صوتها حتى شعرت بشيء كالسحر يشدني إليها، لقد انجذبت كُلِيًّا إلى صوت هذه السيدة العظيمة ذات الشخصية المسرحية الطاغية، لذلك تراني الآن مشدودًا إلى كرسي دون أن أعي، ودون أن أفهم لماذا أنا مشدود إلى غناء لا أفهمه، وإلى موسيقى لا أستوعبها». وفي حدود الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم 14 نوفمبر 1967، فُتح الستار لآخر مرة عن السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، إذ قدمت أم كلثوم وصلتها الثالثة والأخيرة في تلك الليلة، أغنية «بعيد عنك» التي غنتها في 43 دقيقة

تقريبًا، لم تخلُ من تفاريد غنائية سريعة مثل وقوفها عند مقطع «ياما بداريها ياما/ ياما بحكيها ياما»، وفي الساعة الثانية والنصف صباحًا اختتمت أم كلثوم سهرتها الأولى في باريس، وأُسدل الستار وسط عاصفة من التصفيق المدوي تمامًا كما بدأ الحفل قبل خمس ساعات، بينما وقف كوكاتريكس في الكواليس مذهولًا من مشاهد تلك الليلة التي لا تُنسى، وبعدما فرغت القاعة من آلاف الرواد، تجوّل في الصالة ليصدم من أرضية الصالة التي مُلئت بقشور المكسرات وقنينات الماء، لكن النجاح المدوي الذي حققته قاعته في تلك الليلة، وحجم الأرباح التي لم يكن يحلم بها قد أنسته كل تلك المشاهد المؤلمة!

ورغم سعادة كل من عاش في محيط مسرح «الأولمبيا» في تلك الليلة، إلّا أنّ سائقي سيارات الأجرة في تلك المنطقة قد عاشوا في هذه الليلة في ما يشبه الدوامة، فقد اعتاد عدد كبير منهم الانتظارَ بالقرب من مسرح «الأولمبيا» للعودة برواد المسرح إلى بيوتهم، وفي تلك الليلة انتظروا حتى الساعة الواحدة صباحًا، وهو الموعد الرسمي لانتهاء حفلات المسرح، فلم يروا فردًا واحدًا يخرج، وطال الانتظار حتى الثانية، ثم الثانية والنصف، وفي الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة فوجئ السائقون ببركان بشري يندفع من أبواب المسرح الكبير، وامتلأت سيارات الأجرة على كثرتها في ثوان، لكن كانت المفاجأة أن وجهة الرواد جميعًا واحدة تقريبًا، وهي فندق «جورج الخامس» محل إقامة السيدة أم كلثوم، فقد أبوا أن يناموا قبل أن يطمئنوا على تلك التي شدت لهم خمس ساعات كاملة في تلك الليلة.

لكن أم كلثوم لم تعد إلى محل إقامتها، فبعد أن خرجت من البوابة الخلفية للمسرح، توجهت مع بعثتها الإعلامية إلى الحفل الرسمي المقام تكريمًا لها، الذي نظمه مكتب السياحة المصري بالاشتراك

مع شركة الخطوط العربية للطيران، تحت إشراف مصلحة السياحة الفرنسية، وحضر ذلك الحفل مجموعة كبيرة من السفراء العرب إلى جانب الصحافة العربية والغربية ثم لحق بهم كوكاتريكس. وفي الحفل أحاطت الجماهير بالسيدة أم كلثوم التي بدت سعيدة للغاية، وجاء الدكتور علي السمان وهو يحمل باقة ورد كبيرة وهو يقول بالفرنسية «بداية من اليوم ستحمل هذه الزهور في فرنسا اسم أم كلثوم، تعبيرًا عن إعجابِ الفرنسيين الشديد بفنها»، وخلال ذلك الحفل قدم السفير عبد المنعم النجار سفير الجمهورية العربية المتحدة في فرنسا إلى أم كلثوم ميدالية ذهبية كبيرة مصنوعة في باريس، على أحد وجهيها صورة الرئيس جمال عبد الناصر وعلى الوجه الآخر تاريخ زيارة أم كلثوم لباريس. وبعد نهاية هذا الحفل في الرابعة صباحًا، عادت السيدة أم كلثوم إلى مقر إقامتها في فندق «جورج الخامس» لتدهش مرة أخرى -حسب رواية الدكتور علي السمان- من وجود حشد من جمهورها ومعهم عشرون أميرًا من الدول العربية، يصفقون لها ويهتفون في شوارع باريس الهادئة «لقد رفعتِ رؤوسنا ورأس العالم العربي جميعه يا أم كلثوم!».

وعلى مدار يومين متتالين، 14 و15 نوفمبر، خصّصت الصحافة الفرنسية بعضًا من أعمدتها اليومية من أجل الحديث عن الحفلة الأولى للسيدة أم كلثوم، وكيف عاش الجمهور العربي ليلة عجيبة اختلط فيها الطرب بالسحر بالحنين إلى الوطن. في بداية الأمر، كان غناء أم كلثوم يمثل لغزًا للصحافة الغربية، فنشوة الطرب وحالة الوجد التي يعيشها المستمع عندما ينصت إلى غناء سيدة الطرب العربي كانت شيئًا ميتافيزيقيًّا غير قابل للفهم أو التفسير، كما أن الإنسان الغربي لم يَعتدْ على هذا الإفراط في الحماس والحب والتقدير من الجمهور

تجاه شخصية فنية ما، لكن كل تلك التساؤلات الفرنسية تلاشت بعد الحفلة الأولى، بل وقدمت الصحافة الفرنسية صورة مقدسة للسيدة أم كلثوم تمامًا كما كانت تُقدّم في الصحافة العربية.

فقد نشرت صحيفة لو فيجارو اليومية مقالًا في صباح اليوم التالي للحفل، الثلاثاء 14 نوفمبر1967، تحت عنوان «بعد منتصف الليل كانت أم كلثوم لا تزال تغني» جاء فيه «للمرة الأولى منذ أن أنشئ مسرح الأولمبيا، جاءت الاستراحة هذه الليلة عقب الأغنية الأولى التي كانت طويلة وامتدت ساعة وعشرين دقيقة، فالسيدة أم كلثوم، النجمة الأولى في العالم العربي، لم تَعتدْ على تقديم أعمال بسيطة لا تحتاج إلى جهد ونفس طويل، كان كل شيء غير معتاد بدءًا بالصالة التي جلس فيها عمال البناء مع السفراء جنبًا إلى جنب، وفي ركن ما في الصالة تخفى الملك الشاب حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية، وكان هنالك أيضًا الرسام المسلم كارزو، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من رجال الأمن.

وصلت السيدة أم كلثوم قبل ساعة من بداية الحفل، تتبعها فرقتها الموسيقية المكونة من تسعة وثلاثين فردًا، وقد رفضت ولوج مقصورة استبدال ثياب الفنانين التي أُعِدّت لها ومُلئت بالورود، وجلست على كرسي خلف الستارة تنتظر الجمهور كما ينتظر قائد عسكري العدو في ساحة المعركة.

في غضون ربع الساعة الأولى من بدء وصلتها الأولى، لم تقم أم كلثوم بشيء يذكر، فقط جلست وردّت بإيماءات صغيرة من رأسها لتحية عاصفة التصفيق التي اجتاحت القاعة، كان مجرد حضورها يثير نوبات من الهستيريا، وكان عشاقها يقفون على مقاعدهم بأرجلهم في جنون ليلوحوا لها بأيديهم، ويطلقون صيحات في الهواء الرطب هي

أقرب إلى همهمات غير مفهومة. إنّ هذه الظاهرة تتجاوز كونها مجرد حكاية أو طرفة، ويعترف المتخصصون أنّه لو قدر للعالم العربي أن يعرف وحدته يومًا فلا شك سيجدها في أم كلثوم».

أما صحيفة لو موند العريقة فقد عادت ونشرت مقالًا آخر عن السيدة أم كلثوم كتبه الناقد الصحفي والدبلوماسي الفرنسي، المصري المولد، إيريك رولو (1926-2015)، والذي عاش في مصر سنوات عديدة قبل أن يغادرها نهائيًا في عام 1951 ويستقر في باريس، حيث عمل في الصحف الفرنسية فترة، ثم عينه الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران (1916-1996) في السلك الدبلوماسي في تونس ثم تركيا. كان إريك رولو يعرف جيدًا من هي السيدة أم كلثوم، ويدرك حجم تأثيرها وسيطرتها على الجماهير العربية، ولهذا تعمدت لو موند إيفاده إلى المسرح مندوبًا عنها، وفي عدد الصحيفة الصادر يوم الأربعاء 15 نوفمبر 1967 كتب إيريك مقالًا سجل فيه تفاصيل الحفل الأول كما رآها «ما إن رُفعت الستارة حتّى الصخب، كادت الصالة تتصدع من التصفيق الحاد، ظهرت كوكب الشرق التي أسرت العرب في مملكتها عقودًا من الزمن، ولمدة فاقت أربع ساعات سحرت أم كلثوم ملكة الطرب العربي جمهورها.

وأم كلثوم المصرية قلما غادرت عاصمتها، فعشاقها يحجون لسماعها كما يقصدون مكة. فلحضور حفلتها الشهرية بالقاهرة، يركب متوسطو الحال القطار أو الباخرة، ويستأجر الآخرون الطائرة، أما الفقراء فيتلاصقون حول جهاز الراديو. ومساء هذا الاثنين، اضطُرّ مئات الطلبة العرب إلى الاقتصاد في نفقاتهم للحصول على تذكرة الحفلة العجيبة وعبرها متعة استحضار لحظاتها لسنوات قادمة. كان جميع الممثلين الدبلوماسيين العرب من المحيط إلى الخليج الفارسي

في الموعد، وبدورهم رفض أمراء ورجال أعمال من السعودية والكويت والمغرب أن يتخلفوا عن حفلة امتدت حتى الثانية صباحًا.

تمنح هذه العملاقة المقدسة التي جاوزت الستين شعورًا بقوة الإرادة، بالصلابة والشموخ بالنظرة المتسلطة، كل سحرها في صوتها العذب وإلقائها البلوري الشفاف، لا تأسر المتفرجين كمجموعة، بل كل فرد منهم على حدة، لينشأ حوار حميمي عاطفي صاخب، ويصير تواصل تام بين خشبة المسرح والصالة قوامه النغم في تأثير سحري لا تقطعه إلا ضربات بالأرجل على الأرض وصرخات النشوة. يثير البعد الشاعري للأغنية طرب البعض ودموع البعض الآخر، ويطلق الإيقاع العنان لا شُعوريًّا لحركات جسدية فتانة، ولا يتمالك البعض نفسه فيترك مقعده ويتحرك ليرسم خطوات بالرقص، العيون مغمضة والوجوه كأنّها معذبة بتأثير ألم داخليّ حاد. بصوت مخنوق من شدة الانفعال تدخل المطربة بجملة عاطفية معروفة، يبدو أنّها المفضلة عند الرئيس عبد الناصر، ويبدو أنّها في الظروف الحالية تأخذ تأويلًا جديدًا: «أعطني حريتي أطلق يَدَيَّ»، وينجلي الحزن العميق الذي خيّم على القاعة فجأة حين تنهي أم كلثوم المقطع بصرخة ثائرة «ما احتفاظي بعهود لم تصُنها وإلامَ الأسْر والدنيا لديّ». تحولت الأولمبيا إلى «Vel d'Hiv» (قاعة باريسية شهيرة وضخمة مخصصة لسباق الدراجات) في لياليها الكبيرة، وقفت الصالة تصفق عن بكرة أبيها تصيح معبرة عن سعادتها، وتخطّى بعض الشباب المنظمين وغمروا المسرح وأحاطوا بالفنانة يقبلون يديها وأطراف فستانها».

سمعت السيدة أم كلثوم عن كل تلك المقالات الصحفية التي أشادت بقدراتها الفنية وعبقريتها الغنائية. وتذكر صحيفة الأهرام الصادرة في يوم 4 فبراير 1975 أن من المرات القليلة التي شوهدت

فيها أم كلثوم تبكي كانت عندما قرأ عليها أعضاء البعثة العربية المرافقة بعضًا من صدى حفلتها الأولى في الصحافة الفرنسية، ففي صالون جناحها في فندق «جورج الخامس» جلست أم كلثوم وابن شقيقتها محمد الدسوقي وأخيه رفعت الدسوقي وجلال معوض وجلال الجويلي والإعلامية سلوى حجازي، ودار الحديث عن الاستقبال الذي فاق كل وصف من جماهير الشعب العربي التي تدفقت على باريس لكي تسمعها، ومدى الحفاوة التي أظهرتها الصحافة الفرنسية في الترحيب بالسيدة أم كلثوم وفنها، وفجأة أصاب الجميع الوجوم عندما شاهدوا أم كلثوم تبكي ودموعها تتدفق على خديها في صمت، ثم قبل أن تمسح دموعها قالت في أسى «كان نفسي أغني في ظروف غير الظروف دي، كان نفسي أغني وإحنا منتصرين، لكن معلش، ربنا حينصرنا إن شاء الله، مصر موش ممكن تنهزم!».

وربما كان الممكن ألا تحظى الحفلة الثانية للسيدة أم كلثوم في باريس ليلة الأربعاء 15 نوفمبر 1967 بنفس مقدار الاهتمام الذي حظيت به الحفلة الأولى، فالحفلات الثانية عادة ما تكون تعويضًا لمن لم يستطع حضور الحفل الأول، ولكن ما جرى في تلك الليلة من أحداث قد خلد في الأذهان تلك الحفلة، بل ورسخها كعلامة مميزة على مدى المحبة الشعبية والحفاوة الجماهيرية التي استُقبلت بها السيدة أم كلثوم في باريس.

وتمامًا كما في الحفلة الأولى، كانت مهمة الحصول على تذاكر الحفل هي الشغل الشاغل لكل عرب باريس، إلّا أنّ فرص الحصول عليها قد ازدادت صعوبة في الحفلة الثانية، خصوصًا بعدما نفدت من السوق السوداء أيضًا، وذلك بسبب الوفود العربية التي قدمت من المغرب العربي إلى باريس لحضور الحفل الثاني بعد ما شجعها على

ذلك ما نشرته الصحافة العربية من أصداء للحفل الأول، ذلك الإقبال الذي دفع أسرة مكونة من سبعة أفراد وفدت من المملكة المغربية أن تضحي بمبلغ 700 جنيه إسترليني -وهو ما يعتبر ثروة طائلة في ذلك الوقت- من أجل حجز تذاكر في الصفوف الخلفية في الحفلة الثانية. ذلك الإقبال الجنوني جعل كوكاتريكس يخصص 500 تذكرة إضافية على شرط أن يقف أصحابها على جانبي القاعة وكذلك مؤخرها. ورغم أن سعر تذاكر الوقوف كان خمسة جنيهات إسترلينية في الحفلة الأولى، فإنَّ كوكاتريكس أراد استغلال الموقف ليزيد ثمن التذكرة الواحدة ليصل إلى ثمانية جنيهات إسترلينية. لكن كل تلك المحاولات لزيادة عدد التذاكر لم تقدر على استيعاب حجم الطلب عليها، فظلت الطوابير خارج المسرح تزداد طولًا ولا تقل، ورغم تدخل رجال الشرطة لتفريق تلك الصفوف، فإنّ الجماهير كانت تصرّ على أن تبقى بجوار المكان الذي ستشدو داخله أم كلثوم في تلك الليلة. وقد واجهت الشريفة دينا عبد الحميد (1929-2019) ملكة الأردن السابقة أيضًا مشكلةَ الحصول على تذكرة، ما جعلها تتواصل مع السيدة أم كلثوم التي توسطت بشكل شخصي عند كوكاتريكس من أجل توفير تذكرة لملكة الأردن السابقة!

بدأت الحفلة الثانية في حدود الساعة التاسعة مساءً، وظهرت السيدة أم كلثوم على المسرح وهي ترتدي ثوبًا بَنَفسجِيًّا من «الدانتيل» مصمّمًا على شكل «الكيمونو» الياباني، ومطرزًا حول الرقبة والأكمام والذيل من الجانبين، وما إن فتحت الستارة هذه الليلة حتى أمطر رواد القاعة السيدة أم كلثوم بالورود والزهور، وهو ما اعتبرته مجلة «الكواكب» المصرية تقليدًا جديدًا من عشّاق سيدة الغناء العربي.

قدمت أم كلثوم في وصلتها الأولى تلك الليلة أغنية «أمل حياتي» للمرة التاسعة منذ أن أطلقتها في ديسمبر 1965، وغنتها فيما يقرب من

75 دقيقة. كان الإذاعي الكبير جلال معوض قد قدم الوصلة الأولى إلى الجماهير العربية من باريس، وذلك بعدما انضمّت جميع الإذاعات العربية في تلك الليلة إلى إذاعة القاهرة لنقل الحفل، وقد سهر في إستديوهات الإذاعة المصرية في تلك الليلة الإذاعي الكبير محمد محمود شعبان (1912-1999)، والإذاعية صفية المهندس (1922-2007) مديرة البرنامج العام، وفاروق عامر مدير التسجيل، من أجل ضمان عملية تنقية الصوت على ثلاث موجات خصّصها راديو باريس لنقل الحفل، والتي بقيت تبث برامجها في تلك الليلة حتى الرابعة صباحًا لكي تساعد إذاعة القاهرة في عملها، وذلك بعدما أصدر وزير الاستعلامات الفرنسي أول قرار من نوعه في تاريخ الإذاعة والتليفزيون الفرنسي باستمرار العمل حتى نهاية الوصلة الثالثة في حفل أم كلثوم.

ويذكر الكاتب الكبير محمد سلماوي في مذكراته التي نشرها مؤخرًا في كتاب بعنوان «يومًا أو بعض يوم» تفاصيل قد تبدو مترابطة بعض الشيء مع ما نشرته الصحف المصرية حول تقديم الإذاعي جلال معوض لذلك الحفل، فيذكر سلماوي الذي حالفه الحظ في حضور حفلتي باريس «في الاستراحة فوجئت بكاكاتريكس يهرع إليّ، طالبًا منّي التوجه معه إلى «مدام أم» كما كان ينادى أم كلثوم، متصورًا أن هذا هو اسمها وأن «كلثوم» هو لقب العائلة. وكان كثيرًا ما يحتاج إلى الترجمة في حديثه مع أم كلثوم التي لم تكن تحدثه إلا باللغة العربية، وقد تصورت في البداية أنّها لا تجيد الفرنسية، إلى أن استمعت إليها تتحدثها بسهولة. كانت أم كلثوم جالسة وسط الفرقة الموسيقية على كرسي مذهب من طراز «لويس السادس عشر» غير الكرسي الخيزران الذي اعتدناه في حفلاتها بالقاهرة.

كان عازف الكمان الأول أحمد الحفناوي إلى جوارها، وكانت

بقية أعضاء الفرقة تستمع إليها وهي تبدي بعض الملاحظات، فحياها «كوكاتريكس» وقبّل يدها، فردّت عليه التحية من دون أن تنهض من كرسيها، فأبدى مدير المسرح اعتراضه على طريقة تقديم الوصلة الأولى من الحفل التي «تحدث فيها المذيع حديثًا سِياسِيًّا ليس هذا مجاله» على حد قوله، وكان جلال معوض قد قدم الحفل باعتباره نصرًا سِياسِيًّا للعرب، وقال: «اليوم تشدو كوكب الشرق في عاصمة النور باريس، وغدا بإذن الله تشدو في القدس المحررة»، وناشد كوكاتريكس أم كلثوم أن تطلب من المذيع ألا يقدم الوصلة الثانية بهذه الطريقة الحماسية، مضيفًا «نحن في حفل فني، ولسنا في مناسبة وطنية» ويستطرد سلماوي في سرد الواقعة «وشعرت بالحرج من الموقف، وتحيّرت كيف سأترجم ذلك لأم كلثوم، لعلمي بأنّها لن تقبل هذا الكلام، لكنني قبل أن أنتقى كلماتي، وجدتها تنتفض واقفة وقد فهمت من دون ترجمة كل ما قاله المدير اليهودي للمسرح، وقالت «قل له بل نحن في مناسبة وطنية، وإني جئت إلى فرنسا من أجل المساهمة في المجهود الحربي لبلادي، وإذا كان أسلوبنا لا يروق له فليعتبر اتفاقنا ملغًى، ثم التفتت إلى الموسيقيين وقالت لهم «لموا الآلات يا ولاد» وكاد كوكاتريكس يغشى عليه وأنا أترجم له بسرعة ما قالته أم كلثوم، وأمام اعتذاراته المتكررة وتوسلاته المتلاحقة، تراجعت أم كلثوم، وقدم جلال معوض الوصلة الثانية من هذا الحفل التاريخي من دون أن تحاول أم كلثوم كبح حماسه الوطني».

يسرد الأديب محمد سلماوي الواقعة على أنّها قد حدثت في الحفل الأول يوم 13 نوفمبر 1967، ولكني لا أعتقد أن تلك الواقعة قد حدثت فعلًا في الحفل الأول بل وقعت في الحفل الثاني ليلة 15 نوفمبر 1967، وربما يؤكد ذلك ثلاثة شواهد مختلفة؛ أولها ما نشرته صحيفة

«الجمهورية» القاهرية الصادرة بتاريخ 16نوفمبر 1967وتحديدًا في طبعتها الثانية، إذ أكدت أن الفريق الإذاعي الذي رافق السيدة أم كلثوم إلى باريس وعلى رأسه جلال معوض، لم ينجح في تجاربه التقنية لنقل الحفل الأول على الهواء مباشرة، أي أن جلال معوض لم يقدم الحفل الأول إلى الجمهور العربي من الأساس، وأكدت الصحيفة ذاتها أن ذلك الفريق قد نجح فعلًا في نقل الحفل الثاني فقط إلى جمهور المستمعين العرب، وكانت الإذاعة المصرية بذلك تنقل للمرة الأولى في تاريخها إذاعة خارجية مباشرة من فرنسا، وقد تم ذلك على موجات إذاعية قصيرة وهذا ما سمحت به تقنيات العصر آنذاك، ورغم تلك التقنيات المحدودة فقد حاول مهندسو الإذاعة بأقصى ما لديهم من إمكانات أن ينقلوا حفل أم كلثوم بأفضل جودة ممكنة؛

أما الشاهد الثاني فهو ما نشرته الأهرام، في عدد 16 نوفمبر 1967، وأكدت فيه أن جلال معوض قد انفعل فعلًا خلال تقديمه للحفل الثاني، وأخذته الحماسة وظل يردد كلمة «سننتصر» أكثر من مرة خلال تقديمه للوصلة الثانية. أما الشاهد الأخير فهو ذلك الحوار الإذاعي الذي قدمه جلال معوض بين الوصلتين الأولى والثانية في الحفل الثاني مع السفير المصري في فرنسا عبد المنعم النجار، والذي بعدما تحدث في البداية عن أم كلثوم وأثر تلك الرحلة على مستوى الدعاية للقضية المصرية قال لإذاعة القاهرة «أرجو أن أحيّي أبناءنا وأخواتنا في القنال، والدور العظيم اللي بيقوموا بيه، وأنظار العالم متجهة إليهم، والثقة الكاملة للمجهود والواجب الكبير الذي يقومون به». إذًا، هذه الشواهد الثلاثة تؤكد أن ما رواه الأديب الكبير محمد سلماوي قد وقع فعلًا في الحفل الثاني وليس في الحفل الأول، وتحديدًا قبل أن تقدم أم كلثوم وصلتها الثانية في تلك الليلة.

كان من المفترض أن تقدم السيدة أم كلثوم قصيدة «أراك عصيّ الدمعِ» في وصلتها الثانية، ولكن تحت ضغط الجاليات العربية ورغبة آلاف الجماهير في باريس، وافقت أم كلثوم على أن تعيد غناء قصيدة «الأطلال» مرة ثانية في ذلك الحفل بعد أن غنتها في حفلها الأول. وبالفعل، ما إن بدأت الفرقة الموسيقية تعزف المقدمة البديعة لتلك القصيدة حتى هاجت القاعة وعلا التصفيق.

بدت الوصلة الثانية هادئة نِسْبِيًا عن الوصلة الأولى، ولكن ذلك الهدوء لم يدم طويلًا؛ ففي الثلث الأخير من القصيدة، وبعد أن فرغت أم كلثوم من أداء المقطع الذروة «هل رأى الحُبّ سُكارى مثلنا»، استبدّ الطرب بشاب عربي يجلس في أقصى الصف الأول على يسار السيدة أم كلثوم. وبسرعة جنونية، قام ذلك الشاب وركض نحو خشبة المسرح ليصعدها، ثم ارتمى فوق قدمي السيدة أم كلثوم يقبلهما. ارتبكت أم كلثوم في البداية، وربما راودتها بعض الأفكار بأن ذلك الشاب يريد بها شَرًّا، لكنّ الشاب ظل في وضعية ثابتة فوق قدميها لا يتحرك، وهنا حاولت أم كلثوم أن تزيحه من فوق قدميها، لكنها لم تقدر بسبب قوة تمسكه بها.

وفي لحظات، كان رجال الأمن داخل القاعة قد تنبهوا إلى ما يحدث، ووضع بعض رجال الفرقة الموسيقية آلاتهم جانبًا لمساعدة السيدة أم كلثوم في ذلك الموقف، كما ترك جلال معوض مقعده في أحد جوانب القاعة وقفز خلف ذلك الشاب وكذلك قفز وراءه رفعت الدسوقي ابن شقيقة أم كلثوم، لكنّ الشاب ظل متشبثًا بقدمي أم كلثوم، التي حاولت بشتى الطرق أن تسحب قدميها بقوة، لكن الشاب جذبها إليه بقوة مضادة، ما أدى في النهاية إلى سقوط السيدة أم كلثوم على المسرح مستلقية على ظهرها، لدرجة أن مؤخرة رأسها كادت أن

ترتطم بأرضية المكان الذي يجلس فيه الموسيقيون. في تلك اللحظة، غرقت القاعة في صمتٍ رهيبٍ من هول الصدمة، فقد كان المنظر مؤثرًا حَقًّا؛ فأم كلثوم سيدة تقترب من السبعين من عمرها، وربما كانت لا تقدر على تحمل سقطة مثل هذه، كما أنّ جزءًا من ثوب السيدة قد رفع وبدت ساقاها إلى ما بعد الركبة بقليل. حاول رجال الفرقة مساعدة السيدة أم كلثوم على القيام، والتأكد من أنّها بخير ولم يُصبها مكروه، ثم صعد عملاقان من أفراد حفظ النظام بالقاعة وأمسكا المعجب المجنون وأنزلاه من المسرح مطأطأ الرأس، لكن الجمهور المذهول مما حدث أفاق لكي يكيل له اللكمات حتى سالت دماؤه، واستدعى رجال الأمن داخل القاعة سيارة الإسعاف التي نقلته تحت الحراسة إلى المستشفى.

كان ذلك الموقف كفيلًا بإسدال الستار وإنهاء الحفل، ولكن أم كلثوم التي اعتادت طوال حياتها الفنية أن تجتاز مثل تلك المواقف الصعبة في حفلاتها، قررت أن تتجاوز ذلك الموقف وبأقصى سرعة. وفي ظرف أربع دقائق بالضبط، وقفت أم كلثوم ونفضت ثوبها البنفسجي وهي تقول لرجال الفرقة في ضيق «إيه ده؟»، ثم أعطتهم الإشارة بإكمال اللحن، وهنا قال رجال الفرقة لبعضهم البعض «كمل.. كمل»، ليأتي دور عازف الناي الكبير سيد سالم الذي غرد بآلته فَرحًا، وكأنّه يزغرد على نجاة السيدة أم كلثوم من ذلك الحادث الغريب، وبمجرد أن بدأت الموسيقى مرة أخرى، هبَّ الجمهور في حالة تصفيق جنوني، البعض في القاعة كان يبكي فرحًا بنجاة أم كلثوم، والبعض الآخر كان يهتف بحياتها. كانت الجماهير العربية تحديدًا تريد مساعدة السيدة أم كلثوم في أن تتجاوز ما جرى وأن تكمل حفلتها بشكل طبيعي، وهو ما كان فعلًا، فأكملت أم كلثوم غناء باقي مقاطع

القصيدة، بل إنّها أعادت المقطع ذاته الذي كان السبب في نشوة الشاب أكثر من مرة، ولكنّ الجماهير التي صعقها ما حدث هدأت قليلًا، وكأنّما أرادوا ألا يثير تفاعلهم مع الغناء مزيدًا من الحوادث، وبعد قرابة الساعة تقريبًا أنهت أم كلثوم وصلتها الثانية.

بعد نهاية الوصلة الثانية، طلبت أم كلثوم أن تعرف من هو ذلك الشاب الذي هجم على قدميها في أثناء غنائها وما مصيره، فأخبرها السفير المصري عبد المنعم النجار أنّه شاب جزائري الجنسية، يعمل في باريس، وأنّه بمجرد علمه بقرب وصولها، ظل يدخر طوال شهر كامل مبلغ 120 فرانكًا فَرِنْسِيًا هي ثمن تذكرته، وذلك حتى يستطيع أن يرى أم كلثوم، فهي معبودته الفنية التي يهيم بصوتها منذ أن كان طفلًا في الجزائر، فطلبت أم كلثوم من السفير أن يتدخل لدى الشرطة الفرنسية حتى لا يصيب ذلك الشاب أي مكروه. وبالفعل، بعدما تواصل السفير مع الشرطة، عاد ليخبر أم كلثوم أن البوليس الفرنسي سوف يفرج عنه بعد أن استمع إلى أقواله، حيث تأكد أنّ الشاب فقد مشاعره عندما حاول أن يعبر عن تقديره نحو أم كلثوم.

ولكنّ اللافت للنظر هو اختلاف الصحافة العالمية والعربية في التعامل مع ذلك الحادث، فالصحافة الفرنسية قد نشرت تحقيقات كاملة عما جرى وأشارت إلى تفاصيل الحادث مرارًا وتكرارًا، بل أن مجلة «الحوادث» الفرنسية قد نشرت في عددها الصادر يوم 25 نوفمبر 1967 تحقيقًا كاملًا عن الحادث، وأرفقت بالتحقيق صورًا لأم كلثوم وهي مستلقية على المسرح بعدما أوقعها ذلك الشاب. في حين قالت وكالة «ريبورتر أسوسيه» الفرنسية إنّ الشاب الذي صعد إلى المسرح ليقبل قدم السيدة أم كلثوم هو إِسرائيليٌّ متعصب أراد الاعتداء عليها، ولكن بالطبع لم تكن تلك الحقيقة.

أما الصحافة العربية فقد تعاملت مع هذا الحادث بأسلوبين: الأول ما انتهجته الصحف المصرية التي حاولت أن تتغاضى تمامًا عما حدث مثل ما فعلته مجلة «الكواكب» المصرية، أو ذكرته أحيانًا بشيء من التلطيف وعلى هامش التغطية، كما فعلت صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 18 نوفمبر 1967، حين سردت ملابسات الحادث دون أن تذكر صراحة أن السيدة قد سقطت على المسرح بل اكتفت بالقول «تعثّرت قدماها» فقط.

أما الصحافة اللبنانية فكانت أكثر تحررًا في التعامل مع الواقعة، فنشرت الصحف اليومية في بيروت تفاصيل الحادث، وخصصت مجلة «الشبكة» اللبنانية تحقيقًا عن الحادث في عددها الصادر يوم 27 نوفمبر 1967، بل إنّها نشرت صور الواقعة التي التقطها المصور المصري فاروق إبراهيم (1939-2011) والذي كان يرافق أم كلثوم في تلك الجولة مندوبًا عن مؤسسة أخبار اليوم المصرية، وهي ذاتها الصور التي أغضبت السيدة أم كلثوم من فاروق إبراهيم، بل إنّها قاطعته عدة أيام عقابًا له.

وفي الوصلة الأخيرة في الحفل الثاني، قدمت أم كلثوم أغنية «فات الميعاد»؛ رائعتها لموسم عام 1967. وقبل أن تبدأ أم كلثوم في الغناء، صعد الدكتور علي السمان إلى المسرح، ووقف أمام الميكروفون وخاطب الحضور: «السيدة أم كلثوم ستوجه إليكم كلمة تحية»، فانتفضت القاعة واقفة تصفق بشدة لأم كلثوم، وهنا تشجعت الست واقتربت من الميكرفون قائلة: «أيها السادة والسيدات، لا أجد من الكلمات ما أعبر به عن شكري لكم على حسن مقابلتكم لفننا العربي، وشكرًا». ثم أعاد الدكتور السمان ترجمة ما قالته السيدة أم كلثوم بالفرنسية كي يفهمه جميع من في القاعة. وفي لفتة ذكية، أرادت أم

كلثوم تحية كل أفراد فرقتها الموسيقية، على ما بذلوه معها من مجهود طويل في الشهور الماضية، فقدمتهم للجماهير «أيها السادة أقدم لكم حضرات الموسيقيين»، كانت أم كلثوم تقول لقب «الأستاذ» ثم يتبع قولها قيام كل عازف وتعريف نفسه إلى الجماهير. وبعدما عرف الجميع نفسه، بدأت الوصلة الثالثة والأخيرة. وقرب نهاية الأغنية، وعند مشهدها الختامي، وقفت طويلًا عند مقطع «من ناري من طول لَيَاليَّ» فارتجلت وأعادت غناءه بتلوين نغمي لم يسبق لها أن قدمت مثله من قبل، فكان ذلك خير نهاية لوقوفها الأسطوري على خشبة مسرح الأولمبيا في باريس. وبدلًا من أن تنتهي الحفلة الثانية مثل الحفلة الأولى في الثانية والنصف صباحًا، أنهتها أم كلثوم في حدود الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لذلك شعر الجمهور العربي في تلك الليلة وهو يخرج من المسرح بالحسرة، بعدما أدرك أن المهرجان العربي في باريس قد انقضى ومضت لياليه.

في اليوم التالي، الخميس 16 نوفمبر 1967، أقامت السيدة أم كلثوم في ظهيرة ذلك اليوم مزادًا علنيًا في مسرح الأولمبيا، باعت فيه صورًا لها موقعة بإمضائها إلى الجماهير العربية والفرنسية في باريس، كما باعت فيه عقدًا من مجموعتها الذهبية الخاصة، وخُصص إيراد ذلك المزاد لصالح المجهود الحربي، وما إن بدأ المزاد حتى جمع ألوفًا من الجنيهات الإسترلينية أضيفت فيما بعد إلى حصيلة دخل الحفلتين، التي بلغت 25 ألف جنيه إسترليني، كان نصيب السيدة أم كلثوم منها 14 ألف جنيه، وهو ما كان منصوصًا عليه في العقد بينها وبين كوكاتريكس، حولتها السيدة أم كلثوم كلها إلى خزانة الدولة المصرية لصالح المجهود الحربي.

ويروي الكاتب الكبير سعد الدين وهبة (1925–1997) أنّ السيدة

أم كلثوم قد اتصلت من باريس بوزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة، تخبره أن بحوزتها 500 جنيه إسترليني إضافية، بعد أن حُوّلَ أجرها بالكامل إلى مصر، وقالت له: «إذا كانت الوزارة تحتاج إلى عملة صعبة لشراء أي شيء، فسوف أعطي لكم هذا المبلغ، على أن توفروا لي بدلًا منها عملة محلية حتى أقدمها للقوات المسلحة». ويذكر سعد وهبة ذلك الموقف النبيل لأم كلثوم، ويقول إنّ الوزير ثروت عكاشة قد جمع في ذات اليوم كبار موظفي الوزارة وقال لهم: «أم كلثوم وفرت لنا العملة الصعبة، وشوفوا ممكن نشتري إيه في حدود المبلغ الذي أخبرتني به!».

أنهت السيدة أم كلثوم برنامجها الفني في باريس في الساعات الأولى من صباح يوم الخميس 16 نوفمبر 1967. ورغم ذلك، قررت أن تمدّد إقامتها في العاصمة الفرنسية أسبوعًا آخر من أجل الراحة والاستجمام من ناحية، ومن ناحية أخرى تلبية بعض الدعوات التي وجهت إليها من قبل الحكومة الفرنسية أو من بعض الشخصيات العربية في باريس قبل العودة إلى القاهرة. وخلال ذلك الأسبوع الإضافي الذي أقامته السيدة أم كلثوم في باريس، صدر في فرنسا ما يقرب من خمسة وعشرين مجلة وصحيفة أسبوعية، تصدرت صورة السيدة أم كلثوم غلاف أربع مجلات كبرى منها. ولعل متابعة ما كتبته الصحافة الفرنسية خلال هذا الأسبوع تكشف حجم التفاعل الذي خلفه غناء أم كلثوم في باريس، وقدر الاهتمام الغربي الذي بذلته الصحافة الفرنسية في تقديم الأسطورة الشرقية التي واجهت الغرب للمرة الأولى إلى الجمهور الفرنسي، فلم يخفِ الصحفيون الفرنسيون دهشتهم واستغرابهم من الجمهور الفقير الذي احتشد أمام المسرح ليلتي غناء أم كلثوم، وكيف ضحى هؤلاء المعدمون بأجورهم

البسيطة، والتي بالكاد تسد حاجاتهم الأساسية، من أجل حضور حفلة باهظة الثمن مثل هذه، وتحدثت الصحف الفرنسية عن تلك الطوابير الطويلة التي اصطفت أمام مدخل المسرح على أمل الحصول على تذكرة واحدة، أو أن يتناهى إلى أسماعهم شيء من غناء السيدة أم كلثوم داخل القاعة.

فكتبت صحيفة فرانس سوار France Soire في افتتاحيتها مقالًا تعقيبًا على رحلة أم كلثوم إلى باريس «عندما تغني إلهة الفن المصري أم كلثوم، تهتز الرؤوس من شدة النشوة، كما تهتز أغصان النخيل على النيل، أم كلثوم أغلى مطربة في العالم، تقاضت 19 مليون فرنك، ولكنها حققت أيضًا لمسرح الأولمبيا أكبر دخل في تاريخه الطويل».

وكتبت مجلة لو نوفيل أوبسرفاتور Le Nouvel Observateu الأسبوعية في هذا الصدد «لقد كان الحاضرون يستمعون إلى أم كلثوم وهم يبكون ويهتفون، لقد كانوا كالسكارى، فما إن سمعوا الموسيقى والغناء حتى استبدت بهم النشوة، كما كانوا يتفاعلون مع كلمات الأغنيات». وكتب الناقد الموسيقي للمجلة نفسها عن صوت أم كلثوم: «هذا صوت أكثر من رائع، وأم كلثوم هي أكثر بكثير من مطربة، إنّها الشعور العربي، وأم كلثوم هي مزيج غريب من القوة المطلقة والعواطف العميقة والشعور الجياش.».

وتصف المجلة بعد ذلك نشأة أم كلثوم وتاريخ حياتها، وتذكر بعض الإشارات عن مكانتها في قلوب الشعب العربي، وتخلص بعد ذلك «إن أم كلثوم سيدة تعيش مع شعبها وتحس بإحساسه، وللمرة الأولى في حياتها تنخرط في الحياة السياسية، وللمرة الأولى استخدمت اسمها لخدمة قضية وطنها ولجمع الأموال للمجهود الحربي في الجمهورية العربية المتحدة، وإغاثة ضحايا الحرب» ثم

تستطرد المجلة «ولقد تبارى المتبرعون في جميع أنحاء العالم العربي في العطاء، فبعثوا إلى أم كلثوم بألوف القطع الذهبية، وبكميات كبيرة من المجوهرات» وختمت المجلة حديثها بشرح أغنية أم كلثوم الوطنية «راجعين بقوة السلاح» التي غنتها أم كلثوم قبل الهزيمة بأيام قليلة.

أما صحيفة لومانيتيه الفرنسية العريقة، فكتبت مقالًا طويلًا تحت عنوان «القدرة العجيبة لفنانة كبيرة» جاء فيه «أم كلثوم فنانة كلاسيكية ذات حنجرة قوية بلا حدود، تعرف كيف تصل إلى قلوب مستمعيها، ولم نشاهد قبل اليوم نموذجًا لهذه المقدرة العجيبة على خلق الاتصال التام بين الفنان ووجدان مستمعيه لمدة أربع ساعات، أثار غناؤها في بدء الأمر فضولي ثم استغرابي، وأخيرًا وجدت نفسي مندمجًا تحت سيطرة هذه الشخصية الفريدة، شخصية أم كلثوم التي خلقت لنا في مسرح الأولمبيا جَوًّا عجيبًا ساحرًا».

وفي الصفحة الفنية في صحيفة «الجمهورية» الباريسية، كتب ناقد فني تعليقًا على السيدة أم كلثوم: «أم كلثوم ليست نجمة مصر الأولى وكوكب الشرق فحسب؛ بل هي شخصية إنسانية كبيرة، تسمع وتحترم كذلك». أما مجلة «جون أفريك» فكتبت موضوعًا كبيرًا تحت عنوان «أم كلثوم أغنية العرب العميقة» ذكرت فيه: «منذ نحو نصف القرن وهذه السيدة تعتبر رمزًا لأعياد مئة مليون عربي».

وقد تخطى الاهتمام بحفلي السيدة أم كلثوم في باريس الصحافة الفرنسية، وتجاوز ذلك إلى الصحف والإذاعات العالمية أيضًا، فتصف وكالة «الأسوشيتد برس» الأمريكية الحدث: «أم كلثوم قادت تظاهرة سياسية وطنية في باريس هذا الأسبوع.. استقبلت الجماهير في مسرح أولمبيا المطربة العربية العالمية المشهورة أم كلثوم استقبالًا لم تشهده مطربة عالمية من قبل، كما لم يشهد المسرح مغنية تقف على قدميها

خمس ساعات متواصلة، تغني بكل ما أوتيت من قوة وإحساس». وفي ذات الأسبوع، نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» صورة كبيرة للسيدة أم كلثوم مع مقال على أربعة أعمدة كتبه مراسلها في باريس تحت عنوان «مطربة مصرية تهز القاعة التي غنت فيها في باريس». وقال المراسل في تغطيته إنّ أم كلثوم قضت قرابة الست ساعات في غنائها المتواصل، لتنشد خلالها ثلاث أغانٍ فقط، وكان غناؤها شرْقيًّا لأبعد الحدود، فلا حركات ولا اهتزازات باستثناء هز رأسها وتفاعلها البسيط مع الأنغام. وجاء في نهاية المقال «إنّ المسرح الكبير قد امتلأ عن آخره، بعدما طار الكثيرون إلى العاصمة الفرنسية من جميع أنحاء أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا فقط ليسمعوا مطربتهم المقدسة أم كلثوم!» وقد أذاع راديو «لوكسمبرج» في أحد برامجه الإذاعية تغطية للحفل «إننا واثقون من أنّه لو جاءت أم كلثوم لتغني في باريس مرة كل شهر، لوجدت جميع مقاعد القاعة محجوزة».

شكَّل حجم الاهتمام الإعلامي الغربي بزيارة السيدة أم كلثوم تلك أهمية كبرى، ففي كل الموضوعات التي كُتبت عنها في الصحافة الفرنسية والغربية كان ذكر القضية المصرية حاضرًا وبقوة، بل إنّ أم كلثوم ذاتها قد لمست في حديثها مع بعض الفرنسيين الذين قابلتهم في باريس تعاطفًا كبيرًا مع الموقف العربي، وذلك بعدما اتّضحت الرؤية قليلًا، واستمع المواطن الغربي للمرة الأولى إلى الطرف الآخر في المعركة، بعدما سيطرت الدعاية الصهيونية على الوعي الفرنسي سنوات عدة. ربما عملت تلك الصورة التي صدّرتها الصحافة الفرنسية عن وطنية السيدة أم كلثوم على ترسيخ الاعتقاد بأنّها شخصية سياسية وليست فنية فقط، بل جعل الفرنسيون ينظرون إلى تلك الزيارة على اعتبارها حدثًا سِياسِيًا كبيرًا وليس فَنيًا، وأن أم كلثوم هي سفير متجول

للرئيس جمال عبد الناصر في العالم، فيعلق جون ميشيل بوريس نائب مدير الأولمبيا في ذلك الوقت على هذا «الجميع كان يعرف أن أم كلثوم كانت مثل سفيرة للرئيس الراحل عبد الناصر، ليس لوزنها وحضورها الفني فحسب، بل السياسي أيضًا»، ولقد وعت السيدة أم كلثوم هذه الحقيقة منذ أن استقرت في باريس. ولهذا، وبمجرد أن فرغت من تحضيرات الحفلتين، فكّرت في كتابة رسالة شكر وتقدير إلى الرئيس الفرنسي شارل ديجول، لما عرف عنه من مواقف محايدة في أثناء الهزيمة، بل وميل إلى القضية العربية أحيانًا. وبالفعل، طلبت السيدة أم كلثوم من الدكتور علي السمان أحد الجنود الحقيقيين في تلك الزيارة أن يكتب لها برقية بليغة ومختصرة إلى الرئيس ديجول الذي أبدت إعجابها به أكثر من مرة خلال الرحلة، وهو ما كان فعلًا، فكتب الدكتور علي السمان الرسالة وعرضها على السيدة أم كلثوم، فوافقت عليها وأقرتها، وكان نص الرسالة كالتالي: «وأنا أحل في فرنسا، أردت أن أُحيّي فيكم وقوفكم مع العدالة وإلى جانب السلام»، ووقعت السيدة أم كلثوم في نهاية البرقية بعبارة «أم كلثوم، مواطنة مصرية». وقبل أن تغادر السيدة أم كلثوم باريس، جاء الرد على رسالتها من الرئيس ديجول. ويتذكر الدكتور على السمان الطريقة التي رد بها الرئيس ديجول «بعث لها الرئيس شارل ديجول بمبعوث من قصر الرئاسة إلى فندق جورج الخامس، وقال لها وهو يحيها لوجودها في باريس، «أنتِ ضمير أمة»، وسلمها رسالة من الرئيس ديجول كتبها بترلان، أشهر مناضل فرنسي ضد الاحتلال الألماني بخط يده». وكان نص الرسالة الرئاسية على الآتي: «لقد لمستِ بصوتك سيدتي أحاسيس قلبي وقلوب الفرنسي جميعًا»، ووقعت الرسالة في نهايتها بخط الرئيس شارل ديجول نفسه.

وكما احتفت الصحافة الفرنسية والعالمية برحلة أم كلثوم إلى باريس، احتفت أيضًا الصحافة العربية والمصرية على وجه التحديد بتلك الرحلة التاريخية. فواكبت الصحف اليومية في مصر تفاصيل الزيارة يومًا بيوم عن طريق مندوبي الصحف الذي طاروا خلف أم كلثوم إلى باريس، وخصصت مجلة «الكواكب» عددًا تَارِيخيًّا عن أم كلثوم ورحلتها الباريسية صدر في 21 نوفمبر 1967 قبل عودة أم كلثوم من الخارج، حيث تصدرت صورتها وهي تغني على مسرح الأولمبيا في حفلها الأول غلاف العدد. وكتب الموسيقار محمد عبد الوهاب للمرة الأولى مقالًا عن السيدة أم كلثوم داخل العدد تحت عنوان «وسواسة أكثر مني»، تحدث فيه عن دقتها اللامتناهية في عملية التحضير لأغنياتهما المشتركة، واستعدادها لطلب إعادة تلحين أي جملة غنائية قرابة الخمسين مرة حتى ترتاح أذنها لها تمامًا!

وكتب كذلك الفنان التشكيلي والمثّال جمال السجيني (1917-1997) مقالًا بعنوان «يعجبني صمتها كما يطربني صوتها»، تحدث فيه عن مدى عشقه لصوت أم كلثوم، وكيف ألهمه غناؤها في صنع تمثالٍ لها دون أن يقابلها. لكن ربما أهم ما نشر في هذا العدد كان كلمات بعض الفنانين والأدباء المصريين، الذين أفردت لهم المجلة صفحتين كاملتين للتعليق على تلك الرحلة التاريخية، وكيف رأوا ذلك الصعود الأسطوري للسيدة أم كلثوم على خشبة مسرح «الأولمبيا» في تلك الظروف الدقيقة، فكتب كلٌّ من أحمد رامي، وصلاح جاهين، وسيد مكاوي، ومحمد الموجي، وعبد الوهاب محمد، وأنيس منصور، وعبد الوارث عسر، ونادية لطفي، وفايزة أحمد كلمات صغيرة عبروا فيها عن محبتهم الصادقة لأم كلثوم، وانبهارهم بدورها الوطني الذي وصل إلى حدود العالمية وقلب أوروبا. كتب صلاح جاهين كلمة قال فيها:

«عندما تحدثت مع أم كلثوم تِليفُونيًّا في باريس قبل حفلتها الأولى، عبرت لها عن تمنياتي لها بالنجاح في تجربتها التي تقبل عليها بالغناء في عاصمة دولة غربية، بهذا المقدار أحسست أن ردها أنّها كانت تشاركنا نفس هذه التمنيات.. وأحسست بمدى الإثارة في أن يبدأ فنان وصل إلى القمة تجربة جديدة تضعه مرة أخرى أمام تحدّ لم يسبق له أن واجهه. والواقع إنّني أعلم عن أم كلثوم أنّها تحس في كل مرة تقبل على عمل فني بنفس هذا الإحساس المثير، فتستعد له بنفس هذا الإحساس المثير، فستعد له بنفس الاستعداد بنفس الدقة، ونفس الرهبة، ونفس العدد من البروفات، ونفس القلق، والذي أشهد لها به، وأشهد بأنّني لا أجده عند كثير من المبتدئين الذين لا يزالون في أول السلم فعلا!».

وكتب الملحن محمد الموجي: «أم كلثوم كإنسانة يعبر عنها ما قامت به من مواقف خالدة في الظروف التي تمر بها بلادنا الآن، وقادتنا كفنانين للإسهام والمشاركة الإيجابية في الأعمال التي يتطلبها المجهود الحربي، ويسعدني أن أكون جُندِيًا ممسكًا بالسلاح تحت قيادة أم كلثوم». وكتب الكاتب الصحفي أنيس منصور كلمة طويلة، جاء في مطلعها «كوكب الشرق تغني في الغرب وهذه ولا شك مفاجأة، رغم أن أم كلثوم ليست غريبة على الصحف الأوروبية، فكثيرًا ما رأوا صورها وقرأوا عنها. ولكن هذه أول مرة يمكنهم أن يروها، وأن يروا أثرها على المستمعين العرب وغير العرب، وأن يتأكدوا أنّها قادرة على تحقيق التضامن العربي في أي مكان. وأساس هذا التضامن هو الحب والفن، أي أقوى العلاقات بين الناس وأبقاها، لأنّها تجمعهم حول الشعر المصري والموسيقى المصرية والغناء المصري، وهي وحدها قائمة منذ 30 عامًا، وسوف تبقى بعد ذلك عشرات السنين، لا تعرف حدود المكان ولا فوارق الزمان!».

وقالت نادية لطفي لمحرر المجلة: «صدقني لو أقسمت لك بحياتي على أنّهم لو جمعوا كل الكلام الحلو الموجود في الدنيا وقالوه عنها فلن يعطوها حقها.. ولن تصدقني. صدقني لو وضعوا لها تمثالًا في كل ميدان فهذا لن يكفي.. ولن تصدقني! صدقني لو أصدروا لها طوابع بريد تحمل صورتها فهو شيء ضئيل بالنسبة إليها.. ولن تصدقني!

وصدقني لو صنعوا لها من أصابعهم العشر شمعًا ليضيئوا ما حولها فسيكون الضوء خافتًا، فأم كلثوم الفنانة الإنسانة يكفي أن نناديها باللقب، أم كلثوم اللقب يعطي كل المعاني، على أنّها صوت وفن وتاريخ وجبل، شيء نادر واللقب وحده يؤكد أنّها قمة شامخة بجانب أنّها مثال للمواطن النموذجي المتكامل في تصرفاته وأحاسيسه، الذي يؤدي الواجب في صمت وبدون عمل الزفة، أو استدعاء أجهزة الأضواء والتلميع، ويكفي أنّها بأعمالها وفضائلها تفرض نفسها، ونحن لا ننسى أيام النكسة، وهيئة التجمع الوطني وجمع الذهب، وإقامة الحفلات لصالح المجهود الحربي والذهاب إلى باريس، ووصف وكالات الأنباء الفرنسية أنَّ الجمهور الذي كان يستمع إلى أم كلثوم كان جمهورًا مفتونًا مسحورًا متحمسًا يهتز من الإعجاب. وأم كلثوم تذكرني بكلمة قالها «دي لافونتين» عن المعرفة «أنّها تحتفظ بقيمتها إلى النهاية» وأم كلثوم هي المعرفة بكامل أوصافها.».

وأخيرًا قالت المطربة فايزة أحمد: «أم كلثوم مثلت الفنانة التي تحب بلدها، وأثبتت أنّها إنسانة وفنانة تعيش لوطنها وفنها، وأنا أطالب بإقامة تمثال لها ويوضع في ميدان عام فهي ضمن المشاهير الذين لا بد وأن تعرف الأجيال عنهم الكثير. وأنا في انتظار عودتها بالسلامة لأقول لها: شرفتينا ورفعتِ الرأس.. وبالأحضان يا ست الستات!».

بعد كل هذا التفاعل العربي والعالمي مع تلك الرحلة المهمة،

كان الشيء الوحيد الباقي هو أن تتحدث السيدة أم كلثوم عن رحلتها ونجاحها وقدرتها على جذب أنظار العالم إلى غنائها ومشروعها الوطني الذي كرست وقتها من أجله. وقد أتاح الحظ للإعلامية سلوى حجازي أن ترافق أم كلثوم في رحلتها إلى باريس، بل شاء القدر أن تكون هي الإعلامية الأولى التي تجري مع أم كلثوم حوارًا تليفزيونيًّا، سجلته معها بعد مناقشات طويلة من أجل إقناعها بالفكرة في جناحها الخاص في فندق «جورج الخامس» في باريس. والمتتبع لكل الحوارات التليفزيونية التي أجرتها السيدة أم كلثوم في حياتها بعد ذلك -وهي بالمناسبة قليلة العدد-، يدرك أهمية ذلك اللقاء الأول؛ فلباقة الإعلامية سلوى حجازي وثقافتها كانت طاغية على الحوار، وردود أم كلثوم كانت واضحة وقاطعة وذات معانٍ عميقة ومعبرة عن أهمية الحدث. ففي البداية، سألتها حجازي عن مدى توقعها لذلك النجاح الكبير الذي حققته في باريس، فأجابتها أم كلثوم بإجابة خجلى بعض الشيء «عمري ما كنت بتوقع أبدًا حاجة قبل ما تحصل، يعني دائمًا ببقي خايفة!»، ثم سألتها عن شعورها وهي تغني للمرة الأولى بعيدًا عن جمهورها التقليدي، فقالت لها أم كلثوم: «والله أنا كنت حاسة كأني في مصر بالضبط، لأن الحضور كان أغلبه من البلاد العربية الشقيقة، وأدوني أكتر مما أطمع». لكن ربما أهم ما يميز ذلك اللقاء هو تلك الدبلوماسية الفطرية التي أبدتها السيدة أم كلثوم عند ردها على بعض أسئلة سلوى حجازي، فعندما حدثتها حجازي عن أجرها الذي قالت عنه الصحافة أنّه الأعلى في باريس حتى ذلك الوقت، والذي بلغ 14 ألف جنيه إسترليني، وعن تبرعها بأجرها كاملًا للمجهود الحربي، قالت أم كلثوم بذكاء شديد: «مش كتير!» وكأنّها بذلك تؤكد أنّها ماضية في مجهودها الحربي، لأن ما فعلت وستفعل

في هذا الصدد يظل قليلًا من وجهة نظرها. وفي نهاية الحوار، سألت حجازي أم كلثوم عمّا أعجبها في باريس من معالم تاريخية. كانت سلوى حجازي تتوقع أن ترد أم كلثوم على سؤالها لها بقولها: برج «إيفل» أو مبنى «البانثيون»، لكن الست لم تشر إلى تلك الأماكن، وبذكاء الفلاحة المصرية التي كانت ما زالت تسكنها قالت لسلوى حجازي ضاحكة: «المسلة المصرية.. عشان بتاعتنا، جزء من بلدنا!».

دام ذلك الحوار التليفزيوني قرابة العشر دقائق، وذلك بعدما حددت أم كلثوم تلك المدة الزمنية للحوار مع سلوى حجازي والمخرج روبير صايغ، كي لا يمل المستمع العربي حديثَها! وقد عُرض ذلك الحوار التليفزيوني للمرة الأولى على شاشة التليفزيون العربي ضمن تغطية البعثة الإعلامية لرحلة باريس، وذلك عقب العودة إلى القاهرة بأيام قليلة، وتحديدًا في منتصف شهر ديسمبر 1967.

وقد ساعدت تلك الرحلة في تقريب أواصر المحبة بين السيدة أم كلثوم وسلوى حجازي، فكانت حجازي هي أقرب أعضاء البعثة الإعلامية المرافقة للسيدة أم كلثوم بخلاف الإذاعي جلال معوض بالطبع، الذي كان أفضل منْ يقدم حفلاتها الشهرية في القاهرة، ولذلك فقد حضرت حجازي مع أم كلثوم جميع البروفات التي سبقت حفليها الغنائيين، وجلست بجوارها في طرف المسرح لتقدمها إلى الجمهور الفرنسي بلغتها الفرنسية الشاعرية. وفي مجلة «الكواكب» الصادرة في 5 ديسمبر 1967، ذكرت الإعلامية سلوى حجازي بعضًا من انطباعاتها عن تلك الرحلة، فتقول للصحفي صلاح البيطار: «إنّها رحلة لا تحتسب من العمر، فأم كلثوم إنسانة بالمعنى العميق الذي تحمله هذه الكلمة، بسيطة إلى أبعد مدى، وسر عظمتها يمكن في رقتها، ودمها الخفيف، وروحها الشفافة النقية، إنسانة تقربها صفاتها

وخصالها من الملائكة»، ثم بدأت في سرد مشاعرها عن تلك الرحلة «لقد ذهلت وأنا أرى في باريس سحر أم كلثوم، وتأثيرها المدهش على جمهورها العريض الذي جاء من الجزائر والمغرب وتونس لكي يسمعها، كانت تتحكم في عواطفهم وتملك أحاسيسهم، وتضحكهم عندما تشاء وتسلمهم للتفكير والشجن وهي تترنم بمعنى عميق من المعاني في أغنياتها. كانت كل لحظة تشدهم إلى ذكريات الوطن الكبير والأحباب والأصدقاء، إنّني لم أرَ في حياتي جمهورًا متعبدًا «مدمنًا» مثلما رأيت في باريس.».

وقبل أن تغادر السيدة أم كلثوم باريس، أقنعها مصورها الشخصي فاروق إبراهيم بضرورة عمل جولة تصويرية في مدينة النور، وذلك لتوثيق تلك الزيارة التاريخية والتقاط مجموعة من الصور لها مع معالم باريس، فقالت له أم كلثوم: «وإيه يعني تصورني في باريس؟ أنا عندي صورة في الهرم بألف صورة خارج مصر، إن كنت عاوز تصورني فيه هنا المسلة الفرعونية أتصور معاها». وبالفعل، كانت بداية جولتها عندما وقفت شامخة أمام «المسلة الفرعونية» الشهيرة في ميدان «الكونكورد» في قلب العاصمة باريس، ثم توجهت بعدها إلى «قوس النصر» الذي ينتصب في مدخل جادة الشانزلزيه، وصعدته أم كلثوم لتطل على باريس التي شهدت نجاحها وتفردها، وبعدها زارت حدائق لوكسمبرج في الدائرة السادسة في باريس ووقفت تتأمل حمامها الشهير. وفي ختام تلك الجولة التاريخية، أرادت سيدة الغناء العربي توجيه التحية لعدالة الموقف الفرنسي تجاه القضية المصرية عقب نكسة ١٩٦٧، فوضعت باقة من الزهور على نصب الجندي المجهول، وقد نشرت صحيفة «الأهرام» المصرية بعضًا من صور تلك الجولة في عددها الصادر يوم 20 نوفمبر 1967.

في ليلة أم كلثوم الأخيرة في باريس، دعتها وزارة الثقافة الفرنسية إلى زيارة إستديوهات التليفزيون الفرنسي. وبعدها، أقام لها السفير السعودي في باريس مأدبة عشاء من أجل توديعها. وقبل أن تغادر أم كلثوم العاصمة الفرنسية، قال لها كوكاتريكس: «لم أشهد في حياتي نجاحًا مثل النجاح الذي شاهدته في هذين الحفلين»، ثم طلب إليها بانفعال شديد أن تقبل إقامة حفلتين غنائيتين جديدتين على مسرحه، وأضاف: «إنّها ليست إرادتي فقط، بل هي إرادة الملايين»، ووعدته أم كلثوم بالتفكير جديًا في هذا الموضوع. وفي حدود الساعة السابعة مَسَاءً من يوم 23 نوفمبر 1967، طارت السيدة أم كلثوم ووفدها الإعلامي المرافق إلى القاهرة، لتصل إلى مطار القاهرة الدولي بعد منتصف ليل الجمعة 24 نوفمبر 1967.

وفي أول فعل لها عقب عودتها إلى القاهرة، توجهت السيدة أم كلثوم إلى قصر «القبة» الرئاسي مساء يوم 26 نوفمبر 1967، حيث كان في استقبالها السيد صلاح الشاهد كبير الأمناء في رئاسة الجمهورية، ووزير السياحة آنذاك أمين شاكر، وعبد المحسن أبو النور أول قائد للحرس الجمهوري بعد ثورة 1952. وبعد الترحيب بها، طلبت السيدة أم كلثوم أن تكتب كلمة مهمة في سجل تشريفات القصر، وقد نشرت صحيفة «الأهرام» في صباح اليوم التالي 27 نوفمبر 1967 نص كلمة السيدة أم كلثوم، التي خاطبت فيها الرئيس عبد الناصر:

«يا سيادة الرئيس.. لقد شاهدت ولمست حب وتقدير للجاليات العربية لكم في فرنسا أثناء إقامتي القصيرة في باريس، لذلك أردت أن أنقل لسيادتكم هذه المشاعر التي لا يمكنني أن أصفها حق الوصف، من حب وتقدير لوطننا العزيز ولسيادتكم شَخْصِيًا... لقد حمّلتني جموع المواطنين العرب الذين قدموا من كل البلاد الشقيقة، والشعب

الفرنسي الصديق تحيات الحب والإعزاز والتقدير. وفقكم الله يا سيادة الرئيس وسدد خطاكم في خدمة الوطن العربي الكبير».

ويروي الدكتور على السمان، وهو الشاهد المهم على تلك الرحلة منذ بدايتها، أنّه عقب عودة السيدة أم كلثوم إلى القاهرة كانت أول زيارة لها لبيت الرئيس جمال عبد الناصر في منطقة «منشية البكري»، حيث أقامت لها صديقتها السيدة تحية عبد الناصر مأدبة عشاء على شرف نجاحها في باريس. وعندما وصل الرئيس عبد الناصر إلى المنزل، جلس مع السيدة أم كلثوم، وسألها عما إذا كان أعضاء السفارة المصرية قد قاموا بأداء الواجب تجاهها، لكن أم كلثوم أخبرته أن السفير عبد المنعم النجار لم يأتِ لاستقبالها في المطار، وأنّه أوفد إليها المستشار الثقافي في السفارة ليكون في استقبالها عند نزولها في مطار لو بورجيه الفرنسي. وعلى وَفق رواية السمان، فإنّه وبعد أسابيع قليلة، نُقل السفير النجار إلى الإدارة الثقافية للخارجية القاهرة عقابًا له على خطئه المهني هذا!

ويكمل السمان روايته مؤكدًا أن عبد الناصر لم يغضب من ذلك السفير تحديدًا عندما أهمل إرسال برقية له مثل غيره من السفراء يطلب منه عدم التنحي بعد الهزيمة، لكنّه غضب لعدم تقديره للسيدة أم كلثوم، وعدم معاملتها بمراسم الشرف الكاملة، خصوصًا وأن تلك الزيارة قد جاءت في سياق مهمة وطنية نبيلة، فكان هذا هو وزن وقدر أم كلثوم لدى الزعيم جمال عبد الناصر.

وقبل أن ينطوي عام الهزيمة بما فيه من مرارة، كانت أم كلثوم قد حققت نجاحًا عظيمًا في مشروعها الوطني من أجل تخطي آثار العدوان، واستطاعت تدعيم قواعد «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» في معظم المحافظات المصرية الكبرى، وصارت صورة

أم كلثوم لدى العامة في مصر والعالم العربي هي صورة المناضلة السياسية ذات الهم الوطني. وربما تتضح تلك الصورة بشكل كامل من خلال تتبع نشاطها في شهر ديسمبر 1967 عقب عودتها من باريس. ففي مطلع ذلك الشهر، أجرت السيدة أم كلثوم حوارًا صحفيًّا شهيرًا مع رجل عبد الناصر الأثير الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل الذي جمعته بسيدة الغناء العربي أم كلثوم علاقة فريدة، وهي العلاقة التي اعتبرها الكاتب عبد الله السنّاوي في كتابه «أحاديث برقاش: هيكل بلا حواجز» من أمتن علاقات هيكل الفنية، وأن أم كلثوم كانت الأقرب إلى قلبه من بين كل الفنانين المصريين ولا أحد آخر كان قبلها، بل إن هيكل كان يعتبرها صديقته الأثيرة التي ما زالت تحمل داخلها شهامة أهل الريف، وأنّه يمكن إطلاق لقب صديقة الملمات والأوقات الصعبة عليها. في ذلك الحوار المهم الذي نُشر في مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 6 ديسمبر 1967 الموافق 5 رمضان 1387، تبادل كلّ من السيدة أم كلثوم وهيكل المواقع العملية، فأدت أم كلثوم دور الصحفية في حين تولى هيكل الإجابة.

في بداية الحوار، سألت السيدة أم كلثوم الأستاذ هيكل عن الأحداث السياسية العالمية وتطورات القضية العربية حينذاك، وعن دور الأمم المتحدة في أزمات الشرق الأوسط، ودور مجلس الأمن في حل قضايا الشعوب وتحديدًا قضية اللاجئين، وبعض المشكلات التي صارت على حد تعبيرها «مشكلات مصيرية»، ثم سألته عن الدور المتوقع لمؤتمر القمة القادم، ومدى ارتباطه بمؤتمر القمة السابق في الخرطوم في أغسطس 1967، وعن رؤيته السياسية لخطاب الرئيس جمال عبد الناصر الأخير الذي ألقاه في «مجلس الأمة» في ليلة 23 نوفمبر 1967.

ولكن هيكل بحسه الصحفي لم يرد أن يفوّت تلك الفرصة النادرة في محاورة السيدة أم كلثوم. فبعد أن أنهت أسئلتها، فاجأها بطلبه أن يعود إلى ممارسة دوره الصحفي ويسألها عدة أسئلة مهمة، فرحبت بذلك، وكان الحوار كالآتي:

هيكل: «كيف استطعتِ إلغاء الفارق بين السياسة والفن؟ أعتقد أنك قمت بهذا الدور والواحد يحتار في أعمالك.. إيه فيها سياسة، وإيه فيها فن، إزاي تقدري تعملي كده؟

أم كلثوم: «في رأيي أن الفن والسياسة توأمان، يعنى مثلًا لما مصر أرسلت آثار توت عنخ آمون إلى باريس كان ده عمل سياسي، وعمل فني أيضًا، بمعنى أن الفرنسيين رأوا حضارتنا، وتبادلنا معهم الثقافة في نفس الوقت، وهذه هي السياسة.»

هيكل: «هذا المثال جزء صادق من الجواب عن السؤال، وأنا باعتبر أن السياسة بتستعمل الفن، زي ما السياسة بتستعمل الاقتصاد وأشياء أخرى، لكن أنتي عملتي حاجة تانية غير كده.. أقصد عملتي توافق بين العمل السياسي والعمل الفني.. إزاي؟»

أم كلثوم: «لا أبدًا، ليس لي دور سياسي، ولكن يمكن دور مواطنة مصرية بتحب بلدها وبتعبر من خلال فنها عن وطنيتها.»

هيكل: «هذا صحيح وهذه إجابة معقولة عن السؤال، لأن السياسي هو أي إنسان تتعدّى اهتماماته حدود مصلحته الخاصة، ويحس أن مشكلات الآخرين وقضايا الآخرين تهمّه، والعمل السياسي ليس منصبًا، إنما المنصب يعطى للإنسان عندما يشعر بقدرته على الخدمة العامة أكثر.»

ربما تكشف أسئلة الأستاذ هيكل عن تلك الصورة النمطية التي تكونت عند العامة والمثقفين في مصر لأم كلثوم مع نهاية عام 1967،

فعندما يرى هيكل أم كلثوم سياسية وتمارس العمل السياسي فهذا يعني أن الدولة المصرية آنذاك كانت تتبنى ذات الرأي، بل إن تلك هي قناعة الرئيس عبد الناصر شَخْصِيًّا. وحسب مجلة «آخر ساعة» فقد جرى ذلك الحوار دون إعداد مسبق، فكانت الأسئلة توجه إلى الطرفين ويجيبان عليها مباشرة دون اتفاق أو معرفة سابقة لطبيعة السؤال.

وبعد نشر ذلك الحوار بأيام قليلة، دُعيت السيدة أم كلثوم إلى ندوة سياسية للمرة الأولى في حياتها، حيث قضت ثلاث ساعات مع العمال والفلاحين من أبناء محافظة الجيزة يوم 12ديسمبر 1967 في قاعة المتحف الزراعي في منطقة «الدقي». وفي الصف الأول، جلست أم كلثوم تستمع إلى الكلمات والمناقشات السياسية التي دارت حول دور النقابات في مرحلة ما بعد الهزيمة، ثم تكلم أكثر من نقيب في تلك الليلة لكي يوجه الشكر إلى سيدة الغناء العربي وسفيرة الفن على حد وصفهم، لما تبذله من جهد في سبيل الوطن. وبعد أن انتهت كلماتهم، طلب الجميع من أم كلثوم أن تتكلم. وبعد إلحاح شديد وتصفيق حاد، تكلمت أم كلثوم، وقالت في بساطة وعذوبة: «أشكر الذين تكلموا عني، ولكني أقول لهم إن كلًا منا يجب أن يعمل من أجل بلده ووطنه، وهذا أمر لا نُشكر عليه، وأنا لي طلب عند المواطنين جميعًا، وهو: بلاش نتكلم ولكن نعمل.. وإنَّ السياسة لها أربابَها.

وأنا أطلب من العمال والفلاحين وجميع العاملين في هذا البلد أن يوجهوا طاقاتهم إلى العمل والمزيد من العمل والإنتاج. الذي يعمل 7 ساعات أو 8 ساعات يحاول أن يزيد عمله ساعة أو ساعتين دون أن يتكلم أو يطلب ثمنًا. آن علينا جميعًا أن نخدم وطننا في صمت، وكل واحد منا يستطيع أن يخدم وطنه خدمة جليلة من خلال عمله وإنتاجه، ومن خلال هذا سوف ننجح جميعًا في تحقيق أهدافنا.».

كانت تلك الرؤية المجتمعية لدى أم كلثوم تدفعها نحو المزيد من العمل والجهد. وبالفعل، لم تشأ أن تنهي برنامجها الغنائي من أجل المجهود الحربي في عام 1967 بحفلي باريس، فلبت دعوة «جمعية أبناء الشرقية الخيرية» وأحيت حفلًا أخيرًا في ذلك العام خُصّصَ نصفُ دخله للمجهود الحربي وإغاثة ضحايا العدوان، وذلك على خشبة «الهمبرا» في منطقة «محطة الرمل» بالإسكندرية يوم 21 ديسمبر 1967. وقد استغلت السيدة أم كلثوم فرصة وجودها بالإسكندرية، واجتمعت في صباح اليوم التالي بسيدات «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» بالإسكندرية، وذلك في «نادي الاتحاد السكندري» الذي خُصّص كمقر مؤقت للتجمع الوطني. وخلال الاجتماع استعرضت أم كلثوم مبيعات التجمع في السوق الحرة بميناء الإسكندرية، وما استجدّ من منتجات ربّات البيوت، ومنتجات الجمعيات النسائية بالإسكندرية لعرض أفضلها في السوق الحرة، واتفقت السيدة أم كلثوم مع السيدة زاهية مرزوق (1906–1988) الحقوقية الشهيرة ورائدة العمل الاجتماعي بالإسكندرية، على أن تتولى رئاسة التجمع الوطني بمدينة الإسكندرية، وتشرف بنفسها على مهام التجمع في أثناء وجود السيدة أم كلثوم في القاهرة، على أن تنسق معها مرزوق في جميع التفاصيل الجديدة، وتنظّم تحركات الأعضاء من أجل جمع التبرعات لصالح المجهود الحربي، وقد كان ذلك الاجتماع هو ختام جهد أم كلثوم الوطني في عام 1967، لتبدأ في يناير 1968 مسيرة جديدة، إذ افتتحت العام بحفل أقامته جمعية «النور والأمل» في مساء الخميس يوم 18 يناير 1968 على مسرح «سينما قصر النيل». وكعادتها في حفلاتها الخيرية، خصّصت أم كلثوم نصف دخل ذلك الحفل لصالح المجهود الحربي وإزالة آثار العدوان.

السيدة أم كلثوم تصل مطار «لو بورجيه» في باريس، الخميس 9 نوفمبر 1967.

أم كلثوم مع مدير مسرح «الأولمبيا» كوكاتريكس، صباح يوم 13 نوفمبر 1967.

تتفقد مع كوكاتريكس الدعاية عند مدخل المسرح، صباح يوم 13 نوفمبر 1967.

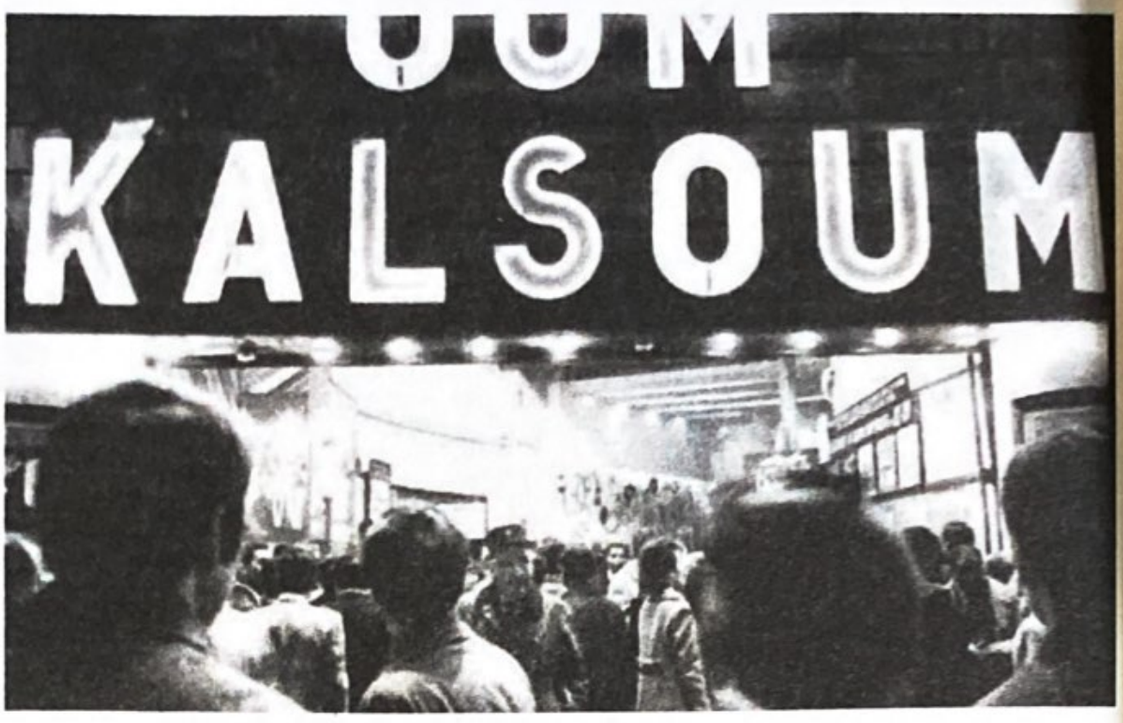

واجهة مدخل مسرح «الأولمبيا»، ليلة 13 نوفمبر 1967.

السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية يحيّون الجماهير قبل بداية الوصلة الأولى.

الجماهير العربية والفرنسية في قاعة مسرح «الأولمبيا»، ليلة 13 نوفمبر 1967.

السيدة أم كلثوم قبل بداية الوصلة الأولى، وخلفها مدير «الأولمبيا» والسيدة إحسان وصيفتها الخاصة، ليلة 13 نوفمبر 1967.

السيدة أم كلثوم تغني على خشبة مسرح «الأولمبيا»، وصلتها الثالثة أغنية «بعيد عنك»، ليلة 13 نوفمبر 1967.

الحفل الثاني في يوم الأربعاء 15 نوفمبر 1967.

وسط فرقتها الموسيقية في نهاية الحفل الثاني، وخلفها الدكتور علي السمان أحد أهم الذين أسهموا في إتمام الرحلة التاريخية.

حادثة السقوط، يوم 15 نوفمبر 1967.

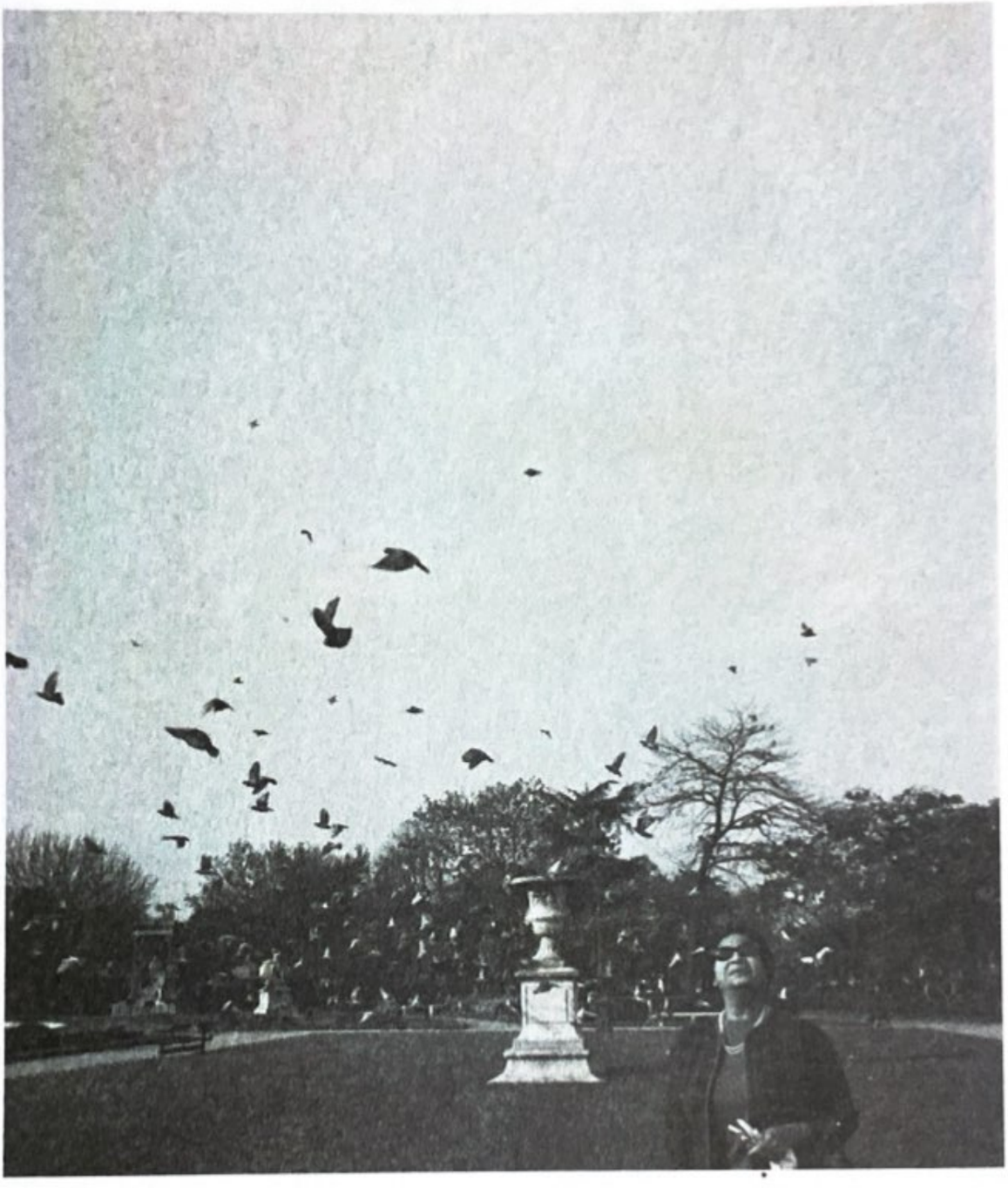

السيدة أم كلثوم في حديقة «لوكسمبرج» في باريس، تتأمل حمامها الشهير.

أمام المسلة المصرية في ساحة «الكونكورد» الباريسية.

قبل بداية تصوير لقائها التليفزيوني الأول مع الإعلامية سلوى حجازي في جناحها الخاص بفندق «جورج الخامس» في العاصمة باريس.

السيدة أم كلثوم تجري حوارًا صحفيًّا مع محمد حسنين هيكل عقب عودتها من باريس، ديسمبر 1967.

مصادر هذا الفصل:

1- سعيد الشحات، أم كلثوم وحكام مصر، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010.

2- عبد الله السناوي، أحاديث برقاش: هيكل بلا حواجز، دار الشروق، 2017.

3- محمد سلماوي، يومًا أو بعض يوم: مذكرات (1945-1981)، دار الكرمة، 2017.

4- أبو إلياس، تحقيق عن زيارة أم كلثوم لباريس في نوفمبر 1967 من خلال المصادر الفرنسية، منتدى سماعي للطرب الأصيل.

5- مجموعة من اللقاءات التليفزيونية والإذاعية التي أجريت مع مدير مسرح «الأولمبيا» برونو كوكاتريكس ونائبه جون ميشيل بوريس حول حفلتي أم كلثوم في باريس.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 18 سبتمبر 1967.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 10 نوفمبر 1967.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 11 نوفمبر 1967.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 نوفمبر 1967.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 نوفمبر 1967.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 نوفمبر 1967.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 نوفمبر 1967.

13- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 16 نوفمبر 1967.

14- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 18 نوفمبر 1967.

15- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 20 نوفمبر 1967.

16- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 نوفمبر 1967.

17- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 24 نوفمبر 1967.

18- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 25 نوفمبر 1967.
19- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 27 نوفمبر 1967.
20- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 1 ديسمبر 1967.
21- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 ديسمبر 1967.
22- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 23 ديسمبر 1967.
23، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 4 فبراير 1975.
24- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 ديسمبر 2012.
25- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 18 سبتمبر 1967.
26- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 11 أكتوبر 1967.
27، صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 12 أكتوبر 1967.
28- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 20 أكتوبر 1967.
29- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 27 أكتوبر 1967.
30- صحيفة الأخبار، القاهرة، عدد 6 نوفمبر 1967.
31- صحيفة الجمهورية، القاهرة، عدد 16 نوفمبر 1967.
32- صحيفة النهار، لبنان، عدد 15 نوفمبر 1967.
33- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 14 نوفمبر 1967.
34- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 21 نوفمبر 1967.
35- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 5 ديسمبر 1967.
36- مجلة المصور، القاهرة، عدد 30 ديسمبر 1966.
37- مجلة المصور، القاهرة، عدد 2 فبراير 1967.
38- مجلة المصور، القاهرة، عدد 11 أغسطس 1967.
39- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 22 نوفمبر 1967.
40- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 6 ديسمبر 1967.
41- مجلة الإذاعة والتليفزيون–القاهرة، عدد 19 نوفمبر 1967.

42- مجلة الإذاعة والتليفزيون-القاهرة، عدد 26 نوفمبر 1967.
43- مجلة الشبكة -لبنان، عدد 20 نوفمبر 1967.
44- مجلة الشبكة -لبنان، عدد 27 نوفمبر 1967.

حفنة من تراب المنصورة بثلاثة آلاف جنيه!

ظاهرتها لا مثيل لها في تاريخ الغناء العربي الحديث، فطوال عقدين كاملين في بداية القرن العشرين، طافت أم كلثوم بصحبة والدها الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي وبطانته الغنائية الجوالة قرى ونجوع الدلتا وما جاورها من مدن ومديريات مصرية، حيث أسست أم كلثوم، دون وعي منها، في تلك الجولات شعبيّةً جارفةً بين معاصريها من الفلاحين البسطاء، الذين رأَوا فيها نموذجًا لفتاة تحمل ملامح الريف وعبقرية المدينة. وبعد أن صعدت أم كلثوم بفضل تلك الشعبية إلى قمة الهرم الغنائي والاجتماعي في مصر، ظلّت وفيّةً حتى أواخر حياتها لتلك الطّبقات الدُنيا التي شكلت قاعدة فنها الجماهيرية العريضة، كما ظلت تدين بالفضل لتلك المرحلة الأولى من حياتها، وربما هي إرادة القدر وحده الذي جعلها بعد أن غنت في «مدينة النور» في نوفمبر 1967 تعود بعد ثلاثة أشهر إلى حيث البدايات: إلى أرضها ومسقط رأسها في مدينة المنصورة، إلى تلك النقطة الباهتة على خريطة مثلث الدلتا التي تسمى «طماي الزهايرة»، إلى هذه القرية التي كان من الممكن أن يطمرها الزمن وتبقى بقعة مجهولة أبد الدهر لولا أن القدر شاء

أن تخرج منها المعجزة. عادت أم كلثوم لتغني في بلدها في مدينة المنصورة في 1 فبراير 1968 بعد أن أسمعت أوروبا والعالم أجمع صوتها.

على أرض محافظة الدقهلية التي أنجبت بها، وتحديدًا في سُرادِقٍ ضخمٍ شُيّد بإستاد مدينة المنصورة الرياضي المقام على مساحة خمسة أفدنة كاملة، وقفت السيدة أم كلثوم ليلة الخميس 1 فبراير 1968 لتغني أمام اثني عشر ألف مستمع سعوا إليها من جميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة، جاؤوا بالسيارات والقطارات وعلى الأقدام، لكي يلتقوا بنتَ بلدهم وجهًا لوجه، وتزاحموا على الحفل، وتسابقوا إلى مقاعده حتى بدا إستاد المدينة ضيقًا بذلك الزحف البشري. كان هناك 300 تذكرة في الصفوف الأمامية، ووصل ثمن الواحدة منها إلى مئة جنيه كاملة. وأكثر من ذلك، فقد وصل التنافس إلى درجة أن أحد المزارعين اشترى خمس تذاكر ودفع خمسمئة جنيه، ثم أعاد التذاكر إلى المحافظة لكي تطرحها للبيع حتى تتضاعف حصيلة الحفل، فاشترت تلك التذاكر سيدة حضرت مع بناتها الأربع من محافظة دمياط خصيصًا لكي تسمع أم كلثوم وسددت خمسمئة جنيه أخرى ثمنًا لها، وضربت المنصورة رقمًا قياسيًّا في ما قدمت للمجهود الحربي، أو على حد وصف محافظ الدقهلية عبد الفتاح علي، الذي صرح لمجلة «آخر ساعة» بعد الحفل «كانت هناك منافسة بيننا وبين الإسكندرية ودمنهور وباريس أيضًا، وكانت المنصورة تريد أن ترفع رأس ابنتها وتتفوق على الجميع، ولذلك بذل الجميع جهدهم حتى يقدموا قدر طاقتهم شيئًا له قيمته إلى أم كلثوم!».

وقفت أم كلثوم تغني لأبناء بلدها بعد ثماني سنوات من الغيبة عن المنصورة؛ كان آخر حفل لها في تلك المدينة في يوم 7 مايو 1960،

وذلك حين غنت ثلاث وصلات أمام الرئيس جمال عبد الناصر في «ملعب البلدية» بالمنصورة، بمناسبة العيد القومي لمحافظة الدقهلية.

كانت السيدة أم كلثوم ليلة 1 فبراير 1968 ترتدي ثوبًا من «الجبير» الأسود المرصع، وتمسك في يدها بوشاح برتقالي، فكان يبدو كلما لامس ثوبها كقطعة الشفق التي تضيء من خلال السحب القاتمة. وقبل أن تبدأ أم كلثوم وصلتها الأولى، صعد إلى المسرح عبد الفتاح علي محافظ الدقهلية وخاطب أم كلثوم «أم كلثوم أنتِ ابنة أرضنا، نحن فخورون بك وفخورون أن نكون وإياكِ من ذات الإقليم، لقد أطلق فلاحو الدلتا اسمك على نوع جديد من المانجو أسموه «مانجو أم كلثوم»، ولم يعد أهالي «طماي الزهايرة» ينطقون باسم قريتهم، فهم يتيهون فخرًا أنّهم من «قرية أم كلثوم» ولا يسألهم أحد مزيدًا من الإيضاح، ولكننا أيضًا مصريون، عندما تغنين «الله معك» نحس أننا أقوياء ونزداد ثقة في أنفسنا، شكرًا لله أن جعلنا بني جلدتك ومنتمين معكِ لوطن واحد، كل امتناننا لكِ ولتلقينكِ إيانا كيف نقاوم وكلنا عزة وإباء».

لم يشأ محافظ الدقهلية إعلان حصيلة الحفل ومجموع ما قدمه الثلاثة ملايين مواطن في محافظة الدقهلية من تبرعات لصالح دعم المجهود الحربي إلا بعد الوصلة الأولى. وبمجرد أن نزل المحافظ من على المسرح، تناول العازفون آلاتهم وجلست السيدة أم كلثوم على مقعدها منتظرة انتهاء المقدمة الموسيقية، التي ما إن بدأت حتى عرفت الجماهير أن أم كلثوم ستغني في الوصلة الأولى «أمل حياتي» للمرة الحادية عشر في حياتها المسرحية، ومع أنّ تسجيلات تلك الليلة لا تزال من مفقودات أم كلثوم الإذاعية، ففقد وصفت الصحافة التي واكبت تفاصيل تلك الليلة مزاج أم كلثوم الغنائي، فقالت الصحف

إنّ أم كلثوم كانت تغني في تلك الليلة بوجد خاص؛ في عينيها بريق إعجاب، وعلى شفتيها ابتسامة سعيدة. كان صوت فلاحة طماي يتدفق بين 12 ألف متفرج أحسوا جميعًا بالزهو بها وهم يرونها تسبح بغنائها في سماء ليل المنصورة، وكعادته، كان الحاج حافظ عبد العال العمدة يتبع أم كلثوم كظلها في كل حفلاتها، تحركه نبرات صوت أم كلثوم، وتنفجر منه صيحات الوجد واحدة تلو الأخرى، فكان كلما تماهت أم كلثوم مع نشوة الغناء، وغردت بعيدًا عن اللحن، ترك مكانه وتقدم إلى المسرح وطلب الإعادة من أم كلثوم وهو يردد «الله يكرمك يا عظيمة!».

وبعد انتهاء الوصلة الأولى، صعد إلى المسرح محافظ الدقهلية عبد الفتاح علي وأمين «الاتحاد الاشتراكي» محمد السيد عبد الرحمن، وقدما لها شيكًا قيمته 100 ألف جنيه، نصفها حصيلة بيع تذاكر الحفل والنصف الآخر من التبرعات التي قدمها المواطنون، وبهذا بلغ ما قدمته محافظة الدقهلية للمجهود الحربي قرابة النصف مليون جنيه، فقد سبق وقدمت المدينة 400 ألف جنيه منها 387 ألفًا نقدًا و13 كيلو من الذهب في الأشهر التي تلت الهزيمة، وقد شرح المحافظ في كلمته كيف جُمع هذا المبلغ الكبير، وقال إنّ هناك أكثر من قصة تضرب مثلًا على بساطتها وقصرها وأروع معاني التضحية والبذل التي يقدمها أبناء تلك المحافظة من أجل تخطي العدوان، ومنها قصة العروس التي لم يمض على زفافها أسبوع واحد فتقدمت للمسؤولين بدبلة الزواج ليجري عليها المزاد، فإذا بالجميع يتسابقون على شرائها دون أن يسترد أحدهم الرقم الذي عرضه، وإذا بدبلة لا يزيد ثمنها على جنيه تباع بألفي جنيه، وكذلك قصة الطفلة التي هداها تفكيرها لأن تتقدم بحفنة من تراب محافظة الدقهلية في كيس صغير

من الحرير ليجري عليها المزاد بنفس الطريقة التي جرى بها مزاد دبلة العروس، فبلغت في النهاية حصيلة المزاد ثلاثة آلاف جنيه ثمنًا لحفنة من تراب المنصورة!

ومن حصيلة عشرات من أمثال تلك القصص، وصلت التبرعات مع ثمن التذاكر إلى نصف مليون جنيه مصري، وما إن سمعت أم كلثوم ذلك الرقم حتى وقفت تصفق بحماس شديد لأبناء المنصورة، واتّسعت لحظتها الابتسامة العريضة على وجهها، وحاولت أن تعبّر عن اعتزازها بأبناء الدقهلية الذين تفوقوا في مجهودهم الحربي على باقي المحافظات. قالت أم كلثوم للمحافظ والفرحة تملأ صوتها «شكرًا لكم جميعًا يا أهل المنصورة وأبناء الدلتا، لا أنسى مطلقًا أن قوتي تنبع من هنا، لو لم أكن ولدت في «طماي الزهايرة» فلاحة فقيرة ما كنت لأكون شيئًا».

وبعد أن تسلمت أم كلثوم الشيك وسلمته بدورها لمندوب البنك الموجود بين الحضور، وقف المحافظ ومعه أمين «الاتحاد الاشتراكي» محمد السيد عبد الرحمن ليقدما للسيدة أم كلثوم مفتاح مدينة المنصورة، الذي صممه خِصّيصَى لها الدكتور أحمد عثمان عميد كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية من الذهب الخالص، بعدما نقشت عليه عبارة «من شعب الدقهلية.. إلى ابنة الدقهلية» وقد تلقت أم كلثوم المفتاح باسمة وداعبت المحافظ وأمين «الاتحاد الاشتراكي» وهي تستلم المفتاح «أمال كنتم بتفتحوها قبل كده إزاي؟»، ثم مضت بسرعة بديهتها تقول «لازم بالطفاشة!».

ومع أن ذلك ثالث مفتاح مدينة مصرية تحصل عليه السيدة أم كلثوم، بعد أن حصلت على مفتاح محافظة البحيرة في 17 أغسطس 1967، ثم مفتاح محافظة الإسكندرية في 31 أغسطس 1967، فإنّها

لم تعلق في فيلتها بالزمالك غير مفتاح محافظتها؛ محافظة الدقهلية. ففي مارس 1975، وقبيل مرور أربعين يومًا على وفاة السيدة أم كلثوم، دخلت الصحفية المصرية إيريس نظمي فيلا أم كلثوم، وتتبع المصور الذي كان رافقها كل ركن داخل المنزل، وقد أشارت الصحفية الكبيرة في تحقيق لها نشر في مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 12 مارس 1975 أنّها لم تلحظ في المنزل سوى مفتاح محافظة الدقهلية فقط، الذي ظلت أم كلثوم حتى وفاتها تُصر أن يزين صالون فيلّتها.

وفي الاستراحة الفاصلة بين الوصلتين، جلست أم كلثوم في سرادق صغير ملحق بالمسرح، ولأنّ البرد في المنصورة كان شديدًا للغاية، طلبت أم كلثوم كوبًا من الشاي الساخن قبل أن تبدأ الوصلة الثانية، وخلعت حذائها وحاولت أن تدفئ قدميها بشال من الصوف، ومع ذلك فإنّ ابتسامة فرحة لقائها بأبناء مدينتها لم تفارقها قط، وداعبتها ذكريات قديمة عن قريتها وجذور نشأتها، فقد عرفت ريف مصر وطرقه الزراعية قبل أن تخطو بأقدامها إلى شوارع القاهرة، ولذلك كانت تقول دائمًا «لقد مسحت بقدمي الريف قرية قرية قبل أن أنتقل إلى القاهرة». وفي الاستراحة دنا منها محرر مجلة «آخر ساعة» وسألها: «ألا تذكرك هذه الليلة في المنصورة بشيء؟» فاتسعت ابتسامتها على وجهها وقالت «بباريس أخيرًا، نفس التصفيق المتدفق، نفس الانفعال العذب، نفس العدد الضخم، وكأني في قاعة الأولمبيا تمامًا!».

طوال الاستراحة لم ينقطع زوارها؛ عشرات القادمين من كل أرجاء الدقهلية، ومع المجهود الذي بذلته في الوصلة الأولى، ومع حاجتها إلى الراحة فقد أخذت تصافحهم، وتسجل كلمات الإهداء في أتوجرافاتهم، وتلتقط الصور التذكارية معهم، وتصغي بكل اهتمام إلى مطالبهم ورغباتهم، وزارها الحاج حافظ عبد العال العمدة،

وجلس تحت قدميها وهي توقع له على بطاقته الشخصية كعادتها في كل حفلة، في حين وقف ابن شقيقتها محمد الدسوقي يحسب عدد التوقيعات التي كتبتها أم كلثوم خلال فترة الاستراحة، وبعدما فرغ السرادق من المعجبين، دخل عبد الفتاح علي أحمد محافظ الدقهلية ومحمد السيد عبد الرحمن أمين عام «الاتحاد الاشتراكي» وعبد المنعم عبد ربه سكرتير عام المحافظة، حاملين إليها هدية من الجمعيات النسائية في مدينة المنصورة، فقدّموا لها مصحفًا كبيرًا، تلقته السيدة أم كلثوم وقبلته بخشوع وهي تقول بصوت مليء بالتأثر العميق إنّ هذا المصحف أغلى إهداء يقدمه أبناء بلدها لها، كما قدموا لها إطارًا كبيرًا حوى قصيدة مكتوبة فيها، تذكارًا منهم لبنت مدينتهم، ودار حديث عن إمكانيات العمل بالمحافظة، إذ عرض المحافظ عليها وأمين «الاتحاد الاشتراكي» إقامة مشروع المدينة الصناعية الجديدة في المنصورة، وجلست أم كلثوم تناقش تفاصيله مع أمين عام «الاتحاد الاشتراكي» بالمحافظة الذي أخبرها أن المدينة الصناعية سوف تقام على أنقاض العشش والأكواخ التي تقع خارج مدينة المنصورة وتشوه وجها، وأنّها سوف تفتح المجال أمام الآلاف من الأيدي العاملة في نفس الوقت حيث ستجمع الورش والمصانع في مكان واحد بعيدًا عن زحام العاصمة، وستُجمّع في هذا المشروع كلُ الصناعات حسب نوعيتها وذلك لخلق صناعات متكاملة من ناحية ومن ناحية أخرى تستطيع المحافظة تنفيذ التخطيط الجديد لأحيائها وشوارعها، بعدما يقام ذلك المشروع على مساحة 44 فدانًا، وفي نهاية شرحه قال أمين «الاتحاد الاشتراكي» للسيدة أم كلثوم إنّ حجر الأساس لهذا المشروع الضخم يتوقف على صوتها، فصوتها الوحيد القادر على دعم المدينة ومشروعها تمامًا كما يدعم مصر كلها في محنتها، وعلى

الفور وافقت السيدة أم كلثوم على إقامة حفل يخصص دخله لإنشاء المدينة الصناعية عقب عودتها من جولتها المرتقبة في الدول العربية التي سوف تنطلق من المملكة المغربية الشهر القادم مارس 1968. وكان ردها: «إنّه أقل ما يمكن أن أقدمه لأبناء قريتي».

في وصلتها الثانية غنت السيدة أم كلثوم قصيدة «الأطلال» بنفس السلطنة التي غنت بها في الوصلة الأولى، لينصرف بعدها 12 ألفًا من السرادق الكبير، ولا حديث لهم إلا أم كلثوم وحفلها، وتجاوب أم كلثوم في غنائها وانفعالها وهي بين أهلها وذويها.

وفي الصباح التالي للحفل 2 فبراير 1968، رافق محافظ الدقهلية عبد الفتاح علي ومحمد السيد عبد الرحمن أمين عام «الاتحاد الاشتراكي» بالمحافظة، السيدةَ أم كلثوم في جولة في مشروعات المدينة الأخيرة، وأهم معالمها الجديدة، ووقفت السيدة أم كلثوم تشهد بدء العمل في مشروع نفق مدينة «طلخا» الذي يربط أطراف المدينة، وتحدث عبد المنعم عبد ربه سكرتير عام محافظة الدقهلية شارحًا للسيدة أم كلثوم أن ذلك النفق هو إحدى الأفكار الطليعية التي نُفّذت بالجهد الذاتي دون تأثير على الميزانية الخاصة بالمحافظة، ويبلغ طول النفق نصف كيلو متر، ويبدأ من مجلس المدينة القديم إلى مبنى قصر الثقافة مَارًّا من أسفل كوبري السكة الحديد بعرض 14 مترًا، ليربط شرق المدينة بغربها عن طريق كورنيش النيل، وتناول سكرتير المحافظ في حديثه مع أم كلثوم جانبًا مهمًا بالنسبة إلى أبناء المحافظة هو عمليات رصف الطرق والشوارع في العاصمة والمدن والقرى، وكانت أم كلثوم سعيدة بما تسمع عن بلدها وما يجري بداخلها، وفوق كوبري المنصورة وقفت ومدت بصرها في اتجاه قريتها «طماي الزهايرة» مركز «السنبلاوين» وسرحت مع ذكرياتها، وقالت لمن حولها «لم

يكن في القرية كلها إلا طريق واحد يتسع لمرور عربة العمدة وبضعة طرق ضيقة أخرى، وكنت أغني في القرى المجاورة وكانت كلها قرى صغيرة، وكنت أحسب أن مركز «السنبلاوين» أكبر مدينة في الدنيا!».

بعد ذلك صحبها المحافظ في جولة داخل المجمعات الاستهلاكية في المنصورة، حيث كان في استقبالها عبد الحكيم عوض مدير الجمعية الاستهلاكية العام، ومضت أم كلثوم تتجول بين البضائع والمنتجات المحلية، وقال لها عبد الفتاح علي محافظ المدينة إنّ الدقهلية بلا سوق سوداء بعدما حل التعاون الاستهلاكي مشكلة التموين، ووصلت خدمات التعاون قرى المحافظة، فالتعاونيات أصبحت أسلوبًا في كل المجالات، فكل ما يحتاج إليه المواطنين موجود فيها، وتعمل الجمعية من خلال خطة طويلة المدى وبقدر الإمكانيات المتاحة لها لتغطية كل أحياء العاصمة والمدن والقرى بالفروع والمجمعات لتوصيل خدمات التعاون الاستهلاكي إلى كل مكان، وقد اتسع نشاط الجمعية حتى أصبحت تتعامل في كل السلع الاستهلاكية والمواد التموينية، والفكرة الجديدة أننا افتتحنا مجمعين من المجمعات المتكاملة لبيع جميع أصناف البقالة والأقمشة والخردوات وكل ما يحتاج إليه المستهلك من الأدوات المنزلية واللوازم الخاصة، وأنّه ليسعدنا أن تتفضلي بزيارة هذه المجمعات، وهي فرصة لزيارة معالم بلدك بعد أن تغير الكثير منها. طافت أم كلثوم في المجامع الاستهلاكية الجديدة وأعجبتها فكرة تجميع حاجات المنزل في مبنى واحد تمامًا مثلما شاهدت ذلك في باريس، ولفت نظرها قماش التصدير الذي تنتجه المصانع الحربية، وكانت ملاحظتها تنطق بالزهو وهي تقول «من كان يتصور أن بلدي تستطيع إنتاج ذلك كله.. المهم أننا وصلنا إلى هذه الجودة!».

وكما أعجبت السيدة أم كلثوم بتطوير إنتاج المصانع الحربية، أعجبت بإنتاج شركات الخزف الصيني وقالت إنّه وصل إلى درجة عالية من الإتقان، وركزت مناقشتها مع عبد الحكيم عوض مدير الجمعية التعاونية الاستهلاكية العام على الأنواع الشعبية من الأقمشة وقد سُرَّت لوفرتها وقالت لمدير عام الجمعية: «إنّني سعيدة أن أرى في بلدي مجمعات استهلاكية متكاملة تخدم ربة البيت، هذه المجمعات التي لا تقل في مستواها عن مثيلاتها في الدول الكبرى مثل فرنسا وإنجلترا»، ثم تابعت «إنّ هذه المنتجات تعبّر عن مدى ما وصلت إليه بلادنا من تطور وتقدم في مختلف القطاعات». وفي طريقها للخروج من المجمعات الاستهلاكية، اشترت السيدة أم كلثوم بعض المعلبات من عصير الجوافة والبرتقال والمربات والسكر وزيت الذرة وكلها من الإنتاج المحلي، وعند بوابة المجمع سجلت أم كلثوم بخط يدها في سجل زيارات الجمعية هذه الكلمة: «سعدت كل السعادة بما رأيت في الجمعية التعاونية من أشياء مختلفة تشرف الوطن فإلى الأمام، والله الموفق».

وبعد ذلك زارت السيدة أم كلثوم المدينة الجامعية الجديدة لجامعة المنصورة، وشاهدت المباني الجديدة في المدينة التي تضم المعاهد الفنية وكلية الطب التي كانت نواة جامعة المنصورة، وكانت طوال الزيارة تسأل المحافظ عن حاجات المدينة الجامعية الناقصة وطاقة استيعابها للطلبة، والإمكانيات المتوافرة لها، واللوازم التي تنقصها، وكانت هناك ملاحظات لها، وبمجرد أن علم الطلبة بوجودها، تجمعوا حول سيارتها. وبرصيد حبها الكبير لوطنها، خاطبتهم: «البلد في حاجة إلى سواعدكم وفكركم، اسهروا وثابروا لأن مصر تنتظركم جميعًا!».

قضت المنصورة ليلة 1 فبراير 1968 كليلة عمر، وفي اليوم التالي، قضت السيدة أم كلثوم يومًا ذا معنى بين معالم ذكرياتها في موطنها ومسقط رأسها، وبينما السيارة تمضي في طريق العودة إلى القاهرة، سألها الصحفي الكبير محمد وجدي قنديل: هل بدأت السنة الغنائية بليلة المنصورة؟

فقالت له السيدة أم كلثوم والجواب على لسانها وبكل نبضها وجوارحها: «لن تكون لها بداية إلّا تحت أعلام النصر وهي ترتفع فوق كل شبر من وطني[1]!».

(1) لم ينتهِ ما قدمته السيدة أم كلثوم للمجهود الحربي في شهر فبراير 1968 عند هذا الحد، ففي التاسعة والنصف من مساء يوم الخميس 15 فبراير 1968، أقامت جمعية «الطفولة السعيدة» حفلًا كبيرًا في «قاعة الاحتفالات الكبرى» بجامعة القاهرة، نقله التلفزيون العربي على الهواء مباشرة، غنّت فيه السيدة أم كلثوم في الوصلة الأولى قصيدة «الأطلال» في 68 دقيقة، وفي الوصلة الثانية غنت أغنية «فكروني» في 77 دقيقة تقريبًا، وقد خُصّص نصفُ دخل هذا الحفل من أجل مرضى روماتيزم القلب ومرضى السل وأعمال تنظيم الأسرة، والنصف الآخر خُصص لصالح المجهود الحربي، وتخطي آثار العدوان.

برنامج حفل مدينة المنصورة، ليلة 1 فبراير 1968.

السيدة أم كلثوم تصفق بحماسة لأبناء محافظتها، بينما يعلن المحافظ عبد الفتاح عن حصيلة تبرعات الحفل، وفي منتصف الصورة يقف أمين «الاتحاد الاشتراكي» محمد السيد عبد الرحمن قبل أن يقدم للسيدة أم كلثوم مفتاح مدينة المنصورة.

مصادر هذا الفصل:

1- إيزابيلا صياح، أم كلثوم كوكب الشرق، ترجمة سونيا محمود نجا، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2008.

2- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 19 يناير 1968.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 يناير 1968.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 3 فبراير 1968.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 5 فبراير 1968.

6- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 7 فبراير 1968.

7- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 21 فبراير 1968.

أيّام أم كلثوم في المغرب

في الشهور التي تلت يونيو 1967، تغير كل شيء في القاهرة؛ محت الهزيمة أشياء وبدلت أشياء أخرى، وجوه اختفت وحلت محلها وجوهًا جديدة، حتى قداسة الزعامة ونبوتها خفت مقدارها، وتلاشت فجأة مهابة الزعيم الذي تحول في يوم إلى نصف إله. كان عبد الناصر قد نجا من المحاسبة والمساءلة بعد أن خرجت الجماهير مطالبة ببقائه عقب قراره بالتنحي، لكن بعد أشهر قليلة، وتحديدًا في نهايات فبراير 1968، عادت بعض تلك الجماهير إلى شوارع المدينة، حين خرجت بعض قواعد النظام الشعبية السابقة في تظاهرات عارمة ضد النظام وأجهزته الأمنية، وكذلك ضد الأحكام الهزلية الصادرة على قادة الطيران. هتف العمال والطلبة للمرة الأولى ضد عبد الناصر «لا صدقي ولا الغول عبد الناصر هو المسؤول»، وأفردت الصحف على حياء متابعة للموقف السياسي، حتى صحيفة «الأهرام» العريقة؛ صوت النظام وذراعه الإعلامية، دعت إلى تغير سياسي عميق يتناسب مع المرحلة وخطورتها. وكما تغير كل شيء في مصر بعد الهزيمة، تغيّر إحساس المصريين بغناء أم كلثوم. كشفت المعركة كثيرًا من قيم الفنانين ومعادنهم أمام الشعب المهزوم، فلمعت أم كلثوم في قلب المعركة تغني وحدها. كانت تتحرك نحو الناس وتغني لهم.

كانت كلماتها عن الحب تكتسب مزيدًا من الكبرياء والحزن، كما كانت كلماتها عن الوطن رجالًا تحمل السلاح وتقاتل، ولهذا أحس المصريون أن غناء أم كلثوم في تلك المرحلة يحمل معاني أكبر من مجرد الغناء، فبعد أن كانت هذه السيدة هي طريق الحب وخطوة المحب، وبعد أن كانت عطش العاشق ووجد المهجور، صارت بين الوجوه رمزًا لما في مصر في تلك الأيام من إصرار شجاع على خوض المعركة من أجل الوطن وكرامته. ففي نهاية فبراير 1968، وبينما كان النظام السياسي وعلى رأسه الرئيس عبد الناصر يبحث عن سبيل للخروج من الأزمة المشتعلة مع الجماهير الغاضبة، كانت أم كلثوم تستعد لأولى رحلاتها العربية من أجل دعم المجهود الحربي، فكان للملكة المغربية موعد ولقاء معها في ثلاث ليالٍ خُلّدت في الذاكرة المغربية إلى يومنا هذا.

منذ السنوات الفنية الأولى للسيدة أم كلثوم وهي تُوجه بوصلة رحلاتها الخارجية إلى دول المشرق العربي؛ وبالأخص بلاد الشام والعراق، ربما لتوافق مزاجهم الغنائي مع المزاج المصري، فلم تخرج أم كلثوم للغناء خارج القطر المصري إلا لتلك البلاد القريبة. ولكن بعد عام 1967، تغيرت أهداف أم كلثوم، وصارت زيارة بلاد المغرب العربي غاية لها أكثر من سبب، خصوصًا وأن بعض تلك البلاد كان قد دخل في عداوة مع النظام المصري وزعيمه، فكان غناؤها في تلك البلاد مثل محاولة لمحو آثار السياسة وإزالة لملامح الفرقة بين تلك الشعوب العربية ومصر، فكانت المملكة المغربية هي أولى المحطات العربية في رحلة المجهود الحربي.

وبالبحث في المصادر الصحفية عن علاقة السيدة أم كلثوم بالمملكة المغربية قبل زيارتها الفعلية لتلك البلاد في مارس 1968،

نجد أنّ علاقتها بهذا البلد تعود إلى سنوات طويلة قبل هذا التاريخ من خلال لقائها بالعديد من مشاهير المغرب في القاهرة، سواء سياسيين أو مثقفين أو فنانين، وربما جاء أول احتكاك حقيقي بين السيدة أم كلثوم والمغرب عبر الفنانين المغاربة. ففي عام 1932 انعقد بالقاهرة «مؤتمر الموسيقى العربية الأول» وشاركت فيه وفود موسيقية عربية بصفة رسمية، ومن ضمن تلك الوفود وفد موسيقي مغربي، ومن المؤكد أن السيدة أم كلثوم التي شاركت أيضًا في المؤتمر قد التقت بذلك الوفد المغربي خلال فعاليات المؤتمر العديدة، أو على الأقل استمع إليها ذلك الوفد في حفل الافتتاح وهي تغني قصيدتها الشهيرة «أفديه إن حفظ الهوى» أمام الملك فؤاد الأول.

وفي عام 1950، وخلال رحلة إلى الديار الحجازية من أجل أداء فريضة الحج، زار القاهرة الباشا التهامي الكلاوي (1878-1956) حاكم مدينة مراكش عاصمة الجنوب المغربي، والتقى السيدةَ أم كلثوم في بيت قوت القلوب الدمرداشية، ومن غير المستبعد أن يكون الباشا قد دعاها إلى زيارة المغرب ومدينة مراكش، وهو الذي سبق واستقبل عددًا من المشاهير العالميين مثل شارلي شابلن (1889-1977) والموسيقار الفرنسي موريس رافيل (1875-1937) ومن المشاهير العرب يوسف وهبي وفريد الأطرش وسامية جمال، وذلك حين زار الأخيران المغرب العربي في نهاية يناير عام 1951.

أما عن أول لقاء رسمي بين السيدة أم كلثوم وفردٍ من العائلة الملكية المغربية، فكان مساء يوم الاثنين 18 يونيو 1956، حين أُقيم احتفال ضخم في نادي الضباط في الزمالك ابتهاجًا بجلاء القوات البريطانية عن مصر، وقد حضر الحفل الرئيس جمال عبد الناصر وقيادات القوات المسلحة المصرية، ومجموعة كبيرة من الضيوف العرب

والأجانب الذين جاؤوا لتقديم التهنئة بنهاية الاحتلال البريطاني، وكان من ضمن الحضور ولي العهد الأمير الحسن (الملك الحسن الثاني لاحقًا)، الذي كان يشغل آنذاك منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية المغربية. وبعد برنامج حافل بالفقرات الفنية، كان مسك الختام ظهور السيدة أم كلثوم على المسرح، حيث قدمت «أنشودة الجلاء» من تأليف أحمد رامي وتلحين محمد الموجي. وبعد أن انتهت أم كلثوم من أنشودتها الوطنية الجديدة، غنّت «شمس الأصيل»، ثم اختتمت السهرة بأنشودة «صوت الوطن» التي رددها معها رجال القوات المسلحة المصرية وجميع المدعوين.

وفي يوم الخميس 14 يناير 1960، أقامت الجمهورية العربية المتحدة ووزارة الإرشاد القومي والثقافة حفلًا كبيرًا في دار الأوبرا المصرية بحضور الرئيس جمال عبد الناصر لتكريم ملك المملكة المغربية محمد الخامس (1909–1961) الذي جاء إلى مصر بمناسبة وضع حجر الأساس في مشروع السد العالي، وافتتاح مشروع محطة كهرباء خزان أسوان. وتذكر مجلة «الكواكب» في عددها الصادر يوم 19 يناير 1960 أنّ السيدة أم كلثوم بعد أن غنت في وصلتها الأولى أغنية «أروح لمين» لعبد المنعم السباعي (1918–1978) والسنباطي، جاء إليها كبير الأمناء برئاسة الجمهورية السيد صلاح الشاهد كي يصحبها لتحية الزعيم ناصر وضيفه الملكي، وقبل المقابلة أسر إليها الشاهد أن الملك محمد يريد أن يستمع إلى قصيدة «مصر تتحدث عن نفسها»، فالتفتت أم كلثوم إلى الموسيقيين وسألتهم عن حفظهم للقصيدة، فأجابوا بالنفي، وقالوا إنّهم لم يعزفوها منذ سنوات، فوجدت أم كلثوم نفسها في مأزق، فكيف توفق بين رغبة الضيف الكبير، واستحالة تنفيذ طلبه؟ لكنّ ذكاءها مكّنها من الخروج من الورطة، فما إن صافحت

الملك حتى بادرته بأنّها سوف تغني أغنية في الوصلة التالية ستنال إعجاب جلالته، وهنا سألها ما هي، فأجابت «هجرتك»، وأبدى الملك سروره وموافقته. وقبل نهاية المقابلة، دعا الملك محمد الخامس السيدة أم كلثوم إلى زيارة المغرب في أقرب وقت، وشكرته أم كلثوم ووعدته بتنفيذ رغبته الكريمة، فكانت تلك هي أول دعوة رسمية توجه إلى السيدة أم كلثوم لزيارة المغرب العربي. وربما كانت تلك المقابلة الملكية هي الدافع الحقيقي وراء ذلك الموقف الذي اتخذته السيدة أم كلثوم بعد تلك الزيارة بأيام، حين وقع زلزال مدينة «أغادير» المغربية المدمر في 29 فبراير 1960، فهرعت أم كلثوم في ذات اليوم إلى دار السفارة المغربية بالقاهرة لتقديم المساعدات المالية، بل إنّها أقامت خِصّيصَى حفلًا لرعاية أهل مدينة «أغادير» في دار سينما «ريفولي» بالقاهرة ليلة 31 مارس 1960، إذ قُدّم دخل تلك الحفلة لصالح إعادة تعمير المدينة المنكوبة.

وفي يوم الأحد 14 مارس 1965، وأثناء زيارته للقاهرة، حضر الملك الحسن الثاني حفلًا على شرفه في دار الأوبرا المصرية أحيته السيدة أم كلثوم، وقدمت فيه أغنيتها الجديدة «أنت الحب» من كلمات الشاعر أحمد رامي وألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب، التي سبق وقدمتها للمرة الأولى في الرابع من ذات الشهر، وقد استغل الملك الحسن الفرصة وَقَلَّدَ ثلاثي الأغنية الجديدة وشاح «الكفاءة المغربية» وهو أرفع وسام يمنح في المغرب في مجال الفنون والآداب.

كل تلك اللقاءات المباشرة بين أم كلثوم ورجال وقادة المغرب ساعدت على التمهيد لتلك الزيارة التاريخية الكبيرة في عام 1968، التي جاءت بدايةً لبرنامج أم كلثوم للغناء في البلاد العربية من أجل دعم المجهود الحربي. ففي 13 ديسمبر 1967، نشرت صحيفة «الأهرام»

خبرًا عن اتفاق يتم بين السيدة أم كلثوم وسفير المغرب بالقاهرة السفير المهدي زنطار على إحياء ثلاث حفلات في مارس 1968، وذلك خلال الأعياد القومية في المغرب. ورغم ذلك، لم تذكر تلك الإشارة الأولى لتلك الرحلة كيف تواصل السفير المهدي زنطار مع السيدة أم كلثوم، وما الشروط التي وضعتها من أجل الغناء في المغرب، غير أن هناك روايتين عن بوادر ذلك الاتفاق وجذور تلك الرحلة التاريخية: الرواية الأولى يرويها الصحفي المغربي مصطفى العلوي (1936-2019) الذي أكد في ذكرياته التي نشرتها صحيفة «أخبار اليوم» المغربية في عددها الصادر يوم 5 سبتمبر 2009، أنّ تلك الزيارة جاءت في سياق التقارب الفني الذي أراده بعض رجال القصر الملكي في المغرب بين مصر والمملكة المغربية، لإعادة شيء من الدفء للعلاقات بين البلدين التي عرفت الكثير من التوتر بعد «حرب الرمال»[1]. ولهذا، فقد اقترح بعض المقربين من الملك الحسن الثاني دعوة السيدة أم كلثوم لزيارة المملكة. وبالفعل، أوفدت القيادة المغربية مصطفى العلوي إلى القاهرة، وهناك التقى السيدةَ أم كلثوم في بيتها بعد حصوله على موعد معها من خلال صحفي مصري يدعى أحمد عربي كان مراسلًا لمجلة «الكروان» المغربية التي كان العلوي مدير تحريرها، فعرض عليها الفكرة ورحبت بها دون إبداء شروط مادية محددة، على أن يتولى سفيرا البلدين ترتيب تلك الزيارة والإعداد لها.

---

(1) حرب الرمال: صراع مسلح وحرب اندلعت بين المغرب والجزائر في أكتوبر 1963 بسبب مشكلات حدودية، وقد توقفت المعارك في 5 نوفمبر 1963 بعد واسطة جامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية، حين قامت المنظمة الأفريقية بإرساء اتفاقية لوقف نهائي لإطلاق النار في 20 فبراير 1964 في عاصمة دولة مالي، ولكن تلك الحرب قد خلفت توترًا مزمنًا في العلاقات المغربية-الجزائرية ما تزال آثارها موجودة إلى الآن.

أما الرواية الثانية فكتبها السفير المغربي السابق إدريس الكتاني في شهادة طويلة بعنوان «كيف جاءت الست إلى المغرب؟» نُشرت في مجلة «الصباح» المغربية في سياق الاحتفال بمرور خمسين عامًا على زيارة أم كلثوم للمغرب في عدد شهر مارس 2018؛ إذ أكّد الكتاني أنّه صاحب فكرة دعوة السيدة أم كلثوم للغناء في المغرب، وأنّه بمجرد أن فاتح علي بن يعيش حاجبَ الملك الحسن الثاني في تفاصيل تلك الزيارة، حتى تحمّس الحاجب الملكي وبادر بالاتصال بوزير الأنباء المغربي أحمد السنوسي الذي أبدى موافقته على الزيارة من الناحية الإدارية، وقال لحاجب الملك إنّه سيخبر الملك الحسن بهذا الاقتراح. وبالفعل، ما إن سمع الملك التفاصيل من وزير الأنباء حتى أكّد أنّه مستعد لتمويل تلك الزيارة بشكل شخصي، فليس من المعقول أن تتولى شركة خاصة تنظيم زيارة بذلك الحجم ولهذا الغرض الوطني. وبعد أيام قليلة، كان السفير إدريس الكتاني يجلس مع السفير المصري بالرباط حسن فهمي عبد المجيد في دار السفارة المصرية لتحديد ملامح الزيارة ومكان غناء السيدة أم كلثوم بل وتحديد البرنامج الغنائي أيضًا.

ومع التعارض الظاهر بين الروايتين، فإنّه يمكن القول أنّهما مكملتان بعضهما بعضًا. فعلى الأغلب، تمت زيارة الصحفي مصطفى العلوي إلى القاهرة من أجل مفاتحة السيدة أم كلثوم في شأن الزيارة بعد مبادرة السفير إدريس الكتاني وتوصيل فكرته لبلاط الملك الحسن الثاني؛ فدعوة شخصية في حجم السيدة أم كلثوم، وفي إطار سياسي بارد للعلاقة المصرية-المغربية بسبب مساندة الرئيس عبد الناصر للجزائر في نزاعها الحدودي مع المغرب، لم تكن بحال من الأحوال لتتم من خلال صحفي مغربي، بل من المؤكد أنّ أم كلثوم كانت لا تقبل

فكرة الزيارة إلا إذا وجهت إليها دعوة رسمية، سواء كانت تلك الدعوة من الملك المغربي شخصيًا أو على الأقل من حكومته السياسية، كما أنَّ التوقيت الذي اختير للزيارة -وهو توقيت توافق مع عيد الجلوس السابع للملك الحسن الثاني على عرش المملكة المغربية- دليل قوي على أن الزيارة تمت تحت إشراف الحكومة المغربية وتحديدًا إشراف وزارة الأنباء، بجانب أن الملك الحسن ظل طوال الرحلة يتابع خطوات السيدة أم كلثوم داخل المغرب ويوجه حكومته على العمل على راحتها وراحة مرافقيها، بل إنّه أمر بتغيير بند من البنود المالية في عقد الحفلات الثلاث المُوقع مع أم كلثوم؛ تروي السيدة إحسان بيات في كتابها عن زوجها السفير والمترجم سامي الدروبي (1921-1976) أنّ السيدة ميلوده زنطار زوجة السفير المغربي في القاهرة قالت لها إنّ العقد الذي أبرم مع أم كلثوم على إحياء حفلات المغرب كان مقيدًا حسب الميزان النقدي بين مصر والمغرب، أي أن العائد المادي كان بالجنيه المصري، ولكن حين زارت السيدة أم كلثوم جلالة الملك في المغرب، وقالت له إنّ ريع هذه الحفلات سيكون للمجهود الحربي -أي لشراء سلاح، وعليه سيدفع بالعملة الصعبة-، أمر الملك الحسن ألا يتقيد العقد بالميزان النقدي بين مصر والمغرب، وأن تصرف أجور الحفلة بالعملة الصعبة. كل تلك الشواهد تؤكد أن الزيارة تمت برعاية ملكية وبالتنسيق بين سفارتي البلدين. وفي النهاية، حُدِّد يوم الخميس 29 فبراير 1968 موعدًا لوصول السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية إلى المملكة المغربية، وذلك على متن طائرة خاصة من نوع «كارافيل» لأنّ رحلات الطيران بين البلدين لم تكن منتظمة في ذلك الوقت.

منذ أن أعلن موعد وصول السيدة أم كلثوم إلى المغرب، والتحضيرات في المملكة قائمة. فعلى الصعيد الرسمي، شكّل الملك

الحسن الثاني لجنة للاستقبال معظمها من الموسيقيين المغاربة، ترأسها الموسيقار المغربي أحمد البيضاوي (1918-1989) الذي عرف بقربه من الملك الحسن الثاني، وضمّت الملحنين عبد القادر الراشدي (1929-1999) وعبد الوهاب أكومي (1918-1989)، وعزيز السغروشني مدير مسرح «محمد الخامس» الذي ستقف لتغني عليه أم كلثوم، بالإضافة إلى شخصيات رسمية مثل حسن فهمي عبد المجيد سفير الجمهورية العربية المتحدة بالرباط، والسيد المهدي زنطار سفير المملكة المغربية بالقاهرة. وفي اليوم الموعود، أقلعت طائرة السيدة أم كلثوم الخاصة من مطار القاهرة في طريقها إلى مطار الرباط. بدت الرحلة هادئة في بدايتها ثم ساء الجو في نهايتها، فتغيرت كل ترتيبات الوصول؛ كان مرتبًا أن تصل السيدة أم كلثوم وفرقتها في حدود الساعة العاشرة والنصف مَسَاءً إلى مطار «الرباط سلا» الدولي، وبالفعل، قبل ذلك الموعد بأكثر من ساعة وصلت لجنة الاستقبال وكذلك سفيرا البلدين وبعض أفراد الجاليات العربية بالمغرب إلى بوابات مطار العاصمة الرباط. وبعد دقائق من الانتظار، أعلن أن الطائرة ستصل في الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق ليأتي بعدها الخبر اليقين أن طائرة السيدة أم كلثوم لن تصل قبل الرابعة صباحًا، فعاد بعض أفراد لجنة الاستقبال لينالوا قسطًا من النوم في حين ظل البعض الآخر ينتظر. ومع اقتراب فجر يوم الجمعة 1 مارس 1968، بدأت تتوافد على المطار أفواج من الصحفيين والمستقبلين ليشهدوا هبوط السيدة أم كلثوم على أرض المغرب. وبعد أكثر من ساعة قضاها الجميع في الانتظار، أُعلن أن الطائرة القادمة من القاهرة ينتظر وصولها في حدود الساعة الخامسة إلا الربع صباحًا، عندئذ ساد نوع من القلق في أوساط المنتظرين خاصة أن حالة الطقس لم تكن على ما

يرام والضباب يغلف الأجواء كما أنَّ أفق السماء كان يشي بأن الأمطار قادمة ومعها طائرة أم كلثوم، وزادت إعلانات تأخر الطائرة عبر أبواق المطار الداخلية الوضعَ تشويقًا وإثارة.

وفي نحو الساعة الخامسة صباحًا، سمع صوت أزيز الطائرة يقترب من المطار، فتنفس الجميع الصعداء بعد طول ترقب وانتظار، إلّا أنّ مسلسل التشويق أَبى إلّا أنّ يمدد فصوله. فبعد أن حام قائد الطائرة قليلًا في سماء مطار «الرباط سلا» الدولي، أبلغ أبراج المراقبة الداخلية في المطار بتعذر هبوطه بسبب الضباب الكثيف الذي يملأ أجواء المطار ويمنع عنه الرؤية، وكذلك بسبب الأمطار التي أخذت تهطل بكثافة على أرض المطار، وأكد قائد الطائرة لبرج المراقبة أنّه لن يغامر بهبوط غير محسوب العواقب لعدة اعتبارات أهمها أن الطائرة تحمل أغلى وأهم شخصية نسائية في العالم العربي كله، فما كان من برج المراقبة إلّا أنّ أرسل إشارة سريعة إلى ربان الطائرة وطلب منه تغيير وجهة هبوط الطائرة إلى المطار الأقرب، الذي لم يكن إلا مطار مدينة الدار البيضاء التي تبعد مسافة 95 كيلومترًا تقريبًا عن العاصمة الرباط.

وهكذا وجدت لجنة الاستقبال نفسها مطالبة بمسابقة الزمن، فالمسافة بين مطار «الرباط سلا» ومطار «الدار البيضاء» لن تقل عن ساعة ونصف الساعة بالسيارات في الظروف العادية، أما في مثل تلك الظروف المناخية الصعبة فقد يزيد الوقت ليصبح ساعتين على الأقل. وبسرعة كبيرة، أجرى أفراد لجنة الاستقبال الملكية اتصالات بهيئة المطار في مدينة الدار البيضاء لتهيئة المطار لذلك الهبوط المفاجئ، لكن كما توقع أغلب أفراد اللجنة فقد كان معظم مسؤولي المطار نائمين في تلك الساعة المبكرة. وبعد دقائق قليلة، أعلن قائد الطائرة الاستعداد للهبوط مُناشدًا الجميع ربط الأحزمة والبقاء في أماكنهم،

حتى تستقرَّ الطائرة على أرض الدار البيضاء وتفتح الأبواب للركاب. وما إن لامست الطائرة أرض المطار وهبطت السيدة أم كلثوم حتى وجدت ساحة المطار فارغة، ولم تجد أحدًا في انتظارها لأن جميع أعضاء اللجنة كانوا قد وصلوا متأخرين جِدًا بسبب هذا السيناريو غير المنتظر. وبعد راحة قصيرة قضتها أم كلثوم في قاعة كبار الزوار في مطار «الدار البيضاء»، غادرت المطار بعدما حاول بعض المسؤولين التصرف وتطوع بعضهم في إحضار بعض سيارات الأجرة من أجل نقل السيدة أم كلثوم إلى محل إقامتها في فندق «هيلتون» في العاصمة الرباط. وطوال الطريق إلى الفندق، كانت السيدة أم كلثوم تستكشف ذلك الطريق الزراعي البديع الذي يربط بين البلدتين، فتقول للصحفي أحمد بهجت في حوار طويل نشرته صحيفة «الأهرام» في 5 أبريل 1968: «لم تكن عندي فكرة عن المغرب، لم أكن أعرف أهي صحراء أم بلاد زراعية مثلنا، غيرت رأيي بعد أن هَبطت في الدار البيضاء، خرجنا من هذه البلدة لنسير في طريق يشق نفسه بين أشجار الزيتون والبرتقال، لست أفهم لماذا يذهب الناس إلى سويسرا؟ الرباط بلد بيضاء، تبدو من بعيد مثل زهرة من السوسن وسط حقل أخضر». وما إن وصلت السيدة أم كلثوم إلى الفندق حتى لحق بها أعضاء اللجنة حيث تمت مراسيم الاستقبال. وبهذه البداية المربكة والعصبية، بدأت إحدى أهم وأنجح رحلات السيدة أم كلثوم الخارجية في حياتها الفنية كلها وفي مسيرة رحلاتها لصالح المجهود الحربي.

وبعد يومين من إقامتها في المملكة المغربية، وقبل أول حفلاتها بيوم واحد وتحديدًا في ليلة 3 مارس 1968، حضرت السيدة أم كلثوم أول نشاط رسمي لها في المغرب وهو الاحتفال بعيد العرش المجيد، إذ أقام الملك الحسن الثاني حفل عشاء كبيرًا على شرف سيدة الغناء

العربي في مسرح «محمد الخامس»، الذي يعده المغاربة قلعة الفن المغربي، والذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه بعد أن وقفت عليه السيدة أم كلثوم وغنت في ثلاث ليالٍ لم يسبق أن عاش مثلها المغرب، ويقع ذلك المسرح في وسط العاصمة الرباط، ويتولى الديوان الملكي في المملكة المغربية إدارة شؤونه، إذ يُعيّن مديرُه بقرار ملكي منذ أن افتتح للعامة في 3 مارس 1962، فكان ذلك الحفل فرصة مناسبة للسيدة أم كلثوم حتى تألف ذلك المكان الذي ستغني فيه مساء اليوم التالي، وقد حضر ذلك الحفل أمراء البيت المالك والوزراء وسفير الجمهورية العربية المتحدة وزوجته ورئيس الديوان الملكي وقادة الجيش المغربي وعلى رأسهم الجنرال المغربي الشهير أوفقير[1]، الذي رحب بالسيدة أم كلثوم، وذكرها بالليلة التي استمع إليها فيها في دار الأوبرا المصرية عندما رافق الملك محمد الخامس إلى القاهرة عام 1960. وإفراطًا في المجاملة، وقف الجنرال يعد بنفسه للسيدة أم كلثوم طبق العشاء من ألوان الطعام المغربي الوطني، وقد استقبل الملك الحسن الثاني أم كلثوم فور وصولها وقال لها بصوت مسموع للجميع «هذا يوم عظيم في حياة المغرب، وأنتِ في بلدك، ويسعدني أن أقول لكِ إنّ وجودكِ بيننا شرف لنا». ثم التقت السيدة أم كلثوم الأميرَ عبد الله العلوي (1935-1983) شقيق الملك الحسن الثاني وولي عهده، ودخلا في حديث طويل عن الفن والمعركة. وطوال الحفل، أحاطت نساء المغرب وزوجات أعضاء السلك الدبلوماسي بها، وقد سأل المغاربة كثيرًا عن زوج السيدة أم كلثوم الدكتور حسن الحفناوي وكان الجواب دائمًا إنّ الدكتور حسن مشغول في القاهرة.

---

(1) الجنرال محمد أوفقير (1920-1972) وزير دفاع وداخلية في المملكة المغربية، قام بمحاولة انقلاب فاشلة في صيف عام 1972، وأعدم إثرها.

كان أكثر ما يشغل بال المغاربة منذ حلول السيدة أم كلثوم في المغرب هو إمكانية الحصول على تذكرة لحفلة من حفلاتها الثلاث التي ستقام على مسرح «محمد الخامس»، فقد حُدّدت أسعار التذاكر تبعًا لمدى قرب المقعد من ركح المسرح، فتراوحت الأسعار ما بين 120 إلى 180 درهمًا مَغْرِبيًا، أي ما يساوي 28 جنيهًا إسترلينيًا للتذكرة الواحدة، وهو ما يمكن اعتباره أضعاف ثمن تذاكر حفلات السيدة أم كلثوم بالقاهرة، وربما كان الصعود الهائل لأسعار التذاكر سببه أن وزارة الأنباء المغربية قد اتفقت مع السيدة أم كلثوم على دفع مبلغ 36 ألف جنيه إسترليني مقابلًا ماديًا لحفلاتها الثلاث، بالإضافة إلى ما اتُّفق عليه معها التليفزيون المغربي من أجل بث حفلاتها الثلاث على الهواء مباشرة، وهو ما كان سابقة في تاريخ التليفزيون المغربي الذي لم يسبق أن بث حفلًا غنائيًا على الهواء مباشرة، ويصرح عزيز السغروشني مدير مسرح محمد الخامس آنذاك لمجلة «الصباح» المغربية أنّ التهافت على التذاكر كان على نحو غير متوقع، مع أن أثمانها كانت مرتفعة، وربما تستنفد ثلث مرتب موظف حكومي، لكن عائلات مغربية كبيرة مثل عائلة بنونة من مدينة تطوان، وعائلة اليزيدي من مدينة الرباط، وعائلات الصميلي والتازي واليعقوبي من الدار البيضاء اشترت جميعها عددًا كبيرًا من التذاكر، كما أنّ الجنرال أوفقير دفع شَخْصيًا 30 ألف درهم لشراء أكبر عدد ممكن من التذاكر له ولعائلته.

ومع ارتفاع أسعار التذاكر بصورة مبالغ فيها، فإنّ عملية الحصول على تذكرة واحدة كان من رابع المستحيلات، فنفدت التذاكر في الأيام الأولى من شهر مارس في معظم منافذ البيع التي أعلنتها الصحف المغربية، وبخلاف أزمة التذاكر كان هناك شيء آخر يشغل

بال بعض المغاربة قبل الحفل الأول، وهو التساؤل عن مدى قرب طريقة انفعال الجماهير المغربية بالطرب مقارنة بالطريقة المصرية التي اعتادتها السيدة أم كلثوم طوال حياتها الفنية، فالجمهور المغربي يعبر عن طربه بالصمت، وهو على عكس الجمهور المصري الذي يحركه النغم، فينفعل ويطرب ويتحرك ويثور ويصيح معبرًا عن نشوته واستحسانه. ذلك التجاوب الانفعالي الذي يفتقده الجمهور المغربي جعله يبدو وكأنّه بعيد عن طبيعة الجمهور الكلثومي التقليدي. وترجمة لذلك التخوف، كتب صحفي مغربي في صحيفة «العلم» المغربية في عددها الصادر يوم 3 مارس 1968 مقالًا بعنوان «الجمهور المغربي وأم كلثوم» جاء فيه «غدًا في ليلة سيحفظها تاريخ مسرح محمد الخامس، وسيحفظها تاريخ بلادنا، غدًا والأنفاس محبوسة، والأعين متطلعة، والأعصاب كلها مشدودة ومسرح محمد الخامس يشهد حشدًا من الناس لم يره في كل عمره الماضي، ولا أحسبه يراه في كل عمره الآتي.

غدًا تفتح الستارة الخضراء الموشاة في مسرح محمد الخامس، وتنحبس الأنفاس أكثر، وتجحظ العيون، وترتعش القلوب، ويكون اللقاء للمرة الأولى، وجهًا لوجه، بين السيدة أم كلثوم وبين الآلاف الذين أحبوها، تمامًا كما أحبها إخوان لهم في مصر، في سوريا، في العراق، في تونس، وفي الكويت، في الجزائر، في السعودية، في اليمن، في لبنان، حب من بعيد لبعيد، لكنّه حب كبير، لا تفنيه الأيام في تواليها، ولا تضعه الليالي والسنون.

آه، أضع يدي على قلبي خشية تلك اللحظة، تلك اللحظة التي تبقي لحظة مهما تطُل، أضع يدي على قلبي لأنّني أعرف كيف تريد أم كلثوم جمهورها، كيف ينفعل بها وتنفعل معه وبه، كيف يتعايشان معًا، أعرف

جمهورها وآهاته وذوبأنّه، وأيضًا أعرف الجمهور المغربي، ومن ثم جاءني هذا الإحساس بالخوف! الجمهور المغربي تحيّرك طريقةُ إعلانه عن إعجابه، فهو قلما يصخب بهذا الإعجاب، قلما يصرخ به هتافًا أو يدوي به تصفيقًا، الجمهور المغربي في أوج إعجابه، وفي قمة افتتانه وذوبانه، تنحبس أنفاسه، يهرب لسانه ويصمت! ويبدو في صمته كما لو كان غائبًا، كما لو كان يتعبد.». ورغم ما توحي به بداية المقال من خوف وترقب لتلك اللحظة الطربية، فقد راهن في النهاية على مقدرة أم كلثوم على إثارة كل أذن والتلاعب بكل عاطفة، ويكمل الصحفي المغربي مقاله «من هنا، أضع يدي على قلبي، فإن أم كلثوم قمة، ومن ثم يكون مطلوبًا أن يكون جمهورها في مستوى القمة، ولكن يزول خوفي تمامًا، وأنا أعرف من هي أم كلثوم، فهي قادرة على أن تغير الأشياء، وأن يكون أول ما تغير أسلوب الإعجاب وطريقته عند جمهورنا في المغرب، فلنتوقع إذن أن تزلزل جدران مسرح محمد الخامس غدًا».

كان يوم 4 مارس 1968 في المغرب يومًا تاريخيًّا بكل المقاييس؛ أعطت المؤسسات الرسمية والمصالح الحكومية وبعض مؤسسات القطاع الخاص إجازة رسمية من أجل حفل أم كلثوم الأول، محلات مصففي الشعر فتحت أبوابها من الخامسة صباحًا حتى تنعم سيدات المغرب بلقاء أم كلثوم في أبهى حلة، حُجزت جميع الطائرات القادمة إلى الرباط قبل الحفل بأسبوع، لا أحد يغادر الرباط، بل صارت العاصمة قِبلة كل المغاربة وغيرهم من أبناء بلاد المغرب العربي، حتى الجزائريين نحّوا خلافهم المزمن مع جارهم المغرب بعيدًا وقطعوا الطريق من الجزائر إلى المملكة المغربية بالطائرات والسيارات سعيًا وراء صوت أم كلثوم، وجاء عشاقها في تونس والمملكة الليبية إلى

الرباط ليعيشوا معها المشهد من بدايته، إذاعات الجزائر وتونس وليبيا والقاهرة تقوم منذ بداية اليوم بتجارب الأداء بعدما توقفت ترددداتها على موجات إذاعة الرباط في انتظار الحدث، وصل إلى مطار «الرباط سلا» الدولي طائرة قادمة من القاهرة تحمل وفدًا إعلاميًا مصريًا لكي يرافق ويتابع غناء المعجزة العربية على أرض المغرب للمرة الأولى، وتكوَّن الوفد من مندوب صحفي عن مؤسسة «الأهرام»، والصحفي سمير توفيق عن مجلة «آخر ساعة» والإعلامية أماني ناشد (1936-1980) عن التليفزيون العربي، والمخرج سعيد عيادة لإخراج الحفلات تليفزيونيًا، والعديد من الفنين والتقنيين، كما حضر فريق من إذاعة «صوت العرب» لتغطية الحفلات إذاعِيًا، أما الفقراء ومحدودو الدخل في المملكة فلم يجدوا بُدًا من اللجوء إلى بيوتهم والاستماع إلى السيدة عبر موجات الأثير بسبب غلاء التذاكر وندرتها. وقبل بداية توافد الجماهير المغربية على بوابات مسرح «محمد الخامس»، وصل أعضاء الحكومة المغربية برئاسة رئيس الوزراء الدكتور محمد بنهيمة (1924-1992) وأعضاء السلك الدبلوماسي وبعض الأمراء المغاربة. وفي ذات الوقت، وبعيدًا عن أعين الإعلام، دخل إلى المقصورة الملكية بالمسرح الملك الحسن الثاني ومعه بعض المرافقين وجلسوا في المقصورة المعزولة نسبِيًّا عن قاعة المسرح الرئيسية وقد صمم لها مدخل خاص يسمح بدخول الملك دون أن يلاحظه أحد من الجماهير ومصوّري الصحف.

وما إن امتلأت القاعة وتطلعت القلوب إلى ركح المسرح حتى تحركت الستارة الخضراء الموشاة قليلًا ثم انفرجت لتظهر المفاجأة الكبرى؛ أطلت السيدة أم كلثوم على الجماهير وهي ترتدي القفطان المغربي تحية للشعب المغربي، فضجت القاعة بالتصفيق والزغاريد

لتلك اللفتة الكلثومية التي تعبر عن ذكاء غير محدود، وقد رويت روايات عديدة حول أصل ذلك القفطان، وزعم أكثر من محل للألبسة التقليدية في المغرب أنّه صاحبه، لكن تظل أقرب تلك الروايات للحقيقة ما صرّحت به السيدة خديجة بنونة من عائلة بنونة المغربية الشهيرة في مدينة تطوان، التي أكدت للتليفزيون المغربي أنّها كانت تعرف مقاسات السيدة أم كلثوم من قبل، وأنّها قد اشترت ذلك القماش الفاخر حتى قبل أن تصل أم كلثوم إلى المغرب، ودفعت به إلى خياط مغربي ليحيك للسيدة قفطانًا مغربيًا أنيقًا، وقد استمر العمل في ذلك القفطان التقليدي أكثر من أسبوعين تقريبًا، وعندما علم صاحب المحل أن ذلك القفطان سترتديه أم كلثوم في حفلها الأول رفض أن يأخذ أجره إكرامًا لسيدة الطرب العربي.

افتتحت أم كلثوم سهرتها الأولى برائعةٍ كانت مفاجأةَ السهرة، خاصة أنّه قد ساد تكتم كبير حول أسماء الأغنيات التي ستغنيها، فأطلق العنان للتكهنات التي سرعان ما تبددت بمجرد أن شرع عازف «الجيتار» الكهربائي عبد الفتاح خيري في عزف جملة مقام «الكُرد» الشهيرة التي صاغها الموسيقار محمد عبد الوهاب افتتاحية لأغنية «أمل حياتي». غنّت السيدة أم كلثوم وصلتها الأولى في حدود السبعين دقيقة تقريبًا، وطوال الوصلة كانت أم كلثوم تُرصع غنائها بالحِليات النغمية التي أرادت بها إشعال الوجد بالجمهور المغربي، الذي على خلاف ما توقعت الصحافة المغربية كانت جدران المسرح تهتز لتصفيقه وصياحه وزغاريده، إلى درجة أن الصحافة عادت في أعقاب الحفلة الأولى لتنتقد ذلك التفاعل الكبير وتطلب من الجماهير عدم مقاطعة السيدة أم كلثوم بالتصفيق كي لا تخرج من سلطنتها الغنائية. وكعادتها، لم تترك أم كلثوم بابًا للارتجال إلا ولجته؛ ففي

نهاية المقطع الثالث وعند إعادة الجملة الشهيرة «وكفاية أصحى على ابتسامتك بتقولي عيش» دفعتها تقاسيم محمد عبد صالح على القانون إلى تصرف غنائي فريد لم تحفل به تسجيلات تلك الرائعة من قبل. وبعد أن عاش مسرح «محمد الخامس» وصلة غنائية لم يعرف مثلها في تاريخه، أسدل الستار على السيدة أم كلثوم استعدادًا للوصلة الثانية. وفي غرفة الاستراحة، لم تتركها الجماهير المغربية تنعم بالراحة، فهجمت عليها السيدات المغربيات يظهرن لها مشاعر المحبة والود، فدخلت عليها زوجة سفير المغرب السابق بالقاهرة عبد الخالق الطريمي، وزوجة وزير الداخلية المغربي ووزير الأنباء المغربي أحمد السنوسي وزوجته، إذ ظلت أم كلثوم تتلقى التهاني والقبلات وتوقع على صورها للمعجبات المغربيات.

أما الوصلة الثانية في الحفل الأول فأدت فيها أم كلثوم قصيدة «الأطلال» وقد بلغ فيها انسجام الجمهور مع الأداء الكلثومي أشده، وكأنْ كُتب لأطلال ناجي أن تُبعث من جديد تحت سماء الرباط، وتغدو قصورًا مشيدة بالمرمر والزجاج، إذ أدتها أم كلثوم بطريقة اختلفت عن المرات التي غنتها فيها من قبل، وتعمدت أن تختبر الجماهير المغربية بتصرفات لحنية غريبة؛ عمدت إلى تشديد حرف الصاد عند نطقها لكلمة «معصمي» وهو ما فهمته الجماهير وهاجت لتلك الرسالة النغمية، وكذلك عند غنائها لكلمة «كم» عادت وضغطت حرف الميم فتعالت الصيحات بشكل أكبر، وأدركت أم كلثوم أنّها أمام شعب يحفظ أغنياتها وألحانها حفظًا مدهشًا، وأنّ أي تغير في بنية اللحن أو الأداء أو أي وقفة غير معتادة تلاحظها الجماهير المغربية على الفور. وقد علقت الصحافة المغربية على أداء أم كلثوم لتلك القصيدة في هذه الليلة بأنّه أداء فريد، بل أكدت صحيفة «العلم» المغربية بأنّ أم كلثوم

قد أعادت تلحينها مرة أخرى، وهو نفس المعنى الذي قالته السيدة أم كلثوم للصحفي أحمد بهجت في صحيفة «الأهرام» عقب عودتها إلي القاهرة: «في قصيدة الأطلال وقفت عند «كم» بنينا من خيال حولنا، ضغطت على الميم طويلًا في «كم»، والتقط الجمهور بحساسيته هذه الوقفة، وجاملتني الصحف على هذا التصرف في الأغنية بقولها ثاني يوم إن أم كلثوم تلحّن الأطلال». وبعد أن أعادت أم كلثوم خاتمة القصيدة مرتين، أنهت وصلتها الثانية بعد أن دامت اثنتين وسبعين دقيقة. وعقب نهاية الحفل الأول في المغرب، صرّحت السيدة أم كلثوم أنّها كانت مستعدة لأن تغني حتى الصباح بسبب ما لاقته من الجمهور المغربي من تجاوب عجيب، فاق كل التوقعات وتخطى حدود تفاعله مع الغناء للمرة الأولى في تاريخه الفني العريق.

وامتد الفرح بليلة أم كلثوم الأولى في المغرب إلى الوطن العربي كله، وخصوصًا بلاد الشمال الأفريقي التي سهرت مع صوتها عبر موجات إذاعة الرباط، فحفلت الصحافة العربية بصور الحفلة الأولى وعقبت الصحف على القفطان المغربي الذي أطلت به سيدة الغناء على المغاربة، وأنّهالت الطلبات عليها من الصحفيين العرب والعالميين من أجل الفوز بتصريح صحفي عن أجواء الحفلة الأولى، ولهذا قررت وزارة الأنباء المغربية تنظيم مؤتمر صحفي للسيدة أم كلثوم في مقر إقامتها بفندق «هيلتون» ليتيسر عليها لقاء جميع الصحفيين والمراسلين دفعة واحدة دون جهد أو تضيع للوقت، وبالفعل في مساء اليوم التالي للحفل 5 مارس وتحديدًا في الساعة السابعة مساءً، عُقد للسيدة أم كلثوم مؤتمر صحفي ضخم حضره ممثلو الصحافة العربية والمغربية وبعض الصحف العالمية، فكان حاضرًا مندوبو وكالة «المغرب العربي للأنباء»، ومندوبو وكالة «رويترز» ومندوبو «الإذاعة

الفرنسية» وأكثر من مئة صحفي عربي وأجنبي، وقالت السيدة أم كلثوم في بداية المؤتمر: «أشكر جلالة ملك المغرب العظيم وشعب المغرب على الحفاوة والإكرام الذي قوبلت به، وإنّني لأحس بسعادة عارمة تغمرني وأنا أزور المغرب، هذه الزيارة التي طالما إنتظرتها وتهيأت لها». ثم طلبت من الصحفيين بعدما شكرتهم على تلبية دعوتها أن يوجهوا لها ما شاءوا من الأسئلة مع رجاء ألا يطيلوا عليها، وكان أول سؤال من صحيفة «الأنباء» المغربية وجهه إليها الصحفي عبد اللطيف مختار الذي سألها عن نشاطها العظيم بعد عدوان الخامس من يونيو، فأجابته أم كلثوم «لم أقم بشيء خاص، وكل ما فعلته إنّني أديت جزءًا من واجبي كمواطنة في الجمهورية العربية المتحدة».

وسألها صحفي «لو موند» الفرنسية عن انطباعاتها إزاء الجمهور المغربي، فقالت «تأثرت كثيرًا لحساسية وتذوق الجمهور المغربي لدرجة أذهلتني، أنّه كان يتجاوب مع كل دقيقة في الغناء ويتتبع مراحل الأداء بكل جوارحه، وهذا أسعدني وأرجو أن يكون الجمهور قد سعد بي أيضًا، ولن أستطيع القول إن الحماس الذي قوبلت به هو دليل على الكرم الزائد للشعب المغربي أو على حبه لي، ومهما يكن الأمر فإنّني مسرورة جِدًا منه».

ثم سألها الصحفي أحمد ريان من الإذاعة المغربية عن نوعية الموسيقى التي تفضلها، فأجابت «الموسيقى الهندية والإسبانية والموسيقى الإفرنجية الكلاسيكية، وبالطبع الموسيقى الشرقية الأصيلة». وسألها عبد اللطيف مختار عن رأيها في الأغنية المغربية، فأجابت «يمكن اعتبار جوابي مجاملة، ولكنني أقول وبكل صراحة ومن خلال ما سمعت في سهرة عيد العرش أن الموسيقى المغربية في مستوى متقدم».

وسأل محمد حسن الرامي مندوب مجلة «الإذاعة والتلفزة» المغربية عن رأي السيدة أم كلثوم في التجديد الذي أدخله الأخوان رحباني على الموسيقى الشرقية، فردت «إن الأخوين رحباني من أفضل الموسيقيين في العصر الحديث، ذلك أنّهما استطاعا أن ينفذا الموسيقى الشرقية على القواعد العلمية الصحيحة».

وسألها الرامي عما إذا كانت ستقوم بجولة سياحية عبر بعض المدن المغربية بعد السهرة الثالثة، فذكرت أنّها ستزور فاس ومكناس ومراكش والدار البيضاء، مهما كانت المسافات التي تفصل بينها، لأن هذه المدن تمتاز بالطابع الإسلامي وأنّها من عشاق الفن المعماري العربي والإسلامي.

وكان آخر سؤال حول رأيها في القفطان المغربي بعدما ارتدته في الليلة الأولى، فقالت وهي تبتسم أنّها أعجبت جِدًا به، وسترتديه في أول سهرة لها بالقاهرة.

وفي نهاية المؤتمر أعربت عن سعادتها البالغة بوجودها في المغرب، وقالت إنّها تشعر براحة كبيرة في الرباط، وتتمنى ألا تغادر ذلك البلد الساحر.

طوال الأيام الفاصلة بين الحفلة الأولى في 4 مارس والثانية في 8 مارس 1968، لم يتوقف الجدل في الصحف المغرب حول ما ستقدمه السيدة أم كلثوم في الحفل الثاني، ولم يتوقف بعض الصحفيين عن الإدلاء بتوقعاتهم عن أغنيات الحفل المنتظر، وتذكر الصحافة أن نصف الذين حضروا الحفلة الأولى تقريبًا هم الذين سارعوا وحجزوا تذاكر الحفلة الثانية، بعد ما شاهدوه من روعة أداء أم كلثوم وانفعالها بالغناء على المسرح. وفي مساء 8 مارس، كانت أجواء مسرح «محمد الخامس» أكثر حماسة؛ غُطّيت خشبة المسرح بالورود والرياحين،

وحضر الأمير عبد الله ولي العهد إلى المسرح مبكرًا، بعدما اضطرته الظروف للغياب عن الحفلة الأولى، وقبل أن يرفع الستار، قابل الأمير السيدة أم كلثوم وطلب إليها أن تعيد غناء قصيدة «الأطلال» رغم تجهيزها لأغنية «فكروني»، فوافقت أم كلثوم وطلبت من الفرقة الاستعداد لذلك الطلب السامي. وما إن فتح الستار حتى أطلق أحد المنظمين ثلاث حمامات بيض رمزًا للمحبة والسلام اللذين يحملهما صوت أم كلثوم، وطارت الحمامات الثلاث في قبة المسرح ثم عادت إحداهن واستقرت فوق خشبة المسرح أمام السيدة أم كلثوم، وتحكي الأساطير المتوارثة في المغرب أن هذه الحمامة ظلت تنصت في خشوع لأم كلثوم ولم تغادر مكانها طوال مدة الوصلة الأولى التي دامت أكثر من 90 دقيقة. وقبل انتهاء الوصلة الأولى، وبعد أن أدت أم كلثوم قفلة «الأطلال»، هاجت الجماهير وضج المسرح بالتصفيق والهتاف، وصعدت إلى المسرح فتاتان مغربيتان تحملان باقات زهور كبيرة للسيدة أم كلثوم، وما إن نزلتا حتى صعد الزجال والمسرحي المغربي أحمد الطيب العلج الذي أقدم على خطوة طريفة، إذ اعتلى خشبة المسرح ومعه المقاوم المغربي أحمد السقاط وقدما إلى أم كلثوم هدية مغربية خالصة، وهي عبارة عن شمعة خضراء طولها متران ومشغولة بخيوط الذهب. وعن هذه الواقعة، يقول الطيب العلج لمجلة «الصباح» «قدمت تلك الهدية إلى أم كلثوم باسم الفنانين المغاربة تعبيرًا عن العلاقة الوجدانية التي تجمع بين المغرب ومصر، وعندما جاءتني تلك الفكرة، اتصلت بصديق ومقاوم وطني هو المرحوم أحمد السقاط، وناشدته أن يجلب لي معه من مدينة فاس شمعة من ضريح المولى إدريس، وهذا ما كان، فقدمتها إليها وأنا أهمس لها أن هذه الشمعة من مقام إدريس الأول، وهو أول من بنى

دولة إسلامية في المغرب، فشرعت تقبل الشمعة بتأثر بالغ، يكشف روحانية هذه الفنانة وتقديرها للأولياء». وبعد أن أعادت السيدة أم كلثوم خاتمة «الأطلال»، أسدل الستار للاستراحة، وسرعان ما مضت ساعة الراحة لتعود أم كلثوم إلى خشبة مسرح محمد الخامس وتؤدي وصلتها الثانية في تلك الليلة، فغنت أغنية «فات الميعاد» في 83 دقيقة، وملأتها بتصرفات لحنية مميزة، خصوصًا في مقطعها الأثير «الليل ودقة الساعات تصحي الليل».

بعد يومين من حفلها الثاني، وتحديدًا في يوم الأحد 10 مارس 1968، صادف وجود أم كلثوم بالمغرب عيدَ الأضحى، وربما كانت تلك هي المرة الثانية التي تقضي فيها الست هذه المناسبة الدينية خارج مصر، بعدما سبق وقضت عيد الأضحى في الولايات المتحدة الأمريكية في أغسطس 1953 في أثناء رحلة علاجها الطويلة هناك. وتقديرًا للسيدة أم كلثوم، وفي لفتة ملكية كريمة، أهدى الملك الحسن الثاني للسيدة أم كلثوم كبش العيد، حتى تضحي وتقيم الشعائر الدينية تمامًا مثل المغاربة، وقد شكرت السيدة أم كلثوم الملك على تلك الهدية وعلى ذلك المعنى الذي يقصده من ورائها، لكنها أصرت على نحر الأضحية في بيت أسرة مغربية فقيرة، فوقع الاختيار على سائق بسيط من مدينة الرباط يدعى عبد الفتاح الناصري. وتروي الإعلامية أماني ناشد في تغطيتها التليفزيونية لرحلة المغرب، أن أحد أبناء ذلك السائق، وهو طفل اسمه فائز لا يتجاوز عمره الثماني سنوات، ما إن رأى الست حتى اندفع نحوها يجري وارتمى عليها وهو يقبل يديها، وحين حضنته السيدة أم كلثوم بكى الطفل بكاء شديدًا من فرحته بوجودها، ولا يعرف حتى الآن كيف وقع الاختيار على ذلك البيت المحظوظ ولا المعايير التي اعتمدها من ساعدوا السيدة أم كلثوم في

ذلك الاختيار. وبعد أن حضرت أم كلثوم مراسم الذبح وشاركت البيت المغربي فرحة العيد، توجهت إلى دار الموسيقار المغربي الكبير أحمد البيضاوي، الذي استقبلها في منزله مع فرقته الموسيقية وقدّم لها ألوانًا طربية من الفن المغربي. وفي نهاية أول أيام الأضحى، زارت السيدة أم كلثوم بيت السفير المصري في المملكة المغربية السفير حسن فهمي عبد المجيد، وتناولت معه ومع أسرته الطعام المصري، كي تشعر أنّها في القاهرة التي غابت عنها في تلك المناسبة الدينية.

وفي يوم 11 مارس، واستعدادًا للحفل الأخير، أجرت السيدة أم كلثوم عدة بروفات موسيقية مع فرقتها في إحدى قاعات فندق «هيلتون»، وتعمدت إحاطة تلك البروفات بإطار السرية والتكتم الشديد، خصوصًا وأنّ الصحافة المغربية كان لا هم لها إلا التساؤل عن ما ستقدمه أم كلثوم في حفلتها الأخيرة في المغرب بعد أن غنت للسنباطي ومحمد عبد الوهاب وبليغ. وبعد أن أنهت البروفة، قابلت الصحفي محمد حسن الرامي وأدلت بمجموعة تصريحات صحفية لمجلة «الإذاعة والتلفزة» المغربية منها «أنصح ذوات المواهب المغربيات أن يشتغلن بالفن ومن الحرام أن يقف أحد في طريقهن». كما أشادت بالمرأة المغربية وطريقة تجاوبها مع الغناء «المرأة المغربية تتذوق الفن بشكل واضح». وفي نهاية الحوار، أعطت رأيها الشخصي في الملحنين الذين تعاملت معهم، تحديدًا السنباطي وعبد الوهاب ومن الشباب الموجي والطويل، وأكدت إعجابها بطرق تلحين وتوزيع الأخوين رحباني.

يرى الكثير من كبار هواة غناء السيدة أم كلثوم أن حفل 12 مارس 1968 بالمملكة المغربية هو قمة العطاء الكلثومي في سنواتها الأخيرة، بل إنّ هذه الحفلة يمكن تصنيفها واحدةً من أفضل عشر

حفلات قدمتها السيدة أم كلثوم طوال تاريخها الفني الطويل، وذلك لأن أم كلثوم كانت في أفضل حالاتها الفنية، بعدما استأنست بالمغرب وأهله، وأَلِفت الجمهور المغربي وتجاوبه وانفعاله، وربما ساعد على ذلك أيضًا ما لمسته من محبة وتقدير على المستويين الشعبي والرسمي، كل تلك العوامل جعلت أم كلثوم في قمة سلطنتها الغنائية وفي أعلى مراتب التجاوب النغمي، ولحفل 12 مارس ثلاثة أبطال: أولًا الصحافة المغربية التي ظلت تنشر يوميًا تساؤلات حول الأغنيات التي ستقدمها أم كلثوم، خصوصًا بعدما غنت لعبد الوهاب والسنباطي وبليغ، والبطل الثاني هو الجمهور المغربي الذي حوّل قاعة مسرح «محمد الخامس» إلى شعلة تفيض بالطرب والحماس، وأخيرًا السيدة أم كلثوم التي دفعها ذكاؤها المعهود إلى التقاط رغبات الجماهير المغربية وخلجاتها، فكانت المفاجأة، فبعد طول انقطاع عادت أم كلثوم لغناء إحدى شوامخها السنباطية القديمة وهي قصيدة «رباعيات الخيام» من ترجمة أحمد رامي، ورائعة «هو صحيح الهوى غلاب» لبيرم التونسي وزكريا أحمد، والأكيد أن ذلك الاختيار لم يكن ارتجاليًا ولا وليد لحظة الحفل كما أشيع، ولكنّ أم كلثوم كانت تتابع كل ما تكتبه الصحافة المغربية، وتسمع من المحيطين بها رغباتهم وما يريدون أن يستمعوا إليه في الحفل الأخير. ويذكر الصحفي المغربي محمد حسن الرامي الذي قابل أم كلثوم يوم 11 مارس -أي قبل يوم الحفل بيوم واحد- أنّه في أثناء انتظاره للسيدة أم كلثوم في بهو فندق «هيلتون» الرباط، تناهى إلى سمعه نغمات من قصيدة «رباعيات الخيام» و«هو صحيح الهوى غلاب» منبعثة من إحدى قاعات الفندق التي تُجري فيها أم كلثوم بروفة مع فرقتها الموسيقية، وهو ما يؤكد أن السيدة أم كلثوم كانت مستعدة لهاتين الأغنيتين منذ اليوم السابق

للحفل على الأقل، وقد بدأ الحفل الأخير عندما صعد الفنان التشكيلي كمال الزبدي وقدم إلى السيدة أم كلثوم لوحة فنية أسماها الأطلال من وحي القصيدة الخالدة، وبعد أن نزل الزبدي من على المسرح، بدأت الفرقة بالعزف، وعرفت الجماهير أن أم كلثوم ستغني قصيدة «رباعيات الخيام» فهاج الحضور وعلا الصخب والتصفيق.

كان السنباطي قد أنهى تلك القصيدة الصوفية الكبرى في مطلع عام 1949، ولم تشدُ بها أم كلثوم إلا في 7 ديسمبر 1950، وقد تحقق في تلحينها إعجاز فني خارق، حين اختزل السنباطي بالمطلع الهادئ الإيقاعي هدف القصيدة، وأوحى للمستمع من خلال «الناي» أنّه يحلق في أجواء سحرية علوية تقربه من الذات الإلهية، في حين يؤكد الإيقاع الهادئ من الدفوف واللحن المقطع على الإيقاع والمرافق له أنّه ما زال على الأرض. ورغم الأرشيف الحافل لتلك الرائعة من تفاريد وارتجالات قدمتها أم كلثوم طوال أحد عشر عامًا، وتحديدًا ما بين غنائها للمرة الأولى على مسرح حديقة الأزبكية بالقاهرة في 7 ديسمبر 1950 والمرة الأخيرة على المسرح نفسه في 2 مارس 1961، فإنّه لا توجد حفلة تفيض بالنشوة والطرب كما يتميز التسجيل المغربي، فكان أداؤها لتلك الوصلة مثل التتويج لتاريخها الطويل، لهذا طالت الوصلة الأولى أكثر من 82 دقيقة، ولجأت أم كلثوم إلى مداعبة الجماهير نغميًا وكلاميًا، فعند غنائها لبيت «أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب» بدلت بكلمات البيت كلمات أخرى معاكسة في المعني وقالت «أشعل هوى القلب بشهد الرضاب» فكان هذا كافيًا لملء القاعة بالهتاف والصراخ.

وفي وصلتها الثانية، غنت أم كلثوم «هو صحيح الهوى غلاب» التي تعد بلا منازع أجمل وصلات تلك الأغنية وأطربها. فمن أول الغناء، بدت أم كلثوم منتشية وممتلئة بالطرب، وشجعها ذلك التجاوب

الجماهيري الذي انبهر بأداء السيدة أم كلثوم رغم اقترابها من حاجز السبعين عامًا، فأعادت المذهب والأغصان عدة مرات. ومع الغصن الثاني للأغنية، بلغ الوجد مداه، فأقدمت أم كلثوم على واحدة من أطول ارتجالاتها النغمية على إطلاق، إذا مكثت أكثر من 45 دقيقة من أصل 74 دقيقة ترتجل في مقطع «نظرة وكنت أحسبها سلام»، وقد تعمدت التلوين والتلاعب بألفاظ المقطع، فوقفت عند لفظ «نظرة» الذي كان لفظًا مفصليًا في الارتجال، إذا لجأت أم كلثوم إلى إظهار «غُنّة» عجيبة في ذلك اللفظ. وفي علوم التجويد، تعرف «الغُنّة» بأنّها صوت رخيم يخرج من الأنف، ولها في التلاوة زمن محدد، لكن في الغناء قد يطيلها المطرب أو يقصرها دون قاعدة محددة، فكان الأداء الكلثومي لتلك الوصلة أداء مشايخيًّا بامتياز.

ورغم توافر تسجيلات أغنية «هو صحيح الهوى غلاب» التسعة عشرة، وتميز كل تسجيل منها، حتى تسجيلها الأول في ديسمبر 1960 الذي ارتجلت فيه أم كلثوم في مقطع «يا قلبي آه»، وهو أمر قليل حد الندرة أن تُقدم السيدة أم كلثوم على الارتجال في الحفلة الأولى للأغنية، إذ إنّها كانت تتعمد أن تؤدي اللحن كما وضعه الملحن حتى يستسيغه الجمهور ويحفظه كما هو ثم تزيد فيه هي كما تشاء في حفلاتها التالية، ومع أن تلك الأغنية كان لها خارج مصر محطات مهمة، إذ شدت بها أم كلثوم في لبنان في سبتمبر 1961، كما شدت بها بأداء خطير في «سينما الأندلس» بالكويت في فبراير 1963، فإنّ تسجيل تلك الوصلة في المملكة المغربية يظل قمة أدائها لتلك الأغنية، إلى درجة أن الجمهور المغربي بلغت به نشوة السماع مبلغًا عظيمًا، فوقفت الجماهير تصفق وتزغرد دقائق عدة، وربما في أطول مقاطعة بالتصفيق عرفتها تسجيلات السيدة أم كلثوم التي وصلت إلينا.

ومن فرط الإعجاب، ظلت الجماهير المغربية تردد في شكل جماعي زفة العرائس في المغرب والتي يقول مطلعها «صلاة وسلام على رسول الله.. لا جاه إلا جاه سيدنا محمد.. الله مع البناء العالي.. اللهم صلي عليك يا رسول الله.. يا جاه النبي العظيم.. الجنة للصابرين.. الله ينصر علم النبي»، وكان هذا بلا شك غيرَ مسبوق أيضًا؛ أن تقول الجماهير المديح الديني لمطربة تقدم أغنيات عاطفية في الأساس، وهو ما أبهر السيدة أم كلثوم التي وقفت تضحك على هذا المشهد العجيب.

كانت السهرة الثالثة استثنائية بكل المقاييس، وكذلك كان تنظيمها محكمًا، وهو ما انعكس إيجابًا على دخل شباك التذاكر، إذ بلغت حصيلة الحفلة الثالثة وحدها نحو 35 مليون سنتيم مغربي، لكن هذا المبلغ المهم حينها كاد يتعرض للسرقة لولا الألطاف الإلهية، كما أكد ذلك عزيز السغروشني المدير السابق لمسرح «محمد الخامس» لمجلة «الصباح» المغربية «بعد أن حصل المسؤول عن صندوق بيع التذاكر المبلغ المذكور، نحو الساعة الثانية والنصف بعد الزوال، وجد أن القابض قد غادر مكتبه فقصدني بحكم أني كنت المدير، وسلمني المبلغ كي لا يظل على ذمته، فوقعت له وصلًا بتسلمي إياه.. ولما أردت مغادرة إدارة المسرح وضعت المبلغ في حقيبة يدوية، واكتشفت أنّني لم أجلب سيارتي فاضطُررت إلى المشي راجلًا إلى منزلي الذي كان قريبًا من المسرح بساحة «الجولان»، وهكذا بات معي المبلغ تلك الليلة، وفي اليوم الموالي اكتشفنا أن المسؤول عن الشباك لم يأت إلى العمل، إلى أن علمنا أنّه يرقد في المستشفى، بعد أن اعترض طريقه لصوص تربصوا به وهاجموه وأوسعوه ضربًا وهم يعتقدون أنّه يحمل معه مداخيل الشباك»!

وبعد انقضاء السهرات الرسمية الثلاث التي أحيتها أم كلثوم بمسرح «محمد الخامس»، لبَّت السيدة دعوة ولي العهد الأمير عبد الله وزوجته السيدة لمياء الصلح على حفل عشاء في قصرهما، ودعا الأمير عبد الله أعضاء «الجوق الوطني المغربي» من أجل تنشيط الموسيقى المغربية، وتقديم بعض الفقرات والموشحات الدينية كي تتعرف السيدة أم كلثوم على الموروث الغنائي للمملكة المغربية. وقبل بداية الحفل، سأل الأمير عبد الله عن محتويات البرنامج الفني الذي أعده «الجوق الوطني المغربي» فأجابه الفنان إبراهيم القادري أنّهم سيقدمون توشيح «يا رسول الله خذ بيدي» وهو العمل الموسيقي الغنائي الجديد لهم، الذي أعده الموسيقار صالح الشرقي (1923-2011) بناءً على رغبة الملك الحسن الثاني، فاستحسن الأمير عبد الله الفكرة. وبالفعل، شرعت المجموعة في تقديم الأنشودة، وطوال غناء المجموعة، كانت أم كلثوم تنصت بشدة إلى التوشيح الديني، بل إنّها طلبت من أحد أعضاء المجموعة الصوتية أن يأتي إليها ليسمعها كلمات القصيدة. وفجأةً، ودون أي مقدمات، وقفت السيدة أم كلثوم في مكانها، وتقدمت نحو الفرقة الموسيقية في لحظة مؤثرة وانفعالية، لتشترك معهم في غناء الأنشودة. ويقول الموسيقار صالح الشرقي لصحيفة «الشرق الأوسط» عن تلك اللحظة «ارتبكتُ شخصِيًا خلالها، فقدتُ توازني، وغابت الأوتار عن عيوني، وأنا أرى وأسمع أم كلثوم بتاريخها الفني، وصوتها الساحر، تنشد معنا في اندماج غنائي «يا رسول الله خذ بيدي».. إن الشحنة الروحية والنفحة الدينية اللتين تعبق بهما الأبيات الشعرية للقصيدة، هما اللتان أثّرتا فيَّ كملحن، وأثّرتا فيها كمطربة، تتذوق الكلمة القوية المعبرة عن جوارح النفس البشرية في علاقتها مع الخالق عز وجل». وتروي السيدة أم كلثوم في

حديثها التليفزيوني الذي أجرته في المغرب مع الإعلامية أماني ناشد أنّها انفعلت بذلك التوشيح الديني ورددته مع المجموعة لحاجة في نفسها، وهي تقصد بالتأكيد النصر في المعركة!

وقد شاء القدر أن يحفظ لنا تسجيلًا لذلك التوشيح الديني بصوت أم كلثوم، عندما أعادت غناءه أمام الملك الحسن الثاني في السهرة التي أقامتها خصيصًا له في الفندق «السعدي» في مدينة مراكش في ليلة 16 مارس 1968.

وعلى هامش زيارتها للمغرب، استغلت أم كلثوم فرصة انتهاء الحفلات وقامت بجولة في مدن المملكة المغربية؛ زارت مدينة تطوان شمال المغرب في زيارة سريعة أشارت إليها بعض المصادر لكن دون أن تحدد تفاصليها، والأغلب أن الزيارة كانت شخصية، إذا يرجح أن تكون مجاملة لأسرة بنونة المغربية وتحديدًا بيت أبو بكر بنونة مدير هيئة الإذاعة المغربية آنذاك، ثم سافرت إلى مدينة مكناس التي كانت عاصمة للمغرب في عهد السلطان مولاي إسماعيل في الفترة ما بين 1672 و1727، بعدما وجهت إليها الدعوة الأميرة للا آمنة شقيقة الملك محمد الخامسز فعقب الحفل الأول في 4 مارس 1968، زارت الأميرة آمنة السيدة أم كلثوم في فندق «هيلتون» الرباط ودعتها لزيارتها في قصرها بمدينة مكناس، فقبلت السيدة أم كلثوم الدعوة شاكرة. وبالفعل، بدأت برنامجها في المدينة بزيارة الأميرة في قصرها، وقد لفت نظر السيدة أم كلثوم في مكناس جمال العمارة العربية الإسلامية وتحديدًا الزخارف الأندلسية التي يحفل بها القصر الملكي القديم، الذي بعد أن زارته وخرجت منه فوجئت بأكثر من خمسة آلاف طفل يقفون أمام الباب الخارجي للقصر في هدوء، فظنت أن هناك مدرسة مجاورة، وأن هذا موعد خروج الأطفال، ثم اكتشفت أنّها كانت السبب

في تجمع كل هذا الحشد من الأطفال، بعد أن سمعوا أنّها هنا فجاؤوا إليها يحيونها بتحيتهم المعتادة وهي تقبيل ظاهر اليد وباطنها.

ثم سافرت أم كلثوم بعد ذلك إلى مدينة فاس جارة مدينة مكناس، وذلك تحقيقًا لدعوة تلقتها أم كلثوم من وزير السياحة المغربي السيد التهامي الوزاني (1927-2013) الذي أراد أن يضفي على زيارة أم كلثوم للمغرب بعدًا سِيَاحِيًا وحتى لا تستأثر بها مدينة الرباط، فاختارت أم كلثوم تلك المدينة ومدينة الدار البيضاء لضيق وقتها في المغرب، ولقد استُقبلت السيدة بفاس استقبالًا حافلًا، فجلس سكان فاس على جانبي الطريق قبل بوابة المدينة بعشرين كيلو تقريبًا منتظرين وصول السيدة أم كلثوم. وبمجرد وصولها، استقبلها أهل فاس بالزغاريد والصلوات على النبي، وبكت أم كلثوم من فرط حماس أهل المدينة وحفاوتهم بها، وعندما سألها الصحفي المصري سمير توفيق الذي كان يرافقها عن تلك المحبة التي تلقاها في كل مكان وفي كل بقعة عربية تذهب إليها قالت له أم كلثوم «إنّني لا أضن بحياتي على الأمة العربية كلها.. إنّني أحمد ربنا قبل كل شيء، شعب المغرب أسرني بعواطفه وحسن استقباله ومشاعره نحو مصر، ولا أستطيع أن أعبر بالكلمات عن مدى شعوري تجاه الشعب في المغرب، قابلوني هكذا لأني من مصر.. قطعة من مصر». وقد أقيم على شرفها مأدبتان كبيرتان في مدينة فاس: الأولى دعت إليها حرم وزير الأنباء السيد أحمد السنوسي في قصرها بالمدينة، وقد حضرها سيدات المجتمع المغربي وزوجات الوزراء وأعضاء السلك الدبلوماسي، وكان استقبالها بالزغاريد والابتهالات وبزفة العروس الدينية التي بهرت السيدة أم كلثوم، وكذلك البخور التي أطلقته السيدات المغربيات في كل مكان تحل به أم كلثوم كي يحفظها الله للأمة العربية.

أما المأدبة الثانية فأقامها محافظ المدينة أو عامل المدينة كما يطلق عليه في المملكة المغربية، وحضر المأدبة وزيرا العدل والأنباء، وتجمع سكان المدينة حول بيت المحافظ فور علمهم أن السيدة أم كلثوم بداخله، ولم يمنع هطول الأمطار سكان المدينة من البقاء حول الدار حتى تطل عليهم السيدة ولو دقيقة واحدة. ومن أقوى لحظات زيارة مدينة فاس حين استقبل القصر الملكي المعروف باسم «دار المخزن» أم كلثوم ومرافقيها. ومرة أخرى عبرت السيدة عن انبهارها بالعمارة المغربية، فقد كشفت تلك الزيارة عن اهتمام كبير لأم كلثوم بالهندسة المعمارية وتحديدًا الأندلسية منها.

ثم زارت بعد ذلك مدينة الدار البيضاء التي عاتب سكّانها منظمي زيارة السيدة أم كلثوم إلى المغرب على عدم إقامة حفلٍ بمدينتهم. وفي تلك المدينة، أقامت الفرقة الموسيقية التي رافقت السيدة أم كلثوم في رحلتها إلى المغرب مدة طويلة، حيث أجروا بروفات عدة على بعض القطع الغنائية الجديدة التي سجلت بأداء موسيقي مشترك مع النجم المغربي عبد الهادي بلخياط، وقد حددت الصحف المغربية عدد تلك القطع التي سجلها عبد الهادي بلخياط برفقة فرقة السيدة أم كلثوم بخمس أغانٍ جديدة. وتروي السيدة أم كلثوم لصحيفة «الأهرام» عقب عودتها من المغرب أنّها وجدت في الدار البيضاء ناديًا لهواة سماعها، يشترط لانضمام الأعضاء إليه امتحانًا صغيرًا يتصل بالغناء القديم والحديث لأم كلثوم، وعدد أغنياتها وكم مرة غنتها ومَن الملحن وكيف تصرفت في اللحن في كل مرة.

ومع أن أم كلثوم كانت صرّحت في مؤتمرها الصحفي الذي عقد لها في 5 مارس 1968 بأنّها تنوي العودة إلى القاهرة يوم 16 مارس، فإنّها عادت ومددت زيارتها إلى المغرب أيامًا أخرى، بعدما تلقت العديد

من الدعوات الرسمية وغير الرسمية من أهل المغرب. أما عن أهم تلك الدعوات، فكانت دعوة الملك الحسن الثاني لها لزيارة المدينة الحمراء مراكش، وقد فتحت تلك الدعوة باب التكهنات عن إمكانية إقامة السيدة أم كلثوم لحفل آخر بخلاف حفلاتها الثلاث المبرمجة في إطار دعم المجهود الحربي، خصوصًا وأن الدعوة الملكية قد وُجّهت لها ولفرقتها الموسيقية. ولكن بمجرد أن أعلن التليفزيون المغربي يوم 13 مارس 1968 أن الملك الحسن الثاني قد غادر في نفس اليوم العاصمة الرباط متوجهًا إلى مراكش، تحوّل الشك إلى يقين وعلم الجميع أن الحفلة المنتظرة ستكون لا محالة في مدينة مراكش لا سيما أن السيدة أم كلثوم قد وصلتها في صباح ذات اليوم واستقر بها المقام في أفخم فنادق المدينة المعروف باسم «المامونية»، أما أفراد الفرقة الموسيقية فقد أقاموا بالفندق «السعدي» الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن محل نُزل السيدة أم كلثوم. وما إن أطلت السيدة أم كلثوم من نافذة الفندق في مراكش حتى بهرها كل شيء خارجه: اللون الأحمر الذي يكسو جميع المنازل والمباني، شمس المدينة التي ذكرتها بشمس مدينة أسوان، والمآذن ذات التكوين المعماري المميز والتي يعود تاريخها إلى نهايات القرن السادس عشر، ولا يوجد في العالم كله مثلها غير ثلاث مآذن منها؛ اثنتان في مراكش وواحدة في إسبانيا، وفي كل مئذنة من تلك المآذن يخطط أمامها الشارع بحيث تكون هي البعد النهائي الذي تقع عليه عين من يسير في أول الطريق.

وفوق جبال أطلس المتوسط، أقام الملك الحسن الثاني حفلًا كبيرًا لتوديع أم كلثوم، اشتركت فيه جميع الفرق الفنية الشعبية التي تمثل جميع مدن المغرب العربي، ووقفت أم كلثوم على منصة خاصة أمام الخيمة الملكية المخصصة لها وبجوارها وزير الأنباء أحمد السنوسي،

ومرت الفرق التي لا يقل عدد أفرادها عن 1600 فنان مغربي أمام منصة أم كلثوم، حيث عرضت كل فرقة فنَّها أمام السيدة ثم مضت لتتبعها فرقة أخرى، ولقد أعجبت أم كلثوم بفرقة «بني بلال» من مدينة فاس، وتقدمت وسط الرقصات وأدت معهم بعض الحركات الفلكلورية، وشاركت بنات المغرب أناشيدهن ورقصاتهن الوطنية وسط التصفيق ودقات الدفوف وزغاريد الراقصات المغربيات.

وتبقى الليلة التي أحيتها السيدة أم كلثوم في الكازينو التابع للفندق «السعدي» أهم ما في تلك الزيارة الخاطفة إلى مدينة مراكش. ففي مساء يوم السبت 16 مارس 1968، أقام الملك الحسن الثاني حفلًا خَاصًا دعا إليه أفراد العائلة الملكية المغربية والوزراء ورجال الحاشية الملكية، وقد فرض غياب مسارح كبرى في تلك المدينة المغربية اختيار كازينو الفندق «السعدي» لتغني عليه السيدة أم كلثوز، وفي بداية الليلة، أدت أم كلثوم برفقة فرقة «الإنشاد المغربي» دعاء «أدركنا أغثنا يا رسول الله» للمرة الثانية في المغرب بعد أن حفظته جيدًا وأضافت إليه من الجماليات النغمية ما لم يكن فيه، ورغم أن المصادر الصحفية التي تناولت ذلك الحفل لم تذكر الكثير من تفاصيله، فإنَّ صحيفة «العلم» المغربية الصادرة يوم 24 مارس 1968 تذكر أن محمد عبده صالح قائد فرقة أم كلثوم الموسيقية بدا عليه التعب الشديد في تلك الليلة بسبب ما بذله من جهد طوال الرحلة إلى المغرب، وأن الوفد الإعلامي المصري الذي رافق السيدة أم كلثوم قد دعي أيضًا لتلك الحفلة الخاصة، فحضرت الإعلامية أماني ناشد ومدير الإضاءة أنطون صفر وكذلك المخرج سعيد عبادة، وقد غنت السيدة أم كلثوم رائعتي الموسيقار محمد عبد الوهاب «أنت عمري» و«فكروني»، فغنت الأولى في حدود الساعة تقريبًا، والثانية في 54 دقيقة. ورغم

محاولات السيدة أم كلثوم المتكررة للارتجال طوال الوصلتين، بل تعمدها تحويل لحن بعض المقاطع في الأغنيتين إلى ما يشبه الموال، فإنّ الأجواء في النهاية قد غلب عليها البرود والبعد عن السلطنة بسبب عدم وجود جمهور متفاعل مع غناء أم كلثوم. ورغم ذلك، يحكي صالح الشرقي عازف القانون وملحن دعاء «أدركنا أغثنا يا رسول الله» أنَّ الملك الحسن الثاني كان يجلس في الصف الأمامي ويردد كلمات أغنية «فكروني» في سلطنة واندماج مع أم كلثوم.

ويروى فاروق إبراهيم، مصور السيدة أم كلثوم الشخصي الذي رافقها في كل جولات المجهود الحربي، لمجلة «الكواكب» الصادرة في مارس 1998 أنَّ التعليمات قد صدرت بأن يكون الحفل خاصًا بكل معنى الكلمة (بلا رجال إعلام ولا مصورين)، ولكنَّ فاروق إبراهيم بحسه الصحفي شعر أن غناء أم كلثوم في هذا الحفل الملكي الخاص فرصة لا يمكن أن تمر دون أن يسجلها بكاميراته، فحمل كاميرا صغيرة وأخفاها في ملابسه، وعند دخوله قاعة الحفل قال لرجال الأمن «أنا العقيد فاروق إبراهيم من الحراسات الخاصة!». وفي الفترة الفاصلة بين الوصلتين الغنائيتين، رأى فاروق إبراهيم الملك الحسن الثاني يخرج من الصالة إلى المسرح ويتجه نحو أم كلثوم ليقبّل يدها ويلبسها المعطف، فلم يقدر إبراهيم على مقاومة اللحظة فأمسك بالكاميرا والتقط صورة لهما، وعندما تنبه إليه الأمن حملوه خارج القاعة حيث قادوه إلى الجنرال أوفقير، الذي سأله عن اسمه ومهنته، وعندما أجابه أنّه مصور أم كلثوم، أمر الجنرال بأخذ الكاميرا والفيلم الذي بداخلها، وقد تصادف مرور السيدة أم كلثوم في تلك اللحظة، فسألت عن الأمر، فتولى إبراهيم إخبار أم كلثوم بما جرى داخل المسرح، وكانت الست بصدد غناء الوصلة الثانية، فتوجهت نحو مقعد الملك الحسن وقالت «لن أغني

إلا إذا أُفرج عن فاروق»، فقال لها الملك «من فاروق؟» فأخبرته بأنّه مصورها الخاص، فغضب الملك وعاتب مرافقيه لأنّه لم يصدر عنه إذن بذلك، وأفرج عن فاروق إبراهيم في الحال، وأعطيت له في اليوم التالي آلة تصوير جديدة لأن الأولى كانت قد كسرت، أما الفيلم فقد حُمِّض وأخذت منه الصور المغضوب عليها وأُعيدت له بقية الصور.

في محل إقامتها في مدينة مراكش، وقبل أن تعود السيدة أم كلثوم إلى العاصمة الرباط، أجرت السيدة اللقاء التليفزيوني الثاني لها بعد لقائها الأول في رحلة باريس في نوفمبر 1967، وبحسب ما ورد في الصحف المغربية أن التليفزيون المغربي كان قد طلب إليها حوارًا تليفزيونيًا، وبعد طول مداولات مع السيدة أم كلثوم، قبلت الست الفكرة، لكنها وضعت شرطًا أن الذي يجري معها الحوار هي الإعلامية المصرية المرافقة لها في رحلتها المذيعة أماني ناشد، وقد بث التليفزيون المغربي ذلك الحديث أولًا ثم بث لاحقًا في مصر.

وفي أيامها الأخيرة في المغرب، عادت السيدة أم كلثوم إلى العاصمة الرباط، وهناك استقبلت وفدًا من اتحاد كُتاب المملكة المغربية للتّرحيب بها باسم أدباء المملكة، وقد كان اللقاء مناسبة لتدارس واقع الحياة الأدبية في المغرب، وتطور الأدب العربي بشتى فروعه هناك. وفي نهاية اللقاء، قدم الوفد للسيدة أم كلثوم لوحة فنية كبيرة بتوقيع الفنان المغربي حميد المؤدن، كما قدم لها الوفد عددًا من المؤلفات المغربية الصادرة حديثًا، وخاصة الشعر منها حتى يتسنى لها اختيار بعض الأشعار لغنائها عقب عودتها إلى القاهرة.

كما أقامت سفارة الجمهورية العربية المتحدة في المملكة المغربية حفلَ وداع كبيرًا نظمه السفير المصري السيد حسن فهمي عبد المجيد، الذي ألقى كلمة أشاد فيها بما تقوم به السيدة أم كلثوم

من دور وجهد وطني، وعلق على ذلك الصدى العظيم الذي حققته حفلات المملكة المغربية الثلاث، وقد حضر تلك الاحتفالية الوفد الإعلامي المصري المرافق والعديد من الشخصيات المغربية البارزة وأعضاء السلك الدبلوماسي العربي في المغرب، بالإضافة إلى مجموعة من رجال الإعلام المغاربة ومنهم الإذاعي المغربي أبو بكر بنور، وكذلك الكاتب والشاعر أبو بكر المريني الذي كتب عقب وفاة السيدة أم كلثوم كتابًا عنها أسماه «أم كلثوم معجزة القرن العشرين» وصدر بالمغرب عام 1975.

وذهبت الأيام كالحلم، وعاش المغرب أيامًا غالية، تَهدَّم خلالها بعض من جدران الصمت التي فصلت لسنوات عدة بين المغرب ومصر. وتقول أم كلثوم عن أثر زيارتها للمغرب «كأن العدوان وقع عليهم، لقد وجدت هناك أكثر ما كنت أرجو، كان اسم مصر يتردد على أكثر من فم وفي أكثر من صحيفة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟». وتصف صحيفة «الأنباء» المغربية مشاعر أهل المغرب بعدما انقضت لياليهم الخالدة «حديث القلب للقلب، هو اللغة الوحيدة المعقولة مع هذه السيدة الرائعة، فليس ممكنًا أن نجازف بتحليل سر الروعة، إنّها أكبر من أن تحلل وليس ممكنًا أن نصف قليلًا أو كثيرًا الكهرباء التي كانت تسري في قلب كل إنسان بمسرح محمد الخامس، كل مسحور وراء مذياع في حفل أو بيت أو على سرير مستشفى، كل معلق العينين على شاشة صغيرة، ليس ممكنًا أو معقولًا أن نصف أو نحلل لقد كان الأمر أكبر.. أكبر. لقد كانت أم كلثوم هي أم كلثوم وكفى، آه كم هو مروع أن نعود فنعيش وقد انتهت أيام العُرس، لا أقسى من هذا الفراق حتى ولو كان وراءه وعد لقاء.. ربما بعد عام[1]».

---

(1) بعد عام من تلك الزيارة، وتحديدًا في 5 فبراير 1969، زار وزير الأنباء

وفي صباح يوم الوداع الأربعاء 20 مارس 1968، وقبل أن تتوجه السيدة أم كلثوم ومرافقوها إلى مطار الرباط سلا الدولي، كتبت برقيّتَي شكر قبل أن تغادر مقرها في فندق «هيلتون» الرباط، الأولى إلى الملك الحسن الثاني الذي أحاطها برعايته طوال مدة الزيارة، وجاء فيها «قبل أن أغادر أرض المغرب الحبيب أتشرف بأن أرفع إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني عظيم الشكر وامتناني لما لاقيته أنا وزملائي من رعاية وحب وحفاوة بالغة، راجية لله سبحانه أن يحفظ جلالتكم وولي عهدكم المحبوب الأمير سيدي محمد، وأن يكلأ الشعب المغربي بعين رعايته في ظل ملكه العزيز الساهر على تحقيق تقدم المغرب حالته وسعادته وخدمة الوطن العربي الكبير».

أما البرقية الثانية فكانت إلى الوزير أحمد السنوسي وزير الأنباء المغربي المسؤول الأول الذي أشرف على تفاصل تلك الزيارة كافة، وجاء فيها «أرجو أن تتقبلوا شكري وامتناني على الجهد الكبير الذي بذلتموه نحوي أنا وزملائي في الإشراف على تنظيم مشاركتنا في الحفلات التي أقيمت بمناسبة أفراح المغرب العزيز بعيد عرش ملكه المفدى، كما أرجو أن تنوبوا عني في الشكر إلى جميع العاملين بوزارتكم في إنجاح هذه الرحلة التي تركت في نفسي أجمل الأثر نحو شعب المغرب العظيم». وبعد أن ودعها العاملون في فندق «هيلتون» الرباط بكثير من التأثر والحرارة، كتبت أم كلثوم في سجل زوّاره كلمة

المغربي أحمد السنوسي ومعه السفير المهدي زنطار السيدة أم كلثوم في منزلها بالقاهرة، وقدما إليها دعوة من الملك الحسن الثاني لزيارة المملكة المغربية للمرة الثانية لإحياء حفل عيد ميلاده الأربعين في شهر يونيو 1969، وقد قبلت أم كلثوم الدعوة على أن تحيي ثلاث حفلات يخصص دخلها لصالح المجهود الحربي، لكنها عادت في شهر يوليو 1969 واعتذرت عن تلبية الدعوة في برقية أرسلتها إلى الملك الحسن الثاني.

رقيقة تخليدًا لتلك الزيارة التاريخية «سررت كثيرًا للمقابلة الطيبة وحسن الخدمة والنظافة من جميع العاملين بأوتيل «هيلتون» وخاصة لمديرها الهمام، وشكري للجميع».

وكما كان يوم وصولها إلى المغرب حافلًا بالمشاعر والمحبة، كان يوم الوداع كذلك، إذا وصل إلى مطار «الرباط سلا» كبار فناني المغرب الذين سبق وكانوا في استقبالها يوم الوصول إلى المملكة، إلى جانب السفير حسن عبد المجيد فهمي سفير الجمهورية العربية المتحدة والسفير المهدي زنطار سفير المملكة المغربية في القاهرة. وبعد أن استراحت السيدة أم كلثوم قليلًا في قاعة كبار الزوار في مطار الرباط، توجهت إلى سلم الطائرة وهي متأثرة بحرارة ودفء الوداع الذي أحيطت به منذ بداية اليوم، وصعدت سلم الطائرة بخطى متثاقلة وكأنّها لا تريد مغادرة ذلك البلد الذي أعطاها من المحبة فوق ما كانت تتخيل، وما إن وصلت إلى قمة السلم حتى خطت بيدها وهي تبكي على زجاج باب الطائرة الآية الكريمة التي طالما كانت ترددها في سفرها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. وبعد دقائق، كانت الطائرة تغلق أبوابها وتسير في طريقها الممهد قبل أن تطير في سماء المغرب متوجهة إلى القاهرة، وفي طريق العودة الطويل سألها الصحفي سمير توفيق عن مشاعرها بعد أن حققت حلم الملايين في المغرب العربي، وغنت من أجل الوطن والقضية، فأجابته «من أجل مصر مستعدة أن أذهب إلى أي مكان وأسهم بفني وروحي في أي ميدان»، وأرجعت رأسها إلى الوراء لترتاح قليلًا.

الملك الحسن الثاني يستقبل السيدة أم كلثوم في حفل العشاء
الذي أقيم على شرفها في مسرح «محمد الخامس»، بمناسبة
عيد العرش المجيد، يوم 3 مارس 1968.

السيدة أم كلثوم ترتدي القفطان المغربي في حفلها الأول
بالمملكة المغربية يوم 4 مارس 1968.

في حجرتها الملحقة بالمسرح بين الوصلتين، توقع على صورها، وتستقبل المعجبين، يوم 4 مارس 1968.

السيدة أم كلثوم تجيب عن أسئلة مندوبي الصحف، في المؤتمر الصحفي الذي أقيم لها في محل إقامتها في فندق «هيلتون» الرباط، يوم 5 مارس 1968.

السيدة أم كلثوم تصل إلى مدينة مراكش، يوم 13مارس 1968.

السيدة أم كلثوم تغني في حفلها الثاني بالمملكة المغربية، وقد ظهرت في مقدمة الصورة ظل الحمامة البيضاء التي استقرت على خشبة المسرح طوال الوصلة الأولى، يوم الجمعة 8 مارس 1968.

الزجال والمسرحي المغربي أحمد الطيب العلج والمقاوم المغربي
أحمد السقاط يقدمان إلى السيدة أم كلثوم شمعة من ضريح
المولى إدريس في مدينة فاس المغربية، يوم 8 مارس 1968.

بعض انفعالات الجمهور المغربي في الحفلة الثانية، يوم 8 مارس 1968

السيدة أم كلثوم تغني في آخر حفلاتها بالمملكة المغربية، يوم الثلاثاء 12 مارس 1968

السيدة أم كلثوم تزور مدينة مراكش المغربية، وتشاهد فرق الفنون الشعبية فوق جبال أطلس المتوسط، يوم 13 مارس 1968.

أعجبت السيدة أم كلثوم بفرقة «بني بلال» للفنون الشعبية في مراكش، وتقدمت وسط الرقصات وأدت معهن بعض الحركات الفلكلورية، يوم 13 مارس 1968.

مصادر هذا الفصل:

1- أبو بكر المريني، أم كلثوم معجزة القرن العشرين، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1975.

2- إحسان بيات الدروبي، سامي الدروبي، دار الكرمل للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع، 1982.

3- أبو إلياس، تحقيق عن زيارة أم كلثوم للمغرب (29 فبراير 1968، 20 مارس 1968)، منتدى سماعي للطرب الأصيل.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 ديسمبر 1967.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 28 فبراير 1968.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 29 فبراير 1968.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 6 مارس 1968.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 مارس 1968.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 مارس 1968.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 5 أبريل 1968.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 6 فبراير 1969.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 19 أبريل 1969.

13- صحيفة العلم، المغرب، عدد 3 مارس 1968.

14- صحيفة العلم، المغرب، عدد 24 مارس 1968.

15- مجلة الإذاعة والتلفزة، المغرب، عدد ابريل 1968.

16- مجلة كروان، المغرب، عدد أبريل 1968.

17- مجلة الصباح، المغرب، عدد مارس 2011.

18- مجلة زمان، المغرب، عدد مارس 2018.

19- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 13 مارس 1968.

20- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 27 مارس 1968.

21- مجلة المصور، القاهرة، عدد 25 مارس 1968.
22- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 19 يناير 1960.
23- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 19 مارس 1968.
24- صحيفة الشرق الأوسط، عدد 3 نوفمبر 2004.

السفيرة في الكويت!

ساحل الخليج في الكويت مطلع أبريل 1968؛ صحراء العطش السابق وخليج اللؤلؤ القديم، بلد الضفاف الغارقات بأشعة الشمس والرمال المالحة والضباب، ميناء «الأحمدي» الرابض في مواجهة البحر والذي تفوح منه رائحة النفط، صور الماضي القاسي تُبعث في العيون فتثير دهشة كل من زار الكويت حديثًا، كل شيء هنا ينمو سريعًا: الشوارع، الميادين، المباني، تمامًا بسرعة تدفق البترول. لم يعرف الكويت في تاريخه القديم غير الرمال والعطش، إلى أن جاءت يد إلهية لتنفجر في تيه الصحراء معجزة، وتخرج من تحت الأرض كنزًا، ليتبدل المشهد وتتبدل معه الكويت، تلك الصحراء الآسيوية المحرقة تحولت إلى شوارع وميادين وقصور وقاعات سينما، صواري السفن القادمة والمحملة بالماء العذب لأهل تلك المنطقة حلت محلها صواري الإذاعة والتليفزيون، وبدلًا من انتظار السفن القادمة بالماء، تصل آخر البرامج والأخبار إلى الغرف المكيفة في مبنى التليفزيون الكويتي، وقد أعلن التليفزيون أن الكويت هي ثالث محطة خارجية لأم كلثوم في سلسلة رحلات المجهود الحربي، وأن أهل الكويت على موعد قريب معها!

تاريخيًا لم يكن حفل أم كلثوم في دولة الكويت في أبريل 1968

من أجل دعم المجهود الحربي هو حفلها الغنائي الأول في تلك البقعة العربية؛ فقد سبق وزارت السيدة أم كلثوم دولة الكويت في بدايات عام 1963، بعدما تلقت دعوة في يناير من ذات العام من «الجمعية الثقافية النسائية» بالكويت، لإحياء حفلين هناك. وبالفعل، لبت أم كلثوم الدعوة وزارت الكويت، واستقبلها سمو ولي العهد آنذاك الشيخ صباح سالم الصباح (1913-1977) في قصره، وأحيت أم كلثوم حفلها الأول يوم الاثنين 25 فبراير 1963 في دار «سينما الأندلس» وغنت: «حيرت قلبي معاك» لرامي والسنباطي، و«حسيبك للزمن» لعبد الوهاب محمد والسنباطي، و«أنساك» لمأمون الشناوي وبليغ حمدي، وأما الحفل الثاني الذي أقامته بنفس دار السينما، يوم الأربعاء 27 فبراير أي بعد يومين من الحفل الأول، فغنت فيه ثلاث وصلات، هي بالترتيب: «هجرتك» لرامي والسنباطي، «ظلمنا الحب» لعبد الوهاب محمد وبليغ حمدي، و«هو صحيح الهوى غلاب» لبيرم التونسي والشيخ زكريا أحمد، كما غنت أم كلثوم للكويت مرتين طوال عهدها بالغناء؛ الأولى عند استقلال الكويت في 19 يونيو 1961 حين سجلت قصيدة «دارنا يا دار» للشاعر الكويتي أحمد العدواني (1923، 1990) والملحن رياض السنباطي، وفي هذه القصيدة قدمت تحية خاصة لأمير الكويت عبد الله سالم الصباح (1895، 1965) الذي يعد ثاني حاكم عربي تغني له أم كلثوم بعد الملك عبد العزيز آل سعود. ومن بين كلمات القصيدة «قالوا الكويت استقل وبدره قد كمل اليوم/ نلنا الأمل ودانت الأقدار/ في ظل الشمس الصباح زعيمنا للكفاح / إلى مراقي النجاح أميرنا المغوار» ثم عادت وقدمت في عام 1964 قصيدة أخرى للكويت لنفس شاعر وملحن القصيدة الأولى، وهي قصيدة «أرض الجدود» التي سجلتها في إذاعة القاهرة يوم 10 يونيو 1964 لتذاع في عيد استقلال الكويت الثالث.

وقد توثقت علاقة السيدة أم كلثوم بالكويت وشعبها على مدار عقد الستينيات، خصوصًا عقب زيارتها الأولى للكويت عام 1963، وذلك بسبب تلك العلاقة القوية التي جمعتها بالشيخة منيرة هلال المطيري وزوجها الشيخ دعيج السلمان الصباح، وشاءت الأقدار أن أول مبلغ تتبرع به السيدة أم كلثوم عقب عدوان يونيو 1967 لصالح المجهود الحربي يكون محولًا لها من دولة الكويت، نظيرًا لحق الأداء العلني لبعض تسجيلاتها التي كانت تذيعها إذاعة الكويت، وتذكر صحيفة «الأخبار» الصادرة في 13 أغسطس 1967 أن الشيخ دعيج الصباح كان يتابع ذلك المجهود الوطني الذي تقوم به السيدة أم كلثوم منذ وقوع العدوان، وتقديرًا لدورها ومشاركة منه في مجهودها الحربي، أرسل إلى السيدة أم كلثوم شيكًا بأربعة آلاف دولار هدية منه إلى لجنة التجمع الوطني ولصالح المجهود الوطني.

وفي أعقاب ذلك النجاح الكبير لرحلات أم كلثوم الخارجية، وما حققته أم كلثوم من صدى واسع في باريس والمملكة المغربية، أرادت «الجمعية الثقافية النسائية» في الكويت أن تشارك السيدة أم كلثوم في حملتها الوطنية، وأن يكون للكويت دورٌ في جولات أم كلثوم في البلاد العربية، خصوصًا بعدما نشرت الصحف أخبارًا عن جولات مرتقبة لأم كلثوم في تونس وبعلبك والمملكة الليبية، وتتذكر السيدة لولوة القطامي (1931-) إحدى مؤسسات «الجمعية الثقافية النسائية» بالكويت، وأول رئيس مجلس إدارة لها تلك الأيام، فتروي لصحيفة «القبس» الكويتية بعضًا من ذكرياتها عن تلك المرحلة وتقول: «عندما سمعنا في الجمعية أن أم كلثوم تقيم حفلات في عدد من الدول، وتقدم ريع تلك الحفلات للمجهود الحربي، فكرنا بآلية لدعم مصر، وتوصلنا إلى فكرة أنّ أم كلثوم هي الوحيدة التي يمكن

أن تحقق ذلك الريع، وبحثنا عن طريقة لدعوتها إلى الكويت لإحياء حفلات، وبحثنا عن جهة لها صلة قوية مع أم كلثوم، فكانت الشيخ دعيج السلمان الصباح وزوجته منيرة هلال، وكانا يوجدان في أكثر شهور العام بمصر، ويحضران جميع حفلاتها، فطلبنا منهما مساعدتنا، وعرضا الفكرة على أم كلثوم ووافقت على القدوم إلى الكويت»، وما إن وافقت السيدة أم كلثوم على مبدأ الغناء في الكويت، حتى سافرت السيدة لولوة القطامي رئيسة «الجمعية الثقافية النسائية» ووكيلتها السيدة نوار ملا حسين خِصّيصَى إلى القاهرة في مارس 1968 عقب عودة السيدة أم كلثوم من رحلتها إلى المملكة المغربية، للتعاقد معها لإحياء حفل لصالح المجهود الحربي. وتروي القطامي قصة أول لقاء جمعها مع أم كلثوم من أجل الاتفاق على تفاصيل الرحلة فتقول: «بعد أن قدمت لنا أم كلثوم الضيافة في منزلها واستعرضت مجموعة من الملابس التي ترتديها خلال الحفلات، سألتها إن كان يجب التوقيع على عقد كي تحيي الحفل في الكويت، فصرخت بوجهي وقالت لي: «عيب يا ست لولوة، نحن والكويت أهل ولا توجد بيننا عقود»».

كانت السلطة السياسية آنذاك، وعلى رأسها الرئيس جمال عبد الناصر، تعتبر ما تقوم به السيدة أم كلثوم جزءًا من المعركة، وأن غاية رحلاتها الخارجية من أجل دعم المجهود الحربي ليست فقط جمع الأموال من أجل تخطي العدوان، بل إنّ جولاتها الخارجية لا يمكن فصل أهميتها عن ضرورة التسويق للقضية المصرية في المحافل الغربية، فقد ظلت الصحف الفرنسية تتحدث عن الموقف المصري والعدوان الإسرائيلي على الأرض العربية أكثر من شهرين بعد رحلتها إلى باريس في نوفمبر 1967، بالإضافة إلى هدفٍ لا يقل أهمية عن سابقه، وهو عملية إعادة تأليف القلوب العربية حول القضية المصرية،

بعدما فتّتت السياسة العربية، قبل يونيو 1967، النسقَ الإقليمي العربي، وتحولت المنطقة العربية إلى أحلاف منقسمة على نفسها، متباينة في مدى تأييدها للنظام المصري والمشروع الناصري، ولهذا رأى عبد الناصر أن أم كلثوم لم تعد الفلاحة العصامية فحسب، ولم تعد المطربة المصرية العظيمة فقط، لكنها تحولت بجولاتها تلك إلى سفيرة متجولة خارج الحدود، تروج للقضية المصرية وتبذل أقصى ما في جهدها من أجل رفع راية النصر في أقرب فرصة. وتسهيلًا لمهمتها، قرر الرئيس جمال عبد الناصر أن يمنح السيدة أم كلثوم جواز سفر دبلوماسيًا، وهو ما كان سابقة في تاريخ الفن المصري، فلم يسبق أن مُنح فنان مصري ذلك الجواز، بل إنّه لم يُمنح لأحد بعدها، وما إن أبلغ الرئيس عبد الناصر قراره للسيد سامي شرف (1929-) سكرتيره الشخصي للمعلومات، حتى طلب الأخير من وزير الخارجية محمود رياض (1917-1992) التنسيق مع السيد شعراوي جمعة (1920-1988) وزير الداخلية آنذاك من أجل تسليم السيدة أم كلثوم ذلك الجواز قبل رحلتها المرتقبة إلى دولة الكويت، فأصدر شعراوي جمعة قرارًا بذلك، بما تمنحه له المادة 3 من القرار 63 لسنة 1959، الذي ينص على منح وزير الداخلية سلطة منح جواز سفر دبلوماسي أو خاص للمواطنين الذين لهم أوضاع خاصة، وفعلا تم الاتصال بإدارة المراسم بوزارة الخارجية لاستخراج الجواز الدبلوماسي رقم 1534 الخاص بالسيدة أم كلثوم، وانتهت كل تلك الإجراءات في دقائق، وتسلّم مندوبٌ من مصلحة الجوازات والهجرة يوم الأحد 14 أبريل 1968 الجوازَ من إدارة المراسم وسلمه إلى السيدة أم كلثوم، ويروي السيد سامي شرف أنّه عندما اتّصل بالسيدة أم كلثوم في نفس الوقت لمتابعة تسلمها للجواز، احتبس صوتها تأثرًا وشكرته إزاء تلك اللفتة

الكريمة من الرئيس عبد الناصر، والذي أصبحت بمقتضى قراره أول فنانة عربية تحمل جواز سفر دبلوماسيًا.

وقد أثار منح أم كلثوم ذلك الجواز ضجة في الصحف الفنية المصرية والعربية، واحتفت الصحافة بالسيدة أم كلثوم التي كرمتها الدولة المصرية ومنحتها ذلك الجواز لتصبح طبقًا لتوابع منحه سفيرة مصرية، تُعامَلُ معاملة السفراء داخل مصر وخارجها. وتعقيبًا على ذلك المنح، صرّح العقيد لبيب بدوي مدير الشؤون العامة بوزارة الداخلية إلى مجلة «الكواكب» الصادرة في 23 أبريل 1968 «إنّ السيدة أم كلثوم تشارك في الأعمال القومية وأعمال المجهود الحربي بصورة تشرف كل عربي، كما أن إيرادات حفلاتها في الداخل والخارج تخصَّص لأغراض المجهود الحربي، وقد كثرت رحلاتها إلى الخارج في الأيام الأخيرة، فلماذا إذن تسافر بجواز سفر عادي وهي تقوم بهذا المجهود العظيم؟ لذلك رأى السيد وزير الداخلية منحَ السيدة أم كلثوم جواز سفر دبلوماسيًا، تكريمًا لها وتقديرًا لخدماتها الوطنية الكبيرة»، وفي ذات التحقيق، شرح اللواء فتحي القاضي وكيل مصلحة الجوازات والهجرة والجنسية آنذاك خصوصية ذلك الجواز وآثار منحه «إنّ جواز السفر الدبلوماسي لا يُمنح إلا لرئيس الجمهورية والوزراء ورؤساء الجمهورية السابقين، ومستشاري رئيس الجمهورية، والحائزين قلادةَ النيل من مواطني الجمهورية العربية المتحدة، والسفراء والعاملين في السلك الدبلوماسي، وحامل هذا الجواز لا يخضع لأنظمة إقامة الأجانب في الدول التي يسافر إليها مثل ضرورة قيامه بالتسجيل أو الإخطار عن محل إقامته أو تغييره، كما أنّه يتمتع بالحصانة الدبلوماسية، وكذلك الإعفاء من بعض التأشيرات، علاوة على أنّ حامل هذا الجواز يشعر بأنّه من ذوي المكانة، ويتمتع أيضًا بالإعفاءات

الجمركية الممنوحة للدبلوماسيين!». ويستطرد اللواء فتحي القاضي «ونحن نعتبر السيدة أم كلثوم سفيرة لنا، ويجب أن تتمتع بما يتمتع به السفراء في الخارج، ونقدم لها التسهيلات والخدمات التي تساعد في إبراز مكانتها في العالم العربي، فكان هذا الجواز الذي أشار به السيد وزير الداخلية، والذي يُعدّ أقل تقدير لهذه الفنانة العظيمة».

في عصر 18 أبريل 1968، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار القاهرة الدولي، تحمل في حقيبتها للمرة الأولى جواز سفرها الدبلوماسي، إذ كانت وجهتها دولة الكويت، وبرفقتها بعثة الإذاعة والتليفزيون والصحافة المكلفة من قبل الجمهورية العربية المتحدة بمرافقتها وتتبع خطواتها طوال إقامتها بالخليج العربي، وكانت البعثة تتكون من العديد من الإذاعيين والصحفيين والمصورين المصريين وأهمّهم: الإعلامية ملك إسماعيل (1936-2021) موفدة عن التليفزيون العربي، والإذاعية عواطف البدري (1925-2017) عن الإذاعة المصرية، والصحفي أحمد بهجت (1932-2011) عن مؤسسة «الأهرام»، والكاتب جليل البنداري عن صحيفة «الأخبار»، ومحمد وجدي قنديل عن مجلة «آخر ساعة »، والصحفية صفية ناصف عن دار «الهلال»، والمخرج رضا الشافعي مخرجًا للتغطية المصورة للرحلة.

وكان قد سافر معها على نفس الطائرة إلى دولة الكويت فرقة «الفنانين المتحدين» التي كانت تضم فؤاد المهندس وشويكار وأمين الهنيدي والممثل الشاب آنذاك عادل إمام، وذلك لتقديم عرض مسرحي في دولة الكويت يذهب إيراده لصالح المجهود الحربي أيضًا.

وفي حدود الساعة العاشرة مساءً، لامست عجلات الطائرة الكويتية أرض مطار الكويت، ومضت لحظات صمت قصيرة حتى توقفت

الطائرة تمامًا وفتح بابها، وخرجت السيدة أم كلثوم من باب الطائرة ورائحة الورود تملأ سماء المطار، وتحت سلم الطائرة وقفت نخبة من رجال الكويت يقدمون التحية لسيدة الغناء العربي، على رأسهم الشيخ دعيج السلمان الصباح وزوجته الشيخة منيرة هلال المطيري، ثم تقدم سفير الجمهورية العربية المتحدة السفير سميح أنور والسيدة عقيلته وصافحا السيدة أم كلثوم وهنآها على سلامة الوصول إلى الكويت، وكذلك كان في استقبالها السيد سعدون محمد الجاسم وكيل وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية الذي كلفته الحكومة الكويتية باستقبال السيدة أم كلثوم، وطبعًا لولوة القطامي رئيسة «الجمعية الثقافية النسائية»، التي وجهت الدعوة للسيدة أم كلثوم لتحيي حفلها في الكويت لصالح المجهود الحربي.

ورغم السرية التي فرضت على خبر وصول السيدة أم كلثوم إلى الكويت، فقد امتلأ المطار بالآلاف التي جاءت من كل أنحاء الخليج للترحيب بها، وامتدت الأيدي تصافح أم كلثوم، وتقدم لها باقات الزهور التي كانت تنسج منظرًا مبهرًا وسط أضواء المطار، ومن كان لا يحمل باقة ورد كان يحمل قلبَه ومشاعرَه في راحتي يديه لأم كلثوم، لدرجة أن السيدة أم كلثوم بكت عندما شاهدت سيدات الكويت وهن يتسابقن للسلام عليها وتقبيلها وقالت لهن: «دي دموع الفرحة يا جماعة»، وبصعوبة شديدة شقت سيدة الطرب ووفدها المرافق طريقهم إلى قاعة التشريفات ومن ثم إلى خارج المطار، بعدما قضوا فيه أكثر من ساعة ونصف يصافحون تلك الوفود القادمة لتشهد وصول السيدة أم كلثوم إلى ساحل الخليج، حتى أنّ المؤتمر الصحفي الذي كان مقررًا أن يقام للسيدة أم كلثوم فور وصولها قد تأجل بسبب هذا الاستقبال الجماهيري الكبير، ومضت بها السيّارة إلى قصر الشيخ

دعيج الصباح وزوجته منيرة المطيري المطل على ساحل الخليج والمعروف باسم قصر «الفنطاس» حيث نزلت أم كلثوم ضيفة عليهما طوال مدة إقامتها بدولة الكويت.

وفي الصباح التالي، كانت صور أم كلثوم تحتل مكانها في معظم الصحف الكويتية، وكتبت عنها صحيفة «الرأي العام» موضوعًا قالت فيه العناوين الرئيسية على لسان أم كلثوم: «أمنيتي زوال إسرائيل لأغني في تل أبيب، الجمهور الكويتي ذواق للفن ومرهف الشعور والإحساس، أنا معجبة بنهضة الكويت وخصوصًا مدارسها ومستشفياتها».

لكن لم تكن تلك أول مرة تفرد فيها الصحف الكويتية مساحات واسعة للحديث عن دور أم كلثوم القومي والوطني، فقد سبق وتحدثت عنها صحف الكويت بكثافة عندما زارتها للمرة الأولى عام 1963، وحتى قبل أن تُظهر المأساة معدن أم كلثوم وتكشف عن نقائه وأصالته، قدمت الصحافة الكويتية اقتراحًا في 26 أغسطس 1966بأن يوضع تمثال للسيدة أم كلثوم في أحد ميادين الكويت، وكتبت صحيفة «الوطن» الكويتية مقالًا بعنوان «تمثال لأم كلثوم في الكويت» جاء فيه «شرعت بلدية الكويت مشكورة باتخاذ ترتيباتها لإعادة تخطيط الساحة الرئيسية الكبرى في العاصمة وحتى ساحة «الصفاة»، وبهذه المناسبة تتقدم «الوطن» باقتراح ترجو أن ينال حقه من الاهتمام، نحن نقترح أن يقام لأم كلثوم تمثال في إحدى ساحات الكويت الرئيسية» وقدمت صحيفة «الوطن» أسبابًا عديدة وقالت رَدًّا على الاعتراضات «لئن رد مكابر، ما دخلنا بأم كلثوم وأهل النيل أنفسهم لم يصل اهتمامهم بها إلى حد إقامة التماثيل، وما أجدرنا بتكريم أبناء بيئتنا المحلية من الشعراء والفنانين إن كان التمثال من نصيب الفن لا محالة، وحول هذه

النقطة نقول إنّ أم كلثوم عبقرية فريدة لا تتكرر، وهي فخر للكويتي كما هي فخر للمصري أو السوداني أو اللبناني. وشخصيتها الآسرة وفنها العظيم محط إعجاب الأوساط الفنية، وقمة أم كلثوم ونضالها الفني واحدة من أروع قصص الكفاح في عصرنا الحاضر، وصوتها النادر فذ لا يدانيه صوت آخر في الدنيا، وهكذا نجد أنّ إقامة تمثال لأم كلثوم في الكويت لهو مشروع سياحي يغطي الكثير من نقصنا في ميدان السياحة».

قضت السيدة أم كلثوم صباح الجمعة 19 أبريل 1968 في قصر الضيافة القابع على شاطئ الخليج، ثم خرجت منه في نزهة سريعة بالسيارة إلى مدينة «الأحمدي»، حتى جاء موعد مقابلتها لصاحب السمو أمير الكويت صباح السالم الصباح في مقر سموه بقصر «السيف» العامر. وخلال لقائهما، عبَّر أمير الكويت عن تقديره الكامل لوطنية السيدة أم كلثوم وفنها ومقصدها القومي النبيل من رحلات المجهود الحربي. وفي نهاية المقابلة، قابلت أم كلثوم الشيخ جابر الأحمد الصباح (1926–2006) رئيس الوزراء آنذاك الذي أهداها بمناسبة زيارتها للكويت مجموعة مجوهرات ثمينة تَقديرًا لفنها ومشاركة منه في مهمتها الوطنية، كما دار بينه وبين السيدة أم كلثوم حوارٌ حول الظروف السياسية في المنطقة العربية، وحول القفزة الواسعة التي يحققها الكويت في جميع المجالات منذ بداية عقد الستينيات، وقد أثنت أم كلثوم على التطور الملحوظ في التعليم في الكويت، وانطلاقًا من تلك النقطة أثارت السيدة لولوة القطامي التي كانت ترافق أم كلثوم في تلك المقابلات الرسمية الحديث حول الاختلاط الجامعي وإباحته بين الطلبة والطالبات، وقالت أم كلثوم لرئيس الوزراء الكويتي «إنّني لا أعرف سبب عدم الاختلاط في المراحل الجامعية مع أن الكويت

وصل إلى مرحلة ناضجة من التطور الفكري!»، ورد عليها الشيخ جابر الأحمد بأنّ «قوانين التعليم لا تمنع الاختلاط ولكنه لا بد من أن يحدث بالتدريج للتوفيق بين جميع الآراء والاتجاهات، وبالنسبة إلى رأيي الشخصي فإنّني أعطيك وعدًا بأن أقف مع الاختلاط إذا ما وجدت الوقت مناسبًا لذلك!».

وما إن انتهت مقابلتها لرئيس الوزراء حتى قابلها الشيخ جابر العلي السالم الصباح (1928-1994) وزير الإرشاد، وناقش معها ترتيبات الحفل المزمع إقامته يوم الخميس 25 أبريل 1968، وبعدها قابلت الشيخ سعد السالم (1930-2008) وزير الداخلية، إذا كانت أم كلثوم تمارس دورها سفيرةً عربيّةً تفكر وتناقش الأمراء الكويتيّين في أمورٍ عدة، ولا تنحصر اهتماماتها في الفن وحده، وإنّما تمتد وتشمل كل ما حولها في أي بلد تذهب إليه، فعلى حد تعبيرها الصادق «إنّ الفنان الحقيقي لا يعيش لنفسه فقط، ولكنّه يهب روحه وفكره وفنه للدائرة الواسعة من البشر التي تحيط به، ويوم ينعزل ولو بوجدانه عن هذه الدائرة، ويحصر تفكيره في ذاته فإنّ صفته الأساسية تسقط منه، ولا يصبح فنانًا على الإطلاق».

وقد شكلت تلك المقابلات العديدة مادّةً غنيّةً للصحف الكويتية، التي صدرت وفي صفحتها الأولى يوم 21 أبريل كما سمتها فرحتان: الأولى لقاء السيدة أم كلثوم بسمو أمير البلاد، والثانية فرحة العثور على بئر للمياه أثبتت الدراسات المعملية الأولية صلاحيتها للشرب وللاستخدام البشري!

وفي ليلة 22 أبريل 1968، استضافت أسرة مصرية مقيمة في الكويت البعثة الإعلامية التي ترافق السيدة أم كلثوم في رحلتها، ويروي الكاتب الصحفي الكبير أحمد بهجت بعضًا مما دار في

تلك الليلة بين المصريين المقيمين في الكويت، وتحديدًا رؤيتهم الشخصية للسيدة أم كلثوم ودورها الفني والوطني في مرحلة ما بعد النكسة، وما يتركه صوتها من أثر في نفس المستمع العربي خصوصًا المستمع المصري المغترب، فكتب أحمد بهجت مقالًا طويلًا لصحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 10 مايو 1968 نقل فيه بعضًا من أقوال الحاضرين لتلك الليلة، فيقول أحدهم: «إنّ الإبداع الفني عصارة متعددة الجوانب، موصولة العطاء، دائمة الأصالة، وتجتمع هذه الخصائص في أم كلثوم، فهي فنانة لا تتجلى موهبتها العظيمة في عذوبة الصوت وحده، ولا تتجلّى في قدرة الفنانة على أداء الأغنية، وإنما هي تملك حين تغني هذه القدرة على استدعاء الذكريات وبعثها حية، وإذا كان الغناء يشبع حاجة الإنسان إلى الإحساس بالجمال، فإنّ غناء أم كلثوم يضيف إلى الإحساس بالجمال هذا الإحساس بمصر، وكثير من المصريين يعتبرون الإحساس بمصر شيء أكبر من الإحساس بالجمال».

ويكمل أحمد بهجت مقاله ناقلًا حديث شخص آخر من المصريين في تلك الليلة «ظروفنا تحتاج إلى الأغنية البطلة، ليس معنى ذلك أن نقتل الحب والفرح ونغني للحزن والفجيعة، إنّما تكون الأغنية البطلة حين نقهر المزيف في الفن، ولكي يحدث ذلك ينبغي أن تغني أم كلثوم».

ويقول آخر «تعبّئنا أغنياتها بشعور خلاصته أنّنا هزمنا لسبب أو لآخر، ولكننا لم نمت ولم يزل في مقدورنا أن نمسح عار الهزيمة، أكثر شعوب الأرض امتلأت سماؤهم بدخان الخيبة والمرارة، ولكن القليل من شعوب الأرض من استطاع أن يطرد من صدره رياح الخوف، وتيارات الظلم، ويعاود المحاولة» ويقول آخر: «عندما تغني

أم كلثوم يقام في نفوسنا عرس للدم والثأر ونحس أن مصر قريبة منا وعزيزة علينا، نشعر أننا ينبغي أن نعانق التضحية مثلما تعانق الريح النار، أو كما يقول الشاعر السجين في إسرائيل محمود درويش، ينبغي أن نفجر أفراحنا من قلب الظلمة، لا يجب أن نكف عن الغناء والعمل، وليقبع هذا الحزن الثقيل في القلب، فسوف يمحوه النصر يومًا.

أعطني حريتي أطلق يَدَيّ
إنّني أعطيت ما استبقيت شيَّ

الموضوع عتاب بين عاشقين، لكنّه في نفوسنا ينعكس على أمور أخرى، قد تكون رمزًا للحرية الكبرى، ورمزًا لأننا ينبغي أن نعطي فلا نستبقي شيئًا حتى تصبح لنا الحرية».

وطوال الأيام السابقة على الحفل، لم تنقطع تحركات السيدة أم كلثوم ومقابلاتها، حاورها الكثيرون في الكويت؛ في البداية حاورتها الممثلة الفلسطينية الكويتية أسمهان توفيق، وألقيت عليها في كل جولة داخل الكويت العديد من الأسئلة، التُقطت لها آلاف الصور، في كل مكان وصلت إليه كانت تستقبلها الورود، وكانت بعثة التليفزيون المصري تمارس عملها طوال الرحلة، المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم يستعرض في ذهنه إمكانات العمل التليفزيوني والصحفي، ويحل العديد من المشكلات ويبدو شعلة من النشاط رغم هدوئه، سمير حلمي مصور السينما يختبئ وراء كاميراته ويرى الكويت من خلف عدساته، وفاروق عبد الباقي انتهى من ضبط الإضاءة، وفرغ أديب فؤاد من تجهيز الصوت للعمل، ووقف رضا الشافعي يشرف على إخراج اللقطة، أما ملك إسماعيل فتحضر أسئلتها الأخيرة لأم كلثوم، وفي كل مرة يلتقي أحد الصحفيين أو الإذاعيين أم كلثوم يسهر الليل في إعداد الأسئلة ثم تجبره بساطة أم كلثوم عن التخلي عن

الأسئلة ومحاورتها كما يتحاور الأصدقاء. وقبل الحفل بيوم، بدأت استعدادات أم كلثوم للّقاء، فألغت برامجها في ذلك اليوم، وجعلته خاليًا من الزيارات والمقابلات والاستقبالات استعدادًا لحفل الغد.

وكعادتها في صباح كل حفلاتها الخارجية، توجهت السيدة أم كلثوم صباح يوم الحفل 25 أبريل 1968 إلى مسرح سينما «الأندلس» لتجربته، واختبار سلامة كل شيء، والتيقن من جودة مسارات الصوت في زوايا المكان، وبعد أن اطمأنت عادت إلى مقر ضيافتها على ضفاف الخليج، وفي حدود الساعة التاسعة مساءً كانت قاعة السينما ذات الألفي مقعد تمتلئ بكبار الشخصيات الكويتية: عدد كبير من الوزراء وأعضاء مجلس الأمة الكويتي وبعض سفراء الدول العربية وفي مقدمتهم سفير الجمهورية العربية المتحدة وقرينته، جميع الأساتذة المصريين في جامعة الكويت، يتقدمهم د. عبد الفتاح إسماعيل رئيس الجامعة، ووكيله د. عثمان خليل ود. عبد المنعم الطناملي، ومعهم كثير من الفنيين المصريين في الجامعة. كانت التذاكر قد نفدت تمامًا منذ شهر، بعد أن طرحتها «الجمعية الثقافية النسائية» في منافذ البيع بدار سينما «الأندلس» وسينما «الحمراء» في الكويت، وكانت اللجنة المشرفة على الحفل قد حددت أسعار التذاكر من خمسة إلى عشرين دينارًا، وتركت بعض المقاعد دون تحديد لسعرها من أجل رفع قيمة التبرع للمجهود الحربي، وهو ما جعل ثمن بعض تلك المقاعد يصل إلى ألف دينار كاملة، فتبرع الشيخ صباح السالم الصباح أمير الكويت بمبلغ 1000 دينار ثمنًا لتذكرته في الحفلة، وكذلك ولي عهده الشيخ جابر الصباح والشيخ سعد السالم وزير الداخلية، وتقول لولوة القطامي المشرفة على الحفل لمجلة «آخر ساعة» الصادرة يوم 1 مايو 1968 «لقد كان هناك سباق بين الكويتيين على حضور الحفلة، وكان

هناك تنافس مذهل على تذاكر المقاعد الأمامية والألواج الممتازة، وبدرجة جعلتني أفكر في إقامة حفلة ثانية للسيدة أم كلثوم، ولكن لا بد من ترتيبات أخرى كثيرة، وكان الوقت أمامي ضيقًا، وفي النهاية رفعنا الأسعار إلى الحد الذي لم تبلغه أي حفلة أخرى قبل ذلك، ولكن ظل الزحام كما كان، وزاد بفعل طلبات الحجز القادمة من خارج الكويت، وبالذات من العراق والبحرين وقطر وباقي أمارات الخليج، وقد وصل ثمن التذكرة في المقاعد الخلفية إلى عشرة دنانير!».

وقبل أن يرفع الستار، بدأ المخرجون في تليفزيون الكويت زكريا داوود وأحمد عز الدين ونبيل حماد يضبطون كاميرات التليفزيون الكويتي في زوايا قاعة سينما «الأندلس» في سرعة شديدة، بعدما قرر الشيخ جابر الصباح نقل الحفل على الهواء مباشرة في اللحظات الأخيرة، وكان من المفترض في البداية ألا تذاع الحفلة على الهواء، ولكنَّ الضغط الشديد والإقبال المنقطع النظير على سماع أم كلثوم أو حضور الحفل من باقي إمارات الخليج، دفع الشيخ جابر العلي وزير الإرشاد إلى وضع ترتيبات عاجلة لإذاعتها عبر موجات الإذاعة والتليفزيون الكويتي، وهو ما أربك السيدة أم كلثوم التي فوجئت بتلك التغيرات في ترتيبات الليلة، وباختفاء بعض الوجوه الكويتية التي تعرفها بعدما قرروا سماعها من البيت، لكن أم كلثوم تفهمت الغرض ونية الإذاعة.

وفي إحدى الزوايا، جلس المذيع الكويتي أحمد المؤمن ينقل وقائع الحفل عبر موجات الإذاعة الكويتية، ويصف للجماهير في منازلهم تلك الليلة التاريخية التي يعيشها الشعب الكويتي. ووراء الستار، كانت السيدة أم كلثوم تضبط كعادتها مع الموسيقيين آلاتهم، وتتيقن من دقة كل نغمة، حتى محمد عبده صالح، قائد الفرقة الموسيقية، جلس يضبط أوتار قانونه، وهو الذي قضى خمسة وثلاثين

عامًا مع تلك الآلة يضبط أوتارها حتى صار صديقًا لكل وتر، كان وجه عبده صالح شاحبًا ومتعبًا في تلك الليلة، إذ أصر على حضور الحفل وغادر فراش المرض في القاهرة وسافر إلى الكويت حُبًا في مصاحبة أم كلثوم، ورغم شحوب وجهه كانت أصابعه كالمعتاد في حساسية قائد أوركسترا عظيم. وما إن فرغ الموسيقيون من ضبط الآلات، حتى جلست أم كلثوم على مقعدها في انتظار انفراج الستار. وفي تمام الساعة العاشرة مَسَاءً، فُتح الستار الأحمر عن السيدة أم كلثوم بعدما عزف السلام الأميري لدولة الكويت.

غنت أم كلثوم في الوصلة الأولى «فات الميعاد» لبليغ حمدي، وقد استعادها الناس مرات، فطالت الوصلة ودامت أكثر من 85 دقيقة تقريبًا، وفي المقطع الثالث دفعتها نقرات عبده صالح القوية على القانون إلى الاندماج في السلطنة، فراحت تغني مقطع «الليل ودقة الساعات تصحي الليل» بتلوين موسيقي حزين، ولكن سرعان ما استعادت اللحن الأصلي وعادت إلى حيث بدأت.

وحينما دخلت أم كلثوم غرفتها في المسرح لكي تستريح بعد الوصلة الأولى، تدفق الحاضرون من حولها في زحام شديد لمصافحتها أو الحصول على توقيعها أو التقاط صورة تذكارية معها. ووسط ذلك كله، تقدم نحوها أحد الحاضرين وشق طريقه بصعوبة حتى وصل إليها ثم قدم إليها مذكرة خاصة وأخذت أم كلثوم تقرؤها باهتمام وتستفسر منه عن بعض نقاطها، ثم وعدت صاحبها بمحاولة حلها وكانت المذكرة تحتوي على مشكلة شخصية ولم يجد الرجل أمامه إلا أم كلثوم لكي تساعده في أزمته، وغيره جاؤوا إليها خلال الاستراحة لكي يعرضوا شكاواهم ومطالبهم، وكانت أم كلثوم تقول لهم: «سأحاول قدر جهدي، وفي حدود إمكانياتي!».

وحين سألها الصحفي محمد وجدي قنديل في دهشة: «هل هذا يحدث دائمًا في كل مكان تذهبين إليه؟» ارتسمت ابتسامتها الهادئة على ملامحها وقالت «ربما لا أذيع سِرًا إذا قلت إن أغلب الخطابات والرسائل التي تصلني من هذا النوع، لدرجة أنّني حاولت أن أُفهِمهم أنّني مجرد فنانة مصرية وليست عندي الصلاحيات لذلك، ولكنني كنت أجد نفسي مدفوعة بإحساسي ومشاعري إلى مشاركتهم في مشكلاتهم، وفي محاولة الوصول إلى حلولها»!

الوصلة الثانية «الأطلال» طلبها الجمهور الكويتي بإصرار. غنّت أم كلثوم الأطلال تكريمًا لصحراء العصر الجاهلي ودم الأسلاف العرب، ومجاملة لهذه العلاقة القديمة مع حزن أطلالنا الخاصة، وكل شرقي له أطلاله الخاصة.

للأطلال سحرها القديم الذي وقف عليه مئات الشعراء وغنوا لذكرى حبيب، وفي إبراهيم ناجي الذي احترق حُبًا جزء من عظمة الصحراء واتساعها، وفيه جانبه العربي الذي يستأنس بالوقوف على أطلال الذكريات. غنت أم كلثوم في وصلة مدتها 76 دقيقة تقريبًا، بدت الوصلة الثانية عادية، ولكن أم كلثوم لا تغني غناء عَادِيًا، فعند مقطع «أيها الساهر تغفو/ تذكر العهد وتصحو» وقفت أم كلثوم وفاجأت الجماهير العربية بتفريد طويل لم يسبق أن غنّت مثله في تسجيلاتها لهذه القصيدة، ولا يشبه ذلك التفريد الذي أدته السيدة أم كلثوم في ذات المقطع في حفل المملكة المغربية الثاني يوم 8 مارس 1968، فكان ذلك الارتجال هو صك التميز الغنائي لتلك الرحلة وتلك الوصلة الثانية. ومع ساعات الفجر، كان الستار يسدل على معجزة الشرق التي سطعت في ليل الخليج العربي، ولم يضع سكان البحرين الفرصة وبعثوا إليها بمندوب خاص قابلها بعد نهاية الحفل

للاتفاق على إقامة حفل لصالح المجهود الحربي، وتركوا لها تحديد الأجر الذي تراه مناسبًا لحجم مجهودها الوطني وكان جوابها «إنّني على استعداد للذهاب إلى أي مكان، وفي أي وقت، ما دمت أشارك لو بقسط بسيط في العمل الوطني الكبير للعرب[1]!».

ومثلما عاش الكويت مع فن أم كلثوم، عاشت أم كلثوم مع فن الكويت؛ شهدت رقصة السيوف العربية التي تعيد للذهن الأيام القديمة الخالية، أيام الحياة في الصحراء، واعتماد الرجل على سيفه وفرسه، شهدت كذلك الغناء الشعبي الكويتي، وهو غناء صنعه تياران في الكويت، أحدهما من الجزيرة العربية من حداء الجمال والثاني من سواحل إفريقيا مع تجار الساحل، شهدت كذلك ضرب الدفوف ورقص النساء، فبعد ساعات من إقامتها في الكويت طلبت أن تعيش سهرة كاملة مع الفولكلور الكويتي برقصاته وأغنياته وأهازيجه. وبالفعل، رتبت لها الشيخة منيرة احتفالًا خَاصًا في قصرها المطل على موجات الخليج الهادئة وحضرته أكثر من مئة سيدة من زوجات الشيوخ والوزراء والسفراء، التقى المجتمع الكويتي النسائي كله في تلك السهرة التي لم يحضرها إلا رجل واحد هو الموسيقار بليغ حمدي، الذي كان قد طار إلى الكويت قبل وصول السيدة أم كلثوم بأيام قليلة إليها، وقد دعت الشيخة منيرة فرقة «عودة المهنا»، وهي فرقة نسائية فولكلورية كانت مشهورة في ذلك الوقت في الكويت، لإحياء

---

(1) أشارت صحيفة «الأهرام» الصادرة في 17 يناير 1969 إلى أن السيدة أم كلثوم تلقت دعوة من اتحاد الأندية الوطنية بالبحرين لإحياء حفلة أو حفلتين لصالح العمل الفدائي، وأكدت أم كلثوم ذاتها تلك المعلومة للصحافي والآثاري كمال الملاخ الذي رافقها في رحلتها إلى المملكة الليبية في مارس 1969، لكن الإشارات الصحافية عن تلك الرحلة توقفت تمامًا بعد ذلك، ويرجح أن السبب هو الخلاف على موعدها والإجراءات التنظيمية للزيارة.

ذلك الحفل، وأخذت تلك الفرقة تعرض ألوانها الكويتية وتقدم ملامح الفولكلور في منطقة الخليج، وكانت أم كلثوم تنصت في البداية باهتمام وتستوعب كل الأنغام والكلمات، ثم قامت من مكانها وأخذت تشارك السيدات الكويتيات الغناء، بعدما ارتدت الزي الكويتي الشعبي المعروف باسم «الدشداشة» الكويتية، وقالت أم كلثوم بعد هذا الحفل الكبير «لقد لاحظت أنّ كل الأغنيات الكويتية الفولكلورية لا تختلف في معانيها عن الأهازيج التي تتردد في قرى الوجه البحري وتغنيها الفلاحة المصرية، وإذن أخرج بنتيجة واحدة بعد أن سمعت بأذني ملامح الفولكلور العربي من أقصى المحيط في المغرب إلى أقصى الخليج في الكويت وعبر مصر، وأؤكد أنّها تكاد تكون امتدادًا طَبِيعِيًا للفن الشعبي بنبعه الأصيل على طول التراب العربي وعرضه!».

وتذكر الصحف اليومية أن السيدة أم كلثوم كانت قد قررت العودة إلى القاهرة يوم السبت 27 أبريل 1968، أي بعد يومين من الحفل، ولكنها بعد أن انهالت عليها الدعوات من الشيوخ وزوجاتهم، عدلت عن قرارها، خصوصًا بعدما طلبت إليها الشيخة منيرة المطيري أن تمد إقامتها في الكويت أسبوعًا آخر، وهددتها، مداعبة طبعًا، بإغلاق أبواب قصر «الفنطاس» عليها. وما إن وافقت السيدة أم كلثوم، حتى بدأت الاحتفالات بها وبنجاحها في الكويت؛ ففي مساء يوم السبت 27 أبريل رافق أعضاء «الجمعية الثقافية النسائية» وعلى رأسهم السيدة لولوة القطامي السيدة أم كلثوم في افتتاح معرض الصور الذي أعده المصور فاروق إبراهيم، وهو تقليد اتبعه فاروق إبراهيم في معظم رحلات المجهود الحربي، وبعد المعرض توجهت السيدة أم كلثوم إلى مبنى السفارة المصرية، حيث أقام السفير سميح أنور حفل استقبال على شرف السيدة أم كلثوم ووفدها الإعلامي، ووقفت السيدة أم

كلثوم مع السفير سميح أنور على باب السفارة تستقبل ضيوفها، وترحب بهم، وحضر الحفل عدد كبير من العاملين في جامعة الكويت من أساتذة وفنيين، ومنهم الدكتور عبد الفتاح إسماعيل مدير جامعة الكويت، ووكيله، وكذلك فرقة «الفنانين المتحدين» التي كانت تقيم عرضًا لمسرحية «أنا وهو وهي» لصالح المجهود الحربي، والعديد من الشخصيات المصرية التي أرادت أن ترتوي بوجود أم كلثوم، وأن ترى مصر في وجودها، وجلست أم كلثوم بين سيدات الجالية المصرية تجمع بنفسها التبرعات لصالح المجهود الحربي، وتشرف على عملية جمع المصاغ والمجوهرات من الحاضرات، ولهذا قررت سيدات السفارة المصرية عقد حفلٍ آخر للسيدة أم كلثوم تكريمًا للدور الوطني الذي تقوم به هذه السيدة، التي تتجول بصوتها من أقصى المحيط إلى أقصى الخليج وعلى امتداد الأرض العربية من أجل المقاومة. وعقب ذلك الحفل، عُقد للسيدة أم كلثوم مؤتمرٌ صحفي كبير بفندق «الشيراتون» في العاصمة الكويتية.

وفي يوم 28 أبريل 1968، أجرت السيدة أم كلثوم مقابلتين متتاليتين في قصر «الفنطاس» المطل على مياه الخليج: الأولى مع الفنانة الكويتية ليلى عبد العزيز بعد أن كلفها بتلك المهمة الشيخ جابر العلي الصباح وزير الإرشاد، والثانية مع الإعلامية المصرية ملك إسماعيل مندوبة التليفزيون العربي في تلك الرحلة، سألتها مَلك عن رؤيتها للمرأة الكويتية بعدما قابلت العديد من الشخصيات النسائية هناك، فأجابت أم كلثوم «المرأة الكويتية في غاية الذكاء، وقد لاحظت أن من فاتها مجال العلم في البداية، تعوض ذلك الآن في مدارس ليلية بإقبال على العلم بشكل عجيب، وهذا طبعًا كسب للمرأة العربية، فنصف المجتمع الذي كان عاطلًا أصبح الآن يفرحنا نحن كسيدات عربيات».

ثم سألتها عن حجم التغير الحادث في الكويت، وما لاحظته أم كلثوم من اختلافات بين زيارتها الأولى عام 1963 وزيارتها الثانية في عام 1968، فأجابت «تغير عظيم، تغير في كل المجالات؛ المجال العلمي، ومجال العمارة، ومجال الطرقات، وأشياء تفرح كل شخص عربي أن يجد بلدًا عربيًا ينهض بهذه السرعة، شيء يفرحنا كلنا».

ولم يتوقف الاهتمام الرسمي بأم كلثوم أثناء زيارتها للكويت عند حدود الدائرة الوطنية الكويتية، بل تعمقت إلى أبعاد أرحب وشملت الدائرة الإسلامية، فلم يكد يعلم سفير باكستان في الكويت بوجودها، حتى اتصل بها، وطلب إليها أن تكون ضيفة شرف في مناسبة الذكرى الثلاثين للشاعر العظيم محمد إقبال[1]، وذهبت السيدة أم كلثوم إلى دار السفارة الباكستانية في الكويت، وكانت في انتظارها مفاجأة، فقد أدير شريط يحوي مقطعًا من قصيدتها وقصيدة محمد إقبال «حديث الروح» التي شدت بها للمرة الأولى في مايو 1967، وذلك تكريمًا لها على دورها الريادي في تعريف المستمع العربي بعبقرية شعر وفلسفة محمد إقبال، وسألها رئيس مجلة الأمة الكويتي عن شعورها وهي تسمع نفسها تغني تلك الرائعة، فخرجت أم كلثوم من تأملاتها الروحية وقالت إنّها لا تحصر تفكيرها في ذلك الوقت في سماع صوتها، وإنما

---

(1) كانت السفارة الباكستانية في القاهرة قد أقامت في نهاية مارس 1968 حفلاً لتكريم السيدة أم كلثوم؛ إذ قدم لها السفير الباكستاني السيد سجاد حيدر نيابة عن الرئيس الباكستاني محمد أيوب خان (1907-1974) وسام «نجمة الامتياز» الباكستانية، وقد أقيم ذلك الحفل في بيت الباكستان بمنطقة جاردن سيتي وحضره عدد من سفراء الدول العربية والإسلامية وعدد من الفنانين العرب، وقال السفير الباكستاني: إننا نهدي للسيدة أم كلثوم وسام «نجمة الامتياز» الذي يمنح للمدنيين، وذلك بسبب إسهامها في تكريم شاعر باكستان وفيلسوفها محمد إقبال بغنائها قصيدة «حديث الروح» في مايو 1967.

تتعمق في المعاني البعيدة لشعر إقبال، وفلسفته العظيمة النابعة من القرآن، ومن الإسلام.

وتنقل مجلة «آخر ساعة» المصرية عن سفير باكستان في الكويت قوله وهو يتطلع إلى أم كلثوم في إعجاب وتقدير «إنّها في رأيي فيلسوفة متصوفة، قبل أن تكون معجزة صوتية للعرب!».

وفي يوم 2 مايو 1968، كان مطار الكويت يستعد للوداع. وصلت السيدة أم كلثوم إلى المطار عصرًا، حيث كان في انتظارها في المطار أكثر من مظهر للحب والود، فقد توافدت الشخصيات البارزة في الكويت على صالات المطار دون توجيه دعوة لهم من أجل توديع السيدة أم كلثوم؛ السفير المصري والأمراء الكويتيون والشيوخ وسيدات السفارة المصرية وبعض السيدات الكويتيات أحاطوا جميعًا بأم كلثوم في قاعة التشريفات، الكل أراد توديع أم كلثوم حتى باب الطائرة، كان خبر عودتها للقاهرة قد انتقل من الصحف إلى الخليج إلى الصحراء إلى الشوارع إلى البيوت، العديد من الشخصيات التي ذهبت إلى المطار كانت لا تعرفها شَخصِيًا لكن كان الحب يربطهم بها؛ الحب العميق الذي يجمع جماهير الشعب العربي بمعجزة الشعب العربي. قبلات عديدة وثلاث هدايا قدمها شعب الكويت لأم كلثوم؛ الهدية الأولى ألبوم صور للرحلة، والثانية مصحف، والثالثة باقة ورد. وفي مقابل تلك الهدايا، قدمت السيدة أم كلثوم للمجهود الحربي نحو 25 ألف دينار، وهو ما كان يوازي 30 ألف جنيه إسترليني في ذلك الوقت، خصص منها 13 ألفًا للمجهود الحربي و12 ألفًا لأعمال المقاومة العربية. وتحت سلم الطائرة، وقفت أم كلثوم تقبل سيدات الكويت وهنّ يدعونَ لها بالصحة والسلامة وطول العمر.

وفي طريق العودة سألها الكاتب أحمد بهجت: «متى تعودين إلى الغناء في حفلاتك الشهرية المعتادة؟».

فأجابت: «لن أغني إلا للمجهود الحربي ما دامت آثار العدوان قائمة، إنّ الفنان لا يستطيع أن يتجرد من أحاسيسه الوطنية، أنا لا أستطيع أن أغني وجزء من أمتي العربية يحتله الأعداء، إلا إذا كان هذا الغناء من أجل وقود المعركة».

وأخيرًا وصلت السفيرة إلى القاهرة.[1]

(1) عقب عودة السيدة أم كلثوم من الكويت، أقامت رابطة أبناء المالية حفلها السنوي الخيري في دار سينما قصر النيل بالقاهرة، وذلك يوم 9 مايو 1968، وقد أحيت السيدة أم كلثوم ذلك الحفل، وقرر وزير الاقتصاد حسن عباس زكي رئيس الرابطة تخصيص 50٪ من إيراد الحفل لصالح المجهود الحربي، ولم تشر الصحافة المصرية إلى تفاصيل الحفل ولا إلى وصلاته الغنائية.

السيدة أم كلثوم مع الشيخة منيرة هلال المطيري في الكويت، أبريل 1968.

أمير الكويت صباح السالم الصباح يستقبل السيدة أم كلثوم في قصر «السيف» العامر، صباح يوم الجمعة 19 أبريل 1968.

السيدة أم كلثوم ترتدي الزي النسائي التقليدي في الكويت المعروف باسم «الدشداشة»، وذلك في الحفل الخاص الذي أقامته لها الشيخة منيرة هلال المطيري في قصر «الفنطاس».

السيدة أم كلثوم تقف إلى جوار السفير سميح أنور في مدخل السفارة المصرية في الكويت تستقبل ضيوف الحفل الذي أقامته البعثة الدبلوماسية المصرية على شرفها، يوم السبت 27 أبريل 1968.

السيدة أم كلثوم والفنانة والإعلامية الكويتية ليلى عبد العزيز في قصر «الفنطاس»، يوم الأحد 28 أبريل 1968.

تطل على الخليج من شرفة جناحها في قصر «الفنطاس»، يوم الأحد 28 أبريل 1968.

مصادر هذا الفصل:

1- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 19 أبريل 1968.

2- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 20 أبريل 1968.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 1 مايو 1968.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 3 مايو 1968.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 5 مايو 1968.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 10 مايو 1968.

7- صحيفة القبس، الكويت، عدد 21 مايو 2020.

8- مجلة المصور، القاهرة، عدد 26 أبريل 1968.

9- مجلة المصور، القاهرة، عدد 3 مايو 1968.

10- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 23 أبريل 1968.

11- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 30 أبريل 1968.

12- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 7 مايو 1968.

13- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 1 مايو 1968.

14- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 8 مايو 1968.

15- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 22 مايو 1968.

عندما أعادت أم كلثوم العلاقات بين مصر وتونس

طوال سنوات الخمسينيات، وحتى قرب نهاية عقد الستينيات، شهدت العلاقة بين تونس «الحبيب بورقيبة» ومصر «جمال عبد الناصر» أجواء فاترة شابتها غيوم كثيرة، وتبلدت فيها العلاقة بين البلدين لتصل في مرحلة ما إلى حد التشنج، إذ بدأت تلك الأجواء المشحونة عندما جاء الزعيم التونسي صالح بن يوسف (1907-1961) لاجئًا إلى القاهرة، وداعيًا إلى مواصلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، ورافضًا الاعتراف بالاستقلال الداخلي الذي حققته تونس عام 1955، وقد بذل الحبيب بورقيبة كل مساعيه الخارجية والدبلوماسية لدى الزعيم جمال عبد الناصر لإقناعه بالتخلي عن مساندة صالح بن يوسف واعتباره مذنبًا قالت فيه العدالة التونسية كلمتها وحكمت عليه غيابيًا بالإعدام، غير أن تلك المساعي لم تؤتِ ثمارها، فتوترت العلاقة بين الزعيمين جمال عبد الناصر والحبيب بورقيبة، وذهب الأخير إلى حد اتهام عبد الناصر بالتخطيط لاغتياله عام 1958من خلال جهاز المخابرات المصرية. وردًا على ذلك الاتّهام، أطلقت إذاعة «صوت العرب» من القاهرة ضد بورقيبة حملة

ممنهجة لتشويهه، شاركت فيها الصحف المصرية وبعض الصحف العربية الموالية للنظام المصري وزعيمه ناصر، إذ كانت تنعت بورقيبة بالعميل الغربي، وبأنّه عدو للقومية العربية وحلم الوحدة الذي نما في المنطقة خصوصًا عقب قيام الوحدة المصرية-السورية في فبراير 1958. كل تلك الأمور دفعت الرئيس التونسي إلى أن يقرر في النهاية قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في شهر أكتوبر من عام 1958.

وفي عام 1963، بدأت المياه تعود إلى مجاريها عندما زار الرئيس جمال عبد الناصر تونس للمرة الأولى والأخيرة للمشاركة في احتفالات «عيد الجلاء» عن مدينة بنزرت في 13 ديسمبر 1963، إذ كان يراد من تلك الزيارة أن يُفتح عهد جديد على مستوى العلاقات بين البلدين. وضمن جولته العربية التي قام بها الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ما بين 16 فبراير 1965 حتى 8 أبريل 1965، زار الرئيس التونسي وزوجته السيدة الماجدة وسيلة بن عمار القاهرة، وحاول الرئيس عبد الناصر جاهدًا تقديم كل صور الحفاوة في استقبال الزعيم التونسي محاولةً منه لتحسين العلاقات المتوترة بين البلدين. وفي مساء ثاني أيام الزيارة 17 فبراير 1965، حضر الرئيس بورقيبة والرئيس جمال عبد الناصر وزوجتاهما حفلًا أقيم في دار الأوبرا المصرية على شرف زيارة الرئيس التونسي للقاهرة، أحيت ذلك الحفل السيدة أم كلثوم، وغنت فيه أغنية «أنت عمري» للمرة العاشرة منذ أن أطلقتها في 6 فبراير 1964. وعقب انتهاء الحفل، قابلت السيدة أم كلثوم وزوجها الدكتور حسن الحفناوي الرئيس بورقيبة وزوجته السيدة الماجدة وسيلة، التي عبّرت لأم كلثوم عن مدى إعجابها بصوتها وشخصيتها، ودعتها إلى زيارة تونس في أقرب فرصة. وعقب تلك الليلة، سافر الرئيسان الحبيب بورقيبة وجمال عبد الناصر إلى مدينة أسوان لتفقّد مراحل بناء السد العالي.

ومع نجاح تلك الزيارة، عادت الغيوم لتملأ سماء تلك العلاقة من جديد بعد أيام قليلة من زيارة الحبيب بورقيبة للقاهرة، لتبلغ الخلافات ذروتها بسبب خطاب بورقيبه في مدينة أريحا الفلسطينية في 3 مارس 1965، عندما دعا العرب إلى قبول قرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين الذي صدر قبل عام النكبة وتحديدًا في نوفمبر 1947، وهو ما اعتبره الرئيس عبد الناصر شَقًّا للصف العربي وخروجًا على الإجماع في شأن القضية الفلسطينية، فتدهورت العلاقة بين البلدين مرة أخرى وظلت على حالة الجمود تلك حتى عقب عدوان 5 يونيو 1967. وفي أواخر مايو 1968، وفي إطار جولتها العربية الرامية إلى مساندة المجهود الحربي في مصر بعد النكسة، حلّت سيدة الغناء العربي أم كلثوم في تونس بدعوة الرئيس التونسي وزوجته السيدة الماجدة وسيلة، لتكون تلك الزيارة نقطةَ تحول جديدة في مسار العلاقة بين البلدين، استطاعت فيها أم كلثوم أن تدفع بعودة العلاقة بين مصر وتونس، وأن تحسّن قليلًا تلك العلاقات الفاترة التي جمعت بين زعيمين غيّرا وجها المنطقة العربية بأسرها.

فعلى مدار سنوات عدة، فشل متعهدو الحفلات في تونس في تحقيق المبادرة ودعوة السيدة أم كلثوم إلى زيارة الجمهورية التونسية، نظرًا لظروف الخلاف السياسي بين البلدين، وهو السبب ذاته الذي وقف حائلًا بين تلبية السيدة أم كلثوم لدعوات متعهدي الحفلات في سوريا عقب الانفصال المصري-السوري في سبتمبر 1961، وكذلك فشلت مساعي متعهدي الحفلات العراقيين في إقناع أم كلثوم بالغناء في العراق خصوصًا عقب حركة الزعيم عبد الكريم قاسم العسكرية في يوليو 1958، وما أظهره الأخير من عداوة صريحة للنظام المصري وزعيمه جمال عبد الناصر. كل تلك الأسباب دفعت القيادة التونسية

إلى أن تتسلم قيادة المبادرة في دعوة أم كلثوم لزيارة تونس والغناء أمام جمهورها الكبير في الخضراء، وكان للسيدة الماجدة وسيلة بورقيبة دور كبير في تحقيق حلم التونسيين بملاقاة أم كلثوم والمشاركة في حملتها الكبيرة لدعم المجهود الحربي في مصر. ففي أثناء رحلة السيدة أم كلثوم إلى باريس في نوفمبر 1967، وفي محل إقامتها في فندق «جورج الخامس»، زارها السفير التونسي في فرنسا محمد المصمودي حاملًا إليها رسالة من الرئيس الحبيب بورقيبة والسيدة عقيلته يدعوانها إلى زيارة تونس والغناء في العاصمة التونسية ضمن جولاتها لدعم المجهود الحربي، على أن تتزامن تلك الزيارة مع برنامج الاحتفالات التونسية بعيد «الاستقلال» في غرة شهر يونيو، وهو اليوم الذي عاد فيه الرئيس الحبيب بورقيبة من المنفى عام 1955.

وقد قبلت أم كلثوم الدعوة على أن تتولّى وزارة الإرشاد والثقافة والأخبار التونسية تنظيم هذه الزيارة، وصرّحت ضمن حوارها التليفزيوني الأول الذي أجرته مع الإعلامية سلوى حجازي في باريس بأن تونس ستكون إحدى محطاتها الغنائية القريبة ضمن مشروع حفلات المجهود الحربي. وفي 7 مارس 1968، وفي أثناء وجود السيدة أم كلثوم في المملكة المغربية، نشرت صحيفة «الأهرام» خبرًا عن اتّفاق وُقّع بين أم كلثوم ومتعهد الحفلات التونسي خليفة طراد في مدينة الدار البيضاء على إحياء حفلين في تونس مقابل 26 ألف دينار تونسي ستُحوّلُ لصالح المجهود الحربي. ولكن في بداية شهر مايو 1968، وبعد أن اطّلعت السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة على بنود ذلك العقد قررت إلغاءه، وصرّحت للصحافة العربية بأنّ حفلات أم كلثوم يجب أن تكون على مستوى الدولة لمكانة أم كلثوم ولنبل الهدف الذي من أجله تقام هذه الحفلات، ولا يجوز أن تكون هذه

الحفلات على مستوى العمل التجاري. ولذلك وجهت الدعوة إلى أم كلثوم بصفتها الشخصية بضمان 24 ألفًا من الجنيهات الإسترلينية حدًا أدنى للحفلتين، وعلى هذا الأساس كلفت القيادة التونسية عددًا من الوزارات ذات الصلة بتلك الزيارة مثل وزارة الخارجية ووزارة السياحة ووزارة الإرشاد والثقافة بإعداد برنامج تفصيلي يشمل استقبالًا رسميًا وشعبيًا لسيدة الغناء العربي ويظهر مقدار الحفاوة التي يكنها الشعب التونسي للسيدة أم كلثوم، إذ أصرّ الرئيس بورقيبة على توفير كل مستلزمات نجاح تلك الرحلة، وهو ما كان له بالغ الأثر فيما بعد في تطوير العلاقات الثنائية بين الحكومتين المصرية والتونسية.

فشكلت وزارة الثقافة والأخبار في تونس وعلى رأسها كاتب الدولة الوزير الشاذلي القليبي[1] لجنة من الصحفيين والإعلاميين التونسيين للتغطية الإعلامية لزيارة سيدة الغناء العربي، وكان أبرز وجوه تلك اللجنة: الصحفي الهادي العبيدي (1911-1985) عن صحيفة «الصباح» التونسية، والصحفي محمد السقانجي (1938-1991) عن صحيفة «العمل» التي تغير اسمها الآن وأصبح صحيفة «الحرية»، والصحفي عبد المجيد الساحلي (1943-2020) عن مجلة «الإذاعة والتلفزة» التونسية، كما كُلّف المنصف الماي المستشار الثقافي والإعلامي لسفارة تونس في مصر بمتابعة الرحلة وتفاصيل الزيارة والتنسيق مع سفارة الجمهورية العربية المتحدة في تونس والقائم

---

(1) الشاذلي القليبي (1925-2020) سياسي تونسي أسس وزارة الثقافة التونسية وتولى حقيبتها ثلاث مرات ما بين عامي 1961-1978، عين أمينًا عامًا لجامعة الدول العربية بعد نقل مقرها إلى تونس عقب توقيع مصر معاهدة «كامب ديفيد» عام 1979 واستقال عام 1990خلال الحشد الأمريكي على العراق قبيل حرب الخليج الثانية.

بأعمال السفارة آنذاك السيد حسن سلامة في ترتيب كل تفاصيل الرحلة والعمل على توفير كل سبل الراحة للسيدة أم كلثوم ومرافقيها. وفي يوم 28 مايو 1968، طار الوفد الإعلامي المصري المكلف من قبل الجمهورية العربية المتحدة بتغطية زيارة تونس، وكان يضم الإذاعية سامية صادق موفدة من الإذاعة المصرية، والإعلامية الشابة نجوى إبراهيم عن تليفزيون الجمهورية العربية المتحدة، والصحفية صفية ناصف عن مؤسسة دار «الهلال»، والصحفي أحمد بهجت عن صحيفة «الأهرام»، والصحفي عبد السلام داود عن مجلة «آخر ساعة»، وعددًا كبيرًا من المصورين ومهندسي الصوت، لكي يكونوا في استقبال السيدة أم كلثوم في المطار عند وصولها إلى العاصمة التونسية. وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس 30 مايو 1968، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار القاهرة الدولي برفقة زوجها الدكتور حسن الحفناوي وبعض أفراد أسرتها، حيث استقبلها مندوبو التليفزيون في المطار وأدلت أم كلثوم بتصريح سريع «أنا ذاهبة لقطعة من وطني، وطن العرب، كل العرب، تونس الخضراء». وتحت سلم الطائرة التابعة للخطوط الجوية الجزائرية، وقفت أم كلثوم تودع محبيها الذين سعوا لتوديعها، وقبّلها زوجها الدكتور حسن الحفناوي متمنيًا لها السلامة والتوفيق في رحلتها ذات الغرض النبيل. وفي الساعة العاشرة والنصف، كانت الطائرة تغلق أبوابها على أعظم راكبة في العالم وتستعد للإقلاع متوجهة إلى تونس الخضراء. وما إن دخلت الطائرة الجزائرية المجال الجوي التونسي حتى سارعت هيئة الاستقبال بإرسال برقية ترحيب إلى السيدة أم كلثوم جاء فيها «دخلتم منذ لحظات الفضاء الجوي التونسي فأهلًا وسهلًا، يسعدنا أن نقدم لكم باسم الجماهير التونسية التي تنتظر لحظة الاستماع إلى صوتكم الخالد أحرّ عبارات الترحيب في بلدكم تونس».

وفي نفس الوقت، كان مطار «قرطاج» في تونس يشهد حركة غريبة قبل وصول السيدة أم كلثوم بساعتين تقريبًا، مبعثها ذلك التجمع الجماهيري داخل المطار وخارجه، وتطوع سائقو سيارات الأجرة لنقل الجماهير التونسية إلى المطار، وقد بدأت تتوافد على ساحاته منذ الثانية عشرة ظهرًا منتظرة وصول طائرة أم كلثوم، التي هبطت في مطار «قرطاج» عصرًا، وتحديدًا في الساعة الرابعة والنصف بتوقيت تونس، بعد رحلة طويلة دامت ستّ ساعات تقريبًا.

كانت الجماهير من مختلف الفئات العمرية قد تجمعت في شرفات المطار وساحاته الواسعة متطلعين لرؤية أم كلثوم بمجرد وصولها إلى تونس. وفي ساحة المطار الرئيسية، وقف مندوبو وكالات الأنباء التونسية ومصورو التليفزيون المصري يعدون كاميراتهم لتسجيل تلك اللحظة التاريخية في سجل العلاقة المتوترة بين تونس ومصر، في حين وقف أكثر من 250 مراسلًا صحفيًّا من مختلف دول العالم، يحاولون الحصول على سبق صحفي من أم كلثوم التي تزور تلك البلاد للمرة الأولى في حياتها، وهو ما جعل المسؤولين التونسيين يصابون بالدهشة ويصرّحون بأنّ هذه هي أكبر تظاهرة صحفية يشهدها مطار «قرطاج» في تاريخه الطويل.

وبمجرد أن حطت الطائرة في مطار تونس وفُتح بابها، تحوّل المطار إلى خلية نحل. وبعد دقائق قليلة، ظهرت أم كلثوم على سلم الطائرة، فتدافعت الجماهير نحوها وكسرت الحواجز الأمنية التي أقامها رجال الأمن لحفظ النظام داخل المطار، وامتلأت أرض المطار بالكتل البشرية المتراصة من أبناء الشعب التونسي، واعتلى الشباب الأسوار وأعمدة البرق ليظفروا بإلقاء نظرة على درة الشرق وهي تهبط إلى الأرض التونسية. وعلى سلم الطائرة، صعدت إليها السيدة نائلة

بن عمار شقيقة السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة التي ظلت طوال الرحلة إلى تونس تتبعها كظلها، كما صعد الوفد الإعلامي المكلف بمرافقة أم كلثوم طوال وجودها على التراب التونسي. وفي لحظة درامية غريبة، تلبّدت سماء تونس بالغيوم وبدأت السماء تُمطر رغم أن تونس كانت تشهد جفافًا كبيرًا منذ عام 1964، وهذا ما جعل الجميع يطالعون وجه السماء ضراعةً وحمدًا لله، ويستبشرون خيرًا بزيارة السيدة أم كلثوم إلى تونس صائحين: «جاءت أم كلثوم ومعها الخير!».

ورغم الاحتياطات اللازمة وتجمعات رجال الأمن لحفظ النظام، فقد قطعت أم كلثوم الطريق من الطائرة إلى قاعة التشريفات داخل المطار في نحو ساعة رغم أن المسافة بينهما لا تزيد على 100 مترٍ تقريبًا. وفي هذه الساعة، عّبر أبناء تونس عن مدى حبهم للسيدة أم كلثوم بالزغاريد والتصفيق ونثر الورود عليها طوال الطريق لقاعة التشريفات، وبكى البعض فرحًا بقدوم سيدة الطرب، وبلع الزحام في الساحة البعض الآخر، ومن فرط نشوة اللحظة نسي مذيع التليفزيون التونسي الميكروفون والكاميرات واندفع مع الجماهير نحو السيدة أم كلثوم. كل تلك المشاهد جعلت السيدة نائلة بن عمار تعلق على هذا المهرجان الاحتفالي: «لم يحدث في تاريخ تونس مثل هذه الفرحة.. إلّا يوم استقلالها»، وفي قاعة المطار، عُقد لأم كلثوم بين تلال الزهور وأضواء مصابيح التصوير أوّلُ مؤتمر صحفي لها في تونس، قالت أم كلثوم للصحفيين التونسيين: «شعوري وأنا أزور تونس هو شعور المحب الذي وجد حبيبه بعد طول غياب، غمرتموني بالحب وبالزهور فأنا لا أجد فرقًا بين وطني مصر وبين وطني تونس الخضراء، سعيدة أنا بكل هذه الأجواء، سعيدة باللقاء الشعبي العظيم وسأسعد أكثر عندما أقف مغنية للجماهير التونسية» وتابعت أم كلثوم: «فرحتي

لا توصف، لا تعبر عنها الكلمات، ولا تحددها الألفاظ، إنّني سعيدة بهذه الزيارة التي أتمنى أن تكون زيارة حب وأمل».

وسألها أحد الصحفيين التونسيين: «سبق أن صرّحت أخيرًا بأنكِ تنوين الغناء لأبرز شعراء العربية ونحن في تونس نعتز بأبي القاسم الشابي شاعر الحرية والحياة، فهل تنوين الغناء للشابي؟».

وأجابت أم كلثوم: «يسعدني جِدًّا، يسعدني كثيرًا، يسعدني بحق أن أغني للشاعر الخالد أبي القاسم الشابي».

وبعد أسئلة عديدة حاول فيها الجميع أن ينفرد بتصريح صحفي سريع، غادرت أم كلثوم قاعة كبار الزوار في مطار «قرطاج»، وبصعوبة شديدة شقت طريقها إلى خارج المطار، حيث وقفت سيارة فخمة لتقلها إلى مكان إقامتها الذي خصصته لها القيادة التونسية، إذ نزلت أم كلثوم هي ووفداها، الإعلامي والموسيقي، في الطابق الخامس من فندق «هيلتون» الذي يطل على قلب مدينة تونس العاصمة. وما إن وصلت أم كلثوم إلى جناحها الخاص في الفندق حتى ازدحمت قاعات الفندق في الطوابق الأرضية عن آخرها، في حين استحال الاتصال التليفوني بالفندق لكثرة ما انهال عليه من مكالمات من خارج تونس ومن الدول العربية المجاورة، ورغم أنّه كان مقررًا أن تقابل السيدة أم كلثوم الرئيس الحبيب بورقيبة وزوجته السيدة الماجدة وسيلة بن عمار في نفس يوم وصولها إلى العاصمة التونسية، وتتناول معهما وجبة العشاء في قصر «قرطاج» الرئاسي، فإنّه بعد أن شاهد الرئيس وزوجته الاستقبال الشعبي الهائل والجهد الذي بذلته أم كلثوم حتى تصل إلى محل نزلها في فندق «هيلتون» قرّر وقرينته تأجيل اللقاء لصباح اليوم التالي قبيل حفلها الأول في تونس، حتى تستريح السيدة أم كلثوم من عناء السفر ومن جهد استقبالها الشعبي الذي بهر جميع من شاهده، ذلك

الاستقبال الذي دفع وكالة «تونس إفريقيا» للأنباء الرسمية أن تخالف قواعدها المهنية وتصدر برقيتها العاجلة الأولى ذات المضمون الفني في يوم الخميس 30 مايو 1968، تعقيبًا على وصول السيدة أم كلثوم إلى تونس: «ليس حب الجمهور الكبير في تونس لفن أم كلثوم وليد اليوم، حيث إنّنا وإن كنّا نشاهد اليوم معظم التونسيين من فنانين وأدباء ورجال فكر وجماهير شعبية، يتابع بلهفة دائمة أغنياتها الجديدة، فإنّ هذا لا يمنع من أنّ فن أم كلثوم القديم من أغانٍ وأدوار ومواويل كان ولا يزال له محبوه الشغوفون بسماعه في بلادنا، ذلك أنّ ما تغنت به هذه المطربة العبقرية خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن هو خيرة ما جادت به قرائح أساتذة الفن العربي في المشرق»، وأضافت الوكالة «ولن يكون هذا اللقاء بين أم كلثوم والشعب التونسي الأول من نوعه، فقد سبق أن التقته في قائده الرئيس الحبيب بورقيبة في سهرة أحيتها خِصّيصَى أثناء زيارته لمصر سنة 1965».

وعلى بعد 2 كيلومترين من تونس العاصمة، وتحديدًا في ضاحية «المنزه»، كانت الاستعدادات تسير على قدم وساق من قَبل وصول السيدة أم كلثوم إلى تونس، خاصة في محيط قصر الرياضة؛ وهو ذلك الإستاد الذي يقع ضمن الحي الأوليمبي الذي كان يسمى قديمًا «مدينة بورقيبة الرياضية» وتغير اسمه مع الوقت وصار يعرف الآن في تونس بـ«الحي الوطني الأوليمبي»، فقد خصصت وزارة الثقافة التونسية قصر الرياضة بالمنزه لكي يحتضن حفلَي أم كلثوم في تونس اللذين تقرّر أن يكونا يوم الجمعة 31 مايو 1968 ويوم الاثنين 3 يونيو 1968. وقصر الرياضة بالمنزه بناءٌ ضخمٌ يشبه القبة في تصميمه افتتح عام 1967 بدورة ألعاب البحر المتوسط، فكان غناء السيدة أم كلثوم به هو ثاني حدث كبير يشهده ذلك الإستاد الكبير.

ونظرًا لضيق الوقت حسب الجدول المعد لبرنامج الزيارة، فقد بدأت التجهيزات داخل الإستاد قبيل وصول السيدة أم كلثوم إلى العاصمة التونسية، وجُهّز جناحٌ كبير داخل مبنى الإستاد لكوكب الشرق صمّمه مهندس تونسي في ظرف 48 ساعة، وشمل الجناح حمّامًا خاصًا وحجرة صالون واستراحة كبيرة، وزُوّد الإستاد بالإضاءة اللازمة ومكبرات الصوت التي وضعت في كل الأركان بمعدل ميكروفون كل ثلاثة أمتار، وقد لقي الفنيون ومهندسو الصوت الإيطاليون صعوبات تقنية في ضبط الصوت نظرًا لطبيعة بناء الإستاد، إذ لم يُصمَّم أساسًا مسرحًا أو قاعة أوبرا تصلح للغناء، وكان الحل الذي اهتدى إليه المهندسون هو حجب الأروقة والشرفات العليا التي تتكون من نوافذ ضخمة للإضاءة داخل الإستاد، وقد نُفّذ ذلك الحل عبر وضع أعداد كبيرة من أفراد الأمن أمام هذه الأروقة، وقد قيل في ذلك الوقت إنّ هؤلاء الجنود البسطاء كانوا الأكثر حَظًا في تونس، فقد تمكنوا من حضور حفلي السيدة أم كلثوم والتمتع بصوتها عن قرب وهو ما عجز عن تحقيقه بعض الرتب الكبرى داخل المؤسسات الأمنية التونسية بسبب نفاد 90٪ من التذاكر قبل وصول أم كلثوم إلى تونس بأيام عديدة.

كما زُوّد الإستاد بأربع عشرة غرفة للإذاعة ومراسلي الصحف المتوقع حضورهم الحفل، وقد وقف والي العاصمة تونس السيد حسيب بن عمار (1924-2008) يتفقد بنفسه التحضيرات الهندسية والتقنية داخل الإستاد استعدادًا لذلك العيد التونسي، وقد أجرى والي العاصمة حسيب بن عمار حوارًا مع تليفزيون الجمهورية العربية المتحدة يوم 28 مايو 1968من داخل الإستاد جاء فيه: «أنا كمواطن تونسي مثل جميع المواطنين نترقب منذ سنوات عديدة كوكب الشرق، التي هي في

قلب كل تونسي والتي نفتخر بها كتونسيين وكعرب، إذ رفعت شأن الفن العربي في العالم، وكلنا منذ سنوات عديدة نترقب بفارغ الصبر أم كلثوم لأننا منذ الصغر، وفي كل يوم من حياتنا، نعيش لحظات طرب ولحظات فرح وسرور هي عادة سببها غناء أم كلثوم، وبعد سويعات نقابلها هنا على الرحب والسعة ونأمل أن تبقى بيننا في تونس أطول مدة ممكنة لأن زيارتها إلى تونس كانت حلمًا وها هو الحلم يتحقق».

وفي صباح يوم الجمعة 31 مايو 1968، بدأت السيدة أم كلثوم برنامجها في تونس بحفل استقبال أقامه الرئيس الحبيب بورقيبة والسيدة عقيلته في قصر «قرطاج» الرئاسي في الضاحية الشمالية لتونس العاصمة. وعلى سلم القصر، وقفت السيدة راضية حداد رئيسة الاتحاد القومي النسائي التونسي وعضو مجلس الأمة تستقبل كوكب الشرق التي كان يرافقها في تلك الزيارة ابن شقيقتها المهندس محمد الدسوقي والإعلامية نجوى إبراهيم. وبعد انتهاء مراسم الاستقبال على بوابة القصر، دُعيت السيدة أم كلثوم لمقابلة الرئيس الحبيب بورقيبة وزوجته في مكتبه الخاص. وفي المكتب الرئاسي، استقبل الحبيب بورقيبة السيدة أم كلثوم وَعَبّر لها عن ترحيبه البالغ بزيارتها إلى تونس الخضراء وبتقديره الكبير لصوتها وفنّها ومسيرتها الفنية الفريدة وبدورها العظيم في خدمة وطنها بعد محنته في 5 يونيو 1967، وامتلأت غرفة الرئيس بالمصورين والصحفيين التونسيين الذين أخذوا يلتقطون الصور لذلك الاستقبال ويسجلون الحوارات الدائرة بين السيدة أم كلثوم والرئيس بورقيبة وزوجته، ومن ضمن ما قاله الرئيس لأم كلثوم إنّ ذلك القصر كان في عهد الحماية الفرنسية مقرًّا لإقامة الكاتب العام للحكومة التونسية، وهو الموظف السامي الفرنسي المكلّف بمراقبة حكومات «بايات» تونس آنذاك، وبعد

الاستقلال، وبقرار منه، أصبح قصرًا رِئَاسيًا عوضًا عن قصر «السعادة» في منطقة المرسى قرب العاصمة، إذ كلّف بورقيبة المعماري الفرنسي من أصل تونسي «أوليفييه كليمون كاكوب» بإجراء العديد من التغييرات والتوسعة على المبنى القديم وإعادة بنائه على الطراز الأندلسي، فأعجبت أم كلثوم بذلك التغير الكبير وردت عليه بدعابة وسرعة بديهة «يبقى ده كان زُرار وعملتم عليه بدلة»، فضحك جميع الحاضرين، ثم صحب بورقيبة وزوجته أم كلثوم ومَن معها إلى جولة داخل القصر ووقف يشرح لها كل شيء داخله ويحدثها عن بعض معالمه المختلفة، ويستعرض معها الصور المعلقة على الجدران لبعض رفقاء كفاحه الوطني الذين أعدمتهم فرنسا واستشهدوا في سبيل نيل الاستقلال. وبعد انتهاء الجولة الرئاسية، دعا الرئيس بورقيبة أم كلثوم ومرافقيها لمأدبة الغداء التي أعدت خِصّيصَى على شرف سيدة الغناء العربي، وحضرها كبار رجال الدولة وعقيلاتهم وكذلك بعض الفنانين التونسيين ومنهم المطربة علية التونسية. وبعد الغداء، اصطحب بورقيبة أم كلثوم لشرفة القصر التي تطل على شاطئ مدينة قرطاج الأثرية، ووقف يحدثها عن «نافورة الألف جرار» ذلك الموقع الأثري الروماني الذي يقع ضمن نطاق القصر الأمني. وفي نهاية الزيارة، أهدت السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة سلسلة ذهبية إلى السيدة أم كلثوم بها «ما شاء الله» كبيرة لتمنع عنها الحسد. وفي طريقها لمغادرة القصر، وقفت السيدة أم كلثوم بجوار العلم التونسي الموضوع في البهو الكبير وبجوارها السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة حيث التقطت لهما الصور تخليدًا لتلك الزيارة الهامة، وعلى بوابة قصر قرطاج، ودعتها السيدة الماجدة وسيلة وتمنت لها التوفيق في حفلها الأول، تلك الليلة التي تتطلع إليها تونس كلها.

ومنذ غروب شمس يوم الجمعة 31 مايو 1968 والحركة في شوارع العاصمة تونس لا تهدأ؛ موجة من النشاط قد دبت في المدينة فجأة، دفعات من أبناء المغرب العربي يتدفقون على مطار تونس الدولي كل ساعة تقريبًا (يقول أحد المسؤولين عن لجنة الاستقبال يقول إنّ 80٪ ممن استقبلهم مطار تونس خلال الـ 48 ساعة السابقة لوصول أم كلثوم كانوا من محبيها الذين جاؤوا لسماعها من فرنسا ودول المغرب العربي)، الطرق ممتلئة بالسيارات التي كانت وجهتها في معظم الأحيان محيط قصر المنزه، كل سيدات تونس حددن لأنفسهم موعدًا في صالونات مصففي الشعر، جدران البيوت التونسية البيض مزينة بصور أم كلثوم ومحلاة بالأنوار الملونة، شركات النسيج تبيع مناديل حريرية مُطرزة تتوسطها صورة أم كلثوم في كل مكان بعشرة دنانير تونسية. بدت تونس في تلك الليلة عروسًا تستعد لليلة العمر، مدينة تنتظر أن تسهر حتى مطلع الفجر مع المعجزة العربية التي لم يغلبها الزمن، ورغم أن الأجواء الاقتصادية والاجتماعية في تونس في تلك الأيام كانت سيئة للغاية، إذ خاضت البلاد تجربة نظام التعاضد الاشتراكي (1962-1969) في قطاعي الفلاحة والتجارة. ورغم ما خلفه ذلك النظام الاقتصادي من تبعات على مستوى دخل المواطن التونسي وجعله يعيش ظروفًا اقتصادية صعبة، لم يمنع هذا تدفق المواطنين على «المسرح البلدي» في شارع «الحبيب بورقيبة» ودار الثقافة «ابن رشيق» في شارع «باريس» لشراء تذاكر حفلي أم كلثوم التي تراوحت أسعارها ما بين 5 دنانير و20 دينارًا، أي ما يساوي تقريبًا حينها متوسط راتب موظف يعمل في دولاب العمل الحكومي. ومع اقتراب ميعاد الحفل ونفاد معظم التذاكر من منافذ بيعها، بدأت تطرح تذاكر أخرى في السوق السوداء وصل ثمن بعضها إلى مئة دينار تقريبًا،

وقد بلغ الحال ببعض المسحورين بغناء سيدة الطرب العربي أن باعوا جزءًا من أغراضهم الشخصية لكي يتمكنوا من حضور الحفل، فتذكر مجلة «المصور» المصرية أن طالبًا تونسيًا حالت ظروفه المادية بينه وبين شراء تذكرة لنفسه، مما جعله يعرض ساعة يده للبيع أمام منفذ بيع التذاكر حتى يحقق حلمه ويرى أم كلثوم، في حين استدان البعض ولجأ البعض الآخر إلى الاقتراض من المصارف التونسية، وهو ما برره والي تونس حسيب بن عمار عندما قال للإعلام «إنّ المواطن التونسي يقول دائما إننا لن نرى أم كلثوم سوى مرة واحدة في العمر، لذا لا مانع من التضحية بكل شيء».

ومنذ الساعة السادسة مساءً والجماهير تتوافد على قصر الرياضة بالمنزه حيث اللقاء المنتظر والليلة الموعودة. سبعة آلاف مقعد لم تكن كافية لتلك الحشود التي تدفقت على ضاحية المنزه لتشاهد سيدة الشرق وصوته الخالد. زُيّنت الصالة بلوحة كهربائية كبيرة في مواجهة المسرح كُتب عليها بالأنوار الملونة «تونس ترحب بكوكب الشرق السيدة أم كلثوم»، أما خشبة المسرح فقد بدت كأنّها بستان صغير مختلف الألوان بعدما وضع على طول امتدادها 280 ألف زهرة قرنفل جمعت من شمال تونس وجنوبها تحية من السيدة نائلة بن عمار إلى السيدة أم كلثوم التي عرفت بحبها لتلك الزهور. الحاضرون للحفل جاؤوا في أناقة تليق بحدث بطلته أم كلثوم، حدث بدا وكأنّه نغمة عربية واحدة تذكر التونسيين بعروبتهم، ونشيد مشترك لا خلاف عليه ولا جدال. وكانت ملابس السيدات تجمع بين أجمل فساتين باريس وأقدم عباءات المغرب العربي. الرجال جاؤوا ومعهم أجهزة تسجيل وكاميرات محمولة لكي يسجلوا تلك اللحظات التاريخية في حياتهم فربما لا يعيشون مثلها أبدًا. كان الجمهور كله من كبار السميعة في

تونس من عشاق سيدة الطرب العربي، كان المجتمع التونسي كله ممثلًا داخل الإستاد في تمازج فريد لم تشهده تونس قبل ذلك اليوم وربما لم تشهده بعده، جلس المثقفون والموظفون والطلبة والتجار والعمال والنساء العاملات وربات المنازل بعضهم بجوار البعض. كانت مصر في تلك اللحظة على كل لسان وفي قلب كل تونسي.

وفي حدود الساعة الثامنة مساءً، وصلت السيدة أم كلثوم ترافقها السيدة نائلة بن عمار إلى قصر الرياضة، ودخلته من بوابته الخلفية وهي ترتدي معطفًا أسود وتغطي رأسها بمنديل حريري فاتح اللون، وما إن دلفت إلى جناحها الخاص داخل المسرح حتى وجدت عطرها المفضل «كريستيان ديور» في انتظارها داخل حجرتها التي غُطّيت جدرانها بصور الورود، ثم صلّتْ وتناولت كوبًا من «الينسون» وقرأت سورة الفاتحة وجلست تستعد لليلتها الأولى في تونس. وقبل أن تُرفع الستارة عن أم كلثوم، حضر الرئيس الحبيب بورقيبة والسيدة الماجدة وسيلة بن عمار والوزراء والولاة التونسيون وأعضاء السلك الدبلوماسي في تونس، حيث جلسوا جميعًا في الصف الأول في مواجهة المسرح مباشرة. وبسبب عدم كفاية عدد المقاعد، افترشت الطفلة هاجر ابنة الرئيس الحبيب بورقيبة بالتبني الأرض أمام مقعد الرئيس وزوجته. ورغم أن الرئيس بورقيبة قد وجه تعليماته إلى مدير الإذاعة والتلفزة التونسية آنذاك محمد مزالي بضرورة بث الحفلين مباشرة عبر أمواج الأثير وعرضهما تليفزيونيًا على الهواء من خلال شاشة التليفزيون المحلي، لم يمنع هذا مجموعة كبيرة من التونسيين بلغ عددهم أكثر من 500 شخص من التجمهر حول الإستاد بعدما فشلوا في الحصول على تذاكر، مفضلين المكوث بالقرب من المكان الذي ستغني فيه السيدة أم كلثوم. وفي الساعة التاسعة مَسَاءً، وبعد أن

تحولت الصالة الكبيرة إلى طوفان من الرؤوس البشرية، انفرج الستار عن أم كلثوم وهى ترتدي فستانًا من الشيفون السماوي به خيوط من اللون الفضي، يفتر ثغرها بابتسامة سعيدة، وما إن رأتها الجماهير حتى ضجت بالتصفيق والهتاف لها من قبل أن تشدو بالنغمة الأولى من صوتها الرباني الأخّاذ. كان من المقرر أن تغني أم كلثوم في وصلتها الأولى أغنية «أنت الحب» والتي بالفعل كانت قد أجرت البروفات عليها مع فرقتها الموسيقية، لكن الجماهير التونسية أصرت على أن تغني قصيدة «الأطلال» التي تحولت تدريجيًا إلى العنصر المشترك بين معظم حفلات المجهود الحربي. وما إن بدأت أم كلثوم غناءها حتى بدت في مظهر آخر؛ كان صوتها يقطر عذوبة ورقة، ويسري في قصر الرياضة وكأنّه ابتهالات ومناجاة إلهية. وفي الثلث الأخير من القصيدة، وتحديدًا من بداية مقطع «هل رأى الحب سكارى مثلنا»، انسجمت أم كلثوم بتفاعل الجمهور التونسي الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة في غنائها إلا وتجاوب معها، كلما أضافت أم كلثوم شيئًا إلى اللحن حتى لو كان لا يذكر تحركت الجماهير عن مقاعدها ولوحت بالمناديل الحريرية التي طبعت عليها صورتها. أعادت أم كلثوم مقطع «هل رأى الحب سكارى» أكثر من 35 مرة، في كل مرة كان يرتفع صوت في قلب الصالة الكبيرة قاطعًا الصمت المذاب في النشوة «اتصرفي فينا كيف ما تحبي». كانت أم كلثوم تتمايل من نشوة التجاوب بمنديلها السماوي تاركة عشاقها في سكرة الطرب الكلثومي وتسير بهم في طريقٍ مقمرٍ تثب الفرحة فيه قبل الجميع، ومن يسمع ذلك التسجيل الخالد لقصيدة «الأطلال» يلاحظ تعمد السيدة أم كلثوم تسْكين حروف كلمة «كم» في كل مرة نطقت بها، فكانت تترك في النفس أثرًا عجيبًا، أثرًا وصفه أحد الحضور لتليفزيون الجمهورية

العربية المتحدة «كلما غنت أم كلثوم كلمة «كم» شعرت وكأن الملاك قد حملني على أجنحة صوتها وطار بي للسماء»، وعندما وصلت أم كلثوم إلى بوح الحبيب بسر القضاء والحظ، لم يتمالك الجمهور عواطفه فاهتزت المقاعد الرسمية والشعبية والهامشية أيضًا، وانطلقت الهتافات الصارخة القوية لآهات أم كلثوم المتقطعة التي سبقت مقطع النهاية. وعند نهاية القصيدة، اتّجهت أم كلثوم بنظرها نحو جماهير تونس بلا استثناء فلم تجد مَفَرًا من رغبة الجماهير الهادرة إلا الالتماس من قائد فرقتها عازف القانون محمد عبده صالح إعادة المقطع الأخير، والأكيد أنّ أم كلثوم في الثلث الأخير من ذلك التسجيل كانت تغني باندماج وسلطنة الأبيات الأولى، وقد ظهرت حماستها خصوصًا في الأبيات الأخيرة بكل ما فيها من معاني ألم وحظ عاثر فرق بين محبين. وبعدما أنهت أم كلثوم غناء قفلة قصيدة «الأطلال» بعد 66 دقيقة تقريبًا، ظلّت الجماهير دقائق طويلة تطالب أم كلثوم بألا تغيب عنها، الكل كان يود أن تبدأ أم كلثوم غناءها من جديد أو على الأقل إعادة الأبيات الأخيرة للمرة الثالثة، لكن الستارة فصلت بين أم كلثوم والشعب التونسي بعدما تركته سيدة الطرب غارقًا في نشوة الحلم الكلثومي.

وفي الاستراحة، ذهبت إليها في حجرتها السيدة الماجدة وسيلة بن عمار وبصحبتها عدد كبير من السيدات التونسيات، ودعت لها بطول العمر وباركت ذلك النجاح الكبير الذي حققته أم كلثوم في وصلتها الأولى، وبلّغتها تحية الرئيس بورقيبة الذي غادر عقب انتهاء الوصلة الأولى بسبب مشاغله، كما نقلت لها فرحة الشعب التونسي وحبه وتقديره لها. وعقب ذلك قدم إليها وزير الأنباء المغربي الذي كان في تونس ضمن فعاليات الاحتفال بالأسبوع المغربي التونسي وهنأ أم

كلثوم على نجاح الوصلة الأولى، وقال لها مداعبًا وقد ركز نظره على حذائها الجديد من نوعه «حذاؤك زي سد أسوان!» وردّت أم كلثوم على مداعبته «أهلًا بالمغرب الشقيق».

ووقفت السيدة أم كلثوم أمام المرآة الكبيرة في جناحها تعدل شعرات برأسها قد خرجت عن إطار التصفيف. وبعد ساعة إلا ربع تقريبًا، رفعت الستارة مرة أخرى عن السيدة أم كلثوم فكانت الأغنية الثانية في تلك الليلة «فكروني»، وربما الجمع بين قصيدة «الأطلال» وأغنية «فكروني» في حفلة واحدة يعطي فكرة عن ذكاء أم كلثوم التي تعرف جيدًا ما هو الخط الجامع بين قصيدة شاكية كالأطلال وبين أغنية فَرِحة متفائلة بالقمر الزاهي والشجر الأخضر كأغنية «فكروني»، وكأنّها أرادت أن تخرج بالجماهير من الشجن إلى الفرحة وتختم الحفل ببهجة تقارب فرحة الجماهير التونسية بلقائها. كان تفاعل الجماهير يزداد على مدار 92 دقيقة هي مدة غناء أم كلثوم لأغنية «فكروني» التي جاء تسجليها تحفة خالدة لا يوازيها جمال تسجيل آخر، فكانت طوال الأغنية ترتجل محولة كلماتها إلى ما يشبه الموال، وعندما وصلت إلى مقطع «كلموني تاني عنك/ بعد طول حرماني منك» انفرد قائد فرقتها محمد عبده صالح بتقاسيم بديعة على آلة القانون؛ والتقاسيم الموسيقية هي تقليد قديم دأب عليه فرسان فرقتها الثلاثة: محمد عبده صالح وأحمد الحفناوي والموسيقار محمد القصبجي، عندما تبلغ أم كلثوم ذروة طربها، فكانت تقاسيمهم في الأربعينيات والخمسينيات تحديدًا علامة مميزة على السلطنة والإمتاع والمؤانسة في الحفل.

كان صوت أم كلثوم يطغى على اللحظة والمكان، لا صوت يعلو في تلك الليلة إلا صوتها، ولا حديث يدور في شوارع تونس وحواريها البيض إلا عن مصر وابنتها التي تحكم تونس في تلك

الليلة التاريخية، وقد عقبت مجلة «الإذاعة والتلفزة» التونسية على أغنية «فكروني»: «كان صوت أم كلثوم وهي تغني فكروني سلطانًا على الجميع، وعندما انتهت من الأغنية كان الجمهور سكران من الهوى الكلثومي». كان صوتها هو صاحب الكلمة الفصل، والسلطان الذي لا رد لقوله أبدًا، ويروي بعض من حضروا ذلك الحفل أنّهم شاهدوا سيدة تونسية تجلس وبجوارها ابنتها الشابة، فكانت البنت كلما أخذتها النشوة والطرب راحت تنتف شعرها في حركة عصبية وهي تحت تأثير الوجد، خصوصًا كلما تصرفت أم كلثوم في اللحن أو أطلقت لارتجالها العنان.

وكان أعجب ما روته الصحافة العربية من طرائف الحفل الأول، ما كان بطله والي مدينة «نابل» السيد عمر شاشية (1927–2007) الذي كان بين الحاضرين في الحفلين. كان الوالي عمر شاشية وقتها من ركائز النظام التونسي ومن المقربين جدًا من الرئيس الحبيب بورقيبة، وقد عُرفت عنه كذلك صرامته وشدّته في حياته الخاصة والعامة، ومع ذلك، وبمجرد أن غادر الرئيس بورقيبة قصر المنزه، ومع بداية أغنية «فكروني»، قام الوالي شاشية وهو مُنتش بغناء أم كلثوم، وفي غفلة من الزمان، وتحت سحر غنائها، راح يرقص أمام 7000 متفرج تونسي غير مبالٍ بمكانته أو مركزه السياسي المهم. ومن المفارقات أنّ هذا الوالي على أهمية مركزه لم يعزل ولم يطلب منه الاستقالة وهو الشخصية المرموقة بين سياسيي تونس المعروف بين الجميع بالذكاء والدهاء السياسي، وسواء ما قام به الوالي عمر شاشية كان عن وعي أو غير وعي، فقد غفرت له القيادة التونسية ذلك التجاوز ولم تعلق الرئاسة على ما حدث، فكل التجاوزات في السياسة ممنوعة ما عدا التي لطرب أم كلثوم يد فيها. وفي الساعة الواحدة والنصف صباحًا،

ودّعت الجماهير التونسية «فكروني» وأسدل الستار عن أم كلثوم وانتهى الحفل الأول، بعد أن عاشت تونس ليلة عيد «النصر» وأضاءت كوكب الشرق سماء وآفاقها الخضراء وقلوب أهلها وعيونهم.

وفي الصباح، كانت تونس ذات الخمسة ملايين نسمة آنذاك تقرأ سيرة أم كلثوم في الصحف التونسية منذ أن تتلمذت على يد الشيخ أبي العلا محمد (1884-1927) في بداية عهدها بالغناء حتى تربعت على عرش الطرب العربي، ونشرت الصحف التونسية أخبارًا عن زيارتها قصر «قرطاج» ولقائها بالرئيس بورقيبة، وتصدرت صورها في الحفل الأول الصحف الرسمية التي وعدت قراءها بتغطية شاملة عن الحفل وأحداثه في اليوم التالي. وعلى الصفحة الأولى من صحيفة «العمل» التونسية الصادرة يوم 1 يونيو 1968، كان العنوان الرئيسي: «الرئيس الجليل والماجدة وسيلة بورقيبة يكرمان سيدة الغناء العربي أم كلثوم». وفي ذات اليوم، أقامت السفارة المصرية والقائم بأعمالها السيد حسن سلامة حفل استقبال على شرف السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية في بهو السفارة المصرية في شارع «محمد الخامس» بالعاصمة تونس، وحضر الحفل الوزراء التونسيون وبعض الدبلوماسيين العرب وبعض النجوم المصريين الذين تصادف وجودهم في تونس مع زيارة السيدة أم كلثوم، ومنهم: فريد شوقي وصباح وعبد السلام النابلسي وثلاثي أضواء المسرح. وفي القاعة الرئيسية داخل السفارة، وقف الشعراء التونسيون يتبارون في التعبير عن فرحتهم بوجود أم كلثوم في تونس، فأُلقيت قصائد المديح في سيدة الطرب وغنائها، وكان أجمل ما قيل في ذلك اليوم ما ارتجله أحد الشعراء:

«أم كلثوم عشت للفن حصنًا / تثملين الوجود حينًا فحين
عشتِ عمر الآجال يا فرحة الكون/ تغنينه مدى الا بدين»

وفي المساء، بعد احتفالية السفارة المصرية، زارت السيدة أم كلثوم ووفدها الإعلامي يرافقهم بعض الوزراء والسيدة نائلة بن عمار مقهى «المَرَابِط» في منطقة سوق «اَلتُرْك»، وهو مقهى يشبه مقهى «الفيشاوي» في منطقة «الجمالية» بالقاهرة ولكنّه متطور نسبيًا عنه، ويعود تأسيسه إلى نهايات القرن السادس عشر، حين شُيد على بعد أمتار قليلة من جامع «الزيتونة» وبالقرب من سوق «العطارين» في المدينة العتيقة، ويمتاز مقهى المرابط بأعمدته الرخامية الحُمر والخُضر وأسقفه الخشبية ذات الطابع الأندلسي، وقيل أنّه قد سُمّي «بالمَرَابِط» لأنّه كان يحتوي على مجموعة قبور يقال إنّها لبعض المرابطين التونسيين الذين كانوا في عهد الحماية يرابطون لحماية البلاد فبقي الناس يتبركون بهم. والمقهى دوران: في الدور الأول يجلس المداحون وأبناء الفرق الصوفية ينشدون الابتهالات الدينية والسيرة النبوية، وفي الدور الثاني توجد المقاعد والطاولات الخشبية. وبعد العشاء، وبعد أن تناولت السيدة أم كلثوم المشروب التونسي التقليدي المعرف باسم «تاي بالبندق» وهو عبارة عن شاي بالصنوبر، جلست تستمع إلى غناء المداحين الصوفيين وإنشاد فرقة «سُلامية» الشيخ عبد العزيز بن محمود، إذ كان حاضر بينهم منشد تونس الخالد الشيخ علي البراق (1899-1981) الذي طبقت شهرته الآفاق في المغرب العربي، وقال فيه عميد الأدب العربي طه حسين إبّان زيارته إلى تونس عام 1957 «إن صوته يعيدنا إلى الزمن الأول لنزول القرآن وبدء الحضارة العربية»، وقد أنشد الشيخ علي البراق في تلك الليلة أمام أم كلثوم قصيدًا صوفِيًا منسوبًا للإمام الشافعي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يقول مطلعه: «لكم مهجتي والروح والجسم والقلب/ وكلي لكم ملك وإني بكم صَبٌّ»، وقد أعجب أداؤه السيدة أم كلثوم وظلت تنصت

له في خشوع وتأثر، ويقول من رافقوها في تلك الليلة أنّها بكت متأثرة بإنشاده العذب.

وخلال رحلة السيدة أم كلثوم إلى تونس، نظّمت وزارة الثقافة التونسية وكاتب الدولة للشؤون الثقافية الوزير الشاذلي القليبي عدة جولات قامت بها السيدة أم كلثوم في المدن التونسية، طالعت خلالها مظاهر الحياة الشعبية في تونس بعيدًا عن حداثة العاصمة وصخبها، فزارت أم كلثوم المدينة الساحلية نابل التي تقع على بعد 60 كيلو من العاصمة التونسية، وتعتبر أهم المدن للصناعات التقليدية في تونس، فكان في استقبالها الآلاف من سكان المدينة الذين ما إن علموا بقدومها حتى تجمعوا في طريق موكبها ينقرون الدفوف ابتهاجًا بوصول سيدة الطرب العربي إلى مدينتهم، وتحولت مدينة نابل إلى طوفان بشري من الشباب والأطفال والشيوخ وعساكر الأمن وفرق الموسيقى التي راحت تجوب المدينة ترحيبًا بأم كلثوم. وعلى بوابة المدينة، وقف الوالي عمر شاشية يستقبل أم كلثوم ومرافقيها مرحبًا بهم في المدينة التي كانت في يوم ما الجنة الخضراء للإمبراطورية اليونانية القديمة. كانت الجموع البشرية تريد الاقتراب من أم كلثوم ومشاهدة المعجزة العربية عن قرب، ولذا لم تجد أم كلثوم مَفَرًا من أن تطلب مقعدًا لتقف عليه حتى تستطيع تحية الآلاف الذين تجمعوا في شوارع نابل الرئيسية متتبعين موكبها داخل المدينة، وقد تبع أم كلثوم في تلك الزيارة أكثر من 300 صحفي حاول كل منهم تغطية تلك الزيارة وتسجيل تلك اللحظات التاريخية التي تجمع بين أم كلثوم وشعب نابل لأول مرة. كانت الجماهير في شوارع نابل لا تكف عن الصياح بذلك النداء التاريخي الملتصق بالسيدة أم كلثوم وهو لقب «يا ست»، محاولين جذب انتباهها لعلهم يظفرون بنظرة باسمة من التي تمنح النشوة

والصفاء للشعوب العربية من المحيط للخليج، وقد تأثر جميع أعضاء الوفد المرافق للسيدة أم كلثوم من حفاوة الاستقبال في تلك المدينة، وتذكر الإعلامية نجوى إبراهيم في تغطيتها لتلك الزيارة أنّها شاهدت معظم من رافقوا السيدة أم كلثوم في مدينة نابل والدموع تملأ أعينهم بعد ما رأوه من الحفاوة الشعبية والرسمية بالسيدة أم كلثوم على اعتبارها رمزًا لمصر وسفيرة لفنها العريق. وخلال جولتها في المدينة، شاهدت أم كلثوم المظاهر الشعبية للعرس في تونس، واطّلعت على الأزياء التقليدية للمدينة الساحلية، وزارت أهم ما في المدينة من معالم وهي معامل الخزف، وعندما دخلت أم كلثوم أحد المعامل وشاهدت ما تنتجه تلك المصانع من إنتاج حرفي، وقف أمامها عامل بسيط وبعد أن حياها قال لها إنّه كان يود أن يدعوها لشرب الشاي في منزله ولكنه في وقت العمل، ولذا قرر أن يصنع لها طقمًا خزفيًا من خزف نابل المميز هديةً وتذكارًا على تلك الزيارة، وفعلا صنعه أمامها وقدمه للسيدة أم كلثوم التي قبلت الهدية شاكرة.

وبعد أن وقفت أم كلثوم تعبّ من هواء البحر المتوسط، توجهت من مدينة نابل إلى منطقة الحمامات أجمل الولايات في تونس، وهي مدينة تقع على الشريط الساحلي في الشمال الشرقي للجمهورية التونسية وتبعد عن مدينة نابل 30 كيلومتر تقريبًا. وكما كان الاستقبال في نابل عظيمًا، كان الاستقبال في الحمامات لا يقل حفاوة عن سابقه، ولقد أُسرت السيدة أم كلثوم بتلك المشاعر التي أحاطت بها في تونس، وقالت للسيدة نائلة بن عمار التي كانت برفقتها في تلك الزيارة إنّها غير قادرة على رد ذلك الحب الذي غمرها به التونسيون منذ أن وطأت قدماها الأرض التونسية. وفي مدينة الحمامات، وقفت الجماهير في الشرفات تحيي أم كلثوم بالزغاريد والتصفيق، وحملت

الأمهات أطفالهنَّ من أجل أن يشاهدوا السيدة أم كلثوم وهي تسير في شوارع المدينة الضيقة، وتزاحم المصورون التونسيون والمصريون الذين يرافقونها من أجل التقاط بعض الصور وسط ذلك المهرجان السعيد. وبعد أن أنهت جولتها داخل المدينة، استراحت أم كلثوم قليلًا وشربت مع والي المدينة «التاي بالبندق»، ثم استأنفت جولتها وزارت «المركز الثقافي الدولي» في الحمامات؛ وهو مركز ذو صبغة وطنية تونسية وعالمية تشرف عليه وزارة الثقافة التونسية، ويعد من أهم معالم مدينة الحمامات، ويتكون من دار كبيرة تمتاز بالبناء الهندسي التونسي التقليدي، ويشمل المركز مسبحًا محاطًا بمجموعة من الأقواس تنعكس على صفحة الماء كلوحة تشكيلية، وفي داخله صحن كبير للبيت يشبه صحون البيوت المحلية في تونس، وتنافس كل غرفة داخل المركز الغرف الأخرى في التفرد والجمال، وقد أُطلق على كل غرفة داخل الدار اسم: الغرفة البرتقالية والغرفة الرومانية والغرفة السوداء، وتحيط بالدار حديقة واسعة تضم أندر النباتات الاستوائية والمتوسطية التي تناغمت فيما بينها بطريقة مدهشة، بالإضافة إلى مساحة كبيرة داخل الحديقة غطتها الأعشاب البرية.

وبجوار الدار الرئيسية، زارت أم كلثوم مسرح الهواء الطلق وهو أحد الآثار اليونانية، ويقع ضمن حدود المركز، وقد أدخلت عليه تعديلات عام 1964 لتقام به عروض باليه وحفلات فنية غنائية مثل المهرجان الدولي بالحمامات الذي انطلق عام 1966. وخلال جولتها شاهدت أم كلثوم كل مكان داخل المركز وأعجبت بالمناظر الطبيعية التي تحيط بالمبنى، كما أعجبتها اللوحات الزيتية التي تزين جدران المركز وديكوره التقليدي البسيط، وكان يرافقها في جولتها تلك داخل المركز مدير المركز ذاته الذي وقف يشرح لها تاريخ المكان منذ أن

كان منزلًا شخصيًا يملكه ثري أمريكي من أصل روماني، وقد قضت أم كلثوم داخل المركز الثقافي الدولي بقية النهار، حيث نظم كاتب الدولة للثقافة الشاذلي القليبي في نهاية اليوم مأدبة عشاء على شرف زيارة السيدة أم كلثوم إلى منطقة الحمامات. وبعد جولاتها بالمدن التونسية، طافت أم كلثوم بالعاصمة تونس ذاتها وشاهدت ملصقات حفليها معلقة على كل جدار في العاصمة تونس، وصحبها الوالي حسيب بن عمار إلى أعلى بقعة في تونس، حيث وقفت تلقي نظرة على المدينة التي كانت في يوم محطة المغامرة الفينيقية في البحر المتوسط، ومرفأ التيه للملك أوديسيوس العائد من حرب طروادة، وبيت الخير للإمبراطورية الرومانية، ووقف والي العاصمة التونسية يشرح لأم كلثوم تاريخ تلك البقاع الممتدة أمامها، فكانت أم كلثوم طوال الجولة تسمع حكاية الأرض الخضراء. وفي نهاية الجولة، علّقت للوالي حسيب بن عمار: «إن اللون الأبيض يغلب على البيوت التونسية ولهذا يجب تسميتها تونس الخضراء البيضاء وليس الخضراء فقط».

وفي يوم 3 يونيو 1968، دقت الأجراس معلنة أن السيدة أم كلثوم ستحيي حفلها الثاني بقصر الرياضة بالمنزه، وهلّل التونسيون، خاصة أولئك الذين حرموا من حضور الحفلة الأولى في 31 مايو 1968. ورغم أن عدد مقاعد قصر الرياضة كان لا يتجاوز 7000 مقعد، فإنّه بسبب الضغط المضاعف على شراء التذاكر، لجأت وزارة الثقافة التونسية إلى زيادة عدد المقاعد في الليلة الثانية ليصبح 10000 مقعد، حتى يستوعب المدرج من شدوا الرحال إلى تونس وجاؤوا من جميع أنحاء المغرب العربي ليشهدوا حفلة السيدة أم كلثوم الثانية. ومع دقات التاسعة مساءً، كان الستار ينفرج عن السيدة أم كلثوم التي

أطلّت على الجماهير العريضة وهي ترتدي فستانًا ذهبيًا وتمسك في يديها منديلًا من ذات لون الفستان يزيد بهاءها بهاءً. كان الحفل الثاني قصيدة وردية حروفها من نشوة وطرب، فكانت القصيدة هي الجماهير وصاحبة القصيدة الوردية هي أم كلثوم كوكب العرب كما كان تطلق عليها الصحافة التونسية طوال رحلتها إلى تونس. أطلّ قوس قزح على تونس وأم كلثوم تلوح للجماهير بمنديلها الذهبي. كانت الوصلة الأولى أغنية «أنت عمري» من كلمات أحمد شفيق كامل وألحان موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، حيث أدتها السيدة أم كلثوم للمرة الخامسة عشرة والأخيرة في حياتها الغنائية. وما إن أطلقت الإشارة الموسيقية الأولى حتى شدت أم كلثوم بكلمات مذهب الأغنية والجماهير تهتف وتزغرد في تحية لأم كلثوم، لينطلق صوتها مغردًا تحت قبة قصر الرياضة، ومحولًا صمت العاصمة التونسية إلى كرنفال عربي يموج بالجمال والجلال والعروبة والصفاء. وفي المقطع الثاني، وتحديدًا عند جملة «كل فرحة اشتاقها من قبلك خيالي/ التقاها بنور عينيك قلبي وفكري»، اكتسب أداء السيدة أم كلثوم تعبيرية جعلت لكلمة «التقاها» أهمية داخل المقطع؛ كانت تلك الكلمة هي ذروة المناجاة المفتوحة بينها وبين الجماهير التونسية طوال غناء المقطع، تلك المناجاة التي كانت تتبعها في كل مرة عاصفة من التصفيق والآهات، وتنسجم السيدة أم كلثوم عند الإعادة وتثب الفرحة في جسدها من فرط التناغم مع الجمهور الذي كان يلتقط فرحًا كل آهة في غير موضعها الأصلي ومنتشيًا بجلال اللحظة التي لن يجود الزمان بمثلها أبدًا. وطوال الوصلة الأولى، ارتفعت نشوة الطرب بالسيدة أم كلثوم وجادت بالتفاريد غير المتوقعة خاصة في المقطع الثاني من الأغنية عند قولها «الليالي الحلوة والشوق والمحبة/ من

زمان والقلب شايلهم عشانك»، وما زادها حماسة هو حرارة الجماهير التونسية والعربية القادمة إلى تونس لتشهد الليلة المرتقبة، ويكشف لنا التسجيل المرئي لتلك الحفلة مدى تجاوب الشابات التونسيات تحديدًا مع غناء أم كلثوم، فكما كانت تنتف إحدى الفتيات شعرها طوال الحفل الأول، ظلت فتاة تصرخ طوال الحفل الثاني وهي تضرب نفسها في حركة لا إرادية أثناء ارتجال أم كلثوم في المقطع الثالث من أغنية «أنت عمري»، فكان ذلك التسجيل لأغنية «أنت عمري» هو درة التسجيلات المحفوظة للقاء السحاب، حتى عندما تعثرت أم كلثوم في مطلع المقطع الأخير من الأغنية ولم تسعفها ذاكرتها في تذكر بعض الكلمات، وضع عازف الناي في فرقتها سيد سالم الناي على فخذيه وتأهب ليذكرها بكلام الأغنية، فجاء نسيانها يشع طربًا، فأعادت أم كلثوم المقطع وأجادت وتفاعل التونسيون مع ذلك النسيان الذي وَلَد سلطنة غير مخطط لها. وما إن وصلت أم كلثوم إلى نهاية الأغنية حتى لجأت إلى زخرفة غنائية عجيبة لم تشهدها باقي التسجيلات الإذاعية والمصورة تليفزيونيًا لهذه الأغنية، لتبلغ أم كلثوم ذروة النشوة وتمتلك ناصية القفلة وسلطنة الختام. وبعد 69 دقيقة، اختتمت غناءها ودخلت جناحها لتستريح قبل أن تصدح بأغنيتها الأخيرة في سماء تونس، وزارتها ما بين الوصلتين السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة والتقطت معها الصور وهي تحتضنها وتعبر لها عن مدى إعجابها بأدائها في الوصلة الأولى وبأغنية «أنت عمري» التي صرّحت للصحافة، وتحديدًا للصحفية صفية ناصف ومجلة «حواء» المصرية، أنّها الأغنية المفضلة لديها خصوصًا بعدما سمعتها من السيدة أم كلثوم في القاهرة ليلة 17 فبراير 1965. وبعد ساعة تقريبًا، عادت أم كلثوم للمرة الأخيرة إلى ركح قصر الرياضة، حيث غنت في

وصلتها الثاني أغنية «بعيد عنك». وعلى غير عادتها، استهلت أم كلثوم الغناء بارتجال طويل بعدما اندمجت مع مطلع الأغنية وتحديدًا عند جملة «نسيت النوم وأحلامه/ نسيت لياليه وأيامه»، فأعادت وأجادت في التطريب، وفي تلوين الكلمة وإعطائها أبعادًا جمالية جديدة تضاف إلى جمال وشجن اللحن الأصلي، وهو ما كان سابقة في حياتها، فقد كانت أم كلثوم إذا غنت وارتفع مزاجها، قاطعت اللحن الأصلي بارتجالات بعيدة حتى إذا وجدت طريقًا للرجوع عادت إلى الأصل، ولكنّها في تلك الليلة، ومنذ النغمة الأولى، اندمجت مع دوامات السلطنة ولم تبخل على أهل تونس الكرام الذين أعطوها من حسن الضيافة فأجزلوا العطاء. وفي المقطع الثالث من الأغنية، وعند الإعادة الثانية لذات المقطع، حلّقت السيدة أم كلثوم في سماء تونس وقدمت صورة جديدة لكوبليه «افتكر لي لحظة حلوة عشنا فيها للهوى»، فعلى مدار ما يقرب من عشرين دقيقة كانت تصول وتجول داخل المقطع وتؤسس لصيغة غنائية جديدة لأغنية «بعيد عنك» التي صارت مع الوقت النسخة الأكمل والأجمل لتلك الرائعة، بالإضافة لكونها الأكثر رواجًا بين السميعة الكبار، إذ لا ينافسها في جمالها إلا تسجيل «بعيد عنك» الذي أدته السيدة أم كلثوم بعد تلك الليلة بشهر واحد في مدينة «بعلبك» اللبنانية في 14 يوليو 1968.

وعند المقطع الأخير، تجلت عبقرية أم كلثوم في الأداء وتجسيد المعنى، عبقريّةٌ تحدث عنها كبار معاصريها من عباقرة التمثيل، أمثال يوسف وهبي، وزكي طليمات، وفاتن حمامة وغيرهم، فكان غناؤها لمقطع «والعمل؟ إيه العمل؟»، ثم التحول بعاطفة وانكسار إلى سؤال آخر «تحرمني منك ليه؟» مثارَ إعجاب الجماهير، فقد ظلت تدور في فلك هذا التساؤل الكلثومي قرابة ثماني عشرة دقيقة تقريبًا، ومن

يتأمل تسجيلات تلك الليلة التاريخية 3 يونيو 1968 يكتشف أنّ أداء أم كلثوم كان استثنائيًا وغير طبيعي، فمع كل نغمة أصلية في الأغنيتين كان هناك نغمة جديدة تضيفها أم كلثوم من روحها، وربما كان ذلك مبعثه التفاعل الجماهيري الضخم وغير العادي بين أم كلثوم والشعب التونسي، أو ذلك المناخ السّاحر الذي ميز صالة قصر الرياضة بالمنزه، أو ربما هي حالة الحب العميق التي جمعت أم كلثوم بالتونسيين الذين أكبروا فيها الفن والوطنية، حتى أنّها صرّحت في حوار تليفزيوني أجراه معها الإعلامي الكبير خالد التلاتلي في أثناء وجودها في تونس أنّ الجمهور التونسي حساس وذوّاق ويتمتع بحاسة سماع رهيفة وأنّها وإن كانت قد سمعت شهادات كثيرة في ذلك، فإن الحقيقة تجلت خلال زيارتها إلى تونس لتكون أبلغ من النقل والحديث.

وبعد ظهر يوم الثلاثاء 4 يونيو 1968، أقام «الاتحاد القومي النسائي التونسي» مأدبة غداء في بهو فندق «هيلتون» بالعاصمة التونسية حضرتها السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة، وكانت المناسبة تقليد السيدة أم كلثوم الصنف الأكبر من وسام «الجمهورية» وهو أرقى وأكبر الأوسمة في تونس الخضراء، حيث تولت السيدة الماجدة بورقيبة تقليدها بذلك الوسام نيابة عن السيد رئيس الجمهورية، وقد نقلت الإعلامية سامية صادق وقائع ذلك الحفل في تسجيل إذاعي بث على موجات الإذاعة المصرية عقب عودة السيدة أم كلثوم من تونس، وتحديدًا في منتصف ليل يوم 23 يونيو 1968، وقد ألقت عقيلته الرئيس كلمة قصيرة عند تقليد أم كلثوم بالوسام جاء فيها: «بمناسبة احتفالنا بالسيدة أم كلثوم التي تزور تونس لأول مرة، يسعدني أن أقلّدها نيابةً عن فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة، الصنفَ الأكبر من وسام الجمهورية، وهذا تقديرًا لعبقريتها الفنية الخالدة»،

وتسابق حول السيدة أم كلثوم مراسلو الإذاعات والصحف يلتقطون منها تصريحًا بعدما كرمتها تونس ومنحتها أرفع الأوسمة، وصرّحت أم كلثوم «ممنونة جدًا، وغير قادرة على إيجاد الكلمات المناسبة التي أعبر بها عن شكري وامتناني للماجدة وسيلة ولسيادة الرئيس الجليل وللشعب التونسي العظيم على حسن استقباله لنا، والحقيقة أني لست قادرة على التعبير عن عواطفي بشكل كامل، فليست صنعتي الكلام ولكني يمكنني أن أعبر بأغنية مثلًا»، وقد ألقيت طوال القسم الأول من الاحتفالية عدة قصائد شعرية في السيدة أم كلثوم منها تلك القصيدة للشاعر التونسي مصطفى خريف (1909-1967) والتي يقول مطلعها:

«ترسلين اللحن ترياقًا لأرواح شقية
كم شفى اللحن نفوسًا زادها الطب بلية
يا لها ليلة أنس من لياليكِ هنية
يوم حلت كوكب الشرق ورمز العبقرية
سوف لا ننسى جميعًا قصة الحب الشجية
أنت عمري، فكروني، بين أطلال خفية
يا عروس النيل يا من أنتِ باللحن حيية
إن يكن للخلد لحن أنتِ لحن إلا بدية»

وتعتبر معلقات المديح التي كُتبت في السيدة أم كلثوم السّمةَ المشتركة بين معظم حفلات الاستقبال التي أقيمت لها في تونس، فقد تبارى الشعراء في التعبير عن محبتهم لها من خلال صورهم الشعرية، فنُظمت فيها القصائد، وأهداها كل الشعراء دواوينهم لعلها تجد قصيدة تصلح للغناء وتخلّد صاحبَها بغنائها. وقد لاحظ الصحفي الكبير أحمد بهجت ذلك التكريس الشعري التونسي في مدح السيدة أم كلثوم، وكتب في خاتمة مقال له في صحيفة «الأهرام» في عددها

الصادر يوم 16 يونيو 1968 أسماه «الناس والشعراء وأم كلثوم في تونس» متسائلًا عن أيهما قد كسب ذلك السباق الذي شهدته تونس في التعبير عن محبة أم كلثوم، الجماهير أم الشعراء الذين ألهمتهم بغنائها؟

وقد ألقيت عدة كلمات من سيدات «الاتحاد القومي النسائي التونسي» ترحيبًا بالسيدة أم كلثوم وابتهاجًا بمناسبة تقليدها ذلك الوسام، فألقت السيدة راضية حداد رئيسة الاتحاد كلمة قصيرة تبعتها كلمة أخرى بليغة من إحدى الأديبات التونسيات خاطبت فيها السيدة أم كلثوم: «سيدتي أم كلثوم العظيمة، أقف للمرة الأولى لأحيي معجزة القدر، وهبة السماء وبرهان العبقرية السيدة أم كلثوم، لست أدري بأي لغة أستطيع الوفاء في التعبير عن أحاسيسي ومشاعري، قد تعطلت لغة الكلام ونابت عنها لغة القلوب؛ اللغة التي أضافتها «حواء» العرب الخالدة أم كلثوم. عندما نستمع إلى أم كلثوم العظيمة تنتقل بنا من العالم الأدنى إلى أسمى الملكوت، وتتركنا نسبح في آفاق اللّانهاية، ونتطلع إلى السمو الأعظم الذي أنزل جلاله على روح أم كلثوم الإنسانة، يوم أن بعثها الأزل لتحلق بالإنسان من عالم الجهل والخيال إلى عالم الحقيقة والمعرفة والنور والجمال، فنشعر بهزة التواجد حين تميل بنا باهتزازاتها الساحرة، فندخل مع تسابيحها في غيبوبة صوفية تشبه غيبوبة الصالحين، الذين تربطهم بالسماء أسلاك من طهارة وتجمعهم بالأفلاك عواطف البراءة وأواصر الإلهام، فلا نصحو إلا وقد خلقنا خلقًا جديدًا.

الكلمة العربية في حد ذاتها عريقة، عريقة في أعماقنا غير أن القداسة التي تفرغ عليها كلمة أم كلثوم تجعلنا نتساءل: هل إن الكلمة العربية هي ما عرفناه؟ أم للكلمة العربية آثارها الخاصة التي أودعها

الله صدر أم كلثوم؟ لتقيم الدليل على عظمة هذه اللغة التي بقيت شامخة؛ تعصف بغبار القرون وتتحدى كبرياء الزمن. إنّ طفرة أم كلثوم في نبرات صوتها يماثل طفرتها في القلوب، فكأنّ كل قفلة تخرج من شفتيها تسبح بأفئدة الناس في دنيا الإحساس وتذكرهم بماضيهم، فيشع بريق الأمل في أرواحهم فلا يسعهم إلّا أن يرددوا مع أم كلثوم في أجمل قصيدًا لها من بداية عهدها، «أيقظتِ في عواطفي وخيالي/ وبعثتِ مني ميت الآمال/ وأثرت نفسي بعد طول سكونها/ في حين لم يخطر هواكِ ببالي/ وحسبتني أصبحت جمرًا هامدًا/ وظننتني أحيا بقلب خالِ» [شعر أحمد رامي، لحن محمد القصبجي، سنة 1926]، بهذا لم تكن صلة الرحم بين أرواحنا وأم كلثوم جديدة، فقد عشنا معها وذُبنا في معناها، من يوم أن اكتشف الإنسان هذا الإلهام الذي نعده دليلًا على المعجزة، التي لا تزال تعمل عملها في بعث أمجاد من صنعتهم المعجزة فصنعوا المعجزات، فأغنياتكِ يا سيدتي ترن دومًا في أعماق أعماقنا، ولا تزال تتجدد مع الجديد، وتغزو دنيا العاطفة، وتغمر النفوس، تغمر النفوس عظمة وجلالة ومحبة ورقة وحنانًا، ويحق لنا أن نجد يقظة الضمير في صلوات نبرات صوت أم كلثوم، ولست بقادرة على أن أقول في هذه الهيبة الأزلية أكثر مما قاله شاعرنا اليوم:

«معنى الكلام يذيبنا فإذا انبرى/ من ثغركِ نذوب في معناكِ
فجمعتِ أشتات القلوب ومن ترى/ يقوى على جمع القلوب سواكِ؟»

وبعد انتهاء مراسم التقليد بالوسام، قدم الفنانون التونسيون مجموعة وصلات غنائية محلية أمام السيدة أم كلثوم، غنت خلالها المطربة علية التونسية (1936–1990) أغنية جديدة كتبت خِصّيصَى في السيدة أم كلثوم يقول مطلعها «بسرّك وبدلالك وبزينك»، وغنت السيدة نعمة التونسية (1934–2020) وكذلك المطرب الهادي حبوبة والمطرب

علي الرياحي (1912-1970)، وتبع ذلك عروض فنية راقصة قدمتها فرق الفنون الشعبية التونسية، وتشير صحيفة «الأهرام» الصادرة في 3 يونيو 1968 إلى أن السيدة كلثوم كان مقررًا لها أن تعود إلى القاهرة مع فرقتها ووفدها الإعلامي يوم 5 يونيو 1968 بعد أن يقلدها الرئيس التونسي وسامًا تقديرًا لمجهودها الوطني، ولكن أغلب الظن أن بعد ما رأته السيدة أم كلثوم من حفاوة الاستقبال والترحيب، قررت أن تمدّد زيارتها إلى تونس أيامًا أخرى حتى بعدما انتهى برنامجها الغنائي، لكي تلبي جميع الدعوات الرسمية والشعبية في تونس التي دعيت لها قبل أن تعود إلى القاهرة.

وتشاء الظروف أن تقضي السيدة أم كلثوم الذكرى الأولى لنكسة 5 يونيو 1967 وهي بين ربوع تونس. وتقديرًا لخصوصية ذلك اليوم، أصدرت الحكومة التونسية تعليماتها لخطباء المساجد أن تكون الخطب في ذلك الأسبوع للترحم على شهداء العدوان، الذين بذلوا دماءهم في ميادين الشرف والبطولة، وقد تصادفت الذكرى الأولى للهزيمة مع ذكرى المولد النبوي الشريف، ولهذا دعت السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة السيدة أم كلثوم إلى زيارة جامع «الزيتونة» وهو الجامع الأعظم في مدينة تونس العتيقة، والنواة التي تكونت ونمت حولها الحاضرة التونسية كما تعرف اليوم، وقد بُنيَ الجامع المعمور كما يطلق عليه في عام 698 مِيلاديًا، إذ كان ثاني جامع تعرفه الخضراء بعد جامع «القيروان الكبير» الذي شُيّد في أعقاب الفتح العربي. وبمجرد وصول السيدة أم كلثوم والسيدة الماجدة وسيلة والوفد الإعلامي إلى الجامع الكبير، دخلوا جميعًا إلى ساحاته من بابه المعروف باسم «الشفاء»، بعدما ارتدت على أعتابه السيدة أم كلثوم وحرم الرئيس «البرنوس» التونسي الشهير توقيرًا لقدسية المكان. وأمام محراب الجامع الكبير،

استقبلت السيدة أم كلثوم القِبلة ورفعت يديها وهي تنوي صلاة ركعتين تحية للمسجد، حيث سجلت الصحافة والتليفزيون العربي تلك اللقطات الروحانية في حياة السيدة أم كلثوم. وبعد أن فرغت من صلاتها استقبلها مفتي الديار التونسية محمد الفاضل بن عاشور الذي كان حاضرًا بالمسجد، وتمنى لها النجاح في كل مهماتها الوطنية النبيلة، وقد طلبت السيدة أم كلثوم إلى الشيخ مصطفى محسن إمام الصلوات الخمس بالجامع الأعظم أن يدعو لمصر بتجاوز محنتها وأن يُمهّد الله طريق النصر للعرب. وبالفعل، استجاب الإمام لطلبها وعلا دعاؤه في صحن المسجد، حيث امتزجت دعواته بدعوات أم كلثوم بدعوات كل الحضور الذين ملأوا ساحات المسجد يؤمنون خلفه بالنصر لمصر وللعرب. وقبل أن تغادر أم كلثوم ومن معها جامع «الزيتونة»، طلبت من الجميع قراءة فاتحة الكتاب على أرواح شهداء مصر، وقد سجلت الكاميرات التليفزيونية ذلك المشهد الحزين إذ بكت السيدة أم كلثوم وبكى من معها، ولاحظ الجميع دموعها وهي تناسب من تحت نظارتها السوداء بعد أن تذكرت شهداء عدوان 5 يونيو 1967 الذين لقوا ربهم في سبيل القضية العربية والوطن.

وبعد زيارة الجامع الأعظم، لبّت أم كلثوم دعوة السيدة الماجدة بورقيبة لزيارة «بيت الطفل الرضيع»، الذي أنشأته السيدة الماجدة في الستينيات بجوار دارٍ للمكفوفين ودارٍ للطالبات لمساعدة المجتمع المدني التونسي، وكانت تلك الدار في ذلك العهد تأوي الأطفال حتى سن الخمس سنوات؛ تقوم بواجبها نحوهم، وتهتم بصحتهم وتربيتهم وتعليمهم، حتى يصبحوا في مستوى يمكّنهم من الاعتماد على أنفسهم، ثم ترسلهم بعد ذلك إلى قرى متخصصة في تربية الشباب، وقد وصل عدد من تخرج في تلك الدار حتى عام 1968 ما يزيد على

470 طفلًا، وقد شاهدت السيدة أم كلثوم بعض هؤلاء الأطفال، وداعبت بعضهم في محبة وأمومة ظاهرة، لدرجة أن بعضهم قد عقد معها صداقة سريعة جعلتهم يبكون عند مغادرتها للدار.

وخلال وجود السيدة أم كلثوم في تونس، كانت قد سألت كاتب الدولة للشؤون الثقافية الوزير الشاذلي القليبي عن عمر الأسطوانة التونسية وأهم المصانع المحلية التي تطبع الأسطوانات في تونس، فكان رد الوزير أن نظم لها ووفدها المرافق جولة يوم الخميس 6 يونيو 1968 في مصنع «النغم» للأسطوانات الذي افتُتح في ذات العام في ضاحية «شوشة رَادِس» جنوب العاصمة التونسية، وقد رافقها في تلك الجولة السياسي عزوز الرباعي الذي كان يشغل آنذاك منصب مدير الشركة التونسية للتوزيع والدار التونسية للنشر، وكان في استقبالها مدير المصنع العام الناصر بن عمر، وإلى جانبه الإعلامي الهادي السفاري مدير شركة «النغم» المختصة في طبع الأسطوانات وإنتاج الأعمال الموسيقية والغنائية. وخلال زياراتها للمصنع، طلبت السيدة أم كلثوم الاستماع إلى التلاوات القرآنية التي تطبعها الشركة، فأسمعها الهادي السفاري تلاوة مباركة بصوت الشيخ علي البرّاق الذي سبق وسمعته السيدة أم كلثوم خلال زيارتها مقهى «المَرَابِط» ليلة 1 يونيو 1968، فنال إعجابها ما سمعته من تلاوة وقالت لمن حولها إنّ الشيخ البرّاق من أحسن من يجوّد القرآن الكريم برواية «قالون عن نافع» وأنّ ما سمعته يعتبر الأصلَ في رواية «قالون» التي تنتشر في المغرب العربي وتختلف عن القراءة المشرقية قليلًا.

وبعد جولة في المصنع، شاهدت فيها السيدة أم كلثوم الآلات والأسطوانات وعلمت خلالها أن المصنع كان بدأ إنتاجه الفعلي منذ أشهر بطباعة أغنية «أمل حياتي». طلب إليها مديره العام السيد

الناصر بن عمر أن توقع على بعض أغلفة الأسطوانات، حتى تخلد زيارتها إلى المصنع وتزيد من مبيعات تلك الشركة الوطنية، فلبت أم كلثوم طلبه ووقعت على غلاف إحدى الأسطوانات «زرت معمل أسطوانات النغم وسررت جِدًا بكل ما شاهدت وسمعت من حسن التسجيل والطبع، وإنّني أهنئ السيد عزوز الرباعي وجميع العاملين في هذا المصنع العظيم».

وفي صباح يوم الجمعة 7 يونيو 1968، رافقت السيدة أم كلثوم ومعها وفدها الإعلامي والي تونس حسيب بن عمار في جولة صباحية على شوارع العاصمة التونسية، بعدما طلب إليها الوالي بشكل عاجل تلك الجولة بغير ترتيب مسبق، فطافت فيها أم كلثوم على أبواب المدينة العتيقة الخمسة: باب «الخضراء»، وباب «العسل»، وباب «سعدون»، وباب «الجديد»، وباب «البحر»، وانتهت جولتها عند أحد الشوارع المؤدية إلى مبنى البلدية في العاصمة تونس، حيث توقف الوالي حسيب بن عمار وطلب من السيدة أم كلثوم أن تزيح ستار معلق على اللوحة البيانية لذلك الشارع. وبمجرد أن أزاحت السيدة أم كلثوم الستارة الحمراء، فوجئ الجميع بأن الشارع يحمل اسم «نهج أم كلثوم»، بعدما قررت العاصمة التونسية ووافق الرئيس بورقيبة على إطلاق اسم السيدة أم كلثوم على ذلك الطريق. كانت فرحة السيدة أم كلثوم لا توصف، ولمعت عدسات المصورين الذين راحوا يلتقطون لها الصور تحت لوحة شارعها الجديد، ومن يزور العاصمة التونسية اليوم، لا بد من أن يتوقف عند «نهج أم كلثوم»، وهو الشارع الموازي لشارع «الحبيب بورقيبة» والمتقاطع مع شارع «قرطاج»، والذي تفصله مسافة قصيرة عن أحد أهم الشوارع في العاصمة التونسية، شارع الزعيم «جمال عبد الناصر» الذي حمل اسمه بعد وفاته عام

1970. وبعد افتتاح «نهج أم كلثوم»، زارت أم كلثوم ومن معها مبنى البلدية وافتتحت هناك معرضًا للصور الفوتوغرافية، وقد سبق ذلك المعرض معرض آخر على المستوى الشعبي، خصص لصور السيدة أم كلثوم التي التقطت لها خلال رحلات المجهود الحربي، وقد اختير أكبر وأعرق المحلات في تونس محل «آرت زان» الواقع في شارع «باريس» ليكون مقرًا لذلك المعرض الشعبي، حيث زينت صور أم كلثوم واجهته الخارجية المطلة على الطريق، فكان التونسيون في كل صباح يحاولون جاهدين حجز موضع قدم أمام تلك الواجهة لمشاهدة الألبوم الفوتوغرافي الذي خصص لتوثيق رحلات السيدة أم كلثوم، بدءًا من رحلتها إلى دمنهور في أغسطس 1967 حتى غنائها في تونس في نهاية مايو 1968. وعندما علمت أم كلثوم بذلك المعرض الشعبي قررت الذهاب لتفاجئ الجماهير في شارع «باريس» بوجودها داخل المحل، وقد أقامت الشرطة التونسية حواجز أمنية حول المحل كي لا تحتشد الجماهير حول مكان سيدة الغناء العربي، ولكن بمجرد أن علمت الجماهير بوجود أم كلثوم، تدافعت نحو المكان وسُد شارع «باريس» وجميع الطرق المؤدية إليه، وماجت شوارع المنطقة كلها بآلاف البشر الذين سعوا لمشاهدة السيدة أم كلثوم ذاتها لا مجرد صورها المعلقة على واجهة المحل الزجاجية، وقد بقيت السيدة أم كلثوم داخل محل «آرت زان» نحو 45 دقيقة وشاهدت فيه معروضاته من مفروشات وأقمشة، ونقلت إعجابها للسيدة نائلة بن عمار التي كانت برفقتها في تلك الجولة بقفص العصافير التونسي. وطوال مدة وجود السيدة أم كلثوم في شارع «باريس» كان المرور في العاصمة التونسية قد تعطل تمامًا، وشلت حركة السيارات، ومع ازدياد ذلك الطوفان البشري حول المحل، خرجت السيدة أم كلثوم إلى شرفة

المحل لتحيي الجماهير التي ظلت تهتف بحياتها وتدعو بالنصر لمصر وشعبها وقائدها جمال عبد الناصر. وفي ذات اليوم 7 يونيو 1968، أقيم للسيدة أم كلثوم حفل غداء برعاية «الاتحاد القومي النسائي التونسي» حضرته السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة قدمت خلاله فرق الإذاعة التونسية عروضًا موسيقية، كما قدمت أمامها بعض الرقصات الشعبية والفلكلورية التونسية. وبعد انتهاء الحفل، سجلت السيدة أم كلثوم كلمة شكر في دفتر تشريفات الاتحاد، قالت فيها إنّها تشرفت بالدعوة إلى مقر الاتحاد وأثنت فيها على دوره في دعم ورفع مكانة المرأة التونسية.

وفي اليوم الأخير لتلك الرحلة التاريخية، أقام الرئيس الحبيب بورقيبة يوم 8 يونيو 1968 حفل وداع للسيدة أم كلثوم في القصر الجمهوري، حضره عدد من كبار المسؤولين التونسيين والدبلوماسيين العرب، ونظمه كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار الوزير الشاذلي القليبي. وما إن وصلت السيدة أم كلثوم إلى القصر الجمهوري في قرطاج، حتى استقبلها الرئيس في صالونه الخاص وجلس يتحدث معها عن سعادة الشعب التونسي بتلك الليالي التاريخية، وتحدثت السيدة أم كلثوم عن تونس ووصفت شعورها تجاه تلك البلاد وسعادتها بتلك الأيام الجميلة التي قضتها في ربوع الخضراء، وأهدى الرئيس الحبيب بورقيبة لأم كلثوم ألبوم صور سجل فيه كل خطوات سيدة الغناء العربي داخل تونس، وبعيدًا عن أعين الصحفيين والمراسلين الذين توافدوا على القصر لتسجيل تلك اللحظات الأخيرة للسيدة أم كلثوم في تونس. انفرد الرئيس بورقيبة بالسيدة أم كلثوم لمدة ساعة كاملة في مكتبه، إذ لم يحضر ذلك الاجتماع المغلق سوى أفراد أسرة الرئيس. ورغم أنّ أحدًا لا يدري ماذا قال الرئيس

لمطربة الشرق في تلك الجلسة السرية، فإنّ جميع الذين رافقوا السيدة أم كلثوم في ذلك اليوم أجمعوا على أنّ الرئيس بورقيبة ما إن خرج من مكتبه حتى تبدلت طبيعة لهجته السياسية، وأن حديثه عن مصر في قصر «قرطاج» في ذلك اليوم ليس هو ذاته حديثه عن مصر في الأعوام السابقة، فكان ذلك اللقاء الأخير مثل المفتاح الذي فك العلاقة العثرة بين البلدين. وللمرة الأولى منذ سنوات، تخلع العلاقة المصرية-التونسية قناع التجهم وتكشف عن ابتسامة تفاهم صادقة، فذابت ثلوج السياسة في حرارة العواطف، وتضاءلت الخلافات حتى كادت لا ترى، فشخصية واحدة فقط استطاعت أن تجعل السياسة شيئًا ثانويًّا، وأن تقيم حبل الود بين القلوب العربية، فجمعت المشاعر من المحيط للخليج في ألفة وتناغم بعدما عجز أهل السياسة عن فعل ذلك، فدور أم كلثوم في تلك الرحلات العربية كان لا يقتصر على جمع الأموال من أجل المجهود الحربي، بل كانت تسعى إلى توثيق العلاقات العربية وتدعيمها حتى تقدر مصر وشعبها على اجتياز المحنة الأليمة، ولعل ذلك المشهد الذي ذكرته الصحافة العربية عن احتفالات عيد «الشباب» في تونس أدلّ ما يؤكد ذلك الدور الذي لعبته السيدة أم كلثوم في تلك المرحلة، ففي حفلة عيد «الشباب» التي أقامها الحبيب بورقيبة، وقف رئيس الجمهورية التونسي وإلى جانبه رئيس وزراء ليبيا الذي تصادفت زيارته لتونس مع زيارة أم كلثوم، يردان تحية الجماهير. وقبل أن يرفعا أيديهما بالتحية، دعا الرئيس التونسي السيدة أم كلثوم لتقف بينهما ليرفع كل منهما يدًا من يديها في الهواء، وعندما غادرت الحفل حرص الاثنان على توديعها إلى باب سيارتها، فكانت تلك الصورة المعبرة تقول الكثير عن وحدة الفرقاء العرب في تلك اللحظة الحاسمة. ويروي الكاتب الصحفي عبد السلام داوود الذي رافق

السيدة أم كلثوم في تلك الرحلة في تحقيق له في مجلة «آخر ساعة» الصادرة في يونيو 1968، أنّه في أثناء ذهابه إلى القصر الجمهوري في ذلك اليوم قال له سائق السيارة التي تقله، والتي تتبع موكب السيدة أم كلثوم وهو يشير إلى سيارتها التي تسبقهم: «هذا كنز كبير جِدًا.. بدكوا تحافظوا عليه».

فقال له عبد السلام داوود: «بل كنزنا جميعًا».

وقد هاله أن أخرج السائق منديلًا وراح يمسح دموعه بعدما تأثر برد الكاتب عبد السلام داوود الذي أكد له أن صوت أم كلثوم هو كنز العرب الذي لا يفنى أبدًا. وفي المساء، وبعد زيارة القصر الجمهوري، كان آخر اللقاءات الرسمية مع أم كلثوم، حين أقام كاتب الدولة الشاذلي القليبي حفل عشاء وتوديع على شرفها بفندق «هيلتون». حضر الحفل معها السيدة وسيلة بورقيبة وعدد من كبار الشخصيات وزوجات الدبلوماسيين العرب ورجال الثقافة والإعلام ونجوم المجتمع، وقُدَّمت خلال الحفل عدة عروض فنية منها عرض لفرقة الفنون الشعبية التونسية، وقدّم الفنان التونسي الكبير محمد الجموسي (1910-1982) وصلة غنائية محلية غنّى خلالها أغنيته «قهواجي يدور»، وكانت السيدة أم كلثوم قد عرفت محمد الجموسي في الأربعينيات من القرن العشرين عندما استقر في القاهرة بدعوة من عميد المسرح العربي يوسف وهبي، ليمثل في عدة أفلام مصرية تحت اسم محمد التونسي، وبعدما انتهى الجموسي من غنائه داعبته السيدة أم كلثوم «هي قهوتك لسّه سُخنة يا محمد؟». كما قدم الثنائي زينة وعزيزة وصلة للرقص الشعبي التونسي، وغنى الفنان الكبير الهادي حبوبة وقدم وصلة نالت إعجاب الضيفة الكبيرة وتميزت السهرة بألوان غنائية تونسية عديدة، واختتمت الليلة بغناء المطربتين الشهيرتين علية

التونسية ونعمة التونسية. وطوال الحفل، كان الشعر وإنشاد قصائد المديح في السيدة أم كلثوم حاضرة، فقد اشترك في السهرة الشاعران أحمد اللغماني (1923-2015) ونور الدين صمود (1932-) بأربع قصائد، وتجاوبت أم كلثوم مع بعض القصائد المختارة التي ألقيت على مسمعها وخاصة «صلوات في هيكل الحب» لأبي القاسم الشابي و«عرائس الموج» لمصطفى خريف، وبدل أن تختم السهرة في الواحدة صباحًا امتدت حتى الثالثة صباحًا بعدما أصر كل فناني تونس على أن يقدموا باقات من فنونهم إلى سيدة الفن العربي.

وفي صباح يوم العودة إلى القاهرة 9 يونيو 1968، أجرت السيدة أم كلثوم حوارًا تليفزيونيًا مطولًا مع الإعلامية نجوى إبراهيم دام أكثر من 12 دقيقة، صرّحت فيه السيدة أم كلثوم عن مشروعاتها الغنائية القادمة وخطة سير رحلاتها المرتقبة لدعم المجهود الحربي، كما بعثت ببرقية شكر إلى المدير العام للإذاعة والتلفزة الوطنية التونسية، تشكر فيها جميع أعضاء أسرة الإذاعة والتلفزة والفن والموسيقى في تونس من خلال شخصه، وهذا نصها: «أعبر لكم وأنا أغادر تونس العزيزة عن عظيم شكري وامتناني لما قمتم به نحوي من عناية فائقة يعجز لساني عن التعبير عنها، وأرجو مخلصة أن يديم الله عليكم الصحة والسعادة والتوفيق».

وفي حدود الساعة الثانية من مساء يوم الأحد 9 يونيو 1968، تحرك ركب السيدة أم كلثوم من فندق «هيلتون» متجهًا إلى مطار «قرطاج» الدولي، وكان يرافق السيدة أم كلثوم في ذلك الركب السيدة نائلة بن عمار والسيد حسن سلامة القائم بأعمال السفارة المصرية في تونس، بالإضافة إلى قائمة طويلة من الفنانين التونسيين الذي أصروا على توديع كوكب العرب الذي أضاء سماء تونس لأيام عديدة. وفي مطار

«قرطاج»، وقفت السيدة أم كلثوم لآخر مرة أمام كاميرات التليفزيون التونسي بعدما طلب إليها الإعلامي خالد التلاتلي (1937-1998) أن يُجرِي معها حوارًا أخيرًا قبل مغادرتها للأراضي التونسية، حيث سألها عن انطباعاتها عن تلك الزيارة التي دامت عشرة أيام كاملة «أنا غير قادرة على التعبير عن عواطفي نحو الشعب التونسي العظيم، الذي أعطاني كل الحب وأنا الأخرى أبادله كل الحب، ولن أنسى ذلك الشعب أبدًا في حياتي، وإن شاء الله أعود إلى تونس ذات يوم لأرد بعض جميل الشعب التونسي عليّ، فأنا أحمل لتونس كل حب وكل تقدير، تونس العزيزة الحبيبة على قلبي». وعندما سألها عن رأيها في الشعر والأدب التونسي أجابت: «أقرأ عن الفن والأدب التونسي منذ زمن، ولكني استمتعت بهما أكثر وأنا هنا، وقد حملت معي دواوين الشعراء التونسيين وتحديدًا ديوان أبي القاسم الشابي، وأرجو أن أوفق إلى شيء يكون مفاجأة لتونس».

وتحت سلم الطائرة، وقفت الحشود التونسية تلوّح بمناديلها مودعة السيدة أم كلثوم، والتف الفنانون التونسيون حولها وهم يقبلونها متمنّين لها دوام الصحة والسلامة، وراجين منها العودة إلى تونس في العام القادم. وبعد دقائق قليلة، صعدت السيدة أم كلثوم سلم الطائرة ووقفت عند نهايته تلقي نظرة أخيرة على تلك البلاد التي أعطتها الحب بلا حدود، فكانت تلوح للجماهير وترسل لهم قبلاتها في الهواء، ولم يقدر فرد من تلك الجماهير على مغادرة المطار إلا بعدما طارت الطائرة في سماء تونس عائدة إلى القاهرة التي وصلت إليها في مساء ذات اليوم.

عقب عودة السيدة أم كلثوم إلى القاهرة، أجرت مجلة «الكواكب» الصادرة يوم 18 يونيو 1968 معها حوارًا عن رحلتها إلى تونس،

حاولت فيه الصحفية صفية ناصف كشف سر ذلك التجاوب الشعبي الذي ميز حفليها في قصر الرياضة بالمنزه، وكانت تلك أهم أسئلة ذلك الحوار:

• ليست هذه أول مرة أحس فيها بالتجاوب بين المستمع وبينك، فما هو تعليقك على هذا الإحساس؟

- هناك سر خلف تجاوب الجمهور مع الفنان، فوعي المستمع، وحفظه للأغنية، دليل على حب المستمع للأغنية وتجاوبه مع الفنان.

• ماذا عن انطباعك عن المرأة التونسية؟

- رأيت فيها الوعي الممتاز، فهي مثقفة ثقافة متميزة، ولها اهتمامات كثيرة، وخاصة السيدة وسيلة حرم الرئيس التونسي، إنّني لا أجد الكلمات التي تعبر عن تقديري واحترامي لهذه السيدة العظيمة.

• كيف تختارين الأغنيات التي تشدين بها؟

- اختار الكلمات التي لها هدف، وأفضّل الشعر لأنّه عظيم، وكل القصائد التي غنيتها من اختياري، ولا أفضل لحنًا على آخر إلا بمعانيه، وطبعًا كل الأغنيات التي غنيتها تعجبني وإلا ما غنيتها.

• سمعت خلال جولتك الكثير من الموسيقى التونسية، فما رأيك فيها؟

- أعجبتني جدًا، والأغنيات التونسية التي سمعتها أحببتها تمامًا، وخاصة الأغنيات الفولكلورية، فقد هزتني وانفعلت بها، وهذا ما أقوله إنصافًا للحقيقة وليس للمجاملة، ولا بد أن يحضر الفنانون التونسيون إلى القاهرة، حتى يستمع الشعب المصري إلى فنونهم.

• ما الذي يجعلك تندمجين أحيانًا في الغناء إلى حد ابتكار كلمات جديدة تزيد من روعة الأداء؟

- اندماجي مع الجمهور وإحساسي برغبته وتجاوبه مع الغناء.

• هل ستواصلين عملك من أجل المجهود الحربي؟

– *بكل تأكيد، وسوف أزور قريبًا لبنان والعراق والجزائر*[1]، *بعد أن زرت المغرب وفرنسا وتونس والكويت.*

•هل تحددين الأغنية التي ستقدمينها للجمهور قبل ظهورك على المسرح؟

– *في الحقيقة الجمهور له دخل في تحديد الأغنية، وأنا مثلًا في تونس كنت عاملة بروفات على «أنت الحب» لكن الشعب أحب «الأطلال» و«فكروني» و«بعيد عنك» و«أنت عمري» فدائمًا بنكون مستعدين لطلب الجمهور.*

•ما هي مشاريعك القادمة؟

– *لا أريد أن أقول إنّني سأعمل، بل أعمل فقط.*

• هل يمكن أن أسأل ما هو انطباعك عن تونس؟

– *أنا عاجزة عن تقديري وإعجابي بحساسية الشعب التونسي، فقد لمست سرعة التجاوب مع كل مقطع جديد من الأغنيات التي غنيتها، وتونس بلد عظيم، وأنا أشكر كل الشكر السيدة الماجدة وسيلة بورقيبة على حسن استضافتها لي في البلد الحبيب تونس.*

وفور عودة السيدة أم كلثوم إلى القاهرة، حولت جميع دخلها من

---

(1) لم يتم من تلك الرحلات الغنائية إلا رحلة لبنان في يوليو 1968، رغم ما تداولته الصحف المصرية عن رحلة مرتقبة إلى العراق، فقد كان من المقرر أن تبدأ زيارة السيدة أم كلثوم للعراق يوم 30 سبتمبر 1968، على أن تحيي حفلين في مدينة «بغداد» يومي 2 و7 أكتوبر 1968، وكانت صحيفة «الأهرام» قد نشرت في عددها الصادر يوم 8 يوليو 1968 خبرًا مفاده أن الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف قد قرر أن يهدي السيدة أم كلثوم وسام «الرافدين الرفيع» وهو أعلى الأوسمة العراقية، في أثناء زيارتها للعراق ولكن الزيارة لم تتم ربما لأسباب تنظيمية بحتة.

حفلتي تونس لصالح صندوق المجهود الحربي، وقد بلغ صافي ربح الحفلتين 100 ألف دينار تونسي، فكانت تلك الرحلة إحدى رحلات المجد التي بلغت فيها السيدة أم كلثوم قمتها الفنية والوطنية، ولم تعش تونس أجواء كرنفالية منذ فرحة النصر والاستقلال في منتصف الخمسينيات إلا عند زيارة السيدة أم كلثوم لتونس في عام 1968، فتفاعلت الجماهير والسلطة السياسية مع الحدث، واستطاعت السيدة أم كلثوم أن تغير مجرى العلاقة التي جمعت مصر بتونس في نهاية عقد الستينيات لتبدأ مرحلة جديدة هدأت فيها التصريحات المتصارعة بين البلدين، وإلى اليوم لا يزال «نهج أم كلثوم» يتوسط العاصمة تونس شاهدًا على تلك الزيارة التاريخية التي لم تتكرر، وما زالت الإذاعة التونسية تحتفي بالسيدة أم كلثوم حيث تخصص سهرة الخميس من كل أسبوع لإذاعة أغنياتها وتسجيلاتها الإذاعية النادرة، وما زالت تسجيلات «الأطلال» و«فكروني» و«أنت عمري» و«بعيد عنك» التي أخذت في تونس تحقق أعلى الإيرادات وتبث عبر الفضائيات، وتؤكد عمق العلاقة بين الجماهير التونسية وبين السيدة أم كلثوم التي حلقت في سماوات الطرب بسبب تفاعل التونسيين معها، وإلى اليوم ما زال كل من شاهد وعاصر تلك الأيام الجميلة من عام 1968 يتذكر كيف أضاءت كوكب الشرق أرض تونس وسماءها وحولتها إلى واحة تملؤها الأنوار والأنغام.

الرئيس الحبيب بورقيبة والسيدة عقيلته يستقبلان السيدة
أم كلثوم في قصر «قرطاج» الرئاسي في الضاحية الشمالية
لتونس العاصمة، يوم الجمعة 31 مايو 1968.

السيدة أم كلثوم قبل بداية حفلها الثاني بتونس، يوم 3 يونيو
1968.

السيدة أم كلثوم مع بعض معجبيها في كواليس حفل تونس الأول، ليلة 31 مايو 1968.

السيدة أم كلثوم تستمع إلى المنشدين التونسيين وعن يمينها السيدة نائلة بن عمار في مقهى «المَرَابِط» في منطقة سوق «اَلتُرْك»، مساء يوم 1 يونيو 1968.

السيدة أم كلثوم تتوسط وسيلة بن عمار زوجة الرئيس التونسي والمطربة علية التونسية، وذلك بعد تقليد السيدة أم كلثوم الصنف الأكبر من وسام «الجمهورية» في بهو فندق «هيلتون» بالعاصمة التونسية، يوم الثلاثاء 4 يونيو 1968.

السيدة أم كلثوم تزيح الستار عن اللوحة البيانية لشارعها في تونس المعروف باسم «نهج أم كلثوم»، يوم الجمعة 7 يونيو 1968.

السيدة أم كلثوم تدعو لمصر بالنصر في الذكرى الأولى للنكسة، وذلك بعد أن أدت الصلاة في جامع «الزيتونة»، يوم 5 يونيو 1968.

السيدة أم كلثوم في مدينة «الحمامات» في تونس، يونيو 1968.

زيارة السيدة أم كلثوم الأخيرة لقصر «قرطاج» الرئاسي، يوم 8 يونيو 1968.

الرئيس التونسي يجلس مع السيدة أم كلثوم في صالونه
الخاص في قصر «قرطاج» الرئاسي، يوم 8 يونيو 1968.

مصادر هذا الفصل:

1- الأهرام، القاهرة، عدد 19 فبراير 1965.

2- الأهرام، القاهرة، عدد 18 نوفمبر 1967.

3- الأهرام، القاهرة، عدد 7 مارس 1968.

4- الأهرام، القاهرة، عدد 9مايو 1968.

5- الأهرام، القاهرة، عدد 31 مايو 1968.

6- الأهرام، القاهرة، عدد 2 يونيو 1968.

7- الأهرام، القاهرة، عدد 3 يونيو 1968.

8- الأهرام، القاهرة، عدد 5 يونيو 1968.

9- الأهرام، القاهرة، عدد 10 يونيو 1968.

10- الأهرام، القاهرة، عدد 15 يونيو 1968.

11- الأهرام، القاهرة، عدد 16 يونيو 1968.

12- الأهرام، القاهرة، عدد 23 يونيو 1968.

13- الأهرام، القاهرة، عدد 7 يوليو 1968.

14- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 5 يونيو 1968.

15- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 19 يونيو 1968.

16- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 11 يونيو 1968.

17- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 18 يونيو 1968.

18- مجلة المصور، القاهرة، عدد 7 يونيو 1968.

19- مجلة المصور، القاهرة، عدد 14 يونيو 1968.

20- مجلة حواء، القاهرة، أعداد شهر يونيو 1968.

21- مجلة الإذاعة والتلفزة، المغرب، عدد يوليو 1968.

22- صحيفة العمل، تونس، عدد 1 يونيو 1968.

يوميات أم كلثوم في السودان

صباح الخميس 5 ديسمبر 1968؛ الأسبوع الثاني من شهر رمضان المبارك، موجة برد عاتية تضرب القاهرة وضواحيها، الرئيس عبد الناصر يختتم دورة المؤتمر الطارئ للاتّحاد الاشتراكي ويتحدث عن المعارك السائرة في الأردن وعن إرادة الصمود والنصر، محمود رياض (1917- 1992) وزير الخارجية في الجمهورية العربية المتحدة يعقد اجتماعين طارئين بالدكتور جونار يارنج، المبعوث الدولي إلى الشرق الأوسط، لبحث تطورات الموقف ويصرح عقب انتهاء الاجتماعين أن أزمة العرب وإسرائيل ما زالت تدور في حلقة مفرغة، زكي طليمات يؤلف أول فرقة قومية مسرحية في الكويت، وذلك على غرار الفرقة القومية التي أشرف على دعم تكوينها في مصر، السودان يستعد لزيارة أم كلثوم في نهاية الشهر الجاري، في حين أعلنت سيدات سودانيات أنّهن يُخِطْنَ لها ثوبًا سُودانيًا لترتديه في حفلتها الأولى هناك، وأخيرًا مسرح «دار سينما قصر النيل» يضيء أنواره لعودة سيدة الغناء العربي لإقامة حفلاتها الشهرية بعد انقطاع دام ثمانية عشر شهرًا بسبب حفلات المجهود الحربي، والصحف تتحدث عن لقاء القمة الفني السادس بين الهرمين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب في افتتاح الموسم الغنائي، بعدما أدت فرقة أم كلثوم الموسيقية أكثر من ثلاثين بروفة

على اللحن الجديد، كان آخرها ليلة أمس الأربعاء 4 ديسمبر 1968.

ليلة الخميس غرة جديدة لعام من الطرب الكلثومي، أهدت السماء القاهرة في نهاية ذلك اليوم مطرًا خفيفًا فغسلها وأنعشها. وبينما كان يهرول البعض هربًا من المطر، كان البعض الآخر يسرع عائدًا إلى بيته ليبلغ الراديو قبل أن تبدأ ليلة أم كلثوم، إدارة مرور القاهرة وضعت فرقة من ضباط وجنود أمام مدخل المسرح، تحسبًا لأي زحام أمام البوابات. وبينما كان البعض يقف أمام المسرح منتظرًا أن تصل سيارة أم كلثوم، كانت أم كلثوم تدخل إلى المسرح من بوابته الخلفية حتى لا يلاحظها أحد. كانت ترتدي معطفًا أسود حريري الملمس، وعلى عينيها نظارتها السوداء، وتبدو وكأنّها فقدت بعضًا من وزنها بسبب مجهودها في رحلات المجهود الحربي. وما إن دخلت المسرح حتى اطّمأنت أم كلثوم على استعدادات الفرقة، وراجعت معهم بعض المقاطع، ثم نظرت في ساعتها ونادت على مساعدتها إحسان فهرولت إليها لتحمل عنها معطفها الثقيل، ولتقدم إليها علبة خضراء صغيرة، فتحتها أم كلثوم لتلتقط منها قرطًا مَاسيًا ثبتته في أذنيها، ثم خلعت نظارتها وأجالت بصرها في المسرح قلقة، وكعادتها قررت أن تلقي نظرة سريعة من خلال فرجة في الستار على القاعة التي امتلأت وكأنّها جامعة عربية. ففي الصف الأول، جلس سيد مرعي وزير الزراعة آنذاك، وبجواره حامد محمود محافظ السويس، وأحمد رامي في مقعده المعتاد في كل حفل، وفي الصفوف التالية جماهير بلغ عددها 1800 مستمعٍ جاؤوا من البلاد العربية كافة إلى القاهرة في انتظار أن تطل عليهم سيدة القاهرة. وبعد دقائق كانت دقات المسرح التقليدية تعلن قرب رفع الستارة، لتُرفع الستارة عن أم كلثوم، وتستقبلها الجماهير بعاصفة من التصفيق. وقفت أم كلثوم ترد تحية الجماهير وخلفها ثماني سلال

من الورد نسقت جميعها على هيئة شمس ساطعة، بينما كانت أم كلثوم تتوسط تلك السلال بفستانها السكري الأنيق وكأنّها تضيء سابحة في الضوء كقطعة من الماس.

كان أول صوت يُحيّيها صوت شابة وقفت في منتصف القاعة وهتفت بأعلى صوتها: «وحشتينا.. الليلة دي مولد الست!». وابتسمت أم كلثوم وبدأت فرقتها تعزف مقدمة قصيدة «الأطلال» فاهتزت القاعة بالتصفيق مرحبة بالقصيدة الأثيرة للجماهير العربية منذ أن غنتها أم كلثوم من سنتين.

وفي الساعة الحادية عشرة والربع، دخل الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى المسرح، حيث كانت أم كلثوم ما زالت تغني مقطع «هل رأى الحب سكارى مثلنا» فتناهى إليه صوتها وابتسم وقال لمن حوله: ثومة تمدح! ويعنى أنّها تغني وكأنّها تنشد مديحًا دِينيًا.

وبعد دقائق جلس فيها عبد الوهاب في غرفة بالكواليس، سأل عن فاروق سلامة عازف آلة «الأكورديون» الذي لم يظهر مع الفرقة في الوصلة الأولى لعدم وجود دورٍ له في قصيدة «الأطلال»، وهمس عبد الوهاب في أذن فاروق الذي ذهب وعاد ومعه الأكورديون، فقد قرر الموسيقار الكبير أن يستغل الوقت ويجري معه بروفة نهائية. ولم تمضِ دقائق حتى كان التصفيق يضع السطر الأخير في وصلة أم كلثوم الأولى في تلك الليلة، لكنّ الجماهير طالبت بالإعادة فلم تجد أم كلثوم مفرًا من أن تعيد المقطع الأخير من «الأطلال» حتى ترتوي الجماهير العربية. وبعد 67 دقيقة، اختتمت أم كلثوم وصلتها الأولى، وما إن أسدل الستار عليها حتى هنأها عبد الوهاب وشد على يديها، وأحاط بالاثنين وفود المعجبين والمعجبات، بينما إنشغل الموسيقار عبد الوهاب والسيدة أم كلثوم في حوار ثلاثي مع محمد عبده صالح

قائد الفرقة الموسيقية وعازفي الكمان أحمد الحفناوي وعبد المنعم الحريري، لكن أم كلثوم قطعت الحوار وقالت: أشم نفسي ثم أعود.

وفي حجرتها الضيقة الملحقة بالمسرح، والتي كتب عليها ممنوع الدخول، زحفت إليها وفود المعجبين والمعجبات وكان أول هؤلاء المعجبين السيدة نهلة القدسي زوجة الموسيقار محمد عبد الوهاب، ومعها وفد من نساء عربيات أصررن على لقاء أم كلثوم وتقبيلها، وما إن خرج الجميع حتى تمددت أم كلثوم لتسريح من غناء الوصلة الأولى، في حين انشغل الموسيقار محمد عبد الوهاب مع الفرقة يستمع إلى كل آلة ويتيقّن من سلامة «دوزانها» الموسيقي وخصوصًا الآلات التي ستنفرد بصولهات موسيقية مثل: «الأكورديون» و«الجيتار» الكهربائي و«الناي». وبعد أن تيقّن عبد الوهاب من دوزان جميع الآلات، طلب المهندس الإذاعي وسأله: «ألا يمكن تغيير مواقع الميكروفونات؟ لإنّني أريد إبراز بعض الآلات، عندنا آلات بطلة مثل «الجيتار»، ولكن «الجيتار» تكفيه قوته الكهربائية وعندنا «الأكورديون» وأنا أريده أن يلعلع!».

وبعد ساعة إلا ربع الساعة، خرجت أم كلثوم من غرفتها وصافحت الجميع، واتجهت نحو عبد الوهاب الذي كان يقف خلف الستار ويتمتم بآيات القرآن الكريم، وبعد اجتماع سريع بين القمتين والفرقة، سحب عبد الوهاب كرسيًا وجلس بعيدًا وأكمل تمتمته بصوت غير مسموع سائلًا الله التوفيق، ومضت دقائق أخليت فيها الكواليس تمامًا واستعد المسرح لبدء الوصلة الثانية، وبينما كان الإذاعي جلال معوض يلقي عبر موجات الأثير كلمات القصيدة للمرة الأولى على مسامع ملايين العرب، بدأت الستارة تنفرج، واستقبلت الجماهير أم كلثوم بموجات من التصفيق، وبدأت الفرقة الموسيقية العزف، وعبد

الوهاب في الكواليس يهز رأسه إعجابًا في نشوة لم يطمسها القلق، وبعد أن أعادت الفرقةُ المقدمةَ الموسيقية الراقصة مرتين، بدأت أم كلثوم في غناء المذهب، وانسحب عبد الوهاب من مكانه، وخرج من المسرح لينزوي في سيارته وهو يقول للسائق: «خلي الراديو واطي.. وامشي على مهلك!».

أعادت أم كلثوم مذهب القصيدة أربع مرات، وفي كل مرة لا تكف أيدي الجماهير عن التصفيق، وكأنّها لا تشبع من ذلك الترنيم الإلهي، ومع كل مقطع يغوص صوت أم كلثوم في أعماق القلوب ويتهادى في شوارع العواصم العربية وكأنّه موكب للحب محمول على محفة للأحلام، إلى أن جاء المقطع الأخير الذي تقول فيه:

هلَّ في ليلتي خيال الندامى
والنواسي عانق الخيامَ

وهنا ارتفعت الزغاريد في القاعة، إذ قدم ذلك المقطع صورة غنائية فريدة للقاء شاعري عظيم يجمع بين عملاقين في الشعر العربي؛ أبو النواس وعمر الخيام، تمامًا مثل هذا اللقاء العظيم الذي جمع أم كلثوم وعبد الوهاب.

كان جورج جرداق (1933-2014) صاحب القصيدة يجلس بعيدًا وحيدًا يسمع ويبكي، وعندما اقترب منه مراسل صحيفة «الأهرام» وسأله عن سر دموعه أجاب في صوت خافت يملأه الرضا «لو مت الآن لما همني شيء فقد فزت بكل شيء عندما جرى شعري على شفتي أم كلثوم».

وبعد ساعة وخمسين دقيقة، ختمت أم كلثوم القصيدة وهي تقول: «فتعالَ أحبك الآن أكثر» وهنا صرخ أحد الحاضرين: «أحنا بنحبك أكتر يا ست!».

وهبط الستار وكان من المستحيل أن تفلت أم كلثوم بهذه السهولة من الجماهير التي ظلت تصفق وتهتف بحياتها حتى أعيد فتح الستار وأعادت أم كلثوم المقطع الأخير، لتستغرق القصيدة ساعتين بالتمام. وما إن أغلق الستار حتى حاول الجميع الوصول إلى أم كلثوم لتهنئتها على تلك التحفة الجديدة التي عانق فيها صوتها للمرة الأولى جبال لبنان الخضر. ونقلت مجلة «الشبكة» في عددها الصادر يوم 23 ديسمبر 1968 تعليقات السيدة أم كلثوم والموسيقار محمد عبد الوهاب على نجاح القصيدة عقب انتهاء الحفل، فتقول أم كلثوم عن القصيدة: كلامها جديد، وأنا أحب الكلام الجديد.

وعن الغناء للشعراء العرب قالت أم كلثوم: «الكلام الحلو لا وطن له، مثلما نجده على ضفاف النيل، وفي جبل لبنان، سوف نجده على ضفاف بردى وفي جزيرة العرب، وأنا أحب أن أغني لكل شاعر مُجيد»، في حين قال عبد الوهاب: «يا عيني على السهل الممتنع في قصيدة جورج جرداق!».

نجحت قصيدة «هذه ليلتي» نجاحًا مدويًا، ورغم ما طال الموسيقار محمد عبد الوهاب من بعض الانتقادات بسبب لحن القصيدة الراقص وإيقاعها النابض، فقد جاءت كصورة شعرية جديدة تفيض بالحركة والحيوية، فالقصيدة غنيّة من بدايتها بمفهوم الزمان والمكان، وقابلة للتصورات المختلفة بل المتناقضة أيضًا بين الوجودية والصوفية، نمط جديد من فنون الكلام، وعملٌ موسيقيٌّ متكاملٌ يوحي بالتجدد والتطور، إذ في كل بيت لقطة مصورة وفي كل مقطع مشهد سينمائي حي، شكل محمد عبد الوهاب لحنه على أساس الإيقاع الحر بجانب الإيقاع الموزون، كما استخدم الوقفات الموسيقية المفاجئة، مثل الوقفة اللحنية غير المتوقعة في تلحين مقطع «الهوى أنت كله

والأماني»، بالإضافة إلى اللازمات الموسيقية التي رغم أن وظيفتها الأساسية ربط المقاطع الغنائية، حولها عبد الوهاب إلى مقطوعات موسيقية متناقضة مع الخط الغنائي الذي تؤديه أم كلثوم، فبينما هذه المقطوعات الموسيقية تعكس طابع الموسيقى الغربية والسيمفونية والجاز أحيانًا، نجد الخط الغنائي لأم كلثوم يعكس الطابع المصري التقليدي في الغناء. ولدت «هذه ليلتي» في ليلة باردة في ديسمبر عام 1968، فأدفأت بها أم كلثوم قلوب ملايين العرب، وعندما استمرت تلك الموجة الباردة حتى نهاية العام تقريبًا، قرّرت أم كلثوم أن تدفئ القلوب بها مرة أخرى ولكن هذه المرة عندما غنّتها مرتين على الضفة الغربية لنهر النيل في مدينة أم درمان في السودان.

***

عند البحث عن خلفيات تلك الزيارة التاريخية التي قامت بها السيدة أم كلثوم إلى دولة السودان في نهاية ديسمبر عام 1968 من أجل دعم المجهود الحربي، نجد أن بوادر تلك الرحلة قد بدأت في التشكل قبل ذلك التاريخ بعام تقريبًا وتحديدًا في 25 نوفمبر 1967، عندما صرح وزير الإعلام السوداني عبد الماجد أبو حسبو خلال زيارته إلى القاهرة في البرنامج التليفزيوني الشهير «فنجان شاي» الذي كان تقدمه الإعلامية سامية صادق، بأنّه يبحث مع السيدة أم كلثوم إمكانية إقامة حفل في عيد الاستقلال في السودان، يذهب إيراده لصالح المجهود الحربي، على أن يكون ذلك الحفل في شهر أبريل من عام 1968. وفي نهايات مارس 1968، وعقب زيارتها الطويلة للمملكة المغربية، زار السيدة أم كلثوم في فيلّتها بالزمالك السفير السوداني في القاهرة السيد عثمان الحضري ومعه زوجته حاملًا إليها رسالة طويلة من وزير الإعلام والشؤون الاجتماعية في دولة السودان السيد عبد

الماجد أبو حسبو. كان نص الرسالة الآتي: «عزيزتي السيدة الجليلة أم كلثوم.. من الخرطوم وباسم الشعب السوداني العربي، أحيي في شخصك الكريم الحبيب الثورة الوطنية الفنية الكبرى في الأسرة العربية، والتي حملتِ مشعلها في أحلك الظروف وقدتِ الطريق حتى أرسيتِ بوطنيتك وحماستك وشجاعتك قاعدة النضال بالنغمة الحلوة واللحن العذب والصوت الجميل القوي، فجعلتِ من الفن رسالة ترسخ مفاهيم العروبة والوطنية واسترداد الحق المسلوب في الوطن العربي. ولقد كان لصولاتك وجولاتك في هذا الميدان أثر لا حدود له في نفوس الشعوب العربية، وفي مقدمتها الشعب السوداني الذي يفخر بك ويعتز ويتطلع إليكِ لمواصلة كفاحه في دعم القضية العربية منذ يونيو، ذلك الكفاح الذي بلغ في بلادنا قمة الجهاد، وذلك عن إيمان لا يتزعزع بأن إزالة آثار العدوان لم تعد مسؤولية الدولة وحدها ولكنها في السودان مسؤولية ضخمة يشكل فيها الشعب قاعدة قوية ومتينة تقف عليها الدولة وترتكز.

ومن أجل هذا تحدثت مع زميلي الدكتور ثروت عكاشة ونقلت إليه رغبة السودان، حكومة وشعبًا، في زيارتك لبلادنا ضمن جولتك الميمونة في العالم العربي بدعم المجهود الحربي، ولقد سرنا قبولك الدعوة في أبريل ولكن تأكيدًا بذلك لم يصلنا حتى الآن، وإذا سمحت فإنّني أنصح بأن شهر أبريل قد لا يكون مناسبًا لأنّه فصل بداية الحر، ولو أنّه قد لا يكون شديدًا ولكن حرصنا على شخص غال مثلك جعلني أوجه انتباهك إلى هذه الحقيقة، وفي رأيي أن الفترة من نوفمبر 1968 إلى يناير 1969 قد تكون أنسب.

ولا يفوتني أن أقر أن أبريل ليس سيئًا للحد الذي ذكرته غير أني في الوقت نفسه أترك لشخصك الكريم ولزميلي السيد ثروت عكاشة

وسفيرنا في القاهرة تحديد الزمن الذي ترين، أما المكان فهو المسرح القومي وهو أعظم وأكبر مسرح مفتوح في أفريقيا، والتسهيلات اللازمة ستتوفر بأكمل صورة حتى يستمتع شعبنا بوجود شخصك المحبوب بيننا. مع تقديري وشكري الفائق لكِ.[1]

المخلص

عبد الماجد أبو حسبو

وزير الإعلام والشؤون الاجتماعية»

تأثرت السيدة أم كلثوم بمضمون الرسالة، خصوصًا وأن الشعب السوداني قد أبدى تعاطفًا كبيرًا تجاه القضية المصرية عقب عدوان 1967، بل إنّه شارك المصريين في تظاهرات رفض التنحي يومي 9 و10 يونيو، وعندما زار عبد الناصر السودان لحضور قمة الخرطوم بعد شهرين من الهزيمة في أغسطس 1967، كانت حفاوة الاستقبال تقول الكثير؛ بمجرد أن هبطت طائرة عبد الناصر في مطار الخرطوم، اقتحمت الجماهير السودانية كل الحواجز، وتخطت كل رجال الأمن وهي تهتف بحياة عبد الناصر، مطالبة بالثأر من إسرائيل وتحرير الأرض. دفعت كل تلك المشاهد في تحريك إتمام تلك الزيارة الهامة وتوكيد رغبة أم كلثوم في زيارة السودان، وبعد مشاورات ثلاثية جمعت أم كلثوم بالوزير ثروت عكاشة وسفير السودان في القاهرة السيد عثمان الحضري تم الاتفاق على ميعاد الزيارة في نهايات ديسمبر وتحديدًا ليلتي 26 و30 ديسمبر من العام ذاته، وهو ما جعل السيدة أم كلثوم تعتذر عن عدم إحياء حفلين كانا مقررًا أن تقيمهما في

---

(1) نشر نص تلك الرسالة للمرة الأولى في مقال للكاتب الصحفي رجاء النقاش في مجلة الكواكب بتاريخ 21 يناير 1969، وأعاد رجاء النقاش نشرها في كتابه «لغز أم كلثوم»، الصادر عن دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي عام 2004

العاصمتين الفرنسية والبريطانية في نهايات شهر نوفمبر 1968، إذ سبق لها واتفقت على الغناء للمرة الثانية في مسرح «الأولمبيا» في باريس ثم السفر من باريس إلى العاصمة البريطانية للغناء في قاعة «ألبرت هول» التاريخية، وقد طلبت السيدة أم كلثوم من متعهدي الحفلتين تأجيلهما لخريف عام 1969، حتى يتسنى لها الغناء في السودان في نهاية ذلك العام. وبمجرد أن أبرق السفير السوداني إلى الوزير عبد الماجد أبو حسبو في السودان بتفاصيل الاتفاق، جاء الوزير ذاته إلى القاهرة في زيارة خاطفة من أجل زيارة أم كلثوم في منزلها لتأكيد الدعوة وتكرارها ورسم ملامح الزيارة النهائية. وتمهيدًا لتلك الرحلة، زارها في منتصف شهر سبتمبر 1968 مدير الإذاعة السودانية في بيتها الهادئ المطل على النيل، وسجل معها خمسة عشرة دقيقة إذاعية، تحدثت فيها أم كلثوم إلى الشعب السوداني، ووجهت إليه رسالة احترام وتقدير لموقفه المشرف والمساند لمصر في أثناء الأزمة، وقالت إن الشعب السوداني قد تصرف مع مصر طبقًا لقول الشاعر العربي القديم:

بعيد عنك ما استغنيت عنه/ وطلاّع إليك مع الخطوبِ

وقالت إنّ هذا هو الوفاء الحقيقي، وعن الغناء في المسرح أو الإذاعة وأيهما تفضل قالت إنّها تفضل الغناء على المسرح لوجود الجمهور، وسئلت هل يغضبها الجمهور الصاخب؟ فقالت إن الجمهور الصاخب والصامت يرضيانها لأنّ كل شخص يعبر عن نفسه بطريقته الخاصة، وسألها مدير الإذاعة عن الارتجال والتصرف اللحني في الأغنية، وكيف أنّها الوحيدة التي تمتاز بذلك، فقالت إنّ هذا هو حسن ظن بها.

وفي نهاية الحديث، قال مدير الإذاعة السودانية إنّه يشكر لأم كلثوم جميلها الذي طوقت به عنق إذاعة السودان، وإنّ الشعب السوداني

بجميع طبقاته ينتظر الليلة التي تغني فيها أم كلثوم على ضفاف النيل في الخرطوم.

في تمام الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء 24 ديسمبر 1968، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار القاهرة الدولي ومعها فرقتها الموسيقية المكونة من 25 عازفًا والوفد الإعلامي والتليفزيوني المرافق لها والمكلف بتغطية تلك الرحلة إعلاميًا، وعلى رأسهم: المذيعة سهير الإتربي (1939-2014) لتغطية الرحلة تليفزيونيًا، والإعلامية سامية صادق لتغطية الرحلة إذاعيًا، والدكتور محمد المعتصم مدير ركن السودان في إذاعة القاهرة، والكاتب رجاء النقاش (1934-2008) مندوبًا عن مؤسسة «دار الهلال». وقد استقبلتها في المطار سيدات الجالية السودانية في القاهرة ليرحبن بها في السودان ويتمنين لها رحلة موفقة، وما إن وصلت أم كلثوم إلى المطار حتى تلقت إدارته برقية من وزير الموصلات السوداني يحيى الفضلي يعتذر فيها عن عدم استطاعة العاصمة السودانية استقبال أم كلثوم في ذلك اليوم بالصورة التي يريدها السودان حكومة وشعبًا، وذلك بسبب مظاهر الحداد التي تملأ مطار الخرطوم، لوفاة زوجة سفير السودان في مدينة طوكيو ووصول جثمانها في نفس الموعد المقرر فيه وصول السيدة أم كلثوم، وقد تدخل سفير السودان في القاهرة معتذرًا عن ذلك الظرف الطارئ، وخيَّر أم كلثوم التي تفهمت الوضع بين السفر إلى الخرطوم في مساء اليوم ذاته أو صباح اليوم التالي، فاختارت السيدة أم كلثوم الخيار الأخير. وفي صباح اليوم التالي، كان مطار القاهرة يستعد لتوديع أم كلثوم والوفد المرافق لها، حيث وقف في توديعها السفير السوداني في القاهرة عبد الكريم ميرغني ومستشار السفارة ياسين جبلي وسيدات السفارة والسودانيون المقيمون بالقاهرة وقدموا

لها باقات الورود، وعندما دخلت أم كلثوم صالة «الترانزيت» أذيعت أحدث أغنياتها قصيدة «هذه ليلتي» من إذاعة المطار الداخلية، وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأربعاء 25 ديسمبر 1968، كانت السيدة أم كلثوم والوفد المرافق لها يصعدون جميعًا سلم إحدى الطائرات التابعة للخطوط الجوية السودانية، متوجهين إلى العاصمة الخرطوم.

وبدأت مظاهر الحفاوة السودانية تظهر منذ أن صعدت السيدة أم كلثوم الطائرة، فقد زين طاقمها جدران الطائرة بصور كبيرة لها، ووضعوا لها في كل ركن من أركانها باقة وردٍ بيضاء، وصعدت معها إلى الطائرة ثلاث سيدات سودانيات من قرينات أعضاء السفارة السودانية في القاهرة حتى أوصلنها إلى مقعدها، وكذلك رافقها السيد تاج السر إبراهيم طه مدير الدعاية والإعلام والسيد الطيب حسن المدير الإقليمي للخطوط الجوية السودانية في الجمهورية العربية المتحدة، وما إن بدأت الرحلة وأقلعت الطائرة حتى بعث محمد الأمير رئيس مجلس إدارة الخطوط الجوية السودانية ببرقية باسمه واسم كل العاملين في الشركة يرحب فيها بالسيدة أم كلثوم ويتمنى لها في ختام برقيّته رحلة طيبة للسودان «إننا نرحب بشعب الجمهورية العربية المتحدة ممثلًا في شخصك»، وبعد أن دخلت الطائرة المجال الجوي السوداني، وعلى ارتفاع 30 ألف قدم، وصلت رسالة الترحيب الثانية التي بعثتها الحكومة السودانية للسيدة أم كلثوم «أنتِ هدية الله لشعبنا المجيد ولشعب العرب، والنبتة الصالحة من أرض مصر الطيبة، وسيظل صوتكِ خالدًا خلود نيلنا العظيم، وسيظل معبّرًا عن وجداننا وعن بلادنا في سلامها وحربها، جعلكِ الله دائمًا وأبدًا رسالة السلام وهمسة الحب وإشراقه الرخاء».

وطوال الطريق إلى السودان، كانت أم كلثوم مشغولة بدراسة

ذلك الشعب الذي تواجهه للمرة الأولى في حياتها. ويروي الكاتب الصحفي يوسف الشريف ذكرياته عن تلك الرحلة، فقد كان مرافقًا لأم كلثوم في تلك الزيارة بعدما رشحه الكاتب رجاء النقاش لها لتبحُّره في الشأن السوداني، فيقول في كتابه «السودان وأهل السودان»: «قلت لها ونحن في طريقنا جوًا إلى الخرطوم إنّ أهل السودان لا يحبون أغنيات الهجر والصد والفراق، ولا يطيقون الاستسلام طويلًا للأحزان والنكد والخصام، لأنّهم يعشقون المرح والغناء والرقص وأفراح الحب ونشوة اللقاء، وقلت للسيدة أم كلثوم كذلك إنّ أهلنا في السودان ينتشون طربًا للغناء، وغالبًا ما يمارسون أسلوب «الشيل»، أي ترديد الغناء والتصفيق وراء المطرب، وإنّ وجدانهم مزيج بين العربية والأفريقية». ذلك التباين في الصفات السَمَعِية بين الشعب السوداني والشعب المصري كان الدافع وراء تخوف الوزير عبد الماجد أبو حسبو من احتمالية عدم التجاوب الشعبي مع أم كلثوم؛ فللشعب السوداني خصوصية في الغناء والموسيقى المحلية، كما لكل شعب عربي آخر، مع فارق واحد في هذا المجال، هو أنّ الغناء المحلي والموسيقى المحلية في كل بلد عربي ينهضان في أكثر الأحوال على المقامات العربية، أما الغناء والموسيقى السودانيان فلهما وضع فني خاص، يجعلهما أقرب إلى الموسيقى الصينية والموسيقى الهندية مختلطين بالموسيقى الأفريقية، ومعنى ذلك أن الموسيقى السودانية المحلية هي موسيقى شرقية، بالمعنى الشامل، وأما الموسيقى السودانية الحضارية فهي موسيقى عربية. وهكذا يقوم ازدواج غنائي موسيقي في السودان، فالسلم الموسيقي الخماسي ينتشر في بعض البلاد الأفريقية والآسيوية، ويمكن أن نسمع في السودان موسيقى وغناء ينتميان إلى السلم الموسيقي الهندي الذي ينقسم إلى اثنين

وعشرين قسمًا، ولا تخلو بعض المناطق السودانية من ألحان أفريقية تنتمي إلى غرب أفريقيا كغانا ونيجيريا والكاميرون، ورغم أن الموسيقى والغناء السوداني تتعدد مصادرهما فأنّهما يدوران في حلقة صغيرة من المساحة الصوتية، ويستخدمان آلات موسيقية قليلة العدد والإمكانيات، وعادة ما تكون الأغنية السودانية قصيرة وسريعة وتخلو من التطريب الشرقي الذي هو السمة الأساسية لغناء السيدة أم كلثوم، كما أنّه شعب ساكن على خلاف فن أم كلثوم، الذي رغم ما يحمله من أصالة فأنّه يتمتع بالحرية والإشراق، لكن ذلك التخوف سرعان ما تبدد بعدما نفدت تذاكر الحفل قبل وصول أم كلثوم إلى السودان بأسبوعين تقريبًا، وهو ما كان إشارة إلى حفاوة شعبية مرتقبة لأم كلثوم في العاصمة السودانية.

وفي الساعة الثالثة عصرًا، هبطت الطائرة في مطار الخرطوم الدولي، الذي ملأته الحشود الشعبية التي جاءت من أنحاء السودان كافة، بالإضافة إلى ممثلي الطوائف والنقابات والهيئات السودانية ورجال السفارة المصرية في الخرطوم. وما إن فُتح باب الطائرة حتى صعد إليها وزير الإعلام عبد الماجد أبو حسبو وهو يحمل باقة كبيرة من الورود، وبرفقته السيد إبراهيم خليل وكيل وزارة الإعلام وبعض أعضاء الوفد السوداني المكلف من قبل الحكومة بمرافقة أم كلثوم طوال رحلتها، وما إن ظهرت أم كلثوم على باب الطائرة حتى علا التصفيق والزغاريد في شرفات المطار وتداخلت هتافات الحشود التي تجمعت تحت سلم الطائرة، مرددين هتافات: «أهلا بك في بلادكِ»، و«تحيا ثومة»، و«صوتك سلاح» في إشارة إلى دور أم كلثوم القومي عقب هزيمة 1967، في حين وقفت مجموعة أخرى وقد رفعت بعض اللافتات التي كُتبت عليها عبارات الترحيب الحارة كان

أجملها لافتة كتب عليها بالخط العريض «أهلا برُسل الفن». وبعد ساعة تقريبًا قضتها أم كلثوم في مطار الخرطوم، استطاعت أن تشق طريقها بصعوبة شديدة وسط الحشود المجتمعة حولها خارج المطار، لتبدأ أولى محطات الزيارة الرسمية.

كانت أولى محطات أم كلثوم في السودان هي زيارة القصر الجمهوري في الخرطوم، وهو قصر عريق أنشئ في نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، وكان شاهدًا على العديد من الأحداث التاريخية التي مر بها السودان، بدايةً من مقتل الحاكم «تشارلز جوردون» حاكم السودان البريطاني على أيدي أنصار الثورة المهدية عام 1885، وانتهاءً بالاستقلال وإنزال علم الحكم الثنائي المصري-البريطاني في يناير 1956. كان يرافقها في تلك الجولة وزير الإعلام عبد الماجد ابو حسبو، والدكتور كمال الدين خليل سفير مصر في السودان، الذي وقف يشرح لها الأهمية التاريخية لذلك القصر، ومشت أم كلثوم في الممرات الداخلية وشاهدت الأسلحة القديمة التي وزعت على جدران القصر، والتي تحكي قصة الغزاة الذين تعاقبوا على السودان طوال قرونٍ عدة، كما زارت قاعة الاجتماعات الكبرى التي شهدت مؤتمر القمة الأول عقب عدوان 5 يونيو 1967. وبمجرد انتهائها من تلك الجولة الداخلية، توافدت عليها سيدات القصر الجمهوري وعلى رأسهن ابنة الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري، واللاتي رافقن أم كلثوم في جولة خارجية في حديقة القصر، ومن ثم في زيارة الضفة الجنوبية لنهر النيل حيث يطل القصر على منظر فريد لملتقى النيلين الأبيض والأزرق. وفي نهاية تلك الجولة، سجلت أم كلثوم تحية رقيقة في دفتر الزيارات تشكر فيها شعب السودان وحكومته على حفاوة الاستقبال. وعقب انتهاء زيارتها للقصر الجمهوري، توجهت

أم كلثوم برفقة السفير كمال الدين خليل إلى مبنى السفارة المصرية في الخرطوم، حيث كان في استقبالها جميع أعضاء السلك الدبلوماسي المصري في السودان، الذين رافقوها لزيارة مكتب إذاعة ركن السودان في الخرطوم وإستديوهاته، وقد شرح لها الدكتور محمد المعتصم مدير إذاعة ركن السودان بالقاهرة المهمة التي يقوم بها المكتب. وعند خروجها من مبنى السفارة، وقفت أم كلثوم بجوار تمثال الرئيس عبد الناصر ووقعت في دفتر الزيارات الخاص بالسفارة المصرية، ثم توجهت إلى بيت الضيافة الذي خصصته الحكومة السودانية مقرًا لها طوال رحلتها الفنية في السودان.

كان قصر الضيافة في العاصمة الخرطوم يقع في شارع الجامعة أحد بيوت الضيافة الرسمية الكبرى في العاصمة السودانية. وفي أغسطس 1967، وتزامنًا مع مؤتمر القمة الأول بعد النكسة، أُعيد تطوير المبنى حتى يستوعب الوفود التي زارت السودان ضمن فعاليات القمة العربية، وتقديرًا لطبيعة الدور الذي بدأته أم كلثوم بعد الهزيمة، أصر الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري (1900-1969) أن تنزل أم كلثوم في بيت الضيافة، الذي كان يضم آنذاك أربع غرف للنوم وصالتين للاستقبال، بالإضافة إلى غرفتي مكتب وقاعات كبرى للطعام. وذكرت مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 8 يناير 1969 أنّ السيدة أم كلثوم بمجرد وصولها إلى قصر الضيافة، وبعد أن قُرأ عليها البرنامج الذي أعد لزيارتها، وجدتْ أن يومًا كاملًا خصص لقيامها برحلة نيلية تزور فيها منطقة «جبل الأولياء» على ظهر باخرة خاصة، فاعترضت وطالبت بإلغاء تلك الرحلة المقترحة، وعندما سئلت عن السبب، قالت أم كلثوم ببساطة «جئت إلى هنا لألتقي الشعبَ السوداني وأعيش معه كل يوم وكل ساعة طوال فترة وجودي هنا، وسأُحرم في

اليوم المخصص للرحلة من السعادة التي أشعر بها عندما التقي الناسَ في بلادكم.. أريد أن أعيش الحياة السودانية بكل ما فيها من عادات وتقاليد، وفنّ وأدب وطعام!».

وفي مساء يوم وصولها، قرر الرئيس ومعه أعضاء مجلس السيادة السوداني زيارة السيدة أم كلثوم في قصر الضيافة، حاملين لها بعضَ الهدايا التذكارية. وفي حديقة قصر الضيافة التي تزيد مساحتها على فدان، وعلى نغمات الموسيقى السودانية، وقفت السيدة أم كلثوم تستقبل الرئيس السوداني ووفده المرافق. وتنقل مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 1 يناير 1969 تفاصيل ذلك اللقاء الأول بين السلطة السياسية في السودان وبين السيدة أم كلثوم؛ صافح الرئيس الأزهري السيدة أم كلثوم وقال لها: «شرفتِ السودان يا ثومة»، ثم بدأ أعضاء مجلس السيادة يقدمون لها الهدايا التذكارية. وحين قدّم الرئيس الأزهري هديته للسيدة أم كلثوم، التي كانت عبارة عن جلد ثعبان نادر يبلغ طوله سبعة أمتار، تعجبت السيدة أم كلثوم من جمال تلك الهدية، فسألت الرئيس: «من الذي استطاع صيد هذا الثعبان الضخم؟»، وعندما قدم لها رئيس مجلس السيادة السوداني الهدية التالية، وكانت عبارة عن ثمانية تماثيل لوحيد القرن مثبتة فوق قاعدة من الأبنوس الأسود على شكل تمساح، سألت: «لماذا اخترتم وحيد القرن رمزًا للسودان؟»، فأجابها الرئيس الأزهري: «اخترناه لقدرته ولقوته، ولأنّ أرض السودان تنفرد بوجود وحيد القرن دون سائر القارة الأفريقية». وقد رافق الرئيس وأعضاء مجلس السيادة سيدات المجتمع السوداني اللواتي وصل عددهن إلى ما يقرب من 600 سيدة من مختلف الجمعيات والهيئات النسائية السودانية، جئن من جميع أنحاء السودان لتحية السيدة أم كلثوم، التي ردت لهم التحية: «أتمنى

أن نغني معًا أغنية السلام في أحضان النصر». وعندما سألت أم كلثوم الرئيس الأزهري عن رئيس الوزراء السوداني محمد المحجوب، أخبرها بأنّه في العاصمة الإنجليزية لندن في رحلة علاجية، فقرّرت أم كلثوم أن ترسل إليه برقية تتمنى له فيها الشفاء العاجل. وقبل أن يغادر الرئيس السوداني قصر الضيافة، قال للسيدة أم كلثوم مصافحًا: «أتركك الآن لشعب السودان الذي ينتظر لقاءك بلهفة وشوق!».

وفي صباح يوم الخميس 26 ديسمبر 1968، كان السودان يستعد لليلة اللقاء الأولى مع أم كلثوم، وكان نبض المدينة حَيًا ووجها مضيئًا وسماؤها صافية وجوها منعشًا لا يخلو من نسمات خفيفة باردة. تصدرت أخبار وصول أم كلثوم إلى السودان الصحف السودانية، وتكدست الصحف بكلمات الترحيب وعبارات المديح للسيدة التي تقاتل بصوتها، فقال أحد الكُتاب السودانيين: «رغم أن أم كلثوم لم تُغن بعد لفلسطين، فإنّها ارتبطت بالقضية بشكل أعمق، ووجهت كل فنها نحو خدمة النصر. صوتها يولد فينا الإحساس بجراح فلسطين وأحزان القدس. كلماتها عن الحب تتحول إلى أمل يدفئ المقاتلين. لهذا السبب نستقبلك بالشوق الحقيقي يا أم كلثوم»، وبالإضافة إلى عبارات المديح في الصحف السودانية، بدأ توزيع أول كتاب سوداني يصدر عنها وهو كتاب «أم كلثوم موحدة العرب» للكاتب السوداني حسن الطاهر زروق. وفي الوقت ذاته، كان العمال في المسرح القومي ينهون التغيرات الشاملة التي قررت الحكومة السودانية إجراءها تزامنًا مع زيارة أم كلثوم، فقد هُدم المسرح وأعيد بناؤه من جديد بعد إضافة 2000 مقعد ليصبح مجمل عدد المقاعد 7000 تقريبًا حتى يستوعب المسرح الجمهور الكلثومي، في حين وقف عمال التليفزيون يضبطون الكاميرات والإضاءة والصوت استعدادًا لنقل الحفل على

الهواء مباشرة في التليفزيون السوداني. وقد حاولت الإذاعة المصرية تكثيف جهودها ونقل الحفل على الهواء، لكن تبين من التجارب التي أجرتها الإذاعة تعذّرُ إذاعة ذلك بالدرجة المطلوبة من نقاء الصوت، ما جعل عبد الحميد الحديدي رئيس هيئة الإذاعة المصرية يطلب تسجيل الحفل الأول في إستديوهات الإذاعة مع إجراء الاختبارات لتنقية الصوت وتحديد أحسن الموجات لنقل الحفل الثاني على الهواء من القاهرة، وهو ما تعذر أيضًا على الإذاعة نقله، وربما ذلك ما يفسر فقدان التسجيلات الصوتية في الإذاعة المصرية لحفلة السودان الأولى حتى الآن.

وطوال الطريق الذي يمر فوق النيلين الأبيض والأزرق، ويربط قصر الضيافة بالمسرح القومي، كانت أم كلثوم لا ترى إلا مظاهر الترحيب بها؛ لافتات كتبها أشهر فناني مدينة الخرطوم يرحبون فيها بالضيفة الكبيرة، وصور لها من كل جولاتها التي قامت بها بعد عدوان 1967، ولكنّ أجمل ما شاهدته أم كلثوم والوفد المرافق لها وهم في طريقهم إلى المسرح، هي تلك اللوحة الكبيرة التي وضعتها بلدية الخرطوم وقد صورت فيها أم كلثوم وخلفها جنود مصرية تقاتل على الجبهة وهي ترفع علم الجمهورية العربية المتحدة. وصلت أم كلثوم إلى المسرح وهى ترتدي معطفها الأسود الشهير ونظارتها السوداء، ونزلت من سيارتها لتسير في وسط طريق غطيت أرضه وجانباه بمئات من باقات الورود. وكانت إدارة المسرح قد بنت حجرة للاستراحة خِصّيصَى للسيدة أم كلثوم خلف المسرح، وتعمدت طلاء جدران الغرفة باللون الأزرق رمزًا لوحدة وادي النيل. ورغم بُعد هذه الحجرة عن قاعة المسرح والحراسة المشددة التي وضعت أمامها، أصبحت هدفًا يسعى إليه كل مستمع في أثناء الاستراحة بين الوصلتين. وفي

تمام الساعة الثامنة والنصف، غادرت أم كلثوم حجرتها لتصعد خشبة المسرح وتطمئن كعادتها على دقة جميع الآلات الموسيقية. وبعد دقائق، حضر الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري ومعه أعضاء مجلس السيادة السوداني ونائب رئيس الوزراء علي عبد الرحمن والوزراء وزوجاتهم والنواب ورجال الأحزاب السياسية في السودان، وما إن امتلأ المسرح المكشوف بسبعة آلاف سوداني حتى استعد الطاقم التليفزيوني وثبّتَ الكاميرات على ستارة المسرح القرمزية، التي ما إن بدأت في التحرك، حتى فوجئ الجميع بالسيدة أم كلثوم على المسرح وهى ترتدي الزي الوطني التقليدي للسيدات في السودان مجاملة لأهل السودان ونسائه، فضج المسرح بالتصفيق والتهليل وصيحات الإعجاب والهتاف بحياة ثومة، التي جاملت السودان وأهله كما جاملت من قبل المغرب بالفعل ذاته في مارس من نفس العام.

غنّت أم كلثوم في وصلتها الأولى قصيدة «الأطلال» للمرة العشرين، وبعد أن انتهت الوصلة الأولى وأسدل الستار، عادت أم كلثوم إلى حجرتها وتبعها المئات لمصافحتها وتحيتها من قرب، في حين احتشد الآلاف خارج الغرفة وخارج أبواب المسرح وهم يحيونها أيضًا بقلوبهم ويستمعون إلى صوتها وإلى الوصف التفصيلي لما يحدث في المسرح عبر موجات الأثير وشاشة التليفزيون السوداني التي نقلت الحفل. وفي الوصلة الثانية غنت السيدة أم كلثوم قصيدة «هذه ليلتي» للمرة الثانية بعد أن أطلقتها في ذلك الشهر، واستعاد الجمهور كل جزء من القصيدة أربع مرات. وبعد إسدال الستار، ارتفع هدير المعجبين وأزيح الستار لتخرج أم كلثوم لتحيي الجمهور مرتين. كانت كل لفتة من يديها وكل آهة من صوتها في الوصلتين كفيلة بإشعال الوجد في وجدان المستمع السوداني. ورغم موجة الهواء البارد التي هبت وأم

كلثوم تغني وصلتها الثانية، لم يشعر أو يهتم أحد من الحاضرين الذين جلسوا في قاعة المسرح المكشوفة بهذه الموجة، فكان صوت أم كلثوم في تلك الليلة أكثر حرارة من كل شيء!

والتسجيل المرئي لخاتمة قصيدة «الأطلال»، وهو المقطع الوحيد المتوافر لتلك الوصلة، يكشف لنا حجم التفاعل بين غناء أم كلثوم والجمهور السوداني، ذلك الجمهور الذي حرك فيه صفاء صوت أم كلثوم كل ساكن، فرقص بعضه منتشيًا بجلال اللحظة، ودق بعضه الأرض بقدميه محاكيًا الإيقاع، في حين صرخ البعض الآخر من فرط التجاوب، فكانت الحفلة الأولى أشبه بمقام الوجد في بحار الصوفية، تلك الحالة التي تبلورت مع نهاية قصيدة «الأطلال»، تحديدًا حينما تعمّد عازفو الإيقاع النقر بوضوح على الدفوف لمداعبة الروح الموسيقية السودانية التي تعتمد بالكلية على تلك الآلات الإيقاعية.

وفي عدد «مجلة المصور» الصادر في 17 يناير 1969، سجل رجاء النقاش في مقال له بعنوان: «أم كلثوم والمثقفون»[1] بعض ما شاهده مع أم كلثوم في رحلة السودان عام 1968. ذكر النقاش أنّه عندما نظر إلى الآلاف الذين حضروا مهرجان أم كلثوم في السودان، ورأى حرارة الترحيب السوداني بأم كلثوم، تساءل عن تفسير كل هذا الحب والإعجاب بل والقداسة التي يكنها الشعب العربي لأم كلثوم، والتي تجعلها ظاهرة شاملة متجاوزة لكل الحدود المصطنعة التي تفصل بلدان العالم العربي بعضها عن البعض، ذلك التساؤل الذي دفعه لطرحه على بعض من حضروا حفلتي أم كلثوم في السودان من كتاب وشعراء ومفكرين بعضهم عربي والبعض الآخر من خارج العالم

(1) أعاد الكاتب الصحافي رجاء النقاش نشر ذلك المقال ضمن كتابه «لغز أم كلثوم» الصادر عن دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي عام 2004.

العربي، فأجابه الشاعر السوداني محمد المهدي المجذوب «أم كلثوم في نظري مثل ديوان الشاعر أحمد شوقي، فديوان شوقي يحظى بنوع من الإجماع الفني والأدبي، وسيظل باقيًا في أذهان العرب، ونحن نعود إليه إذا أردنا أن نعود إلى جوهر العلاقة الأصيلة بين المواطنين العرب في كل مكان... نجحت أم كلثوم في السودان نجاحًا كبيرًا، وهزت جماهيرنا هزة وجدانية عنيفة، وذلك على عكس ما كان البعض يتصوره، وفي ظني أن السبب الأكبر في ذلك، بالإضافة إلى فنها العظيم، هو أنّها مست الإحساس العربي عند السودانيين مسًا مباشرًا، بنطقها العربي السليم، وباختيارها القصائد العربية الممتازة، وبأدائها المرتبط في أصوله بتجويد القرآن. زيارة أم كلثوم رفعت بلا مبالغة من شأن الثقافة العربية في السودان، فالاحتفال بها كان مهرجانًا للثقافة العربية، وهذا ولا شك سيكون له أكبر الأثر في السودان حتى على الناطقين بغير اللغة العربية.».

كان المستشرق الإنجليزي «دينيس جونسون ديفيز» (Denys Johnson، Davies)[1] شاهدًا على حجم التفاعل بين أم كلثوم والسودانيين وأثاره ذلك التناغم العجيب بين المطربة الكبيرة والشعب العربي، وعندما سأله رجاء النقاش عن رأيه أجابه «إنّ أم كلثوم بفنها تكشف عن حيوية غريبة في الشعب العربي، فالمفروض أنكم شعب مهزوم، والهزيمة دائمًا تقترن باليأس، ولكني في حفلات أم كلثوم

---

(1) دينيس جونسون ديفيز (1922-2017) مترجم بريطاني، عاش حياته متنقلاً بين القاهرة والسودان، وهو أحد أهم المترجمين الذين قدموا الأدب العربي إلى القارئ الغربي، وقد وصل ما ترجمه من الأدب العربي إلى أكثر من ثلاثين مجلدًا احتوت الكثير من الإبداعات القصصية والروائية العربية، وقد وصف كل من نجيب محفوظ وإدوارد سعيد دنيس جونسون بأنّه رائد الترجمة من العربية إلى الإنجليزية.

أرى شعبًا آخر مليئًا بالحيوية والانفعال والحرارة، بعيدًا عن اليأس.. إن شعبًا يغني للحب وهو يعيش في جو المعركة، لا يمكن أن يكون شعبًا ضعيفًا غير قادر على الحياة، بل هو شعب حي متفتح القلب، ومثل هذا الشعب يستطيع أن يواجه أعداءه بقوة!» إلّا أنّ «ديفيز» قد أبدى تساؤلًا عن تلك الحرارة المفرطة التي يبديها الشعب العربي تجاه غناء السيدة أم كلثوم، وذلك التفاعل العصبي الذي قد يصل إلى حد التشنج أحيانًا عندما يطرب المستمع العربي ويصل إلى حالة التوحد مع غنائها، فقال لصديقه رجاء النقاش: «أنا أحس بجمال صوت أم كلثوم وروعته، لكنني في الحقيقة أجد نفسي عندما أحضر حفلاتها أمام سؤال: لماذا الإعجاب بهذه الطريقة العنيفة المنفعلة غير العادية؟ لماذا يصيب الشباب كل هذا الاضطراب العصبي والنفسي عندما يستمعون إليها؟ هذا ما أحتاج إلى تفسير له. هي طريقة متوترة، وتبدو أحيانًا غير فنية وغير سليمة»، وقد دفع هذا التساؤل الاستشراقيُّ الكاتبَ اللبنانيَّ أمين الأعور (1925–2006) الذي كان حاضرًا الحفل إلى الإجابة عن سؤال ديفيز «سر هذا الإعجاب الكبير العنيف هو في موضعه، وله ما يبرره ويفسره، فصوتها يمثل قمة حلقة التراث الكلاسيكي العربي الغنائي، هي وحدها تمثل التراث الغنائي العربي في أنقى صوره وأجملها، هي وحدها سيدة الغناء العربي بتقاليده اللامعة». ويوجد تفسير آخر يمكن اعتباره إجابة عن سؤال المستشرق ديفيز وهو أن غناء أم كلثوم يرتبط بتلك الطبيعة الإسلامية المتعلقة تحديدًا بالإنشاد الصوفي، تلك الطبيعة التي تُدخل البعض في دوامات النشوة والفناء كليًا في لحظات الصفاء، وتفقد المستمع صوابه أحيانًا وتجعله يعبر عن وجده غير المحدود بأفعال عصبية محدودة مثل حركة اليد أو الرقص والصراخ، أو ربما هي الدافع ذاته لتجعل شاب

يرتمي تحت قدميها لتقبيلها من فرط الإعجاب والنشوة مثلما حدث في حفلة باريس في نوفمبر 1967، وهو ما تكرر في استراحة الحفلة الأولى في السودان حين فوجئ الجميع بشاب يدفع الحاضرين أمامه ويشق لنفسه طريقًا حتى وصل إلى أم كلثوم، التي ظنت أنّه يريد توقيعًا منها، ولكن الجميع دهش عندما ارتمى الشاب تحت قدمي أم كلثوم وراح يقبلهما، وانحنت أم كلثوم تقول «أستغفر الله.. أستغفر الله!»، ثم رفعت الشاب بيديها وسلمت عليه وأجلسته بجوارها وقدمت له صورتها وكتبت تحتها إهداء، وروى الشاب بعد ذلك حكايته لها فقال إنّه أقسم بالطلاق أن يقبل قدميها وقد بر بقسمه وحقق أمنيته، وكانت أم كلثوم تكرر والشاب يحكي قصته: «أستغفر الله.. أستغفر الله!».

سهر السودانيون مع أم كلثوم حتى مطلع فجر يوم الجمعة 27 ديسمبر 1968. وفي صبيحة الحفل الأول، زارت أم كلثوم والوفد الإعلامي المجلس البلدي في الخرطوم، الذي يضم أبرز الشخصيات الاجتماعية السودانية، وبمجرد وصولها تلقت تلغرافًا من جمعية «اللواء الأبيض» وهي جمعية نشأت في السودان عام 1924 لغرض وحدة وادي النيل وتعميق العلاقات المصرية السودانية، كان التلغراف عبارة عن قصيدة مديح كتبها شاعر سوداني يدعى حسب الله ملاسي يقول في مطلعها:

«إن كان يعرب جد العُرَبِ أنتِ لنا/ أم العروبة طاب الأصل والنسبُ
غنيتِ للشعبِ والسودان يطربه/ ذكر الكنانة قولٌ إننا عربُ».

وبعد زيارة المجلس البلدي، زارت أم كلثوم أحدث مدرسة في السودان «مدرسة السيدة أم كلثوم للبنات» التي قررت وزارة التربية والتعليم تغيير اسمها من «مدرسة الخرطوم للبنات» إلى «مدرسة السيدة أم كلثوم للبنات» تكريمًا لأم كلثوم، حيث قابلت هَيئة التدريس

والبنات وتبرعت بألف جنيه للمدرسة وتمنت أن تتبرع بأكثر من ذلك لولا الهدف النبيل الذي خرجت من أجله. وفي المساء، استقبلها السفير المصري كمال الدين خليل في منزله، حيث أقام حفلة استقبال كبرى على شرف أم كلثوم، دعا إليها معظم أعضاء السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي في الخرطوم، بالإضافة إلى مجموعة من الشخصيات العامة في السودان. وما إن وصلت أم كلثوم حتى التف الجميع حولها وخصوصًا سيدات السفارة المصرية، اللاتي انبهرن بأناقة أم كلثوم ولباقتها وقدرتها على التواصل مع جميع الطبقات الاجتماعية والوفود الدبلوماسية، ولم يتمالك كثير من أعضاء البعثة المصرية المرافقة لأم كلثوم أنفسهم من مقاومة البكاء عندما تكلم وزير الإعلام السوداني وحاول أن يعبر عن فرحته بحفل الأمس 26 ديسمبر حين قال: «إن مدلول هذا اللقاء التاريخي أيتها السيدة الجليلة هو رمز حي من رموز نضالنا في السودان، وقد منح فنك مشاعرنا معنى جميلًا وبعيدًا، قوامه النبل والعاطفة الإنسانية وكسر حواجز السن والطبقة في سبيل وحدة العرب». وفي نهاية الحفل، عبّر أحد شعراء السودان عن أهمية تلك الزيارة «لا شك أن رحلة أم كلثوم إلى السودان، هي رحلة في صميم السياسة لتوحيد كلمة العرب، ونحن الرواد الأوائل لوحدة العروبة تهزنا هذه الرحلة، فباسم العروبة والسودان، يرحب بك الشعر، عاش السودان وعاشت العروبة».

وفي يوم 29 ديسمبر 1968، بدأت أم كلثوم جولتها الصباحية بصحبة وزير الإعلام السوداني، ومعها وفدها المصري المرافق، والوفد السوداني الذي خصصته الحكومة لها والذي كان يضم عددًا كبيرًا من الشخصيات السودانية منهم. محافظ الخرطوم، ومدير وزارة الاستعلامات السودانية، ومدير الشؤون العربية بوزارة الخارجية

وبعض الكتاب والصحفيين السودانيين، فاستهلوا برنامج اليوم بزيارة معرض للصور الفوتوغرافية أقامه المصور المصري فاروق إبراهيم في إحدى قاعات فندق «السودان» في قلب العاصمة الخرطوم، حيث ضم المعرض 80 صورة فوتوغرافية لأم كلثوم من مختلف جولاتها لصالح المجهود الحربي. كانت كل صورة من صور المعرض مثلَ لوحة عظيمة تجسد قدر الانفعالات المختلفة لأم كلثوم وهي تغني، بعد أن ترجمت عدسة فاروق إبراهيم كل حركة لأم كلثوم وكل انفعال لها على المسرح، وكل لحظة طرب عاشها الجمهور العربي في تلك الحفلات.

ومع غروب شمس ذات اليوم، وصلت أم كلثوم إلى «النادي العربي الرياضي» في الخرطوم لتحضر حفل الجاليات العربية في السودان تكريما لها، وقد ضم ذلك الحفل تقريبًا كل الجنسيات العربية العاملة والمقيمة في السودان، وكان بعضهم قد جاء من مختلف الدول العربية خِصّيصَى ليحضر حفلتي السيدة أم كلثوم في الخرطوم. وعندما لم يتمكن من الحصول على تذاكر قرر حضور حفل الجاليات العربية عوضًا عن حضور الحفلتين. وفي ذلك الحفل، وقف الشاعر السوداني الشهير محي الدين فارس وأنشد قصيدة رقيقة في محبة أم كلثوم قال فيها:

«هبة الشرق أنتِ بل قلبه/النابض كم ذاب رقة ووفاء
أنتِ والنيل توأمان تفيضين/غناء وذاك قد فاض ماء»

ورغم أن أم كلثوم كان من عادتها يوم حفلتها أن تستريح تمامًا ولا تجهد نفسها بعمل أو بحركة، فإنّها في صباح يوم الحفل الثاني؛ الاثنين 30 ديسمبر 1968استقبلت عددًا من الوفود النسائية السودانية في قصر الضيافة، وجلست تتبادل معهم أطراف الحديث وهي تتابع

عملية إعداد القهوة السودانية المشهورة والمعروفة في السودان باسم «الجَبَنة». وبعد أن شربت معهم القهوة، غيرت ملابسها وجلست تقرأ عددًا من قصائد شعراء سودانيين كان قد رشحهم لها وزير الإعلام السوداني، وقد استمرت هذه اللقاءات النسائية حتى الثالثة من عصر ذلك اليوم. وعلى مائدة الغداء كان معها وزير الإعلام عبد الماجد أبو حسبو الذي طلب إليها وبشكل شخصي أن تعيد غناء قصيدة «هذه ليلتي» مرة أخرى في حفلها الثاني بِناءً على مئات الطلبات التي تلقاها الوزير وكانت ترجوه أن يقنع أم كلثوم بإعادة غناء القصيدة، وهو فعلا ما حققته أم كلثوم حين أعادت غناء «هذه ليلتي» في وصلتها الثانية في ذلك الحفل فكانت مسك الختام في لقائها مع الجمهور السوداني. وبعدما فرغت أم كلثوم من تناول وجبة الغداء، ذهبت لزيارة مستشفى الولادة بالخرطوم، وذلك بعد أن علمت أن عددًا من الأمهات قد سمين بناتهن باسم أم كلثوم تيمنًا بها. وفي مستشفى الولادة، مرت على 14 طفلة سُمِّيت بأم كلثوم، حيث كانت تمسك كل طفلة وتقرأ الفاتحة ثم تقبلها بعد ذلك في جبينها وتدعو الله لها أن يعطيها السعادة والصحة ويملأ حياتها بالخير. وبعد أن انتهت جولتها السريعة تلك، عادت إلى قصر الضيافة لتستعد للّيلة الثانية المرتقبة. ومع اقتراب ميعاد الحفل كانت شوارع الخرطوم تخف من الحركة تدريجيًا، ولا تشهد العاصمة السودانية زحامًا إلا أمام محلات بيع أجهزة التليفزيون التي أقبل الناس على شرائها إقبالًا كبيرًا، وبلغ ما بيع منها في أسبوع وجود أم كلثوم في السودان ما يساوي الكميات المباعة خلال عام كامل. وقد تصادفت زيارة رئيس جمهورية بلغاريا «تريكوف» (Georgi Traykov) وبرفقته وفد بلغاري كبير للعاصمة السودانية مع يوم الحفلة الثانية لأم كلثوم في الخرطوم، وهو ما جعل الرئيس الأزهري يقرر دعوة الرئيس البلغاري

لحفلة السيدة أم كلثوم التي تعتبر رمزًا للفن العربي، فاشترى الرئيس الأزهري أربعين تذكرة لضيوفه من البلغار الذي يزورون السودان ومرافقيهم من أعضاء السفارة البلغارية، وقد ذهل الرئيس تريكوف من حجم الاستقبال الكبير الذي أعده السودان لأم كلثوم، وعندما علم بالهدف النبيل الذي خرجت من أجله وحدّثه الرئيس الأزهري عن جولات السيدة أم كلثوم الفنية من أجل دعم المجهود الحربي، قرّر تريكوف شراء تذكرة في الحفل ودفع ألف جنيه من جيبه الخاص ثمنًا لهذه التذكرة تقديرًا منه لذلك الدور الوطني لأم كلثوم.

غنت أم كلثوم في الوصلة الأولى «فات الميعاد» للمرة الأخيرة في حياتها المسرحية، فأعادت المذهب ثلاث مرات. وفي نهاية المقطع الأول، تملكتها السلطنة فغنت «إن كان على الحب القديم وأساه» بارتجال سريع، فكان ذلك الارتجال سابقة لم تحدث قبل ذلك، وهو الذي شجعها أن ترتجل في المقطع التالي للأغنية «الليل ودقة الساعات تصحي الليل» إذ أدت مطلع ذلك المقطع بسلطنة كبيرة. وعند الإعادة الثانية، عادت إلى الارتجال الطويل، وهو ما جعل مدة تلك الوصلة تتجاوز الثمانين دقيقة تقريبًا.

وفي الاستراحة ما بين الوصلتين، استقبلت أم كلثوم الوزراء السودانيين الذين جاؤوا لتحيتها. وبينما هي تتحدث معهم، فوجئت بالوفد السوداني المرافق لها يدخل عليها بكعكة عيد ميلادها السبعين[1] بعدما علموا أن الليلة 30 ديسمبر هي ليلة ميلادها. ورغم

---

(1) هناك خلاف كبير على تاريخ ميلاد السيدة أم كلثوم؛ فرغم أن شهادة ميلادها تحمل تاريخ 4 مايو 1904، فإن هناك شبه إجماع على أنّها من مواليد 30ديسمبر 1898، ويرى المؤرخ الكبير فكتور سحاب في كتابه المهم «السبعة الكبار في الموسيقى العربية المعاصرة» أنّه إذا صح أن ولادة السيدة أم كلثوم قد صادفت

محاولات أم كلثوم التكتم على ذلك التاريخ، فإنّ الوفد السوداني قد علم بتاريخ ميلادها من برقية تهنئة وصلت إليها من الرئيس إسماعيل الأزهري تلتها برقية أخرى من وزير الإعلام السوداني عبد الماجد أبو حسبو. ولأنَّ وقت الاستراحة كان لا يسمح بالاحتفال، قرّرت أم كلثوم ووفدها السوداني تأجيل الاحتفال إلى ما بعد الحفل عند العودة إلى قصر الضيافة. وما إن رفع الستار عن أم كلثوم في الوصلة الثانية وبدأت الفرقة في العزف حتى صاحت الجماهير السودانية وعلت صيحاتهم بعدما علموا أن أم كلثوم قد لبت رغبتهم وأعادت تقديم قصيدة «هذه ليلتي» للمرة الثانية. كانت الجماهير في غاية السعادة، وحرّكتهم تلك المقاطع الراقصة في القصيدة، لدرجة أن المستمعين في الدرجة الثالثة كانت تهتز أجسامهم طربًا ونشوة ورقصًا، وقد حاولت أم كلثوم أن «تسودن» قصيدة «هذه ليلتي» وأن تخضعها تمامًا للمزاج السوداني من حيث طريقة الأداء والغناء، وتحديدًا غناؤها للمقطع الأخير من القصيدة، فعندما وصلت أم كلثوم إلى مقطع «وليكن ليلنا طويلًا/ فكثير اللقاء كان قليلًا»، انتهز الجمهور هذه الفرصة التي تتيحها الكلمات وصاح أحد الحضور «للصبح يا ست!».

وأعادت أم كلثوم المقطع مرات ومرات وفي كل مرة لا يكف الجمهور عن طلب الاستزادة، فلم تجد أم كلثوم بُدًا في النهاية من أن تتوقف وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة وأشارت بيديها وكأنّها تخاطب الجمهور بما معناه «وبعدين؟!»، فألهبت تلك الحركة

ليلة القدر في السابع والعشرين من شهر رمضان وآخر السنة الميلادية معًا، كما يؤكد رواة سيرتها الأقدمين، فإن السنة التي كاد يتفق فيها هذان اليومان هي سنة 1902، إذ صادف آخر السنة الميلادية التاسع والعشرين من شهر رمضان لعام 1320 هجريًا.

الجماهير الذين ردوا على معنى سؤالها بنفس الإجابة التي لم تتغير إذ صاحوا مرة أخرى «للصبح يا ست يا كريمة!».

وقد بدا غناء أم كلثوم للمقطع الأخير في ذلك الحفل وكأنّه ترتيلٌ دينيّ، لدرجة أن وزير الإعلام شوهد وهو يبكي عند غناء أم كلثوم «سهر الشوق في العيون الجميلة/ حلم آثر الهوى أن يطيله». يقول الوزير عبد الماجد أبو حسبو لرجاء النقاش واصفًا حاله عند سماع ذلك المقطع: «كنت أحس إنّني في حالة عبادة وأنا أسمع أم كلثوم تغني هذا البيت، وقد نقلت لي أم كلثوم هذا المعنى فقالت لي إنّها تعتبر أداءها لهذا البيت نوعًا من الترتيل وقد أدته أم كلثوم أداء رائعًا»، وربما ذلك الشعور ذاته هو الذي دفع شابًا بأن يتخطى كل صفوف الجالسين في المسرح، لدرجة أنّه مر من قلب الجزء الذي كان يجلس فيه أعضاء مجلس السيادة وقفز إلى المسرح وأمسك يد أم كلثوم وراح يقبلها، فتحركت قوات الأمن تجاه المسرح وأمسكت بالشاب الذي ظل يردد: «افعلوا بي ما تشاؤون بعد أن قبلت يد كوكب الشرق!».

وقد ظل ذلك الشاب يقبّل يده بعد ذلك لأنّها اليد التي صافح بها أم كلثوم. وما إن تركته قوات الأمن حتى هجم عليه أصدقاؤه يقبلون يده، تلك اليد التي لامست يد معبودة الشرق.

ومن بين كل مظاهر الحفاوة التي قوبلت بها أم كلثوم في السودان، تظل هناك ظاهرة هي الأكثر إثارة وتفرد طوال حياة أم كلثوم الفنية، حيث عبر مجموعة من السودانيين عن مشاعر وجدهم واندماجهم مع الغناء في الحفلة الثانية بطريقة غريبة، فصلّى بعض هؤلاء داخل المسرح في أثناء غناء أم كلثوم، وقد أربك ذلك التصرف البعض واستغربته أم كلثوم ذاتها، ولكن عندما انتهى هؤلاء من صلاتهم، قالوا أنّهم فعلوا ذلك تحت تأثير العاطفة الحارة التي ملأت صدورهم أثناء

غناء أم كلثوم، فقد كانت صلاتهم تلك صلاة شكرٍ لله الذي منحهم تلك اللحظة التاريخية ووهبهم ذلك الصوت الإلهي.

ورغم تجاوز الساعة الثانية صباحًا، فقد ظل الجمهور السوداني متشبثًا بغناء أم كلثوم. فبعد أن أسدل الستار مرة، ظلت صيحات الجماهير لا تنقطع مطالبين بعودة ثومة للغناء، فعادت لتعيد غناء المقطع الأخير في القصيدة، وبعد ثلاث دقائق أسدل الستار الأخير في حفلتي أم كلثوم في السودان، بعدما أدت قصيدة «هذه ليلتي» في ثلاث وسبعين دقيقة تقريبًا. وبعد انتهاء الحفل، رافق أم كلثوم الوفد السوداني إلى مقر إقامتها في قصر الضيافة حيث احتفل الجميع هناك بعيد ميلادها حتى الرابعة صباحًا.

وطوال زيارتها للسودان لاحظ المرافقون لها من الوفد السوداني أن أم كلثوم مشغولة البال بالسياسة وأخبارها، تتابع كل ما يكتب وكل ما يقال في الشأن العام، فتقول الكاتبة السودانية خديجة صفوت في مقال نشر لها في مجلة «الكواكب» في عدد 21 يناير 1969 «وأم كلثوم كانت تتكلم في السياسة باستمرار، والسياسة عندها هي الوطنية وهي القضية العربية، وهي ضرورة النصر على المستعمرين والتخلص من الاحتلال الصهيوني، إن هذه القضية تشغلها ليلًا ونهارًا، وهي تفكر فيها وتتحدث عنها دائمًا. وكانت تقرأ الصحف اليومية السودانية باستمرار وتعلق على ما فيها من أخبار ومقالات وفي حديث لها ذات مرة تناولت موضوع البترول في السودان، وكان من رأيها أن السودان لا بد أن يكون مليئًا بالبترول ولا بد أن يكون للبترول الذي ظهر في السعودية على الشاطئ الآخر للبحر الأحمر وجود في السودان، ولكن الاستعمار دائمًا ما يخفي المعلومات الحقيقية عن الشعوب، فهناك ما يمكن أن تسميه «كهنوت البترول» حيث يحتكر الاستعماريون

الأسرار البترولية حتى لا تتعرف عليها أصحاب المصلحة من شعوب العالم المختلفة، ولذلك كثيرًا ما كانت أم كلثوم تدعو إلى أن يهتم العرب اهتمامًا كاملًا وواسعًا بالثقافة البترولية».

كانت تلك الثقافة العامة الواسعة عند السيدة أم كلثوم مثار إعجاب الكاتبة السودانية خديجة صفوت، التي لم تكتفِ بمقالها في مجلة «الكواكب» حول ذلك الموضوع، بل صرّحت للصحفي محمد تبارك محرر مجلة «آخر ساعة» في 8 يناير 1969 «إن فنانتكم أو فنانتنا جميعًا مثال للمرأة المثقفة بمعنى الكلمة، ثقافتها متعددة الجوانب، تتحدث في السياسة والأدب بعمق وفهم تمامًا كما تتحدث في الفن، ورغم أنّها أم كلثوم، فإن تواضعها الشديد يثير الغرابة، في كل مناسبة تتحدث عن القرية التي عاشت فيها وخرجت منها، وتبتسم وهي تقول لنا: «أنتم نسيتم إن أنا فلاحة!»».

ورغم انتهاء الرحلة فنيًا يوم الحفل الثاني 30 ديسمبر فإن الفرح بوجود أم كلثوم في السودان امتد يومين آخرين، لم تتوانَ فيهما السيدة أم كلثوم عن القيام بجولاتها في العاصمة الخرطوم، ففي عصر يوم 31 ديسمبر 1968 حضرت أم كلثوم حفل نقابة الفنانين السودانيين الذي أقيم تكريمًا لها، وقد زينت جدران النقابة بصورها، ووقف نقيب الفنانين وأعضاء النقابة على البوابة يستقبلونها مع فرقتها الموسيقية، وكانت فرصة مناسبة لفناني السودان لتقديم موروثهم الفني أمام سيدة الغناء العربي، فقد قدم عدد من فناني السودان مجموعة من العروض الفنية، وشاهدت أم كلثوم عددًا من الرقصات الشعبية السودانية، التي أشرف على إعدادها الخبير الروسي «موسييف»، الذي تصرف في هذه الرقصات في حدود ضيقة تتصل بالأزياء وبوضع قواعد ثابتة لهذه الرقصات، كما استمعت أم كلثوم إلى أشهر مطربي السودان

عبد الرحمن الكابلي الذي تغنَّي أمامها بقصيدة «أراك عصي الدمع» التي أعاد تلحينها مرة أخرى بعيدًا عن لحني عبده الحامولي ورياض السنباطي[1]، وقد تمايلت أم كلثوم طربًا مع غناء الكابلي ومع القصيدة التي عاشت معها لأكثر من نصف قرن من الزمان، وكانت شهادتها له مثلَ شهادة بإعجابها بالفن السوداني، كما استمعت إلى الفنان محمد وردي الذي كان قد انتدبته نقابة الفنانين في السودان مرافقًا للسيدة أم كلثوم طوال رحلتها في الخرطوم، وعندما سألت أم كلثوم عن المطربة السودانية عائشة الفلاتية (1922، 1974) التي تعتبر أحد أعمدة الغناء السوداني، إذ اشتهرت بدورها الوطني في التوجيه المعنوي للجنود بجبهات القتال في شرق أفريقيا وشمالها أثناء الحرب العالمية الثانية، قيل لها أنّها تُعالج في أحد مستشفيات السودان من مضاعفات مرض «السكري»، أبدت أم كلثوم رغبة صادقة في زيارتها، ولكن عندما علمت أن الأطباء منعوا عنها الزيارة، اكتفت بإرسال باقة كبيرة لها من الورد وكلمة رقيقة تتمنى لها فيها الشفاء العاجل. وفي نهاية الحفل قدم الفنانون نموذجًا مصغرًا لآلة «السمسمية» هدية للسيدة أم كلثوم صنعت خِصّيصَى لها من العاج الخالص، وقبل أن تغادر أم كلثوم الحفل التف جميع فناني السودان حولها ليلتقطوا معها صورة تذكارية توثق تلك الزيارة التاريخية. وفي المساء حضرت أم كلثوم حفل عشاء أقامه لها الشيخ علي عبد الرحمن نائب رئيس الوزراء وحضره جميع الوزراء السودانيين.

وفي يومها الأخير في السودان الأربعاء 1 يناير 1969 دعيت أم

---

(1) هناك لحن ثالث تغنت به أم كلثوم لهذه القصيدة، وهو لحن الشيخ زكريا أحمد، وقد قدمته أم كلثوم في الأربعينيات (6 مارس 1941) ويعتبر ذلك اللحن حتى يومنا هذا من مفقودات أم كلثوم.

كلثوم إلى حفل الهيئات النسائية في مدينة الخرطوم، تلك الهيئات التي عرفت بخلافاتها الشهيرة وتمزقها الحزبي طوال عقد الستينيات، فلم يجمع تلك الهيئات المبعثرة إلا حضور السيدة أم كلثوم، وفي بداية الحفل استمعت أم كلثوم إلى الكلمة التي ألقتها زعيمة الهيئات النسائية «نحن لا نحتفل بأم كلثوم كسيدة فقط ولا كفنانة جسدت الحضارة العربية والتراث الفني، وإنما نحتفل بها لأنّها نموذج حي للمرأة العربية المناضلة التي جعلت من فنها سلاحًا في يد الشعب، إن سيدة الغناء أم كلثوم وهي تجمع حولها قلوب هذه الملايين تستحق بجدارة أن تُلقّب بموحدة العرب»، فردت أم كلثوم على تحيتها بأنّها تحلم أن تغني لهم في يوم النصر، كما دعت أم كلثوم الهيئات النسائية إلى التوحد والقيام بعمل عربي نسائي مشترك لبيع المعروضات الشعبية في المطارات العربية من أجل توفير العملة الصعبة، وفي نهاية الحفل قدمت لها الهيئات النسائية تمثالاً من عاج وحيد القرن الأبيض الذي يعتبر رمزًا للسودان. وفي مساء اليوم ذاته دعاها الوزير عبد الماجد أبو حسبو إلى حضور إحدى مظاهر الثقافة السودانية، وتحديدًا ثقافة الأفراح الشعبية، فحضرت أم كلثوم ليلة فرح سوداني لعروس تسمى علوية وهى حفيدة السيد الميرغني زعيم الطريقة الصوفية «الختمية» في السودان، وعند دخولها إلى الفرح ذبح أهل العروس خروفًا تحت قدميها ترحيبًا بها، لكن أم كلثوم لم تحتمل مشهد الذبح وغطت عينيها، وبعد أن هنأت أم كلثوم العروسين، جلست تسمع الغناء الشعبي السوداني، ثم دعتها العروس لمشاهدة جهازها، فدخلت معها إلى بيتها وشاهدت حجرة النوم وأثاثها، ورقصت العروس لأم كلثوم رقصة «الحمامة» وهى رقصة شعبية رشيقة، ترقصها العروس وهى مغمضة العنينين ومعتمدة فيها كليًا على حركة رقبتها، بينما يقف العريس ممسكًا في يديه

بسيف وكرباج رمزًا للفروسية العربية القديمة، وتسمى تلك الرقصة «الحمامة» لأنّها دعوة إلى الطاعة والحياة الهادئة للعروسين. وعندما جاء موعد «النقوط» رفضت أم كلثوم تمامًا التنازل عن المشاركة فيه، وفتحت حقيبة يدها وأخرجت كل ما كان فيها، وقبل أن تغادر ثومة الفرح هنأت جميع أفراد الأسرة بالعرس وقبلت العروس، ثم سلمتها الهدية التي أحضرتها لها معها، وكانت الهدية عبارة عن علبة أنيقة جدًا من الجلد الطبيعي.

وقبل العودة إلى القاهرة، دخلت السيدة أم كلثوم مبنى الإذاعة والتليفزيون السوداني لتجري مقابلة تليفزيونية قصيرة أدارها الإعلامي علي شمو والذي كان يشغل آنذاك منصب المدير العام في الإذاعة والتليفزيون في السودان، وذلك بعد أن اختاره الوزير عبد الماجد أبو حسبو للقيام بهذه المهمة الإعلامية. وقد أخرج ذلك اللقاء تليفزيونيًا المخرج السوداني فاروق سليمان، وكعادتها تدخلت أم كلثوم في الأسئلة وفي تحديد زمن الحوار، فلم يتجاوز زمن اللقاء إحدى عشرة دقيقة حاول فيها الإعلامي علي شمو أن يخرج من أم كلثوم بعضًا من رؤيتها في مجالات مختلفة، منها: المجهود الحربي، الفن، الأدب، المرأة السودانية. وكانت هذه أهم الأسئلة والإجابات التي قالتها أم كلثوم في تليفزيون السودان:

• **قمتِ برحلات طويلة إلى البلاد العربية والأوروبية من أجل المجهود الحربي، متى وكيف بدأت فكرة التجوال الطويل هذه؟ وكم من الأقطار زرتها حتى الآن؟ وما هي الأقطار التي ستزورينها بعد ذلك؟**

- نشأت الفكرة أساسًا بعد العدوان. كان لزامًا عليَّ وعلى كل مواطن أن يقوم بدوره نحو وطنه، وقد قمت ببعض الواجب عليَّ نحو وطني ولا أظن إنّني قمت بالكثير، إنّه شيء قليل على قدر طاقتي.

• والآن بمناسبة رحلتك إلى السودان في إطار زياراتك للبلاد العربية المختلفة أحب أن تقدمي لي من وجهة نظرك، مقارنة بين المستمع والمشاهد في السودان الذي التقيتيه للمرة الأولى وبين الآخر من المستمعين العرب في البلاد العربية بشكل عام وفي الجمهورية العربية بصفة خاصة؟

- أؤكد لك أنّه لا يوجد فرق. إنّ المشاعر والأحاسيس التي التقيت بها في البلاد العربية متقاربة جدًا وتكاد تكون واحدة، إنّها دائمًا نفس العادات والتقاليد وطرق الاستماع التي أعيش بينها في القاهرة، إنّني أشعر يقينًا وأنا في أي بلد عربي إنّني في القاهرة بين الشعب المصري وهذا دليل يقطع بوحدة الشعب العربي وتماسكه من أقدم العصور.

• يعرف عنك المواطنون في السودان رهافة الحس والتذوق الرفيع للأدب والفن، من أجل هذا نشأ اهتمامهم بطريقة اختيارك للأغنيات التي تقدمينها، هل يتم هذا باختيارك المحض باعتبارك سيدة الغناء العربي؟ أو بعون من أحد تختارينه ليشترك معك في تقرير الأغنيات التي تقدمينها؟

- أولًا أشكر الشعب السوداني الكريم على حسن ظنه بي، أما الأغنيات التي أقدمها على تباينها الكبير سواء كانت للخيام مثلًا أو من الشعر المتطور لواحد مثل محمد إقبال أو لشاعر مثل شوقي أو لغيرهم، فأنا اللي أختارها بنفسي.

• يمكن للإنسان أن يلاحظ في اختيارك لأغنياتك شيئًا، وهو أنك قدمت أشعارًا لشعراء يعتبر كل منهم في عداد الخالدين كما أنك قدمت أشعارًا أخرى لشعراء معاصرين، فغنيت مثلًا للخيام وأبي فراس الحمداني ولشوقي وهذه الأغنيات دخلت تاريخ الأغنية العربية، فهل كان اختيار هذه الأغنيات بوحي خاص أو عن طريق الصدفة أثناء

القراءة والاطلاع؟ وهل حاولت في هذه الأغنيات أن تقدمي مسحة تاريخية تبدأ منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث؟

- هذا سؤال أحب أن أرد عليه ببعض التحفظ، إن الأغنيات التي قدمتها للخيام وتلك التي قدمتها لشوقي وخاصة الدينيات مثل «ولد الهدى» و«إلى عرفات الله» وجدت من يعارض تقديمها، ولكنني بدأت وقدمت «سلوا قلبي» ثم الوطنيات وكان هذا بدافع من إحساسي بالوضع في هذه الأيام، وكان اعتراض الأصدقاء على تقديم الدينيات مثل «نهج البردة» وغيرها يقوم على دعوى تقول إن الناس تريد الغناء من أجل المتعة فكيف ستحقق لهم النشوة التي يطلبونها من خلال الأغنيات الدينية، ولكنني كنت أومن بالفكرة التي طغت على مشاعري ولم تتركني لأي تأثير آخر، كنت أريد أن أقدم الدينيات لأضع فيها روحي وقلبي، وقدمتها وكانت والحمد لله نقطة تحول في الأغنية العربية نحو الاتجاه الديني وتقديم الكلمات العظيمة التي أبدعها شوقي، وهذا برأيي واجب من أهم واجبات الفنان، أن يرفع بمعانيه وكلماته إلى أعلى أفق يتمنى أن يصل إليه.

• هناك سؤال عن القراءة والاطلاع فمن المعروف أن سيدة الغناء العربي فنانة عظيمة، ولكن هذا لا يشكل إلا جانبًا من شخصيتها، وهو الذي يعرفه الناس، ولكنك أيضًا سيدة مثقفة ولكِ اطلاع عريض وأنتِ واحدة من الرائدات في هذا المجال بالنسبة إلى المرأة العربية، ولعل هذا يدعونا إلى أن نسأل بشيء من التفصيل، أي نوع من القراءات تفضلين؟ وهل لكِ كاتب معين أو شاعر معين يستولى على اهتمامك، وهل تنفقين ساعات معينة من النهار للقراءة والاطلاع؟

- إنّ الهواية الوحيدة التي تستولي علي هي قراءة الشعر، قديمه وحديثه، أما الأدب فقد قرأت شوامخه عند القدماء والمعاصرين مثل

«كليلة ودمنة» و«الأغنيات» و«الحماسة» وغيرها، أما الأدب المعاصر فقد قرأت أعظمه أيضًا عند محمد حسين هيكل وكل إنتاج الدكتور طه حسين، إن الشيء الوحيد الذي أحب أن أملأ به فراغي هو القراءة وهي تتجه إلى الشعر أولًا ثم إلى الأدب بعد ذلك.

• أريد أن أعرف رأيك في شكل الأغنية السودانية، وفي مقدرة الفنان السوداني على الأداء.

- أنا أقدر الطريق الذي تسيرون فيه لتطوير الأغنية السودانية، المهم أن يوجد الطريق السليم أولًا، أما التطور فيأتي بعد ذلك، في مصر كانت تسود التواشيح وأغنيات الترديد ولكننا بدأنا من الطريق الصحيح وطورنا الأغنية المصرية، وأنا أشعر أن السودان يسير على نفس هذا الطريق، وإن كنت هنا أحب أن أبدي إعجابي بنوع خاص بالطريقة الشعبية في الغناء.

• سمعت أن أغلب السيدات في مستشفيات الولادة في الخرطوم سمين أطفالهن من البنات باسم كوكب الشرق أم كلثوم.

- هذا شعور نبيل أشكرهن عليه جدًا.

•زيارتك للسودان هذه تستهدف غرضًا نبيلًا هو دعم المجهود الحربي وهو نفس السبب الذي سافرت من أجله إلى بلاد كثيرة من الوطن العربي وإلى فرنسا، والشعب السوداني تواق إلى زيارة أخرى لا ترتبط بهذه الظروف وتكون من أجل دعم الوحدة العربية، والإخاء العربي، فهل نطمع في هذه الزيارة؟

- من المؤكد إنّني سأحضر إلى السودان مرات أخرى، ولا بد بإذن الله أن تكون هذه الزيارة سنوية حتى ولو لم أدع لها.

•نرجو أن تكلل زياراتك كما هي دائمًا بالنجاح، وألا تكون زيارتك القادمة لنا من أجل دعم المجهود الحربي بعد أن يتحقق لنا النصر

القريب إن شاء الله، ويعود للأمة العربية عزها وكرامتها، لقد اختلف العرب كثيرًا وتفرقت كلمتهم بفعل الاستعمار ولكنهم أجمعوا على شيء واحد هو أم كلثوم!

- *شكرًا.. أنا لا أستحق كل هذا.. ولا شيء منه، كل ما أرجوه من الله أن يتحد العرب جميعًا من أجل نصرة قضيتهم المصيرية، وأنا أقول إنّه يجب على العرب جميعًا ألا يتقاعسوا، فالمحنة ستجعلهم يعجلون بالوحدة، ورب ضارة نافعة، وما أراه الآن أن كلمة العرب واحدة فهم متفقون على النصر الذي لا بديل له، وكل ما أرجوه من كل قلبي أن ينصرنا الله جميعًا من أجل القضية المشتركة.*

• في هذا السياق سمعنا أنك كموحدة للعرب تريدين أن تترجمي هذه المشاعر إلى فعل وأنك بدأت في إعداد مجموعة من الأغنيات لشعراء من البلاد العربية، ونريد أن نعرف نصيب السودان فيها.

- *لا شك أن للسودان عندي أكبر نصيب، وإن شاء الله سأنتقي كلمات من الشعر السوداني لأغنيه*[1].

• علمت أمس أنك تحدثت مع بعض السيدات والآنسات السودانيات عن بعض المشروعات لتدعيم الوحدة العربية على المستوى الرسمي، وليس من المستغرب أن يصدر منك هذا، وهنا أحب أن أسألك رأيك في المرأة السودانية على وجه خاص.

---

(1) حققت أم كلثوم ما وعدت به أهل السودان في تلك الزيارة، وغنت في مايو 1971 قصيدة «أغدًا ألقاك» من كلمات الشاعر السوداني الهادي آدم والحان الموسيقار عبد الوهاب، وكان الشاعر صالح جودت قد كتب مقالًا في مجلة «الكواكب» في عدد 21 يناير 1969 بعنوان «لمن تغني أم كلثوم؟» يقترح فيه على السيدة أم كلثوم مجموعة من أجمل القصائد السودانية لتغني إحداها، وكان من ضمنها قصيدة «أغدًا ألقاك» التي اختارتها أم كلثوم بعدما غيرت بعض كلماتها.

- الحق أنّني وجدت المرأة العربية في البلاد التي زرتها حتى الآن مثال للمرأة المؤمنة الذكية المتعلمة، وتلك فاتحة خير تنطلق بنا نحو جيل جديد، وأنّ المرأة تضطلع بمسؤولية كبيرة ليس أقل مظاهرها إعداد النشء على المعاني العظيمة والأخلاق الحميدة والوطنية الخالصة والدين القويم الذي يعصمُنا ويكون حافزًا لنا، أما المرأة السودانية فلقد أحببتها على الفور وأنا أعجب بإيمانها ووطنيتها الخالصة.

• في نهاية اللقاء هل هناك كلمة تحبين توجيهيها إلى شعب السودان؟

، إن الكلمات تقصر عن وصف مشاعري نحو السودان الشقيق شعبًا وحكومة، لقد كانوا جميعًا على مستوى الأجهزة نعم الأصدقاء الأوفياء لمصر في وقت المحنة، ومهما قلت فإن شيئًا لا يمكن أن يعبر عما أشعر به الآن، وفي كلمة متواضعة فإنّني أشكرهم جميعًا، وأجد نفسي عاجزة عن الكلام وأعتقد هذا السكوت أبلغ من أي حديث.

• وفي النهاية نشكر لك تفضلك بالحضور إلى التليفزيون وإتاحة هذه الفرصة للمشاهد السوداني ليلتقي بك وليتعرف عليك أكثر وأكثر، ونحن مرة أخرى نشكر هذا الجهد الذي تقومين به من أجل الأمة العربية جمعاء، ومن أجل تحقيق هذه الأهداف النبيلة التي لا يمكن أن يقوم بها سوى فنانة مثل أم كلثوم تعي مسؤوليتها وواجبها، وأنت والحمد لله ذخر للأمة العربية، أطال الله بقاءك وأطال عمرك.

وهكذا، وطوال تسعة أيام، كانت أم كلثوم محور كل شيء في السودان. كان صوتها في كل بيت، وغناؤها في كل مقهى، وأخبارها وتصريحاتها الصحفية في كل صحيفة سودانية. كل شيء في السودان بدا وكأنّه يحتفي بأم كلثوم ومواكبها الغنائية، لدرجة أنّ البعض طالب

بإغلاق المسرح القومي الذي شهد مجد حفلتي السودان حتى تعود أم كلثوم مرة أخرى إليه، فلا يجوز أن يقف على هذا المسرح أحد بعد أن وقفت عليه أم كلثوم. وقد اتسمت حفلتا أم كلثوم في السودان بطابع فني وسياسي في آن واحد، وتحولت رحلتها إلى مهرجان لدعم مصر في تخطي محنتها القاسية بعد عدوان 1967. جمعت أم كلثوم في تلك الرحلة حولها كل الأطياف والأيديولوجيات السياسية على اختلاف مشاربها في السودان، فتوحدت الكلمة السودانية حول مشروعها الفني والوطني في محو آثار الهزيمة المصرية، ولم يغرد خارج ذلك الإجماع السوداني إلا صحيفة الإخوان المسلمين «الميثاق» التي وحدها شنت هجومًا عنيفًا على أم كلثوم باعتبارها رمزًا للتراث القومي العربي. وكالعادة، أفرغ الإسلام السياسي عداوته لشخص جمال عبد الناصر ومشروعه القومي في شخص السيدة أم كلثوم ومشروعها الفني.

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الخميس 2 يناير 1969، كان طاقم السفارة المصرية، وعلى رأسهم الدكتور كمال الدين خليل سفير الجمهورية العربية المتحدة والوزير عبد الماجد أبو حسبو، يدخلان مع السيدة أم كلثوم ووفدها المرافق إلى صالة كبار الزوار في مطار الخرطوم، وسط حشود كبيرة أتت لتشهد وداع كوكب الشرق وعودتها إلى القاهرة. وقبل أن تصعد السيدة أم كلثوم سلم الطائرة، وقف الوزير عبد الماجد أبو حسبو وأمسك بيدها وشرع في طبع قبلة رقيقة عليها قبل أن تغادر السودان وهي محملة بملايين القبلات الأخرى تقديرًا لشخصها واعتزازًا بموقفها الوطني. ملأت الدموع عيني أم كلثوم وهي تشاهد الجماهير التي أتت لوداعها كما جاءت قبل تسعة أيام لاستقبالها، تلك الجماهير التي عاشت بينهم تسعة أيام حافلة بالمحبة والحرارة والصدق. وما إن عادت أم كلثوم عصر ذات اليوم إلى القاهرة

حتى حولت دخل حفلتي السودان كاملًا، وقد وصل إلى حدود 24 ألف جنيه إسترليني لصالح أعمال المجهود الحربي، في حين ظلت الصحافة المصرية طوال شهر يناير 1969 تتحدث عن مدى النجاح الذي حققته حفلتا أم كلثوم في السودان. وفي 22 يناير 1969، أقام السفير عبد الكريم ميرغني سفير السودان في القاهرة حفلًا كبيرًا في منزله بالمعادي احتفالًا بعودة السيدة أم كلثوم من السودان، وحضر الحفل أكثر من 200 شخص من أعلام المجتمع والسياسة والفن والصحافة والإذاعة في مصر، كان من بينهم أمين عام جامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة، وعدد من الوزراء، وحسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس جمال عبد الناصر، ومحافظا القاهرة والجيزة بالإضافة لمجموعة من السفراء العرب، إذ احتفى الجميع بذلك النجاح العظيم الذي حققته السيدة أم كلثوم في السودان. وليس هناك أدل على أهمية تلك الرحلة التاريخية في سجل العلاقة بين مصر والسودان، مما قاله الكاتب الصحفي يوسف الشريف وهو الشاهد على تلك الرحلة، بالإضافة لكونه أكثر الصحفيين المصريين قربًا من الشأن السوداني، حين قال في كتابه «السودان وأهل السودان»: «إن زيارة أم كلثوم وغناءها في السودان كان حدثًا ثقافيًا مقداره يفوق كل إنجازات أجهزة الإعلام والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ استقلال البلدين في الخمسينيات!».

إعلان عن إسطوانات قصيدة «هذه ليلتي»، نُشر في مجلة «الشبكة» اللبنانية، الصادرة في 23 ديسمبر 1968.

السيدة أم كلثوم وإلى جوارها ابن شقيقتها المهندس محمد الدسوقي على متن إحدى الطائرات التابعة للخطوط الجوية السودانية، متوجهين إلى العاصمة الخرطوم، يوم الأربعاء 25 ديسمبر 1968، من أرشيف مؤسسة «الأهرام».

لحظة خروج السيدة أم كلثوم من باب الطائرة في مطار الخرطوم الدولي، يوم الأربعاء 25 ديسمبر 1968.

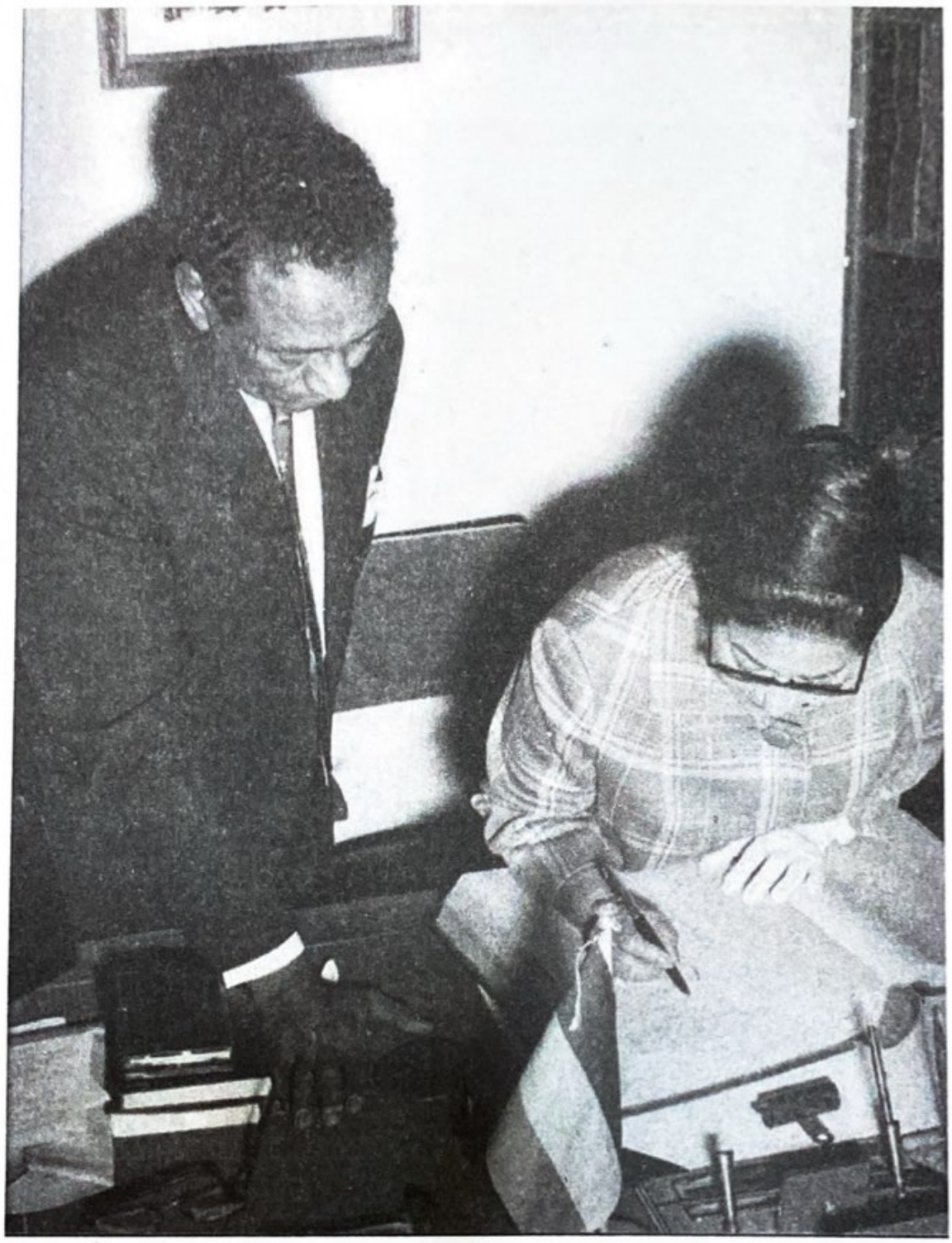

السيدة أم كلثوم توقع في دفتر الزيارات الخاص بالسفارة المصرية في الخرطوم، يوم الأربعاء 25 ديسمبر 1968.

السيدة أم كلثوم تغني في حفلها الأول في السودان، يوم 26 ديسمبر 1968.

السيدة أم كلثوم تغني في حفلها الثاني على خشبة المسرح
القومي في مدينة أم درمان، يوم 30 ديسمبر 1968.

نزلت السيدة أم كلثوم في بيت الضيافة بالخرطوم، وهو البيت المخصص لكبار ضيوف السودان من رؤساء الدول ورؤساء الحكومات وكبار الشخصيات، وكانت السيدة أم كلثوم تحب أن تجلس هذه الجلسة البسيطة يوميًا بعد تناول وجبة الغداء، وتشرب القهوة مع صديقاتها السودانيات، وتسمي هذه الجلسة باسم «قعدة العصاري».

السيدة أم كلثوم والمطربة السودانية حواء جاه الرسول في عرس سوداني، الأربعاء 1 يناير 1969.

مصادر هذا الفصل:

1- رجاء النقاش، لغز أم كلثوم، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة 2004.

2- يوسف الشريف، السودان وأهل السودان، دار الشروق، القاهرة 2004.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 سبتمبر 1968.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 أكتوبر 1968.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 7 ديسمبر 1968.

6- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 23 ديسمبر 1968.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 25 نوفمبر 1967.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 25 ديسمبر 1968.

9، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 ديسمبر 1968.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 27 ديسمبر 1968.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 28 ديسمبر 1968.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 30 ديسمبر 1968.

13- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 31 ديسمبر 1968.

14- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 24 يناير 1969.

15- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 21 يناير 1969.

16- مجلة المصور، القاهرة، عدد 17 يناير 1969.

17- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 1 يناير 1969.

18- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 8 يناير 1969.

العاصفة في المملكة الليبية

بعدما قطعت أم كلثوم آلاف الأميال خلال رحلاتها الخارجية الست، وبعدما مسحت التراب العربي بقدميها من أمواج المحيط الهادر إلى موجات الخليج الهادئة، وبعدما دوى صوتها من الكويت إلى المغرب، ومن باريس إلى السودان من أجل المجهود الحربي، قررت أم كلثوم أن تجند صوتها للفدائيين الفلسطينيين في رحلتها الخارجية السابعة، وترصد نبرات صوتها لرجال المقاومة الفلسطينية، الذين خرجوا من ضباب الهزيمة لكي يعيدوا صياغة الحق بفوهة البندقية. من أجل هؤلاء ذهبت السيدة أم كلثوم إلى المملكة الليبية في مارس 1969، في رحلة وطنية دامت اثني عشر يومًا غنت خلالها أم كلثوم في العاصمتين التقليديتين للمملكة؛ طرابلس وبنغازي.

وربما من بين كل رحلات المجهود الحربي الخارجية، تظل الظروف التي واكبت رحلتها إلى المملكة الليبية هي الظروف الأصعب والأكثر إثارة؛ فللمرة الأولى في مشوارها الوطني تغادر أم كلثوم القاهرة وسط ظروف صعبة واحتمالات مشحونة بالخطر منذ هزيمة يونيو 1967، فقبل ساعات قليلة من تحركها إلى المملكة الليبية ولقائها الأول بالشعب الليبي يوم 10 مارس 1969، استشهد الفريق عبد المنعم رياض (1919-1969) رئيس أركان القوات المسلحة المصرية

يوم 9 مارس وسط جنوده على خط المواجهة مع العدو، وذلك بعدما انفجر الموقف المتوتر على جبهة قناة السويس في قتال عنيف بين قواتنا وقوات العدو بالطائرات والمدفعية الثقيلة، في أعنف اشتباكات عسكرية عرفتها جبهة القتال خلال حرب الاستنزاف الطويلة.

كان وقع الخبر صاعقًا على امتداد الأمة العربية وعلى أم كلثوم بالطبع، إذا ضاعف من حزنها ضرورةُ سفرِها إلى المملكة الليبية في ذلك التوقيت، وعدم قدرتها على أن تكون في بالقاهرة في يوم الوداع الرسمي والشعبي لجنرال مصر الذهبي، لكنها تحاملت على نفسها حتى تؤدي دورها في موقع النضال المحدد لها. تلك الظروف الصعبة جعلتها طوال رحلتها إلى المملكة الليبية تبدو لمن حولها ساهمة الفكر شاردة العين أغلب الوقت، ينازعها شعور عميق بالقلق والهمّ من اللحظة الأولى التي وضعت فيها قدميها على سلم الطائرة المتجهة إلى ليبيا. وبينما كانت طائرتها تحلق فوق مياه البحر المتوسط، كانت موجات من الكتل البشرية يتقدمهم الرئيس عبد الناصر تخترق ميدان «التحرير» في وداع مهيب للفريق الشهيد. كانت أم كلثوم تحدق وحدها في النافذة الصغيرة المطلة على الفضاء الصامت حولها لعلها تلمح لقطات من أعلى ليوم القاهرة المشهود. وعندما سُئلت عن رؤيتها لتلك البطولة المصرية قالت: «ليس أول شهيد ولن يكون آخر شهيد، ولكنه رمز لمعنى كبير؛ الجندي المصري المستبسل المؤمن، الذي لا يرهب الموت ولا يحرص على الحياة، والذي يدفع روحه ويبذل دمه راضيًا لكي تعيش مصر، القائد العربي الشجاع الذي يتقدم الصفوف، ويتصدر المعركة لكي يقدم النموذج والمثل لرجاله!».

لا تذكر الصحف المصرية والعربية زمنًا محددًا لبداية مرحلة الاتفاق على رحلة السيدة أم كلثوم للمملكة الليبية، لكن بتتبع مجموع حواراتها الصحفية والتليفزيونية في عام 1968، نجد أنّها جاءت على

ذكر رحلة مرتقبة إلى المملكة الليبية ضمن سلسلة حفلاتها من أجل المجهود الحربي، لكنها في ذات الوقت أكدت أنّها مجرد رحلة محتملة وغير أكيدة في حوارها التليفزيوني مع الإعلامية نجوى إبراهيم الذي أجرته في تونس مطلع يونيو 1968. وأغلب الظن أن المشاورات على رحلة المملكة الليبية قد بدأت فِعلِيًا في التشكل منذ زيارتها إلى تونس ما بين 30 مايو و9 يونيو 1968، لكن دون أن تتوصل السيدة أم كلثوم مع الطرف الليبي إلى اتفاق كامل على تفاصيل الزيارة، ودون تحديد واضح لموعد الرحلة النهائي وخطوطها التنظيمية العريضة، والمؤكد في تلك الجزئية أن الذي تولى مد جسور التواصل مع السيدة أم كلثوم من أجل إتمام تلك الرحلة هو السيد عبد الله عابد السنوسي؛ أحد أهم أقرباء ملك ليبيا إدريس السنوسي (1890-1983) ونسيب ولي عهده، الذي حسب روايته هو ذاته جمعته صداقة قديمة بالسيدة أم كلثوم تعود إلى نهاية عقد الخمسينيات تقريبًا.

كان الوضع العسكري العربي في مطلع عام 1969 قد بدأ في التغير النسبي؛ فبعد عدد كبير من عمليات حرب الاستنزاف المتواصلة -وكان هدفها في البداية تنشيط الجبهة والاشتباك بالنيران مع القوات الإسرائيلية بغرض تقييد حركة قواتها في الخطوط الأمامية على الضفة الشرقية للقناة، وتكبيدها قدرًا من الخسائر في الأفراد والمعدات-، كان شهر فبراير 1969 -طبقًا للتخطيط المصري- يمثل نهاية تلك المرحلة المحددة سلفًا، والتي كانت قد بدأت فِعلِيًا في 8 سبتمبر 1968 وعرفت لاحقًا بمرحلة «الدفاع النشط». وعلى مستوى آخر، كان الدعم المتواصل لحركة المقاومة الفلسطينية يدفعها إلى عتبة جديدة ومهمة في تاريخ نضالها أيضًا، وذلك بعد اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني بالقاهرة في مطلع فبراير 1969، ووضع الخطوط الأساسية على طريق توحيد العمل الفلسطيني عَسكريًا وإعلامِيًا ومَاليًا،

بالإضافة إلى انتخاب المجلس الوطني الفلسطيني لياسر عرفات (1929-2004) رئيسًا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في الثالث من فبراير عام 1969، وكانت المنظمة قد تأسست بالفعل عام 1964، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة المقاومة العربية منذ ذلك الحين.

ربما كانت تلك الأجواء الحماسية التي عاشتها القضية العربية في تلك المرحلة -وخصوصًا مع احتفاء الصحافة المصرية باجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني بالقاهرة، وكلمة الرئيس جمال عبد الناصر في تلك الاجتماعات، حين أكد أن الجمهورية العربية أعطت وسوف تعطي كل شيء وبلا حدود ولا تحفظ لمعركة المصير العربي-، ربّما كانت هذه الأجواء دافعًا أسَاسيًّا للسيدة أم كلثوم في إتمام زيارتها إلى المملكة الليبية، وذلك من أجل المشاركة ولو بشيء بسيط في تدعيم الفدائيين في الأراضي العربية كافة، لذا فقد رأت أن الوقت قد حان لتلك الرحلة الوطنية، وخصوصًا وأن ليبيا كانت أيضًا على مشارف عيد وطني كبير في شهر مارس وهو عيد ميلاد الملك إدريس السنوسي، ولذلك عادت المفاوضات بين السيدة أم كلثوم وعبد الله عابد السنوسي حول تفاصيل رحلتها إلى ليبيا. وتذكر صحيفة «الأهرام» الصادرة في يوم 5 فبراير 1969 أنّ عبد الله عابد السنوسي قد أوفد رجل الأعمال المصري علوي الجزار[1] إلى منزل السيدة أم كلثوم من أجل توقيع عقد الاتفاق معها على رحلتها إلى ليبيا

---

(1) علوي الجزار (1923- 1987) رجل أعمال مصري شهير، وصاحب مصنع شاي «الشيخ الشريب» الذي أغرق السوق المصري لسنوات عدة، ورأس نادي الزمالك لمدة عام واحد من 1961 حتى 1962، وذلك بعد عبد اللطيف أبو رجيلة، واستطاع الجزار تحقيق منجزات للنادي في ظل سنة رئاسته، فجلب فريق «ريال مدريد» على نفقته الخاصة لمقابلة نادي الزمالك، وأنشأ حمام السباحة الأوليمبي.

بالنيابة عنه، وذلك في اليوم السابق لصدور الصحيفة 4 فبراير 1969، لتعلن السيدة أم كلثوم للصحافة المصرية إلغاء حفلتها الشهرية في القاهرة التي كان مقررًا إقامتها يوم 6 مارس في «سينما قصر النيل» استعدادًا للحفلتين اللتين ستقيمهما في المملكة الليبية، وتعلن أيضًا أنّ الإيراد سيذهب بالكامل لصالح المجهود الحربي ومنظمة «فتح» الفلسطينية.

وخلال يومين من توقيع الاتفاق، طار وزير الإعلام الليبي أحمد الصالحين (1930–2006) إلى القاهرة من أجل إتمام المشاورات مع السيدة أم كلثوم، والاتفاق معها على باقي تفاصيل الزيارة. كان مطلب أم كلثوم الوحيد من أحمد الصالحين هو ضرورة تركيز كل الجهد لجمع أكبر قدر ممكن من الأموال ورفع الدخل حتى يمكن مساعدة الفدائيين ودعم مقاومتهم، وتغطية حاجتهم إلى السلاح والدواء والمهمات. ولهذا بذل عبد الله عابد السنوسي نشاطًا كبيرًا في أرجاء ليبيا حتى تخرج الحفلتان على مستوى الحدث الكبير وبالصورة التي تريدها السيدة أم كلثوم، ولذلك رأى أن يحدد ألفي تذكرة بمبلغ عشرين جنيهًا للمقعد الواحد، ثم عشرة جنيهات قيمة كل مقعد من الألفين التالية، وخمسة جنيهات للألف مقعد الباقية في كل حفل، ولكنه زاد ألف مقعد نتيجة إقبال الجمهور الليبي على شراء التذاكر. وحتى يستغل ذلك في تحقيق أكبر قدر ممكن من العائد المادي للحفلتين، ترك ثمن التذاكر الباقية غير محدد، ليبلغ ثمن التذكرة الواحدة ألف جنيه كاملة أحيانًا. وَبِناءً على مذكرة قدمها عبد الله عابد السنوسي إلى وزير الإعلام الليبي أحمد الصالحين، قرر وزير المالية الليبي الهادي القعود إعفاء الحفلتين من الضرائب، ما دام دخل الحفلين سيكون هدية من المملكة الليبية والسيدة أم كلثوم

لرجال منظمة «فتح» والمقاومة الفلسطينية، وقد وافق مجلس الوزراء الليبي على هذا الإعفاء الضريبي.

وتذكر صحيفة «الحرية» الليبية في عددها الصادر يوم 24 فبراير 1969 أنّ السيد عبد الله عابد السنوسي قد توصّل إلى اتّفاق مع السيدة أم كلثوم بخصوص النفقات والأجر الخاص للفرقة الموسيقية، وهو اتفاق يلزمه بتحمل تلك المصاريف كافّة من ماله الخاص مساهمة منه في تدعيم تلك الرحلة، ومشاركة في المجهود الحربي المصري. ويصرح عبد الله عابد السنوسي، وهو الذي سبق وقاد حملة التبرعات لصالح المجاهدين الجزائريين إبان حرب التحرير الجزائرية للصحيفة ذاتها، بأنّه متيقّن من أريحية الشعب الليبي في البذل والعطاء من أجل مساعدة منظمة «فتح» والمجهود الحربي، وأنّ المقتدرين من الليبيين لن يبخلوا على دعم القضية العربية، وأكد لوكالة الأنباء الليبية يوم 23 فبراير1969 أنّه يتحدث عن واقع تجربة مباشرة مارسها إبان كفاح الشعب الجزائري، إذ كان أفراد الشعب الليبي بمختلف فئاته يقبلون على التبرع لصالح جهاد الجزائر بحماس منقطع النظير، ولهذا سوف يجد قطعًا إقبالا مشابهًا في حفلتي أم كلثوم في ليبيا من أجل تسليح الفدائيين العرب في الأراضي المحتلة كافة، وهو ما كان فعلًا. فيذكر علوي الجزار، وهو الذي شارك في الإشراف على تلك الرحلة منذ بدايتها، لمجلة «آخر ساعة» في عددها الصادر يوم 19 مارس 1969 أنّ الجماهير الليبية حين عرفت بأن دخل هذه الحفلات سوف يذهب إلى منظمة «فتح» ازدادت قيمة بذلهم، وارتفعت أثمان التذاكر لتشمل تبرعات جانبية إضافية. ويذكر العلوي لمجلة «آخر ساعة» نماذج من بذل الشعب الليبي، وكيف كان العمال الليبيون البسطاء يأتون إلى منافذ البيع ويتبرعون بكل ما ادخروه خلال سنوات عملهم الطويلة

من أجل دعم المجهود الحربي، وأنّ عددًا كبيرًا من أثرياء ليبيا كانوا يشترون ثلاث أو أربع تذاكر مقابل مقعد واحد في حفلة أم كلثوم، وغيرها من النماذج التي كانت تؤكد معنى المشاركة الذي قصدته أم كلثوم بحفلاتها العربية!

كانت تلك الأخبار تصل إلى السيدة أم كلثوم في القاهرة منذ بداية شهر مارس، ولذلك حين فجعت مصر باستشهاد الفريق عبد المنعم رياض قبل يوم واحد من بداية رحلة السيدة أم كلثوم إلى المملكة الليبية، لم تلجأ أم كلثوم إلى إلغاء سفرها إلى المملكة أو تأجيله، بل إنّها رأت أن غناءها في تلك اللحظة من أجل المقاومة هو تكريم لروح الفريق الشهيد الذي كان يكن لأم كلثوم مشاعر المحبة والاحترام لدورها الفني والوطني، فيذكر على سبيل المثال الكاتب عبد التواب عبد الحي في كتابه «نسر مصر: عبد المنعم رياض حَيًّا وشهيدًا» واقعةً جرت قبل أيام معدودة من استشهاد الفريق، وذلك حين كان الفريق في زيارة خاطفة إلى العراق لحضور اجتماع قادة جيوش الجبهة الشرقية، وخلال عشاء أقيم على شرفه في «كازينو كسرى» بمدينة بغداد مساء 6 مارس 1969، انطلق صوت السيدة أم كلثوم من الإذاعة العراقية وهي تشدو بقصيدة «الأطلال» فحام غناؤها فوق الأطباق مترنمًا بقصيدة ناجي، وتوقف الفريق رياض عن الأكل متأثرًا بغناء أم كلثوم عندما وصلت لمقطع القصيدة الشهير «واثق الخطوة يمشي ملكا/ ظالم الحسن شهي الكبرياء/ عبق السحر كأنفاس الربى/ ساهم الطرف كأحلام المساء»، سكت الفريق رياض قليلًا ثم قال لمن حوله من القادة العسكريين: «قرأت كثيرًا من الشعر قديمه ومعاصره، ولم أتذوق في أشعار الغزل أحلى من هذين البيتين.. تأملوا: حسن الحبيب عندما يطغى لدرجة الظلم!».

كانت بداية الرحلة إلى المملكة الليبية يوم الأربعاء 10 مارس 1969، وتحديدًا الساعة الثالثة بعد الظهر. وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار القاهرة الدولي وبصحبتها زوجها الدكتور حسن الحفناوي، وابن شقيقتها المهندس محمد الدسوقي، وأفراد فرقتها الموسيقية، بالإضافة إلى أفراد البعثة الإذاعية والإعلامية المرافقة وكان على رأسها: الإذاعي الكبير جلال معوض مندوبًا عن الإذاعة المصرية، والإعلامية فريال صالح (1941-2012) عن التليفزيون العربي، ومخرج التغطية التليفزيونية محمد الشال، والكاتب الصحفي رجاء النقاش مندوبًا عن مؤسسة دار «الهلال»، والكاتب كمال الملاخ مراسلًا لمؤسسة «الأهرام»، والصحفي محمد وجدي قنديل عن مجلة «آخر ساعة» وغيرهم من المصورين وعمال الإضاءة.

وبعد دقائق قضتها السيدة أم كلثوم ومن معها في قاعة كبار الزوار، وصل إلى مطار القاهرة السفير عبد السلام حسين بسيكري سفير المملكة الليبية في القاهرة، ووزيرها المفوض عبد الرازق عمير، وسفير الجمهورية العربية المتحدة في المملكة الليبية أحمد رياض، ليكونوا في وداع سيدة الغناء العربي التي تغادر القاهرة في تلك الظروف العصيبة من أجل مهمة نبيلة أخرى. كان مقررًا أن تسافر السيدة أم كلثوم إلى ليبيا على متن طائرة خاصة تضعها الحكومة الليبيّة تحت تصرفها، لكنّ السيدة أم كلثوم رفضت ذلك العرض، وفضّلت أن تركب طائرة شركة مصر للطيران المتجهة إلى ليبيا والمليئة بالركاب العاديين، خصوصًا بعدما أعلنت مؤسسة مصر للطيران في شهر فبراير 1969 أنّها قدمت اشتراكًا مجانيًا للسيدة أم كلثوم تقديرًا لمجهودها الوطني، تستخدمه السيدة في تنقلاتها على شبكة خطوط الشركة الداخلية والخارجية طوال عام 1969. وكعادتها، دخلت أم كلثوم إلى الطائرة قبل إقلاعها

بدقائق قليلة، وجلست في أول مقعد بالطائرة كما تعودت، وجلس إلى جوارها المهندس محمد الدسوقي. ويروي الكاتب الكبير رجاء النقاش بعضًا من ملاحظاته على سلوك السيدة أم كلثوم في الطائرة، وتحديدًا كما شاهده في تلك الرحلة، فيقول في مقال كتبه في مجلة «الكواكب» الصادرة في 1 أبريل 1969: «وسلوك أم كلثوم في الطائرة جدير بالملاحظة، فهي لا تتحرك من مقعدها أبدًا، وأحيانًا تتمتم ببعض آيات من القرآن، ولا تشرب إلا عصير الفاكهة، وهي في أغلب الأحوال لا تتناول أي طعام في الطائرة، ولا تتناول الشاي ولا القهوة». وكما كانت أم كلثوم موضع ملاحظة رجاء النقاش، كانت أيضًا موضع ملاحظة الصحفي محمد وجدي قنديل، الذي كتب في مجلة «آخر ساعة» أنّه رآها للمرة الأولى في حياتها شديدة الهم، صامتة وقلقة لا تتحدث ولا تتحرك، فقط تسند رأسها على زجاج الطائرة في تعب واضح، «بقيت أتأملها وأتابعها وأرقبها، كانت بعيدة بفكرها عن جميع الذين تقابلهم أو تصافحهم أو تلتقي بهم، وقلت لها: يا ترى ما الذي يشغل بالكِ، ويشد تفكيركِ إلى هذا الحد؟ ولمعت عيناها ببريق الحنين، وقالت السيدة العظيمة: مصر.. بالتأكيد مصر، ولا شيء غيرها، ربما أكون بعيدة عنها، لكن قلبي معها، لا يمكن لأي قوة أن تنتزعني منها، وخصوصًا في ساعاتها العصيبة وأوقاتها الصعبة، لا أستطيع أن أفكر إلّا فيها، إنّها تحجب رؤيتي عن أي شيء آخر في الحياة!».

حطت الطائرة المصرية في البداية في مطار مدينة بنغازي الليبية إحدى عواصم ليبيا الثلاث، وذلك بعدما استمرت الرحلة ساعة ونصف الساعة تقريبًا. كان مطار مدينة بنغازي على حد وصف رجاء النقاش مطارًا صغيرًا ولكنه نظيف وأنيق، واستقباله للسيدة أم كلثوم كان استقبالًا وديعًا وهادئًا، ولكنه كان حَارًّا وصادقًا!

وفي استراحة المطار، قضت السيدة أم كلثوم قرابة نصف الساعة، فالتف حولها الجمهور والصحفيون، يتحدثون معها ويرحبون بها، لتستقل أم كلثوم بعد ذلك ومن معها طائرة أخرى إلى مدينة طرابلس الغرب، التي وصلت إليها في الساعة الثامنة والنصف مساءً، بعدما قطعت أكثر من ألف كيلومتر بين المدينتين.

وعلى أرضية مطار «إدريس الدولي»، كانت جماهير غفيرة في استقبالها ومعهم عدد كبير من المسؤولين والشخصيات الليبية الهامة، إذ كان على رأس هؤلاء السيد عبد الله عابد السنوسي رجل تلك الرحلة الأول، ومحافظ مدينة طرابلس عبد الخالق الطبيب، وإبراهيم الطوير مدير الإذاعة الليبية، ومحمد الصفاقسي مدير التليفزيون الليبي في ذلك الوقت، والموسيقار حسن العريبي (1933، 2009) رئيس قسم الموسيقي في الإذاعة الليبية، ورائدة الحركة النسائية في ليبيا حميدة العنيزي، كما جاء أيضًا لاستقبالها حرم السفير المصري في المملكة الليبية، وعازف «الكمان» الكبير أحمد الحفناوي، الذي انتُدب لمدة عام كامل للعمل في ليبيا من أجل تدريب فرقة الإذاعة الليبية، وعدد كبير من المثقفين والإعلاميين الليبيين، في حين غابت الملكة فاطمة الشفاء (1911-2009) قرينة الملك إدريس عن المشهد في تلك الليلة، وعلل القصر الملكي ذلك الغياب بأن الملكة لا تخرج إلى الأماكن العامة والمختلطة!

خرجت أم كلثوم من مطار طرابلس الدولي وسار موكبها في طريق طويل أُعد خِصّيصَى لاستقبالها، بعدما زينته الشعارات الحماسية، وأضاءته الأنوار التي كانت توحي للجميع أن المملكة تعيش في هذه الأيام عيدين: عيد ميلاد الملك إدريس وعيد زيارة السيدة أم كلثوم إلى ليبيا. وصلت أم كلثوم ووفدها المرافق إلى محل نزلهم في فندق

«الودان» أحد أهم وأعرق الفنادق الليبية. وبمجرد أن دخلت جناحها وخلت بنفسها، أدارت مؤشر الراديو وبحثت عن إذاعات القاهرة حتى تطمئن على أخبارها وتتابع تطورات الأحداث في مصر.

ورغم حماسة استقبال السيدة أم كلثوم ووفدها المرافق في مطار «إدريس الدولي»، فإنّ محافظة طرابلس قد أعلنت عن استقبال آخر يعد للسيدة أم كلثوم، وذلك بعدما رأت المحافظة أن بُعد المطار عن المدينة قد حال بين كثير من المواطنين والحضورِ إلى المطار.

وفي اليوم التالي لوصول السيدة أم كلثوم إلى ليبيا، كان استقبالها الحقيقي، وذلك عندما زارت السيدة أم كلثوم معرض طرابلس الدولي، الذي كان يقام كل عام تزامنًا مع الاحتفالات الملكية بذكرى مولد الملك إدريس السنوسي، فكانت الدول العربية والأجنبية توفد مندوبيها ليقيموا في طرابلس أكثر من عشرين يومًا، يشاركون خلالها في الاحتفال الملكي ولكن عن طريق تقديم آخر ما أنتجته بلادهم ليعرضوه في مدينة طرابلس. كان المعرض الذي افتتح في دورته الثامنة يوم 6 مارس 1969 يضم تسعًا وعشرين دولة منها الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت تشارك في هذا المعرض للمرة الأولى في تاريخه الطويل. ومن أجل ذلك سافر حسن عباس زكي وزير الصناعة والتجارة إلى طرابلس من أجل افتتاح الجناح المصري، ورغم أن المعرض قد بدأ فعليًا قبل وصول السيدة أم كلثوم إلى المملكة الليبية بأربعة أيام، فإنّ الوزير حسن عباس زكي رفض فتح الجناح المصري إلا بعد وصول السيدة أم كلثوم، التي دعاها بمجرد استقرارها في ليبيا إلى مشاركته في فعاليات الافتتاح. وبالفعل، زارت السيدة أم كلثوم معرض طرابلس الدولي صباح يوم 11 مارس 1969، وما إن لمح رواد المعرض سيدة الغناء العربي وهي تخترق بسيارتها الساحة الفسيحة

حتى تجمعوا بالآلاف في طريقها، وذلك لتحيتها والتصفيق لها، وهو ما دفع إدارة المعرض إلى غلق أبواب الجناح المصري فور نزول السيدة أم كلثوم من السيارة ودخولها إلى الجناح المصري، وذلك حتى لا يتدافع المعجبون داخل الجناح، لكن الآلاف ظلوا على أبواب المعرض ينتظرونها حتى تخرج من جولتها الداخلية. استعرضت أم كلثوم في جولتها مع الوزير حسن عباس زكي والسفير المصري أحمد رياض المنتجات المصرية في معرض طرابلس، وأبدت إعجابها الشخصي بجودة الكريستال المصري، وأخبرها الوزير عباس زكي أنّ الجناح المصري في معرض طرابلس قد باع صباح ذلك اليوم جميع أسطواناتها ونفدت جميع الكميات الموجودة عن آخرها التي بلغت قيمتها 2800 جنيه مصري، وأكد لها السفير المصري أن السفارة أرسلت برقية عاجلة إلى القاهرة تطلب فيها المزيد من أسطوانات السيدة أم كلثوم الجديدة من أجل تلبية حاجات المواطن الليبي. وبعد أن خرجت أم كلثوم من المعرض، فوجئت بآلاف الليبيين حولها يرحبون بها. وبصعوبة شديدة ركبت سيارتها، ولكنّ السيارة لم تستطع التحرك إلا بجهد كبير بسبب زحام الجماهير التي تدافعت من أجل رؤية أم كلثوم وتحيتها على دورها الوطني!

وفي مساء اليوم ذاته، وجهت ملكة ليبيا فاطمة الشفاء دعوة خاصة إلى السيدة أم كلثوم لحضور حفل شاي بمناسبة وصولها إلى طرابلس، حيث استقبلتها الملكة في قصرها. وشملت الدعوة سيدات السلك الدبلوماسي وزوجات الوزراء الليبيين، وقد استمرت تلك الزيارة أكثر من ساعتين جرى الحديث فيهما عن تقدم المرأة العربية وتطورها ودورها الكبير في المجتمع، وما يمكن أن تفعله المرأة في الحركة الوطنية خصوصًا بعد الهزيمة.

كانت الاستعدادات من أجل الحفل الأول في مدينة طرابلس قائمة منذ نهايات شهر فبراير 1969. ففي ميدان «الأشغال» الواقع في شارع «عمر المختار» في العاصمة، بدأ العمال المصريون بنصب أكبر سرادق في تاريخ المملكة الليبية، وذلك بعدما نُقِل من مصر إلى ليبيا قرابة السبعة آلاف مقعد، بخلاف السجاجيد والأقمشة الملونة بواسطة سيارات لوري وجرارات كبيرة، وتذكر صحيفة «الأهرام» الصادرة يوم 22 فبراير 1969 أن عملية النقل تلك قد تكلفت سبعة آلاف جنيه دفعها علوي الجزار إلى سيد خضر متعهد الحفلات الليبي مع أربعة متعهدين غيره، على أن تُنقل المعدات ذاتها إلى مدينة بنغازي بعد ذلك من أجل الحفل الثاني، وبحسب الخبر الوارد في صحيفة «الأهرام» فقد تابع عبد الرازق عمير الوزير الليبي المفوض في مصر مع وزير النقل المصري على زين العابدين عملية النقل تلك، وتذليل كافة العقبات على الحدود المصرية الليبية من أجل نصب السرادق في أسرع وقت ممكن. وفي صباح يوم الأربعاء 12 مارس 1969، كان العمال المصريون يضعون اللمسات الأخيرة على تلك الخيمة العملاقة. وبرغم أن السرادق الكبير كان يتسع لعشرة آلاف شخص، فإنّه لم يكن كافيًا لتلبية الطلبات المتزاحمة على حضور الحفل المخصص لغاية وطنية وسامية. ولذلك اتصل وزير الإعلام الليبي أحمد الصالحين بالسيدة أم كلثوم وشرح لها الموقف، وطلب إليها إذاعة الحفل على الهواء مباشرة من التليفزيون بالإضافة إلى الإذاعة الليبية، ووافقت أم كلثوم حتى تتيح الفرصة لأكبر عدد ممكن من أهالي المملكة الليبية مشاهدة الحدث الكبير. ولذلك، وبسرعة كبيرة، توجهت بعثة من التليفزيون الليبي إلى السرادق وأجرت تجاربها على الإرسال بعدما وجهت كامل طاقتها نحو شيئين:

أولًا: نقل الحفل على الهواء مباشرة من طرابلس إلى القاهرة، ولهذا جرت تجارب على الإرسال استمرت طوال الوصلة الأولى، ثم أذيعت الوصلة الثانية، وكان الإذاعي الكبير جلال معوض يتولى بنفسه إجراء التجارب والاتصال بإستديوهات القاهرة لضبط الإرسال، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الوضوح للصوت برغم بعد المسافة.

ثانيًا: إذاعة الحفل مباشرة من تليفزيون طرابلس إلى أرجاء المملكة الليبية حتى يصل بصورة واضحة إلى بنغازي وطبرق ودرنة، وهو ما جعل الوزير أحمد الصالحين، وزير الإعلام الليبي، يشرف بنفسه على عملية الإرسال، ومُضطرًا لأن يبقى في مكتبه طوال الليلة حتى يتابع عملية الإرسال التليفزيوني. وكان يتصل بين الحين والآخر برجال التليفزيون الليبي في الحفل، ويتابع التفاصيل وينبّه إلى نقاط الضعف في الصوت والصورة.

كان المشهد داخل السرادق الكبير مع غروب شمس 12 مارس مثيرًا للحماسة، مشهدًا يوحي بأن ذلك السرادق العملاق قد صُمّم خِصّيصَى لخطبة سياسية جماهيرية حاشدة. كانت لافتات منظمة «فتح» التي تحمل شعارها الشهير «العاصفة» ترتفع فوق الرؤوس وتملأ جوانب المكان؛ عُلقت في كل جانب شعارات مثل: «ثورتنا فلسطينية الوجه.. عربية القلب» و«لن تمر الحلول السلمية إلا على أجسادنا» و«العاصفة ثورة حتى النصر»، في حين عُلقت في مواجهة المسرح لافتة «الفن العربي الهادف سلاح من أسلحة الثورة»، وفي خلفية المسرح، ووراء مقاعد الفرقة الموسيقية، عُلّق شعار حركة «فتح» ليترجم المعنى الكبير لمجهود أم كلثوم الوطني ومجيئها النبيل إلى المملكة الليبية.

قبل الحفل الأول بساعات قليلة، زار السيدة أم كلثوم في جناحها

الخاص بفندق «الودان» السيد عبد الله عابد السنوسي، ليطمئن على الإجراءات كافة قبل تحرك السيدة أم كلثوم إلى المسرح، ثم دعاها إلى مأدبة غداء في مزرعته في ضواحي طرابلس في نهاية ذلك الأسبوع. وقبل أن يغادر عابد السنوسي، طلبت إليه السيدة أم كلثوم أن يرافقها في زيارة سريعة إلى قصر «الخلد» الملكي لتحيي الملك إدريس بمناسبة عيد ميلاده. وبالفعل، صحبها عابد السنوسي إلى القصر الملكي، حيث وقف في استقبالها على باب القصر كبير الأمناء فتحي الخوجه وأمين القصر اليازجي، وطلبت السيدة أم كلثوم أن تكتب كلمة صغيرة في دفتر التشريفات، تحيي فيها الملك إدريس على حسن الاستقبال لها ولوفدها الإعلامي، وتتمنى له فيها عمرًا طويلًا مديدًا. وبعد ذلك مباشرة، زارت أم كلثوم قصر ولي العهد حسن الرضا السنوسي (1928-1992) لتقدم له واجب التحية أيضًا.

وبينما كانت الآلاف تتوافد على السرادق الكبير منذ الساعة السابعة مساءً، كان موكب السيدة أم كلثوم يقطع الطريق الطويل بين محل نزلها في فندق «الودان» في منطقة «الظهرة» بوسط طرابلس، متجهًا إلى شارع «عمر المختار» حيث السرادق الكبير. كان تنوع الجماهير الليبية المتدفقة على مداخل الخيمة الكبيرة لافتًا للنظر، فللمرة الأولى تُرى النساء في المملكة الليبية في حفل ساهر، وفي اختلاط واضح بينهن وبين الرجال، وخصوصًا تلك النسوة اللاتي جئنا بمفردهن من مناطق الجنوب -أكثر مناطق ليبيا تحفظًا- من أجل مشاهدة سيدة الغناء العربي والسهر معها حتى الصباح. كانت الجمعيات النسائية الليبية مسؤولة بعض الشيء عن ذلك الاختلاط؛ فقد طلبت تلك الجمعيات من منظمي حفلتي السيدة أم كلثوم في المملكة الليبية السماح للمرة الأولى للسيدات بالحضور مع الرجال في الحفلين.

وبعد تبادل وجهات النظر، وافق المسؤولون، على أساس أن أم كلثوم لن تقيم أكثر من حفلين في المملكة، وأن ذلك الاختلاط لن يدوم طويلًا، وقد دفع ذلك المشهد الجديد على ليبيا الإعلامية فريال صالح التي كانت تجوب بكاميراتها في أرجاء السرادق إلى محاولة اكتشاف ذلك التحول في الفكر المجتمعي الليبي. وعندما سألت صالح إحدى الليبيات الجالسات في الصف الأول، قالت لها: «أم كلثوم جاءت إلى ليبيا فكيف لا نتحرك إلى لقائها، والله لو مشت أم كلثوم خطوة لنمشي إليها خطوتين!»، في حين قالت سيدة أخرى غطت وجهها خجلًا من كاميرات التليفزيون العربي: «اليوم هو اليوم السعيد الذي طالما تمنيت أن أعيشه قبل أن أموت!».

دخلت السيدة أم كلثوم من البوابة الخلفية للسرادق الكبير، لترصدها كاميرات التليفزيون العربي وهي تدلف إلى حجرتها الملحقة بخلفية المسرح. كانت ترتدي أم كلثوم فوق فستانها معطفها الأسود الشهير وتغطي شعرها بمنديل برتقالي. وبعد راحة صغيرة، صعدت أم كلثوم إلى الكواليس وتواصلت مع قائد فرقتها محمد عبده صالح، الذي بدا عليه الإرهاق والتعب جليًّا. كان عبده صالح قد غاب للمرة الأولى في تاريخه الفني الطويل مع أم كلثوم عن الحفل الشهري الأخير في القاهرة ليلة 6 فبراير 1969 بسبب نسكة صحيّة ألمت به. كان مقررًا أن تغني أم كلثوم في تلك الليلة قصيدة «هذه ليلتي» في وصلتها الأولى، وفي الثانية أغنية الموسم «ألف ليلة وليلة» التي أطلقتها في الشهر الماضي، ولكن تحت ضغط طلبات الجماهير الليبية، وافقت أم كلثوم على غناء قصيدة «الأطلال» في وصلتها الثانية.

كان الصف الأول مليئًا بالشخصيات السياسية الليبية والفلسطينية، فقد حضر رئيس الوزراء ونيس القذافي (1922–1986) –وهو آخر

من تولى رئاسة الوزراء في المملكة الليبية- وجلس في منتصف الصف الأول في مواجهة المسرح تمامًا، ثم توافد على السرادق باقي الوزراء الليبيين وكبار رجال الدولة في المملكة، ثم السفراء العرب وسفير الجمهورية العربية المتحدة. وفي يسار الصف الأول، جلس الوزير حسن عباس زكي وزير الاقتصاد، وأخذ الوزير المصري الذي عرف بميوله الصوفية يقول لمن حوله: «إنّها ثروة اقتصادية.. قبل أن تكون ثروة فنية!»، ولكن بقي الجانب المؤثر في تلك اللحظة هو ما كان يفعله رجال المقاومة من منظمة «فتح»، الذين وقفوا على مداخل السرادق لاستقبال الحاضرين وتوزيع الشارات التي تحمل شعار «العاصفة» عليهم، وكان بريق الاعتزاز والأمل يلمع في عيونهم وهم يقولون لكل من يدخل بابتسامة رقيقة: «شكرًا لكم.. شكرًا أنكم جئتم!» وعلى شفة كل فرد منهم يتردد تعبير التقدير والعرفان للسيدة العظيمة، التي كانت السبب في تحقيق هذا الرصيد وفي جمع ذلك الحشد الكبير في طرابلس.

قبل أن يرفع الستار بدقائق قليلة، لاحظ الجميع حركة غير عادية في مداخل السرادق، إذا تفاجأ الجمع الكبير بحضور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس جمال عبد الناصر إلى الحفل، وقد وفد إلى ليبيا في مهمة رسمية ليسلم الملك إدريس السنوسي رسالة شخصية من عبد الناصر. جلس الخولي في الصف الأول بجوار رئيس الوزراء الليبي. وبعد لحظات قليلة، اهتز الستار الكبير وأخذ في الانفراج تدريجيًا لتظهر السيدة أم كلثوم وهي تتوسط عبد الله عابد السنوسي والقانوني والأديب الليبي علي الديب (1922-2006). هزت حرارة التصفيق أعمدة السرادق الكبير، وتعالت صيحات الجماهير تهتف للعروبة وللحق العربي السليب وللسيدة التي كرست

سنواتها الأخيرة من أجل العمل الفدائي. وقبل أن تبدأ أم كلثوم في الغناء، أصرَّ الأديب علي الديب على أن يلقي كلمة مرتجلة يرحب فيها بالسيدة أم كلثوم، مخاطبًا الجماهير: «أيها الإخوة.. اسمحوا لي أن أعمم، فطابع المناسبة لا يتحمل التصنيف والتخصيص، لأنّها مناسبة نصيب الفن في الكفاح، وبالتالي مناسبة «فتح»، والفن والكفاح كلاهما معنى لا تقر خصائصهما التمييز بين بني الإنسان.

باسم صديقي وأخي السيد عبد الله عابد السنوسي الذي يقام هذا الحفل المبارك تحت رعايته وإشرافه، والذي عوّدنا دائمًا إن نساهم بأوفر نصيب في القضايا التحررية، وأن يؤدي رسالته كاملة في معاركهم المصيرية، فباسمه أرحب بكوكب الشرق الساطع، وبلبله المغرد، وعندليبه الصداح، فمن هي؟ إنّها هي وكفى!

ولست مصرحًا باسمها، لأن صفات المجد إذا اقترنت بحقيقة الموصوف كانت أدل عليه من الأسماء والألقاب، لسنا نسميكِ إجلالًا وتكريمًا، فقدركِ المعتلي عن ذاك يغنينا، إذا انفردتِ وما شوركتِ في صفة فحسبنا الوصف إيضاحًا وتبيينا. مرحبا بك وبصحبك في داركِ ووطنكِ، وبين أهلكِ وعشيرتكِ، مواطنة لا زائرة وداعية لا ضيفة، ومحسنة لا محسنًا إليها. فتقدمي واثقة الخطوة تمشين ملكًا، وغردي واصدحي؛ فما تغريد البلابل إلا ترديد لنغمكِ الساحر، وما رقرقة الجداول إلا نبع من لحنكِ الفياض، وما همسات الدوح إلا تجاوب مع وتركِ الحنان. ولم يبهر أئمة الأدب وأساطين البيان ما أبدعه أمير الشعراء من روائع القصيد في مدائحه النبوية «كنهج البردة» و«سلوا قلبي» و«ولد الهدى»، إلا يوم أضفيتِ عليها من فنكِ الرفيع ما جعلها تسبيحًا يرتل في كل معبد، ونشيدًا يغنى في كل حقل، وصدى يتجاوب في كل واد. فغردي واصدحي وابعثي بتغريدكِ تحية مضمخة بنسمات

النيل، ومعطرة بأنفاس آذار إلى الإدريس المفدى رمز الجهاد وعنوان التضحية، هدية له بمناسبة عيد ميلاده السعيد، وإلى ولي عهده يشارك في البناء، ويساهم في العمل ويترسم طريق الآباء والأجداد، وإلى أخيه جمال عبد الناصر ينظم الخطة لخوض المعركة الحاسمة وإحراز النصر المؤزر وإلى روح الشهيد البطل عبد المنعم رياض؛ الذي ترك للأجيال درسا عمليًا، عنوانه كيف يجود الأبطال بأرواحهم فداء لحياة الوطن، وإلى كل جندي عربي يرابط في ميدان الشرف ينتظر الإشارة ليسترد الحق السليب، ويترقب ساعة الصفر ليلبي نداء الثأر».

وتذكر مجلة «آخر ساعة» في عددها الصادر يوم 19 مارس 1969 أنّه في تلك اللحظة، وبمجرد ذكر الأديب علي الديب للشهيد عبد المنعم رياض في كلمته، اشتعلت الجماهير بالحماس وتحول السرادق الفسيح إلى تظاهرة هادرة، ولم تقدر أم كلثوم على كبت مشاعرها أكثر من ذلك، ولم تراعِ أن مئات الكشافات مسلطة عليها، وعشرات العدسات تصورها وترصدها، فتوارت خلف عبد الله عابد السنوسي حتى تختفي عن العدسات الصحفية، وأخذت تمسح دموعها بمنديلها، وعلامات التأثر الشديد تهزها وتجتاح مشاعرها، ولكن كاميرات المصورين رصدتها وهي تبكي ونشرت تلك الصورة معظم الصحف المصرية في تغطيتها للحفل الأول يوم 14 مارس 1969.

في حين استطرد على الديب في تقديمه «غردي واصدحي لهؤلاء الغُر الميامين، الذين يرزحون تحت وطأة الاحتلال الصهيوني البغيض، ويتجشمون في مسرى النبي ما لا يطيق الصخر أن يتجشمه، غردي واصدحي لياسر عرفات وحوارييه ومريديه وأسوده وأشباله، وصقوره وشواهينه، يتخطون الجسور ليؤدبوا «عصابات نبوخذ نصر»، ويقتحمون الحصون ليعيدوا أمجاد صلاح الدين، ويبذلون

الأرواح ليزيلوا لطخة العار، ويجودون بالأرواح لتوهب لهم الحياة. وأخيرًا وليس آخرًا، غردي واصدحي للشعب الليبي؛ ذلك الشعب الذي ألجمت الخطوب فاه أحقابًا طويلة، وحرمت أذنيه الإصغاء أجيالًا مديدة، وحينئذ هب إلى الكفاح بقيادة عائله المفدى، فضحى وبذل وكافح وناضل، وحطم القيود وكسر الأغلال، واليوم ينطلق لسانه فيرحب بك بأفصح بيان، ويصغي إليكِ بكل الجوارح، فغرّدي له واصدحي وغنّي له كثيرًا «موش شوي شوي»، غنّي له، غنّي وخذي من قلوب أبنائه ما تشائين».

وبعدما أنهى القانوني والأديب علي الديب كلمته البليغة، ترك المسرح ومعه عبد الله عابد السنوسي للسيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية لتبدأ الوصلة الأولى، فغنت أم كلثوم قصيدة «هذه ليلتي» للمرة السادسة في مدة دامت أكثر من مئة دقيقة كاملة، وكان التصفيق لا يهدأ طوال الوصلة، لتستعيد الجماهير كل مقطع من مقاطع القصيدة أربع مرات، ويتحول الجمع إلى هدير إعجاب، وتنطلق الأيدي لتصفق وتلوح للسيدة التي تغني من أجل هؤلاء الرابضين على خطوط المواجهة.

وبعد نهاية وصلتها الأولى، صعد حسن صبري الخولي إلى المسرح وحيّاها أمام الجماهير، ثم رافقها إلى حجرتها وجلس معها على انفراد بعض الوقت، وسألته أم كلثوم عن الأوضاع في الجبهة المصرية خصوصًا بعدما تجددت الاشتباكات العنيفة بعد سفرها إلى المملكة الليبية، وكذلك عن الاستعدادات المتوقعة بعد استشهاد الفريق رياض، وعن الحاجات الضرورية التي تلزم القوات المسلحة المصرية في ذلك التوقيت لكي تحاول توفير بعضها. وبعدما خرج حسن صبري الخولي من حجرتها، توافد عليها مئات المعجبين

من كبار الشخصيات الليبية، لكن كان لا بد من أن يكون هناك ذروة للمشهد المهيب في ذلك السرادق الكبير. ففي غرفة الاستراحة الصغيرة المخصصة لأم كلثوم خلف الكواليس، وبعيدًا عن أعين الجماهير الغفيرة المحتشدة في تلك الخيمة العملاقة. وبينما كانت أم كلثوم تشرب في غرفتها كوبًا من الشاي الساخن وتوقع على الصور التذكارية والأوتوجرافات، دخل الغرفة ثلاثة شبان فلسطينيين من منظمة «فتح» واقتربوا من أم كلثوم وقال أحدهم: «هل تسمحين لنا أن نقدم لكِ شيئًا بسيطًا تعبيرًا عن مشاعرنا تجاهكِ؟ ليست هدية بقدر ما هي رمز لمعنى معين!».

ووقفت أم كلثوم وصافحتهم بكل ما في قلبها من اعتزاز بهم، بينما أخرج واحد منهم شارة «العاصفة» من الصندوق الذي يحمله ووضعها على صدرها وهو يقول: اعذرينا يا سيدتي العظيمة.. ليس لدينا ما نقدمه لكِ غير المبدأ الذي نعمل من أجله.. أرجو أن تقبلي أن تكوني في صفوفنا!

ولم تستطع أم كلثوم -على وَفق ما روته مجلة «آخر ساعة»- أن تكتم مشاعرها، وقالت لهم والتأثر غالب على نبراتها والدموع في عينيها: «هل يعني ذلك إنّني أصبحت واحدة منكم؟ من المناضلين؟».

وهز الثلاثة رؤوسهم بالإيجاب. لم تسعفهم الكلمات بأكثر من ذلك فقد كانت دموع أم كلثوم أبلغ من أي كلام، وشدت سيدة الغناء على أياديهم وكأنما تقول «ليس هناك أعظم من اليوم الذي أصير فيه منكم!».

في الوصلة الثانية، غنت أم كلثوم قصيدة «الأطلال» بمزاج وسلطنة كعادتها في معظم رحلاتها العربية، ويكشف لنا التسجيل الصوتي والمرئي لتلك الوصلة الغنائية حدثًا يبدو غريبًا وغير مألوف في

تاريخ حفلات السيدة أم كلثوم؛ فبعد أن غنت أم كلثوم الثلث الأول من القصيدة واستعادت الجماهير مقاطعها مرات ومرات، وصلت السيدة أم كلثوم إلى المقطع الأقرب لقلوب الجماهير العربية مقطع «هل رأى الحب سكارى مثلنا»، وبعدما فرغت من أدائه بدأ أحمد الحفناوي يمهد بجملة «الكمان» الشهيرة للمقطع الذي يليه، لكن الجماهير أبت أن تمضي أم كلثوم إلى نهايات القصيدة، وظلت تصفق وتهتف بالإعادة، لتهز السيدة أم كلثوم أعطافها بوثبة خفيفة مع ابتسامة كأنّها تقول للجماهير المحتشدة في السرادق «كفاية لحد كدا!»، لكن الجماهير أصرت على الإعادة وتوقفت الفرقة الموسيقية للحظات تنتظر القرار الكلثومي. وفي هذه اللحظة، جاء واحد من الجماهير من أهل ليبيا، ويتضح هذا من طاقيته التقليدية، ليقف أمام المسرح وينادي على السيدة أم كلثوم وهو يرفع شاهد ذراعه اليمنى ويقول: «ست أم كلثوم يا ست أم كلثوم» لتنتبه أم كلثوم لذلك النداء فإذا به يقول لها في رجاء شديد: «وحياة والدك.. وحياة كل العرب تعاودي من أول أعطني حريتي أطلق يَدَيّ»، وكان وقع ذلك الرجاء على أم كلثوم غريبًا فإذا بها تقول: «الله؟» وكأنّها تعني معقول هذا؟ فذلك معناه أنّها ستعيد غناء أربع مقاطع كاملة مرة أخرىٰ من أصل سبعة مقاطع غنتها منذ بداية الوصلة، ويستغل الجمهور ذلك الطلب، وتصفق الجماهير راجية أن تستجيب السيدة أم كلثوم لذلك الرجاء الخاص، وهنا انقلب ردَّ فعل السيدة أم كلثوم فضحكت لذلك الاستغلال الجماهيري، وتراجعت خطوتين إلى الخلف مع الاحتفاظ بابتسامتها العريضة وهي تشاهد ذلك الإصرار الليبي على تلك الإعادات الكثيرة، وقالت وهي تخاطب الجمهور منبهرة بتلك المحبة وتلك الرغبة في التزود بأقصى ما يمكن من نشوة غنائها «إيه دا؟!» لتستجيب الفرقة الموسيقية، وتعاود

أم كلثوم غناءها من بداية مقطع «أعطني حريتي أطلق يدَيّ»، لتضج القاعة بالتصفيق والهتاف وصيحات الإعجاب التي لم تنقطع قط، وفي تاريخ تسجيلاتها المسموعة لم يحدث موقف مثل موقفها في طرابلس هذا إلا مرة واحدة؛ ففي أول أداء تاريخي لقصيدة «الأطلال» بعد إطلاقها في أبريل 1966، وتحديدًا في عيد ثورة يوليو الأخير عام 1966، وبعد أن أسدل ستار مسرح «نادي الضباط» بالزمالك عن أم كلثوم مرتين، ألحت الجماهير على أم كلثوم بالإعادة، والاستزادة من مقاطع «الأطلال» الأخيرة، فأعادت أم كلثوم مقطع «يا حبيبي كل شيء بقضاء» لكن تلك الإعادة لم تكفِ الجماهير، التي أصرت على المزيد، فعاودت أم كلثوم الغناء مرة أخرى لكنها بدأت هذا المرة من مقطع « هل رأي الحب سكارى» أي أنّها استعادت ثلاثة مقاطع دفعة واحدة. غنت أم كلثوم «الأطلال» في مدينة طرابلس الغرب يوم 12 مارس 1969 في ساعتين إلا ربع تقريبًا، وعند الساعة الثانية والنصف صباحًا أسدل ستار الحفل الأول عن أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، ومضى كل الحاضرين إلى غايتهم، بعدما شهدوا ليلة أم كلثوم الأولى في المملكة الليبية، وبعدما سهرت المملكة للمرة الأولى في تاريخها إلى ساعات الصباح الأولى مع الطرب والمقاومة!

بقيت السيدة أم كلثوم في مدينة طرابلس خمسة أيام بعد حفلها الأول، وذلك من أجل تلبية معظم الدعوات التي وجهت إليها من جهات رسمية أو من شخصيات عامة في المجتمع الليبي. ففي اليوم التالي 13 مارس 1969، قضت السيدة أم كلثوم ساعات الظهيرة مع طلبة مدرسة «الصناعات الجديدة» في مدينة طرابلس، وهذه المدرسة كانت قد أقامتها وزارة الأوقاف الليبية للطلاب الأيتام الذي فقدوا ذويهم وترعاهم الحكومة الليبية، واستقبلها الطلبة بالهتاف وعزف الموسيقى

والترحيب الممزوج بالحرارة والمحبة، ولمس المشهد قلب السيدة أم كلثوم وتصاعد إلى ذروته عندما وقف أحد الطلاب وألقى كلمة للترحيب بها نيابة عن زملائه وبدأها بتعبير أثر في السيدة أم كلثوم جِدًّا، عندما قال «أمي العزيزة.. مرحبًا بكِ بيننا». وقد رصدت مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 26 مارس 1969 تأثر أم كلثوم في تلك اللحظة، ويذكر الصحفي محمد وجدي قنديل الذي رافق السيدة أم كلثوم في تلك الرحلة في كل خطوة من خطواتها، أنّ أم كلثوم دمعت عيناها ولم يجد أبلغ تأثيرًا عليها من تلك الكلمة البسيطة التي وقعت في نفسها موقعًا خَاصًّا، وهي التي حرمت من الأمومة. وأخذت السيدة أم كلثوم تصافح هؤلاء الأطفال وتحضنهم، بعدما أحاطوا بها من كل جانب، وكلما حاولت الانصراف طلبوا إطالة مدة الزيارة. واهتمت أم كلثوم بكل شؤونهم، وأخذت تسأل عن كل صغيرة وكبيرة في المدرسة، وأبدت إعجابها بنظام المدرسة وفكرتها، لكنها تمنت أن يكون للبنات في المملكة الليبية نصيب من هذا المجهود أيضًا، ووعدها المسؤولون بتحقيق ذلك في أقرب وقت. وفي مساء ذات اليوم، لبَّت السيدة أم كلثوم دعوة الدكتور مصطفى العجيلي أحد رواد المسرح في المملكة الليبية، حيث أقام لها في داره بمدينة طرابلس مأدبة عشاء كبيرة، دعا فيها سفراء الدول العربية والأدباء الليبيين ووجهاء المدينة.

أما العائلة السنوسية فقد أقامت للسيدة أم كلثوم حفل استقبال كبيرًا يوم 14 مارس 1969 في مزرعة عبد الله عابد السنوسي، وهي مزرعة كبيرة كانت تقع خارج حدود مدينة طرابلس على بعد 45 كيلومترًا تقريبًا. وقبل أن تصل السيدة أم كلثوم إلى المزرعة، وقف أفراد العائلة الكبيرة على مشارف الضاحية يستقبلون موكبها بالورود. وبعدما وصلت أم كلثوم ووفدها الإعلامي قضوا اليوم بالكامل في

الريف الليبي بين المزارع والأشجار، وقد دعا عابد السنوسي إلى ذلك الحفل مجموعة كبيرة من السفراء العرب وقريناتهم، كما جاءت سيدات العائلة السنوسية من مختلف أنحاء المملكة الليبية من أجل مقابلة السيدة أم كلثوم، التي ظلت طوال اليوم توقع على صورها هدايا للعائلة السنوسية. وبعد يوم حافل، ودعها عبد الله عابد السنوسي حتى باب سيارتها لتعود إلى فندق «الودان» في وسط العاصمة طرابلس. وفي اليوم التالي 15 مارس 1969، ذهبت السيدة أم كلثوم إلى الحفل الخاص الذي أقامته لها سيدات الجمعيات النسائية الليبية في «دار الصفا» بدعوة من السيدة عزيزة الشيباني، وهي واحدة من السيدات الليبيات التي كانت تقوم بدور بارز مع السيدات المصريات في المملكة الليبية من أجل المجهود الحربي وإغاثة ضحايا العدوان، وقد حضر أكثر من مئتي سيدة في هذا الحفل للترحيب بالسيدة أم كلثوم بوصفها رئيسة «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» الذي أقامته بعد هزيمة يونيو. كانت جميع السيدات في تلك السهرة يرتدين الزي الوطني الليبي، وكانت عيونهن وكلماتهن تنطق بالمحبة والتقدير للسفيرة فوق العادة القادمة من القاهرة، وجلست أم كلثوم بينهن وسط دائرة على الأرض، ودار حوار مفتوح حول دور المرأة العربية في مرحلة ما بعد العدوان، وقالت السيدة أم كلثوم: «إنّ المرأة عنصر أساسي في الصمود والمقاومة، أينما كان موقعها وكيفما كانت ظروفها، وإنّ حركتها الإيجابية مؤثرة لأبعد الحدود»، وكان أكثر ما استوقف السيدة أم كلثوم في تلك الدعوة هو تنوع الزي التقليدي في المملكة الليبية، والاختلاف الواضح بين زي سيدات مدينة طرابلس وزي نساء مدينة بنغازي، ووقفت أم كلثوم تستعرض الاختلاف الشكلي بين ملابسهن التقليدية، وارتدت السيدة أم كلثوم في نهاية

تلك الدعوة العباءة الليبية الشهيرة والمطرزة بالقصب، التي قدمها إليها هدية العميد عبد العزيز الشلحي رئيس عمليات الجيش الليبي، ثم عزفت الموسيقى الليبية التقليدية في نهاية السهرة، ورقصت فتيات طرابلس أمام السيدة أم كلثوم، إذ كان يعتبر رقص الفتيات في المملكة الليبية في ذلك الوقت شكلًا من أشكال التكريم.

وفي يوم 16 مارس 1969، زارت السيدة أم كلثوم كلية «الهندسة» داخل المجمع العلمي في مدينة طرابلس، واستقبلها الجامعيون استقبالًا حَارًّا لأبعد الحدود، إذ كان معظمهم من المصريين المنتدبين للعمل في المملكة الليبية. وتشير صحيفة «الأهرام» الصادرة في 17 مارس 1969 إلى أن العميد عبد العزيز الشلحي رئيس عمليات الجيش الليبي قد دعا السيدة أم كلثوم ورئيس الوزراء وكبار شخصيات طرابلس إلى حفل غداء في ذلك اليوم أقامه في منزله تكريمًا للسيدة أم كلثوم. وفي مساء ذات اليوم، أقام أحمد عنان رئيس مجلس إدارة شركة «التأمين الليبية» حفل عشاء للسيدة ووفدها الإعلامي، دعا إليه جميع أصحاب الشركات ورجال الأعمال الليبيين. وفي صباح يومها الأخير في مدينة طرابلس 17 مارس، اتّفقت السفارات العربية على إقامة حفل وداع كبير للسيدة أم كلثوم في مقر السفارة الكويتية وتحت رعاية السفير الكويتي أحمد غيث عبد الله، الذي دعا إلى الحفل جميع أعضاء السلك الدبلوماسي العربي في طرابلس بالإضافة إلى جميع وزراء المملكة الليبية. وفي مدخل السفارة الكويتية، وجدت أم كلثوم مفاجأة في انتظارها؛ قدّم لها السفير صورة من حفلها الأخير بطرابلس بالحجم الطبيعي طولها تقريبًا ثلاثة أمتار من تصوير المصور الليبي محمد كرازة مصور صحيفة «الحرية» الليبية آنذاك، الذي وقف بجانب صورته الضخمة وطلب إلى السيدة أم كلثوم أن توقع عليها.

غير أن ما جرى في مساء يوم 17 مارس 1969 كان أكثر ما في تلك الرحلة من إثارة. ففي الثامنة مساءً على وجه التقريب، استقلت السيدة أم كلثوم ووفدها المرافق طائرة من مطار مدينة طرابلس متجهة إلى مدينة بنغازي، حيث كان مقررًا إقامة حفلها الثاني في تلك المدينة يوم الأربعاء 19 مارس. في البداية، بدت الرحلة طبيعية، لكن بعدما قطعت الطائرة نصف المسافة تقريبًا تغير كل شيء، إذ تعرضت الطائرة لمطبات هوائية عنيفة هددت سلامة الطائرة وركابها. كانت تلك المطبات الشديدة تعبث بالطائرة على حد وصف الكاتب الصحفي كمال الملاخ، الذي وصف ما حدث في مقاله بصحيفة «الأهرام» الصادرة يوم 20 مارس 1969: «كانت المطبات تلعب بالطائرة وترفعها وتخفضها كريشة في مهب الرياح، مما أثار أعصاب بعض الركاب في اللحظة التي كانت فيها مضيفة الطائرة تقدم العشاء، ولكنّ أحدًا لم يمد يده ليأكل شيئًا».

كانت أم كلثوم في تلك اللحظة ثابتة الجأش، تتطلع من النافذة ناظرة إلى أعلى في صمت وهدوء. ويتوقف الكاتب الكبير رجاء النقاش في مقاله المنشور في افتتاحية مجلة «الكواكب» الصادرة يوم 1 أبريل 1969عند ذلك الحدث، فيروي بعضًا مما جرى داخل الطائرة وهو الشاهد عليه «فقدَ كثير من ركاب الطائرة أملهم في النجاة، وصرخ البعض، وأغمي على البعض، وظهر المضيف الأجنبي ووجهه أصفر وقد بدا عليه الذعر، وكنت أجلس في مقعدي على الطائرة وراء أم كلثوم مباشرة، وكان الصديق كمال الملاخ إلى جانبي يحاول أن يفتح أحاديث مختلفة عن توفيق الحكيم وعن حياتنا الفنية هنا وهناك. كان يحاول أن يخرج بنا من جو الأزمة التي أطبقت علينا ونحن في الفضاء، وقد تسرب إلينا إحساس قوي بأن النجاة من هذا المأزق عسيرة، وأن

الطائرة أوشكت أن تسقط في جوف البحر الذي نسير فوقه. وبين الحين والحين، كنت أنظر إلى أم كلثوم وهي جالسة على مقعدها في هدوء وسكون وعرفت بعد ذلك أنّها تتمتم بآيات قرآنية، تقرؤها همسًا وفي هدوء وجداني كامل وإيمان مخلص عميق بالله». هذا الإيمان الواضح عند أم كلثوم كان موضع تعجب كل من رافقها في تلك الليلة العصيبة، فقد صرّحت في يوم سفرها إلى المملكة الليبية -أي قبل ذلك الحادث بأيام قليلة- أنّها لا تخشي الموت في الطائرة أبدًا، إذ قالت لكمال الملاخ وفقًا لما نشره في مقاله بصحيفة «الأهرام» يوم 11 مارس تحت عنوان «مع أم كلثوم في جو الفضاء»: «باتكل على الله، اللي حيحصل حيحصل، ويحصل في السيارة، في الطيارة، في الطريق، في البيت، المكتوب هو اللي حيحصل».

مرت تلك اللحظات العصيبة على الجميع وكأنّها سنوات طويلة. وبعد نصف ساعة تقريبًا فقدَ فيها الجميع أعصابه، وبعدما وُضع الركاب على حافة الهاوية التي لا نجاة منها، استقامت الطائرة في طريقها، وبدت في الأفق أضواء مدينة بنغازي، وخفّت شدة الاضطرابات الهوائية الشديدة، وخرج الجميع بعد ذلك الموقف الرهيب بمزيد من الاحترام والتقدير لشخصية أم كلثوم، التي استطاعت في أخطر لحظة يمكن أن يتعرض لها الإنسان أن تتماسك وأن تظهر بأفضل مظهر من مظاهر الشجاعة الروحية الكاملة.

وفي الساعة التاسعة والنصف مساءً، لامست عجلات الطائرة أرضية مطار مدينة بنغازي، حيث وقف في استقبال السيدة أم كلثوم عبد الله عابد السنوسي، الذي خصص داره في تلك المدينة لإقامة السيدة أم كلثوم ووفدها الإعلامي طوال مدة إقامتهم الباقية في المملكة، وقد تزامن مع وجود أم كلثوم في بنغازي وجود الموسيقار

محمد عبد الوهاب أيضًا، إذ وفد هو الآخر إلى ليبيا عن طريق البر يوم 12 مارس 1969 بدعوة من وزير الإعلام الليبي من أجل المشاركة في الاحتفالات بعيد ميلاد الملك إدريس، ولهذا سجل عبد الوهاب قصيدة غنائية تحيةً للملك السنوسي في عيد مولده بعنوان «عيد اليسر» من كلمات الشاعر عزيز أباظة (1898-1973)، وكان عبد الوهاب يخطط بعد نهاية الاحتفالات في المملكة وحضور حفل أم كلثوم الثاني في بنغازي للسفر إلى تونس، لولا آلام فجائية أصابت قدمه اليسرى، مما اضطرّه إلى تغيير وجهته إلى مدينة نابولي بإيطاليا، حيث التقى طبيبَه الخاص هناك بعدما جاء خِصّيصَى للكشف عليه.

في بنغازي، قضت السيدة أم كلثوم خمسة أيام كاملة، إذ أقامت حفلها الثاني في المملكة الليبية يوم الأربعاء 19 مارس 1969، وذلك على أرض معلب «24 ديسمبر» بمنطقة «البركة» في مدينة بنغازي. وكان قد بدأ نقل جميع المعدات والمقاعد والمفروشات المستخدمة في بناء سرادق الحفل الأول من طرابلس العاصمة إلى مدينة بنغازي منذ فجر يوم 13 مارس. وكما كان الإقبال تاريخيًا على الحفل الأول، كان كذلك في الحفل الثاني، إذ وصل إلى المدينة عدد كبير من كبار الشخصيات في المغرب العربي لحضور حفل أم كلثوم، وكان من بينهم السيدة نائلة بن عمار شقيقة الماجدة وسيلة عقيلة الرئيس الحبيب بورقيبة، في حين حُجزت كل الطائرات القادمة إلى المملكة الليبية في ذلك الأسبوع، لدرجة أنّه لم يبقَ في جميع فنادق مدينة بنغازي مكان واحد شاغرًا.

وقبل الحفل بساعتين، بدأ توافد عشرة آلاف مستمع على السرادق الكبير من أجل سماع السيدة أم كلثوم، والمشاركة أيضًا في حملتها الوطنية للمجهود الحربي والمقاومة الفلسطينية. وكما كان الصف

الأول في حفل طرابلس مخصصًا لكبار الشخصيات، كان كذلك في حفل بنغازي، إذا جلس في الصف الأمامي في مواجهة المسرح مباشرة عبد الله عابد السنوسي وإلى جواره السيدة نهلة القدسي زوجة الموسيقار محمد عبد الوهاب وبعض الوزراء والدبلوماسيين العرب، في حين توسط الصف تمامًا السفير المصري أحمد رياض ومستشار السفارة المصرية محمد شبانة، والقنصل المصري في بنغازي محمد عبد العزيز. وقد تميزت هذه الحفلة عن حفلة طرابلس بحضور وفود أدباء المغرب العربي الذين كانوا مجتمعين في ليبيا في ذلك الوقت، وقد جاء أعضاء تلك الوفود الأدبية خِصّيصَى بالطائرة من العاصمة طرابلس ليحضروا حفلة أم كلثوم، كما قطع المسافة ذاتها الفنان عمر الحريري (1926-2011) الذي كان يعمل في المملكة الليبية آنذاك من أجل تدريب بعض الفرق المسرحية.

في تمام التاسعة مساءً، انفرج الستار عن أم كلثوم، وظهرت على المسرح ترتدي فستانًا بنفسجي اللون، مطرزًا بخط أفقي ويحلي صدرها بعض المجوهرات البسيطة. في الوصلة الأولى، غنت السيدة أم كلثوم أغنية «أمل حياتي» للموسيقار محمد عبد الوهاب. ونظرًا إلى أن تلك الليلة كانت تتزامن مع الاحتفال بليلة رأس السنة الهجرية، فقد تأخر بث الوصلة الأولى عبر موجات الإذاعة الليبية، وذلك من أجل إذاعة كلمة رسمية لتهنئة المواطنين الليبيين بتلك المناسبة الدينية. وبعد ساعة تقريبًا، ختمت السيدة أم كلثوم وصلتها الأولى ودخلت إلى حجرتها لتلحق بها السيدة نهلة القدسي، التي ظلت معها حتى ارتفعت الستار وبدأت الوصلة الثانية.

كان من الممكن ألا يحظى حفل السيدة أم كلثوم في مدينة بنغازي بمساحة كبيرة من الاهتمام لولا ما جرى في وصلته الثانية، وجعله

حفلًا تاريخيًّا بامتياز؛ فبعد أن اختارت أم كلثوم أغنية «بعيد عنك» لتكون وصلتها الثانية في تلك الليلة، وبعدما عزفت الفرقة الموسيقية المقدمة البديعة لتلك الرائعة، بدأت أم كلثوم في غناء المذهب ليقابلها الجمهور بعد انتهائها منه بتصفيق حاد. ووسط الهتاف والصراخ وطلبات الإعادة، تناهى إلى سمع السيدة أم كلثوم كلمة بذيئة صادرة من أحد الحضور لم تعجبها، فغضبت ودفعها الغضب الذي نادرًا ما كانت تصل إليه على المسرح، لتقول بصوت واضح ومسموع «اخرس.. قليل الأدب!».

صدمت تلك العبارة كل من في المسرح، وصمت الجالسون في الصفوف الأولى لفهم ما حدث بالضبط، لكن أم كلثوم أعطت إشارة للفرقة الموسيقية بإعادة المذهب الأول حتى تتجاوز الموضوع. وبالفعل، أعادت المذهب وأضافت إليه ارتجالًا سريعًا، في محاولة منها لتخطي تلك اللحظة الحرجة، كي لا تنال تلك الكلمة من تماسكها وتعكر صفو مزاجها، فغنت وحاولت أن تتجاوب مع طلبات الإعادة. تميزت الوصلة ببعض التفاريد الجديدة، لا سيّما تفاريد الإعادة الثالثة للمقطع الأول الذي يعتبر واحدًا من أجمل تفاريد السيدة أم كلثوم.

لكن بعد نهاية الحفل، حاول الكثيرون البحث عن تلك الكلمة التي قيلت وسط الجموع ودفعت أم كلثوم لتلك الحالة الغاضبة. ورغم محاولات التدقيق الشديد في التسجيل الإذاعي الذي أفرجت عنه الإذاعة المصرية في شهر مارس 2010 بعدما منعت إذاعتَه السيّدةُ أم كلثوم، لم يستطع أحد أن يميز تلك الكلمة بسبب تداخلها مع هتاف الجمهور العريض في تلك اللحظة، لكنّ السيدة أم كلثوم استطاعت من موقعها أن تميّزها بشدة. ويؤكد معظم المصادر وشهود العيان أن ذلك المعجب قد قال للسيدة أم كلثوم: «عيدي يامرا عيدي»، وهي

كلمة دارجة في العامية الليبية شأنها شأن باقي لهجات بعض البلاد العربية، التي تستخدم تلك الكلمة في النداء على السيدات. ولكن أم كلثوم، بحكم ثقافتها المصرية، لم تستسغ كلمة «يا مرا» التي لا تقال عادة في المجتمع المصري إلا على سبيل التحقير والإهانة.

لم يمر ذلك الحدث مرورًا هادئًا في الصحافة الليبية؛ فبعد يومين من الحفل تحديدًا، بدأت الأزمة تكبر وتحتل موقعًا مميزًا في تحقيقات الصحف والمجلات الليبية، وذلك بعدما نشرت صحيفة «الحقيقة» الليبية رسالة غاضبة من مواطن ليبي مجهول، بدأ في مطلعها بمدح السيدة أم كلثوم ثم تحول تَدرِيجيًّا في رسالته إلى النقد الصريح، ليسأل المواطن في نهاية رسالته عن الذي قصدته أم كلثوم بقلة الأدب، ويحاول بشتى الطرق أن يربط كلمتها العابرة بموقفها من الشعب الليبي ذاته!

وكان نص الرسالة: «لا شك أنكم تابعتم معنا الحفل الذي أحيته كوكب الشرق السيدة أم كلثوم في ملعب 24 ديسمبر الرياضي مساء الأربعاء الماضي، ولا شك إطلاقًا في أنكم لاحظتم مثلما لاحظ الجميع أن السيدة أم كلثوم ما كانت أبدًا في حالتها الطبيعية، ما غنت مثلما تغني دائمًا، بانسجام وترابط والتحام يكون دائمًا بينها وبين جمهورها. وما غنت وفي نفسها تلك السعادة التي طالما سمعناها تذوب فيها، كلما التقت عشاق فنها. وما غنت وفي وجدانها ذلك الاستعداد الفني الذي يمنحها القدرة على تلبية مطالب الجمهور مرة واثنتين وثلاثًا وأربعًا أيضًا، ما غنت إلا لتقضي واجبًا، أحسسنا جميعًا أنّها تؤدي وظيفة، وأحسسنا أنّها لولا الإحراج والعتب ما غنت، فلماذا؟ وما غنت في حياتها وصلتين لمدة ثلاث ساعات فقط بما فيها ساعة راحة إلا في بنغازي، فلماذا؟

كل هذا تغاضينا عنه واعتبرنا أنّه ليس من حقنا التساؤل حوله، أو الاستفسار عنه، علمًا بأننا لو تساءلنا فإننا نتساءل بدافع الحب والتقدير الذي نكنّه تجاه هذه الفنانة الإنسانة التي منحت فنها ووطنها وقضيتها أكثر مما يجب أن تمنحه، ولكننا سكتنا وجرعنا عصبية السيدة، وقلنا إن هذا من شأنها، وربما كان هناك من الظروف النفسية والشخصية ما يخفى علينا، إلّا أنّ ما تطور إليه الأمر كان حافزًا لكتابة هذه السطور وإثارة ما كنا ننوي التغاضي عنه، فلقد سمعنا بأذاننا ورأينا بأعيننا -نحن الذين تابعنا كوكب الشرق من خلال التليفزيون-، سمعنا السيدة تسب شخصًا ما، أو مجموعة ما، أو جمهور الحفل كله، لا أستطيع أن أجزم. فقط سمعناها تنعت أحدًا ما بقلّة الأدب، وتطلب منه بالسب أن يكفّ عن سخافة ما!

فعلى افتراض أن هناك منْ قل أدبه على كوكب الشرق، فإن ذلك يعني أن تطلب من أحد القائمين على تنظيم الحفل إخراجه، وهذا أبسط الحقوق التي تملكها سيدة الغناء العربي. وعلى افتراض أن هناك من تطاول على احترام سيدة الغناء العربي، فإنّ ذلك يعني أن تحدد ماهية الشخص قبل أن تنعته بصفة ما، وبذلك يزول الغموض ويبقى واضحًا للجميع نوعية التصرف المشين الذي قام به هذا الشخص.

وعلى افتراض أن هناك من تصرّف بغباء وجرح شعور السيدة أم كلثوم، فإنّ أوّلَ شيء يجب أن يخطر ببالها هو أنّها تقف أمام جمهور وتُبدي الاعتداد بالنفس ما يغنيها عن سب متفرج أساء إليها، وباستطاعتها أن تلزمه حدود الأدب باللياقة وبإشارة بسيطة لا تشعر أحدًا بها، ولا تضع نفسها موضع المتهم بالإساءة إلى شعب وجرح كبريائه!

نحن نطالب وبكل حق أن توضع علامات على الطريق، ونطالبكم

أنتم يا رجال الصحافة بهذه المهمة، وضحوا لنا وأجيبونا على تساؤلاتنا، وقولوا لنا الحقيقة، فنحن لسنا بالذين يتجرعون السب بهذه البساطة، ونحن لم نبخل على كوكب الشرق ولم نضنَّ عليها بشيء حتى تسب أحد مواطنينا أو تسبنا كلنا أو.. أو.. لسنا ندري بالضبط من الذي سبته، إنّنا فقط نتساءل وفقط نطالب وإذا كان نصيب هذه الرسالة سلة المهملات وتغاضيتم عن مطلبنا المشروع، فليس لنا إلّا أنّ نضرب كَفًّا بكف، ونستعيذ بالله من صحافتنا الوطنية. ودعوني أقول لكم إنّني آسف إذا كانت رسالتي فيها شيء من الغضب، فلست إلا مواطنًا غيورًا على كبرياء وطنه.. وشكرًا».

أثارت تلك الرسالة الغاضبة ضجة في الأوساط الصحفية الليبية، وحاولت صحيفة «الحقيقة» الليبية تخفيف وطأة الهجوم على السيدة أم كلثوم، وردت على تلك الرسالة بأنْ وعدت ذلك المواطن بأنّها ستوفد أحد المسؤولين في الصحيفة إلى منزل عبد الله عابد السنوسي ليقابل السيدة أم كلثوم لتوضيح موقفها. وبالفعل، ذهب صحفي من الصحيفة وقابلها، وبعد نقاش طويل مع المحرر، قالت السيدة أم كلثوم إنّها تستغرب جدًا من تلك الحساسية الزائدة عند الشعب الليبي، وأبدت استغرابًا أشدَّ حين فهمت أن الإساءة جرحت كبرياء كل الذين سمعوها وشاهدوها، وقالت: «ما إنا كان ممكن أقولها في مصر أو في أي بلد تاني». وبعد أخذ ورد ونقاش مستفيض، قالت أم كلثوم لصحيفة «الحقيقة» إنّها كانت تعني بالسب شخصًا مِصريًّا من الذين يسافرون خلفها في كل حفلاتها الخارجية، وإنّها حاولت إسكاته بكل الطرق لكنّه ظل على جنونه الذي أزعجها ودفعها بالتالي أن تسبه بالطريقة التي سبته بها أمام الجماهير.

لكن ذلك التفسير الذي قدمته السيدة أم كلثوم لم يقنع بعض

الأقلام الصحفية الليبية، خصوصًا اليسارية منها، فاستغلت هذه الأقلام تلك الحادثة وهاجمت السيدة أم كلثوم في صحف ليبية محدودة، وتركز معظم الهجوم على نقطة واحدة: كيف نغني للحب ونحن نعيش في المعركة؟. ورغم تلك المعارك الصحفية المتعددة التي دارت في المملكة الليبية أثناء وجود السيدة أم كلثوم هناك، فقد تغاضت الصحف والمجلات المصرية تمامًا عن ذكر أصل تلك المعارك وسببها، وهي واقعة «السب» في حفلة بنغازي، بل حتّى إنّها لم تُلمح إلى هذه الحادثة لا من قريب ولا بعيد، واكتفى الكاتب الكبير رجاء النقاش إلى الإشارة في مقاله بمجلة «الكواكب» إلى أن حفلة بنغازي كانت بحاجة إلى مزيد من التنظيم الدقيق من الذين أشرفوا عليها، وذكر فقط ما تناولته الأقلام الليبية من جدلية الغناء للحب في ظل المعركة. وجاء في مقاله رَدًّا على ذلك: «إنّ أم كلثوم تخدم وطنها وتخدم المعركة عن طريق فنها، ولا يمكنها أن تخدم وطنها إلّا عن طريق الفن، وهي تضع مواهبها وتاريخها الفنّي كله في خدمة المعركة، وهذا هو دورها، وهو دور عظيم من الوجهة الفنية والوجهة الوطنية».

وعلى كل حال، فإنّ الأصوات التي استغلت تلك الواقعة وهاجمت أم كلثوم في ليبيا كانت أصواتًا قليلة، أمام صوت الجمهور الذي رحب بأم كلثوم كل الترحيب واستقبلها أفضل استقبال. ولذلك حينما عَرض عليها الكاتب والأديب الليبي الكبير علي مصطفى المصراتي (1926-2020) رئيس اللجنة العليا للفنون والآداب في المملكة الليبية، أن يجري معها حديثًا مطولًا وأخبرها أنّه سيكون فصلًا في كتاب له بعنوان «حوار معهم»، وهو غالبًا كتاب لم يصدر، وافقت السيدة أم كلثوم ورأت أن هذا الحوار ربما يكون فرصة لإعادة الهدوء للصحافة الليبية، وفض ذلك الاشتباك الدائر بين الأقلام الصحفية بسبب واقعة

حفل بنغازي. فبعد أن حاورها المصراتي حوارًا أدبيًّا حول شعر إقبال وشوقي وناجي، حاولت السيدة أم كلثوم استغلال فرصة ذلك الحوار وترضية الجمهور الليبي، فقالت للمصراتي إنّها سعيدة بالغناء أمام الجماهير الليبية، وحدثته عمّا لاقته من كرم الضيافة في المملكة، وأشادت بقدرة الجمهور الليبي على حسن الاستماع، وأكدت له أن الجماهير الحاشدة التي حضرت الحفلتين كانت في غاية الانضباط، على الرغم من غياب الرقابة، وعدم وجود تنظيم حقيقي يحكم تصرفات الجماهير!

كان اجتماع القطبين، أم كلثوم وعبد الوهاب، في مدينة بنغازي فرصة كبيرة للجالية المصرية من أجل تقديم الحفاوة البالغة بهرمَي مصر الموسيقيين، فأقامت الجالية المصرية حفلًا كبيرًا في مقر «النادي العربي» بمدينة بنغازي لتوديع السيدة أم كلثوم والاحتفاء بقدوم الموسيقار محمد عبد الوهاب وزوجته إلى المملكة الليبية لأول مرة. وتحت ضغط شديد من الحضور، ألقت أم كلثوم كلمة قصيرة جاء فيها: «إخواني أعضاء النادي العربي في بنغازي.. طبعا أنا ماتعودتش أقعد أخطب وأعمل الكلام ده، أنا بس يعني بتقدم بالشكر لكم على الدعوة الكريمة، اللي طبعا أنتم أكرم من أن الواحد يقعد يتكلم عنكم، لأنكم أنتم الواجهة العظيمة لمصر في كل بلد عربي، وأرجو أن تتقبلوا شكري وامتناني لهذه الدعوة الكريمة»، في حين ردَّ الموسيقار محمد عبد الوهاب على كلمة السيدة أم كلثوم: «أعتقد لا يمكن لصوت أن يتكلم بعد أن تكلمت أم كلثوم، فأنا شخصيًّا أعشق غناءها وكلامها في آن واحد، وأحب صوتها في الكلام، طبعًا مش زي صوتها في الغناء،، ولكن لا يقل تأثيرًا على وجداني كصوتها العظيم في الغناء، والتحية الوحيدة اللي ممكن أن أقدمها لهذا النادي هو وجود السيدة أم كلثوم بيننا».

وخلال زيارته، طلب الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يستمع إلى عدد من الأغنيات الليبية في على سبيل التعرف على تراث المملكة الموسيقي، فاستمع إلى مقطوعة «ليالي ليبيا» للموسيقار الليبي حسن العريبي، وإلى مجموعة من الأغنيات الفلكلورية الليبية القديمة ومنها لحن شائع في التراث اسمه «بعت المحبة» الذي أعاد غناءه الفنان الليبي محمد رشيد بعد ذلك. أُعجب عبد الوهاب بالجملة الموسيقية الأساسية في تلك الأغنية، واستأذن في اقتباسها ليضمها في عمله الفني القادم مع السيدة أم كلثوم. وبالفعل، وضع عبد الوهاب تلك الجملة الموسيقية الليبية في مقدمة أغنية «ودارت الأيام» التي لحنها وشَدَت بها السيدة أم كلثوم بعد تلك الزيارة بعام كامل.

وفي محل إقامتها، وقبل أن تغادر أم كلثوم إلى القاهرة، ذهبت إليها سيدات الحركة النسائية من منظمة «فتح» لزيارتها في دار الضيافة في بنغازي وتوديعها وشكرها على مجهودها من أجل المنظمة. وقفت السيدات الفلسطينيات حول أم كلثوم للتعبير عن الامتنان والتقدير لجهدها ودورها، وعاهدتهن أم كلثوم على تجنيد صوتها من أجل القضية الفلسطينية بعد أن اتّخذت طريقها الوطني بعد الخامس من يونيو، ووضعت أم كلثوم يديها في أيديهن تأكيدًا للعهد واستمرارًا للنضال حتى يتم تحرير الأراضي العربية المغتصبة، وطلبت إليهنّ أم كلثوم نشر الدعوة لمقاطعة البضائع الإنجليزية ومنتجات الدول التي تساند إسرائيل، وتدعمها بالسلاح والعون المادي، وكانت بنت شقيقة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير بين سيدات الوفد الفلسطيني ووعدت أم كلثوم بنشر هذه الدعوة بين جميع نساء فلسطين!

وفي ليلتها الأخيرة في المملكة الليبية، أقام لها السيد عبد الله عابد السنوسي حفل وادع كبيرًا في داره ببنغازي، حضر ذلك الحفل

الموسيقار محمد عبد الوهاب وزوجته السيدة نهلة القدسي، وعدد كبير من المسؤولين الليبيين، الذين عرضوا على السيدة أم كلثوم أن تعود من بنغازي إلى القاهرة عن طريق البر بعد الظروف الخطيرة التي تعرضت لها الطائرة التي سبق وأقلّتها من طرابلس إلى بنغازي، ولكنّ أم كلثوم رفضت الاقتراح وأصرّت على العودة إلى القاهرة بالطائرة كما كان مقررًا، وأكدت لهم أن الأعمار بيد الله والمكتوب لا بد من أن يكون. كما عرض الوزير أحمد الصالحين وزير الإعلام الليبي في ذات الليلة على محمد عبده صالح أن يبقى شهرين في ضيافة الحكومة الليبية، وذلك بعدما علم الوزير الليبي بمرض العازف الكبير، وإرهاقه الذي بدا جليًا للجميع في حفلتي المملكة، لكنّ عبده صالح اعتذر عن رفض ذلك العرض أيضًا، وقال للوزير أحمد الصالحين إنّه لا يقدر على ترك مقعده خلف السيدة أم كلثوم فارغًا، ومرضه الحقيقي هو أن يسمع أم كلثوم تغني دون أن يكون معها، ووعد صالح الوزير الليبي أن يعود إلى المملكة مرة أخرى ليقضي فيها بعض الوقت في أقرب فرصة.

وبعد ظهر يوم 22 مارس 1969، تحرّك موكب السيدة أم كلثوم متجهًا إلى مطار بنغازي الدولي. سارت سيارتها في مقدمة الموكب وتبعتها مجموعة كبيرة من السيارات الأخرى تحمل أعضاء الوفد الإعلامي المرافق وكبار رجال العائلة السنوسية، وداخل سيارتها جلس بجوارها محمد الدسوقي ابن شقيقتها وعبد الله عابد السنوسي الذي أصر على مرافقتها حتى باب الطائرة، كما لحقت بها على بوابات المطار السيدة نهلة القدسي زوجة الموسيقار محمد عبد الوهاب ومحمد شبانة مستشار السفارة المصرية في بنغازي. وفي قاعة التشريفات، جلست أم كلثوم ترتاح قليلًا قبل أن تصعد الطائرة المتجهة إلى القاهرة، حيث أُلقيت على مسامعها كلمات التقدير وأبيات الشعر ومطولاته، التي

أشادت بدورها ووطنيتها ونجاح رحلتها، التي كانت مثلَ مهرجانٍ للقضية العربية والمقاومة الفلسطينية، وكانت فرصة جديدة للاهتمام بالفدائيين ودورهم في معركة العرب بعد هزيمة الخامس من يونيو 1967، وقد وصل دخل الحفلتين إلى150 ألف جنيه مصري سلمتها السيدة أم كلثوم لمنظمة «فتح» من أجل أعمال المقاومة العربية، أما أجرها عن الحفلين فقد بلغ 26 ألف جنيه مصري حولتها السيدة أم كلثوم لصالح المجهود الحربي. وبعد وداع حار تحت سلم الطائرة، صعدت السيدة أم كلثوم وجلست بهدوء في مقعدها. كانت ترتدي معطفًا وحذاء أزرق تحليه قطع نحاسية، وقفازًا وَرديًّا من نفس لون غطاء رأسها الذي عقدته بإحكام، ليحميها من موجة البرد التي كانت تضرب أرض المطار.

وفي طريق العودة إلى القاهرة، حاول الصحفي كمال الملاخ استغلال الفرصة ليحاور أم كلثوم بعد رحلتها السابعة من أجل المجهود الحربي، فسألها عدة أسئلة ثم تركها تتكلم بحرية وكأنّها تسرد خواطر سريعة عما لاقته في رحلاتها السابقة وفي رحلتها الأخيرة للمملكة الليبية، لينشر الملاخ كلماتها المرتجلة في صحيفة «الأهرام» في اليوم التالي للعودة صباح 23 مارس 1969، إذ قالت له أم كلثوم والطائرة تحلق في الجو:

• الساتر هو الله، لا البر ولا البحر ولا الفضاء، وإنما هي إرادة الله دائمًا، فلمَ أتردد؟ إنّه المكتوب!

• قابلت ملكة ليبيا؛ إنّها ملكة مثقفة متطورة، أهدتني سوارًا ليبيًا من الذهب منقوشًا عليه اسمها، وصورتها داخل برواز وقعتها بإمضائها.

• المرأة الليبية تقفز نحو التطور والتعليم، لقد رأيت مهندسات وطبيبات وطالبات يدرسن في الجامعة، وعلمت أن الوزير المفوض

لليبيا في واشنطن آنسة متعلمة: فاطمة عاشور، وقد حضرت حفل الجمعيات النسائية، التي دعتني إليه رئيستها حميدة العنيزي.

• أعجبني احترام الليبيات للتقاليد وحرصهن عليها.

• حفلتي القادمة في القاهرة مساء الخميس بعد القادم 3 أبريل، أما حفلة المجهود الحربي القادمة إمّا في البحرين وإمّا في العراق بإذن الله.

• تسألني عما أعجبني في الدول التي زرتها أخيرًا.. كل ذرة تراب في السودان لا أنساها، إن شعب السودان أسر حبي مع حكومته، وفي تونس لا أنسى أهل تونس، في جامع الزيتونة كان فيه صلاة من أجل مصر. يا سلام على أهل المغرب وثقافتهم وحساسيتهم وتذوقهم للفن، الذي يشترك فيه كل أهل شمال أفريقيا من ليبيا حتى هناك، والكويت والتطور المعماري السريع، زرتها بعد آخر زيارة من 4 سنوات، فكانت قفزة واضحة للكويتيين.. أما لبنان فالجبل الأشم، أهله يتذوقون الموسيقى، لا أنسى بعلبك ولياليها الجميلة.. ولا زحلة ونهر البردوني.

• إني لا أسرح بعيدًا، وإنما أذكر ابتسامة أصغر ولد في عائلتي: عادل إبراهيم، أربع سنوات ونصف، ابن ابن عمي، مش حقدر أشوفه في المطار، مسكين إتعدى بالغدة اللمفاوية.

• عائلة السنوسي الحاكمة في ليبيا عائلة كريمة مضيافة، أبرقتُ للملك إدريس والملكة وولي العهد، وعبد العزيز الشلحي وسفيري الكويت ومصر هناك، وإلى أحمد عنان والدكتور مصطفى العجيلي، وعبد الله عابد السنوسي الذي أكن له كل تقدير، وعلي وصديق السنوسي، وأحمد غيث عبد الله سفير الكويت في ليبيا وحميدة العنيزي كل من دعائي.

وبعد مئة دقيقة كاملة قضتها السيدة أم كلثوم في حوار من القلب مع كمال الملاخ، وبعدما مرّت بجوار نافذتها قطع السحاب البيض، التي قالت له أيضًا إنّها تذكرها في تلك اللحظة بالقطن الأبيض في قريتها، وتعيدها إلى ذكريات الغيط والنوار ومنظره المبهج لحظة الحصاد، بدأت الطائرة في الهبوط في مطار القاهرة الدولي، فأدارت أم كلثوم وجهها تجاه النافذة الصغيرة لتبتهل شفاهها كعادتها، وتتمتم في همس بآيات القرآن الكريم.

السيدة أم كلثوم تحيي الجماهير الليبية في حفلها الأول في
مدينة طرابلس، يوم الأربعاء 12 مارس 1969.

السيدة أم كلثوم مع حسن صبري الخولي الممثل الشخصي
للرئيس جمال عبد الناصر، يوم الأربعاء 12 مارس 1969.

السيدة أم كلثوم أمام مبنى فندق «الودان» في مدينة طرابلس،
مارس 1969.

السيدة أم كلثوم مع الإذاعي الكبير جلال معوض في طرابلس،
يوم الخميس 13 مارس 1969.

السيدة أم كلثوم في مدرسة «الصناعات الجديدة» في مدينة طرابلس، يوم الخميس 13 مارس 1969.

صورة السيدة أم كلثوم من حفل مدينة بنغازي تتصدر غلاف مجلة «الكواكب» الصادرة في 1 أبريل 1969.

في حجرتها الملحقة بالسرادق الكبير بعد نهاية الوصلة الأولى
في حفل مدينة طرابلس، ومعها السيد عبد الله عابد السنوسي
وحسن صبري الخولي والمهندس محمد الدسوقي والإذاعي
جلال معوض، يوم الأربعاء 12 مارس 1969.

السيدة أم كلثوم مع سيدات الهيئات النسائية الليبية، مارس 1969.

السيدة أم كلثوم تتوسط الموسيقار محمد عبد الوهاب والسيد
عبد الله عابد السنوسي المشرف على تفاصيل تلك الرحلة
المهمة في منزله بمدينة بنغازي، مارس 1969.

مصادر هذا الفصل:

1- رجاء النقاش، لغز أم كلثوم، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة 2004.

2- عبد التواب عبد الحي، نسر مصر: عبد المنعم رياض حَيًّا وشهيدًا، دار الهلال، القاهرة 1971.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 17 يناير 1969.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 يناير 1969.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 5 فبراير 1969.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 5 فبراير 1969.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 8 فبراير 1969.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 فبراير 1969.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 فبراير 1969.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 6 مارس 1969.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 7 مارس 1969.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 9 مارس 1969.

13- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 10 مارس 1969.

14- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 11 مارس 1969.

15- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 مارس 1969.

16- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 مارس 1969.

17- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 مارس 1969.

18- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 مارس 1969.

19- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 16 مارس 1969.

20- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 17 مارس 1969.

21- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 20 مارس 1969.

22- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 21 مارس 1969.
23- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 مارس 1969.
24- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 23 مارس 1969.
25- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 31 مايو 1969.
26- صحيفة الحقيقة، ليبيا، عدد 24 فبراير 1969.
27- صحيفة الحقيقة، ليبيا، عدد 12 مارس 1969.
29- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 11 مارس 1969.
30- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 24 مارس 1969.
31- مجلة الكواكب، القاهرة، 1 أبريل 1969.
32- مجلة آخر ساعة، القاهرة، 5 فبراير 1969.
33- مجلة آخر ساعة، القاهرة، 5 مارس 1969.
34- مجلة آخر ساعة، القاهرة، 19 مارس 1969.
35- مجلة آخر ساعة، القاهرة، 26 مارس 1969.

أم المُهَجرِين في طنطا

في أكتوبر 1967، وبعد أن أغرقت البحرية المصرية المدمرة الإسرائيلية «إيلات»، تعرضت مدن القناة الثلاث إلى قصف عنيف رَدًّا على عملية المدمرة، الأمر الذي دفع القيادة السياسية العليا في القاهرة إلى اتّخاذ قرار بإخلاء مدن القناة من السكان فيما عُرف بعد ذلك بالتهجير، ولم يَستثنِ ذلك القرار إلا نسبة بسيطة أطلق عليهم لقب «المستبقون»، وهم الذين بقوا في مدن القناة بهدف مشاركة القوات المسلحة المصرية في أعمال المقاومة من خلال أعمالهم وحرفهم التي يجيدونها. وبالفعل، توزع سكان مدن القناة الثلاث على ما يقرب من 14 محافظة مصرية، إذ أقامت الجمهورية العربية المتحدة في محافظات الدلتا ووجهي بحري وقبلي معسكرات للتهجير لإسكان غير القادرين من أبناء مدن القناة. ومنذ ذلك الحين، صارت المهمة العاجلة أمام السيدة أم كلثوم هي مساعدة هؤلاء من غير القادرين من المُهجرِين، خصوصًا بعدما هدأت وتيرة جولاتها الخارجية لدعم المجهود الحربي منذ بداية عام 1969، فوجهت كامل نشاطها إلى دعم أسر المُهَجرِين عن طريق جمع التبرعات وتقديم المساعدات وتوفير فرص العمل لأبنائهم من خلال التنسيق مع الوزارات المختلفة أو مع بعض شركات القطاع الخاص، وبالطبع لم تكن تلك المهمة سهلة

بالنظر إلى الأحوال المتردية التي كانت عليها معسكرات التهجير في المحافظات القريبة من مدن القناة، وكذلك كثرة عدد المُهَجرِين الذين قدر عددهم ما بين يونيو 1967 وبداية عودتهم لمدنهم عام 1973 بنحو مليون مواطن تقريبًا، كل ذلك دفع السيدة أم كلثوم إلى أن تضاعف مجهودها وتنسق مع المحافظين في التخطيط لمشاريع تضمن لهؤلاء المُهَجرِين حياة كريمة. وبالفعل، بدأت حملتها من أجل هؤلاء بالحفل الذي أقامته في نادي طنطا الرياضي بمحافظة الغربية ليلة الخميس 8 مايو 1969، وقد خصص إيراده لصالح المُهَجرِين وإعادة بناء مدن القناة، كما خُصّصَ جزء من حصيلته لدعم بعض المنظمات الفدائية العاملة في الأراضي المحتلة.

فمنذ بداية شهر مايو 1969 والصحف المصرية تكثف دعايتها لذلك الحفل، وتتابع حصيلة إيراداته المتزايدة على مدار أكثر من أسبوعين، فتذكر صحيفة «الأهرام» الصادرة في 4 مايو 1969 أنّ التبرعات قد تدفقت لصالح الحفل منذ أن أعلنت محافظة الغربية عن تفاصيله، وأكدت «الأهرام» أنّ إيرادات الحفل وصلت إلى 200 ألف جنيه ومن المرجح أن يزيد ذلك المبلغ خلال الأيام التالية، وهو ما كان بالفعل؛ ففي صباح يوم الحفل 8 مايو ذكرت «الأهرام» أنّ مجموع التبرعات قد وصل إلى ربع مليون جنيه، وهو ما كان سابقة في تاريخ إيرادات حفلات السيدة أم كلثوم، وذلك بعدما تراوحت أسعار التذاكر ما بين مئة جنيه كاملة وجنيهين فقط، وقد نصت التذاكر المطبوعة على الآتي:

«محافظة الغربية، جمعية الهلال الأحمر

تتشرف السيدة أم كلثوم بدعوة سيادتكم لحضور الحفل الذي ستقيمه لصالح أبناء مدن القنال بنادي طنطا الرياضي في تمام الساعة 10 من مساء يوم الخميس الموافق 8 مايو 1969».

بل إنّ بعض مواطني محافظة الغربية، سعيًا وراء غرض الحفل النبيل، دفعوا ألف جنيه كاملة ثمنًا لتذكرة واحدة، وقد نشرت صحيفة «الأهرام» بعض أسمائهم تكريمًا لهم وهم: علي الشيشبني ومحمد حلمي وعبد المجيد قادوس ومحمد القصراوي.

وفي مساء يوم الاثنين 5 مايو 1969، استقبلت سيدة الغناء العربي أم كلثوم في بيتها المطل على نيل الزمالك بالقاهرة محافظَ الغربيّة وجيه أباظة، الذي زارها من أجل الاتّفاق على تفاصيل الحفل وتحديد ملامحه النهائية، ودعاها هي وفرقتها إلى الإقامة في بيت أسرته بمدينة طنطا ليلة الحفل، كما سبق واستضافها في حفل المجهود الحربي الأول في دمنهور ليلة 17 أغسطس 1967 حين كان محافظًا للبحيرة.

وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم الخميس 8 مايو 1969، أعلنت الإذاعة الداخلية لمحطة قطار مدينة طنطا وصول القطار القادم من القاهرة، الذي كان على متنه السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، وعلى رصيف المحطة وقف وجيه أباظة وإلى جانبه الآلاف من أهالي المحافظة ومن القرى المجاورة يستقبلون السيدة أم كلثوم، وما إن دخل القطار المحطة حتى أحاطت به الجماهير من كل جانب حتى يشاهدوا أم كلثوم ويحيوها، وتقدم وجيه أباظة لمصافحة سيدة الغناء العربي ومعه الجماهير التي التفّت حول أم كلثوم، وتعالت صيحاتهم بالترحيب بها والدعاء لها بطول العمر. ومن محطة القطار، اصطحب المحافظ وجيه أباظة السيدة أم كلثوم في سيارته إلى منزله، وفي الطريق طلبت أم كلثوم أن تذهب أولًا إلى مقام السيد البدوي لقراءة الفاتحة، وفي داخل المسجد علت صيحات الدراويش، والتف حولها كل زوار الضريح، وبعد أن قرأت الست الفاتحة ودعت لمصر بالنصر، خرجت من المسجد لتُفاجأ بأنّ التُجَّار حول المسجد الكبير

قد علقوا صورها في كل مكان احتفاء بقدوم سيدة الطرب العربي إلى مدينتهم.

وفي ظهيرة نفس اليوم، وصل إلى مدينة طنطا المخرج يوسف شاهين (1926-2008) ومعه مدير التصوير عبد العزيز فهمي (1920-1988) وبرفقتهما بعض المساعدين، وذلك من أجل أخذ لقطات سينمائية لذلك الحفل بالألوان الطبيعية، ليضمها شاهين إلى مشروع فيلمه السينمائي «ثومة» الذي قررت «المؤسسة المصرية العامة للسينما» إنتاجه وأدخلته حيز التنفيذ في صيف عام 1968، بعد ما بذلته السيدة أم كلثوم من جهد في دعم المجهود الحربي. وعن بداية هذا المشروع، يحكي يوسف شاهين في مقابلة مع التليفزيون المصري «في يوم لقيت البلد كُلها بتدور عليا، كذا تليفون، لقيت وكيل الوزارة كلمني (يقصد وزارة الثقافة)، قالي الست عاوزاك روح جري»، وبالفعل ذهب شاهين مسرعًا إلى فيلا السيدة أم كلثوم، وطلب لقاءها، وبعد مرور أكثر من رُبع ساعة على وجوده داخل منزل الست «فتحوا لي أول صالون وجابوا لي قهوة، وبعد تلت ساعة، جت ثومة وكانت لطيفة جدًا، قالت لي خُد قهوة، قلت لها أنا غرقان قهوة»، وعن سبب طلب السيدة أم كلثوم ليوسف شاهين، يقول إنّها أرادته أن يِخرج لها أغنيتها الشهيرة «طوف وشوف»، إنتاج 23 يوليو 1963، تليفزيونيًا. يحكي شاهين أنّ أم كلثوم قالت له «أنا اخترت إنك أنت تخرج لي الأغنية، قولت ليها نسمعها ودردشنا شوية، طلع دمها خفيف، وبعدين جابت ورقة وقعدت تقول «طوف وشوف».. وبعدين قالت لي: مالك؟ قولت ليها: مش هعمل أغنية عن الشجرة والمصانع، مفيش مساحة للخيال»، يتذكر يوسف شاهين ردّ فعل أم كلثوم، عند رفضه طلبها ضاحكًا «قالت لي يا ابن المجنونة، باين عليك مرووش، عندهم

حق»، ثم طلبت إليه بعدها أن يفعل ما يشاء، فصارحها برغبته في عمل فيلم عن سيرتها الذاتية، يقول شاهين «وافقت، وبدأت تحكي لي عن الريف وذكرياتها، وبعدين باقي النضال»، وتتفق تلك الرواية مع ما ذكره الكاتب الكبير سعد الدين وهبة الذي كُلّف بكتابة سيناريو فيلم «ثومة»، فيذكر في كتابه عن السيدة أم كلثوم الذي روى فيه بعضًا من ذكرياته معها، أنّه في ربيع 1968 زاره يوسف شاهين في مكتبه بالشركة القومية للتوزيع وعرض عليه فكرة فيلم عن أم كلثوم. كانت الفكرة في البداية موضع تعجب سعد الدين وهبة، لكنه بعد مناقشة قصيرة دارت بينهما اتفقا على الموضوع من حيث المبدأ، وقررا الاتصال بالمهندس محمد الدسوقي مدير مؤسسة الإستديوهات السينمائية المصرية ليحصل لهما على موعد مع السيدة أم كلثوم، وبالفعل قابلاها وعرضا عليها فكرة المشروع السينمائي، ورغم ترحيب أم كلثوم الشديد بالفيلم فإنّها لم تخفِ قلقها تجاه المشروع، ذلك القلق الذي جعلها تتحفظ في الرد عندما سألها محرر مجلة «الكواكب» ضمن حوار معها نشر في مايو 1969 عن رأيها في مشروع «ثومة» فردت «حتى الآن كلها تجارب، ولا أستطيع أن أقول إنّني وافقت على الفيلم حتى أرى منه شيئًا ناجحًا!».

وبمجرد أن علم الرئيس جمال عبد الناصر بمشروع الفيلم، طلب من وزير الثقافة ثروت عكاشة أن تتولى الوزارة إنتاج الفيلم، وأن تضع جميع الإمكانيات المتاحة في خدمة صناع الفيلم، خاصة أن عبد الناصر كان قد علم من أم كلثوم أن الفيلم سيعرض تاريخ مصر في نصف قرن من خلال حياة أم كلثوم. وفي 27 أغسطس 1968، صرّح عبد الحميد جودة السحار (1913-1974) رئيس مؤسسة السينما لمجلة «الكواكب»: «إننا نعتقد أن السيدة أم كلثوم قد نالت حَظًّا

من التكريم عند أجهزة الإعلام المختلفة إلا السينما، إنّ الصحافة والإذاعة والتليفزيون تسابقوا إلى تسجيل نشاطها وتمجيد مآثرها على الفن وعلى الوطنية، خاصة في أشهر ما بعد النكسة، ولكن السينما لم تقدم لها بعد باقة العرفان، ولهذا اتفقنا مع يوسف شاهين على أن يبدأ بتجميع قصة حياتها ليخرجها فيلمًا بعنوان «ثومة»، فثومة هو اسمها عند الشعب الذي أحبته وأحبها، وقد وافقت السيدة أم كلثوم على الفكرة، فيلم «ثومة» يختمر الآن، وسوف يكون حدثًا فَنِيًا لائقًا باسمه». وضمن تغطيتها لحفلة مدينة طنطا، أجرت مجلة «الكواكب» الصادرة في 13 مايو 1969 حوارًا مع المخرج يوسف شاهين للحديث عن مشروع فيلم «ثومة» أوضح فيه شاهين رؤيته لمشروع الفيلم «هذا المشروع أفكر فيه من سنتين، منذ ذلك الوقت وسعد الدين وهبة يعمل دراسة كبيرة عن كل مراحل حياة «ثومة» الفنية وغير الفنية، وعندما تجمع الموضوع قررت أنا وسعد إخراجه إلى حيز التنفيذ»، ويستطرد شاهين «والمحور الذي تدور حوله فكرة الفيلم هو كيان هذه الفنانة التي لها صلة قوية بجميع شعوب العالم العربي، وكيف تعبر عن أعماق هذه الشعوب، ولماذا أصبحت أم كلثوم بالذات تمتلك هذه القدرة. وإعجابي بها كبير، وهذا الإعجاب ناتج عن سر عظمتها وإحساسها العميق بحاجات الشعب، فهي فنانة تتمتع بتلقائية عجيبة في الإحساس، وأتمنى أنا وزميلاي سعد الدين وهبة وعبد العزيز فهمي أن نوصل بأسلوبنا المشترك وإحساسنا القوي تجاه هذه الفنانة العظيمة الدقة والكمال الموجودين في أسلوبها التكنيكي عند أدائها للجملة والحرف الغنائي، فهي تكيف الجملة «بكذا لون»، عايزين نوصل للجماهير كيف يحدث هذا، وما هو تفكيرها وراء هذا التلوين المستمر، ونريد أن نبرز القدرة والمرونة المكملتين لكل ذلك، وقد

يكون تكنيك الفيلم من خلال دراسة تقطيعها للجملة الغنائية». وفي نهاية الحوار سأله محرر «الكواكب» عن المدة الزمنية المقترحة لتنفيذ هذا الفيلم فأجاب «مش أقل من سنة.. لأننا لازم نجمع المواد اللازمة، ودي أصعب مرحلة، ونحن نعمل في صمت حتى يتم كل شيء!».

لكن الفيلم لم يكتمل بعد سنة من ذلك التاريخ؛ فقد واجه المشروع عدة عقبات، كان أهمها تعنت السيدة أم كلثوم نفسها، ورفضها بشكل قاطع تطرق الفيلم للحديث عن حياتها الخاصة، الأمر الذي جعل الوزير ثروت عكاشة يتدخل شخصيًا، ويجتمع بالسيدة أم كلثوم ويطلب إليها بشكل مباشر أن تروي لسعد الدين وهبة قصة واحدة من حياتها العاطفية تكون مناسبة للعمل، فمن غير المعقول أن يكون فيلم عظيمًا مثل هذا بلا قصة حب!

ورغم ذلك، أصرت السيدة أم كلثوم على التمسك بشرطها الذي وضعته للموافقة على الفيلم، وردت على الوزير بهدوء شديد «ما عنديش مانع بس بعد ما أموت»، فلم يجد سعد الدين وهبة مفرًا من أن يجعل الفيلم يقتصر على حياة أم كلثوم الفنية، ومن هذا المنطلق قسم السيناريو إلى أربع مراحل؛ الأولى عن أم كلثوم الطفلة وتقوم بدورها طفلة مجهولة، ثم مرحلة الصبا والغناء في القرى، أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة ظهور الملامح الفنية وهذه مرحلة تقرر تغطيتها بأجزاء من الأفلام السينمائية الستة التي قامت ببطولتها أم كلثوم، ثم المرحلة الأخيرة وتقوم بالتمثيل فيها أم كلثوم لمدة أسبوع وباستخدام «الفلاش باك» يتم تعزيز الإحساس بوجودها طوال الفيلم، وقد وافقت أم كلثوم على ذلك المقترح أو ما يعرف باسم «القصة السينمائية» وهي المرحلة السابقة لكتابة السيناريو مباشرة.

وفي بداية عام 1970، طلب الوزير ثروت عكاشة أن يعطى فيلم

«ثومة» أولوية خاصة بالنسبة إلى خطة الإنتاج لمؤسسة السينما لعام 1970، وصرح للصحافة بأنّه لا يفهم سببًا لتعطل الفيلم الذي كان بدأ يوسف شاهين إخراج أجزاء منه منذ عام 1969، لكن وهج المشروع بدأ يخفت تدريجيًا، فبعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر في 28 سبتمبر 1970، قضت السيدة أم كلثوم أشهر في عزلة تامة بعيدة عن أي تواصل مع الأوساط الفنية، وهو ما أوقف العمل في الفيلم تمامًا، وعندما عادت أم كلثوم إلى الغناء بعد توقف دام قرابة الأربعة أشهر، كان قد فتر حماسها للمشروع. وبعد وفاة السيدة أم كلثوم في عام 1975، توقفت الدولة عن الاهتمام بموضوع الفيلم، فانتهى الأمر بأن حفظ سعد الدين وهبة الأوراق التي كانت تحتوي على الخطوط العريضة للسيناريو في درج مكتبه. وفي عام 1979، عاد شاهين يجدد مشروع الفيلم على أن ينتجه هو لكن حلمه هذا سرعان ما تبدد أمام ضخامة تكلفة الإنتاج المتوقعة. وفي عام 1991، قابل منتج عربي سعد الدين وهبة وطلب أن يبحث معه مشروع الفيلم، وبالفعل قابل وهبة المهندس محمد الدسوقي وأعدا العقد، لكن في النهاية عدل المنتج عن إنتاج الفيلم ولم يتحمس أحد لإنتاجه بعد ذلك، وبقيت اللقطات التي صورها يوسف شاهين لحفل مدينة طنطا في مايو 1969 هي الشاهد الأخير على ذلك المشروع السينمائي الذي لم يكتب له أن يكتمل[1]!

وبالعودة إلى حفل طنطا، ففي مساء يوم 8 مايو 1969، احتشد قرابة

---

(1) ضم المخرج الكبير يوسف شاهين بعض اللقطات التي صورها من حفل مدينة طنطا إلى شريط فيلمه «حدوتة مصرية» الذي عرض للمرة الاولى في 27 سبتمبر 1982، ولكن بعد أن بدَّل شريط الصوت بمقطع من أغنية «أنت عمري» حتى تتناسب اللقطات مع سياق الأحداث.

تسعة آلاف من أبناء محافظة الغربية والقرى المجاورة في سرادق كبير أقيم بنادي طنطا الرياضي لحضور حفل أم كلثوم الذي قررت نقله الإذاعة على الهواء مباشرة، وقدمه الإذاعي الكبير صالح مهران (1937-2021). وفي حدود الساعة الثامنة مساءً، وصلت السيدة أم كلثوم مع فرقتها لنادي طنطا لإجراء البروفات النهائية قبل رفع الستار، وهناك التقت المخرج يوسف شاهين ومدير التصوير عبد العزيز فهمي وذلك للتنسيق معهما وتحديد زوايا التصوير المقترحة، إذ كان من المعروف أن السيدة أم كلثوم تطلب دائمًا من مصوري حفلاتها التليفزيونية عدم الاقتراب كثيرًا من وجهها، بل إنّها تدخلت ومنعت إذاعة بعض الحفلات التليفزيونية بسبب زوايا تصويرها، لكن شاهين طمأن السيدة أم كلثوم، وأكد لها أنّه لن يقترب كثيرًا من حدود المسرح. وفي الساعة العاشرة مساءً، وبعد أن رفع الستار عن سيدة الغناء العربي صعد إلى المسرح المحافظ وجيه أباظة ووقف بجوار السيدة أم كلثوم ليقدمها إلى جماهير محافظة الغربية: «أيها الإخوة، لست في حاجة بالطبع لأن أقدم السيدة العظيمة والمناضلة المكافحة الوطنية أم كلثوم إبراهيم، ولكني أحب أن أقدم شعب الغربية إلى أم كلثوم، شعب الغربية العظيم الذي سارع وتبرع في هذا الحفل وتبرع لإخوتنا وضيوفنا من أبناء القناة، فكانت حصيلة التبرعات كلها 274 ألف جنيه، وهأنَذا نيابة عنكم أقدم للسيدة أم كلثوم شيكًا بمبلغ 120 ألف جنيه، لإعادة بناء مدن القناة، وشيكًا آخر بألف جنيه لمنظمة «فتح»، وشيك آخر بألف جنيه لمنظمة «سيناء»، وشيك آخر بألف جنيه لأسر المجندين والمحاربين في القناة، وإني يا سيدتي لأرجو أن تتقبلي خالص شكري وعرفاني وأهل محافظة الغربية بالجميل وعرفاننا جميعًا بالدور العظيم الذي قمتِ به كمواطنة عظيمة مناضلة

من أبناء الجمهورية العربية المتحدة، قوّاكِ الله وسدّد خطاكِ دائمًا إلى ما فيه الخير بقيادة رئيسنا جمال عبد الناصر، ونرجو الله مخلصين وقد وعدتني اليوم السيدة أم كلثوم أن يكون احتفالنا بالنصر للمرة الأولى في هذه المحافظة والسلام عليكم ورحمة الله».

وفي الصف الأول في واجهة المسرح، جلس المحافظ وجيه أباظة ومعه معظم المحافظين الذين ترعى محافظتهم مُهجرِين من مدن القناة، ومنهم سعد زايد محافظ القاهرة، ومحمد البلتاجي محافظ الجيزة، وإبراهيم بغدادي محافظ كفر الشيخ، وكذلك حمدي عاشور وزير الحكم المحلي، وكانت محافظة الغربية قد طبعت كتيّبًا ووزعته على الحضور، جمعت فيه أبرز الأقوال التي نشرت في الصحف العربية والعالمية عن جولات وكفاح أم كلثوم من أجل القضية المصرية بعد نكسة 1967. وفي الساعة العاشرة وعشر دقائق، خفتت الأضواء في نادي طنطا الرياضي وسُلّط الضوء على المسرح وظهرت أم كلثوم بثوبها الوردي كأنّها كوكب دُري ينير ليل دلتا النهر، ويزيد الليل بهاء وجلالًا. غنت أم كلثوم في وصلتها الأولى قصيدة «هذه ليلتي» للمرة الثامنة، وكعادتها كانت تسحر الأرواح وتتراقص معها قلوب جماهير الحفل، وقد بدأت أم كلثوم الارتجالات مبكرًا في تلك الوصلة، فافتتحت أم كلثوم سلسلة ارتجالها بتلوين سريع في أدائها لمقطع «يا حبيبي طاب الهوى ما علينا/ لو حملنا الأيام في راحتينا»، ثم استسلمت لارتجال طويل في مقطع «يا حبيبًا قد طال فيه سهادي/ وغريبًا مسافرًا بفؤادي» إلى أن تجلت في نهاية القصيدة عند غنائها لمقطع «سهر الشوق في العيون الجميلة» ثم في مقطع «هلَّ في ليلتي خيال الندامى/ والنواسي عانق الخيام». وفي المجمل، تبدو تلك الوصلة شديدة التفرد والجمال ضمن تسجيلات قصيدة «هذه ليلتي»

التي تجاوزت العشرة تسجيلات، فأجواء الحفل مختلفة، والجمهور منسجم تمامًا مع الغناء ويطالب كثيرًا بالإعادة، وهو ما جعل السيدة أم كلثوم في أفضل حالاتها، فبدت مبتهجة ومتألقة ومتفاعلة مع كل طلبات الإعادة، ولهذا طالت الوصلة الأولى ودامت أكثر من90 دقيقة تقريبًا، وقد أُسدل الستار بعدها لتسريح أم كلثوم قليلًا في حجرتها المقامة خلف المسرح. وبين الوصلتين، أجرت معها الإذاعية الكبيرة سامية صادق حوارًا إذاعيًا بُثّ لاحقًا على موجات الإذاعة المصرية. وقبل أن تبدأ الوصلة الثانية بأغنية «ألف ليلة وليلة»، صعد إلى المسرح اللواء عبد الهادي نجم الدين رئيس مدينة طنطا، وسلّم أم كلثوم نسخة مذهبة من القرآن الكريم، وألقى كلمة قصيرة «باسم شعب الغربية، الذي عاش مع أم كلثوم هذه الليلة، والذي عبر عن مشاعره نحو المناضلة أم كلثوم أجمل تعبير صباح اليوم، أقدم لها كتاب الله ليحفظها من كل شر، لتعيش معنا دائمًا، ولتعيش أفراح النصر وما بعد النصر، ولتغني على أرض الغربية أغنية النصر إن شاء الله، بقيادة زعيمنا جمال عبد الناصر»، ثم أعلن منحها باسم محافظة الغربية مفتاح مدينة طنطا تكريمًا لها عن مجهودها الوطني، ثم صعد المحافظ وجيه أباظة المسرح وقدم إلى السيدة أم كلثوم مفتاح المدينة وهو رابع مفتاح تسلمته السيدة أم كلثوم بعد مفاتيح محافظات البحيرة والإسكندرية والدقهلية، وأعلن أباظة تبرّعَ كل من محافظتي القاهرة والجيزة وكفر الشيخ بألف جنيه من خزينة محافظاتهم لصالح الغرض النبيل المقام من أجله الحفل، وأعلن أيضًا تبرّعَ محافظته الغربية بمبلغ أربعة آلاف جنيه، ليصبح إجمال التبرعات التي قدمت من أجل ذلك الحفل 277 ألف جنيه، منها 154 ألف جنيه إيراد للتذاكر فقط، تسلمت منها السيدة أم كلثوم قبل بداية الوصلة الأولى شيكًا بمبلغ 123 ألفًا وثلاثة آلاف

من أجل أعمال المقاومة العربية. وحتى يكتمل المبلغ 130 ألف جنيه، تبرعت محافظة الغربية بمبلغ أربعة آلاف جنيه آخري وزعت على الأغراض السابق ذكرها، وتعالت صيحات الجماهير المحتشدة في السرادق الكبير ابتهاجًا بتلك الأرقام الضخمة، ودعوا للسيدة أم كلثوم بطول العمر والصحة وهتف بعضهم «ربنا يحميكِ يا ست» و«ربنا يزيدك يا عظمة».

أما الوصلة الثانية فغنت فيها أم كلثوم أغنية «ألف ليلة وليلة» للمرة الثالثة، ورغم طول تلك الوصلة التي أدتها أم كلثوم في 86 دقيقة، فقد خلت من التفاريد النغمية على عكس الوصلة الأولى. وفي الساعة الثالثة صباحًا، أُسدل الستار على أم كلثوم وفرقتها الموسيقية وأُطفئت أنوار السرادق الكبير، وبدأت الحشود في الخروج من بوابات نادي طنطا الرياضي بعدما قضوا ليلة من أحلى ليالي العمر مع أم كلثوم، وحقق الحفل نجاحًا ماديًا وأدبِيًا في دعم أسر المُهجرِين، وهو ما كان له أثر كبير في نفوس المحافظين الحاضرين، الذين طلبوا إلى السيدة أم كلثوم بعد نهاية الحفل إقامة حفلات مماثلة في محافظاتهم ووعدتهم أم كلثوم بتلبية رغباتهم. وفي صباح اليوم التالي، أعِدّ برنامج لأم كلثوم لزيارة المدينة؛ ففي بداية اليوم قامت أم كلثوم بجولة أعدتها لها محافظة الغربية، بدأتها بزيارة «مركز التدريب المهني»، ثم توجهت إلى معسكرات التهجير وزارت بعض المناطق التي يقيم فيها أبناء مدن القناة. ومع اقتراب صلاة الجمعة، طلبت السيدة أم كلثوم أن تؤدي الصلاة في مسجد السيد البدوي، وبعد أن أنهت جولتها الصباحية، عادت إلى منزل وجيه أباظة وتناولت مع أسرته الغداء ثم غادرت عائدة إلى القاهرة على أمل العودة إلى محافظة الغربية قريبًا، وهو ما كان في العام التالي حين عادت السيدة أم كلثوم إلى محافظة الغربية من

أجل المُهَجرِين للمرة الثانية. ففي 16 أبريل 1970، افتتحت أم كلثوم مشروعًا لأسر المُهجرِين أطلقت عليه محافظة الغربية اسم «مشروع أم كلثوم للأسرة المنتجة من المُهَجرِين»، ونشرت مجلة «الكواكب» في عددها الصادر يوم 27 أبريل 1970 تفاصيل ذلك المشروع، فذكرت أنّ هدف المشروع كان توفير 55 ماكينة خياطة اشترتها المحافظة من حصيلة التبرعات التي جمعتها السيدة أم كلثوم، وذلك لتتدرب عليها 70 سيدة وفتاة من المُهجرات، لتحويل تلك السيدات من المُهجرِين إلى أيدٍ عاملة ومنتجة، وقد حضر الافتتاح حافظ بدوي (1922-1983) وزير الشؤون الاجتماعية آنذاك، ووجيه أباظة محافظ الغربية. وطوال حفل الافتتاح، كانت المُهجرات تنادي السيدة أم كلثوم بـ«أم المُهَجرِين» وقد علّق وجيه أباظة على هذه التسمية وقال للست «قريبًا سوف نقول لكِ يا «أم المُنتصرين»»، وقد لاقى ذلك المشروع رواجًا كبيرًا بين المحافظات، وسعت كل محافظة إلى المشاركة في مشروع ماكينات الخياطة وتوفيرها للمُهجرات للاستفادة منهنّ كأيدٍ عاملة في المحافظة، فعملت السيدة أم كلثوم على توفير ما يزيد على 1000 ماكينة خياطة، وهو الرقم الذي زاد مع الوقت ليصل إلى 1400 ماكينة وزعتها أم كلثوم على المُهجرات في جميع المحافظات ما بين عام 1969 وبدايات عام 1972، هذا عدا حملتها الكبرى من أجل تقديم المساعدات المالية لأبناء المُهجرِين، وقد بدأت أم كلثوم تلك الحملة مع اقتراب «عيد الفطر» في ديسمبر 1969، فتذكر صحيفة «الأهرام» الصادرة في صباح 9 ديسمبر 1969 أنّ السيدة أم كلثوم قد بدأت حملتها الجديدة بالتبرع بألف جنيه وجمعت من كل فرد من أفراد أسرتها خمسين جنيهًا، كما ساهمت وزارتا الصناعة والزراعة معها بخمسة آلاف جنيه، وقدم لها أحمد فؤاد رئيس مجلس إدارة «بنك

مصر» ألف جنيه، كما تبرع الأمير عبد الله الجابر الصباح بألفي جنيه للحملة بعدما عرضت عليه السيدة أم كلثوم الفكرة عندما زارها في منزلها مساء يوم 8 ديسمبر 1969، وقد اجتمعت أم كلثوم في نهاية شهر رمضان عام 1969 مع وزير الشؤون الاجتماعية آنذاك حافظ بدوي (1922-1983) وبحثت معه أسلوب توزيع المبالغ التي جُمعت على أطفال المُهجرِين، واقترحت أم كلثوم على وزارة الشؤون الاجتماعية تقسيم التبرعات على المحافظات الأربع الكبرى التي تستضيف المُهجرِين، على أن تؤلف زوجة كل محافظ لجنة تضم عشرَ سيدات يمثلن أمهات المُهجرِين، يبحثن فيما بينهن عن أفضل طريقة لتوزيع المبالغ على صغار المُهجرِين في يوم العيد.

كان ذلك المجهود الكبير الذي بذلته أم كلثوم مع اقتراب عيد الفطر عام 1969 مثار إعجاب الوزير حافظ بدوي، الذي أكد في أكثر من حوار صحفي معه في تلك الحقبة أنّ السيدة أم كلثوم تقوم بجهد وطني جبار من أجل توفير سُبل الحياة الكريمة للمُهجرِين من أبناء القناة، وأنّها تبذل ما في استطاعتها من جهودٍ حثيثة لإنهاء أوضاع المُهجرِين الصعبة، وذلك من خلال مقدرتها الكبيرة على جمع التبرعات وإقناع الشخصيات العامة بضرورة الإسهام في الأعمال الخيرية، وهو ما كانت تفتقده الوزارة في هذا المجال تحديدًا من حيث القدرة والإقناع والتأثير، وقد دفعه ذلك الإعجاب إلى أن يُرسل للسيدة أم كلثوم، وبشكل رسميّ، رسالة يعبر فيها عن محبته واحترامه لذلك الدور الإنساني الذي تلعبه من أجل أبناء مدن القناة، ويشكرها باسمه وباسم الوزارة التي يحمل حقبتيها على ما تقدمه من خدمات جليلة للمجتمع تسهل على الوزارة عملها، فأخبرها في مطلع رسالته المؤرخة في 20 ديسمبر 1969: «إنّ لقائي بكِ في وزارة الشؤون الاجتماعية ليلة العيد

تحملين هديته إلى إخواننا المُهاجرِين كان فضلًا لزامًا عليَّ أن أسجله، وانطلاقة أمل تحملها يداكِ نورًا على طريق التراحم والتكافل في مجتمعنا الإنساني. ولقد كنت أشعر أنّ آذان الإنسانية كلّها تسمع مع آذاني ومن معي وأنتِ تقولين حينئذ «لا بد أن نجعل إخواننا المُهجرِين يحسون أنّهم في عزة دائمة، وأنّ التبرع من أجلهم ليس منحة تعطى، ولا فضلًا يبذل، ولا عطاء يُمنَّن به»، ولكنّه قبل ذلك وبعده واجب وطني وديني، وأن المرأة العربية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة يجب أن تأخذ دورها في هذا المجال، وتثبت كما أثبتت من قديم أنّها معاونة في كل مهمة، مقدامة في كل ملمة». ويذكّرها في نهاية خطابه بمواقفها المشرفة في الأزمات التي عاصرتها «ما من حدث وطني أو إنساني مرَّ بمصر في عصرها الحديث إلا وبرزت أم كلثوم، فسجلت بقلبها أنّها إنسانة قبل أن تسجل بصوتها أنّها فنانة، ولذا كانت وستظل استجابة أصحاب القلوب لها أكرم من السحاب».

ومع بدايات عام 1970، عادت أم كلثوم وقدمت إلى حافظ بدوي الدفعة الثالثة من تبرعات الهيئات والأفراد لأسر المُهجرِين، إذ بلغت حصيلة تلك الدفعة 12 ألف جنيه، وقد استغلّ الوزير لقاءه بالسيدة أم كلثوم وعبّر لها عن شكره باسم الجمهورية العربية المتحدة على جهودها في جمع التبرعات، وتنقل صحيفة «الأهرام» الصادرة في 10 فبراير 1970 قوله «إنّها أعادت لنا ذكرى النساء العربيات المسلمات اللاتي وهبن أنفسهنّ وأموالهنّ في سبيل نصرة الحق»، أما أم كلثوم فقد قالت إنّها لم تقدم شيئًا تستحق عليه الشكر.. «إنّني أبذل ما أستطيع لأداء جزء من الواجب الملقى عليّ وعلى كل فرد من شعبنا، لرعاية إخواننا المُهجرِين الذين لم يكن لهم ذنب فيما حدث لهم، وهو ما يمكن أن يحدث لكل منا، وإذا كانوا هم أول من تلقى ضربات

المعتدين، فإننا نضعهم في قلوبنا وعيوننا، وأول الطريق لرعايتهم هو أن نحس بإحساسهم، والتبرع من أجلهم هو خير وسيلة لإحساسنا بهم وتخفيف العبء عنهم». وبعد أقل من شهر من ذلك التاريخ، عادت السيدة أم كلثوم وقدمت إلى الوزير حافظ بدوي صباح يوم السبت 7 مارس 1970مبلغ ثلاثة عشر ألف جنيه مصري لصالح مُهجري القناة، استطاعت جمعها من عدة شخصيات عربية وإسلامية كان أهمّها الأمير صدر الدين أغا خان (1933-2003) الذي كان يشغل آنذاك منصب المفوض السامي للمفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، ذلك المنصب الذي دفع أم كلثوم إلى أن تطلب إليه، وبصفة خاصة، أن يتوسط لدى منظمة الأمم المتحدة لكي توجّه بعضًا من طاقاتها لرعاية المُهجرِين في مصر، وقد وعدها الأمير صدر الدين بذلك، وتجاوبًا مع حملتها القومية تبرع بمبلغ خمسة آلاف جنيه، مشاركة منه في توفير الحاجات الأساسية لبعض أسر المُهجرِين، كما عاد وشارك الأمير الكويتي دعيج الصباح في حملة أم كلثوم الوطنية فقدّم لها مبلغ ثلاثة آلاف جنيه لصالح مهجري القناة، بالإضافة إلى ألف جنيه قدمها نادي «هليوبوليس» بالقاهرة، ومبلغ ستمئة جنيه تبرعت بها شركة «القاهرة للتوزيع السينمائي» ومبلغ أربعمئة جنيه من «المؤسسة المصرية العامة للسينما» التي كان يرأسها آنذاك المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم.

ولم تكتفِ السيدة أم كلثوم في هذا الصدد بذلك؛ ففي يونيو من عام 1970 اتفقت مع المهندس عثمان أحمد عثمان رئيس مجلس إدارة المقاولون العرب على توفير الوظائف المناسبة لأبناء المُهَجرِين مما يسمح لتلك الأسر بامتلاك فرص عمل والتمتع بحياة طبيعية مستقرة، وهو السبب ذاته الذي جعل قيادات العمل السياسي في القاهرة

والسيد عبد المجيد فريد أمين «الاتحاد الاشتراكي» يوجهون إليها الدعوة لحضور اجتماعهم في مساء يوم الاثنين 18 يناير 1971 تقديرًا منهم لجهودها المبذولة من أجل إزالة آثار العدوان، ورعايتها لأسر المقاتلين والجنود والشهداء وتشغيل المُهَجرِين في شركات القطاع الخاص، وقد ناقشت السيدة أم كلثوم معهم طوال الاجتماع كيفية استمرار ذلك الدعم وتلك الرعاية الاجتماعية لسكان مدن القناة. وفي مساء اليوم التالي الموافق 19 يناير، حضرت أم كلثوم الاجتماع الذي نظمته أمانة «الاتحاد الاشتراكي» في القاهرة لبحث وسائل رعاية أسر المُهَجرِين والشهداء، وطالبت أم كلثوم القطاع الخاص بالمساهمة في التبرع لرعاية تلك الأسر، وكانت قد بلغت حصيلة تبرع أم كلثوم للمجهود الحربي في مطلع عام 1971 ما يقرب من مليوني جنيه ومئة ألف جنيه مصري، بخلاف ما جمعته من الذهب بالإضافة إلى ماكينات الخياطة والملابس والأغطية الشتوية التي وُزعت على أُسر المُهَجرِين في جميع المحافظات تقريبًا.

السيدة أم كلثوم تصل إلى محطة قطار مدينة طنطا ويظهر
خلفها المحافظ وجيه أباظة، ظهر يوم الخميس 8 مايو 1969.

السيدة أم كلثوم تغني لصالح المجهود الحربي بمدينة طنطا،
يوم الخميس 8 مايو 1969.

بين وصلتي حفلة مدينة طنطا، يوم الخميس 8 مايو 1969.

مع المحافظ وجيه أباظة في طنطا، مايو 1969.

السيدة أم كلثوم تفتتح مع المحافظ وجيه أباظة مشروعًا لمساعدة أسر المُهجرِين أطلقت عليه محافظة الغربية اسم «مشروع أم كلثوم للأسرة المنتجة من المُهَجرِين»، يوم 16 أبريل 1970

مصادر هذا الفصل:

1- سعد الدين وهبة، أم كلثوم، الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما، القاهرة 1999.

2- أنور عبد الله باشا، أم كلثوم عملاقة الغناء العربي حياتها وفنها، طبعة خاصة، 2015.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 4 مايو 1969.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 6 مايو 1969.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 8 مايو 1969.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 10 مايو 1969.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 9 ديسمبر 1969.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 16 أبريل 1970.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 7 يونيو 1970.

10- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 27 أغسطس 1968.

11- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 13 مايو 1969.

12- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 27 مايو 1969.

13- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 27 أبريل 1970.

خاتمة المطربات في مدينة الشمس

بعض البيوت كالبشر لها شخصيتها وروحها، وهناك معابد تشبه البيوت تمامًا. المعابد المتناثرة في صعيد مصر تشبه كثيرًا بيوت الفلاحين المصريين بأصالتها وامتدادها في عمق الزمن وانغلاقها على الأسرار، وكذلك معابد مدينة بعلبك في بقاع لبنان تبدو هي الأخرى مثل إنسان عجوز يمتلئ بالتجاعيد وقلبه بالأحاسيس. إنّ بعلبك التي عُرفت قديمًا بمدينة الشمس (هليوبوليس) كانت مسرحًا لحضارة الرومان في تلك المنطقة العربية، يقيمون فيها حفلاتهم وأفراحهم وعبادتهم للشمس، تلك الإلهة المتجلية دون احتجاب. النظرة الأولى إلى المعبدين الرابضين في واجهة مدينة بعلبك توحي إليك بأنّك أمام رجل يعاني الوحدة والحزن والغربة وتحدي الفناء، في حين أنّ المسافة الفاصلة بين المعبدين «جوبيتير» و«باخوس» تبعث في العيون خيالات لفتاة فينيقية في الأزمنة الغابرة تتوهج تحت سماء لبنان كقطعة من ذهب ونور.

كان جوبيتير يعمل أيام طفولة العقل البشري كبيرًا للآلهة، أما باخوس فكان متواضعًا لا تهمه متاع الحياة، ولذلك اكتفى باختصاصات الحصاد وما يستتبعه من صنع للخمر والرقص عند تمام المواسم، وذات صباح اكتشف جوبيتير أنّه ليس إلهًا، وكانت الصدمة

من القوة عليه إذ أسقطت معظم أسنانه، ولم يبقَ له غير تلك الأعمدة الستة التي ما زالت تقف في ساحة الهيكل التاريخي في شموخ لا يخلو من ضعف أحيانًا، وقد زاد هذا الضعف في عقد الستينيات وتحديدًا في سنوات 1966 و1968 و1970عندما شَدَت أم كلثوم بجوار قواعد الأعمدة التاريخية مفتتحة مهرجانات بعلبك الفنية، ويؤكد كل من عاصر تلك اللقاءات الغنائية الثلاثة أن الأعمدة التي صارعت الزمان وبقيت، كانت تتمايل وتنتحي وهي تنصت إلى ضخامة صوت المعجزة القادمة من بلاد النيل، وتهتز من الفرحة والنشوة والطرب، وهي تردد في أعماقها صدى صوت أم كلثوم وأغنياتها التي صارت بعد محنة 1967 مثل صلوات للقضية العربية، وعلى قدر شرف القضية يأتي نبل الغناء!

قبل أن تصدح أم كلثوم في رحاب مدينة بعلبك التاريخية في سنوات المجهود الحربي، كان لها مع لبنان قصة طويلة بدأت منذ بواكيرها الفنية. ومع البحث المتأنّي، نجد أن رحلتها الأولى إلى ذلك القُطر العربي كانت في مطلع الثلاثينيات وتحديدًا في نهاية صيف عام 1931، بعدما استقر نجم أم كلثوم في عالم الطرب المصري، وتهافت عليها متعهدو الحفلات من البلدان العربية القريبة، من أجل إقامة حفلات غنائية في تلك البلاد التي تتطلع لرؤية تلك الموهبة المصرية الصاعدة. وفي ذلك العام، وبعد مفاوضات عديدة جرت بينها وبين وجيه لبناني يدعى أحمد الجاك الذي كان يعمل كمتعهد حفلات في لبنان، وافقت أم كلثوم على الخروج من المملكة المصرية، والقيام بأولى جولاتها الفنية في المنطقة العربية، إذ كانت وجهتها البوابة الشرقية للحدود المصرية، فأحيت سلسلة من الحفلات الغنائية بدأتها في لبنان ثم القدس وحيفا ويافا وسوريا، وذلك برفقة تختها الشرقي الصغير الذي

كان يرأسه آنذاك الموسيقار محمد القصبجي، ويضم عازف «القانون» إبراهيم العريان (1892-1953) وعازف «الكمان» كريم حلمي، وقد عمد المؤرخ الموسيقي إلياس سحاب في أحد فصول مجلد «السيرة» ضمن موسوعته الضخمة عن أم كلثوم التي كتبها مع شقيقه المؤرخ الموسيقي الكبير الدكتور ڤكتور سحاب إلى وصف رحلة أم كلثوم الأولى إلى لبنان عام 1931 على لسان السيد حسن الجاك، وهو متعهد حفلاتها في لبنان في عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، والذي ورث عن والده أحمد الجاك مهمة التعهد بحفلات أم كلثوم في لبنان، فينقل الأخوان سحاب شهادة السيد حسن الجاك التي ذكرها بالتفصيل لمجلة «المصباح» الثقافية الأسبوعية اللبنانية، ويؤكد أن سيارة أم كلثوم قد سارت من الميناء حتى مسرح «التياترو الكبير»، على السجاد الأحمر الذي فرشه خِصّيصَى أحمد الجاك لاستقبال أم كلثوم، وسط احتفالات شعبية بقدوم المطربة الشابة للمرة الأولى إلى لبنان، وتنقل مجلة «الصباح» الأسبوعية المصرية التي رافقت أم كلثوم في تلك الجولة خطوة بخطوة بعضًا من احتفاء اللبنانيين بوصولها إلى لبنان فتقول: «وركب الكثيرون الزوارق والفلايك المزدانة بالأعلام المصرية، تعانق أعلام لبنان، وتحوطها بالأزهار والرياحين، وانتشروا في البحر منتظرين قدوم الباخرة، لتحية واستقبال الآنسة أم كلثوم وأفراد تختها. وفي الساعة السادسة صباحًا، دخلت الباخرة الميناء، فالتفّت حولها الزوارق وارتفعت أصوات أصحابها بالهتاف والتحية، ثم صعدت أم كلثوم إلى ظهر الباخرة يحيط بها مستقبلوها، حيث الجماهير المحتشدة في الزوارق والفلايك، ثم نزلت من الباخرة وركبت «لنشًا» مزدانًا بالرياحين، يعلوه العلم المصري، ومن حولها زوارق المستقبلين، حتى وصلت إلى رصيف الميناء، الذي كان يغص

بمئات المستقبلين، ولم تتمكن أم كلثوم من شق طريقها وسط هذه الصفوف المحتشدة، إلا بشق الأنفس وبمساعدة البوليس».

كان ذلك الاستقبال الحافل لأم كلثوم في لبنان عام 1931 علامة على تصاعد شعبيتها المطردة في ذلك القطر العربي، وعلى تنامي دورها كمطربة ناشئة تتخطى منذ بدايتها حدودها الإقليمية المصرية إلى آفاق القومية العربية، بالرغم من أن نجمها في عالم الغناء لم يكن يزيد عمره على سنوات قليلة. أما عن الحفلات التي قدمتها أم كلثوم في أثناء وجودها في لبنان، فقد بدأتها بحفلتها في بيروت يوم 3 سبتمبر 1931، حين غنت على مسرح «التياترو الكبير» في وسط العاصمة اللبنانية، ثم أتبعتها بحفلة ثانية على ذات الخشبة، وكان من بين الحاضرين في الليلة الثانية السياسي المصري وسكرتير عام حزب الوفد مكرم باشا عبيد (1889-1961) الذي صعد إلى الكواليس عقب الوصلة الأولى ليقابل أم كلثوم ويهنّئها على نجاحها خارج مصر، وقال لها وهو يشد على يديها «لقد رفعتِ رأس مصر والمصريين في عالم الفنون الجميلة»، فشكرته أم كلثوم على هذه المجاملة، وعادت إلى المسرح لغناء الوصلة الثانية، وقد سهرت بيروت في تلك الليلة مع غناء أم كلثوم حتى الثانية والنصف صباحًا، بعدما طالب الجمهور بالإعادة والمزيد من الأغنيات التي كانت تمتاز في تلك المرحلة بقصر مدتها الغنائية. وبعد حفلي العاصمة أحيت أم كلثوم حفلة كبيرة في صالة فندق «الجبيلي» في عروس المصايف عاليه، فانتشى الحاضرون في هذا الحفل طربًا بغناء أم كلثوم، وامتدّ الحفل حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي كما حدث تمامًا في حفلتي العاصمة بيروت.

خلال تلك الرحلة الأولى، حاول المجتمع الصحفي اللبناني التعرف إلى تلك المطربة الجديدة التي غير ظهورها معادلة الطرب

في مصر والمنطقة العربية، فطلب الأديب اللبناني والشيخ فؤاد حبيش (1904-1973) إجراء مقابلة مع أم كلثوم، محاولةً منه في فهم عقليتها الغنائية وتقريبها من المجتمع اللبناني الذي أُعجب بصوتها، وقد نُشرت تلك المقابلة في صحيفة «المعرض» اللبنانية في سبتمبر 1931، وفيها قالت أم كلثوم إن القصيدة هي أقرب قوالب الغناء العربي إلى نفسها، وعندما سُئلت عن مسألة التجديد في الموسيقى العربية وتطور الغناء الشرقي، اعتبرت أنّ الغناء العربي في تطور ملحوظ، وزادت على ذلك «أما الموسيقى الغربية فلا أرى أننا في حاجة قصوى إلى الاستعانة بألحانها، بل أرى على عكس ذلك أننا في غنى تام عنها»، وقد حاول الشيخ فؤاد حبيش في حواره أن يخرق جدار الصمت الذي فرضته أم كلثوم على ذاتها منذ قدومها إلى القاهرة في مطلع العشرينيات، ويسأل المطربة الشابة عن الحب ومشاريع الزواج المحتملة أو القريبة، ولكن كعادتها منذ البدايات ردت أم كلثوم بحسم شديد، وأكدت لحبيش أنّها كرّست نفسها وحياتها في تلك المرحلة لفن الغناء «أنا منصرفة بكليتي إلى فن الغناء، حتى إن تفكيري لا يخرج عن دائرته، أما قلبي فيحرسه جنود الفن، والمستقبل لله وحده». وفي نهاية الحوار، جاملت أم كلثوم الشعب اللبناني وقالت أنّها أعجبت بلبنان وشعبه، وقالت لمحاورها «إني أعاهدك على العودة كل سنة إلى لبنان، إن لم يكن للغناء، فللنزهة».

لكن أم كلثوم لم تفِ بذلك الوعد الذي قطعته على نفسها في حوارها مع فؤاد حبيش، ولم تعد إلى لبنان بعد هذه المحطة الأولى إلا بعد سنوات عديدة دامت أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا، فسافرت إلى لبنان للمرة الثانية للغناء في عام 1954، وهو العام ذاته الذي استأنفت فيه نشاطها الفني بعد توقف دام أكثر من سنة بسبب رحلتها العلاجية

إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فبعد يومين من إحيائها للمهرجان الوطني الكبير في ميدان «التحرير» في 20 أكتوبر 1954 احتفالًا بتوقيع معاهدة الجلاء، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار بيروت في صباح يوم 22 أكتوبر وذلك لتحيي حفلة زفاف الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود على كريمة المرحوم رياض الصلح (1894-1951) أول رئيس وزراء لبناني عقب الاستقلال. وبمجرد هبوط السيدة في المطار، أحاطت بها الجموع التي جاءت للترحيب بمطربة الشرق، وصرّحت أم كلثوم للصحفيين اللبنانيين ردًّا على ما نُشر من أخبار كثيرة حول أجرها الضخم الذي ستتقاضاه بمناسبة إحيائها لهذا الزفاف «لقد جئت إلى بيروت بدافع حبي ووفائي للرجل العظيم الغائب رياض الصلح، فإن زواج ابنته هو سعادة كبرى لي، لا سيما وأن العريس أمير عربي ينتمي لأسرة لها في كل قلب حب واحترام»، وأخذت الصحف تنشر أخبار متناقضة حول إذاعة حفلة أم كلثوم بالإذاعة اللبنانية، وبقي رجال الإذاعة اللبنانية يدورون بين منزل الأمير طلال ومنزل عائلة الصلح والفندق الذي نزلت فيه السيدة أم كلثوم ليحصلوا على وعد بإذاعة الحفلة، ولكن في آخر لحظة كانت المفاجأة؛ فقد أرسل الملك سعود بن عبد العزيز (1902، 1969) برقية عاجلة إلى شقيقه الأمير طلال، كان نصها «الغناء مخالف لتقاليدنا». وبالطبع، كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، وعائلة الصلح التي تربطها علاقة وثيقة بأم كلثوم، وكذلك رجال الإذاعة اللبنانية والألوف التي تهيأت للسماع والطرب، وقد بادرت أم كلثوم بمساعدة الأمير طلال الذي وقع في حرجٍ شديدٍ وصرّحت «أنا أيضًا أحترم إرادة جلالة الملك، وأرفض الغناء في حفلة الزفاف». وتفاديًا للإحراج، قررت نقابة الموسيقيين في لبنان إقامة حفل لتكريم السيدة أم كلثوم

في سينما «الكابيتول» حضرها رئيس الوزراء، وزير المالية والأنباء، والشيخ عبد الله الجابر الصباح، وسفير مصر وكبار الأدباء والشعراء في لبنان. وترضيةً من أهل الفن في لبنان لأم كلثوم، وسمها صابر الصفح نقيب الموسيقيين اللبنانيين وسامَ النقابة، وما إن أعلن ذلك حتى قام وزيرا المالية والأنباء وأعلنا باسم الحكومة منح مطربة الشرق أرفع وسام لبناني تقديرًا لمكانتها في المنطقة العربية. وتنقل مجلة «الكواكب» الصادرة في أكتوبر 1954 أجواء تلك الاحتفالية «وكانت المفاجأة الكبرى في الحفلة، أن قبلت أم كلثوم أن تغني فيها بعد إلحاح الحاضرين، وسجلت محطة الإذاعة اللبنانية الأغنية، وهي «يا ظالمني» واستمرت مطربة الشرق في الغناء ساعة وربع الساعة، وكانت في غاية الانسجام، كما كانت الطرابيش تطير في جو «الكابيتول»». وفي نهاية الحفل، قال رئيس الوزراء اللبناني سامي الصلح (1899-1968) لأم كلثوم وهو يشد على يديها «كنا نتمنى أن تمكثي في لبنان شهرًا وشهرين والعمر كله إن أمكن، وقد أعطاني البرلمان في الأسبوع الماضي سلطة إصدار المراسيم التشريعية، وكم كان بودي أن أصدر المراسيم بمصادرتك، ولكني أخاف أن تقوم بيننا وبين المعجبين بكِ في العالم العربي أزمات متواصلة!». وفي صباح يوم السبت 23 أكتوبر 1954، عادت أم كلثوم إلى القاهرة، وكان وداعها حافلًا، عوّض به الكثيرون عن الحفلات التي كانت معدة لاستقبالها، وقد وقفت تودع الناس «لن أنسى هذه الزيارة إلى لبنان!».

وبعد تلك الرحلة السريعة التي لم تدم أكثر من يومين، توالت رحلات أم كلثوم الفنية إلى لبنان طوال عقدي الخمسينيات والستينيات. فبعد عام واحد، وتحديدًا في 12 و14 مايو 1955، وقفت السيدة أم كلثوم على خشبة مسرح «قصر الأونيسكو» في بيروت لتحيي حفلين غنائيين، وقد

حضر الحفل الأول مجموعة كبيرة من الجنسيات العربية، وحضرت المطربة الكبيرة سعاد محمد (1926-2011) من دمشق خِصّيصَى لمقابلة السيدة أم كلثوم. ورغم أن السيدة أم كلثوم كانت قد زارت بيروت مرتين قبل هذه الزيارة، فإنّها لم تخرج من العاصمة إلا في تلك الرحلة، فقد طافت في الجبال على بلدات «برمانا» و«عاليه» ومنطقة «بحمدون» و«صوفر»، وتناولت الإفطار في وادي «العرايش» بمدينة زحلة، وجلست في نفس المكان الذي كان يجلس فيه أمير الشعراء أحمد شوقي، الذي عرف بحبه لتلك المدينة اللبنانية، وألّف في مدحها قصيدته الشهيرة «يا جارة الوادي» (لحنها وغناها الموسيقار محمد عبد الوهّاب، سنة 1928) وهو ما جعل أم كلثوم تردد طوال وجودها في زحلة أشعار شوقي، وكان مندوب مجلة «الكواكب» معها في هذه الجولة الواسعة في لبنان، فسجل تفاصيل الجولة وحفاوة الاستقبال التي كانت تلقاه أم كلثوم في كل قرية لبنانية، وكأنّها قديسة دينية تزور لبنان على حد وصف مجلة «الكواكب» ومحررها الصحفي!

وفي صيف العام التالي، طارت أم كلثوم إلى لبنان لتحيي حفلتين في «بسين عاليه» في 19 و21 يوليو 1956، غنت فيهما ست أغنيات من أغنياتها الأثيرة إلى قلبها، وهي: «رباعيات الخيام» و«ذكريات» و«يا ظالمني» في الحفلة الأولى، وقدمت في الثانية «شمس الأصيل» و«ياللي كان يشجيك أنيني» وأخيرًا «دليلي احتار». ومع أفول عقد الخمسينيات، أحيت السيدة أم كلثوم حفلين في «قصر الأونيسكو» أقيمتا في 19 و21 نوفمبر 1959، وتذكر الملصقات الدعائية للحفلتين أنّهما كانتا تحت رعاية رئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي (1921-1987) وبمناسبة عيد استقلال لبنان الذي يوافق الثاني والعشرين من نوفمبر من كل عام.

أما رحلتها السادسة إلى لبنان فكانت في صيف 1962، بعدما جاء إلى القاهرة متعهد حفلاتها حسن الجاك طالبًا إليها أن تقيم حفلين في لبنان، وعندما خيرها الجاك في اختيار المسرح المناسب، اختارت أم كلثوم مسرح «بسين عاليه» وأحيت حفلتين هناك أقيمتا في 2 و4 أغسطس 1962. وفي مطلع خريف 1964، وقفت أم كلثوم للمرة الأولى على مسرح سينما «ريفولي» في وسط بيروت، وأحيت حفلتين في 12 و14 نوفمبر، وربما أهم ما يميز ذلك الحفل هو تعطل الميكرفون في أثناء غنائها لأغنية «حسيبك للزمن»؛ فبينما كانت تغني مقطع «الزمن حيدوَّقك في البعد ناري» طرأ خلل على الميكروفون وأخذ يُحدث صفيرًا مدويًا استحال معه الغناء، ولمّا لم تفلح المحاولات في إصلاحه توقفت الفرقة عن العزف تمامًا، ونحَّت أم كلثوم الميكروفون من أمامها وتقدمت خطوات حتى حافة المسرح، وأكملت غناء المقطع دون مكبر للصوت، فأسمعت كل من في القاعة صوتها رغم أنّها كانت على مشارف السادسة والستين يومئذ!

وقد شكلت رحلتها إلى لبنان في أغسطس 1965 نهاية المشوار مع متعهد حفلاتها حسن الجاك، وذلك بسب المشكلات العديدة التي حاصرت تلك الرحلة. ففي هذه الرحلة، أحيت أم كلثوم حفلًا واحدًا في منطقة البسين في عاليه، وذلك يوم السبت 7 أغسطس، وطوال تلك الليلة الصيفية مرت أم كلثوم بالعديد من المآزق غير المتوقعة، فبعد أن شب حريق كبير في الطريق حال دون وصولها إلى المسرح عدة ساعات، وصلت أم كلثوم لتجد أن هناك معركة بين الجمهور بسبب التكدس وعدم التنظيم، وحاولت أم كلثوم تمالك نفسها والسيطرة على غضبها الذي بدا لكل من شاهدها وراء الكواليس، ويروي المراقبون لذلك الحفل أن أم كلثوم لو كانت قد انسحبت في تلك

الليلة بعد كل هذا الهرج لقامت مذبحة بين الجمهور، لكنها تحاملت على نفسها حتى تمر الليلة بسلام دون مزيد من الكوارث، وتنقل صحيفة «الحياة» اللبنانية الصادرة في 15 أغسطس 1965 بعضًا مما جرى في تلك الليلة «الحفلة الوحيدة التي طالما انتظرها بلهف عشاق أم كلثوم انقلبت لسوء التنظيم وضعف رقابة الدَرَك إلى حفلة غوغاء وعربدة وتقتيل، فلم يجد صاحب مقعد مقعده، وانسحبت النخبة ومن بقي منها». وتختم الصحيفة تلك التغطية «إن المنصفين وكل من يغار على أم كلثوم قال بعد الحفلة، من حقها أن تحرم نفسها الغناء ثانية في لبنان، لكن أم كلثوم الكبيرة لا بد من أن تنصف ويصفو قلبها فلا تأخذ الأبرياء بجريرة الجُهال، فإن من الطرب ما قتل!».

وربما ساعد سوء التنظيم في حفل عام 1965 أن تنفصل أم كلثوم كليًا وبشكل عاجل عن متعهد حفلاتها في لبنان حسن الجاك، فاستغلّت هذا لجنة إدارة مهرجانات بعلبك الدولية التي انطلقت بأولى دوراتها عام 1956، وتعاقدت مع أم كلثوم من أجل تقديم حفلي الافتتاح للمهرجان في دورته الحادية عشرة، وذلك يومي 15و17 يوليو 1966. وقبل أن تقف أم كلثوم لتغني في رحاب التاريخ في لبنان، أرسل ظريف لبنان نجيب حنكش[1] إلى سيدة الغناء العربي برقية جاء فيها «هياكل بعلبك، أعجوبة الماضي البعيد، ترحب بقمة الطرب المعاصر وصاحبة الصوت المعجزة أم كلثوم، أجمل ما نقشه الإنسان على الحجر، وأروع ما خلقه الله من أصوات البشر، سيلتقيان على مدرج هياكل جوبيتير، أهلًا بسيدة الطرب، وأكاد أقول خاتمة

(1) نجيب حنكش (1899–1979) شاعر وملحن وإعلامي لبناني، عرف باسم «ظريف لبنان»، وأشهر ألحانه أغنية «أعطني الناي وغنّ» التي غنتها السيدة فيروز عام 1964.

المطربات، وسهلًا بمن تستعمر قلوب الملايين، ولكن بالكلمة الحلوة والصوت الفريد، المشتاق والملتاع والمتعبّد لصوت أم كلثوم». وما إن وطأت أم كلثوم أرض لبنان هذه المرة حتى استُقبلت بحفاوة بالغة، وفي ليلة الافتتاح أرسلت السيدة فيروز وعاصي ومنصور الرحباني باقتين من الورد إلى كوكب الشرق، وكتبت فيروز في بطاقتها مع الباقة «إلى أم كلثوم سيدة الغناء، نورتِ لبنان، تَعِيشي وتسلمي، وإن شاء الله دايمًا بالنجاح الكبير». وكتب عاصي ومنصور في بطاقتهما «إلى التي صار غناؤها مجدًا، إلى السيدة أم كلثوم». وقد شددت لجنة إدارة مهرجانات بعلبك الإجراءات الأمنية حتى لا يتكرر ما حدث في العام الماضي في «بسين عاليه»، فاتفقت الإدارة مع الجيش اللبناني على أن يتولى حماية مداخل ومخارج المنطقة، وقد بلغت دقة نظام المهرجان أن المسؤولين عن تنظيم الدخول منعوا الأمير خالد بن عبد العزيز آل سعود مع أربعة من حاشيته بعد أن وصل متأخرًا خمس دقائق عن موعده. وفي الساعة التاسعة من مساء 15 يوليو، أطلت السيدة أم كلثوم على الجماهير المحتشدة في القلعة، حيث شدت تحت خيمة كبيرة صممها المهندس بيارو خوري على مدخل معبد «جوبيتير» بالقلعة التاريخية، وفي الصفوف الأولى المواجهة للمسرح جلس نجوم الطرب والسياسة في لبنان، فكان في مقدمة الحضور رئيس الوزراء عبد الله اليافي (1901-1986) والوزراء والنواب والسفير المصري في لبنان، والسيدة فيروز وزوجها الموسيقار عاصي رحباني، ولشدة إعجاب فيروز بسلطنة أم كلثوم في تلك الليلة سهرت حتى نهاية الحفل في الساعات الأولى من فجر اليوم التالي، رغم أنّه قد عُرف عنها عدم القدرة على السهر كثيرًا بعد منتصف الليل. غنت أم كلثوم في الحفلة الأولى «أمل حياتي» و«بعيد عنك» و«للصبر حدود»، وغنت في الثانية

«الأطلال» و«سيرة الحب» و«أنت عمري»، وفي نهاية الحفلة الثانية، أهدى أهالي بعلبك إلى أم كلثوم شالًا من صنع فتيات بعلبك مع عبارة إهداء «إلى أسطورة العصر أم كلثوم، رافقتك السلامة يا من أسرتِ العقول والقلوب!».

وقد حققت تلك الحفلتان نجاحًا فاق كل تصور، وتناولت الصحف المصرية واللبنانية على حد السواء ذلك النجاح الباهر لأم كلثوم في بعلبك، فوصفت بعض الصحف تلك الزيارة بأنّها أروع رحلة فنية لأم كلثوم في لبنان على طول زياراتها لذلك القطر العربي، وكتب كمال الملاخ في عدد «الأهرام» الصادر في 21 يوليو 1966، أنّ أداء أم كلثوم في مدينة الشمس كان أبسط ما يقال فيه أنّه «لم يحدث من قبل» وربما «لن يتكرر»، في حين ركزت باقي الصحف وبالتحديد اللبنانية على أجر أم كلثوم الخيالي نظير الغناء في الحفلتين، فتقول صحيفة «النهار» اللبنانية في عددها الصادر في 17 يوليو 1966 إنّ أم كلثوم تقاضت هي وفرقتها مقابل إحياء الحفلتين ثمانين ألف ليرة، أي ما يوازي قيمة ما استوردته مصر فعليًا من التفاح اللبناني في عام 1966، إن لم يكن أكثر بعشرين ألف ليرة. وقبل أن تغادر السيدة أم كلثوم لبنان بليلة واحدة، قامت السيدة فيروز وزوجها عاصي الرحباني بزيارة تحية ووداع إلى أم كلثوم وذلك في محل نزلها في فندق «بارك هوتيل» في بلدة «شتورة» ليلة 18 يوليو، وفي بداية الجلسة تكلم عاصي عن عبقرية السيدة أم كلثوم وتمكنها من السيطرة على الجماهير على اختلاف ثقافتهم، وأن تلك السيطرة لا يقدر عليها غيرها، ومدحت السيدة أم كلثوم قدرات عاصي في التوزيع، وقالت إن أعماله في هذا المجال تحديدًا تعتبر إعجازًا حقيقيًّا، وفي أثناء الزيارة سألت أم كلثوم فيروز عن رأيها في الحفلتين، فأجابت فيروز معربة عن إعجابها بصوت أم كلثوم خاصة

في «أنت عمري» و«أمل حياتي» بعدما شدت بهما أم كلثوم في تلك الرحلة، وأشارت إلى مقاطع معينة في الأغنيتين، وسألت فيروز السيدة أم كلثوم عما يعجبها من أغنياتها اللبنانية، فردت أم كلثوم أنّها معجبة للغاية بموهبتها الغنائية الفريدة، وأضافت أنّها تحفظ لها أكثر من أغنية، وقد امتد ذلك اللقاء زهاء ساعة، انتهى بوعد لقاء قريب في القاهرة، وهو ما كان فعلًا حين زارت السيدة فيروز والأخوان رحباني القاهرة في 14 أكتوبر 1966 تلبية لدعوة رسمية من وزارة الإرشاد القومي لهم لزيارة الجمهورية العربية المتحدة، وخلال تلك الزيارة اصطحبهم الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى بيت السيدة أم كلثوم مساء يوم السبت 22 أكتوبر، حيث جمعت الأربعة جلسة ودية، بلا مصورون ولا إعلام كعادة كل الجلسات في بيت السيدة أم كلثوم.

وقد دفع نجاح أم كلثوم في بعلبك عام 1966 إلى زيادة رغبة لجنة المهرجان لتكرار التجربة في العام التالي 1967، لكن الأحداث السياسية التي اندلعت في مطلع صيف ذلك العام حالت دون رغبة اللجنة، وانشغلت السيدة أم كلثوم بدورها الوطني والاجتماعي داخل مصر وتأسيس «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» ثم حفلات الأقاليم من أجل المجهود الحربي، ولذا عملت إدارة المهرجان على تعديل برامج المهرجان في ذلك العام وإلغاء أو إرجاء الكثير من العروض لعام 1968، وارتأت لجنة مهرجانات بعلبك إقامة مهرجان مختصر إسهامًا في إعادة الحياة الطبيعية إلى العالم العربي ثقافيًا وفنيًا، على أن تفتتح السيدة أم كلثوم المهرجان في عام 1968 بحفلتين يذهب إيرادهما للمجهود الحربي. وبالفعل، في مايو 1968 أُعِلن عن برنامج المهرجان في ذلك العام، وأشارت صحيفة «الأهرام» في عدد 11 مايو 1968 إلى التواريخ النهائية لحفلتي أم كلثوم في مهرجان بعلبك في

دورته الثالثة عشرة، إذ حددت اللجنة يومي 12 و14 يوليو لحفلتي السيدة أم كلثوم، على أن تتوالى ليالي المهرجان وعروضه المختلفة حتى يوم 4 سبتمبر 1968. وبعد شهر كامل من عودتها من تونس، سافرت السيدة أم كلثوم إلى بيروت في مساء يوم 10 يوليو 1968، وقبل أن تهبط طائرة أم كلثوم على أرض المطار، أعلنت إدارة المطار حالة الطوارئ، بعدما زادت عدد الطائرات القادمة من جميع أنحاء العالم العربي، وهي تحمل محبي السيدة التي ستطأ أرض المطار بعد ساعات، وبمجرد أن دخلت الطائرة المصرية الحدود الجوية اللبنانية واستقرت فوق الأرض، استقبلتها الجماهير التي زحفت على المطار بالهتاف والزغاريد الشعبية، وقد حاولت السفارة المصرية في بيروت هذه المرة أن تكون على مستوى الواجب في الترحيب بالسيدة أم كلثوم تقديرًا لموقفها الوطني والغرض من وراء تلك الزيارة، فتعمّد السيد فتحي قنديل القائم بأعمال سفارة الجمهورية العربية المتحدة في لبنان أن يقف مع قرينته تحت سلم الطائرة ليستقبلا السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، ونظرًا إلى حالة الطوارئ التي فرضتها إدارة المطار، فقد منعت سلطاته رجال الصحافة من دخول قاعة الشرف، واتّصل الصحفيون بنقيبهم الذي حضر على الفور واقتحم بهم قاعة الشرف عنوة وهو يردد أن هذا التصرف في جوهرة حق قانوني مشروع، ولا توجد قوة تستطيع أن تمنع الصحفي من الدخول إلى مصادر أخباره، وتمنعه من ممارسة عمله، وبعد شد وجذب استطاع الصحفيون دخول القاعة ومقابلة السيدة أم كلثوم، ولمعت عدسات المصورين تلتقط لأم كلثوم الصور، وامتدت نحوها ميكروفونات مندوبي الإذاعة المحلية في لبنان لعلها تظفر منها بحوارٍ طويل أو قصير.

وبعد محاولات استطاع مراسل مجلة «الشبكة» جان شاهين أن

يجري حوارًا سريعًا مع السيدة أم كلثوم، سألها في بدايته عن شعورها وهي تطأ أرض لبنان، فقالت بذكائها المعهود «أشعر وكإنّني في القاهرة، وأنا أكن للبنان وأهل لبنان كل محبة، وهذا الشعور ليس جديدًا، إنما يتجدد عندي باستمرار»، ثم سألها عن قصيدتها المرتقبة «هذه ليلتي» التي قد أشارت الصحف إلى إمكانية غنائها للمرة الأولى في بعلبك، لكن أم كلثوم نفت ذلك وأكدت أن القصيدة ما زالت في طور التلحين، وبعد ساعة تقريبًا غادرت أم كلثوم المطار، إذ توجهت إلى محل نُزلها في فندق «بارك أوتيل» للراحة، وحتى تستطيع استقبال وفود المهنئين بسلامة وصولها والمعجبين والأصدقاء في صبيحة اليوم التالي.

وعلى بعد 86 كيلومتر من بيروت، وعلى ارتفاع 1170 مترًا عن مستوى سطح البحر، كان العمل في بعلبك لا يتوقف استعدادًا لاستقبال صوت أم كلثوم وعشاقه من البلاد العربية كافة، فأقيم المسرح الذي ستقف عليه أم كلثوم وباقي الفرق العالمية على هيئة مدرجات في الساحة بين المعبدين، بحيث تكون قادرة على أن تحمل قرابة الخمسة آلاف متفرج، وهو ما كان يعني أن عشرة آلاف تذكرة ستباع قبل الحفلتين، لكن المفاجأة أنّه بمجرد أن أعلنت لجنة المهرجان عن بدء توفر تذاكر الحفلتين، نفدت التذاكر في ساعتين فقط، وعلى الرغم أن من أن قيمة التذكرة تراوحت ما بين عشر ليرات ومئة ليرة، فقد نفدت من منافذ البيع، وظهرت في السوق السوداء اللبنانية لتباع بسعر مضاعف؛ أي بمئتي ليرة تقريبًا!

وقد حاول كبار الزوار من البلاد العربية حجز تذاكر لهم عبر الهاتف والبريد، فطلب الأمير عبد الله الفيصل (1923-2007) تليفونيًا حجزَ 16 تذكرة له ولعائلته ومرافقيه، وكذلك السيدة نائلة بن عمار شقيقة

زوجة الرئيس الحبيب بورقيبة وزوجها، اللذان طارا إلى بيروت بعد تأكيد حجز تذاكراهما، وبصحبتهما وفد تونسي كبير على رأسه مدير المراسم في القصر الجمهوري وزوجته، ولقد جاء الوفد خصّيصَى على طائرة خاصة لحضور الحفل، رغم أن حفل السيدة أم كلثوم في تونس لم يكن قد مر عليه إلا شهر تقريبًا. وعن هذا، صرّحت السيدة نائلة لمجلة «آخر ساعة» عقب وصولها إلى بيروت «إنَّ أم كلثوم تركت لنا في تونس ذكرى حلوة لا يمكن أن ننساها، لقد افتقدناها من بعد سفرها، ولذلك جئنا لنشاهدها في بعلبك».

وقد دفع ذلك الإقبال الجماهيري غير المسبوق السيدة شفيقة دياب عضو اللجنة الأهلية لإدارة المهرجان إلى تخصيص معظم تذاكر الصفوف الأمامية لكبار الزوار والوزراء والأمراء الذين توافدوا من الكويت ودول الخليج حتى تضمن توافر تذاكر لهم عند الطلب، كما طلبت مجلة «Elle» الفرنسية أن يحضر مندوبها حفلة السيدة أم كلثوم فقط، لإعداد تحقيق صحفي كبير عن مطربة الشرق.

وفي صباح يوم 11 يوليو، كانت اللجنة الأهلية المشرفة على المهرجان تقف بكامل أعضائها في هياكل بعلبك، لتفقّد التحضيرات كافة فوق المدرج الخشبي، وللإشراف على وضع اللمسات الأخيرة على المسرح قبل أن تشرق أم كلثوم على جماهير القلعة في مساء اليوم التالي، واهتمت اللجنة اهتمامًا كبيرًا بتجهيز حجرة صغيرة تلحق بالمسرح لتستريح بها أم كلثوم قبل غنائها وبعده، وحتى لا تسير على قدميها مسافة كبيرة، فمن السيارة للحجرة للمسرح، وعلى طول الطريق من العاصمة بيروت إلى مدينة بعلبك نصبت أكثر من مئتي صورة ضخمة للسيدة أم كلثوم على جانبي الطريق ترحيبًا بها، وكذلك وضعت الميكروفونات حول الهياكل التاريخية وعلى طول

الطريق من القلعة إلى منطقة رأس العين بناءً على طلب السيدة أم كلثوم ذاتها، وذلك حتى يتسنى لكل لبناني لم يقدر على شراء تذكرة أن يسمع صوتها تمامًا مثل من حالفهم الحظ وتمكنوا من الحصول على التذاكر.

وفي مساء يوم 12 يوليو 1968، وبعدما غربت الشمس وراء أطلال أدراج بعلبك، وصلت سيارة السيدة أم كلثوم إلى المدينة التاريخية أخيرًا، لتعيد إلى هياكلها أمجادَها وإلى قصص الحب فيها رونقَها وشبابَها، في حين امتلأت المقاعد بآلافها الخمسة وزيد عدد كبير من الكراسي وسط الممرات الآثارية. عدد كبير من سيدات العالم العربي جلسن في الصفوف الأمامية؛ نائلة بن عمار وسيدات المجتمع التونسي، ابنة وزير الخارجية الكويتي وخطيبها، سيدات عراقيات ومغربيات، سيدات من لبنان والسودان. وجاء السيد سليمان فرنجية (1910-1992) -وزير الداخلية آنذاك ورئيس الجمهورية اللبنانية فيما بعد- إلى الحفل مندوبًا عن الرئيس شارل حلو (1913-2001)، وجلس القائم بأعمال السفارة المصرية فتحي قنديل وسط باقي سفراء الدول العربية تحت ظل الأعمدة التاريخية، ومن الفنانين جاءت من بلدة «شتورة» بديعة مصابني (1892-1974) التي كانت قد اعتزلت العالم والفن وانزوت في مزرعتها ترعى دواجنها وتبيع فيها منتجات الألبان للمسافرين على طريق بيروت، دمشق، السيدة فيروز والأخوان رحباني جاؤوا ليرحبوا بصديقتهم سيدة الطرب، السيدة صباح والملحن اللبناني فيلمون وهبي (1914-1985) جلسا في إحدى الزوايا البعيدة حتى لا يزعجهما تصفيق أو صفير، غير أن أغرب ما لاحظه الصحفيون في الصفوف الأولى هو وجود الزعيم الدرزي كمال جنبلاط (1917-1977) مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي، ودهشوا لأنّه يحضر

حفلًا للغناء للمرة الأولى في حياته، وهو المعروف بزهده وتصوفه الشديد، وبقضائه معظم أيامه وحيدًا في بيته في الجبل، لا يستمع إلى الغناء ولا يحبه، لكن صوت أم كلثوم جذبه، فصوتها كما قال هو بعد الحفلة «يخرج من نبع الهوى الصوفي بكل نقائه وجلاله». ورغم أن الساعة قد جاوزت السابعة، فإنّ السيارات كانت لا تزال تتوافد على مداخل المدينة العتيقة، بعضها يحمل أرقامًا لبنانية وبعضها يحمل أرقامًا تدل على أنّها سوريّة أو أردنيّة، كلهم جاؤوا لينهلوا من أم كلثوم ومن غناء أم كلثوم. وفي تمام الساعة السابعة والنصف، أطفئت أنوار الهيكل وأضيئت أنوار المسرح، وفُتحت الستارة عن السيدة أم كلثوم التي أطلت على الجماهير المحتشدة في القلعة بفستان أبيض، وحلّت يدها اليمنى بسوار ليبي ذهبي، كانت الأضواء مركزة على الأعمدة الرومانية وأم كلثوم، في حين غرق الجميع في العتمة، الجمهور والمقاعد والممرات، لم يبقَ مُضاءً سوى أطراف السجائر المشتعلة. وقبل أن تبدأ الوصلة الأولى، وقف نجيب حنكش ليقدم أم كلثوم إلى جماهير بعلبك «أهلا بمقدّري عبقرية وصوت أم كلثوم، أهلا بجماهير القاسم المشترك لدنيا العرب من المحيط للخليج». وبعدما ذكر نجيب حنكش في تقديمه بعضًا من ظرف أم كلثوم اللاذع معه، نزل من على المسرح لتبدأ الفرقة في عزف مقدمة قصيدة «الأطلال»، ويبدأ الصوت يعلو تدريجيًّا ويناسب من وسط البقعة المضيئة، وبدا واضحًا أن «أطلال» أم كلثوم سوف تهزم أطلال بعلبك الرومانية وتبتلعها وسط موجة من النغم والتصرف والأداء، وانفعلت أم كلثوم كعادتها وهي تغني مقطع «أعطني حريتي أطلق يَدَيَّ» وضجت آثار القلعة التاريخية بالتصفيق، وتعالت هتافات الجماهير اللبنانية «ما صار.. ما صار»، وهو رجاء لبناني بالإعادة وطلب المزيد. كان الجمهور نهمًا وكانت أم

كلثوم كريمة كعادتها، وعند إعادتها لذلك المقطع، صعد إلى المسرح شاب وركع أمامها وهو يضم يديه باستعطاف فلم تكترث له أم كلثوم، وواصلت غناءها، وظل الشاب يتضرع أمامها حتى جاء رجال الدَّرَك اللبناني وأنزلوه من على المسرح. كانت ظاهرةُ صعود الجماهير إلى المسرح في حفلات أم كلثوم ظاهرةً جديدةً اقترنت بحفلات المجهود الحربي، وربما ارتبطت تحديدًا بقصيدة «الأطلال»، فلتلك القصيدة سحر خاص، بل إنّها صارت مع الوقت قصيدةَ العقد وربما القرن كله، وظلّت العلامةَ المميزة والقاسمَ المشترك في معظم حفلات المجهود الحربي، ولا يوجد تسجيل لها يطابق نظيره، كل تسجيل بنكهة خاصة ومذاق، وكل نسخة بتصرفات، وربما حمل تسجيل «الأطلال» في تلك الليلة تفريدًا غريبًا جعل لذلك التسجيل شخصية واضحة وسط نسخ «الأطلال» العديدة، فقد ارتجلت السيدة أم كلثوم بعد ساعة من بدء غنائها ارتجالا سريعًا عند مقطع «هل رأى الحب سكارى مثلنا»، فسكتت الجماهير منصتة إلى ذلك الوحي النغمي الذي لا ينقطع مدده عن أم كلثوم، وقد دفع ذلك الصمت الذي دام للحظات بعض من كانوا خارج أسوار القلعة، أن يتسلقوا الجدران والأسوار غير مبالين بشيء، ويتخذوا من الأحجار الأثرية مكانًا لهم لعلهم يظفرون بليلة من ليالي التاريخ مثل سعداء الحظ الذين تضمهم مدرجات بعلبك. ومن المشاهد التي نقلتها الصحف عن تلك الليلة، مجيءُ أحد اللبنانيين يمشي على عكازين، وحين لم يجد مكانًا يجلس فيه، رفع عكازيه وأخذ يتسلق المدرجات العالية ونسى إصابته لعله يجد لنفسه موضعًا يستمع فيه إلى أم كلثوم. وبعد 82 دقيقة، اختتمت أم كلثوم الوصلة الأولى وأسدل الستار عنها لتدخل حجرتها المُلحقة بالمسرح. وفي الاستراحة بين الوصلتين، صعدت السيدة فيروز مع الأخوين رحباني

إلى المسرح حيث تجلس السيدة أم كلثوم في حجرتها التي ضجت بالمعجبين والمعجبات، وتلاقت القمتان بالأحضان ودار حديث قصير بينهما، نقلته مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 17 يوليو 1968 إذ قالتا:

فيروز: أهلًا بك في لبنان.

أم كلثوم: أهلًا.. أهلًا.

فيروز: أهلًا بك يا ست الكل.

أم كلثوم: وحشتيني.

فيروز: الله يخلّيلي إياكِ.

وشكرتها أم كلثوم على باقة الورد التي بعثت بها إليها في الفندق فقالت لها فيروز: تعيشي لي.. ولو!

وقبّل الأخوان رحباني يد أم كلثوم، ودعوا لها بالتوفيق والنجاح الدائم، وطول العمر والصحة، ودخل الأمير عبد الله الفيصل شاعر قصيدة «ثورة الشك» التي شدت بها أم كلثوم في ديسمبر عام 1958، وزارتها أيضًا السيدة نائلة بن عمار والوفد التونسي، وتلاقى الجميع بالقبلات والأحضان، والتهنئة على النجاح الكبير بالقلعة. وبعد ساعة إلا ربع، عادت أم كلثوم إلى المسرح، وتابعت مع الفرقة الاستعدادات للوصلة الثانية، بعدما أخبرت فرقتها أنّها ستغني «فكروني» للمرة العاشرة والأخيرة في سجل تسجيلاتها، وما إن بدأت أم كلثوم بالغناء حتى ظهر للجميع أن السيدة قد اندمجت مع أجواء القلعة، وأن الوصلة الثانية ستحمل من السلطنة الكثير، وطوال الوصلة الثانية اختلفت ردود الأفعال عند الآلاف، ثمّة قوم يستمعون إلى غنائها في صمت حزين، وكأنّهم على حافة البكاء، تجدّد «فكروني» بخيالاتهم الذكريات، وهناك من يعلن إعجابه بآهات طويلة، وهناك من يصفق،

وإذا كان الفن هو امتلاك ناصية الأحلام، فقد كان هناك في تلك الليلة آلاف يحلمون، ولقد حاول الصحفي أحمد بهجت مندوب مؤسسة «الأهرام» التلصص على الوجوه في تلك الليلة لعله يجد فيها تفسيرًا لظاهرة أم كلثوم العجيبة، فوجد رسّامَيْن من القاهرة، يُدعيان ماهر ونبيل اتّخذ كل منهما مكانه فوق الحجارة الأثرية وراحا يرسمان، وعندما سألهما عن الرسم في حضْرة صوت أم كلثوم أجابا «الفرق بين تسجيل الصورة للحفل والرسم بعيد، الصورة الفوتوغرافية تجميد للحظة انفعال معين، أما الرسم فتعبير عن هذا الانفعال من خلال رؤيا الرسام، وإذا كان الرسام قد اعتقد أنّه يرسم الطبيعة في لحظات الصمت، فها هي الطبيعة في لحظة من لحظات الحركة، وهذه الطبيعة التي تتكون من الجماهير في تلك القلعة ليست منظرًا جاهزًا، إنّما تمتلئ بالمتناقضات، ليست كل الوجوه فيها على درجة واحدة من الاكتمال، وهكذا يوضع الرسام أمام عملية الاختيار، ولهذا اخترنا أن نرسم هذه السيدة التي لا تكف عن البكاء طيلة الحفل»، وعندما اقترب الصحفي أحمد بهجت من تلك السيدة التي أشار إليها الرسامان وحدق في ملامح وجهها، وجدها هي ذاتها بديعة مصابني نجمة القاهرة في الأربعينيات وما قبلها، ولكنها في تلك الليلة بدت عجوزًا تظهر على وجهها آثار العمر وإن كانت ما زالت تحتفظ ببعض جمال قديم. ارتجلت أم كلثوم طوال الوصلة الثانية، وكعادتها تلقّفت مقطع «كلموني تاني عنك/ بعد طول حرماني منك» فرصةً للسلطنة والتطريب، لدرجة أن أحد أعضاء الفرقة الموسيقية لم يتمالك نفسه وصاح معجبًا بأدائها «الله.. الله يا ست». غنت أم كلثوم «فكروني» في 81 دقيقة لم تهدأ فيها القلعة وجمهورها لحظة واحدة، وانفعل الجميع ورقص البعض الآخر من دون وعي من النشوة. ومع ساعات

الفجر الأولى، أنهت أم كلثوم ليلتها الأولى في بعلبك، التي مرت على حضورها كليلة من ليالي الشرق القديمة، ولكن الوعد كان قريبًا بليلة أخرى بعد ساعات قليلة من ذلك التاريخ. فبعد يومين من الحفل الأول، عادت السيدة أم كلثوم إلى هياكل بعلبك، حين أحيت حفلها الثاني في القلعة التاريخية يوم 14 يوليو 1968، غنت أم كلثوم في الوصلة الأولى «أمل حياتي» للمرة الحادية عشرة في 87 دقيقة، وغنت في الوصلة الثانية «بعيد عنك» في 73 دقيقة، والملاحظ من تسجيلَي ذلك الحفل هو مدى سلطنة السيدة أم كلثوم، وأنّها في أفضل حالاتها الغنائية، بل إنّ تسجيلي تلك الليلة يعتبران من أفضل وأجود تسجيلاتها في عقدها الأخير، وربما ساعد على ذلك مدى التفاعل الجماهيري مع كل نغمة ومع كل حرف ينطلق من حنجرة أم كلثوم، فرغم تعدد تسجيلات «أمل حياتي» وتجاوزها اثني عشر تسجيلًا، يظل تسجيل «أمل حياتي» في تلك الليلة هو الأفضل والأكمل بين باقي التسجيلات، وربما زاده طربًا نسيان أم كلثوم للعديد من الكلمات في ذلك التسجيل، وتفاعل الجماهير مع هذا النسيان، فيبدو صوت سيد سالم عازف «الناي» في فرقة أم كلثوم الموسيقية جليًا وهو يحاول تذكيرها بكلمات الأغنية لإنقاذ الموقف. وعلى مدار ما يقرب من تسعين دقيقة، قدمت أم كلثوم صيغة جديدة لأغنية «أمل حياتي»؛ إذ لم تترك مدخلًا للارتجال والتصرف والتنويع الغنائي إلا وسلكته، لدرجة أن ذكاءها وحضورها الطاغي جعلاها تستغل كلمة «كفاية» في مقطع «كفاية أصحى على ابتسامتك بتقولي عيش» في الدقيقة 68 من بدء غنائها كشكل من أشكال مخاطبة الجمهور ورفضها لطلبات الإعادة المتلاحقة. ونظرًا إلى طبيعة التسجيل وسلطنة أم كلثوم وحالة الطرب الذي اجتاحت الجماهير، لجأ قائد الفرقة الموسيقية عبده صالح قرب نهاية الوصلة

إلى تقديم تقاسيم على آلة «القانون» من مقام «البياتي»، فكانت كعادة تقاسيمه تمتاز بالرشاقة النغمية وقوة استخدام اليد اليسرى في العزف، وربما كان هذا هو التسجيل الوحيد لهذه الأغنية الذي يقدم فيه عبد صالح تقاسيم موسيقية حرة خارج خطها الموسيقي الإلزامي. أما تسجيل «بعيد عنك» فلم تترك فيه أم كلثوم مقطعًا إلا وارتجلت فيه، ولذا فهذا التسجيل لا ينافسه في جماله إلا تسجيل حفل تونس الذي سبق ذلك التسجيل بشهر تقريبًا.

وقد حضر من باريس إلى بعلبك كوكاتريكس مالك صالة «الأولمبيا» ومديرها الذي سبق وواكب نجاح أم كلثوم المدوي في باريس في نوفمبر 1967، إذ أراد استثمار النجاح السابق في باريس وإقامة حفلين آخرين في فرنسا نهاية عام 1968، وقد قابل كوكاتريكس السيدة أم كلثوم في كواليس الحفلة الثانية في بعلبك واتفق معها على موسم باريسي آخر بعد نحو 15 أسبوعًا من ذلك التاريخ، وكذلك إحياء حفل في المملكة المتحدة في قاعة «ألبرت هول» وحفل آخر في العاصمة الألمانية برلين، وقد صرّحت أم كلثوم لمجلة «آخر ساعة» الصادرة في 24 يوليو 1968عقب عودتها من بعلبك بقولها: «لقد جاءني صاحب تياترو الأولمبيا في باريس يقترح علي إحياء عدة حفلات في باريس ولندن وألمانيا، وأنا الآن أدرس اقتراحه، وبإذن الله نعلن قريبًا عن هذه الحفلات». غير أن خطط الغناء في العواصم الأوروبية قد أُلغيت تمامًا بعدما قررت السيدة أم كلثوم السفر إلى السودان في نهاية عام 1968 والغناء في مدينة أم درمان السّودانية لصالح المجهود الحربي.

وقد أجرت مجلة «الأسبوع العربي» اللبنانية تحقيقًا خَاصًّا عن السيدة أم كلثوم بعد حفلتيها في بعلبك، وقدمت مجموعة آراء لعدد

من الفنانين اللبنانيين ومنهم حليم الرومي وعاصي رحباني والسيد حسن الجاك متعهد السيدة أم كلثوم السابق في لبنان، فسُئل حليم الرومي عن اللغز المسمى أم كلثوم، وكيف يفسر سيطرتها على ميدان الطرب في العالم العربي زهاء نصف قرن، وأجاب «النور القوي يحجب النور الضعيف، وأم كلثوم شمس في نورها، فكيف يسطع نور غيرها؟» كما لجأت المجلة إلى الاستماع لرأي الطبيبين اللبنانيين صلاح سلمان ورمزي ناصيف، فأشادا بما أسموه «ربيع الحنجرة المتجدد دائمًا وأبدًا»، ومدح الجميع تلك المعجزة الإنسانية التي تصارع الزمن وتقهره رغم تجاوزها السبعين عامًا، وقال عاصي رحباني في شهادته: «منذ نشأتها وحتى الآن تميّز صوتها بالقوة، متّخذًا طابعًا خاصًا، وواضعًا أُسسَ مدرسة خاصة هي مدرسة أم كلثوم، وهي تتمتع عدا صوتها بشخصية قوية، وشخصية الفنان جزء لا يتجزأ من كيانه، تبدو جلية من خلال صوته. وبتعبير آخر، إنّ صوت أم كلثوم هو من الأصوات النادرة جدًا، طابعه القوة والتأدية السليمة، ويؤدي الطرب الشرقي الأصيل. قفلاتها شجاعة جدًا، ومن ثَمَّ فإن سر نجاح أم كلثوم هو أيضًا في كونها مخلصة للتراث الذي تغنيه.. في البدء كان صوت أم كلثوم أكثر فتوّة، لكنّه اليوم ممزوج بالنضوج والتجربة، وما زالت أم كلثوم تغني وتطرب، فالصوت يخسر مع العمر من المقامات العالية، ولكن ما يخسره من هذه المقامات، يربحه في المقامات المتوسطة والمنخفضة، ويزداد فيها طلاوة».

وعلى وَفق لما نشرته مجلة «الكواكب» في عددها الصادر في 23 يوليو 1968، فقد حصلت السيدة أم كلثوم على مئة وخمس وثلاثين ألف ليرة لبنانية عن غنائها في حفلتي افتتاح مهرجان بعلبك الدولي، بعدما بلغ دخل الحفلتين قرابة المائتين ألف ليرة لبنانية، وهو أكبر رقم

تحصل عليه فنانة في لبنان، وخُصِّص هذا المبلغ للمجهود الحربي كما كان مقرّرًا، وبذلك المبلغ بلغ مجموع ما جمعته السيدة أم كلثوم لصالح المجهود الحربي حتى ذلك التاريخ ما يزيد على 400 ألف جنيه إسترليني. وفي العدد ذاته من مجلة «الكواكب»، كتب أحد الصحفيين كلمة صغيرة دون توقيع تعليقًا على ذلك المجهود الكبير الذي بذلته أم كلثوم منذ بداية الأزمة في يونيو 1967 «اسمحي لي أن أحني لكِ رأسي احترامًا وإجلالًا وأدبًا، باعتبار الأعمال العظيمة التي تقدمينها وكل دخلها كان ولا يزال لصالح المجهود الحربي، ومن أجل إزالة آثار العدوان، وبعكس بعض مطرباتنا الكبار اللاتي يذهبن في سفريات للخارج كل أسبوع من أجل المرور على «الديفيليلهات» لانتقاء آخر موضات الفساتين، والألماظات وكلها لصالح المظهر والمنظر. واسمحي لي أيضًا يا ست الستات أن أدعو لكِ دعوة من أغلى الدعوات.. الله يمنحك الصحة والعافية».

طوال مدة إقامة السيدة أم كلثوم في لبنان شهدت عدة حفلات تكريم أقيمت على شرفها، فكرمتها الحكومة اللبنانية وقلدها رئيس الوزراء عبد الله اليافي «وسام الأرز اللبناني» من رتبة ضابط أكبر في حفل أقامته وزارة السياحة اللبنانية على شرفها في محل إقامتها في بلدة «شتورة»، وحضر تلك الحفلة مجموعة كبيرة من الشخصيات الرسمية والفنية والصحفية في لبنان، وكانت السيدة أم كلثوم قد حصلت من قبل على وسامين لبنانيين، هما وسام «الأرز الوطني» من رتبة «كومندوز» عام 1959، ووسام «الاستحقاق» اللبناني المذهب. وبعد انتهاء الحفلتين في بعلبك، أقام لها السيد فتحي قنديل القائم بأعمال سفارة الجمهورية العربية المتحدة في لبنان حفل تكريم في فندق «فينيسيا» وذلك يوم الثلاثاء 16 يوليو 1968، وحضر هذا الحفل

عدد كبير من الوزراء والفنانين اللبنانيين، وبعض الفنانين المصريين الموجودين في لبنان ومنهم عبد الحميد جودة السحار ومحمد رجائي وسامي ترك عن مؤسسة السينما، إلى جانب فيروز وعاصي الرحباني وفريد الأطرش وأحمد رمزي ورمسيس نجيب والموسيقار محمد الموجي، غير أن التكريم الأهم للسيدة أم كلثوم في تلك المرحلة كان عقب عودتها من لبنان، حين تسلمت من وزير الثقافة ثروت عكاشة وبحضور الأديب يوسف السباعي جائزة الدولة التقديرية في الفنون، وذلك بعد سنوات من ترشيحها لهذه الجائزة لأول مرة، فقد سبق ورشحت السيدة أم كلثوم لجائزة الدولة التقديرية في أكتوبر 1959 عندما انعقدت «الجمعية التاريخية» برئاسة الدكتور محمد شفيق غربال (1894-1961) ورشحتها بالإجماع لنيل جائزة الدولة التقديرية في الفنون. وفي نوفمبر من ذات العام، اجتمع مجلس إدارة اللجنة الموسيقية العليا بدار الأوبرا، وقررت بإجماع آراء الحاضرين ترشيحها لنيل الجائزة أيضًا، غير أن أم كلثوم لم تنلِ الجائزة لحيثيات قدمتها اللجنة الفرعية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، التي اعتبرت أن الغناء ليس ابتكارًا وأنّه مجرد أداء وترديد، وأن الجائزة لا تُمنح إلا لمبدعي الفنون وخالقيها!

وفي 24 يناير 1968، أصدر مجلس الفنون قائمة المرشحين لجوائز الدولة التقديرية في المجالات كافّة لعام 1966/ 1967، وكانت السيدة أم كلثوم على رأس المرشحين هذه المرة لنيل جائزة الدولة التقديرية في الفنون، مع كل من صلاح أبو سيف ويوسف وهبي وزكي طليمات ورياض السنباطي، وعدد من الفنانين التشكيليين والنحاتين المصريين، وحالف الحظ السيدة أم كلثوم هذه المرة، وبالفعل رأت اللجنة برئاسة توفيق الحكيم منحها الجائزة، وإن كان

قد ورد إشارات واضحة وعديدة لتدخل الرئيس جمال عبد الناصر في إقناع اللجنة بضرورة هذا المنح، وجاء في حيثيات منح الجائزة «أم كلثوم قدمت إلى الدولة في جميع المناسبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الأحداث الكبرى، وإنّها أشاعت التذوق الجمالي عن طريق اللحن والنغم الفريد، الأمر الذي فرض نفسه فَنِيًّا على جميع المستويات المحلية والعالمية» وقال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية: «إنّ أم كلثوم استطاعت أن تعمّق معنى الكلمة العربية وتوصلها إلى النفوس عن طريق أدائها المميز، واستطاعت أن تضيف إلى التاريخ الفني مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة في استمرار التراث الفني، وفي نفس الوقت بعيدة عن التجمد، مما أعطاها التطوير الحي المستمر». وفي صباح يوم 21 يوليو 1968، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مبنى وزارة الثقافة، حيث تسلمت الجائزة من ثروت عكاشة في مقابلة دامت نصف الساعة تقريبًا، وأعلنت أم كلثوم تبرعها بمبلغ الجائزة (2500 جنيه مصري) إلى صندوق معاشات الفنانين، وعقب منحها الجائزة ألقى الدكتور ثروت عكاشة كلمة قال فيها إنّ الدولة المصرية تفخر أن تقدم هذه الجائزة إلى السيدة أم كلثوم، وإنّ هذا ليس تقديرًا لما تقدمه من ألوان الجمال فقط، ولكنّه أيضًا لما تقوم به من دور وطني حقيقي، يعدّ نموذجًا لما ينبغي أن يقدمه كل فنان. وتكلّمت أم كلثوم «إنّ لساني يعجز عن شكر الدولة لهذا التقدير الذي لا أستحقه، وإنّي أدعو الله أن يوفق الرئيس لما فيه خير لبلدنا، كما أعبر عن شكري للدكتور ثروت عكاشة الذي رشحني لهذه الجائزة، كما أشكر يوسف السباعي».

بعد غنائها في لبنان عام 1968، عادت أم كلثوم إلى بعلبك للمرة الثالثة والأخيرة في صيف عام 1970، لإحياء حفلتي افتتاح مهرجان

بعلبك الدولي في دورته الخامسة عشرة، بعدما وُجِّهت إليها الدعوة رسميًّا في مطلع مارس 1970، وقد حددت لجنة المهرجان أسعار تذاكر حفلتي أم كلثوم بثلاثة عشر جنيهًا إسترلينيًا للتذكرة الواحدة، وذلك بعدما استقر رأي اللجنة على افتتاح المهرجان ليلة الأربعاء 8 يوليو 1970، على أن تتبعها ليلة أم كلثوم الثانية بعد ثلاثة أيام، أي يوم السبت 11 يوليو. وفي مساء يوم الثلاثاء 7 يوليو 1970، وصلت السيدة أم كلثوم إلى مطار بيروت للمرة الأخيرة في تاريخها الفني، حيث كان يرافقها 27 عازفًا موسيقيًا، وفي المطار وقف في استقبالها السفير إبراهيم صبري سفير الجمهورية العربية المتحدة في لبنان، والسيدة سلوى السعيد رئيسة لجنة مهرجانات بعلبك وباقي سيدات اللجنة، وكذلك الشاعر اللبناني جورج جرداق، وقد وقف الجميع يستقبلونها تحت سلم الطائرة، لتنتقل السيدة أم كلثوم بعدها إلى صالون الشرف بالمطار بسيارة خاصة، حيث كان في انتظارها عدد من كبار الشخصيات الأدبية والفنية في لبنان، والعديد من المعجبين بسيدة الطرب العربي، الذين احتشدوا في شرفات المطار لرؤية سيارة كوكب الشرق وهي تعبر باحة المطار الداخلية، وفي صالون الشرف قدمت مضيفة من مضيفات «طيران الشرق الأوسط» باقة من الورد الأحمر للسيدة أم كلثوم، في نفس الوقت الذي ازدحمت فيه القاعة بمصوّري الصحف والتليفزيون، وهنا قالت أم كلثوم ضاحكة «حاجة مش معقولة دي.. آه يا بيروت»، وسُئلت السيدة أم كلثوم عن سبب عدم اشتراكها في مهرجانات بعلبك في عام 1969، فقالت إنّه لا يوجد سبب معين، إلا كونها كانت مرهقة، وسُئلت عن رأيها في الشعر الغنائي ومدى تفضيلها للكلمات العامية والفصحى، واعتذرت أم كلثوم عن ذكر أسماء الأغنيات التي ستنشدها في الحفلتين المرتقبتين

في بعلبك، كما رفضت الكشف عن أسماء أغنياتها الجديدة التي ستفتح بهم موسمها الغنائي الجديد لعام 1970/ 1971، وقالت إنّها ستغني في القاهرة بعد بعلبك مباشرة، وإنّها ستسافر إلى أوروبا بعدما تشدو في رحاب أطلال مدينة بعلبك. وبينما كانت ترد أم كلثوم على أسئلة الصحفيين، لاحظت تسابق المصورين على التقاط الصور لها، فقالت تمازح المصوّرين «غلبونا تصوير».

ومن المطار، استقلت السيدة أم كلثوم السيارة إلى منطقتها الأثيرة في لبنان «شتورة» حيث نزلت في فندق «بارك أوتيل»، وهو الفندق الذي داومت على الإقامة فيه منذ بدء حفلاتها في بعلبك عام 1966، وكان يملكه ظريف لبنان نجيب حنكش.

وفي يوم الحفل الأول الأربعاء 8 يوليو 1970، ومنذ الساعة الثامنة مساءً، بدأ توافد الجماهير على مداخل مدينة الشمس ليشهدوا شمس مصر وهي تشرق في بقاع لبنان، فوصل أولًا موكب الوزير اللبناني فؤاد غصن ممثلًا عن رئيس الجمهورية اللبنانية، والسفير إبراهيم صبري سفير الجمهورية العربية المتحدة، ومحافظ البقاع جورج ساروفيم، وبسبب الاجتماع الطارئ الذي عقده مجلس الوزراء اللبناني في تلك الليلة، تخلف بعض الوزراء عن الحضور منذ بداية الحفل، بينما تركتهم زوجاتهم في الاجتماع وذهبن إلى الحفل، على أن يلحق بهن الوزراء مع بداية الوصلة الثانية، كما جاءت بديعة مصابني كعادتها من بلدة «شتورة» لتجلس في الصف الثاني بعدما فشلت في الحصول على تذكرة في الصف الأول، وكذلك السيدة صباح وزوجها آنذاك جو حمود. وفي وسط حراسة شديدة من رجال الشرطة، وصلت سيارة السيدة أم كلثوم إلى مدينة بعلبك، ووقفت السيدة سلوى السعيد رئيسة المهرجان ومعها المليونيرة اللبنانية شفيقة دياب

والصحفي الكبير صاحب دار «الصياد» سعيد فريحة (1912-1978) لاستقبالها عند مدخل المسرح. وفي حجرتها الملحقة، جلست أم كلثوم ترتاح قليلًا قبل أن تصعد على الركح الذي أقامته اللجنة في واجهة معبد «جوبيتير» في هذا العام. كانت لجنة مهرجان بعلبك قد فكرت في طريقة لزيادة الإيرادات رغم نفاد التذاكر من أسبوعين قبل موعد الحفل، وذلك لزيادة قيمة التبرعات التي ستذهب إلى المجهود الحربي، فقررت اللجنة صك ميداليات ذهبية تحمل صورة أم كلثوم، تباع الواحدة منها بخمسٍ وعشرين ليرة لبنانية، على أن تطرح تلك العملات في شباك التذاكر ليلة الافتتاح. وبالفعل، ما إن بدأ بيع تلك الميداليات حتى نفدت خلال ساعة واحدة، وبيعت أكثر من عشرة آلاف ميدالية عن آخرها، ليزيد إيراد تلك الليلة مئتين وخمسين ألف ليرة لبنانية على دخل الحفل الأصلي.

وفي الساعة التاسعة والربع، وبعدما امتلأت المقاعد الخمسة آلاف بالجماهير التي أتت من كل البلاد العربية، وبينما وقف ألف متفرج آخر في وسط الممرات الداخلية للهياكل التاريخية، لكي يسعدوا بليلة أم كلثوم الأولى، وبعدما أشرفت أم كلثوم على عملية ضبط العازفين لآلاتهم الموسيقية، رُفع الستار أخيرًا عن السيدة أم كلثوم، فضجت مدينة الشمس بالتصفيق المدوي الذي تجاوبت أصداؤه في كل البقاع. ظهرت أم كلثوم على المسرح وهي ترتدي فستانًا أبيض محلى بفصوص بارزة على الصدر، وله أكمام طويلة تنحدر باتساع، وهو الفستان ذاتُه الذي ارتدته في الحفلة الثانية لموسمها الغنائي لهذا العام وتحديدًا في ليلة 1 يناير 1970، أما شعرها فقد احتفظت بنفس التسريحة الشهيرة التي داومت عليها منذ عام 1968 والمعروفة باسم «الشينيو» مع تغير بسيط في طريقته، وكان منديلها التقليدي الأبيض يرفرف بين

أصابعها. وكالعادة، وقف نجيب حنكش ليقدم أم كلثوم إلى جماهير بعلبك «شرف كبير منحتني إياه لجنة مهرجانات بعلبك، عندما كلفتني بتقديم أم كلثوم، وماذا أقول بأم كلثوم، ماذا أقول بمعجزة الغناء؟ إن الكلمة تسجد اليوم أمام ضيفتنا الكبيرة التي تعود إلينا لتغدق علينا خيرات ليلتين من ليالي العمر». وكان لا بد أن يعود نجيب حنكش إلى طبيعته الضاحكة «خليها إذن بلا حكي، لأننا شبعنا حكي»، وضحكت أم كلثوم لنجيب وهو يغادر المسرح تاركًا المكان للفرقة الموسيقية، كانت الفرقة المكونة من أكثر من عشرين عازفًا، قد غاب عنها وجهها الأول وقائدها العازف الكبير محمد عبده صالح، الذي توفي في القاهرة قبل تلك الحفلة بأيام قليلة وتحديدًا يوم 30 يونيو 1970، فافتقد الجمهور البعلبكي قانونه لأول مرة، وكذلك افتقدته السيدة أم كلثوم التي بدأت مشاعر الفقد الموسيقي تتسلل إليها، خصوصًا بعد رحيل الموسيقار محمد القصبجي في مارس 1966 ثم عبده صالح في صيف 1970، ورغم أهمية «القانون» في الفرقة الموسيقية واعتباره الآلة المركزية داخل نظام الفرقة، لم تلجأ أم كلثوم إلى تعويض مقعد عبده صالح بعازف آخر إلا بعدما أجبرتها الدعوات الموسيقية على ذلك في سنواتها الأخيرة. وبعيدًا عن غياب عبده صالح، كانت الفرقة في تلك الليلة مكونة من عشر «كمنجات» بقيادة العازف الأول أحمد الحفناوي، وعضوية عبد المنعم الحريري، ومحمود القصبجي، وكمال الشويخ، وإبراهيم القباني، وسعيد القصبجي، ومحمد ماضي، وعبد الغني غنيم، ومحمود الشريف، وكرم مغني. بينما على «العود» عبد الفتاح صبري بعدما ضمته أم كلثوم إلى الفرقة الموسيقية عام 1969، و«أكورديون» واحد يحمله فاروق سلامة، و«جيتار» واحد عليه عمر خورشيد، و«أرغن» واحد لجمال سلامة، بالإضافة إلى

«الناي» بين يدي سيد سالم، و«رِق» مع حسين معوض، و«بنجس» مع أحمد صبح، في حين وقف عباس فؤاد يحمل «الكونترباص»، وأخيرًا على «الفيولونسيل» حسان كمال ومجدي بولس.

وقد وزعت على المسرح سبعة ميكروفونات رُكّبت على مسافات متساوية حتى يخرج الصوت بتناغم وتناسق من الفرقة الموزعة على طول المسرح، وقد أرادت أم كلثوم أن تحيّي لبنان في الليلة الأولى، فاستهلت الحفلة بقصيدة الشاعر اللبناني جورج جرداق، وقدمت قصيدة «هذه ليلتي» للمرة العاشرة والأخيرة، وعلى عادة أم كلثوم الدائمة، فهي تختتم رحلتها الغنائية مع كل أغنية بانشراح وطرب، فغنت قصيدة «هذه ليلتي» في 81 دقيقة، ولم تخلُ دقيقة واحدة من ذلك التسجيل من تصرف وتلاعب بالنغمات، لدرجة أن الفرقة الموسيقية مع بداية المقطع الأخير من القصيدة لم تتمالك نفسها ونسيت الميكروفونات الموزعة على المسرح، وراح أعضاؤها يرددون كلمات الاستحسان للسيدة أم كلثوم وانتفضت الجماهير في القلعة يصفقون ويرقصون على نغمات القصيدة الراقصة. وترصد مجلة «الشبكة» اللبنانية الصادرة في 13 يوليو 1970 بعضًا من شطحات الجماهير في القلعة في تلك الليلة، فتذكر المجلة أن شخصًا استبد به الطرب فراح ينتف شعره على مرأى من زوجته، التي تشاغلت عنه وصارت تلوح بمنديلها للسيدة أم كلثوم لعلها تراها في وسط عتمة المدرجات، وشخص آخر جاء من مدينة حلب السورية -أصل الطرب ومنبع القدود- ليشهد ليلة سيدة الطرب، وقد ظل طوال الليلة يهتف بعلو صوته «ثومة.. ثومة، تقبري قلبي» ولمّا بح صوته من شدة الصياح طلب من جاره في المقعد أن يطلب من ثومة أن «تقبر» قلبه!

أما في الصفوف الأولى فقد جلست أميرة خليجية على بعد أمتار

من ركح المسرح، وفي منتصف الوصلة الأولى تقريبًا أصيبت الأميرة بهستيريا طرب، فلم تعد تعرف كيف تتصرف، تارة تصرخ، وتارة تترجى السيدة أم كلثوم بالإعادة «كمان يا ست»، ومرة ثالثة تهتف بعلو صوتها «برافو»، وفي كل المرات كانت تقوم وتقعد وتلوح بالفرو الثمين الذي كانت تضعه على كتفيها الأسمرين، ومن المقصورة الرسمية التي يجلس بها ممثل الرئيس اللبناني والسفير المصري جاءت السيدة سلوى السعيد رئيسة المهرجان بعدما طار صوابها، وظلت تبحث في أدراج بعلبك عن الشاعر جورج جرداق، وذلك حتى تطبع على خديه قبلة شكر وتقدير على شعره العظيم الذي ازدهر بعدما خرج من بين شفتي أم كلثوم!

وفي الساعة العاشرة والنصف، أُسدل الستار على أم كلثوم وفرقتها الموسيقية، ودخلت الست حجرتها الملحقة بالمسرح، التي شهد مدخلها زحامًا شديدًا من الجماهير التي تريد تحية كوكب الشرق أو توقيعها على صورة، في حين وقف رجال الشرطة على مقربة من باب الحجرة تترقب التدخل إذا لزم الأمر. وبعدما استراحت السيدة أم كلثوم ساعة كاملة، صعدت إلى المسرح لتتابع مع الفرقة الاستعداد للوصلة الثانية التي قررت أن تكون أغنية الموسم الجديدة «ودارت الأيام»، وكانت شدت بها في مارس من ذات العام، لكن ما إن بدأت البروفة السريعة مع الفرقة الموسيقية قبل انطلاق الوصلة الثانية حتى توقف «الجيتار» الكهربائي عن العمل، وحاول العازف الشاب آنذاك عمر خورشيد إصلاحه ولكن دون جدوى، وبسرعة كبيرة تبدلت الخطة المقررة وأجرت أم كلثوم بروفة على أغنية محمد الموجي والشاعر عبد الوهاب محمد «أسال روحك» التي قدمتها للمرة الأولى في 1 يناير 1970، وما إن فتح الستار للمرة الثانية وداعب عبد الفتاح

صبري أوتار «العود» ودندن من نغم «الحجاز كار كرد»، حتى عرفت الجماهير أن أم كلثوم اختارت «أسال روحك» لتكون وصلتها الثانية، وقبل أن يشق الغناء فمها الذهبي، صرخ الكاتب اللبناني جورج إبراهيم الخوري (1922-2006) الذي كان يجلس في واجهة المسرح من أعماق قلبه مخاطبًا أم كلثوم «يا حبيبة قلبي»، فنظرت إليه أم كلثوم وتبسمت وتبسم معها العازف أحمد الحفناوي، وبدأت الوصلة الثانية.

وقد رصدت الصحافة اللبنانية الظاهرة التي أسمتها ظاهرة «الجيل الجديد» خلال الوصلة الثانية، فقد انتشر الشباب في مدرجات القلعة وجلسوا متساوين في الطرب مع المخضرمين من كبار سميعة السيدة أم كلثوم، حتى إن أحد الشباب خلع سترته رغم موجة البرد التي كانت شهدتها بعلبك في تلك الليلة وقذف بها في الهواء تعبيرًا عن نشوته وطربه، وشاب آخر أسعده القدر بمقعد في الصفوف الأولى، فكان يهب عند كل تصرف من أم كلثوم ليصرخ «الله يا ست، الله يا مدام!»، ثم يجلس ويسند رأسه بيده ويغيب في سحر أم كلثوم، وشاب ثالث مسدول الشعر، طويل السالفين، كاد يخرج من الحفلة بلا شعر منتوف السوالف، لولا محاولات رفيقته في منعه والسيطرة على جنونه، وشاب رابع أصابته التصرفات الغنائية في أغنية «أسال روحك» بحالة غريبة، فقد ظل يدور في القلعة التاريخية ويمر أمام المسرح، ليقف قليلًا ويقول للسيدة أم كلثوم «الله يطول بعمرك» ثم يكمل الدوران، كل هذا وأم كلثوم تسترسل في الغناء والطرب والآهات، وشهدت الوصلة تصرفات كلامية أيضًا بجوار التصرفات النغمية، فاستبدلت أم كلثوم بكلمة «القسوة» في بيت «شوف القسوة بتعمل؟» كلمةَ «اليأس»، كما غيرت كلمة «أهلًا» في بيت «أما كان على الحب لوحده من غير هجرك أهلا بيه» بكلمة «يا هلا فيه» تحية إلى الأميرة الخليجية التي تجلس

في الصفوف الأولى، وعندما غنت أم كلثوم «اسأل روحك.. أسال قلبك قبل ده كله أتغيروا ليه؟» بدأت في الارتجال والتصرف وإطلاق الآهات التي كانت أفضل نهاية لتلك الليلة التاريخية في بعلبك. وبعد 88 دقيقة، وبعدما أعادت المقطع الأخير مرة ثانية، اختتمت أم كلثوم غناء الوصلة الثانية في الساعة الواحدة صباحًا، وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي تشدو فيها برائعتها «اسأل روحك» التي غنتها على مدار سبعة أشهر خمس مرات تقريبًا، وما حدث في نهاية الوصلة الأولى حدث في نهاية الوصلة الثانية، فقد طالبت الجماهير بأغنية «ودارت الأيام»، وهتف الهاتفون «ومرت الأيام.. ومرت الأيام» ولكن أم كلثوم أشارت بحركة من يديها فهم منها الحاضرون أنّها ستنشدها في الليلة الثانية.

لم يخفت المزاج الطربي في الحفلة الثانية يوم الجمعة 11 يوليو 1970، بل كالعادة بلغ تجاوب الجماهير البعلبكية في الليلة الثانية أشده، وحلقت أم كلثوم في سماوات الطرب عندما غنت وصلتها الأولى «ودارت الأيام» تلبية لرغبة الجماهير في قرابة التسعين دقيقة، وقدمت في الوصلة الثانية قصيدة « أقبل الليل» التي غنتها للمرة الخامسة والأخيرة في بعلبك، بعدما أطلقتها في بداية ذلك الموسم ليلة 4 ديسمبر 1969، وقد دامت الوصلة الثانية 53 دقيقة تقريبًا، وبتلك الليلة اختتمت أم كلثوم مسيرتها الغنائية في بعلبك، فكانت تلك الليلة هي المرة الأخيرة الذي يتجلى فيها صوت أم كلثوم في تلك المدينة وفي لبنان بشكل عام.

وقد اعتبرت الصحافة اللبنانية أن الليلتين اللتين أحيتهما السيدة أم كلثوم في هياكل بعلبك التاريخية هما البداية الحقيقة لموسم الاصطياف في لبنان لعام 1970، وأنّ الحفلتين بجوار أهميتهما الفنية

كان لهما دور سياسي، إذ أنزل غناء أم كلثوم في بعلبك هزيمة كبيرة بأجهزة الدعاية الصهيونية التي كانت قد أعلنت الحرب الدعائية على لبنان في الميدان السياحي، فكان هَم تلك الأجهزة الإسرائيلية منذ بدايات عام 1970 هو نشر الأخبار والمواضيع في الخارج عن وجود اضطرابات في لبنان، والتأكيد على حالة عدم الاستقرار التي يعيشها المجتمع اللبناني بسبب الأزمات السياسية المتراكمة فوق صدره، ورغم محاولات وزارة السياحة المستميتة في التصدي لتلك الحرب الإعلامية فإنّها لم تنجح، حتى جاءت أم كلثوم إلى بعلبك، فوجهت الحكومة اللبنانية الدعوة إلى حشد من الصحفيين ومصوري التليفزيون من جميع أنحاء العالم لتصوير هاتين الليلتين الموسميتين، وكانت مبادرة الصحفيين ومصوّري التليفزيون الأجانب إلى تسجيل النجاح الرائع لحفلتي أم كلثوم في بعلبك هي بداية الهزيمة لأجهزة الدعاية الصهيونية، وكان ضمن البعثات التي جاءت إلى لبنان لتسجيل مشاهد حفلتي أم كلثوم، بعثة التليفزيون الفرنسي وبعثة التليفزيون الإنجليزي ومحطة «أوروبا رقم 1»، ومع أنّه كان مقررًا أن تكتفي هذه البعثات بتصوير لقطات للسيدة أم كلثوم في إحدى حفلتيها، فأنّهم وبعد أن رأوا أجواء الحفلة الأولى، والتجاوب الكبير بين الجماهير وأم كلثوم، قرروا أن يبقوا مع أم كلثوم، وأن يصوروا حفلاتها كلها، ويرافقوها في كل مكان تذهب إليه، ورغم ذلك الاحتفاء الشديد الذي أبرزته الصحافة اللبنانية للترحيب بأم كلثوم ولياليها البعلبكية، فإن ذلك الإجماع لم يدم طويلًا، فقد خطر لأحد الصحفيين اللبنانيين أن يهاجم أم كلثوم وهي تقبل على الغناء في مهرجانات بعلبك، فكتب مقالًا في صحيفة «النهار» اللبنانية بتوقيع مستتر يحمل حرفي «و. ر» يقول فيه ما خلاصته ومعناه، أنّ أم كلثوم مخدرة الجماهير ومحرقتها،

ويجب أن تتوقف عن الغناء في مهرجانات بعلبك، لأنّها تدني مستوى المهرجان الدولي، وأن التطلّب الثقافي يجبر اللجنة الدولية على وقف تلك الظاهرة، ووقف ما يمكن تسميته بالتشدد الفني، وأن أغنيات أم كلثوم ليست إلا تعطيلًا للحبّ وتشويهًا لغناء المشاعر والعاطفة، والحقيقة أن تلك الاتهامات التي قدمها ذلك الصحفي المجهول كان قد سبق وحاول تكريسها بعض غلاة اليسار العربي بعد هزيمة 1967، وذلك في محاولة للانتقام من النظام الناصري وأذرعه الأدبية والفنية، ومحاولة لتحطيم كل المقربين من شخص جمال عبد الناصر سواء كانوا ذوي قيمة أم لا، وعلى رأس تلك القائمة كانت السيدة أم كلثوم، التي تخصصت بعض الأقلام الشيوعية في الترويج لعبارات التنقيص من قيمة صوتها، وتصويرها على أنّها مطربة تصلح للقرن التاسع عشر، وأنّها عرقلت مسيرة المسرح الغنائي، وقولبت الغناء العربي وجمدته في صورته الفردية، وأخيرًا وضعها في مقارنات عجيبة مع غيرها من الفنانات خصوصًا السيدة فيروز التي مثلت لهؤلاء النموذج الحداثي للغناء النسائي العربي، وإفراطًا في الاتهام أقدمت بعض الأقلام على تحميل السيدة أم كلثوم مسؤولية تخدير الشعب العربي، وتغييب وعي الجماهير التي أدمنت ذلك النوع من الغناء، وتقديمها على أنّها مثل الأفيون الشعبي الذي تتعاطاه الجماهير العربية سنوات طويلة مما أدى إلى الهزيمة، فأثر الطرب لا يختلف كثيرًا عن أثر «الحشيش»، فنلاحظ ذلك النوع من الكتابات في أشعار أحمد فؤاد نجم كقصيدته «الفوازير»، وكذلك يذكر الكاتب المصري محمود السعدني (1928، 2010) في كتابه «مسافر على الرصيف» نقاشًا يَسَارِيًا من ذلك النوع، وفي رحلتها إلى المملكة الليبية في مارس 1969، استغلت الأقلام اليسارية الليبية ذلك التوبيخ الذي

وجهته أم كلثوم لواحد من الجماهير في حفلة بنغازي لتشويه أم كلثوم ومحاولة شن حملة شرسة عليها وعلى فنها، والغريب أن موقف اليسار العربي من غناء أم كلثوم التقى وتوافق مع نقيضه التام وهو موقف التيار الإسلامي المتطرف، فالهجوم الإخواني على السيدة أم كلثوم بدأ تقريبًا منذ الأربعينيات لكنه لم يشتد إلا في عقد الستينيات، وذلك بعدما كبر ونما دور أم كلثوم السياسي وظهر التصاقها بالنظام الناصري، فبدأ الهجوم عليها من بعض دعاة الإخوان على المنابر، ومع هزيمة 1967 وجدت تلك التيارات الإسلامية ضالتها من أجل تحطيم مؤسسة أم كلثوم الفنية، وذلك لعدة اعتبارات بعضها ديني، بالطبع من وجهة نظر هؤلاء، وبعضها سياسي، وبعضها الآخر ذكوري شرقي، فأم كلثوم امرأة تمثل نجاح المرأة العربية وخروجها عن دائرة السيطرة الذكورية، بل أنّها استطاعت أن تفرض هيمنتها على المجتمع الرجالي وتصبح هي «الست» أي المتسيدة على الجميع، وهو بالطبع ما لا تقبله تلك الجماعات اليمينية التي كانت وما زالت تضع حدودًا فاصلة بين الجنسيين، بل وتصر على تحقير المرأة وفرض فكرة الولاية والتبعية عليها، لذلك كرس كُتاب الإسلام السياسي أقلامهم لمهاجمة أم كلثوم، فاعتبرها عبد الله عزام (1941، 1989) رائد الفكر الأفغاني وأحد أعلام جماعة الإخوان المسلمين بأنّها من أسباب الهزيمة في عام 1967، وذلك لأن الإذاعة كانت تخاطب الجنود المتجهين إلى الجبهة بالشعار الشهير «أم كلثوم معكم في المعركة»، ورغم ما قامت به السيدة أم كلثوم من مجهود كبير خلال حملة المجهود الحربي، وما كان لتلك الحملة من أثر في تخطي روح الهزيمة ومحاولة لتجاوز المرارة التي خلفتها حرب الأيام الستة، هذا بخلاف الجانب المادي الذي حققته تلك الحملة في دعم الدولة المصرية لتخطي آثار العدوان،

رغم كل ذلك لم تسلم أم كلثوم من نقد على رحلات المجهود الحربي من بعض الإسلاميين، فهجاها الأردني يوسف العظمة بقصيدة جاء فيها «كوكب الشرق لا تذوبي غراما/ ودلالًا وحُرقة وهُياما/ لا ولا تنفثي الضياع قصيدًا/ عبقريًا أو ترسلي الأنغاما»، وعندما زارت أم كلثوم السودان في نهاية ديسمبر 1968، هاجمتها صحيفة «الميثاق» السودانية التابعة لجماعة الإخوان وقدحت في غنائها وفنها، بل أن الكاتب الكبير رجاء النقاش الذي رافق أم كلثوم في تلك الرحلة، أكد في كتابه «لغز أم كلثوم» أن تلك الصحيفة كانت هي الصحيفة الوحيدة التي شذت عن الإجماع السوداني في الحفاوة باستقبال أم كلثوم ومجهودها الوطني، والأكيد في كل تلك الترهات أن كلًا من النقيضين اليساري والإسلامي قد أفرغ عداوته مع النظام السياسي في مصر آنذاك في شخص السيدة أم كلثوم، فمن لم يستطع هجاء عبد الناصر هجا أم كلثوم، ومن أراد تحطيم الثقافة العربية هجا أم كلثوم، ومن أراد إحلال الثقافة الموسيقية الغربية مكان نظيرتها العربية انتقد أم كلثوم، بل وأعتبرها هي العقبة الأولى في سبيل أي تطوير وأنّها السيدة التي تؤخر ظهور شمس الحداثة.

والعجيب أن كل تلك الانتقادات لم تنخرط فيها أم كلثوم، ولم تشأ أن تشتبك مع أطراف تخفي وجه السياسة وراء أقنعة الفن، فواجهت كل تلك الآراء بالصمت، بينما تولى بعض الصحفيين مهمة الرد والاشتباك مع هؤلاء، فبعد مقالة الصحفي «و.ر» في صحيفة «النهار» اللبنانية عام 1970، ضج المجتمع الصحفي اللبناني بذلك الهجوم، وتفرغ البعض للرد على ذلك الشخص المجهول، وتفنيد ما جاء في ذلك المقال، فكتب الصحفي جورج إبراهيم الخوري افتتاحية قاسية في مجلة «الشبكة» اللبنانية بعنوان «يا آكل صحون البيتزا» جاء

فيها «أنت لا يجب أن تكتب، لأن ملكة المسارح لا تدني مستوى المهرجانات والتطلّب الثقافي والتشدّد الفني، كما تقول وتتفلسف، بل ترفعها إلى مستواها وإلى ذروتها وإلى قمّة قممها، وترفع معها أبناء الجيل الجديد إلى سدة التشَبُّع من الكلمة العربية والتصوير الموسيقي الدقيق لها». وكذلك كتب الكاتب الكبير سعيد فريحة ردًا طويلًا على ذلك المقال ضمن بابه «الجعبة» في مجلة «الصياد» وقد أعادت مجلة «الشبكة» نشره في عددها الصادر يوم 13 يوليو 1970 «إن الشذوذ ليس جديدًا في عباد الله، ولكن الجديد هو الافتراء على عطية الله ومعجزته الكبرى في الغناء: السيدة أم كلثوم. إن أحدًا لم يكرم الشعر كما كرمته، ولم ينهض بمستوى الغناء والأداء كما نهضت هي به، ولم ينشر الحب والجمال والخير والرحمة كما فعلت هذه المعجزة التي تأتي مرة واحدة إلى الدنيا». وفي موضع آخر من المقال: «إنّها جعلت العرب جيلًا بعد جيل يطربون لشعر شوقي وعمر الخيام وجورج جرداق وغيرهم من شعراء الفصحى، طربهم لرامي وبيرم التونسي وعبد الوهاب محمد وسواهم من شعراء الزجل، وكثيرًا ما حار الناس في مقارنة بين شعر يغنّى بالفصحى وشعر يغنّى بالعامية، ولم يكن مصدر الحيرة سوى صوت أم كلثوم وقدرتها الخارقة على الأداء والتصرف والتحكم بالألحان والأنغام، فإذا هي ترتجل من كل لحن ونغم عشرات الألحان والأنغام، فتبدو على المسرح وكأنّها عابدة متصوفة أتاها الوحي والإلهام، فنسيت نفسها وجمهورها وراحت تغني للإله المجهول الذي هو مصدر وحيها وإلهامها». أما الرد الأقسى فكان من الشاعر اللبناني جورج جرداق الذي كتب في ذات العدد من مجلة «الشبكة» مقالًا طويلًا بعنوان «غنّي يَا أم كلثوم، واخرسُوا يا غلمَان»، فنّد فيه الاتهامات التي ألقاها ذلك الصحفي في

وجه أم كلثوم، فتكلم جرداق عن مفهوم التخدير «الخدر ليس مَسَبة وليس عارًا، لا في الطرب ولا غيره. الإغريق، عندما هزموا العالم القديم بقيادة الإسكندر أبو القرنين، كانوا مخدرين بروح الفتح، والعرب عندما قهر عشرونَ ألفًا منهم في اليرموك مئةَ ألف بيزنطي كانوا مخدرين بروح الوحي، وجان جاك روسو عندما خطط للإنسانية الجديدة، وبنى العصور الحديثة، كان مخدرًا بمعاني الطبيعة ومواهبها الأصلية.. الإيمان على اختلاف أنواعه وأشكاله ومحتوياته.. الإيمان صانع المعجزات، هو قمة الخدر! فإذا كان الخدر عاملًا أسَاسِيًا في عظائم الأمور، لماذا تريد أن نرفضه في الطرب سببًا ونتيجة؟».

شَفَت تلك الكلمات التي كتبتها ثلاثي مجلة «الشبكة» نفس أم كلثوم، التي ما إن طوت مقال جورج جرداق حتى ضحكت وقالت لجورج إبراهيم الخوري طبقًا لروايته «الله يساعد الذي يعلق بألسنتكم، أنت وسعيد فريحة وجورج جرداق، لقد نتفتم ريش هذا «الورور» المسكين وشويتموه على نار أقلامكم». ثم سألت أم كلثوم الخوري عن ديانة ذلك الصحفي، وعندما أجابها متعجبًا من السؤال بأنّه مسلم، قالت أم كلثوم «لأنّ هذا يعطيني فكرة عن لبنان، لبنان كما يبدو ليس دولة عنصرية، ولا بلدًا متعصبًا، ولا يفرّق بالتالي بين الأديان، بدليل أنّ كاتبًا لبنانيًّا مسلمًا هاجم «مطربة الإسلام»وتجنى عليها وافترى على حقيقتها، وثلاثة كُتاب مسيحيين انتفضوا ثائرين عليه ليدفعوا عنها الظلم، وينصروها على عدوّها، وينصّبوها بالتالي مليكة العرب!».

وقبل أن تغادر السيدة أم كلثوم لبنان، أُقيمت على شرفها مجموعة من الحفلات تكريمًا لها على مجهودها الفني والوطني؛ ففي البداية أقام لها السيد حسن الحسن مدير عام وزارة السياحة اللبنانية والسيدة

عقيلته، حفلة «كوكتيل» في فندق «بوريفاج» في ليلة الأحد 12 يوليو 1970، حضر تلك الحفلة رجال السياسة والمجتمع في لبنان وأركان السفارة المصرية في بيروت، وعدد كبير من الفنانين منهم فريد الأطرش وعميد المسرح العربي يوسف وهبي، وفي المساء التالي أقام السفير إبراهيم صبري سفير الجمهورية العربية المتحدة حفلًا في منزله في منطقة «الحازمية» إحدى ضواحي بيروت على شرف السيدة أم كلثوم، دعا فيها كبار المسؤولين اللبنانيين ومن بينهم رئيس الحكومة الأسبق رشيد كرامي وعدد كبير من النواب، الذين تحلقوا حول السيدة أم كلثوم، ودارت بينهم الأحاديث عن ما فعلته أم كلثوم بالقلوب والعقول في ليلتي بعلبك الأخيرتين. وبعد ظهر اليوم التالي، أقامت رئيسة لجنة مهرجانات بعلبك الدولية السيدة سلوى السعيد، حفلة غداء على شرف السيدة أم كلثوم في منزلها الصيفي في مدينة «صوفر»، حيث حضر عدد كبير من مقدري فن أم كلثوم. وأخيرًا، وفي مساء ذات اليوم، أقام الرئيس اللبناني شارل حلو حفلًا كبيرًا في قصر «بعبدا» مقر الرئاسة اللبناني، إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي تقام فيها حفلة لتكريم فنانة عربية في قصر الرئاسة اللبناني، وليس لهذه الحفلة سوى سابقة واحدة تختلف عنها قليلًا، عندما أقام رئيس الجمهورية اللبنانية عام 1957، وكان يومئذ كميل شمعون (1900-1987)، حفلة رسمية في قصر الرئاسة الصيفي في منطقة «بيت الدين»، تكريمًا للسيدة فيروز وفرقة الفن الشعبي التي كانت قد قدمت أول مهرجاناتها الفولكلورية بين أعمدة مدينة الشمس، وخلال زيارة السيدة أم كلثوم لقصر «بعبدا» أصدر الرئيس شارل حلو قرارًا بإطلاق اسم أم كلثوم على أحد شوارع العاصمة اللبنانية بيروت، وعندما أخبرها الرئيس بذلك القرار قالت له السيدة أم كلثوم مازحة «بس بشرط يكون الشارع طراوة». وبعدما لبت

عقيلته، حفلة «كوكتيل» في فندق «بوريفاج» في ليلة الأحد 12 يوليو 1970، حضر تلك الحفلة رجال السياسة والمجتمع في لبنان وأركان السفارة المصرية في بيروت، وعدد كبير من الفنانين منهم فريد الأطرش وعميد المسرح العربي يوسف وهبي، وفي المساء التالي أقام السفير إبراهيم صبري سفير الجمهورية العربية المتحدة حفلًا في منزله في منطقة «الحازمية» إحدى ضواحي بيروت على شرف السيدة أم كلثوم، دعا فيها كبار المسؤولين اللبنانيين ومن بينهم رئيس الحكومة الأسبق رشيد كرامي وعدد كبير من النواب، الذين تحلقوا حول السيدة أم كلثوم، ودارت بينهم الأحاديث عن ما فعلته أم كلثوم بالقلوب والعقول في ليلتي بعلبك الأخيرتين. وبعد ظهر اليوم التالي، أقامت رئيسة لجنة مهرجانات بعلبك الدولية السيدة سلوى السعيد، حفلة غداء على شرف السيدة أم كلثوم في منزلها الصيفي في مدينة «صوفر»، حيث حضر عدد كبير من مقدري فن أم كلثوم. وأخيرًا، وفي مساء ذات اليوم، أقام الرئيس اللبناني شارل حلو حفلًا كبيرًا في قصر «بعبدا» مقر الرئاسة اللبناني، إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي تقام فيها حفلة لتكريم فنانة عربية في قصر الرئاسة اللبناني، وليس لهذه الحفلة سوى سابقة واحدة تختلف عنها قليلًا، عندما أقام رئيس الجمهورية اللبنانية عام 1957، وكان يومئذ كميل شمعون (1900-1987)، حفلة رسمية في قصر الرئاسة الصيفي في منطقة «بيت الدين»، تكريمًا للسيدة فيروز وفرقة الفن الشعبي التي كانت قد قدمت أول مهرجاناتها الفولكلورية بين أعمدة مدينة الشمس، وخلال زيارة السيدة أم كلثوم لقصر «بعبدا» أصدر الرئيس شارل حلو قرارًا بإطلاق اسم أم كلثوم على أحد شوارع العاصمة اللبنانية بيروت، وعندما أخبرها الرئيس بذلك القرار قالت له السيدة أم كلثوم مازحة «بس بشرط يكون الشارع طراوة». وبعدما لبت

السيدة أم كلثوم جميع حفلات التكريم التي دعيت إليها في أعقاب حفلتي بعلبك، غادرت العاصمة اللبنانية بيروت في يوم الأربعاء يوم 15 يوليو متجهة إلى أوروبا لقضاء ثلاثة أسابيع للراحة، عادت بعدها إلى القاهرة في منتصف شهر أغسطس 1970، لكي تستعد لرحلتها المرتقبة إلى الاتحاد السوفيتي. وفور عودتها إلى القاهرة، حولت أم كلثوم دخل حفلتي بعلبك الأخيرتين لصالح المجهود الحربي، بعدما زاد الإيراد ذلك العام على مئة وخمسين ألف ليرة لبنانية، أي ما يوازي آنذاك قرابة العشرين ألف جنيه إسترليني. وبحفلتي بعلبك في عام 1970، ختمت أم كلثوم رحلاتها التاريخية إلى لبنان، فلم تزر ذلك القطر العربي بعد ذلك، ولم يعانق صوتها العظيم سماء مدينة الشمس العتيقة بعد ذلك التاريخ قط.

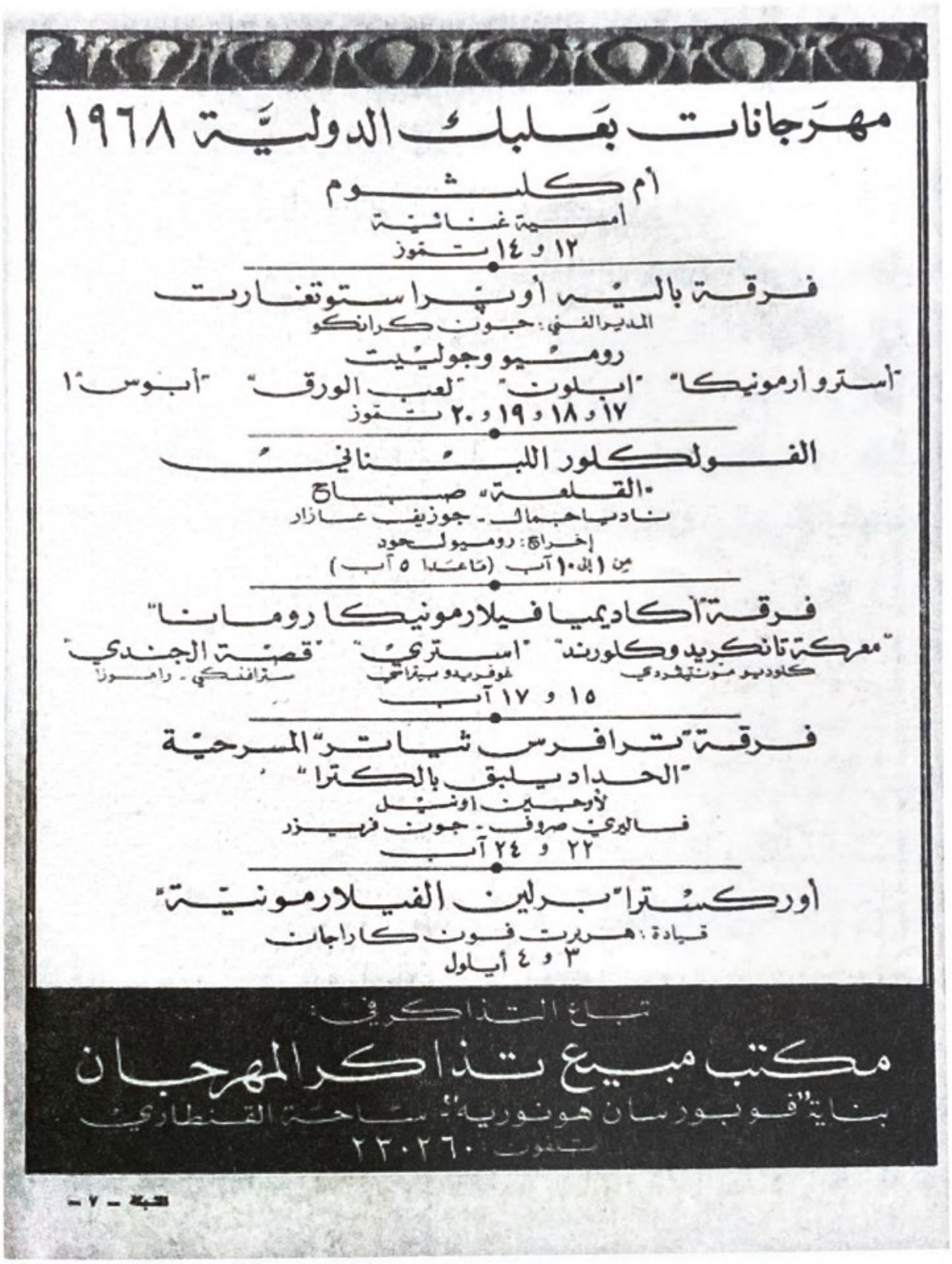
مهرجانات بعلبك الدولية ١٩٦٨

أم كلثوم

أمسية غنائية

١٢ و ١٤ تموز

فرقة باليه أوبرا ستوتغارت

المدير الفني: جون كرانكو

روميو وجولييت

"أسترو أرمونيكا" "ابلون" "لعب الورق" "أبوس ١"

١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ تموز

الفولكلور اللبناني

"القلعة" صباح

نادية احبماك - جوزيف عازار

إخراج: روميو لحود

من ١ إلى ١٠ آب (ما عدا ٥ آب)

فرقة أكاديميا فيلارمونيكا رومانا

"معركة تانكريد وكلورندا" "استري" "قصة الجندي"

كلوديو مونتيفردي غوفريدو بيترانجلي ستراڤنسكي - راموز

١٥ و ١٧ آب

فرقة "ترافرس ثياتر" المسرحية

"الحداد يليق بالكترا"

لأوجين اونيل

فالوري صوف - جون فريزر

٢٢ و ٢٤ آب

أوركسترا "برلين الفيلارمونية"

قيادة: هربرت فون كاراجان

٣ و ٤ أيلول

تباع التذاكر في:

مكتب مبيع تذاكر المهرجان

بناية "فوبور سان هونوريه" ساحة القنطاري

تلفون ٢٢٠٢٦٠

الشبكة - ٧ -

برنامج مهرجان بعلبك في دورته الثانية عشرة، كما نشرته مجلة «الشبكة» اللبنانية الصادرة في 10 يونيو 1968.

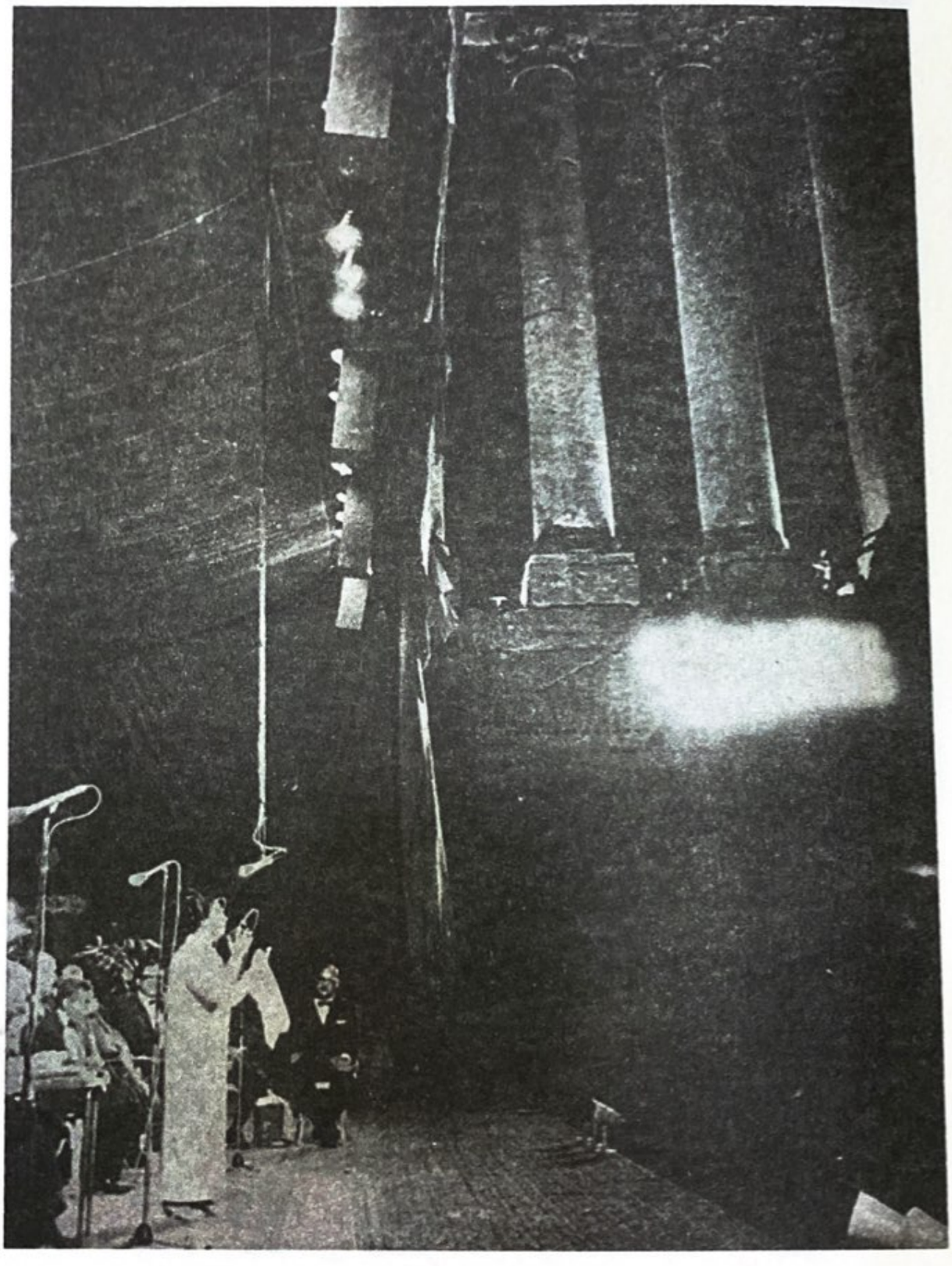

السيدة أم كلثوم تشدو في رحاب أطلال بعلبك، يوم 12 يوليو 1968.

رئيس الوزراء اللبناني عبد الله اليافي يُقلد السيدة أم كلثوم وسام «وسام الأرز اللبناني» من رتبة ضابط أكبر في حفل أقامته وزارة السياحة اللبنانية على شرفها في محل إقامتها في بلدة «شتورة»، يوليو 1968.

السيدة أم كلثوم تقبّل السيدة فيروز في الحفل الذي أقامته
لها سفارة الجمهورية العربية المتحدة في لبنان في بهو فندق
«فينيسيا»، يوم الثلاثاء 16 يوليو 1968.

إعلان حفلتي السيدة أم كلثوم في مهرجان بعلبك لعام 1970.

السيدة أم كلثوم تغني في حفلها الثاني في قلعة بعلبك، يوم 14 يوليو 1968.

ظريف لبنان نجيب حنكش يقدم السيدة أم كلثوم إلى الجماهير اللبنانية، يوم 8 يوليو 1970.

السيدة أم كلثوم في الحفل الذي أقامه لها السيد حسن الحسن
مدير عام وزارة السياحة اللبنانية في فندق «بوريفاج»، يوم
الأحد 12 يوليو 1970.

السيدة أم كلثوم تغني الوصلة الأولى في حفلها الأول لمهرجان بعلبك في دورة عام1970، ويظهر خلفها العازف عبد الفتاح صبري على العود، الذي حل محل الموسيقار محمد القصبجي، يوم 8 يوليو 1970.

مصادر هذا الفصل:

1- جورج إبراهيم الخوري، حكايتي مع أم كلثوم، دار جروُس بُرس، الطبعة الأولى 2000.

2- الأخوان سحّاب، موسوعة أم كلثوم، دار موسيقى الشرق، بيروت 2003.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 يوليو 1966.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 17 يوليو 1966.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 21 يوليو 1966.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 يوليو 1966.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 25 يناير 1966.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 11 مايو 1968.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 24 مايو 1968.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 يوليو 1968.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 16 يوليو 1968.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 يوليو 1968.

13- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 يوليو 1968.

14- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 7 مارس 1970.

15- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 مارس 1970.

16- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 9 يوليو 1970.

17- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 10 يوليو 1970.

18- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 يوليو 1970.

19- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 يوليو 1970.

20- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 يوليو 1970.

21- صحيفة الحياة، لبنان، عدد 15 أغسطس 1965.

مصادر هذا الفصل:

1- جورج إبراهيم الخوري، حكايتي مع أم كلثوم، دار جروُس بُرس، الطبعة الأولى 2000.

2- الأخوان سحّاب، موسوعة أم كلثوم، دار موسيقى الشرق، بيروت 2003.

3- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 يوليو 1966.

4- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 17 يوليو 1966.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 21 يوليو 1966.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 يوليو 1966.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 25 يناير 1966.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 11 مايو 1968.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 24 مايو 1968.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 يوليو 1968.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 16 يوليو 1968.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 يوليو 1968.

13- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 يوليو 1968.

14- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 7 مارس 1970.

15- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 مارس 1970.

16- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 9 يوليو 1970.

17- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 10 يوليو 1970.

18- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 يوليو 1970.

19- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 يوليو 1970.

20- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 يوليو 1970.

21- صحيفة الحياة، لبنان، عدد 15 أغسطس 1965.

22- صحيفة الحياة، لبنان، عدد 15 يوليو 1966.
23- صحيفة الحياة، لبنان، عدد 13 يوليو 1968.
24- صحيفة النهار، لبنان، عدد 15 يوليو 1966.
25- صحيفة النهار، لبنان، عدد 17 يوليو 1966.
26- صحيفة النهار، لبنان، عدد 19 يوليو 1966.
27- صحيفة النهار، لبنان، عدد 13 يوليو 1968.
28- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 8 يوليو 1970.
29- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 9 يوليو 1970.
30- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 10 يوليو 1970.
31- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 13 يوليو 1970.
32- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 14 يوليو 1970.
33- صحيفة الأنوار، لبنان، عدد 16 يوليو 1970.
34- مجلة الديار، لبنان، عدد 13 يوليو 1968.
35- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 10 يوليو 1968.
36- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 22 يوليو 1968.
37- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 13يوليو 1970.
38- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 20 يوليو 1970.
39- مجلة الموعد، لبنان، عدد 16 يوليو 1970.
40- مجلة الموعد، لبنان، عدد 6 أغسطس 1970.
41- مجلة الكواكب والاثنين، القاهرة، عدد أكتوبر 1954.
42- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 16 يوليو 1968.
43- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 23 يوليو 1968.
44- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 30 يوليو 1968.
45- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 7 يوليو 1970.

46- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 21 يوليو 1970.
47- مجلة المصور، القاهرة، عدد 26 يوليو 1968.
48- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 12 يوليو 1968.
49- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 17 يوليو 1968.
50- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 24 يوليو 1968.

البكاء في ساحة الكرملين!

في جمعة خريفية باردة في سبتمبر 1970، حطت للمرة الأولى طائرة مصرية تقل السيدة أم كلثوم إلى عاصمة الاتحاد السوفيتي موسكو، في زيارة سريعة لم يكتب لها أن تكون إحدى الرحلات التاريخية الخالدة في سجل أم كلثوم والمجهود الحربي، ورغم تعدد المصادر ومواكبة الصحف والمجلات لتلك الرحلات الفنية التي بدأتها أم كلثوم عقب عدوان 5 يونيو 1967، ورغم حجم تلك الزيارة وأهميتها في نطاق التعاون المصري-السوفيتي الذي بلغ مداه طوال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، فإنّ هذه الزيارة لم تلقَ هذا التوثيق والمتابعة المتوقعة لها، وذلك بسبب ظروفها العاثرة التي انتهت بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر في مساء يوم 28 سبتمبر 1970.

وبالبحث عن جذور تلك الزيارة، نجد أنّه في نهايات عام 1969، وعبر واسطة الكاتب سعد الدين وهبة، أجرت صحيفة «البرافدا»[1] الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفيتي حوارًا مطولًا مع السيدة أم

---

(1) صحيفة روسية شيوعية صدر العدد الأول منها في 22 أبريل 1912 في سان بطرسبرج، إذ كان الزعيم السوفيتي لينين أحد المسهمين فيها، وعقب سقوط الإتحاد السوفيتي عام 1991 صدر مرسوم رئاسي بوقف إصدارها، لكنها عادت مرة أخرى ولكن بصيغة مطورة.

كلثوم، إذ يروى سعد الدين وهبة تفاصيله «ذات يوم اتصل بي مندوب صحيفة البرافدا السوفيتية في القاهرة، وقال إنّه يريد أن يجري حديثًا صحفيًّا مع أم كلثوم، وأن البعض دله علي لأكون وسيطًا في هذا الطلب لأنّه عرف أني أقابلها كثيرًا، وأكتب قصة حياتها، وقابلتها في نفس اليوم وأبلغتها برغبة مراسل البرافدا، وسألتني عن أهمية البرافدا، فشرحت لها قيمة الصحيفة في الاتحاد السوفيتي، وسألتني هل أجرت هذه الصحيفة أحاديث مع أحد في مصر، وأجبتها: أعتقد أنّها أجرت حديثًا واحدًا فقط مع الرئيس عبد الناصر، ووافقت أم كلثوم وطلبت مني أن أحضر مع المراسل يوم الثلاثاء القادم، وأبلغت الشاب الذي فرح فرحًا شديدًا، وطلبت منه أن يمر على بيتي لنذهب معًا إلى بيتها، وفي الموعد المحدد قدمت لها المراسل، وجلسنا وسألتني عن اللغة التي يتحدث بها.

فأجبتها: بالإنجليزية.

قلت ذلك وتأهبت لمغادرة البيت بعد أن انتهت مهمتي فإذا بها تقول: إنجليزي.. تبقي تقعد عشان تترجم.

وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن أم كلثوم لا تعرف الإنجليزية رغم إجادتها للفرنسية إجادة تامة.

جلست وبدأت الأسئلة ينطقها المراسل بالإنجليزية وأنقلها إليها بالعربية ثم أسمع ردها بالعربية لأعيده للمراسل بالإنجليزية. وفجأة وفي أثناء الحديث توقفت ونظرت لي وسألتني بالعربية طبعًا: أنا بأقول كلام فارغ؟

ورددت: بالعكس أنت بتقولي كلام رائع جدًا. فعادت تسأل: طيب ليه الرد اللي أنت ترجمته بالإنجليزية أطول بكثير من الرد اللي أنا بأقولهولك بالعربي؟

وأفهمتها أني أطيل في الرد عن عمد كي لا يفلت مني معنى أو من المراسل باللغة الإنجليزية.

وظهر عليها الاقتناع، واستمر الحديث، وأذكر أن آخر سؤال وجهه إليها المراسل: ماذا تفعلين إذا حققتم الانتصار على إسرائيل بالسلاح السوفيتي؟

فأجابت بتلقائية غريبة: أغني للشعب السوفيتي في شوارع موسكو.»[1].

ويبدو أن نشر هذا الحديث وبهذه الصورة جعل القيادة السوفيتية تلتفت إلى أهمية السيدة أم كلثوم ومشروعها في دعم المجهود الحربي. وبالفعل، دارت عجلة الحوار بين الطرفين بعدما حضر السفير السوفيتي بالقاهرة وزوجته حفل 4 ديسمبر 1969، الذي أقيم في «دار سينما قصر النيل» بدايةً للموسم الغنائي لعام 1970، فوجهت القيادة السوفيتية الدعوة إلي أم كلثوم لكي تغني في أكبر مسارح موسكو وليس في شوارعها كما تمنت أم كلثوم في لقائها الصحفي.

وربما تكون مهدت تلك الزيارة السرية التي أجراها جمال عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي في يناير 1970 في تحفيز وزارة الثقافة السوفيتية على إتمام تلك الزيارة التاريخية لأكبر وأهم مطربة عربية إلى الاتحاد السوفيتي، خصوصًا أن برنامجها الغنائي منذ العدوان جاء متماشيًا كليًّا مع محور العلاقة المصرية-السوفيتية بعد 1967، والمتمثلة في إزالة آثار العدوان وإعادة بناء القوات المسلحة المصرية، وتخطي تلك الهزيمة القاسية.

وفي نهاية يونيو 1970، كرر جمال عبد الناصر الزيارة ولكن بصورة علنية بناءً على دعوة وجهتها له اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

---

(1) سعد الدين وهبة- أم كلثوم- الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما 1999.

وأفهمتها أني أطيل في الرد عن عمد كي لا يفلت مني معنى أو من المراسل باللغة الإنجليزية.

وظهر عليها الاقتناع، واستمر الحديث، وأذكر أن آخر سؤال وجهه إليها المراسل: ماذا تفعلين إذا حققتم الانتصار على إسرائيل بالسلاح السوفيتي؟

فأجابت بتلقائية غريبة: أغني للشعب السوفيتي في شوارع موسكو.»[1].

ويبدو أن نشر هذا الحديث وبهذه الصورة جعل القيادة السوفيتية تلتفت إلى أهمية السيدة أم كلثوم ومشروعها في دعم المجهود الحربي. وبالفعل، دارت عجلة الحوار بين الطرفين بعدما حضر السفير السوفيتي بالقاهرة وزوجته حفل 4 ديسمبر 1969، الذي أقيم في «دار سينما قصر النيل» بدايةً للموسم الغنائي لعام 1970، فوجهت القيادة السوفيتية الدعوة إلي أم كلثوم لكي تغني في أكبر مسارح موسكو وليس في شوارعها كما تمنت أم كلثوم في لقائها الصحفي.

وربما تكون مهدت تلك الزيارة السرية التي أجراها جمال عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي في يناير 1970 في تحفيز وزارة الثقافة السوفيتية على إتمام تلك الزيارة التاريخية لأكبر وأهم مطربة عربية إلى الاتحاد السوفيتي، خصوصًا أن برنامجها الغنائي منذ العدوان جاء متماشيًا كليًّا مع محور العلاقة المصرية-السوفيتية بعد 1967، والمتمثلة في إزالة آثار العدوان وإعادة بناء القوات المسلحة المصرية، وتخطي تلك الهزيمة القاسية.

وفي نهاية يونيو 1970، كرر جمال عبد الناصر الزيارة ولكن بصورة علنية بناءً على دعوة وجهتها له اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

---

(1) سعد الدين وهبة- أم كلثوم- الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما 1999.

السوفيتي وهيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى والحكومة السوفيتية، وذلك لإجراء مباحثات تتعلق بالموقف في الشرق الأوسط والموقف العالمي بصفة عامة.

وفي أثناء وجود عبد الناصر في تلك الزيارة التي امتدت من 29 يونيو وحتى 18 يوليو 1970، أُبلغ بنص مشروع «روجرز»، الذي أبدى عبد الناصر استعدادًا لقبوله لالتقاط الأنفاس، واقتناص الفرصة لاستكمال بناء حائط الصواريخ على طول قناة السويس. وبالفعل، قُبلت المبادرة في 23 يوليو 1970، وصحيح أن تلك المبادرة كانت بالنسبة لإسرائيل فرصةً للهدوء بعد معارك حرب الاستنزاف الشرسة، لكن من ضمن إيجابياتها أنّها لم تحظر على الطرف المصري أي تشكيلاتٍ عسكريّة، أو استعدادات على الجانب الغربي من القناة، وقد استغلت القيادة المصرية هذا الوضع الجديد بنقل الصواريخ المضادة للطائرات إلى غرب القناة، مما سمح بالتحرك النسبي إلى شرق القناة دون خوف من الطائرات الإسرائيلية.

وقد كان لتلك الزيارتين وخصوصًا الزيارة الأخيرة والتي لاقى فيها الرئيس جمال عبد الناصر من الترحيب والحفاوة السوفيتية ما أعتاد عليه تقريبًا في كل زيارة، الأثر البالغ في تشجيع السيدة أم كلثوم على التساهل في إجراءات مشروع غنائي لصالح المجهود الحربي في الاتحاد السوفيتي، ومد جسور التواصل بينها وبين وزارة الثقافة السوفيتية من خلال السفير السوفيتي في القاهرة من أجل تحديد ملامح الحفل وتحديد الزمان والمكان المناسبين لحفلة كان من المفترض أن تكون تاريخية ولم يسبق أن عاشت العاصمة موسكو مثلها من قبل.

ففي مارس 1970 وعقب زيارة عبد الناصر السرية للعاصمة الحمراء وجهت السفارة السوفيتية في القاهرة رسالة إلى السيدة أم كلثوم جاء فيها التالي:

«القاهرة، مارس عام 1970

العزيزة السيدة أم كلثوم،

أتشرف بأن أُبلغ سيادتكم ببالغ السرور أن السيدة إيكاترينا فورتسيفا[1]، وزيرة الثقافة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، طلبت مني دعوتكم لزيارة الاتحاد السوفيتي لمدة أسبوعين في شهر سبتمبر عام 1970، ضيفةً لدى الوزارة. ويحدوني الأمل في تفضل سيادتكم بقبول هذه الدعوة، وأن تكون زيارتكم إلى دولتنا مثل إسهام مثمر جديد يعود بالنفع على تعميق أواصر الصداقة بين شعبينا.

مع بالغ احترامي

سيرجي فينوجرادوف

سفير الاتحاد السوفيتي»

كان الحدث تاريخيًا بكل المقاييس. وبعدما تلقت أم كلثوم الدعوة، عملت على إشراك وزارة الثقافة وعلى رأسها الوزير ثروت عكاشة في تحديد تفاصيل الزيارة، بل إنّ وزارة الثقافة تولت أمر تلك الرحلة الفنية كُليًا، وأخضعت تفاصيلها للإشراف المباشر من وزارة الثقافة والخارجية في القاهرة وذلك بالتنسيق مع وزارة الثقافة والخارجية في موسكو. وفي مايو 1970، زار الوزير ثروت عكاشة العاصمة السوفيتية موسكو للمشاركة في الذكرى الخامسة والعشرين لانتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد استغل عكاشة تلك الزيارة في تبادل وجهات النظر حول التعاون الثقافي بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتي وعلى رأس ذلك التعاون مشروع زيارة السيدة أم كلثوم

---

(1) إيكاترينا فورتسيفا (1910–1974) من الشخصيات البارزة في الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي ووزيرة الثقافة في الاتحاد السوفيتي منذ 1960، وقد عرفت بنفوذها الكبير في الدوائر الحكومية السوفيتية.

الفنية إلى موسكو، وقد وعدت القيادة السوفيتية الوزير ثروت عكاشة بتوفير أرقى الترتيبات لتلك الزيارة، خصوصًا بعدما أكد عكاشة على القيادة السوفيتية ضرورةَ معاملة أم كلثوم كأي مسؤول رسمي تستقبله العاصمة موسكو وافدًا إليها من القاهرة. وفي عددها الصادر يوم 4 أغسطس 1970، أشارت صحيفة «الأهرام» لانتهاء ترتيبات وزارتي الثقافة المصرية والسوفيتية من أجل إتمام تلك الزيارة الفنية، واختيار المهندس محمد الدسوقي إبراهيم ابن شقيقة السيدة أم كلثوم وعضو مؤسسة السينما ومدير عام قطاع الإستديوهات بها، ممثلًا لوزارة الثقافة في تلك الرحلة الفنية والسياسية المهمة، على أن يعاونه في ذلك الدكتور مصطفى منير رئيس الإعلام الخارجي بمؤسسة السينما وفي يوم الجمعة 14 أغسطس 1970، عادت السيدة أم كلثوم إلى القاهرة بعد إجازة صيف طويلة دامت 28 يومًا قضتها بصحبة زوجها الدكتور حسن الحفناوي في ألمانيا بالقرب من الحدود النمساوية. وبعد أيام قليلة من عودتها، دعت السيدة أم كلثوم كامل أفراد فرقتها لبدء التحضير لموسمها الغنائي الجديد وبدء البروفات استعدادًا لرحلتها المرتقبة للعاصمة الحمراء موسكو.

ومنذ أن عادت السيدة أم كلثوم من رحلتها الصيفية إلى أوروبا والصحافة الفنية في مصر والعالم العربي تتحدث عن رحلتها المرتقبة إلى الاتحاد السوفيتي، تتحدث عن نبض مصر ووجدانها الذي ستنقله أم كلثوم بصوتها إلى شعب الاتحاد السوفيتي، وعن الفنانة العربية الأولى التي ستقف للمرة الأولى على مسارح السوفيت، بعدما مسحت الأرض بصوتها من أجل دعم المجهود الحربي، بدءًا من الرقعة الخضراء في غرب الدلتا بمدينة دمنهور وانتهاء بأكبر مسارح العاصمة الحمراء موسكو. وفي 15 سبتمبر 1970، تصدرت صورة

السيدة أم كلثوم غلاف مجلة «الكواكب» بعدما أجرت حوارًا مطولًا مع المجلة، حاول فيه الصحفي سيد فرغلي كشف تفاصيل تلك الزيارة وجذورها التاريخية ومشاعر السيدة أم كلثوم تجاه تلك الخطوة الكبرى في مسيرتها الوطنية والفنية، وكذلك محاولة فهم رؤيتها لطبيعة دور الاتّحاد السوفيتي في المعركة المصرية، فقالت أم كلثوم لمجلة «الكواكب»: «إنّ لهذه الرحلة وضعًا خاصًا بالنسبة لي وللشعب المصري، فهي تقدير منا، كشعب لحكومة وشعب الاتحاد السوفيتي لمواقفه المشرفة تجاه قضيتنا العادلة، وقد أثبتت التجارب في كل وقت أن الاتحاد السوفيتي، حكومة وشعبًا، لم يبخل بشيء في سبيل الوقوف بجانبنا في كل المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية ضد العدوان ومؤيديه، وأنا أسافر إلى موسكو مدفوعة بهذا الشعور، وهو شعور كل مصري التقيت به خلال المحنة التي نمر بها، وقد أردت منذ مدة أن أسافر إلى هذا البلد الصديق لأعبر عن عميق تقديرنا له على وقفته المشرفة مع عدالة قضيتنا.. ومنذ فترة طويلة، وأنا أفكر في زيارة هذا البلد الكبير الصديق لأعبر، كما قلت، عن عميق تقديري لما يقدمه لنا من مساعدات قبل وبعد عدوان يونيو، وقد التقيت وفدًا صحفيًّا سوفيتيًّا كان في زيارة للقاهرة، وأبديت رغبة صادقة في زيارة الاتحاد السوفيتي للغناء هناك اعترافًا بجميلهم الذي يطوق أعناقنا، وفي الوقت الذي كنت أفكر فيه في إتمام هذه الزيارة تلقيت دعوة من وزيرة الثقافة في الاتحاد السوفيتي عن طريق وزارة الثقافة المصرية، فرحبت بهذه الدعوة لأنّها كانت تحقيقًا لرغبة ملحة طالما راودتني» وختمت السيدة أم كلثوم حديثها «إنّني أقوم الآن بالبروفات على عدد كبير من الأغنيات، الكلاسيك والمودرن، لأني أنوي أن أغني أي أغنية تُطلب مني، مهما كان عدد الأغنيات المطلوبة ومهما تكلفت من جهد».

وتمهيدًا للزيارة، أعدّ قسم الإعلام الخارجي في وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة كُتيبًا صغيرًا يقدم فيه السيدة أم كلثوم إلى الجمهور السوفيتي، واكتسى الكتيب بالروح السوفيتية في تصميمه خصوصًا لونه الأحمر تعبيرًا عن روسيا الحمراء والشيوعية السوفيتية، وهو ما جعل ذلك الكُتيّب شبيهًا بالمطبوعات التي كانت تصدرها دور نشر مهمة مثل «التقدم» و«رادوجا» اللتان كانتا تصدران طبعات لمؤلفات روسية باللغة العربية في ذلك الوقت. تصدرت صورة أم كلثوم الكُتيّب، وتحديدًا صورتها بفستانها الأسود الجميل ومنديلها الأبيض، وهي صورة التُقطت لها في العام السابق وتحديدًا في ليلة إطلاق رائعتها «ألف ليلة وليلة» في 6 فبراير 1969، وبجوار الصورة حاولت وزارة الثقافة اختزال الحدث في كلمات قليلة بليغة تكشف حجم الحدث وضخامته فعنونت الكتيب بجملة قصيرة «أم كلثوم في الاتحاد السوفيتي»، وبجوارها الترجمة الروسية للجملة السابقة، وفي الصفحة التالية لهذا التصدير كتبت وزارة الثقافة «يسر الإعلام الخارجي لوزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة أن يصدر هذا الكتيب لمناسبة زيارة السيدة أم كلثوم للاتحاد السوفيتي في سبتمبر/ أكتوبر 1970، وفقًا لبرنامج نظمته وزارتا الثقافة في الاتحاد السوفيتي والجمهورية العربية المتحدة».

وبالاطلاع على هذا الكتيب، نلاحظ إشكاليتين في تحديد ملامح تلك الزيارة: الإشكالية الأولى وهي عدد الحفلات، إذا تشير شهادة السفير محمد وفاء حجازي وزير مصر المفوض في موسكو، إلى أن برنامج الحفلات التي كان مزمعًا إقامتها داخل الاتحاد السوفيتي أربع حفلات في مناطق مختلفة، منها موسكو وطشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية، وكذلك طاجاكستان وهي مناطق تحب الموسيقى العربية بفضل الوجود الإسلامي فيها، لكن الكتيب

لم يحتوِ إلا على حفلتين فقط؛ الأولى في موسكو والثانية في طشقند، وهو ما أكدته أم كلثوم ذاتها عندما وصلت إلى موسكو في أجابتها عن سؤال أحد الصحفيين عن سبب مجيئها للاتحاد السوفيتي، إذ أكدت أنّها جاءت لإحياء حفلتين فقط، وهو ما ينفي كلام السفير حجازي ويؤكد ما أقره الكتيّب المصري من برنامج غنائي خاص بتلك الزيارة، وكان البرنامج الغنائي لِكل من الحفلتين كالآتي:

أولًا: حفلة موسكو:

• أغنية «ودارت الأيام» من كلمات مأمون الشناوي، ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب، إنتاج مارس 1970.

• أغنية «ألف ليلة وليلة» من كلمات مرسي جميل عزيز، ألحان بليغ حمدي، إنتاج فبراير 1969.

ثانيًا: حفلة طشقند:

• قصيدة «أراك عصِيّ الدمعِ» من كلمات أبي فراس الحمداني، ألحان الموسيقار رياض السنباطي، إنتاج ديسمبر 1964.

• إعادة تقديم أغنية «ألف ليلة وليلة» في طشقند على سبيل التوازن بين الخفة والدسامة الموسيقية الموجودة في قصيدة «أراك عصِيّ الدمعِ».

أما الإشكالية الثانية فهي تاريخا الحفلتان، فالحفلة الأولى حسب ما جاء في الكتيب كان من المقرر إقامتها يوم الأحد 20 سبتمبر 1970 في موسكو، وبالتأكيد هذا لم يحدث لأنّ أم كلثوم وصلت إلى العاصمة موسكو في نهار الجمعة 25 سبتمبر 1970 أي بعد ذلك التاريخ بخمسة أيام، والحفلة الثانية كان من المقرر إقامتها يوم الأحد 27 سبتمبر 1970 وهو ما لم يحدث أيضًا، وأغلب الظن أن وزارة الثقافة في الجمهورية المتحدة قد تسرعت في إصدار ذلك الكتيب، ولم تنتظر حتى تستقر مواعيد السفر الخاصة بتلك الرحلة التي تأجلت بسبب مرض السيدة

أم كلثوم، وهو ما أدى إلى تغير مواعيد الحفلات بعد ذلك، وهو ذاته ما سبق وحدث في مارس 1969، حين طبعت تذاكر حفل بنغازي في المملكة الليبية بتاريخ آخر غير التاريخ الذي أقيم فيه الحفل فعلًا!

احتوى الكتيب كذلك على نبذة سريعة عن حياة أم كلثوم باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والروسية، ومسيرتها الفنية منذ البداية حتى تربعها على عرش الغناء العربي، ومقتطفات مما كتبته الصحافة العالمية طوال السنوات السابقة عن أم كلثوم منها:

• «أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ 32 عامًا. ليست هناك أي علامة على أن كوكب الشرق تتأثر بالزمن، لأن العرب يؤمنون بأنّه يزيدها قوة ويضيف إلى صوتها غِنىً وصفاءً، في الشرق الأوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن: أم كلثوم وأهرام الجيزة.»

«التايم الأمريكية».

• «أم كلثوم هي نجمة الغناء العربي التي تجمع كل العرب حول أجهزة الراديو في الخميس الأول من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الخريف حتى مطلع الصيف، بينما المحظوظون هم الذين يستمعون إليها مباشرة في القاعة.»

«ذا أوبزرفر البريطانية».

• «يُطلَق عليها أحيانًا اسم «إديت بياف الشرق»، أو «سوبر كالاس»، نسبة إلى ماريا كالاس مغنية الأوبرا العالمية، ولعل ما يتسم بمزيد من الدقة وصف أحد النقاد الموسيقيين لها «الحفل الذي تحييه أم كلثوم هو مثل حدث من أحداث الشرق الأوسط»، وانطلاقًا من ذلك فهي تعتمد على التجاوب الوثيق مع مستمعيها، وهذا التجاوب الغنائي وليد صوتها الذي يعيد إلى ذاكرة الغربيين شهرة بيسي سميث ومارلين ديتريتش».

«لوس أنجليس تايمز الأمريكية».

وفي نهاية الكتيب، أوضحت وزارة الثقافة المصرية ذلك الدور

أم كلثوم، وهو ما أدى إلى تغير مواعيد الحفلات بعد ذلك، وهو ذاته ما سبق وحدث في مارس 1969، حين طبعت تذاكر حفل بنغازي في المملكة الليبية بتاريخ آخر غير التاريخ الذي أقيم فيه الحفل فعلًا!

احتوى الكتيب كذلك على نبذة سريعة عن حياة أم كلثوم باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والروسية، ومسيرتها الفنية منذ البداية حتى تربعها على عرش الغناء العربي، ومقتطفات مما كتبته الصحافة العالمية طوال السنوات السابقة عن أم كلثوم منها:

• «أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ 32 عامًا. ليست هناك أي علامة على أن كوكب الشرق تتأثر بالزمن، لأن العرب يؤمنون بأنّه يزيدها قوة ويضيف إلى صوتها غِنىً وصفاءً، في الشرق الأوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن: أم كلثوم وأهرام الجيزة.»

«التايم الأمريكية».

• «أم كلثوم هي نجمة الغناء العربي التي تجمع كل العرب حول أجهزة الراديو في الخميس الأول من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الخريف حتى مطلع الصيف، بينما المحظوظون هم الذين يستمعون إليها مباشرة في القاعة.»

«ذا أوبزرفر البريطانية».

• «يُطلَق عليها أحيانًا اسم «إديت بياف الشرق»، أو «سوبر كالاس»، نسبة إلى ماريا كالاس مغنية الأوبرا العالمية، ولعل ما يتسم بمزيد من الدقة وصف أحد النقاد الموسيقيين لها «الحفل الذي تحييه أم كلثوم هو مثل حدث من أحداث الشرق الأوسط»، وانطلاقًا من ذلك فهي تعتمد على التجاوب الوثيق مع مستمعيها، وهذا التجاوب الغنائي وليد صوتها الذي يعيد إلى ذاكرة الغربيين شهرة بيسي سميث ومارلين ديتريتش».

«لوس أنجليس تايمز الأمريكية».

وفي نهاية الكتيب، أوضحت وزارة الثقافة المصرية ذلك الدور

العظيم الذي قامت به السيدة أم كلثوم بعد حرب عام 1967، إذ ذكر الكتيب عن رحلاتها الغنائية من أجل جمع التبرعات وإيرادات حفلاتها لصالح المجهود الحربي وتحويل صوتها لأداة من أجل تحقيق الانتصار وتخطي النكسة المصرية، وأنّها ما بين عامي 1967 و1969 جمعت أكثر من مليون جنيه مصري، قدمها لها الجمهور في كل المحافظات المصرية والدول العربية التي زارتها، وكان مقياس نجاح كل حفل من تلك الحفلات ليس التجاوب الجماهيري فقط، بل مجمل إيرادات الحفل والتبرعات المقدمة من تلك الجماهير للمجهود الحربي.

وفي 25 سبتمبر 1970، وبعد رحلة دامت أكثر من خمس ساعات ونصف، وصلت طائرة السيدة أم كلثوم إلى مطار بالقرب من العاصمة موسكو، وسجلت إدارة الجوازات اسم السيدة أم كلثوم في الاتحاد السوفيتي ضمن قائمة الدخول للمرة الأولى. وتحت سلم الطائرة، وقف نائب وزيرة الثقافة في الاتحاد السوفيتي وكل الشخصيات البارزة في وزارة الثقافة في استقبال فنانة الشرق الأولى بالإضافة إلى طاقم السفارة المصرية، وعدد كبير من السفراء العرب الذين أرادوا تحية السيدة أم كلثوم والتأكيد على دعم مشروعها الوطني، وكان من ضمن الوفد المرافق لأم كلثوم في زيارتها إلى الاتحاد السوفيتي 45 شخصًا، منهم 21 عازفًا في فرقتها الموسيقية والباقي من إعلاميين وصحفيين، وقد ضم وفدها الإعلامي كلًّا من: الإعلامية سامية صادق للتغطية الإذاعية، والإعلامية أماني ناشد للتغطية التليفزيونية، والمخرج سعيد عبادة ومصور التليفزيون فاروق حسن، ومسجلا الصوت بلتاجي يحيى وصلاح عبد السلام، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الصحفيين منهم: الكاتبة الصحفية سكينة فؤاد، والصحفي كمال

الملاخ، والصحفي محمد الحيوان ممثلًا عن صحيفة الجمهورية. وذلك غير الوفد السينمائي الذي رافق أم كلثوم من أجل تصوير فيلمٍ تسجيلي لتوثيق أحداث الزيارة من إخراج المخرج فؤاد التهامي، وكذلك تصوير حفلي أم كلثوم في موسكو ومراسم استقبالها، إذ كان من المقرر أن يستخدم المخرج يوسف شاهين تلك اللقطات المصورة في مشروع فيلمه الذي لم يكتمل عن حياة السيدة أم كلثوم.

وفي تحقيق صحفي نشرته مجلة «الموعد» اللبنانية في أكتوبر 1970، يصف الصحفي عماد فتوح محرر المجلة تفاصيل استقبال أم كلثوم «كان في استقبالها عشرات المصورين الصحفيين، ومئات من الطلبة العرب الذين يدرسون في العاصمة الحمراء، وما إن أطلت كوكب الشرق من باب الطائرة الضخمة التي أقلتها من القاهرة إلى موسكو، حتى دوى التصفيق في ساحة المطار، والشرفات، وفي كل مكان فيه متسع لإنسان، فقد كان المطار الكبير مكتظًا بالطلبة العرب الذين جاؤوا من موسكو، التي تبعد خمسين كيلومتر عن المطار، ليستقبلوا سيدة الغناء العربي».

وما إن رأى الصحفيون السيدة أم كلثوم حتى انّهالوا عليها بأسئلتهم: «ماذا وراء زيارتك إلى موسكو؟ وهل جئت من أجل الاستجمام فقط، أم من أجل أن تغني للطلبة العرب الذين يدرسون في الاتحاد السوفيتي؟».

وهنا تدخل المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم ومدير مؤسسة الإستديوهات السينمائية المصرية، يترجم لها أسئلة الصحفيين السوفيت، وكعادتها دائمًا، انتظرت أم كلثوم حتى فرغ الصحفيون من أسئلتهم، ثم أجابت باللغة العربية: «جئت إلى موسكو لسببين: أولهما: من أجل أحياء حفلتين غنائيتين في تياترو

«البولوشوي» في موسكو إكرامًا للطلبة العرب الذين يدرسون في هذه البلاد، وثانيهما: من أجل الاستجمام قليلًا والترويح عن النفس قبل الموسم الغنائي القادم!»

وتركت أم كلثوم المطار، والجميع يعتقدون بأنّها ستقضي أيامًا طيبة وسعيدة في الاتحاد السوفيتي. ومن المطار، أقلت السيدة أم كلثوم فورًا سيارة «موسكوفيتش» حديثة الطراز إلى فندق «روسيا»، وهو أكبر وأفخم فندق في كل الاتحاد السوفيتي ويقع في قلب العاصمة الحمراء موسكو، وفيه أكثر من ألف سرير ومجهز بأحدث الآلات الإلكترونية المتوافرة في ذلك الوقت، وفي طابقه الأول محلات لبيع «الفودكا» و«الكافيار» الروسي الشهير والفراء، وفي طابقه الأخير ملهى ومطعم يطلان على أهم معالم موسكو.

كان الدكتور مراد غالب (1922-2007) هو السفير المصري آنذاك في العاصمة السوفيتية، وهو الذي تدرج في المناصب فيما بعد حتى صار وزيرًا للخارجية المصرية في مطلع السبعينيات، وكان السفير محمد وفاء حجازي وزيرًا مفوضًا في موسكو، وقد ساعد طاقم السفارة بأكمله في تجهيز تلك الرحلة والعمل على توفير سبل الراحة للسيدة أم كلثوم ومرافقيها.

وفي كتاب «أم كلثوم وحكام مصر»، يروي السفير وفاء حجازي للصحفي سعيد الشحات ذكرياته عن تلك الرحلة «كنت أمارس مهام دور السفير بدلًا من الدكتور مراد غالب الذي كان خارج موسكو لبضعة أيام، وبهذه الصفة التقيت بوزيرة الثقافة السوفيتية لكي نشرف معًا على برنامج الزيارة، وكانت رسالةٌ من القيادة السياسية في مصر أُرسلتْ إلى القيادة السياسية السوفيتية، تطلب فيها معاملة خاصة لأم كلثوم شأنها في ذلك شأن أي مسؤول سياسي مصري كبير تستقبله

موسكو، كما كانت التعليمات تأتينا أولًا بأول من القاهرة بأن نضع أنفسنا كسفارة تحت تصرفها، كان كل شيء يُرتّب بدقة كبيرة».

ويضيف السفير وفاء حجازي «وأذكر أن وزيرة الثقافة السوفيتية طلبت مني إبلاغ أم كلثوم قبل حضورها إلى موسكو نصيحة عدم غنائها في مسرح «البولوشوي»، والمتفق عليه من البداية، بسبب اتساعه، كما أنّه معد في الأصل ومجهز لعزوض الباليه، واقترحت الوزيرة بدلًا منه قاعة «تشايكوفسكي»، لأنّها معدة للموسيقى والغناء، ووافقت أم كلثوم على الاقتراح كما طلبت وزارة الثقافة أيضًا الأغنيات التي ستقدمها لترجمتها إلى الروسية، وأذكر أن قصيدة «أراك عصِيّ الدمعِ» لأبي فراس الحمداني كانت ضمن الأغنيات التي ستقدمها في طشقند، وفشل مترجمو الوزارة من السوفيت في ترجمة معاني عبارة «أراك عصِيّ الدمعِ» وأحضرنا مبعوثًا مِصريًّا كان يدرس في موسكو لترجمتها، ولما سألت أم كلثوم بعد ذلك عن سبب اختيارها لهذه الأغنية رغم صعوبة معانيها، قالت: «إنّها تناسب ذوق الجمهور المُسلم في طشقند وسوف يقترب منها الجمهور أكثر حين يعرف أنّها من التراث الشعري القديم.»»

حاولت السفارة المصرية في موسكو، وهي أهم السفارات المصرية في العالم في ذلك الوقت، أن تواكب ذلك الحدث وأن تكون على قدر المسؤولية وأن تعمل على تدعيم التعاون بين السلطات السوفيتية وبين السفارة من أجل نجاح الزيارة وتحقيق الهدف المرجو منها، كما امتدّ الاهتمام السوفيتي والتعاون بينها وبين السفارة إلى تفاصيل أخرى بعيدًا عن الجانب الفني للزيارة، حيث نوع الأطعمة والمشروبات المفترض تقديمها لأم كلثوم ومرافقيها، والأماكن المقرر زيارتها، كما حددت السلطات السوفيتية أماكن بعينها يجب أن يتضمنها برنامج

موسكو، كما كانت التعليمات تأتينا أولًا بأول من القاهرة بأن نضع أنفسنا كسفارة تحت تصرفها، كان كل شيء يُرتّب بدقة كبيرة».

ويضيف السفير وفاء حجازي «وأذكر أن وزيرة الثقافة السوفيتية طلبت مني إبلاغ أم كلثوم قبل حضورها إلى موسكو نصيحة عدم غنائها في مسرح «البولوشوي»، والمتفق عليه من البداية، بسبب اتساعه، كما أنّه معد في الأصل ومجهز لعزوض الباليه، واقترحت الوزيرة بدلًا منه قاعة «تشايكوفسكي»، لأنّها معدة للموسيقى والغناء، ووافقت أم كلثوم على الاقتراح كما طلبت وزارة الثقافة أيضًا الأغنيات التي ستقدمها لترجمتها إلى الروسية، وأذكر أن قصيدة «أراك عصِيّ الدمعِ» لأبي فراس الحمداني كانت ضمن الأغنيات التي ستقدمها في طشقند، وفشل مترجمو الوزارة من السوفيت في ترجمة معاني عبارة «أراك عصِيّ الدمعِ» وأحضرنا مبعوثًا مِصريًّا كان يدرس في موسكو لترجمتها، ولما سألت أم كلثوم بعد ذلك عن سبب اختيارها لهذه الأغنية رغم صعوبة معانيها، قالت: «إنّها تناسب ذوق الجمهور المُسلم في طشقند وسوف يقترب منها الجمهور أكثر حين يعرف أنّها من التراث الشعري القديم.»»

حاولت السفارة المصرية في موسكو، وهي أهم السفارات المصرية في العالم في ذلك الوقت، أن تواكب ذلك الحدث وأن تكون على قدر المسؤولية وأن تعمل على تدعيم التعاون بين السلطات السوفيتية وبين السفارة من أجل نجاح الزيارة وتحقيق الهدف المرجو منها، كما امتدّ الاهتمام السوفيتي والتعاون بينها وبين السفارة إلى تفاصيل أخرى بعيدًا عن الجانب الفني للزيارة، حيث نوع الأطعمة والمشروبات المفترض تقديمها لأم كلثوم ومرافقيها، والأماكن المقرر زيارتها، كما حددت السلطات السوفيتية أماكن بعينها يجب أن يتضمنها برنامج

الزيارة مثل: مترو الأنفاق، المكتبة الوطنية في موسكو، والمتحف التاريخي، وغيرها. ونظّمت وزارة الثقافة السوفيتية حفلَ استقبال رسمي للسيدة أم كلثوم، وكذلك نظمت السفارة المصرية حفلًا آخر حضره السفراء العرب ونجوم الفن والفكر والأدب من السوفيت.

وفي اليوم التالي لوصولها، بدأت أم كلثوم برنامجها الفعلي في العاصمة السوفيتية بزيارة متحف «تريتياكوف» الواقع شارع «لافروشينسكي» بوسط العاصمة موسكو. وفي المساء، دُعيت والوفد المرافق لها إلى سهرة موسيقية كبرى في مسرح «البولوشوي»، حيث استقلت أم كلثوم مترو روسيا الشهير وهي في طريقها إلى المسرح، وقد أوفدت وزيرة الثقافة الروسية نائبها فلاديمير بوبوف لكي يرافق أم كلثوم ووفدها في تلك السهرة. وقبل ذهاب السيدة أم كلثوم إلى المسرح، اتصلتْ هاتفيًا بالسفارة المصرية لتطمئن على الأوضاع في الجمهورية العربية المتحدة وتتابع جهود الرئيس عبد الناصر المضنية في حل أزمة «أيلول الأسود»[1] التي أشعلت المنطقة العربية وشغلت الصحافة العالمية!

وفي يوم الأحد 27 سبتمبر، زارت السيدة أم كلثوم مع مرافقيها متحف «الكرملين»، وبعد أن قضت منتصف اليوم في الفندق سهرت في المساء مع سيرك موسكو، ومع الساعات الأولى ليوم الاثنين 28

---

(1) هي تلك الأحداث المؤسفة التي شهدت قتالاً داميًا بين القوات الأردنية والفدائيين الفلسطينيين، وأسفرت عن سقوط آلاف القتلى واستمرت من بين 16 و27 سبتمبر 1970 مع استمرار بعض المناوشات العسكرية حتى يوليو 1971، وما إن سمع عبد الناصر بأخبار تلك المعارك حتى قطع أجازته في مطروح وعاد إلى القاهرة لعقد قمة عربية طارئة. وفي مساء 27سبتمبر، وصل الجميع إلى اتفاق شامل بين الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية، وكانت تلك هي الليلة الأخيرة في حياة جمال عبد الناصر!

سبتمبر 1970، بدأت السيدة أم كلثوم برنامج اليوم بلقاءات مع مسؤولين في وزارة الثقافة السوفيتية الذين يشرفون على حفلاتها في موسكو وطشقند، وكان من ضمن هؤلاء الحضور السيد فلاديمير بوبوف نائب وزيرة الثقافة السوفيتية، وطبقًا لشهادته عن ذلك اللقاء فإنّ أم كلثوم قالت له: «منذ الدقائق الأولى لإقامتي في الاتحاد السوفيتي خرجت بأجمل الانطباعات، فلم أشهد مثل هذا المستوى العالمي للتنمية الفنية في أي بلد من بلدان العالم، وإنّي سعيدة بتلك الفرصة التي مكنتني من التعرف بنفسي إلى فن الغناء للشعب السوفيتي.. إنّ كل مواطن في مصر يشعر باحترام كبير وعرفان عميق للشعب السوفيتي للمساعدة الشاملة التي يقدمها للشعوب العربية في نضالها العادل، وقد جِئتُ معي بحب كل الشعب المصري الذي يكن مشاعر الحب والصداقة للاتحاد السوفيتي».

أسعدت تلك الكلمات الذكية النائب فلاديمير بوبوف الذي رد على تحية السيدة أم كلثوم «إن الحرارة التي استقبلكِ بها الشعب السوفيتي لا تدل على احترامه لموهبتك فحسب، بل أيضًا تعبير عن الصداقة الخالصة تجاه الشعب المصري، وتأكيد للصداقة التي لن يستطيع أحد أن يقضي عليها، فالشعب السوفيتي على استعداد ليفعل كل ما في وسعه للحفاظ عليها وإعطائها مزيدًا من القوة، فالروابط الثقافية بين البلدين تلعب دورًا مُهمًا في تنمية الصداقة بين شعبينا».

وعقب ذلك اللقاء، وفي طريق عودتها إلى الفندق، دخلت أم كلثوم المحلات الموجودة في الطابق الأول من الفندق الكبير، واشترت معطفًا من الفراء الثمين، وحذاء من الجلد الأسود، وأشياء كثيرة أخرى، وعادت إلى غرفتها لترتديها من أجل القيام بجولة في الساحة الحمراء، والكنائس التاريخية التي تقع قريبةً منها، ومتحف

الثورة في شارع «جوركي» وغيرها من الأماكن الأثرية والتاريخية التي يزورها كل من يزور موسكو.

وفي مختلف الأماكن التي زارتها، لم تكن أم كلثوم سائحة عادية يمكن لها أن تزور تلك الأماكن بمنتهى الهدوء، دون أن يشعر بها أي إنسان، ففي كل مكان كانت تذهب إليه، كان ينتظرها عشرات الصحفيين والمصورين ومئات الطلبة العرب، وما إن تقترب منهم حتى يتجمعون حولها، ويبدأون بالأسئلة: «إزي الصحة يا ست؟ إن شاء الله كويسة؟ أخبار مصر إيه؟ وإزي الحالة عندكم؟ عندك أغنيات جديدة علشان الموسم اللي جاي؟!»

وكعادتها، تنتظر حتى تهدأ العاصفة، ثم تجيب بهدوء شديد: «الحمد لله، الصحة كويسة، ومصر بخير طالما الريس بخير، والحالة في الأردن هدأت والحمد لله، وعندي عدة أغنيات جديدة موسم الشتاء القادم!»

وعندما عاد الطلبة العرب إلى طرح الأسئلة من جديد، عادت أم كلثوم تقول لهم بدبلوماسية، وبسمة على الشفاه: «تسمحوا تعفوني بقى من السين والجيم علشان عاوزه أشوف اللوحات الحلوة اللي في المتحف، ولا أنتم عاوزين مني أجي موسكو وما أشوفش حاجة فيها؟!»

فضحك الطلاب، ومعهم الصحفيون وأفرجوا عن سيدة الغناء العربي، نزولًا عند طلبها، وتأبطت السيدة أم كلثوم ذراع المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقتها، وبدأت جولتها في متحف الفن الكلاسيكي الذي يضم أهم أعمال الرسامين الروس.

ومن المتحف انتقلت أم كلثوم لزيارة القصور القيصرية الصغيرة، وهي الاستراحات المنتشرة على الهضاب الخُضر المحيطة بموسكو،

التي أصبحت تعرف عقب الثورة البلشفية عام 1917 باسم «تلال لينين»، ومن هناك عادت إلى الفندق لتناول الغداء، وقبل أن تمتد يدها إلى الطعام، التفت إلى ابن شقيقتها، وقالت له: «أوعى يا محمد يكون اللحم اللي هناكله لحم خنزير!»، فرد المهندس محمد الدسوقي قاطعًا شكها: «ما تخافيش يا ست، لقد أبلغناهم بأنّنا لا نأكل إلا لحم البقر والخرفان، وقلنا لهم أيضًا إنّنا لا نشرب «الفودكا»، وإنّنا نكتفي فقط بشرب المياه المعدنية، مبسوطة؟!»

فضحكت كوكب الشرق، وقالت له: «دلوقت انبسطت!»

لكن تلك السعادة الكلثومية لم تستمر طويلًا؛ ففي ليلة 28 سبتمبر 1970 وتحديدًا عقب أن تناولت السيدة أم كلثوم طعام العشاء مع الوفد المرافق لها في منزل السفير وفاء حجازي، تركت الجميع وعادت إلى الفندق للراحة، وبينما صخب الحضور يملأ المكان دق جرس التليفون فرفع السفير حجازي السماعة مرحبًا بالمتصل، وبعد ثوانٍ لاحظ الجميع تغير لونه وارتباكه، ثم وضع السماعة ليقول بصوت خفيض مكسور: «جمال عبد الناصر مات!».

صدم الخبر الحضور، ودخل الجميع في نوبات بكاء هستيرية، وانهارت الإعلاميتان سامية صادق وأماني ناشد، وتملكت الجميع مرارة الفجيعة التي لا يغسلها بكاء، حتى السفير وفاء حجازي فشل هو الآخر في مقاومة دموعه، فيقول طبقًا لشهادته التي رواها للصحفي سعيد الشحات: «كنت أجري على الحمام كلما غلبني الدمع، وأفشل في السيطرة عليه، كمية الألم هائلة، ألم موجع فيه لسعة نفسية لا يمكن وصفها ولم تفارقني».

وبعد أن أفاق الجميع من هول الصدمة سادت الحيرة، من ذا الذي يجرؤ على إخبار أم كلثوم بتلك الفجيعة؟ فالكل يعلم حجم العلاقة

الخاصة التي جمعتها بالرئيس الراحل، وبعد مدة قصيرة من وصول الخبر لمنزل السفير وفاء حجازي، كان جرس التليفون يرن في حجرة المهندس محمد الدسوقي، الذي كان ينزل في غرفة مجاورة لغرفة السيدة أم كلثوم في فندق «روسيا» وعندما رفع ابن شقيقة السيدة أم كلثوم السماعة السوداء ووضعها على أذنه، سمع أحدهم يقول له من على الطرف الآخر للخط: «مين اللي بيتكلم؟»

فقال له: «أنا محمد الدسوقي».

فقال له المتحدث: «هنا السفارة المصرية في موسكو اللي بتتحدث معاك، لقد كُلّفت بتبليغك بأن الرئيس مات!»

قفز محمد الدسوقي من السرير مذعورًا، وسأل محدثه: «مات إزاي؟ وإمتى؟ وأنت مين؟ أعطني السفير حالًا!»

وبدأ بالبكاء والنحيب، ووقعت السماعة من يده على الأرض، ليلتقطها من جديد ليجد أن الخط قد انقطع، فاتصل بالسفارة المصرية، وتحدث مع أحد المسؤولين فيها، فأكد له الخبر المشؤوم، وطلب منه إبلاغ السيدة أم كلثوم بالخبر في أسرع وقت.

ووفقًا لرواية الكاتب الصحفي محمد الحيوان الذي كان ضمن الوفد الإعلامي المرافق لسيدة الغناء العربي في رحلتها لموسكو، حاول الحيوان تسجيل شهادته في ذلك الموقف الرهيب الذي حاول الجميع التملص منه، إذ اعتبر الجميع فكرة إبلاغ السيدة أم كلثوم بخبر موت جمال عبد الناصر بمثابة فاجعة كبرى لن تقوى على تحملها وهى التي جاوزت السبعين من عمرها بقليل «كنا نعرف جميعًا العلاقة بين عبد الناصر وأم كلثوم، ونعرف أن عبد الناصر كرَّمها، وأنّها قدمت خير أيامها، فكرنا من يستطيع أن ينقل النبأ إليها، عجز الجميع وتهرب، لكن كان لا بد من أن يصل النبأ. في الصباح،

دخل عليها المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقتها. كان وجهه غريبًا عليها، إنّه ابن شقيقتها ويلازمها باستمرار، وشكله اليوم يبدو مختلفًا عن الأمس، عن كل يوم، وجه قاتم.. سألته أم كلثوم: «ماذا بك؟»، تمالك نفسه وقال: «بعض آلام المعدة جعلتني أسهر الليل»، ثم خرج من غرفتها إلى غرفته المجاورة ليكمل بكاءه». ثم يضيف الحيوان «دخل عليها رفعت الدسوقي ابن شقيقتها الثاني، وقال لها: «الريّس مريض»، سكت، ثم أضاف: «مرضه خطير»، سكت.. ظل على حال قول الكلمة، ثم الصمت، وفي كل مرة تزيد لهفة أم كلثوم لمعرفة الباقي، تحس إحساسًا لا تريد أن تصدقه، تبعد عن خيالها كل محاولة يتسرب من خلالها إليها شيء لا تتصوره، وأخيرًا قال رفعت ما يعرفه.. ذهبت أم كلثوم في بكاء يدعو إلى البكاء، لزمت مقعدها في الصالون الملحق بغرفتها 48 ساعة متواصلة، دموع صامتة تتساقط تحت نظارتها السوداء، وشهيق يهزها، أصابعها تتشابك في نشيج متواصل، لا تأكل شيئًا لا تقول شيئًا ولا تفعل غير الصمت والدموع، والمحاولات معها للكلام لا تنقطع، لكنها لا ترد»، حتى عندما ذهب إليها الوفد المرافق في فندق «روسيا»، ودخل عليها محمد الحيوان والإعلامية سامية صادق لتعزيتها، لم يسمعا منها سوى شيئًا واحدًا هو «يا خسارة وألف خسارة.. يا خسارتك يا جمال!»، فكان الموقف عصيبًا عليهما لدرجة أن محمد الحيوان عجز عن الكلام وارتبكت سامية صادق وعجزت عن التصرف، فانصرفا وتركاها لأحزانها وحيدة في غرفتها.

ويضيف السفير حجازي في شهادته المهمة عن تلك اللحظة «ظلت أم كلثوم حبيسة غرفتها حتى يوم الجنازة في الأول من أكتوبر 1970، وكنتُ أتردد عليها بين الحين والآخر. رأيتها نصفين؛ نصف مات فور تلقيه الخبر، ونصف يعيش للبكاء فقط، في كل مرة أصعد فيها إلى

حجرتها لم يكن يجمعنا كلام سوى: صباح الخير.. السلام عليكم. لم تكن تعطي فرصة الكلام لأحد، ويهيأ إليَّ أنّه إذا لم يكن الإنسان في هذا الوقت سيبكي فراق عبد الناصر، سيبكي حال أم كلثوم.. من لم يرَ أم كلثوم لحظة خروجها إلينا، ونحن ننتظرها في صالة الفندق، لم يرَ الحزن في صورته الحقيقة، أو كما تتحدث عنه الكتب. اكتشفت وأنا أنظر إليها أنَّ عمرًا جديدًا أضيف إلى عمرها الحقيقي، ذهب شروق الوجه وأصبح الفرق بينه وبين وشاحها الأسود الذي تغطت به هشًا، وفي خطى متثاقلة كانت تنزل على درجات السلم وهي تستند إلى ابن أختها محمد الدسوقي. ولما وصلت إلى السفارة، وفور أن شاهدت الدكتور مراد غالب، ارتمت في أحضانه، وراحت في بكاء مر استمع إليه الجميع. لم يستطع غالب أن يتمالك نفسه فبادلها البكاء، واقترب الكثيرون منها لمساعدتها في الوصول إلى مقعدها. وبعد أن أدينا صلاة الغائب، اقتربتُ منها أواسيها رغم أن المصاب مصابنا جميعًا، فقالت لي: «بقينا يتامى يا وفاء، نفسي أقرأ قرآن في العزاء، لكن خلاص صوتي بقى مش معايا»».

وفي مذكرات السفير مراد غالب التي رواها لصحيفة «الأهرام»، والتي سجل فيها بعض ذكرياته عن رحيل جمال عبد الناصر، وتحديدًا في الحلقة السابعة من تلك الذكريات المنشورة في 21 يناير 2001، يذكر غالب «وتصادف وجود السيدة أم كلثوم في موسكو، ومعها وفد هائل من الصحفيين والإذاعيين والموسيقيين، وداهمتهم المصيبة وهم في موسكو لإحياء حفلات من أجل المجهود الحربي، وبكت أم كلثوم بكاء شديدًا وقد سيطر عليها الحزن بصورة واضحة وحادة وصلينا جميعًا على روح عبد الناصر في جامع موسكو وصلت معانا أم كلثوم. وأقام أحد أعضاء السفارة المصرية لقاءً في منزله لجميع مرافقي أم كلثوم،

على اختلاف تخصصاتهم، وكنت معهم وتحدثت إليهم، وشرحت لهم أن موت الرئيس عبد الناصر ليس مفاجأة، وأنّه قد أصيب بنوبة قلبية في السنة الماضية، ولم يكن أحد منهم على علم بهذا من قبل.

لقد حزنا جميعًا لوفاة عبد الناصر، فقد كان زعيمًا وطنيًا وقوميًا عربيًا، وأحد قادة ثورة تحرير الشعوب بل كان أبرزهم جميعًا، وكانوا يعتبرونه زعيم حركة التحرير في إفريقيا كلّها».

ألغت أم كلثوم برامجها الفنية في العاصمة السوفيتية، واعتزلت في الفندق الساعات التي فصلت بين يوم الجنازة وبين موعد عودتها إلى القاهرة. وفي مساء يوم الجمعة يوم 2 أكتوبر 1970، كانت الطائرة التي ستقلها إلى القاهرة تهبط في مطار موسكو، منتظرة صعودها إليها ورحيلها عن عاصمة الحزن والبكاء وتلك المحطة الحزينة في حياتها. وقفت أم كلثوم عند أسفل سلم الطائرة وهي تودع أعضاء السفارة المصرية، وترتدي السواد من قمتها إلى أسفلها. وعندما دنا منها أحد الصحفيين، الذين أصروا على معرفة حالها بعد مرور ساعات من حزنها المشهود يوم صلاة الغائب، قالت لهم وهي تبكي: «لقد مات الرجل الذي كان للعرب بمنزلة رئيس وبطل وزعيم، وفوق كل ذلك كان عبد الناصر والدًا لجميع العرب، يرعاهم بحنان الأب.. لقد أصبحنا أيتامًا من بعده»، وصعدت الطائرة عائدة إلى القاهرة.

على اختلاف تخصصاتهم، وكنت معهم وتحدثت إليهم، وشرحت لهم أن موت الرئيس عبد الناصر ليس مفاجأة، وأنّه قد أصيب بنوبة قلبية في السنة الماضية، ولم يكن أحد منهم على علم بهذا من قبل.

لقد حزنا جميعًا لوفاة عبد الناصر، فقد كان زعيمًا وطنيًا وقوميًا عربيًا، وأحد قادة ثورة تحرير الشعوب بل كان أبرزهم جميعًا، وكانوا يعتبرونه زعيم حركة التحرير في إفريقيا كلّها».

ألغت أم كلثوم برامجها الفنية في العاصمة السوفيتية، واعتزلت في الفندق الساعات التي فصلت بين يوم الجنازة وبين موعد عودتها إلى القاهرة. وفي مساء يوم الجمعة يوم 2 أكتوبر 1970، كانت الطائرة التي ستقلها إلى القاهرة تهبط في مطار موسكو، منتظرة صعودها إليها ورحيلها عن عاصمة الحزن والبكاء وتلك المحطة الحزينة في حياتها. وقفت أم كلثوم عند أسفل سلم الطائرة وهي تودع أعضاء السفارة المصرية، وترتدي السواد من قمتها إلى أسفلها. وعندما دنا منها أحد الصحفيين، الذين أصروا على معرفة حالها بعد مرور ساعات من حزنها المشهود يوم صلاة الغائب، قالت لهم وهي تبكي: «لقد مات الرجل الذي كان للعرب بمنزلة رئيس وبطل وزعيم، وفوق كل ذلك كان عبد الناصر والدًا لجميع العرب، يرعاهم بحنان الأب.. لقد أصبحنا أيتامًا من بعده»، وصعدت الطائرة عائدة إلى القاهرة.

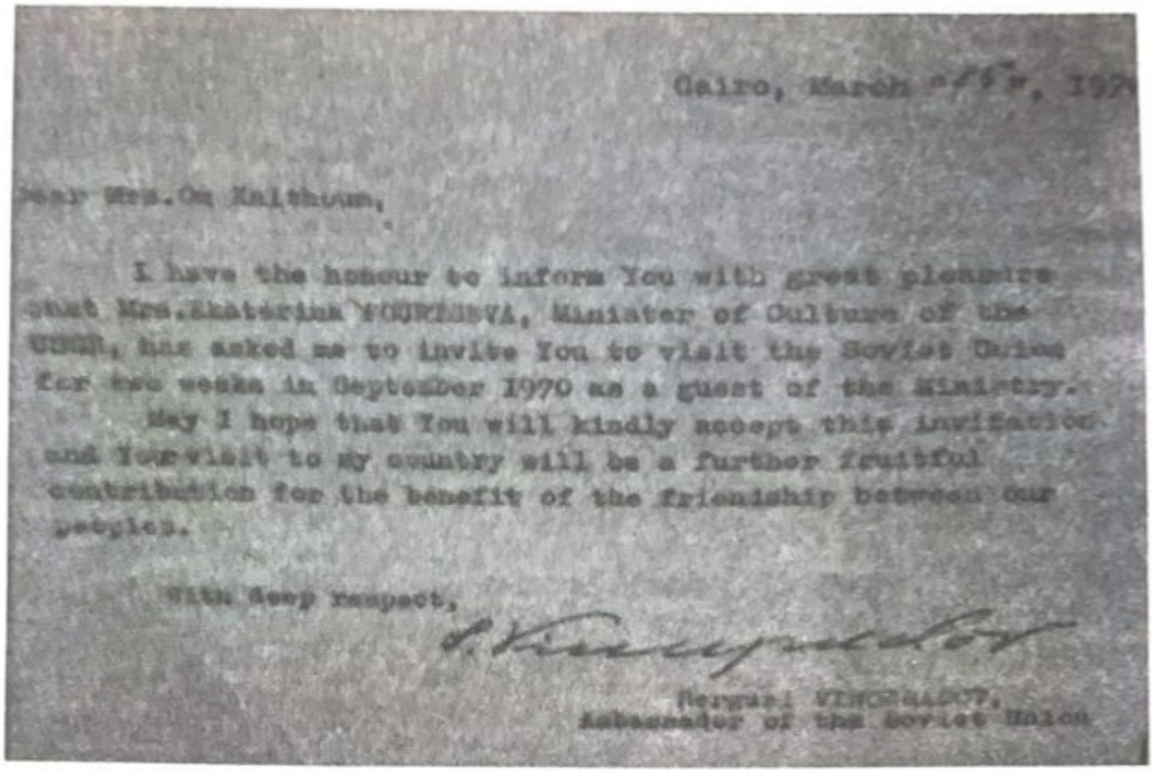

Cairo, March [illegible], 197[illegible]

Dear Mrs. Om Kalthoum,

I have the honour to inform You with great pleasure that Mrs. Ekaterina FOURTSEVA, Minister of Culture of the USSR, has asked me to invite You to visit the Soviet Union for two weeks in September 1970 as a guest of the Ministry.

May I hope that You will kindly accept this invitation and Your visit to my country will be a further fruitful contribution for the benefit of the friendship between our peoples.

With deep respect,

S. Finogradov

Sergueï VINOGRADOV,
Ambassador of the Soviet Union

البرقية الرسمية التي بعثها سيرجي فينوجرادوف سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة للسيدة أم كلثوم، مارس 1970.

غلاف الكتيب الخاص الذي أعده قسم الإعلام الخارجي في وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة، من أجل تقديم السيدة أم كلثوم إلى الجمهور السوفيتي.

السيدة أم كلثوم ووفدها المرافق في ساحة الكرملين في طريقهم لمبنى السفارة المصرية في موسكو، يوم 1 أكتوبر 1970.

السيدة أم كلثوم تؤدي صلاة الغائب على روح الرئيس جمال عبد الناصر في موسكو، يوم 1 أكتوبر 1970.

السيدة أم كلثوم تبكي على كتف مراد غالب سفير الجمهورية العربية المتحدة في الاتحاد السوفيتي، يوم 1 أكتوبر 1970.

مصادر هذا الفصل:

1- سعيد الشحات، أم كلثوم وحكام مصر، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010.

2- وسام متى، أم كلثوم في الاتحاد السوفيتي، عن زيارة لم تكتمل، منصة المسكوبية.

3- سعد الدين وهبة، أم كلثوم، الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما، القاهرة 1999.

4- إيزابيل صياح، أم كلثوم، كوكب الشرق، ترجمة سونيا محمود نجا، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2008.

5- أنور عبد الله باشا، أم كلثوم عملاقة الغناء العربي حياتها وفنها، طبعة خاصة، 2015.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 13 مايو 1970.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 4 أغسطس 1970.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 14 أغسطس 1970.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 سبتمبر 1970.

10- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 15 سبتمبر 1970.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 21 يناير 2001.

12- مجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، عدد 3 أكتوبر 1970.

13- مجلة الموعد، لبنان، عدد 22 أكتوبر 1970.

ودارت الأيام الحزينة

لم يكن موت جمال عبد الناصر محنة بسيطة في حياة السيدة أم كلثوم، بل محنةً لا تقل قسوة عليها من صدمتها السابقة في يونيو 1967. كان هزيمة نفسية قاسية حسرت آمالها في تجاوز النكسة التي كانت ظلالها ما زالت ماثلة لم تغادر المشهد، وأضعفت من همتها التي صعدت إلى عنان السماء خلال سنوات حفلات مجهودها الحربي، والأهم من ذلك، أن تلك المحنة جعلتها تعيش خريف عمرها وهي بلا سندٍ حقيقي أو كما وصفت هي ذاتها قساوة اللحظة في أثناء عودتها من موسكو «لقد أصبحنا أيتامًا من بعده». كان غياب عبد الناصر مفاجئًا وصاعقًا على أم كلثوم التي اتّحدت مع سنوات المجد الناصري قولًا وفعلًا، ورغم ما مثلته الهزيمة من تراجع فادح في مشروع عبد الناصر، لم تنفصل أم كلثوم عن ذلك المشروع بل تصدرت صورتها الركب الوطني بعد عام 1967، لتقدم كل ما لديها من طاقة وعطاء حقيقي حتى يخوض الوطن معركة وجوده ومستقبله. وكما عبر عبد الناصر مرحلة الهزيمة، عبرت معه أم كلثوم لحظات اليأس؛ فكانت تلك السنوات التي أعقبت النكسة من أفضل سنوات أم كلثوم فنيًا ووطنيًا، كما كانت أيضًا في نظر البعض من أفضل سنوات حكم عبد الناصر بالنظر إلى حجم العطاء والمراجعات والرغبة في تصحيح الأخطاء.

كل تلك الأمور جعلت أم كلثوم وهي على متن الطائرة عائدة من الاتحاد السوفيتي، لا تفكر إلا في شيئين، هما: مصير المعركة والاعتزال. تقول أم كلثوم عن تلك اللحظة في مقالها الشهير الذي كتبته في مجلة «الهلال» في عدد أكتوبر 1971 «عدت أسائل نفسي: هل أستسلم ليأس ثان كيأس النكسة؟ أو بنفس الإيمان الراسخ في أعماقي، الإيمان الذي تعلمته من عبد الناصر، أطرح اليأس وراء ظهري وأمضي في طريقي، أغنّي للنصر حتى يوم النصر؟». شكل ذلك السؤال بالنسبة إلى أم كلثوم معركتها الأخيرة مع ذاتها، إذا بمجرد عودتها إلى القاهرة، عادت إلى عزلتها الشهيرة في الأزمات، فظلت أيامًا طوالًا في «بدروم» فيلتها، في عزلة صامتة، غارقة في حزنها، وحده كان تفكيرُها يؤنسُ وحدتها في تلك العزلة القاسية. كان حالها يقول رسالة واحدة للمقربين منها: إنّها لن تغني مرة أخرى وإنّ صفحة الغناء قد طويت وعصر الفن قد انتهى!

وبعدما أدت السيدة أم كلثوم واجب العزاء في الرئيس جمال عبد الناصر، وواست زوجته وصديقتها السيدة تحية كاظم، حاولت أم كلثوم الاتصال بالسيد سامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر الشخصي للمعلومات، وهو الذي كان شاهدًا على تلك العلاقة الوثيقة التي جمعت الرئيس الراحل بالسيدة أم كلثوم. وفي كتابه «سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر»، وتحديدًا في جزئه الخامس، قدّم السيد سامي شرف شهادته على تلك الواقعة: «في يوم الاثنين 12 أكتوبر 1970، اتصلت بي السيدة أم كلثوم تِليفُونيًا وطلبت لقائي في نفس اليوم لموضوع قالت إنّها تريد أن تأخذ رأيي فيه بصفة شخصية، فحددت لها السابعة من مساء نفس اليوم. وبعد أن جلست، قالت بلا مقدمات وعيناها مغرورقتان بالدموع: يا أستاذ سامي أنا بأفكر إني

كل تلك الأمور جعلت أم كلثوم وهي على متن الطائرة عائدة من الاتحاد السوفيتي، لا تفكر إلا في شيئين، هما: مصير المعركة والاعتزال. تقول أم كلثوم عن تلك اللحظة في مقالها الشهير الذي كتبته في مجلة «الهلال» في عدد أكتوبر 1971 «عدت أسائل نفسي: هل أستسلم ليأس ثان كيأس النكسة؟ أو بنفس الإيمان الراسخ في أعماقي، الإيمان الذي تعلمته من عبد الناصر، أطرح اليأس وراء ظهري وأمضي في طريقي، أغنّي للنصر حتى يوم النصر؟». شكل ذلك السؤال بالنسبة إلى أم كلثوم معركتها الأخيرة مع ذاتها، إذا بمجرد عودتها إلى القاهرة، عادت إلى عزلتها الشهيرة في الأزمات، فظلت أيامًا طوالًا في «بدروم» فيلتها، في عزلة صامتة، غارقة في حزنها، وحده كان تفكيرُها يؤنسُ وحدتها في تلك العزلة القاسية. كان حالها يقول رسالة واحدة للمقربين منها: إنّها لن تغني مرة أخرى وإنّ صفحة الغناء قد طويت وعصر الفن قد انتهى!

وبعدما أدت السيدة أم كلثوم واجب العزاء في الرئيس جمال عبد الناصر، وواست زوجته وصديقتها السيدة تحية كاظم، حاولت أم كلثوم الاتصال بالسيد سامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر الشخصي للمعلومات، وهو الذي كان شاهدًا على تلك العلاقة الوثيقة التي جمعت الرئيس الراحل بالسيدة أم كلثوم. وفي كتابه «سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر»، وتحديدًا في جزئه الخامس، قدّم السيد سامي شرف شهادته على تلك الواقعة: «في يوم الاثنين 12 أكتوبر 1970، اتصلت بي السيدة أم كلثوم تِليفُونيًا وطلبت لقائي في نفس اليوم لموضوع قالت إنّها تريد أن تأخذ رأيي فيه بصفة شخصية، فحددت لها السابعة من مساء نفس اليوم. وبعد أن جلست، قالت بلا مقدمات وعيناها مغرورقتان بالدموع: يا أستاذ سامي أنا بأفكر إني

أعتزل لأني مش متصورة إني حقدر أقف على خشبة المسرح لأغني بعد ما رحل عنا الرئيس جمال عبد الناصر، ثم أكملت حديثها: حد كان يصدق أنّه يموت في هذه السن أو في هذا الوقت وفي هذه الظروف.. ده آخر مرة قابلته فيها كان يقول لي أنّه لم ولن يفقد الأمل في تحرير الأرض.. آدي باعث الأمل مات.. طيب إحنا حانعمل إيه؟!

فقلت ليها: يا ست، كلامك مضبوط لكنه ينقصه حاجة.. عارفة إيه هي؟ إننا نحقق الأمل اللي كان بيحلم به، وإذا كنتي أنتي وغيرك يعتزل طيب مين بقي اللي حيحقق الأمل والحلم؟ أنتي نسيتي هو قال ليكي إيه بعد جولاتك الأخيرة؟ أنا حفكرك أنّه قال ليكي إنك تقومين بتعبئة عالمية لصالح قضية التحرير ولوحدك من غير جيش، وأنك حققتي الوحدة العربية اللي بنحلم بيها، أنتي نسيتي يا ست هذا الكلام؟! هذا هو رأيي بصراحة. ولقد اقتنعت الست».

ثم كانت مسيرة الفنانين إلى ضريح الرئيس جمال عبد الناصر في كوبري القبة، حيث وضعوا أكاليل الزهور فوق قبر الرئيس الراحل، والتقطت الصحافة الصور لهم وهم يقرأون الفاتحة على روح الزعيم، وقد أعقب تلك المسيرة اقتراح قدمته السيدة أم كلثوم في تسمية السد العالي باسم «ناصر» وهو اقتراح ضاع وسط عشرات الاقتراحات التي قدمت في تلك الفترة من أجل تخليد ذكرى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. وقبيل ذكرى الأربعين، وتحديدًا في منتصف شهر نوفمبر 1970، عادت السيدة أم كلثوم لتقف أمام ميكروفون الإذاعة المصرية لتسجل مرثية «رسالة إلى زعيم» والتي كتبها الشاعر السوري نزار قباني ولحنها الموسيقار رياض السنباطي، بعدما أجرت السيدة أم كلثوم عليها مع فرقتها 17 بروفة، وأشرك رياض السنباطي مع أم كلثوم في غنائها كورال دار الأوبرا المصرية، وقد كثر الحديث في صحف

ذلك الوقت عن سباق بين أهل الغناء لتقديم مرثيات غنائية للزعيم في ذكراه، ومن تلك المشاريع الغنائية قصيدة «الهرم الرابع» التي كتبها نزار قباني أيضًا ولحنها الموسيقار محمد عبد الوهاب للمطرب عبد الحليم حافظ، وقد أشارت الصحافة في أكثر من موضع لذلك المشروع وظروف تلحينه، ولكن لم تُسجَّل القصيدة بسبب مرض عبد الحليم حافظ ومنع الأطباء له من الغناء مدّة دامت أكثر من ثلاثة أشهر، ليعيد تلحينها في تلك الأشهر المطرب الليبي محمد حسن ويقدمها مصورة تليفزيونيًا لصالح التليفزيون الليبي، وقد أشارت الصحافة اللبنانية إلى أن عبد الوهاب كان يعكف أيضًا على تلحين أغنية أخرى لرثاء عبد الناصر لكي تغنيها نجاة الصغيرة، لكنَّ المشروعَ لم يرَ النور أيضًا، لتظهر في النهاية مجموعة من الأغنيات بصوت مطربي الصف الثاني، منها: «حنكمَّل المشوار» لمحمد رشدي، و«بالروح والدم» لعادل مأمون، و«لبيك عبد الناصر» لفهد بلان، بينما غابت أصوات معظم مطربي الصف الأول. لم يُستثنَ من ذلك الإجماع سوى ثلاث مراثٍ هي بترتيب ظهورها: قصيدة «أغلى شعاع» من كلمات الشاعر محمود حسن إسماعيل وألحان رياض السنباطي، وتغنت بها شادية للمرة الأولى عبر موجات البرنامج العام بالإذاعة في السادسة والنصف من مساء يوم الجمعة 25 ديسمبر 1970، ثم قصيدة «رسالة إلى زعيم» للسيدة أم كلثوم التي أذاعتها الإذاعة المصرية للمرة الأولى يوم 26 ديسمبر 1970، في حين أنشد فريد الأطرش المرثية الثالثة والأخيرة التي حملت اسم «حبيبنا يا ناصر» من كلمات مأمون الشناوي وقد أذيعت للمرة الأولى بالإذاعة في 27 يناير 1971. وربما أصدق ما قيل من غناء في رثاء الزعيم، هو ما رددته الجماهير العربية وهي تحمل جثمان عبد الناصر إلى مرقده الأخير حيث انطلقت الكلمات

التالية في شكل هتافات منغمة «الوداع يا جمال/ يا حبيب الملايين/ الوداع/ ثورتك ثورة كفاح/ عشتها طول السنين/ الوداع». وقد التقط الشاعر عبد الرحمن عرنوس تلك الكلمات وبنى عليها أنشودة رائعة هي «أنشودة الوداع» التي تلقف كلماتها المايسترو شعبان أبو السعد واستعان باللحن الشعبي وأضاف إليه مقدمة ونهاية أوركسترالية بديعة تتناسب مع قيمة العمل، وسجلها مع أوركسترا القاهرة السيمفوني، وما زالت تلك الأنشودة محفورة في الأذهان لارتباطها بمشاهد جنازة الرئيس عبد الناصر.

وفي عدد مجلة «الموعد» الصادر في 12 نوفمبر 1970، نشرت المجلة خبرًا عن زيارة سريعة قام بها الشاعر السوري نزار قباني إلى القاهرة في مطلع شهر نوفمبر بناءً على دعوة وجهتها إليه السيدة أم كلثوم، بعد أن جرت مكالمات هاتفية عديدة بينهما، أبدت فيها أم كلثوم رغبتها في أن تغني قصيدة جديدة من شعر نزار قباني، ولم تنشر المجلة عنوان القصيدة المتوقعة ولكنها أشارت إلى أن موضوعها سينسجم مع الأحداث الجديدة في الوطن العربي. ويروي الإذاعي وجدي الحكيم شهادته عن قصيدة «رسالة إلى زعيم» وهو الذي كان حاضرًا تسجيلها، فيقول إنّه بعدما أعجبت أم كلثوم بكلمات القصيدة، دفعت بها إلى الموسيقار رياض السنباطي الذي لحنها على عجل لمواكبة الأحداث، وقد سُجِّلَت الأغنية على شكل مقاطع جُمّعتْ فيما بعد على طريقة «التراكات». وطبقًا لشهادة الحكيم، فقد سجلت السيدة أم كلثوم تلك القصيدة في ليلة كاملة من الساعة الثانية عشرة صباحًا حتى الثامنة صباحًا رغم أن القصيدة لا يتجاوز طولها الثماني دقائق تقريبًا، لكن دموع أم كلثوم غلبتها دموعها مرارًا وتكرارًا طوال التسجيل، وهو ما جعلها لا تقوى على الغناء، وبالطبع توقف التسجيل

عدة مرات. وقد واكبت الصحف ظروف ذلك التسجيل الصعبة، وهو ما دفع السيدة تحية عبد الناصر إلى أن تتصل تليفونيًا بأم كلثوم للاطمئنان على صحتها، وتقول لها في نهاية المكالمة «إننا خسرنا جمال عبد الناصر ولا نريد خسارتك أنتِ أيضًا، إذا كنتِ تحبين جمال حقيقي فاخرجي من حبسكِ وغنّ لأنّه كان معجبًا بصوتكِ».

ومن يستمع إلى ذلك التسجيل الإذاعي لتلك القصيدة يلاحظْ تلك الروح الجنائزية الحزينة التي اعتمدها رياض السنباطي في صياغة لحن القصيدة، وذلك البناء الهرموني في أصوات الكورال، إذ تعمد السنباطي التداخل بينهم وبين الموسيقى تمهيدًا لغناء أم كلثوم الحزين، كما أن القصيدة جاءت مرسلة بلا أي إيقاعات كي تعطي شعورًا للمستمع بثقل اللحظة وحزنها، واعتمد كذلك على آلات موسيقية محددة مثل «الأورج» و«الأوبوا» و«الأرغن» إذ تبدأ القصيدة بنغمات متفرقة على تلك الآلة الأخيرة ثم تدخل الوتريات لتعزف جملة حزينة قاسية تعبر عن حجم الفاجعة، في حين جاء غناء أم كلثوم متهدجًا طول القصيدة ومخنوقًا على غير عادتها وكأنّها غير قادرة على ملء صدرها بالهواء، وهي تلك الصفة التي لازمتها تقريبًا منذ ذلك التسجيل حتى حفلها الشهري الأخير في يناير 1973.

وما إن أذيعت القصيدة بعد ذكرى الأربعين حتى طالبت السيدة أم كلثوم الإذاعة المصرية بإيقاف بث الأغنية ضمن برامجها اليومية! وقد بررت طلبها هذا بأن الحزن على جمال عبد الناصر سيبقي في القلب، في حين لا يجب التشويش على الرئيس الجديد الذي تولى القيادة في ظروف دقيقة، وهو ما أغضب رياض السنباطي الذي عاتب أم كلثوم على قرارها الفردي هذا خصوصًا بعد المجهود الذي بذله في تلحين تلك القصيدة، ولكن يبدو أن السيدة أم كلثوم بعدما استمعت

إلى القصيدة في الإذاعة قررت إيقاف بثها بسبب ذلك الاختناق الذي سيطر على غنائها وجعلها تغني بشكل غير معهود منها من قبل!

ورغم أن القصيدة لم تأخذ فرصتها في الإذاعة بسبب قرار السيدة أم كلثوم بوقف بثها على موجات الإذاعة المصرية، فإنّ الشاعر صالح جودت قد عاد واستأنف حملته الشرسة التي سبق وأطلقها عام 1967 على نزار قباني بعدما نشر نزار قصيدته الشهيرة «هوامش على دفتر النكسة» في أعقاب هزيمة يونيو في مجلة «الآداب» اللبنانية، ورغم أن المجلة قد مُنعت في مصر، فإنّ صالح جودت قد أفرد صفحات مجلتي «الكواكب» و«المصور» من أجل التشهير بنزار قباني وشعره، لأنّه في رأي جودت شاعر يحطم الإنسان العربي بقصائده. ورغم انتهاء تلك الحملة بعدما فض الرئيس جمال عبد الناصر ذلك الاشتباك وأوقف حملة المنع والمصادرة التي كانت بدأت ضد نزار وأغنياته، فإنّ صالح جودت قد استغلَّ غناء السيدة أم كلثوم لهذه القصيدة ليجدد هجومه على نزار قباني وشعره، فكتب في مجلة «الكواكب» في ديسمبر 1970 مقالًا بعنوان: «لماذا يا أم كلثوم؟» وصف فيه الشاعر السوري بأنّه بائع شعر متجول، عندما وجد في صيحة الانفصال المصري-السّوري عام 1961 بضاعة رائجة صاح بشعره مناديًا بالانفصال، وعندما وقعت الهزيمة كتب يسب السلطة العربية بهوامش شعرية. انتقد جودت القصيدة ورأى أنّها لم تبكيه أبدًا، وكي يتفادى نقد السيدة أم كلثوم وهو الذي عُرف بقربه منها، رأى أن السبب في ذلك البرود الغنائي هو الكلمات واللحن، فربّما للمرة الأولى انتقد صالح جودت الموسيقار رياض السنباطي ملحن القصيدة «أول مرة أحس فيها أن السنباطي العظيم قد «ترحبن» وجاء بشيء يذكرني بفيروز وهي تغني: يا قدس يا مدينة الصلاة!»، وراح صالح جودت يفند أبيات القصيدة قبل تعديل

كلماتها كما نشرت في صحيفة «الأنوار» اللبنانية وصحيفة «الأهرام»، وبعد أن عدّل الشاعر أحمد رامي بعضَ أبياتها قبل أن تغنيها السيدة أم كلثوم. ويلاحظ أن ما قدمه صالح جودت من نقد لبعض الأبيات الشعرية في قصيدة نزار قباني كان يتسم بالسذاجة والسطحية في تقييم مادة نزار الشعرية، فكان كل ما يقوله مدفوعًا برغبة محمومة في الهجوم على نزار قباني وتحطيمه، والإصرار على تصويره شاعرًا يرى الحياة المصرية بعين السائح لا بعين الإنسان المنغمس في الحياة العربية وهمومها، وربما لهذه الأسباب الكثيرة توارت تلك المرثية قليلًا، وهي في اعتقادي الشخصي أجود المراثي الغنائية التي قدمت في رثاء جمال عبد الناصر بعد أنشودة «الوداع»، ورغم جودتها وصدقها لم تكن الظروف في صالحها، فلم تلجأ الإذاعات العربية لإعادة بثها في ذكرى جمال عبد الناصر السنوية من كل عام، أو حتى في ذكرى السيدة أم كلثوم ضمن باقة من أغنياتها النادرة، ولم تعد الحياة إذاعيًّا إلى هذه القصيدة إلا منذ سنوات قريبة جدًا.

وقبيل ذكرى الأربعين، نشرت مجلة «آخر ساعة» الصادرة في 4 نوفمبر 1970 تحقيقًا كبيرًا جمعت فيه أفكارًا عديدة طرحها الفنانون المصريون لتخليد ذكرى الرئيس جمال عبد الناصر، وعنونت المجلة التحقيق بعنوان «ما هي مسؤولية الفن على طريق جمال عبد الناصر»، وضم التحقيق آراء عدد من الفنانين منهم: الموسيقار محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ، فاتن حمامة، نادية لطفي، أحمد فؤاد حسن، علي إسماعيل، محمد الموجي، سعاد حسني، وكان على رأس هؤلاء جميعًا السيدة أم كلثوم، التي صرّحت لمجلة «آخر ساعة»: «كان عبد الناصر ينتظر يوم الزحف ويحلم بالنصر، وإنّني أسأل الله أن ينزل السكينة على قلبي لكي أبدأ موسمي في أول العام القادم وأغني

لذكرى عبد الناصر، إنّ الغناء الآن هو المتنفس الوحيد لأشجاني، إنّه الانطلاق بآلامي وآمالي، وأساله أن يجعل العام المقبل عام الزحف والنصر، وأن أغني للزحف والنصر، فالنصر وحده هو الكفيل بأن يهبط بردًا وسلامًا على روح عبد الناصر».

ومع اقتراب بداية موسم أم كلثوم الغنائي الجديد، وعقب انتهاء مدة الحداد على روح الرئيس جمال عبد الناصر، الذي دام أكثر من أربعين يومًا، عادت الصحافة الفنية في مصر والعالم العربي تطرح قضية اعتزال السيدة أم كلثوم للغناء مرة أخرى، وذلك بعدما سرى خبر لقائها بالسيد سامي شرف في بعض الأوساط الصحفية، وتداول البعض اعتزامها على إلغاء الموسم الغنائي لذلك العام تعبيرًا عن حدادها على الرئيس الراحل، وقد ملأت الدنيا وشغلت الناس تلك الأخبار، خصوصًا وأنّ السيدة أم كلثوم قد أعلنت بتلقائية شديدة عقب عودتها من الاتحاد السوفيتي لإحدى الصحف أنّه لن يكون هناك سنة غنائية، بل سيكون هناك سنة للحزن المقيم!

ورغم ثقل الخبر على الجميع، فقد كان في الخفاء ما هو أثقل من ذلك، إذ لم توضح عفوية السيدة أم كلثوم في طرح الخبر كل جوانب قرارها الطارئ، ولم تعلم الجماهير أنّها تخفي تصميمًا آخر أهم من مجرد الانقطاع عن الموسم الغنائي الجديد لعام 1971، إذ كانت أم كلثوم تفكر جديًا في اعتزال الغناء المسرحي تمامًا، والاكتفاء فقط بتسجيل أغنيات إذاعيّة وطنيّة بين الحين والآخر، وذلك كي توفق بين حزنها المقيم في القلب تجاه الرئيس الراحل الذي قربها منه وكرم الفن في شخصها، وبين واجبها تجاه بلدها ومركزها كفنانة الشرق الأولى.

ولكن الجماهير العربية أبت أن تصدق ما تسمع، واتّبعتْ مبدأ التصميم وقابلتْ تلك الرغبة الكلثومية برغبة أخرى وهي ضرورة بقاء

أم كلثوم في مقدمة الركب، فسكوتها هو سكوت مصر، وهو ما يعني بالضرورة مضاعفة الحزن، وتكريمًا لروح عبد الناصر يجب أن تغني أم كلثوم، يجب أن ترفع صوتها عاليًا بما يرفع الهمم ويشحذ الصفوف ويبشر بالغد، يجب أن تكون دائمًا في مقدمة الموكب، موكب الوطن الذي لم يفترق صوتها عنه طوال عقود عدة، وقد عبرت الآراء عن ذلك الرفض بطرق مختلفة، بعضها بشكل شخصي والآخر هاتفيًا، وكتبت الصحافة العربية واللبنانية بالتحديد مقالات عديدة تعلن كلُّها رفض المبدأ، وتؤكد على عدم السماح بغياب الصوت الذي لم تقهره الأيام قط!

وامتلأ صندوق بريد فيلا السيدة أم كلثوم في الزمالك بآلاف الرسائل التي تعلن الرفض المطلق، ونشرت مجلة الموعد اللبنانية في يناير 1971 بعضًا من تلك الرسائل، التي جاء في إحداها «لست أدري كيف نعيش دون صوتك، إنّها كارثة حقيقة لا نستطيع أن نتحملها، نستحلفك باسم الرئيس الراحل وذكراه الغالية أن تغني». ورسالة أخرى كان نصها «سأهاجر سيدتي.. سأذهب إلى مكان قصي من الأرض، حاملًا معي كل أغنياتكِ، ولن أعود إلا عندما تقفي على المسرح لكي تسمعينا، لكي تملئي حياتنا حُبًا وفنًا». وبلغ عدد الرسائل التي وردت إلى السيدة أم كلثوم حتى بداية الموسم الغنائي في يناير 1971 ما يزيد على نصف المليون رسالة، وكلها تطلب إليها شيء واحد: العودة للغناء وتخطي فكرة الاعتزال.

وأمام هذا الضغط الإنساني الهائل، رضخت أم كلثوم وصرّحت لمجلة «الكواكب» الصادرة يوم 3 نوفمبر 1970 أنّها ستغني لتكرم روح عبد الناصر، ولكي تعرب عن إيمانها بثورته ونضاله الذي لن يغيب أبدًا. وفي يوم الخميس 7 يناير 1971، عادت أم كلثوم لموسمها

الغنائي الجديد في حفلة غنائية أقامتها الإذاعة المصرية على مسرح «سينما قصر النيل» حضرها 1700 مستمع عربي، وخُصّص جزءٌ من دخلها لصالح المجهود الحربي، إذ استحدث للمرة الأولى بيع كتيب صغير لبرنامج الحفل طبعت داخله كلمات أغنيات الليلة، وحملت بعض صفحاته إعلانات لمؤسسات مصرية عامة وخاصة، لتذهب عوائد تلك الإعلانات لصالح المجهود الحربي، وقد نشرت صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 29 ديسمبر 1970 أن عوائد تلك الإعلانات قد بلغت حتى ذلك التاريخ ما يقرب من 12 ألف جنيه مصري، ومع اقتراب يوم الحفل بلغت حصيلة تلك الإعلانات ما يزيد على عشرين ألف جنيه تقريبًا. وفي يوم الخميس 7 يناير، وخلف كواليس الحفل، رافقت مجلة «الموعد» اللبنانية سيدة الغناء العربي وهي تستعد للعودة للغناء على مسرحها التاريخي، وتابعت حزنها الظاهر وتحجر دمعتها، إذ صرّحت أم كلثوم لمندوب المجلة قبل أن تخرج للجماهير العربية «سأغني وأنا حزينة.. سأغني لكل عربي حتى يحس الناس بأنّنا أمة تقدر على مقاومة المصاعب والأحزان!».

وقبل أن تُسمع دقات المسرح التقليدية وينفرج الستار، حضر الموسيقار بليغ حمدي ليشرف مع السيدة أم كلثوم على اللمسات الأخيرة للحنه الجديد «الحب كله»، الذي كان مقررًا أن تفتتح به أم كلثوم موسمها الغنائي لهذا العام، وكان بليغ حمدي قد سجله بمرافقة عوده على شريط قبل رحلة أم كلثوم إلى موسكو، لتصطحب أم كلثوم معها الشريط وتعيش أجواءه أيام وجودها في الاتحاد السوفيتي. وعقب عودتها ونهاية أيام الحداد على الرئيس الراحل، بدأت السيدة أم كلثوم البروفات مع فرقتها الموسيقية على اللحن الجديد، لتمتد البروفات قرابة الشهر ونصف الشهر تقريبًا، إذ قضت الفرقة سبعة

أيام في المقدمة الموسيقية، وستة أيام بروفات للمقطع الأول، وستة أيام أخرى للمقطع الثاني، وسبعة أيام للمقطع الثالث، ثم استغرق تسجيلها تسع عشرة ساعة كاملة في إستوديو 35 بالإذاعة المصرية، ليبدأ بعد ذلك مونتاج الأغنية والذي دام لمدة لخمسة أيام كاملة.

وبعد مقدمة إذاعية طويلة قدمها الإذاعي صبري سلامة (1925-1994)، اختلط فيها الفن بآمال المعركة، رُفع الستار عن أم كلثوم في تمام الساعة العاشرة وسبعة عشر دقيقة، فظهرت على المسرح بفستانها الرمادي ومنديلها الشيفون البرتقالي الغامق، واستقبلتها الجماهير بعاصفة من التصفيق وبصيحات لا تخفي تضامنهم مع حزنها الظاهر «حمد لله على السلامة يا ست.. حمد لله على السلامة يا حاجة»، و«ربنا يديكِ الصحة يا ست». غنّت أم كلثوم وصلتها الأولى في 108 دقائق تقريبًا بأداء غنائي باهت وحزين، وبعد فترة الاستراحة عادت لتغني وصلتها الثانية «ودارت الأيام»[1] وهو التسجيل الذي عُرف اصطلاحًا عند الهواة باسم «ودارت الأيام الحزينة». بدت أم كلثوم في تلك الوصلة شاحبة الصوت، مشوشة الأداء، تظهر عليها هالات الحزن والإجهاد، لتبلغ تلك الحالة مداها عندما شرعت أم كلثوم في غناء مقطع الأغنية الأخير، إذ تحول الغناء إلى بكائية، واختنق صوتها المُتعب، وأسلمت نفسها إلى آهات موجعة طويلة. هالت الجماهير تلك الحالة التي ظهرت بها أم كلثوم على المسرح، فسكن كل من في القاعة وأنصت إليها بعدما أدركوا بفطنتهم أنّها تبكي عبد الناصر، ويقول من حضر تلك الليلة إنّها لم تتمالك أعصابها وأفلتت منها دموعها في حُرقة. ظلّت أم كلثوم تكرر جملة «ودارت الأيام.. ومرت

(1) غنّتها أم كلثوم في تلك الليلة للمرة الخامسة بعد أن غنّتها للمرة الأولى في 5 مارس 1970.

الأيام» في أداء باكٍ يكشف حجم حزنها المكتوم، وفسر البعض حزنها الشديد وتفاعلها مع ذلك المقطع على أنّه حسرة على غياب الزعيم، الذي قرّبها منه وجعلها رأس حربة قوته الناعمة، وعزا البعض بكاءها لإدراكها أن أيام الغناء قد ولت وأنّ وقفاتها المسرحية أصبحت معدودة، فضلًا عن كبر سنها ومرضها المضني الذي اشتد عليها منذ مطلع السبعينيات خصوصًا بعد جولات مجهودها الحربي. لا أحد يدري بالضبط ما دار في خاطرها في تلك الليلة الحزينة، ولكنّ الأكيد أنّها كانت تبكي أشياء عدة رحلت عنها بلا عودة، وربما زادتها حزنًا مسحة الشجن في لحن ذلك المقطع وتحديدًا جملة «وهل الفجر بعد الهجر/ بنوره الوردي بيصبّح»، ومع أن الكلمات تميل للفرح فقد جازف الموسيقار محمد عبد الوهاب وكساها بلحن شجي، بعد أن لامس سريعًا مقام «الصبا» الحزين في مقطع «من فرحتي تهت مع الفرحة/ من فرحتي لا بنام ولا بصحى». بكت أم كلثوم في تلك الليلة وأبكت جمهورها في المسرح، وملايين العرب الذين سهروا مع شدوها في تلك الليلة الحزينة، وعندما فرغت أم كلثوم من غناء تلك الوصلة لم تستطع أن تفرغ من حزنها، فنسمعها في نهاية التسجيل تقول لعامل رفع الستار بتنهيدة حزينة «افتح» كي تكمل تحية الجمهور الذي أدرك في لحظة ذكاء أن أيام أم كلثوم القادمة لن تقلّ حزنًا عن أدائها في تلك الليلة الباكية.

. مات عبد الناصر عام 1970 ولحقت به السيدة أم كلثوم بعد خمس سنوات وتحديدًا في 3 فبراير 1975، وما بين التاريخين ظلت ذكراه حية في حياتها، حتى مع تبدل نهج السياسة العامة للدولة المصرية عقب موت عبد الناصر، وتغير الوجوه السياسية بعد ثورة التصحيح في مايو 1971. وفي كل عام، في ذكرى الرحيل، كانت أم كلثوم

تدلي بأحاديث صحفية عن الزعيم الذي عرفته عن قرب وعن دوره في دعم الفنون؛ ففي الذكرى الأولى كتبت مقالًا طويل في مجلة «الهلال» بعنوان «كيف عرفت عبد الناصر». وفي الذكرى الثانية عام 1972 وفي عددها الصادر يوم 28 سبتمبر 1972، سجلت صحيفة «القوات المسلحة» ذكريات السيدة أم كلثوم مع عبد الناصر ضمن عدد تذكاري عن الرئيس الراحل، أظهرت فيه السيدة أم كلثوم التأثر والدقة في تحديد كثير من معالم شخصية الزعيم. ولم تنقطع زياراتها لبيته في «منشية البكري» حتى مع وجود القيادة السياسية الجديدة وظهور بوادر الحملة الضارية التي شُنت على العهد الناصري ورجاله، بل ظلّت أواصر الصداقة تربطها بالسيدة تحية كاظم وأولادها، وهذا ما قاله نَصًا خالد جمال عبد الناصر عن أم كلثوم ضمن ذكرياته التي نشرها الصحفي عبد الله السناوي في كتابه «أخيل جريحًا: إرث جمال عبد الناصر»: «لم تتغير مع الذين تغيروا، ولا نسيت الود القديم والصداقة التي جمعتها بالسيدة التي كانت حتى أيام قريبة زوجة رئيس الجمهورية».

ورغم تأكيد سرديات الكتابات الناصرية على ثبات موقف أم كلثوم من العهد ورجاله وقائده، فإنّ السيدة أم كلثوم قد تغيرت نفسيًا بعد وفاة جمال عبد الناصر، ودخلت مرحلة مضطربة في مشوار حياتها الفني والسياسي على حد السواء، بالإضافة إلى زيادة ما كانت تعاني منه جسديًا من آلام حادة بدأت تهاجمها بشراسة منذ مطلع عام 1972. وعلى الرغم من عودة أم كلثوم إلى الساحة الغنائية مرة أخرى، كان رجوعها مشوبًا بالتقطع والخوف والحذر، خصوصًا في لحظات الصدام وافتراق الطرق بين العهدين، واتساع الهوة بين الحرس القديم ورجال المرحلة الجدد الذين قادتهم ثورة التصحيح

إلى المشهد السياسي، فكانت سنواتها الأخيرة مجرد تشبث بعالم ينهار، وتعلق بمرحلة تاريخية كاملة أغلقتها مصر بالدموع يوم وفاة عبد الناصر. عاشت أم كلثوم تحت سماء القاهرة خمس سنوات فِعليًا بعد رحيل القائد والزعيم، ولكنها خلال تلك السنوات قد تغيرت كليًا؛ فتر حماسها، وجفّت ينابيع الغناء داخلها، وتلاشت همتها تدريجيًّا، فكانت سنواتها في السبعينيات مثل سنوات من الموت في الكون!

السيدة أم كلثوم في أولى حفلاتها بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، يوم 7 يناير 1971.

مصادر هذا الفصل:

1- سعد الدين وهبة، أم كلثوم، الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما، القاهرة 1999.

2- سامي شرف، سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر، الجزء الخامس، المكتب المصري الحديث، القاهرة 2016.

3- د. نبيل حنفي محمود، فصول من تاريخ الغناء المصري، الهيئة العامة للكتاب 2019.

4- شهادة وجدي الحكيم حول قصيدة رثاء عبد الناصر لصحيفة اليوم السابع، القاهرة، سبتمبر 2013.

5- عبد الله السناوي، أخيل جريحًا: إرث جمال عبد الناصر، دار الشروق 2019.

6- مجلة الموعد، لبنان، عدد يناير 1971.

7- مجلة الموعد، القاهرة، عدد 12 نوفمبر 1970.

8- الأهرام، القاهرة، عدد 29 ديسمبر 1970.

9- صحيفة القوات المسلحة، القاهرة، عدد 28 سبتمبر 1972.

10- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 4 نوفمبر 1970.

11- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 12 يناير 1971.

12- مجلة الموعد، القاهرة، عدد 12 نوفمبر 1970.

13- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 3 نوفمبر 1970.

14- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 3 ديسمبر 1970.

وطنيات الهزيمة

تكشف لنا قراءة تجربة الغناء الوطني بعد حرب الأيام الستة، وتحديدًا تجربة السيدة أم كلثوم، عن تحول عميق في نمط الأغنية الوطنية وطبيعة أركانها الثلاثة: الكلمات، اللحن، والأداء الغنائي، وتأثر كل عنصر من العناصر السابقة بمعطيات الظروف الاجتماعية والسياسية التي فرضت نفسها وبقوة على الغناء المصري بعد النكسة. فقد تأثر الغناء الوطني، وعلى امتداد سنوات المد الثوري منذ يوليو 1952 حتى مطلع يونيو 1967، بالخطاب الناصري وعمل على تكريس الأيديولوجية الجديدة التي أفرزتها دولة يوليو الوليدة، ليتغير شكل الغناء الوطني ويصبح مسرحًا سياسيًّا موازيًا للساحة السياسيّة الحقيقيّة، معتمدًا في ذلك على اختزال المعاني الإجماليّة للخطاب السياسي مع الحرص على إحياء معاني التأثير والقوة بمفردات لغوية ولحنية تضفي الجمال على شعارات العهد الناصري.

وقد تبارت الأصوات الغنائية في تقديم ما يمكن وصفه بغناء مواكبة الأحداث، وتقديم الدعم الفني المطلق وغير المشروط للزعيم الملهم الذي لا يقهر، وتحوَّل تَدريجيًّا الخطابُ الغنائيُّ الحالمُ الذي كانت تعتمد عليه الأغنيات الوطنية قبل ثورة يوليو إلى خطاب ثوري مرهون بالمُنجز الوطني، وقد بلغ هذا الغناء مداه بعد عدوان 1956

الذي أبرز زعامة عبد الناصر وحوّله إلى أسطورة شعبية على امتداد الأرض العربية من المحيط إلى الخليج، لكن مع نكسة 1967 تراجع ذلك المشروع لحساب الأغنية الوطنية الخالصة التي لا تهدف إلا لبث العزيمة، وتجاوز محنة الهزيمة ولا تبغي إلا التغلب على محنة الوطن، وأول الذين خاضوا ذلك التحول هي السيدة أم كلثوم ذاتها؛ فالأغنية الوطنية بعناصرها الثلاثة كانت لها ضوابط ومحددات قاطعة في مشروع السيدة أم كلثوم الغنائي قبل نكسة يونيو، فكانت كلمات الأغنية الوطنية أسيرة لذوق أم كلثوم الشخصي في الشعر والعامية، بعيدًا عن مدى قرب تلك النصوص الشعرية من ذائقة المستمع العربي وتحديدًا من مستوى الذائقة الشعبية، وقليلة هي الأغنيات الوطنية التي غنتها أم كلثوم بلغة بسيطة دارجة مثل: رائعتها «ثوار» في يوليو 1961 أو «يا حبنا الكبير» في يوليو 1965 أو أغنيتها في العام ذاته «حولنا مجرى النيل» التي جاءت كلماتها دون مستوى الأغنية الوطنية الكلثومية ولذلك توارت بعيدًا في الذاكرة الغنائية، تلك الطبيعة الكلامية قد اختلفت ضوابطها ومحدداتها بعد النكسة، فقد غزت المجال الشعري عند أم كلثوم عناصر جديدة وافدة، ودخلت عالمها أقلام شعرية جديدة لم يسبق أن خاضت تجربة الكتابة الوطنية للسيدة أم كلثوم، أمثال: صالح جودت، وإبراهيم ناجي[1]، ونزار قباني، خصوصًا لما عرف عن الأخير من ثوريته الشعرية بعد ما فتحت قصيدته المغناة الأولى «أيظن» عام 1960 أبواب الجدل حول مدى صلاحية شعره للغناء، أما الذين سبق وكتبوا لها وطنيات في سنوات الحلم الناصري أمثال: عبد الفتاح مصطفى وعبد الوهاب محمد، فعادوا ليقدموا لها أعمالًا وطنية ذات طبيعة شعرية مختلفة ومتأثرة تمامًا بمعطيات

(1) توفي الشاعر إبراهيم ناجي في 27 مارس 1953.

النكسة وظروف الهزيمة القاسية، فاكتسبت كلماتهم طابعًا حزينًا مفعمًا بالشجن والهدوء، وتوارت في أغنياتهم مُعلّقات المديح وغاب اسم الزعيم، وظهر الوطن بطلًا وحيدًا في الأغنية الوطنية.

أما على مستوى اللحن والأداء، فقد أرخت النكسة بظلالها على عالم الغناء العربي، وفتحت الأبواب لتيارات موسيقية متضاربة بعضها شرقي والآخر غربي. وكما اختلفت مناهج تلحين الأغنيات العاطفية عقب النكسة، اختلفت أيضًا ظروف تلحين الأغنية الوطنية، وتعددت مسارات الأداء الغنائي لتلك النوعية من الغناء، فطوال خمسة عشر عامًا، منذ 1952 حتى 1967، لم تَشدُ أم كلثوم بألحان وطنية لغير ملحنها الأثير رياض السنباطي إلا في ما ندر. تلك الوحدة الفنية التي جمعت السنباطي بأم كلثوم عقَّدت مفهوم الأغنية الوطنية الكلثومية وأبعدتها نِسْبيًّا عن تحولها إلى أغنية شعبية دارجة، فجاءت أغنيات أم كلثوم الوطنية وكأنّها محاولة لاستدعاء مفردات الغناء الوطني في الثلاثينيات والأربعينيات، إذ كانت القصيدة الطربية هي الصورة المُثلى للأغنية الوطنية.

أدركت أم كلثوم ذلك في منتصف الخمسينيات تقريبًا وسعت لتجديد دمائها الموسيقية وإدخال ملحنين جدد مثل: كمال الطويل ومحمد الموجي وأخيرًا محمد عبد الوهاب إلى دائرة ملحني أغنياتها الوطنية، مع الاحتفاظ بمكانة رياض السنباطي بوصفه ملحنها المقرب ورجل القصائد الصعبة. وبعد نكسة 1967، حافظت أم كلثوم على ذلك التقليد اللحني، فمجموع ما غنت من أغنيات وطنية بعد يوم 5 يونيو 1967 كان ست أغانٍ، نصيبُ رياض السنباطي منها أربعة ألحان. تكتسب الأغنية الوطنية عند أم كلثوم في تلك المرحلة صورة جديدة، من حيث الأشكال والأنواع والقوالب الموسيقية والصيغة

بالإضافة إلى حساسية وطرق الغناء وطبيعة التسجيل وحتمية التوزيع الموسيقي، ويختفي البناءُ الغنائيُّ شيئًا فشيئًا من المشهد الغنائي الذي طالما اعتمد عليه رياض السنباطي وغيره في صياغة ألحانهم الوطنية لأم كلثوم، واستُبدِل به المزاج الدرامي المعبر عن تلك المرحلة التي تحتاج إلى جرعات مكثفة من الغناء الوطني لا إلى الحفلات المطولة التي تدوم ساعات، فابتعدت أم كلثوم عن غناء الأغنيات الوطنية في حفلاتها الشهرية، واكتفت بتسجيلاتها الإذاعية، ولم تلجأ إلى غناء ألحانٍ وطنية في حفلات مجهودها الحربي رغم أن أهداف تلك الحفلات كان وطنيًا بالأساس، وكذلك سيطرت على مجمل أغنياتها الوطنية في تلك المرحلة المقامات الخالية من «الربع تون» الشرقي وتحديدًا مقاما «النهاوند» و«العجم»، وهو ما طوّع تلك الألحان لعملية التوزيع الموسيقي وجعلها تكتسب جماليات جديدة بجوار جماليات اللحن الأصلي.

أولًا: نشيد «سقط النقاب / إنّا فدائيون» 8 يونيو 1967.

أول نشيد حماسي تسجله السيدة أم كلثوم عقب عدوان 5 يونيو 1967 وتحديدًا يوم 8 يونيو في إستديو 35 بالإذاعة المصرية، من كلمات الشاعر عبد الفتاح مصطفى ومن ألحان بليغ حمدي، الذي كانت تجربته تلك التجربةَ الأولى والأخيرة في التلحين القصائدي والوطني للسيدة أم كلثوم. فبعد أيام من بدء حرب الأيام الستة، ومع تكشف الدور الأمريكي في دعم هجوم إسرائيل على الدول العربية، أسرعت السيدة أم كلثوم تبرق للسفارة الأمريكية برفضها للجائزة التي كانت قد منحتها إياها إحدى الجمعيات الفنية في الولايات المتحدة الأمريكية تقديرًا لفنها، وخرجت إلى دار الإذاعة واستدعت الشعراء عبد الفتاح مصطفى وعبد الوهاب محمد وصالح جودت

وطلبت منهم سرعة إعداد أغنية تصور الدور الأمريكي في العدوان الإسرائيلي، وأقسمت أنّها لن تغادر دار الإذاعة حتى تسجل القصيدة، وكان عبد الفتاح مصطفى أسرع الشعراء في تأليف الأغنية، وكان كلما فرغ من تأليف بيت ناوله لأم كلثوم التي تقرأه وتناوله لبليغ حمدي الجالس إلى جوارها، وما هي إلا ثلاث ساعات حتى كان عبد الفتاح مصطفى قد انتهى من تأليف النشيد وانتهى بليغ حمدي من تلحينه لتُسجل القصيدة في ساعة واحدة، وقد صاغ بليغ حمدي لحن النشيد كعادته بجمل بسيطة من مقام «العجم» مع إعطاء مساحة كبرى لآلات النفخ النحاسية طوال الخط الغنائي للقصيدة، في حين جاءت كلمات النشيد معبرة عن تلك التوابع الكبرى التي أعقبت يوم 5 يونيو 1967 وتحديدًا إغلاق الرئيس عبد الناصر لقناة السويس في اليوم التالي للعدوان، وإعلان السعودية والكويت والعراق وليبيا وقف تصدير البترول إلى كل من: الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وألمانيا الغربية، وهذا تحديدًا ما تعمدت أم كلثوم غناءه «سقط النقاب عن الوجوه الغادرة وحقيقة الشيطان بانت سافرة/ فلنضربن بكل كف قادرة/ ولنرمين بكل روح هادرة/ إنا فدائيون/ نفنى ولا نهون إنا لمنتصرون/ لا لا تفاهم ولا هوداة في القتال/ اليوم لا بترول بعد ولا قنال/ تسعون مليونًا إن زحفنا للنضال». توحي كلمات القصيدة وطريقة أداء أم كلثوم لها بعدم إدراك حدود الهزيمة ولا حجم المأساة «لا يا عدوي يا ظهيرًا لعدوي/ لا لن ترى بحري ولا أرضي وجوي/ لا بل سأمضي وانتصاراتي تدوي»، في حين كان العدو الصهيوني وقت تسجيل القصيدة قد احتل سيناء كاملة وبدأ في نصب خيامه على الضفة الشرقية لقناة السويس، وراح علمه يخفق بالقرب من المسجد الأقصى بالقدس، وقد استمرت إذاعة ذلك النشيد بشكل

دائم في البرامج اليومية الإذاعية في شهر يونيو 1967، حتى انطلاق معارك حرب الاستنزاف، التي بدأت فِعلًا عقب تسجيل تلك القصيدة بثلاثة وعشرين يومًا تقريبًا، حين قامت القوات المسلحة المصرية بأولى العمليات العسكرية التي أطلقت شرارة حرب الاستنزاف في يوم 1 يوليو 1967، وهي العملية التي عرفت باسم «رأس العش»، حين استبسلت قوات الصاعقة المصرية في التصدي لقوات الاحتلال الصهيوني بالقرب من مدينة بور فؤاد في محافظة بورسعيد.

ثانيًا: قصيدة «قم واسمعها فأنا الشعب/ حبيب الشعب» 12 يونيو 1967.

في مساء الجمعة التاسع من يونيو 1967، خرج جمال عبد الناصر بوجهٍ مكسور في خطاب مسجل تليفزيونيًا دام أكثر من 25 دقيقة مُقِرًا أمام الجماهير بالهزيمة «ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة في الأيام الأخيرة»، ليعترف، ربما للمرة الأولى في عهده، بهزيمة نظامه، معلنًا تنحيه عن منصب رئيس الجمهورية لينضم إلى صفوف الجماهير ليؤدي واجبه معها كأيّ مواطنٍ آخر. وفي مفارقة لا تحدث كثيرًا وربما لا تحدث أبدًا، خرجت الجماهير في تظاهرات شعبية كبرى تطالب القائد المهزوم بالبقاء في منصبه، وذلك في مشهد عفوي لا تخلو بعض ملامحه من تعبئة واضحة، فقد تمسكت الجماهير بالقائد رغم هزيمته، وبضرورة بقائه على رأس تلك السلطة التي كانت تبشر قبل أيام قليلة بنصر وفتح قريب. وكعادتها، تجاوبت أم كلثوم مع الحدث، وتفاعلت مع تلك الجماهير التي ربما تكون قد عبرت من أمام فيلتها بالزمالك يوم التاسع والعاشر من يونيو 1967. وفي يوم 12 يونيو 1967، دخلت أم كلثوم الإستديو للمرة الثانية في نفس الأسبوع عقب عدوان 1967 لتسجيل قصيدة «قم واسمعها فأنا

الشعب/ حبيب الشعب» مطالبة عبد الناصر بالبقاء، شأنها في هذا شأن تلك الجماهير الغفيرة التي رأت في بقاء القائد ضرورة لا مفر منها، حتى وإن كان ذلك القائد هو المسؤول الأول عن الهزيمة!

وتكشف أم كلثوم بنفسها تفاصيل تسجيل تلك القصيدة في مقالها الطويل الذي كتبته في مجلة في «الهلال» في عدد أكتوبر 1971 «عقب النكسة، يوم أعلن جمال ذلك النبأ الأسود الذي انخلع له قلب مصر، بل قلب الأمة العربية كلها؛ نبأ تنحيه عن الحكم. كنت منذ الساعة التي تأكدت فيها أنباء النكسة، قد خاصمت النوم، ولم يعد لي هم بالليل ولا بالنهار، إلّا أنّ أتفرغ لدموعي، وأتوجه إلى الله في صلاتي، وضراعتي أن يمدنا ببصيص من الأمل في إنقاذ مصر، فلما أعلن جمال عبد الناصر نبأ تنحيه عن الحكم، فقدت الأمل في إطلالة هذا البصيص من الأمل، وكنت لا أفتأ أتصل بأصدقائي وأصدقائي يتصلون بي، ليل نهار، لعل أحدنا يجد عند الآخر نبأً يكشف الغمة، ولا حديث لنا جميعًا إلا عن المأساة التي ازدوجت وأطبق عليها اليأس بتنحي جمال عن مكانه، وفي تلك الليلة قلت لصديقي صالح جودت ونحن نتحدث في التليفون: إن الأمل الباقي، هو أن يبقى جمال عبد الناصر في مكانه.

وبعد منتصف الليل، عاود صالح جودت الاتصال بي، وتلا علي هذا المعنى منظومًا في أنشودة تحمل صورة نداء إلى جمال، مطلعها:

قم واسمعها من أعماقي

فأنا الشعب

اِبقَ فأنت السد الواقي

لمنى الشعب

اِبقَ فأنت الأمل الباقي

لغد الشعب

اِبقَ فأنت حبيب الشعب

وأملى عليَّ كلمات الأنشودة بالتليفون، وأيقظت رياض السنباطي وأمليتها عليه بالتليفون أيضًا، ولم ينم السنباطي ليلته، وفي الصباح كان قد انتهى من تلحينها، وبعد يوم واحد سجلتها وقدمتها الإذاعة للجماهير، جماهير 9 و10 يونيو، التي خرجت على بكرة أبيها في حلكة الظلام، وتحت وابل من قنابل العدو، تطالب ببقاء جمال عبد الناصر.. وبقي جمال عبد الناصر وعاد الأمل يطل علينا من جديد».

وتذكر مجلة «الشبكة» في عددها الصادر يوم 10 يوليو 1967 أنّ السيدة أم كلثوم قبل أن تذهب إلى الإستديو صباح يوم 12 يونيو لتسجيل القصيدة، كانت قد ذهبت إلى منزل الرئيس جمال عبد الناصر في منطقة «منشية البكري» لتكون على رأس الوفد الذي قصد منزل الرئيس ليطلبوا منه بكل حب وبكل انتصارات الثورة أن يبقى في مكانه، ولم تغادر السيدة أم كلثوم إلى دار الإذاعة إلا بعدما قابلت الرئيس جمال عبد الناصر وأظهرت دعمها لقرار عودته عن قرار التنحي وضرورة بقائه في السلطة لتخطي تلك اللحظة المصيرية. ومن منزل الرئيس، شقّت السيدة أم كلثوم طريقها إلى دار الإذاعة في صعوبة بالغة، حيث كان في انتظارها الموسيقار رياض السنباطي والشاعر صالح جودت، فأسرعت لتسجيل القصيدة التي قدمتها الإذاعة في نفس اليوم، إذ لم يستغرق تسجيلها أكثر من ساعة واحدة، وهو شيء لم يكن مألوفًا في تاريخ تسجيلات السيدة أم كلثوم الإذاعية.

وتكشف قراءة تلك القصيدة عن عدة تناقضات في طبيعتها الغنائية، فكلمات القصيدة جاءت معبرة عن تلك الانفعالات الشعبية التي قد تكون لامست صُناع القصيدة فعليًا، لكنها جاءت بالتأكيد مفارقة

للواقع ومعطياته، فطوال الأغنية تظهر صفات عبد الناصر وكأنها امتداد لصفاته لما قبل الهزيمة، فتوصف أم كلثوم عبد الناصر بصفات مثل «أنت الأمل الباقي/ أنت السد الواقي/ أنت الخير وأنت النور/ أنت الصبر على المقدور/ أنت الناصر والمنصور/ وأخيرًا أنت حبيب الشعب» وكلّها صفات لا يمكن إطلاقها بحال من الأحوال على قائد خسر في ظرف ساعات قليلة ٪85 من عتاد قواته المسلحة، وهو ما يقدر بخسائر تصل إلى ملياري دولار وفق أسعار 1967، وما يقرب من 12 ألف شهيد، عدا الأسرى الذي وصل عددهم إلى 13600 فردًا، ومن المؤكد أن الصُنّاع الثلاثة لذلك النشيد لم يكونوا يدركون في تلك اللحظة أبعاد تلك الهزيمة القاسية ومدى مسؤولية جمال عبد الناصر عنها، لكنهم أدركوا ضرورة مواكبة الحدث، فجاءت تلك القصيدة اعترافًا أوليًا بالهزيمة ومرارتها، تمامًا كما اعترف عبد الناصر بالهزيمة في خطابه، وإقرارًا بتلك التسمية الجديدة «النكسة» التي ذكرها جمال عبد الناصر للمرة الأولى في خطاب تنحيه[1] في مساء 9 يونيو، حين غنت أم كلثوم «قم وادفعنا بعد النكسة» وهو تعبير وصفه البعض بأنّه مراوغة ناصريّة في تقدير حجم الهزيمة وتوابعها الكارثية.

ثالثًا: نشيد «حق بلادك» 26 يوليو 1967.

في صباح 26 يوليو 1967، قضت أم كلثوم في إستديو 35 بالإذاعة المصرية سبع ساعات تقريبًا وهي تسجل نشيدها الشهير «حق بلادك» من كلمات عبد الوهاب محمد وألحان رياض السنباطي. وعقب انتهاء التسجيل، توجهت أم كلثوم إلى إستديو 8 لتسجل لإذاعة الشرق الأوسط بصوتها مجموعة من الشعارات الوطنية لتذاع ضمن فقرات

---

(1) كرر الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب التنحي مصطلح «النكسة» 4 مرات، ومصطلح «أزمة» مرتين، ومصطلح «محنة» مرة واحدة.

برنامج «مع أم كلثوم»[1] الذي كان يقدمه الإذاعي إبراهيم صبري من إذاعة «الشرق الأوسط».

والمتأمل في لحن نشيد «حق بلادك» يلاحظ ذلك المجهود الذي بذله رياض السنباطي في استعادة أجواء ما قبل النكسة وتجاوز روح الحزن والمرارة التي طغت على عالم الغناء الوطني بعدها، وذلك بتأسيس لحن من مقام «الهزام» يقوم على الحركة والإيقاع، ويبدو هذا في تلك المقدمة النابضة التي كان البطل فيها صوت «الكورال» الرجالي، وربما ساعده في ذلك طبيعة النص الغنائي والكلمات المفعمة بالحركة والتفاؤل، التي تتجاوز الهزيمة ولا تشير إليها لا من قريب ولا من بعيد، وهو ما جعل الباحث الموسيقي ياسر عبد الله[2] يصف ذلك اللحن بأنّه لحن اعتمد على المسؤولية الجماعية في إزالة ملامح الهزيمة وبالتحديد حين غنت أم كلثوم «كلنا جند في كل ميدان»، كما أنّه أقر السياسة العامة الرسمية للدولة المصرية في مرحلة ما بعد النكسة، خصوصًا شعار «إزالة آثار العدوان»، دون أن يسعى إلى الفصل بين الماضي الناصري القريب وما بين مرحلة ما بعد الهزيمة،

---

(1) برنامج بدأت إذاعته على موجات إذاعة «الشرق الأوسط» في سبتمبر 1965، حين بدأت فكرة البرنامج باستضافة أحد الفنانين أو الأدباء ليسأله المذيع إبراهيم صبري عن أحب أغاني أم كلثوم إليه، ثم تطور البرنامج وأصبح يسأل الضيف عن أخباره الفنية ومدى صلته بالسيدة أم كلثوم، وتطور مرة ثالثة وأصبح يذيع مقتطفات من الصحف العربية والأجنبية التي تتحدث عن أم كلثوم، وحاول البرنامج الخروج عن النطاق المحلي، وسافر إلى البلاد العربية وسجل عدة لقاءات مع أبناء الدول العربية عن ذكرياتهم مع غناء السيدة أم كلثوم، وفي الأيام الأولى للمعركة بدأت السيدة أم كلثوم تذيع نداءاتها الإذاعية من خلال ذلك البرنامج الإذاعي.

(2) ياسر عبد الله، أم كلثوم صوت الوطن ونكسته، أم كلثوم ومجهودها الحربي- موقع معازف.

فالكلمات تؤكد ذلك الترابط وتداعب الوعي الجماعي بإنجاز كان ما زال في طور البناء وهو السد العالي. ويبقى أهم ما في ذلك النشيد أنّه المحطة الأولى في مسيرة الأغنية الوطنية الكلثومية التي تتجاوز حُمّى الحماسة الوطنية التي فرضتها أجواء يونيو 1967، كما أنّه رسّخ لفكرة تجاوز تمجيد القائد، والغناء للوطن والعمل والأرض، بعيدًا عن شخص الزعيم.

رابعًا: قصيدة «أصبح عندي الآن بندقية / طريق واحد» فبراير 1969.

تتبدى لنا في وسط تجربة أم كلثوم الغنائية بعد النكسة قصيدة «أصبح عندي الآن بندقية» عملًا هامًا ومفصليًّا في مسار الأغنية الوطنية الكلثومية، استطاعت أن تقطع بها أم كلثوم شوطًا في تجاوز طبيعة غنائها الوطني القديم إلى طبيعة حداثية مطورة، فقد مثّلت تلك القصيدة حالةً سرديّة غنائية مستقلة بامتياز. فبرغم اعتماد ذلك العمل على عنصرين سبقَ واتّحدا في عمل وطني واحد وهما أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، عندما قدّم الاثنان قصيدة «على باب مصر» في 23 يوليو 1964، فقد افتقدت تلك التجربة السابقة هذه الروح النشطة في تثوير الكلمة المغناة وتنوّع مسارات التوزيع الأوركسترالي، رغم ما بذله الموزع الكبير «آندريه رايدر» من جهدٍ في توزيع تلك القصيدة، وهو ذلك الجهد الذي ضاعفه فيما بعد في «أصبح عندي الآن بندقية»، حتى جاءت تلك القصيدة لتشكل نموذجًا لا يقل حداثة وتطورًا عن تلك التجارب الرحبانية التي انطلقت تغرد خارج السرب الغنائي العربي طوال عقد الستينيات، وربما بعث ذلك التعاون الوهّابي-الرحباني في أثناء إقامة الموسيقار محمد عبد الوهاب في لبنان عام 1967 في عدة تجارب موسيقية مثل: نشيد «حي على الفلاح» يوليو

1967، وقصيدة «سكن الليل» أغسطس 1967، وأنشودة «سواعد من بلادي» نوفمبر 1967 إلى اكتمال تلك المغامرة التجديديّة التي خاضها محمد عبد الوهاب في تلحين قصيدة «أصبح عندي الآن بندقية»، التي كان من نتائجها بلوغ الأغنية الوطنية عند أم كلثوم مرحلتها الأخيرة من التغيير والتثوير.

فطوال سنوات، وتحديدًا منذ عام 1960حين أخذ شعر نزار قباني طريقه إلى عالم الغناء، وأم كلثوم تتابع ذلك الإنتاج الغنائي الذي أحدث دَوِيًّا في عالم الغناء القصائدي، وتتمنى لو أن تصادفها الظروف لتغني شعر نزار قباني. وكما كانت أم كلثوم تنتظر الفرصة، كان نزار أيضًا يتمنى لو أن الحظ يحالفه ويجول شعره الآفاق العربية عبر أهم وأكبر صوت عربي. ففي حواره مع مجلة «الكواكب» في 26 مارس 1968 الذي أجراه عقب خفوت حملة الشاعر صالح جودت عليه، صرّح نزار قباني في ذلك الحوار علانية برغبته في أن تغنّي السيدة أم كلثوم شعره «من أحلامي الجميلة أن تصدح أم كلثوم بإحدى قصائدي»، ومن الأكيد أن السيدة أم كلثوم قد قرأت تلك الرغبة ووصلت إليها رسالة نزار قباني، حتى جاءت إلى الاثنين الفرصة المناسبة. ففي يناير 1969، وحين كان نزار في طريقه إلى السودان بعد دعوة وجهتها إليه وزارة الإصلاح السودانية، زار في طريقه القاهرة، وخلال إقامته القصيرة خطر له أن يتواصل مع أم كلثوم معبرًا لها عن تقديره لمشروعها في دعم المجهود الحربي، ومحاولًا إحداث تقارب بينهما ربما يؤدي إلى تحقيق حلمه والاتّفاق على مشروع غنائي يجمعهما، خصوصًا بعدما شجعه ذلك النجاح المدوي لقصيدة «هذه ليلتي» للشاعر اللبناني جورج جرداق التي غنتها أم كلثوم في مطلع ديسمبر 1968، وما إن وصل نزار إلى القاهرة حتى حاول التّواصل مع أم كلثوم عبر الهاتف،

ويروي نزار قباني لمجلة «الموعد» الصادرة في 27 فبراير 1969 بعضًا من ذلك الحوار الذي دار بينهما عندما طلب بيت أم كلثوم، وردت عليه بنفسها، إذ قال لها نزار: «سيدتي، لقد وجدت أن زيارة القاهرة دون تحيتكِ لا تعتبر زيارة!»

فردت عليه أم كلثوم بلباقتها المعهودة: «ولكن التحية يا عزيزي الشاعر لا تتم بواسطة الهاتف، فهل تقبل الدعوة على الشاي؟»

وفي الموعد المحدد، ذهب نزار إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك، فاستُقبل في الصالون الأنيق بكثير من الود، وجاءت أم كلثوم وجلست تحدّثه بمناسبة زيارته للسودان عن زيارتها لذلك البلد في الشهر الماضي، وعن روعة الشعب السوداني وتذوقه الرائع للشعر، وتفاعله مع الألحان، ثم طلبت أم كلثوم إلى نزار أن يسمعها بَعْضًا من شعره، فأسمعها نزار قصيدة من قصائده العاطفية القديمة، وعندما طلبت إليه أم كلثوم أن يسمعها قصيدة جديدة، اعتدل نزار في جلسته وأخرج من جيبه ورقة صغيرة وبدأ في إسماعها قصيدة عن الفدائيين يقول مطلعها: «أصبح عندي الآن بندقية»، وحرّك كلام القصيدة أم كلثوم وبدأت تردّد خلف نزار:

أصبح عندي الآن بندقية.
إلى فلسطين خذوني معكم.
إلى ربىً حزينة كوجه مجدلية.
إلى القباب الخضر والحجارة النبيّة.

ثم توقفت أم كلثوم وفكرت قليلًا، وقالت لنزار: «هل تعرف يا نزار إنّني معجبة بالتعابير الجديدة التي تطلقها في قصائدك، وأن تعبير «الحجارة النبيّة» في منتهى الجمال».

ثم عادت تكمل أم كلثوم ترداد القصيدة خلف نزار قباني:

عشرون عامًا وأنا
أبحث عن أرض وعن هوية.
أبحث عن بيتي الذي هناك.
وعن وطني المحاط بالأسلاك.
أبحث عن طفولتي.
عن رفاق حارتي.
عن كتبي.
عن صوري.
عن كل ركن دافئ، وكل مزهرية.
إلى فلسطين، خذوني معكم يا أيها الرجال.
أريد أن أعيش أو أموت كالرجال.

ثم توقفت أم كلثوم لتقول: «أنا أرى في هذه الأيام أن الدعم النفسي والمعنوي لحركة الفدائيين واجب على كل عربي وعربية، ذلك لأنّهم طرحوا القضية الفلسطينية كما يجب أن تطرح، وقد كنت دائمًا أرى أن على الشعب الفلسطيني أن يتولّى قضيّته، وأنّ الفدائيين هم الذين رفعوا القضية إلى مستواها».

وابتهج نزار وهو يستمع إطراء أم كلثوم على قصيدته، وطلب إليها إذا أعجبت بالقصيدة أن ينقلها لها بخط كبير، فهو عادة ما كان يكتب قصائده بخطّ صغيرٍ جِدًا، فقالت له أم كلثوم: «قبل كل شيء.. من تعتقد أنّه يستطيع تلحين مثل هذه القصيدة؟»

وفهم نزار ما ترمي إليه سيدة الغناء العربي، وأدرك أنّ أم كلثوم قد قرّرت أن تغنّي تلك القصيدة وتحقق له حلمه القديم، فقال لها: «سيدتي، كما ترين أنتِ، أنتِ التي ترين مثل هذه الأمور، ولا رأي لنا قبل رأيكِ».

فقالت له أم كلثوم: أنا أعتقد أن عبد الوهاب عشق تلحين الشعر، والقصائد الطويلة!

وأجاب نزار: «لاشك في هذا. إنَّ رأيكِ هو الصواب. محمد عبد الوهاب يلحن الشعر ويفهمه».

وفي الحال أمسكت أم كلثوم الهاتف، وطلبت الموسيقار محمد عبد الوهاب وقالت له: «الأستاذ نزار قباني موجود، ومعانا «حاجة حلوة» فهل تأتي إلينا أم نذهب إليك؟»

وأجاب عبد الوهاب: «بل أكون عندك خلال دقائق».

ومرّة ثانية، طلب نزار من السيدة أم كلثوم أن تسمح له بأن ينقل لها القصيدة بخط كبير، لأن عبد الوهاب يحب أن يقرأ القصائد بخط واضح، فقالت له أم كلثوم: «هذا ليس ضروريًا فسأتلوها أنا عليه».

وبدأت أم كلثوم تتلو القصيدة بعدما سمعتها مرة واحدة من نزار قباني، وكأنّها جهاز تسجيل التقط القصيدة وحفظها تمامًا عن ظهر قلب كما ألقاها عليها نزار قبل قليل. وما إن وصل عبد الوهاب إلى فيلا أم كلثوم حتى عانق صديقه نزار قباني، وصفيت غيوم كانت بينهما قبل الحديث عن القصيدة، ثم أعلن عبد الوهاب إعجابه الشديد بالقصيدة، وبدأ كالعادة يهتم بالتفاصيل، وسرعان ما أجريت بعض التعديلات في كلمات القصيدة حتى تساعد الموسيقار عبد الوهاب في التلحين.

وبعد جلسة عمل طويلة استغرقت ساعات، استأذن نزار لأنّه كان على موعد للسفر إلى السودان في اليوم التالي. وفي أثناء زيارته إلى السودان، كانت القصيدة قد جُهزت، وسجلت لتكون هدية من السيدة أم كلثوم لحركة المقاومة الفلسطينية، التي زاد نشاطها الفدائي بعد معركة «الكرامة» في الأغوار في 21 مارس 1968، إذ كانت تلك

المعركة نقطة تحول في مسيرة المقاومة الفلسطينية، فغيّرت الكثير من مبادئ الصراع بين القوى العسكرية النظامية المتمثلة في جيش الاحتلال الإسرائيلي وبين قوات ومجموعات المقاومة آنذاك.

وربما كانت قصيدة أصبح عندي الآن بندقية التي سجلتها أم كلثوم في فبراير 1969[1] بمصاحبة 60 عازفًا من أوركسترا القاهرة السيمفوني، هي الأكثر ثورية بين مجموع المُنجز الغنائي الوطني في مسيرة أم كلثوم، فالطبيعة الشعرية جاءت متوافقة تمامًا مع الروح الثورية النابعة من قاعدة الهرم السياسي وليست الصادرة من قمته وزعامته، إذ تحوّل الغناء من مدح ثورية الزعيم إلى مدح ثورية قواعد الثورة الذين يفترشون الأشواك والغبار ويلبسون المنيّة، وهي صورة متفردة لم تكرر في مجمل محصلة الغناء عند أم كلثوم، كما يضاف لتفرد تلك القصيدة أن هناك سرديتين غنائيتين لها؛ فقد سمحت أم كلثوم للموسيقار عبد الوهاب أن يسجل تلك القصيدة بصوته وهو ما كان على رأس قائمة الممنوعات في أعمالهما السابقة، لكن ذلك التسجيل لم يطرحه محمد عبد الوهاب تِجَاريًّا إلا عام 1985، أي بعد وفاة أم كلثوم بعشر سنوات كاملة، وهو ما يفرض التساؤل عن سبب تسجيل عبد الوهاب لتلك القصيدة بصوته رغم رفض أم كلثوم للمبدأ ذاته سابقًا؟

---

(1) دأب البعض على ربط تلك القصيدة بحادثة حريق «المسجد الأقصى» في 21 أغسطس 1969 وهذا غير صحيح؛ فقد أشارت صحيفة «الأهرام» إلى القصيدة للمرة الأولى في عددها الصادر يوم 20 يناير 1969، إذ أكدت الصحيفة انتهاء الموسيقار محمد عبد الوهاب من تلحين القصيدة، وبدأ الاستعداد لتسجيلها، ومن المؤكد أن أم كلثوم قد سجلت القصيدة في فبراير 1969، طبقًا لما نشرته مجلة «الموعد» اللبنانية في عددها الصادر في مطلع فبراير 1969، ثم في تحقيق مطول عن القصيدة في المجلة ذاتها في عدد 27 فبراير 1969، شُرحت فيه ظروف تسجيل القصيدة واللقاء الأول بين نزار قباني والسيدة أم كلثوم.

ففي مقال كتبه المايسترو سليم سحاب بعنوان «أم كلثوم.. يوميات الغناء» في مجلة «شؤون عربية» بتاريخ 7 يونيو 2019، يورد المايسترو الكبير فقرة مهمة قد تكون إجابة شافية على ذلك التساؤل: «لأغنية «طريق واحد» قصة طريفة، فنحن ندين لتعنّت أم كلثوم بوجود تسجيل للأغنية بصوت محمد عبد الوهاب. فعندما جاء وقت التسجيل، فوجئت «الست» بعدم وجود الأوركسترا، وبطلبِ مهندس الصوت منها وضعَ السماعة على رأسها، ولمّا أفهمها الملحن أنّ اللحن قد سبق تسجيله على سكك «تراكات» ولم يبقَ سوى تسجيل صوتها، وأن هذه هي أحدث طريقة للتسجيل، رفضت رفضًا قاطعًا معلّلة رفضَها بأنّ هذه الطريقة تلغي الانسجام المفروض وجوده بين المغني والعازفين عند التسجيل. ولم تقتنع بالفكرة إلا بعدما سجّل محمد عبد الوهاب الأغنيةَ بصوته وإسماعها لها».

وربما يؤكد سردية المايسترو سليم سحاب ويدعم روايته ما نشرته صحيفة «الأهرام» المصرية عن تسجيل القصيدة في عددها الصادر يوم 23 فبراير 1969: «للمرة الأولى رأت أم كلثوم وعبد الوهاب أن يسجلا موسيقى اللحن ثم يطلق المهندسون الموسيقى المسجلة في حجرة للتسجيل خالية من العازفين ليعيدوا تسجيلها مصحوبة بصوت أم كلثوم، وهو أسلوب عالمي جديد للتسجيل»، وبمقارنة سريعة بين التسجيلين نجد أن الطبقة الغنائية التي غنى منها محمد عبد الوهاب القصيدة هي ذاتها الطبقة الغنائية التي غنت أم كلثوم منها القصيدة، كما أن الطبيعة الأوركسترالية في التسجيلين شبه متطابقة، وهو ما يدعم فرضية أن الموسيقار محمد عبد الوهاب قد سجل القصيدة مُضطرًا لإقناع السيدة أم كلثوم بأساليب التسجيل المطور آنذاك، والأكيد أن أم كلثوم لم تستسغ تلك الطريقة في التسجيل، ولم تسعَ بعد ذلك إلى استخدامها إلا

مرة واحدة عام 1970، بل إنّها عندما سُئلت عن إمكانية معاودة التسجيل بتلك الطريقة الحديثة ضمن حوارها مع مجلة «الكواكب» في عدد 27 مايو 1969 أجابت «طريقة تسجيل «البندقية» لا تصلح للأغنية، فقد سُجّلت الموسيقى وحدها، ثم سُجّلت الكلمات معها، وهذه طريقة لا تصلح للأغنيات العاطفية، لأن موسيقاها مكتوبة للأوركسترا».

خامسًا: قصيدة «أجل إن ذا يوم لما يفتدي مصرا» 1969.

آخر وأقصر قصيدة وطنية سجلتها السيدة أم كلثوم لصالح الإذاعة المصرية، ولم تسجل بعدها إلا قصيدة رثاء جمال عبد الناصر عام 1970، صاغها الموسيقار رياض السنباطي من مقام «النهاوند»، وفي تلك القصيدة تحكمت ثلاثة أمزجة في لحن السنباطي: مزاج الطرب ومزاج التعبير وكذلك الدرامية، خصوصًا في مقدمتها الموسيقية ولازماتها الغنائية التي تقاطعت بعضها مع لوازم موسيقية أخرى من ألحان السنباطي ذاته، مثل الجملة الموسيقية الأخيرة للقصيدة التي تشبه تطابقًا مع جملة موسيقية سبق واستعملها السنباطي في قصيدة «حديث الروح» في مايو 1967. البطل في تلك القصيدة هو تلك المقدمة الموسيقية القصيرة التي صاغها رياض السنباطي مفتتحًا بها العمل، إذ تبدأ القصيدة بمقدمة مؤلّفة من فقرة واحدة مرسلة دون إيقاع، ثم تدخل بعد ذلك الآلات الموسيقية بأكملها لعزف تيمة موسيقية من مقام «النهاوند كردي» غلب عليها الانطباع السمعي بالصرامة والحسم، وبعد استهلال غنائي بدا وكأنّه حوراية يتحول المقام الغنائي إلى «عقد النوا أثر» تحديدًا في مقطع «فمصر هي المحراب/ والجنة الكبرى»، ثم يتغير مزاج اللحن تمامًا مع التوغل في الغناء وتغني أم كلثوم «سلامًا شباب النيلِ/ في كل موقفٍ» مع الإيقاع مصحوبًا بنقرات من جلاجل آلة الرق، وتظهر ملامح مقام «الراست»

الشرقي وكأنما أراد السنباطي التعبير عن شرقية مصر وعروبة أبنائها بلحن شرقي طربي المزاج. وفي المقطع الختامي للقصيدة، وتحديدًا عند جملة «ومن يغتدي للنصرِ ينتزع النصرَا»، يعود المقام إلى خط سيره الأول وذلك لأجواء «النهاوند الكردي»، ويلاحظ ثبات اللحن في حرف النون في كلمة «ينتزع» ليعطي الانطباع السمعي للكلمة من قدرة على الانتزاع، ثم تختم القصيدة بقفلة غنائية غير مستقرة وطويلة النغم في كلمة «النصرَا» حتى يوحي ذلك بالانتصار المستمر وغير المحدود، وهو الأثر ذاتُه الذي تتركه النهايات الدرامية المفتوحة، إذ تجعل المتلقي يضع تصورات افتراضية من وحي خياله، والجدير بالملاحظة أن القصيدة اعتمدت كليًا على الأداء الفردي دون وجود لأي «كورال» غنائي، وهو العنصر الذي سيطر وجوده تقريبًا على صناعة الأغنية الوطنية الكلثومية بعد النكسة، والقراءة النهائية للحن توحي بأن بعض الأبيات قد لُحّنت على عجل، إذ جاء لحن بعض المقاطع دون مستوى صنعة الأغنية السنباطية. ويؤكد محمد فائق (1929-) وزير الإرشاد القومي في عهد الرئيس جمال عبد الناصر (سبتمبر 1966-مايو 1971) أنّه هو الذي كلف السيدة أم كلثوم بتسجيل تلك القصيدة، وذلك كي تُصوَّر تليفزيونيًا وتُستخدم في رفع المعنويات وإعطاء الأمل في النصر. وفعلًا، وبعد ساعات من طلبه هذا، كانت أم كلثوم قد اختارت أبيات من قصيدة للدكتور إبراهيم ناجي يقول مطلعها «أجل إن ذا يوم لمن يفتدي مصرا» وتلت عليه عبر الهاتف سبع أبيات من أصل سبعة عشر بيتًا هي مجمل أبيات القصيدة. وبعد ثلاثة أيام من طلب الوزير، كانت السيدة أم كلثوم تستعد لتسجيل القصيدة بعدما أتم رياض السنباطي تلحينها!

زجل في السيدة أم كلثوم نُشر في مجلة «الكواكب» الصادرة في 25 يوليو 1967.

مصادر هذا الفصل:

1- مجموعة باحثين، في تشريح الهزيمة لمجموعة، دار المرايا للإنتاج الثقافي، الطبعة الثانية، القاهرة 2017.

2- د. ياسمين فراج، الغناء والسياسة في تاريخ مصر، دار نهضة مصر، القاهرة 2014.

3- د. ناهد عبد الحميد، الغناء بين الفن والسياسة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2020.

4- ياسر عبد الله، أم كلثوم صوت الوطن ونكسته، أم كلثوم ومجهودها الحربي، موقع معازف.

5- مجلة شؤون عربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، عدد 7 يونيو 2019.

6- صحيفة اليوم السابع، القاهرة، عدد 19 أكتوبر 2018.

7- مجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، عدد أغسطس 1967.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 20 يناير 1969.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 2 فبراير 1969.

10- مجلة الموعد، لبنان، عدد 27 فبراير 1969.

11- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 26 مارس 1968.

12- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 21 نوفمبر 1967.

13- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 27 مايو 1969.

14- مجلة الهلال، القاهرة، عدد أكتوبر 1971.

المحطة الأخيرة في أبو ظبي

شكّل عام 1971 منعطفًا حاسمًا في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة وإمارة أبو ظبي بالتحديد، فبعيدًا عن النشاط الدبلوماسي والوطني الذي عاشته إمارة أبو ظبي في عام 1971، شهد ذلك العام بلوغ ذروة التواصل والمشاورات بين حكام الإمارات المختلفة لتفعيل الانسحاب البريطاني من تلك المنطقة، بعدما أعلنت بريطانيا عام 1968رغبتها في إنهاء المعاهدات بينها وبين الإمارات التي استمرت أكثر من قرن ونصف من الزمان تقريبًا، وإنهاء التعاقدات الاستعمارية القديمة، والانسحاب من منطقة الخليج نهاية عام 1971، وقد أسفرت تلك المشاورات بين حكام الإمارات المختلفة عن تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة في 18 يوليو 1971م، حين قرّر حكّام ست إمارات من الإمارات المتصالحة، تكوين دولة الإمارات العربية المتحدة، ليُعلنَ رَسْمِيًّا عن تأسيس دولة اتّحادية ذات سيادة في 2 ديسمبر 1971، وفي أثناء ذلك المجهود الوطني والدبلوماسي في منطقة الإمارات العربية، وتحديدًا في 13 أبريل 1971، كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم إمارة أبو ظبي قد بدأ جولة في عدد من الدول العربية شملت كلًّا من مصر والمغرب بدعوتين من الملك المغربي الحسن الثاني والرئيس المصري أنور السادات، للتشاور

معهما في مباحثات الاتحاد والتأكيد على أن إمارة أبو ظبي والخليج العربي لا يمكن أن يكون بمعزل عن المعركة العربية، وأن العدو واحد والمصير مشترك. وخلال زيارته للقاهرة، أوفد الشيخ زايد بن سلطان مندوبين عنه هما الشاعر الإماراتي الكبير مانع سعيد العتيبة الذي كان يشغل آنذاك منصب وزير البترول والصناعة في الإمارات، والسيد عبد المنعم الملّواني المستشار الصحفي لولي العهد الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان إلى منزل السيدة أم كلثوم في حي الزمالك بالقاهرة، لنقل تحية الشيخ زايد للسيدة أم كلثوم والتباحث معها في شأن إقامة حفلات غنائية في إمارة أبو ظبي تزامنًا مع احتفالات عيد الجلوس الخامس للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وقد رحبت أم كلثوم بالدعوة وأبدت موافقة مبدئية على الغناء في دولة الإمارات الوليدة، وطلبت من مندوبي الشيخ زايد أن ينقلا إليه تحياتها، وأكدت لهما أنّه لولا مرضها ووعكة البرد التي ألمت بها لكانت زارته في قصر «القبة» حيث ينزل ضيفًا على الرئيس السادات، وذلك للترحيب به وتأكيد تقديرها لشخصه ولمجهوده تجاه القضية العربية.

وعقب انتهاء جولة الشيخ زايد العربية وعودته إلى إمارة أبو ظبي، أرسل الشيخ زايد في أغسطس 1971 رسالةً إلى السيدة أم كلثوم مع الصحفي عبد المنعم الملّواني السكرتير الصحفي الخاص بولي العهد، وقد حملت الرسالة بكلماتها الراقية الكثير من معاني التقدير للسيدة أم كلثوم وفنها ودورها في دعم المجهود الحربي، هذا نصها:

«حضرة السيدة الفاضلة كوكب الشرق أم كلثوم المحترمة، بعد التحية:

إنّه لمن دواعي سرورنا دعوة سيدة الغناء العربي الأولى لزيارة أبو ظبي، للاطّلاع على معالمها من كثب، ومشاهدة ما حققته من

إنجازات خلال فترة وجيزة. كما أنّه سيكون مبعث فرح وسُرور لنا أن نمتع الأذن بسماع الصوت الشجي والنغم الجميل، آملين أن يتاح لكم الوقت للقيام بهذه الزيارة، وذلك بمناسبة العيد الوطني لبلادنا، متمنين لكم موفور الصحة، سائلين الله أن يوفقكم ويرعاكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان،

حاكم أبو ظبي.[1]»

وبمجرد تلقي السيدة أم كلثوم تلك الرسالة، أعلنت الصحف قبولها دعوة حاكم أبو ظبي للغناء لشعب الخليج للمرة الأولى، والمشاركة في احتفالات عيد الجلوس الخامس للشيخ زايد بن سلطان، الذي تأجل بسبب نشاط الشيخ زايد في عام 1971 وتعدد جولاته الخارجية ومهامه السياسية، فبدل أن يقام الاحتفال في السادس من أغسطس 1971 تقرر تأجيله ليصبح في 15 أكتوبر 1971، إذ تذكر صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 29 أغسطس 1971 أنّ السيدة أم كلثوم وافقت على إحياء حفلتين يومي 15 و17 أكتوبر، إحداهما في إمارة أبو ظبي والأخرى في مدينة العين وأنّها ستبدأ موسمها الغنائي بحفلتي الخليج، وهذا ما لم يحدث؛ لم تغنّ أم كلثوم في تلك الزيارة إلا في إمارة أبو ظبي فقط، وكذلك تغيرت مواعيد احتفالات العيد الوطني الخامس للمرة الأخيرة لتصبح في الثامن والعشرين من نوفمبر لعام 1971. ويذكر الكاتب والأديب محمد المر في كتابه الوثائقي الهام «أم

---

(1) نشرت تلك الرسالة للمرة الأولى في مجلة «الكواكب» في عددها الصادر يوم 14 ديسمبر 1971، وقد أعاد الكاتب والأديب الإماراتي محمد المر نشرها في كتابه المهم «أم كلثوم في أبو ظبي»، الذي وثق فيه حفلتي السيدة أم كلثوم في أبو ظبي عام 1971.

كلثوم في أبو ظبي» الذي أرشف فيه لتلك الزيارة التاريخية والمرتبطة بميلاد دولة الإمارات العربية المتحدة، تفاصيل طريقة الاحتفالات بأعياد الجلوس في إمارة أبو ظبي، التي كانت تقام هناك كل عام تقريبًا ابتهاجًا بعيد الجلوس، ولم تتوقف إلّا عامًا واحدًا في 1967 حين أمر الشيخ زايد بإلغاء الاحتفالات كافة تضامنًا مع مصر والبلاد العربية التي تعرضت لهجوم 5 يونيو 1967، فكانت تقام في مدينة أبو ظبي عروض عسكرية واحتفالات شعبية تشمل صورًا من الثقافة الشعبية لسكان تلك المناطق الخليجية، ويتبارى الشعراء في كتابة معلقات مديح تليق بحجم المناسبة، كما كان يشهد قصر الحكم الرئيسي في إمارة أبو ظبي والمعروف باسم قصر «المنهل» توافد حكام الإمارات وقيادات الشعوب الخليجية للتهنئة بعيد الجلوس، ولما كان عام 1971 هو عام الوحدة الإماراتية، كان لا بد من أن يكون الاحتفال على قدر المناسبة، فرأى المنظمون للاحتفالات في إمارة أبو ظبي أن تكون احتفالات عام 1971 على أعلى مستوى فني، ولم يكن أحد وقتئذ يحظى بمكانة فنية تفوق مكانة السيدة أم كلثوم. وعقب قبول السيدة أم كلثوم الدعوة للغناء في الإمارات، تشكلت لجنة الاحتفالات لذلك العام وقد ضمّت كلًا من: الشاعر والوزير مانع سعيد العتيبة، والشيخ فيصل القاسمي وكيل وزارة الدفاع، وعبد الله النعيمي وكيل وزارة الإعلام والسياحة، والصحفي عبد المنعم الملّواني. وأشرفت وزارة الدفاع التي كان يرأسها ولي العهد الشيخ خليفة بن زايد على الإعداد لاحتفالات ذلك العام وحفلتي السيدة أم كلثوم بالتحديد، اللتين كانتا مثل هدية من ولي العهد لوالده الشيخ زايد بن سلطان في عيد جلوسه الخامس.

ونظرًا لطبيعة المسارح الصغيرة في دولة الإمارات، لم يكن

هناك مسرح قادر على استيعاب الإقبال الجماهيري المتوقع على الحفل المرتقب، سواء كان هذا الإقبال من عشاق السيدة أم كلثوم من المواطنين أو من الوافدين على دولة الأمارات العربية، ففي ذلك الوقت كانت أكبر قاعة سينما هناك لا يزيد عدد مقاعدها على 600 مقعد تقريبًا، كما أنّه لا يمكن بناء مسرح جديد خلال الأيام القليلة التي فصلت بين دعوة السيدة أم كلثوم بشكل رسمي لزيارة دولة الإمارات وبين وصولها فعليًا إلى منطقة الخليج وموعد حفلها الأول، ولهذا صدرت الأوامر العليا من الشيخ زايد بن سلطان، بضرورة التنسيق بين الوزارات المختلفة وعلى رأسها وزارة الدفاع في بدء التجهيز والإعداد لمسرح مؤقت يكون قادرًا على استيعاب الحدث ويليق بالسيدة أم كلثوم. وخلال أيام من صدور الأوامر، اتفق مع إدارة النادي الأهلي (نادي الوحدة الإماراتي حاليًا) في إمارة أبو ظبي على بناء مسرح مؤقت في أرضه يتسع لنحو أربعة آلاف مقعد، وعلى مساحة تبلغ 4800 متر مربع، وهي المساحة التي تشمل حَالِيًا شارع «راشد» في مدينة أبو ظبي.

وقد تكفلت وزارة الدفاع بتكلفة الإنشاء التي بلغت حسب ما ذكرت صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر في 28 نوفمبر 1971 ما يوازي 75 ألف جنيه مصري، وقد عملت جميع الوزارات والدوائر الحكومية في دولة الإمارات على تسهيل عملية إعداد المسرح وتجهيزه بما يلزم من معدات خاصة بالصوت والنقل السينمائي والتليفزيوني. وعلى مدار 30 يومًا، ضُوعِف العمل في المسرح لإنجازه وإعداده بما يليق بأهمية الحدث والزائرين، ولم ينتهِ العمل فيه بشكل كامل إلا قبل 4 ساعات تقريبًا من موعد رفع الستار عن السيدة أم كلثوم في ليلة حفلها الأول في أبو ظبي يوم 28 نوفمبر 1971. وتذكر صحيفة «الأهرام»

في عددها الصادر يوم 1 ديسمبر 1971 في ركن «أخبار الصباح» أنَّ القوات المسلحة في أبو ظبي قدّمت محوّلًا كهربيًا ضخمًا سعة 750 كيلو فولت، لكي يعمل على الفور في حالة انقطاع التيار الكهربائي عن المسرح الذي ستغني عليه أم كلثوم، وذلك نتيجة الضغط المتوقع أن تتحمله محطة الكهرباء، خصوصًا بعدما استعدت أبو ظبي لكي تتحول إلى مدينة النور في ليلة عيد جلوس الحاكم، وقد أشارت الصحف الإماراتية إلى أن الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان ولي العهد قد وجه الدعوة بمناسبة الاحتفالات بعيد الجلوس إلى عدد من الشخصيات العربية البارزة في منطقة الخليج وباقي الدول العربية، وذلك لحضور الحفل الغنائي الأول لسيدة الغناء العربي في إمارة أبو ظبي، الذي سيحضره الشيخ زايد نفسه.

وتماشيًا مع الغرض النبيل الذي أعلنته السيدة أم كلثوم منذ عدوان 5 يونيو 1967 من تخصيص أجر حفلاتها لمساندة المجهود الحربي في مصر، ارتأت اللجنة العليا المشرفة على الاحتفالات في الإمارات فتحَ الحفل الثاني للجمهور وعدم قصره على الشخصيات الكبرى داخل الإمارات والخليج العربي، وإتاحة الفرصة لأهل الخليج للمشاركة في حملة السيدة أم كلثوم في دعم المجهود الحربي وإعادة بناء القوات المسلحة المصرية، وعلى ذلك فقد حددت اللجنة العليا أسعار التذاكر على النحو التالي: 15 دينارًا و10 دنانير و5 دنانير، وكان منفذ بيع التذاكر في سينما «إل دورادو» في إمارة أبو ظبي، وقد استمرت عملية بيع التذاكر وحجزها حتى نهاية الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر من عام 1971 أي قبل موعد الحفل الأول بأسبوع تقريبًا.

وقد وقع الاختيار على الإعلامي والشاعر خليل عيلبوني ليكون مذيعًا للنقل الخارجي في الحفل في إذاعة أبو ظبي. وفي عدد صحيفة

«الاتحاد» الإماراتية الصادر في 28 مايو 2009، كتب الإعلامي والشاعر خليل عيلبوني ذكرياته عن ذلك الاختيار «وقع عليّ الاختيار لأكون مذيع النقل الخارجي بالنسبة إلى الإذاعة، وكان ذلك يعني بذل الجهود الكافية للتزود بمعلومات خاصة بكوكب الشرق تتعلق بحياتها ومسيرتها الفنية والأثر الذي حفرته هذه الفنانة العظيمة في ذاكرة الأمة العربية، عرفت على سبيل المثال أن أول أسطوانة سجلتها أم كلثوم في مسيرتها الفنية كانت في عام 1924 لشركة أوديسون[1] وتقاضت عنها أجرًا وصل في ذلك الوقت إلى خمسين جنيهًا، عرفت أيضًا أنّ انطلاقتها الكبرى كانت مع افتتاح الإذاعة المصرية عام 1934، حيث بدأ صوتها يدخل إلى كل بيت.. أول فيلم لها كان «وداد»، ولكن الدور الأكبر الذي قامت به تجاه بلادها كان عام 1967 عندما ظلت تجوب البلاد العربية عامًا كاملًا وتحيي فيها حفلاتها الغنائية لصالح المجهود الحربي، وبحكم قربي من معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة الذي كان وزير البترول والصناعة في أبو ظبي في ذلك العام الذي وصلت فيه أم كلثوم إلى أبو ظبي عام 1971، فقد أتيحت لي فرصة التعرف على شخصيتها عن قرب من خلال الحوارات التي دارت بينها وبين معاليه، الذي كلفه المغفور له بإذن الله تعالى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (طيّب الله ثراه) بأن يكون رئيس بعثة الشرف المرافقة لهذه الفنانة الكبيرة خلال وجودها في أبو ظبي، لاحظت أنّها مثقفة واسعة الاطلاع، تجيد اللغة العربية وتحفظ الشعر العربي القديم

---

(1) ربما هذا خطأ مطبعي، أو سهوًا من الكاتب، فالشركة أسمها «أوديون»، وليس «أوديسون»، وهي شركة كان وكيلها في مصر لينو باروخ، وقد سجلت أسطوانات لعديد من المطربين منهم: سيد درويش وحياة صبري، والسيدة أم كلثوم والسيدة منيرة المهدية وغيرهم من الملحنين والمطربين الآخرين.

والحديث، وعندما عرض عليها معاليه إحدى قصائده أبدت إعجابها بها وأبدت استعدادها لغنائها، ولكن على ما يبدو فإن معاليه لم يتابع معها فيما بعد عملية التنفيذ».

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من نوفمبر 1971 وتحديدًا في الساعة السابعة والنصف صباحًا، وصلت السيدة أم كلثوم والوفد المرافق لها لمطار القاهرة، إذ كان من المقرر أن تغادر القاهرة متوجهة إلى أبو ظبي في تمام الساعة الثامنة صباحًا، على متن طائرة خاصة للخطوط الجوية الكويتية، لكن الضباب الكثيف حال دون هبوط الطائرة في مطار القاهرة في فجر ذلك اليوم، مما اضطرها إلى الهبوط في مطار الأقصر، وأدى ذلك التغير المفاجئ في مواعيد السفر إلى بقاء السيدة أم كلثوم ومن معها ما يقرب من أربع ساعات في مطار القاهرة، فُتحت لها خلالها قاعة كبار الزوار. وفي انتظار وصول الطائرة، استغلّت أم كلثوم تلك الساعات في محادثات طويلة مع المهندس عثمان أحمد عثمان الذي رافقها في تلك الرحلة إلى الإمارات، وفي تلك المحادثات سمعت السيدة أم كلثوم عن المشروع الذي رصدت له الدولة المصرية ما يقرب من 200 مليون جنيه على مدى 20 عامًا وعلى أساس 10 ملايين جنيه سنويًا تنفق لبناء القرى النموذجية التي تغير بالتدريج شكل الريف المصري كله، وكان من المقرر أن تكون قرية أم كلثوم النموذجية هي أول قرية في ذلك المشروع، ومن أجل ذلك قدمت السيدة أم كلثوم قطعة أرض بجوار قريتها «طماي الزهايرة» لتساهم في ذلك المشروع الكبير، وقد أشرف المهندس عثمان أحمد عثمان على بناء قرية أم كلثوم الجديدة، وكان من المقرر أن تهدي السيدة أم كلثوم قريتها تلك إلى مشروع القرى النموذجية التي كانت تخطط له الدولة المصرية.

كما ناقشت مع المهندس عثمان خطة عام 1972 المقترحة من أجل المُهجّرِين من أبناء القناة، وتابعت معه آخر مستجدات عملية توزيع ماكينات الخياطة على معسكرات التهجير، وكذلك مشروع الملابس الصوفية التي بدأ توزيعها قبل أيام من ذلك التاريخ في عيد الفطر هديةً لأبناء القناة والمُهجرِين، واتفقت السيدة أم كلثوم مع المهندس عثمان أحمد عثمان على ضرورة توزيع نظارات خاصة تحمي عيون سكان معسكرات التهجير من رمال الصحراء على أن يتم ذلك مع اقتراب عيد الأضحى المبارك في يناير 1972. وفي النهاية وعندما وصلت الطائرة إلى مطار القاهرة واستعدت للطيران، أجّلت سيدة الغناء موعد الطيران دقائق أخرى لأداء صلاة الجمعة، ورفضت أن تسافر قبل أن تصلي في المطار. وفي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، صعدت أم كلثوم وفرقتها الموسيقية ووفدها المرافق الطائرة متجهين إلى الخليج العربي.

وكالعادة، كان يرافق السيدة أم كلثوم وفد كبير في رحلات المجهود الحربي، وقد قسّم الكاتب محمد المر في كتابه «أم كلثوم في أبو ظبي» ذلك الوفد إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى تضم أقرباء السيدة أم كلثوم وهم: المهندس محمد الدسوقي مدير أعمال السيدة أم كلثوم ومرافقها الشخصي في كل رحلات المجهود الحربي، وشقيقه رفعت الدسوقي، وبثينة محمد حفيدة الشيخ خالد إبراهيم شقيق السيدة أم كلثوم، والمجموعة الثانية هم أعضاء فرقتها الموسيقية وقد بلغ عددهم في تلك الرحلة 21 عازفًا، والمجموعة الثالثة والأخيرة التي رافقت السيدة أم كلثوم في رحلتها إلى دولة الإمارات هي الوفد الإعلامي والتليفزيوني، الذي ضم عددًا كبيرًا من الشخصيات الإعلامية والصحفية في مصر وكان منهم: الأستاذ

سعد زغلول نصار الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب مدير إذاعة صوت العرب، والإذاعية الكبيرة سامية صادق، والصحفية الشابة آنذاك سكينة فؤاد ممثلة عن مجلة «الإذاعة والتليفزيون»، والإعلامي والإذاعي سعيد عمارة وهو الذي عمل بعد ذلك مديرًا لإذاعة الإمارات العربية المتحدة من الشارقة وطوّرها حتى جعلها من الإذاعات الهامة في منطقة الخليج العربي، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الإعلاميّين والصحفيّين العاملين في أهم المؤسسات الصحفية في مصر مثل: «الأهرام» و«الأخبار» و«الجمهورية» و«دار الهلال». وكانت سبقت السيدة أم كلثوم بأيام إلى الإمارات بعثة من التليفزيون المصري تضم: عثمان العدل ورضا الشافعي وهاني الشافعي ومصطفى البيومي لتغطية احتفالات الجلوس وقيام دولة الاتحاد وتغطية حفلتي السيدة أم كلثوم هناك، إذ كان من المقرر أن تصوّر البعثة فيلمًا عن إمارة أبو ظبي وإمارات الخليج مستعرضة تاريخها وتقاليدها وتطورها على يد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وقابلت البعثة وكيل وزارة إعلام أبو ظبي راشد عبد الله وأهدته باسم تليفزيون القاهرة عدّةَ تسجيلات من برامج تليفزيونية مصرية، وناقشت معه إنتاج فيلم تليفزيوني مشترك بين أبو ظبي والقاهرة عن حياة السيدة أم كلثوم في 30 حلقة تذاع خلال رمضان عام 1972.

وفي الساعة الخامسة وعشر دقائق، وقبيل غروب شمس يوم 26 نوفمبر 1971، هبطت الطائرة الكويتية التي تقل أم كلثوم ووفدها المرافق في مطار أبو ظبي، حيث كان في استقبالها العديد من الشخصيات الإماراتية المهمة وعلى رأسهم: وزير البترول والصناعة الشاعر مانع سعيد العتيبة، والسيد سعيد الدرمكي مدير دائرة التشريفات في إمارة أبو ظبي، والسيد علي الشرفا نائب مدير دائرة التشريفات، والفنانة

والإذاعية الإماراتية رزيقة الطارش التي عُيِّنَت رئيسة فريق الاستقبال الفني لسيدة الغناء العربي، وقد أعطيت التعليمات بفتح قاعة الشرف في مطار أبو ظبي لأم كلثوم ومن معها تكريمًا لدورها ومكانتها التاريخية والفنية، وكان من المقرر أن تنزل السيدة أم كلثوم في قصر «المِشرف» وهو القصر الذي سبق وأشرف على بنائه المهندس عثمان أحمد عثمان وخصصه الشيخ زايد بن سلطان قصرًا للضيافة، لكنّ السيدة أم كلثوم، وفي أثناء رحلتها للإمارات، غيرت رأيها وقررت أن تنزل في فندق «العين بالاس» مع الوفد الإعلامي المرافق لها، دون أن تبدي سببًا لهذا التغيير، وإن كان الإعلامي سعيد عمارة قد صرح بعد ذلك أن السيدة أم كلثوم قد ساءها ما قد سمعته في الطائرة عن تصرفات بعض مهندسي الديكور الإيطاليين في ذلك القصر قبل أن يحوَّل إلى قصر للضيافة، فقررت أن تنأى بنفسها عن سمعة ذلك المكان وتنزل مع وفدها الإعلامي في فندق «العين بالاس» الواقع بالقرب من كورنيش مدينة أبو ظبي.

وعقب وصول السيدة أم كلثوم إلى إمارة أبو ظبي، وجهت رسالة شكر نشرتها صحيفة «الاتحاد» الإماراتية على صفحاتها الأولى، شكرت فيها السيدة أم كلثوم الحكومة والشعب الإماراتي على حفاوة الاستقبال التي شهدها مطار أبو ظبي، وكان هذا نص تلك الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. يسعدني أن أوجه هذه التحية على صفحات صحيفة الاتحاد إلى عظمة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبو ظبي وشعبه الكريم وأشكركم على الحفاوة التي قوبلت بها منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها إلى هذه الأرض العربية الغالية. ويزيد من سعادتي أنّني قد جئت إلى أبو ظبي في مناسبة عيد جلوس صاحب العظمة الشيخ زايد والاستعداد للإعلان عن قيام دولة اتحاد

الإمارات العربية المتحدة التي سوف تضيف إلى الأمة العربية رصيدًا جديدًا من القوة والدعم، ونسأل الله القدير أن يحقق لنا العزة والنصر.
أم كلثوم»

لم يكن يوم الثامن والعشرين من نوفمبر 1971 يومًا عَادِيًا في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة، بل كان إيذانًا ببدء مرحلة حيوية جديدة في تاريخ تلك المنطقة العربية وبناء نظام سياسي جديد وإعادة صياغة الأسس الاجتماعية والسياسية في الإمارات بما يتفق مع إجراءات الوحدة بين الإمارات المتصالحة، وقد شاءت الظروف أن ترتبط تلك الأحداث الهامة بتلك الزيارة التاريخية التي قامت بها السيدة أم كلثوم لمنطقة الخليج وغنائها للمرة الأولى على ضفاف الخليج العربي، ذلك الأمر الذي جعل غناء أم كلثوم في ليلة 28 نوفمبر وليلة 30 نوفمبر 1971 حدثًا فنيًا له أبعاده السياسية والتاريخية، وهو ما ركز عليه كتاب الخليج العربي الذين تباروا في كتابة مقالات المديح والترحيب بسيدة الغناء. ففي صباح الحفل الأول 28 نوفمبر 1971، كتب الأديب والسياسي ووزير الخارجية الإماراتي عبد الله راشد النعيمي فيما بعد مقالًا في صحيفة «الاتحاد» الإماراتية، معبرًا فيه عن فرحته بذلك الحدث وتلك الزيارة التاريخية لسيدة الغناء، التي سيرتحل فيها صوتها للمرة الأولى إلى الأراضي العربية كافة، صادحًا من مدينة أبو ظبي، وقد قال في ذلك المقال: «اليوم ستشدو في سماء الخليج العربي للمرة الأولى سيدة الغناء وكوكب الشرق أم كلثوم، واليوم تسمع الأمة العربية سفيرة الغناء وهي تشدو على مسرح وزارة الدفاع في أبو ظبي، صوت أم كلثوم من هنا وعبر إذاعتنا وإذاعات القاهرة في الوقت نفسه، وما كانت سفيرة الغناء لتقف بيننا تشدو لولا أنّها مناسبة رائعة لرجل عظيم، وما كانت أم كلثوم تأتي ومعها هذه

الوفود لولا النهضة الكبيرة التي شيدها صاحب السمو حاكم البلاد، ولقد كان المواطنون في جميع أنحاء الأمة العربية ومن بينهم ضيفة أبو ظبي الكبيرة يعرفون أن هذه الأرض التي جار عليها الزمن وظلمها فعاشت في الظل والنسيان فترات طويلة من التاريخ، بينما دول العالم تتقدم حتى وصلت القمر، وجاء زايد ليضع أبو ظبي بالعمل والعرق والجهد المتواصل بين دول العالم المتحضرة، فتحية للرجل في عيد جلوسه الخامس، ومرحبًا وأهلًا بسفيرة الغناء العربي أم كلثوم».

ومع الساعات الأولى من صباح يوم الثامن والعشرين من نوفمبر 1971، بدأت مراسم الاحتفالات الرسمية في إمارة أبو ظبي. ففي الساعة التاسعة والنصف من صباح ذلك اليوم، وصل الشيخ زايد بن سلطان إلى منصة احتفالات عيد الجلوس، وما إن دخل المنصة حتى عزفت فرق الموسيقى العسكرية السلام الأميري، وبعده مباشرة بدأ العرض العسكري الذي كان الإشارة الأولى لبدء احتفالات دولة الإمارات العربية بعيد الجلوس الخامس وقيام دولة الاتحاد، وقد ضم العرض العسكري وحدات من القوات البرية والبحرية والجوية فضلًا عن مشاركة رمزية لقوات الشرطة والأمن العام، كما شارك طلبة وطالبات مدارس إمارة أبو ظبي بتقديم عرض رياضي ضمن الاستعراضات، وفي النهاية مرت أمام المنصة عربات الزهور التي جهزتها الوزارات والدوائر الحكومية في إمارة أبو ظبي تحية للقائد رمز الاتحاد.

وقد ألقى الشيخ خليفة بن زايد ولي العهد في إمارة أبو ظبي كلمةً قصيرة بتلك المناسبة، رحب فيها بالضيوف وأشاد فيها بحجم الإنجازات التي شهدتها البلاد على مدار خمس سنوات منذ أن تسلم والده مقاليد الحكم في أغسطس 1966، ولم ينسَ الشيخ خليفة أن

يشير في كلمته إلى القضية العربية ومدى دعم أبو ظبي لقضية التحرير وتخطي محنة الشعوب العربية، وفي النهاية هنأ شعب الإمارات بتحقيق الاتحاد الذي ذكر أنّه سيقام رَسمِيًّا بعد خمسة أيام من ذلك التاريخ وتحديدًا في الثاني من ديسمبر 1971. وبعد ظهر ذلك اليوم، استقبل الشيخ زايد بن سلطان في قصر «المنهل» الوفود الرسمية التي أتت للمشاركة في ذلك الحدث المهم في منطقة الخليج، وكذلك الوفود الشعبية التي سعت لمباركة قيام الاتحاد الإماراتي، وقد أقام لهم الديوان الأميري مأدبة غداء كبرى حضرها الشيخ زايد بن سلطان وأنجاله، وبعد الغداء شهد الشيخ زايد وضيوفه جانبًا من الاحتفالات الشعبية وسباق الهجن العربية.

وقرب التاسعة مساءً كان الموعد معها، سيدة الطرب وسيدة العروبة؛ فبينما كان الآلاف يتدفقون على مسرح وزارة الدفاع في مدينة أبو ظبي، والزحام يخنق بوابات المسرح الكبير الذي أعد خِصّيصَى ليشهد تلك الليلة الساهرة، فشلت قوة مسلحة مكونة من 300 جندي في مقاومة المتدفقين على المسرح وتحطمت البوابة الرئيسية، واندفعت الكتل البشرية من أبناء الخليج داخل المسرح ليشاهدوا تلك المعجزة المصرية التي تجاوزت السبعين من عمرها، ولكنها ما زالت قادرة على إثارة عاطفتهم وخيالاتهم، وفي الوقت ذاته كانت الملايين في إمارات الخليج والجزيرة العربية وكل بلاد العرب يسرعون إلى أجهزة الراديو ويضبطون مؤشرات أجهزتهم على إذاعة أبو ظبي، ومن يمتلك منهم جهاز تليفزيون استعد لمشاهدة الحفل وتفاصيل تلك الليلة التاريخية، فقد كان ذلك الحفل هو أول مناسبة تذاع على الهواء مباشرة في دولة الإمارات العربية المتحدة، وكان العالم العربي كله على موعد مع صوتها الذي سيملأ سماء أبو ظبي

ترنيمًا وتسبيحًا، وفي ظرف دقائق امتلأت القاعة بما يزيد على خمسة آلاف مستمع برغم أن طاقة المسرح لم تكن تسمح بأكثر من أربعة آلاف مقعد فقط، لكن الجميع أدرك أنّها لحظة من لحظات العمر التي لا تعوض، فافترش بعضهم جنبات المسرح وجلس البعض الآخر في المسافة الفاصلة بين المسرح والمقاعد المخصصة للشيخ زايد ومن معه، وحول المسرح كانت هناك ألوف أخرى تقف وتحتشد وتكتفي بأنّها بقرب المكان الذي ستغني فيه كوكب الشرق وسيدة الطرب أم كلثوم.

وفي الساعة التاسعة والنصف اضطرت قوات الأمن إلى إغلاق الأبواب، وفي الساعة العاشرة إلّا ربعًا وصل ركب الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وكان في صحبته الشيخ خليفة ولي عهده، وما إن دخل الشيخ زايد بن سلطان القاعة حتى ضجت القاعة بالتصفيق والهتاف للقائد الذي حقق حلم الاتحاد. وفي الصف الأول، جلس الشيخ زايد وولي العهد الشيخ خليفة بن زايد وشيوخ آل نهيان والشيخ سلطان بن محمد القاسمي أمير الشارقة والشيخ حميد بن راشد النعيمي والشيخ محمد بن خالد، والعديد من شيوخ الخليج وشخصياته البارزة، بالإضافة إلى مجموعة من ضيوف الذين وفدوا على مدينة أبو ظبي للمشاركة في الاحتفالات ومباركة قيام الاتحاد، ومنهم: الشيخ بدر محمد الأحمد الصباح مدير مكتب الكويت في الإمارات، ووزير التربية والتعليم العراقي أحمد عبد الستار الجواري وغيرهم من كبار الشخصيات العربية. وفي الساعة العاشرة تمامًا بدأ الستار القرمزي في التحرك، لينفرج عن سيدة الطرب العربي وهي ترتدي فستانًا مطرزًا يميل لونه إلى الصفار الغامق وتمسك في يديها منديلًا أصفر، وهو الفستان ذاته الذي سبق وارتدته في حفل 5 ديسمبر 1968 وحفل السودان الأول في 26

ديسمبر 1968، وبمجرد أن أطلت أم كلثوم على جمهور الخليج العربي، استقبلت بعاصفة من التصفيق دامت أربع دقائق، ووقف الشيخ زايد بن سلطان ومن معه من آل نهيان يصفقون ترحيبًا بالزائرة الكبيرة، وقد ردت أم كلثوم التحية بانحناءة بسيطة وابتسامة عريضة لذلك الجمهور الكريم، وفي وصلتها الأولى غنت قصيدة «أغدًا ألقاك»[1] من كلمات الشاعر السوداني الهادي آدم وألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب، التي غنتها في تلك الليلة للمرة الثالثة في مدة تجاوزت ثلاثًا وستين دقيقة تقريبًا، ولم تخلُ الوصلة الأولى من بعض التفاريد الكلثومية، فارتجلت أم كلثوم ارتجالًا سريعًا عند مقطع «فارحم القلب الذي يصبو إليك»، وكان استقبال الجماهير الخليجية لتلك القصيدة لا يقل حفاوة عن استقبالها في مصر وقت أن قدمت للمرة الأولى في موسم أم كلثوم الغنائي السابق، فاستعادت الجماهير مقاطع القصيدة فأعادت أم كلثوم المقطع الأول ثلاث مرات، وقاطعها الجمهور بالتصفيق والهتافات التقليدية التي عُرفت عن حفلات أم كلثوم، وبعد أن أنهت السيدة أم كلثوم غناء المقطع الأخير من القصيدة وأُسدل الستار، أصرت الجماهير على الإعادة، فانفرج الستار مرة أخرى وعادت أم كلثوم لغناء المقطع الأخير من بدايته.

وعقب انتهاء الوصلة الأولى، وفي الاستراحة ما بين الوصلتين، استقبلت السيدة أم كلثوم في حجرتها كبار الزوار الذين أرادوا تحيتها وتهنئتها على نجاحها في الخليج العربي، وفي كل حواراتها مع كبار الشخصيات الخليجية كان اسم مصر يتردد، الجميع يتعامل معها على أنّها رمز لمصر وصورة حية من قدرة الأمة المصرية على

(1) غنت السيدة أم كلثوم تلك القصيدة للمرة الأولى في حفلِ ساهرِ أقيم في دار سينما قصر النيل ليلة 6 مايو 1971.

البقاء والتجدد رغم كل المصاعب. كان وجود مئات الوجوه العربية حولها لمحة تؤكد أن التجمع العربي ليس مستحيلًا، لولا أن الفرصة معطاة للتفرقة لتلعب دورها، لدرجة أنّها صرّحت إلى الصحفية سكينة فؤاد في تلك اللحظة أن أمنيتها الوحيدة بعد تحقيق النصر وتحرير الأرض أن تعيش وتشهد الكلمة العربية الموحدة في مجالات المصير والمستقبل لهذه الأمة الأصيلة. وقد فوجئت أم كلثوم بأن العديد من المدعوات في حفل أبو ظبي، كنّ ما زلن يضعن الحجاب على وجهوهن في الحفلة، وهو الحجاب الذي كان يشبه لحد كبير «البرقع» في ريف مصر، ودخلت أم كلثوم في مناقشة معهن حول جدوى هذا النوع من الحجاب، وحول دور المرأة في المجتمع، وبمجرد أن أنهت معهن المناقشة، خلعت أكثر من مئة سيدة حجابهن اقتناعًا بحديث السيدة أم كلثوم.

وفي وصلتها الثانية غنت أم كلثوم أغنية «الحب كله» للمرة الرابعة والأخيرة في حياتها المسرحية، إذ غنتها أم كلثوم في تسع وسبعين دقيقة. وتنقل مجلة «الشبكة» في عددها الصادر يوم 13 ديسمبر 1971 أن الشيخ زايد قد بلغت به النشوة في أثناء غناء أم كلثوم أنّه راح يضبط الإيقاع مصفقًا بيده، ثم شوهد ولد صغير لا يتجاوز التاسعة من عمره يرقص أمامه منتشيًا بالأغنية هو الآخر، بعدما ضج الجمهور بالهتافات والتصفيق الحاد تفاعلًا مع الغناء، ومستعيدًا بعض المقاطع مراتٍ متتالية. وانتهت الحفلة مع نهاية أغنية «الحب كله» بعد أن شنفت أم كلثوم آذان الجماهير العربية، وكانت تلك الليلة كما وصفتها صحيفة «الأهرام» الصادرة يوم 28 نوفمبر 1971 بليلة العُمر التي عاشتها إمارات الخليج.

وفي صباح يوم 30 نوفمبر 1971، رتب الديوان الأميري في إمارة

أبو ظبي لقاء تاريخيًا جمع السيدة أم كلثوم والقائد الكبير الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، إذ وصلت السيدة أم كلثوم صباحًا إلى قصر «المنهل» وبرفقتها محمد الدسوقي ابن شقيقتها والإعلامية سامية صادق، وكان في استقبالها في مدخل القصر الوزير والشاعر مانع سعيد العتيبة والصحفي عبد المنعم الملّواني السكرتير الصحفي لولي العهد الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، وقد وقف في استقبال أم كلثوم 20 فردًا من حاملي الصقور اصطفوا على الجانبين كل منهم يحمل صقرًا على ذراعه اليسرى. كانت أم كلثوم ترى للمرّة الأولى مثل هذا المشهد الذي أفزعها قبل أن يتقدم إليها الشيخ زايد مرحبًا بها، ثم صحبها لداخل ديوانه في قصر «المنهل». كان الشيخ زايد ينظر إلى السيدة أم كلثوم نظرة التقدير والإجلال لسيدة عصامية شقت طريقها نحو المجد الفني، وحصلت على تقدير الملوك والحكام وحازت من المحبة والإجماع الشعبي ما لم يحزه أي شخصية عربية سواء أكانت فنية أم سياسية، وقد دار بينهما حديث عن استخدام الصقور في الصيد، تلك الهواية التي تُعد أحب الهوايات العربية إلى حكام الخليج وشيوخه، ثم تحول الحديث من الصقور إلى حديث عن المرأة في أبو ظبي وتطورها والتقاليد العربية والدين والتعليم، ومستقبل أبو ظبي في مجالي الزراعة والفن، وأهمية تطور الفنون ومواكبتها للعصر، وقال لها الشيخ زايد بن سلطان إنّه يعتقد أن الدين يسر لا عسر، وإنّه يرى أهمية توجيه كل الاهتمام إلى الأجيال الجديدة، وحول جنسيات الوافدين الذين يعملون في الإمارات قال لها إنّه يقدر الدور الذي يؤديه الإنسان المصري في الإمارات وفي كل أنحاء الوطن العربي. وعن مصر والمصريين قال لها الشيخ زايد: «إنّ مصر هي الأمة الرائدة ونحن جزء منها، وإن مصر هي القلب من جسم الأمة العربية».

وتصف الصحفية الإماراتية عبلة النويس أجواء تلك الزيارة في مقال كتبته في صحيفة «الاتحاد» في 1 ديسمبر 1971 «استقبل عظمة الشيخ زايد بن سلطان حاكم البلاد أمس كوكب الشرق السيدة أم كلثوم التي كانت قد وصلت إلى البلاد بدعوة خاصة من عظمته، وقد قدمت سيدة الغناء العربي إلى حاكم البلاد تهنئتها الخالصة بمناسبة عيد جلوسه، كما أعربت عن تقديرها للنهضة الكبرى التي تشهدها أبو ظبي في عهده الزاهر»، ثم صحب الشيخ زايد بن سلطان السيدة أم كلثوم حيث التقت زوجتَه الشيخة فاطمة بن مبارك، ودار بينهما حديث عن المرأة في أبو ظبي، ودور المرأة في مجتمع مثل الخليج العربي، وكانت الشيخة فاطمة قد دعت السيدة أم كلثوم إلى مأدبة عشاء كبرى وحفلة تكريم لها حضرتها 200 شخصية نسائية من سيدات أبو ظبي والدول العربية وزوجات الدبلوماسيين في الإمارات العربية المتحدة. وأثناء زيارة أم كلثوم للشيخ زايد في قصر «المنهل»، أهدى الشيخ زايد بن سلطان ضيفتَه عقدًا من لآلئ الخليج العربي، وهو عقد ضخم مكون من 1888 حبة لؤلؤ طبيعية في 9 صفوف منتظمة، وتزينه زخرفة إطارية باللونين الأخضر والأحمر، ويشبه في تصميمه القلادة الهندية التقليدية والمعروفة باسم «ساتلادا»، وقد صنعت القلادة في عام 1880 بالهند، في وقت كان فيه الخليج العربي المورّدَ الرئيسي للؤلؤ إلى العالم، وقد استمرت أهمية اللؤلؤ بالنسبة لاقتصاد الخليج إلى أن تغيرت الظروف التجارية وجاء اللؤلؤ الصناعي واختلفت الحياة الاقتصادية واكتشف البترول في تلك المناطق، لتصبح تجارة اللؤلؤ جزءًا من ذاكرة سكان الخليج العربي، وقد استمرت زيارة السيدة أم كلثوم للشيخ زايد بن سلطان وزوجته الشيخة فاطمة بن مبارك قرابة الساعتين تقريبًا. وبمجرد خروج السيدة

أم كلثوم من قصر «المنهل»، أدلت كوكب الشرق بحديث سريع لمندوب مجلة «الشبكة» اللبنانية قالت فيه: «أشكر الشيخ زايد بن سلطان على الحفاوة التي أولاني إياها طوال إقامتي، كما أشكر شعب أبو ظبي على محبته لي، وهو شعب حساس يطرب كثيرًا للأغنيات».

وعقب لقائها بالشيخ زايد وفي طريق عودتها إلى مقر إقامتها بفندق «العين بالاس»، زارت السيدة أم كلثوم معالم مدينة أبو ظبي، وشاهدت حجم النهضة العمرانية التي عاشتها المدينة خلال سنوات حكم الشيخ زايد بن سلطان الخمس، وترجلت عند شاطئ الخليج العربي والتقطت لها الصور وهي تطلّ على مياه الخليج العربي، في حين تبعتها سيارتها على مهل. وما إن رأى المواطنون السيدة أم كلثوم على شاطئ الخليج حتى تجمعوا حولها والتقطوا معها الصور التذكارية تخليدًا لذلك الحدث وتلك الزيارة. وعند الظهر، عادت السيدة أم كلثوم إلى جناحها بفندق «العين بالاس» لتكمل استعدادها لحفلتها الثانية.

وفي مساء ذات اليوم كان موعد اللقاء الثاني بين سيدة الغناء وشعب الخليج العربي، فمع منتصف الليل في مدينة أبو ظبي أنهت أم كلثوم وصلتها الأولى بعد أن قدمت أغنية «دارت الأيام» للمرة السادسة والأخيرة وغنتها في 64 دقيقة تقريبًا، وتعتبر تلك الوصلة هي أقصر تسجيلات «دارت الأيام» التي طال بعضها وتعدى 119 دقيقة في بعض الحفلات. كانت أم كلثوم ترتدي فستان سهرة أسود موشى بالخيوط الذهبية، وتحمل منديلًا ذهبيًا في يديها يضاعف الضوء الذهبي الذي يشع من فستانها، وفي تحية رقيقة للشيخ زايد بن سلطان حلت جيدها بعقد اللؤلؤ الذي أهداه لها الشيخ زايد بن سلطان صباح ذلك اليوم. خصص دخل ذلك الحفل لصالح المجهود الحربي، وحضره ما يزيد

على أربعة آلاف من المواطنين والعرب والوافدين من كل الجنسيات العربية الذين اتفقوا على محبة سيدة الطرب والرمز الأكبر لوحدة الشعور العربي، وطوال الحفل كانت يردد الجمهور بعض الهتافات التي اعتادت الآذان على سماعها في حفلات أم كلثوم، لكن الصحافة المصرية توقفت أمام ذلك الهتاف الذي علا في حفل أم كلثوم الثاني في مدينة أبو ظبي حين هتف شخص محييًا السيدة أم كلثوم «تسلمي يا ست.. تسلمي أنتِ ومصر» كان ذلك الهتاف رسالة واضحة أن فن أم كلثوم لا يقدم فقط لحظات ممتعة ولكن مع المتعة يحمل فنها رسالة تاريخية ويؤدي واجبًا وَطنِيًا.

وعندما انتهت الوصلة الأولى، علق مذيع الحفل الداخلي محمد سالمين وهو واحد من اثنين فقط من أبناء أبو ظبي كانا يعملان مذيعين في تلك الحقبة «لم يلتق الجمهور وابنة النيل الحبيب فقط في هذه الدقائق الممتعة، كان هناك لقاء أكبر من خلال الراديو وعلى شاشة التليفزيون، وهنا في الحفل بين ملايين المستمعين العرب في لحظة فن أصيلة».

كانت القاعة مليئة بملامح ولهجات عربية مختلفة، من الخليج ولبنان والأردن والعراق وفلسطين ومصر. كانت اللهجات تتحول إلى بطاقة شخصية تقدم هوية كل فرد من الحاضرين لمن يجلس بجواره، أحدث الأزياء الأوروبية كانت ترتديها بعض النساء في القاعة خصوصًا زوجات الوافدين في إمارة أبو ظبي، بينما كانت صورة العقال العربي تملأ الأفق أمام أم كلثوم وفرقتها الموسيقية. كانت المناقشات السياسية والفنية الهادئة والمنفعلة تملأ الفراغ بين الوصلتين، وفي الوقت الذي حاول فيه وفد التليفزيون الفرنسي تصوير سيدة الغناء العربي ولحظات استعدادها للوصلة الثانية، كان

وفد التليفزيون الياباني يتابع بعدساته حركة الجمهور ولحظات انتظاره. وفي الاستراحة، حاولت الكاتبة الصحفية الكبيرة سكينة فؤاد أن تجمع من بعض الحضور كلمات رقيقة تكون مثل «أوتوجراف» من الجماهير العربية للسيدة التي اعتادت أن تهدي جماهيرها أرق الكلمات عبر صوتها الفريد، وكانت تلك بعضًا من كلماتهم.

• «أنتِ قمة الفن في عالمنا العربي، حلمي أن تغني معكِ الملايين العربية أغنية النصر.»

ترنيم عمران، رئيسة تحرير صحيفة الخليج.

• «تهنئة إلى مصر بهذه السيدة العظيمة، وأعترف أنكِ من أهم العوامل الموحدة بين العرب من المحيط إلى الخليج، فلم أنزل بلدًا عَربِيًا إلا وجدت إجماعًا على الإعجاب بكِ، وتقديرًا لا حدود له حولكِ.»

أديب مروة، صحفي، لبنان.

• «لم تعودي سفيرة للفن المصري وحده، أنتِ سفيرة للفن العربي إلى العالم أجمع، دعواتي بعمر مديد وصحة دائمة مع تحياتي.»

خلفان محمد الروحي، مدير المعارف بالشارقة.

• «السلاح تجارتي، لكن صوتكِ أقوى من كل أسلحتي، فهو سلاح العاطفة والحب، حب كل شيء، الإنسان والجمال، وحب الوطن أغلى حب.»

خالد العشي، تاجر أسلحة، دمشق.

• «العمر المديد أتمناه لكِ، وباعتباري خبيرًا في الجواهر فأنتِ بين الأحجار الكريمة كالياقوتة الحمراء.. عروس الجواهر وأغلاها.»

سعيد أسبتيه، جواهرجي، الكويت.

• «منذ سمعتك تغنين لإقبال وأمنيتي أن أراكِ وأسمعكِ في

باكستان، الأمنية نفسها يرددها ملايين من الباكستانيين ولم أتصور أن ظروف عملي ووجودي في أبو ظبي ستحقق لي أمنيتي.»

النقيب رسول خالد – باكستان.

• «وَأنتِ تغنين كان قلبي معكِ، لم تكوني وحدك، كنتِ قطعة من بلدي مصر، قطعة فيها ملامح بلدي، الكبرياء.. العزة.. الكرامة.. الأصالة.»

نبيلة مختار – جمهورية مصر العربية.

• «كأن صوتكِ مصر.. أخذتينا إليها رغم آلاف الأميال بيننا وبينها.»

نادية محمد – مصرية في أبو ظبي.

وفي الوصلة الثانية غنت السيدة أم كلثوم أغنية «القلب يعشق كل جميل» من كلمات الشاعر بيرم التونسي وألحان الموسيقار رياض السنباطي، وكانت تلك المرة الثالثة التي تغنيها أم كلثوم بعد أن غنتها للمرة الأولى في حفل ساهر في دار سينما قصر النيل يوم 4 فبراير 1971، ولكن صوتها في تلك الوصلة بالتحديد بدا وكأنّه مجهد قليلًا وغير قادر على امتلاك ناصية القفلة الغنائية في نهاية الأغنية، وقد نقلت العديد من الصحف والمجلات في الإمارات أجواء حفلة السيدة أم كلثوم الثانية ومدى التفاعل الجماهيري بينها وبين شعب الخليج، ومدى التقدير والبهجة التي عاشها الشعب الخليجي بعد تلك الزيارة التاريخية للسيدة أم كلثوم، فتنفل مجلة «درع الوطن» التابعة لوزارة الدفاع الإماراتية بعضًا من ذلك التقدير الذي صرح به بعض الشخصيات الرسمية والصحفية في دولة الإمارات العربية المتحدة، فيقول الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان ممثل الحاكم في المنطقة الشرقية لإمارة أبو ظبي وأحد أهم رفاق الشيخ زايد بن سلطان: «كانت لفتة رائعة من وزارة الدفاع أن تدعو قمة الغناء أم

كلثوم لتحيي احتفالات الشعب بقيادة زايد». ويقول رئيس المجلس الوطني الاستشاري في أبو ظبي الشيخ سلطان بن سرور الظاهري: «لقد أشجتنا كوكب الشرق وزادت أفراحنا فرحة». في حين وجه رجل الأعمال الإماراتي عبد العزيز بن ربيع تحية لولي العهد الشيخ خليفة بن زايد على مجهوده في التحضير لاحتفالات عيد الجلوس الخامس وقال: «تحية لسمو وزير الدفاع، فقد استطعنا بفضله أن نحقق ثلاثة مكاسب في وقت واحد؛ نحتفل بزايد، ونتبرع للمجهود الحربي، ونشاهد أم كلثوم». وأخيرًا قال الأديب والصحفي الفلسطيني عبد الله الشيتي: «تحقق الاستقلال، وارتفع علم الاتحاد، وغنّت أم كلثوم، ولا يسعنا إلّا أن نحني الرؤوس إجلالًا».

وكان للشعر الإماراتي نصيب في الاحتفاء بحفلي سيدة الغناء العربي في مدينة أبو ظبي، فقد كتب الشاعر الإماراتي سلطان العويس يخاطبَ السيدة أم كلثوم:

سواءٌ علينا ليلنا أو نهارُنا
فأنْتِ لنا الإبصارُ والسمعُ والفِكرُ
كَفَى النيل فخرًا أن تكوني نجيّهُ
كفى مِصْرَ في التاريخ أنتِ بها مِصْرُ
سيقبَلُ جيْل بعد جيلك في الدُنى
وعصرك عصرٌ لا يُقاس بِه عصرُ
لكل زمان عبقري بفنه
وأنت مدى الأيام ما طَلَع الفَجْر

وكذلك شارك الشاعر والوزير مانع سعيد العتيبة في هذا المهرجان، وهو الذي كان شاهدًا على تلك الرحلة منذ أن كانت فكرة في خيال الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حتى اكتملت الزيارة بشدو أم كلثوم

على مسرح وزارة الدفاع ليلتي 28 و30 نوفمبر 1971، فنظم شعرًا في السيدة أم كلثوم نشره في ديوانه «خواطر وذكريات»:

صَوتٌ تَغَلغل في صَمِيمْ كياني
صَبّ الهوى في أحرفي وبَياني
وَكأنّه لما يُلامسَ مَسمَعي
سِحرٌ جَليٌّ لا انْسيابُ أغنيات
يَا أمَ كُلْثُومٍ يُرحّبُ خَافقْي
وَينُوبُ عَنْ خَفْقِ الفُؤادِ لَسانِي
يَا كَوكَب الشَّرقِ الّذي في ضَوْئِهِ
سَهِرتْ قُلوبٌ تَشتَكِي وَتُعاني
ما زِلْتُ أُومُن بالمَحبّة مَنْهجًا
في حلِّ كُلِّ مشكلات الإنْسانِ
شَعْبي يَتُوق إلى سماعِكِ فَاصْدَحِي
للحُبِّ فَهْوَ دُعَامةُ الإيْمَانِ
وَيَراكِ هَذا الشَعْبُ رَمز حَضَارةٍ
عَربِيةٍ تَزْهُو بها أَوْطانِي
أَنْتِ التِي وَحّدْتِ أُمةَ يعْربٍ
مِن غَيرِ بَهْرجةٍ وَلا إعلانِ
لسِماعِ صَوتكِ كُلُ أُمَتِنا الْتَقَتْ
في ساحةِ الأَنْغامِ وَالألحَانِ
أهلًا وَسَهلًا خَفْقُ قَلْبِيَ قَالَهَا
وَجَرى مِن العَيْنين نهرُ حَنانِي

ومع أن زيارة أم كلثوم الفنية للإمارات العربية قد انتهت يوم 30 نوفمبر 1971، لكن القيادة في إمارة أبو ظبي طلبت من السيدة أم

كلثوم أن تمدّد بقاءها في ضيافتهم لتشهد اليوم التاريخي؛ يوم رفع علم الاتحاد الإماراتي في 2 ديسمبر 1971. ففي ذلك اليوم المهم في تاريخ دولة الإمارات، توجه الشيخ خليفة بن زايد ولي العهد إلى ساحة قصر «المنهل» وأمر برفع علم الاتحاد الذي ما إن رفع حتى حياه الشيخ خليفة للمرة الأولى في تاريخ الاتحاد الإماراتي، وكانت السيدة أم كلثوم حاضرة في تلك اللحظة التاريخية السعيدة التي عاشتها دولة الإمارات العربية المتحدة. وبعد أن انتهت مراسيم رفع العلم، تقدمت السيدة أم كلثوم من الشيخ خليفة بن زايد، وقدمت له التهنئة وقالت له: «عقبال علم الوحدة العربية الكبرى!»

وفي صباح اليوم التالي 3 ديسمبر 1971 استعدت أم كلثوم وفرقتها الموسيقية ووفدها الإعلامي المرافق للعودة إلى مصر، وكانت القيادة العليا في دولة الإمارات قد كلفت وزير الخارجية الشيخ أحمد خليفة السويدي بتوديع السيدة أم كلثوم حتى باب الطائرة، على أن ترافقه مجموعة من كبار المسؤولين والمواطنين والوافدين في دولة الإمارات. وفي المطار، كان الوداع حارًا حيث وقف الجميع يصافح السيدة أم كلثوم ويتمنون لها رحلة هادئة إلى القاهرة. وقبل أن تصعد السيدة أم كلثوم سلم الطائرة، تقدمت نحوها إحدى مضيفات طاقم الطيران وقدمت لها باقة ورد كبيرة تعبيرًا من طاقم العمل عن تقديرهم لسيدة الطرب وفرحتهم أنّهم سيصحبونها في رحلة العودة إلى أرض الكنانة. وفي لحظات الانتظار في المطار، اقترب منها الصحفي عبد الفتاح الفيشاوي الذي كان قد طار خلفها إلى دولة الإمارات العربية مندوبًا عن مجلة «الكواكب» المصرية، وطلب أن يسألها عدة أسئلة قبل أن تصعد إلى الطائرة، فوافقت السيدة أم كلثوم على طلبه على ألا يطيل عليها، فوعدها بذلك وبدأ يعد أسئلته الصحفية الموجزة، وقد

نشرت مجلة «الكواكب» الصادرة في 14 ديسمبر 1971 بعضًا من تلك الأسئلة.

• ماذا أعجبك هنا؟

– *التعمير.. هذه كانت صحراء وتحولت إلى طرق مرصوفة وبنايات ومرافق، كل مكان في العالم العربي يدخله التعمير لجميع العرب.*

• غنيتِ لإقبال وجرداق والهادي آدم، هل تغنين أيضًا لغيرهم من شعراء البلاد العربية؟

– *لا أفرق بين شاعر من مصر وشاعر من بلد عربي آخر، ولكني أفرق بين قصيدة وقصيدة لا أكثر.*

• لماذا لا تنتشر الموسيقى العربية في العالم؟

– *ومن قال لك أنّها غير منتشرة في العالم؟ ألا يكفي أنّها منتشرة في العالم العربي!*

• زرت بلادًا كثيرة ماذا كان شعور مستمعيكِ؟

– *المستمع العربي واحد، في أبو ظبي.. في باريس.. في المغرب.. في الكويت.. في القاهرة.*

كانت رحلة السيدة أم كلثوم إلى أبو ظبي هي الرحلة الخارجية الأخيرة في سجل رحلاتها لصالح المجهود الحربي، ونهاية رحلتها الوطنية الخارجية الكبرى من أجل توحيد الشعوب العربية حول القضية المصرية ودعم مصر في تخطي العدوان وآثاره، وقد تقاضت السيدة أم كلثوم عن الحفلتين في مدينة أبو ظبي ما يقرب من 24 ألف دينار إماراتي و20 ألفًا عن تسجيل الحفلتين، حولتها كعادتها بمجرد عودتها إلى القاهرة لصالح المجهود الحربي.

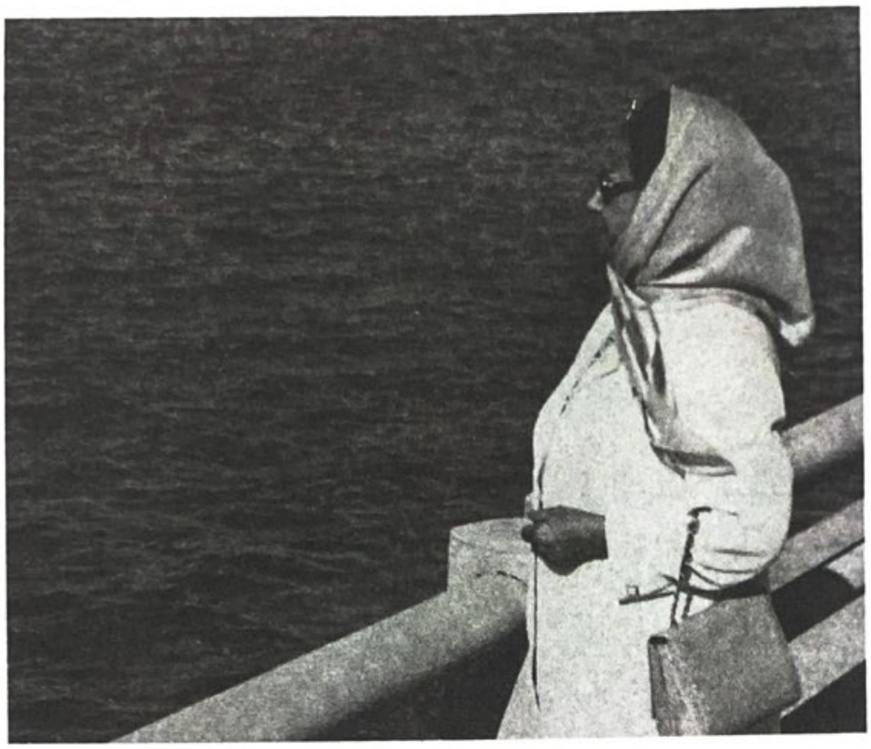

السيدة أم كلثوم تقف على كورنيش أبو ظبي، يوم 30 نوفمبر 1971.

السيدة أم كلثوم في شوارع أبو ظبي، يوم 30 نوفمبر 1971.

إطلالة باسمة من السيدة أم كلثوم في أولى حفلاتها في إمارة
أبو ظبي، يوم 28 نوفمبر 1971.

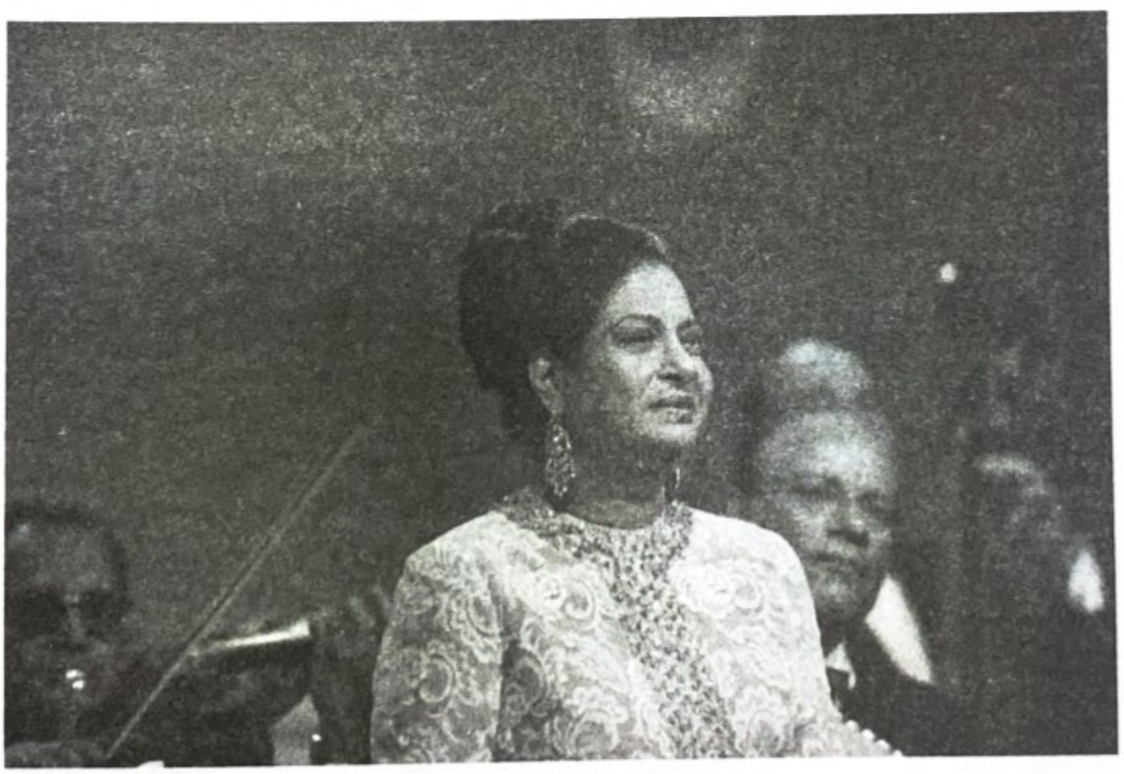

لقطات ملونة ونادرة للسيدة أم كلثوم من حفلها الأول في أبو ظبي، من تصوير المصور الفرنسي برونو باربي، يوم 28 نوفمبر 1971.

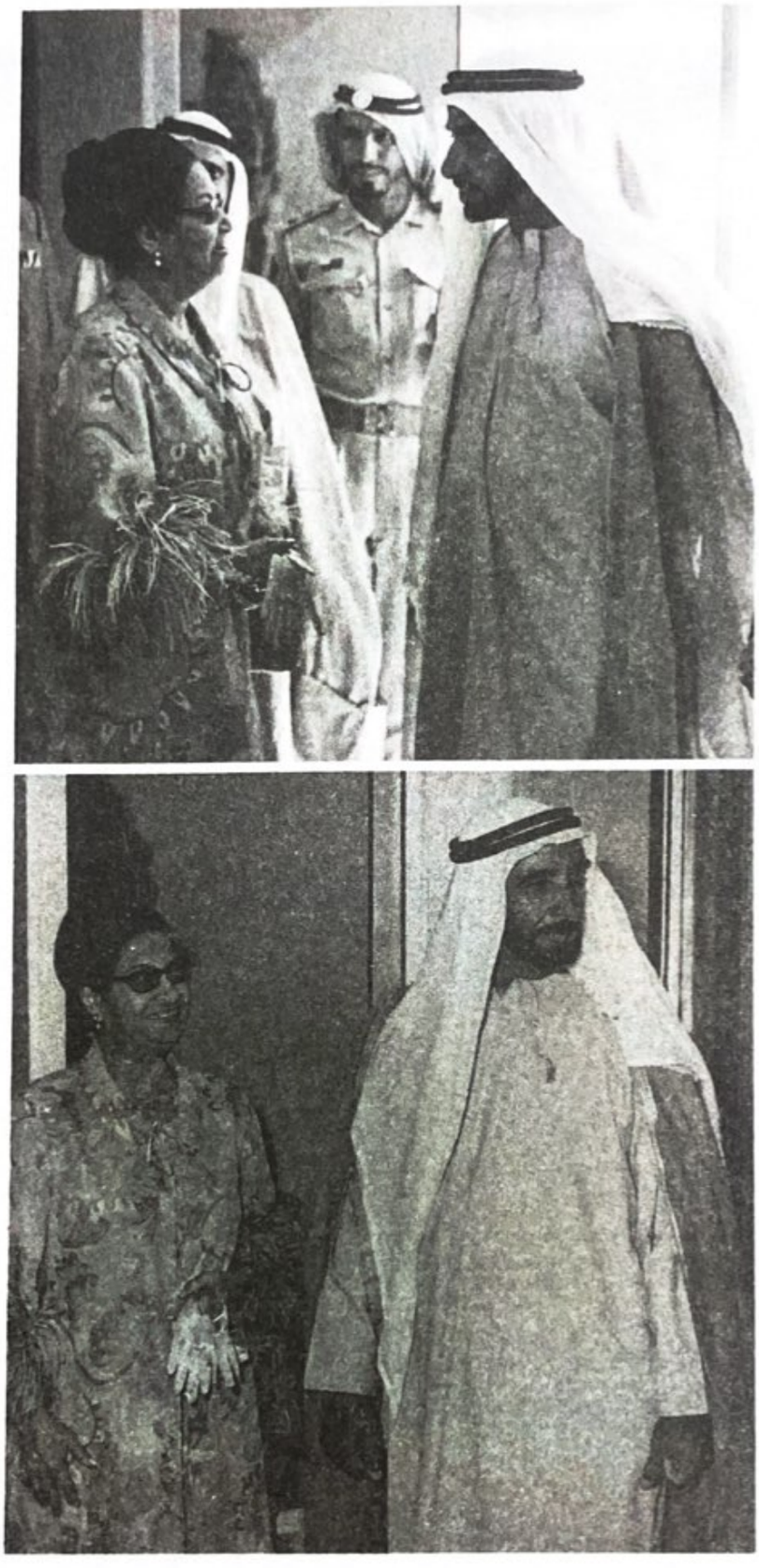

الشيخ زايد بن سلطان يستقبل السيدة أم كلثوم في قصر «المنهل»، يوم 30 نوفمبر 1971.

السيدة أم كلثوم ترتدي في حفلها الثاني في أبو ظبي عقد
اللؤلؤ الذي أهداه لها الشيخ زايد بن سلطان، يوم 30 نوفمبر
1971.

مصادر هذا الفصل:

1- د. محمد المر، أم كلثوم في أبو ظبي، الأرشيف الوطني أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2018.

2- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 14 ديسمبر 1971.

3- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 13 ديسمبر 1971.

4- مجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، عدد 11 ديسمبر 1971.

5- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 29 أغسطس 1971.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 15 نوفمبر 1971.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 21 نوفمبر 1971.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 26 نوفمبر 1971.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 27 نوفمبر 1971.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 28 نوفمبر 1971.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 1 ديسمبر 1971.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 4 ديسمبر 1971.

13- مجلة أخر ساعة، القاهرة، عدد 1 ديسمبر 1971.

14- مجلة آخر ساعة، القاهرة، عدد 8 ديسمبر 1971.

نهاية الرحلة

كان مُنجَز المجهود الحربي الذي قدمته السيدة أم كلثوم في سنواتها الأخيرة كافيًا لتحويلها إلى رمز قومي مقدس في المخلية الشعبية؛ فبعد أن قدمت سيدة الغناء العربي قرابة الثلاثة ملايين جنيه من أجل المعركة، وضخت في الخزانة المصرية ما يزيد على نصف مليون جنيه بالعملة الصعبة هي حصيلة حفلاتها الخارجية، واستطاعت من خلال كوادر «هيئة التجمع الوطني للمرأة المصرية» تنشيطَ حركة جمع سبائك الذهب في الأيام الأولى للهزيمة، أُحيطت أم كلثوم بهالات القداسة الوطنية، واكتسبت قوتها كرمز قومي من تفاعلها مع ظروف وطنها العصيبة، إذ تحدت يأسها في لحظات المحنة وحاربت واجتهدت في صياغة موقف وطني لم يشاركها في نبله فنان آخر، وكما كان البسطاء في مصر ينسجون الحكايات الخرافية عن سعد زغلول (1858، 1927) في السنوات التي أعقبت الثورة المصرية عام 1919، ويؤكدون أن المحاصيل الزراعية في حقول الدلتا قد نبتت منقوشًا عليها عبارة «يحيا سعد باشا»، فقد تولت الصحافة المصرية ترسيخ تلك النظرة الميتافيزيقية أيضًا عن أم كلثوم في سنوات المجهود الحربي، سواء كان ذلك بحدث حقيقي أو مختلق في الأساس، فكتبت الصحف المصرية عن الفراشة التي لامست صدرها وهي

تغني «فات الميعاد» في الكويت، وعن الحمامة البيضاء التي لازمت المسرح وهي تغني «الأطلال» في المغرب، وعن هطل الأمطار على تونس لحظة نزولها من الطائرة، بعد سنوات من الجفاف عاشتها تلك البلاد، وربما تجلت تلك الصورة الروحانية تمامًا في جنازتها المهيبة يوم الأربعاء 5 فبراير 1975، إذ تقدمت الموكب صورة كبيرة لها وهي ترتدي وشاحًا كُتب عليه لقب «شهيدة العشق الإلهي»، وهو ذاته اللقب الذي أطلقه مؤرخو التصوف على رابعة العدوية صاحبة الدور المؤسس في المذهبية الصوفية وصاحبة المشرب الإسلامي. كانت تلك النظرة القُدسية التي قدمتها الصحافة المصرية كافية لترسيخ منطق النبوة الفنية لأم كلثوم في الوعي العربي، بل رفعها إلى درجة أبطال تلك المرحلة التاريخية الصعبة، وبالأخص في السنوات التي فصلت الهزيمة عن وفاة جمال عبد الناصر، إذ أولت الدولة الناصرية كل جهدها في متابعة ومرافقة أم كلثوم في كل رحلاتها المكوكية من أجل القضية العربية، وحاولت تقديم تلك الجولات الفنية على أنّها نموذج للقيامة المصرية من أجل تخطي الهزيمة ومحو آثارها كُلِيًّا، لكن التغير السياسي الذي أعقب موت عبد الناصر عام 1970، وتبدل الوجوه وصعود نخبة جديدة من السياسيين مع بداية عصر السادات، نتج عنها تغيّر منهجي حاد في المواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والفنية أيضًا، إذ كان من توابع ذلك التغير محاولة إقصاء أم كلثوم عن المشهد الفني والاجتماعي، خصوصًا مع بداية تساقط مراكز القوى السياسية المحسوبة على الناصرية واليسار، فيما سُمّي اصطلاحًا «التصحيح» بعد ثورة التصحيح، وتأكد رجال العهد الجديد من أنّ أم كلثوم ما هي إلا المعادل الأنثوي لعبد الناصر بشعبيته العربية الطاغية وحضوره الكاريزمي.

وبطبيعة الحال لم يكن في مقدور السيدة أم كلثوم، وهي التي جاوزت السبعين في ذلك الوقت، أن تقاوم ذلك التغير المفاجئ والجارف الذي طرأ على الواقع السياسي في مصر مع بداية العهد الجديد، بالإضافة إلى تردي حالتها الصحية ومهاجمة أمراض الكلى والشيخوخة لها بشراسة مع مطلع عام 1972، وتردّدِ بعض الإشاعات في المجالس الخاصة والعامة عن تنافس خفي بين السيدتين أم كلثوم وجيهان السادات حول الدور الاجتماعي واللقب؛ ذلك التنافس الذي بلغ ذروته مع سعي القيادات السياسية في مصر خلال بدايات عهد السادات إلى تقييد تحركات أم كلثوم الاجتماعية، والعمل بشكل ممنهج على استهداف بعض المساهمات الخيرية التي أطلقتها أم كلثوم في بداية السبعينيات، وتجميد مشروعها الخيري الشهير «دار أم كلثوم للخير» الذي أعلنته أم كلثوم رَسْمِيًّا في عام 1972، وذلك في محاولة لكسب رضا «السيدة الأولى»، بعدما أطلقت يدها في شؤون الدولة، وزادت صلاحياتها الاجتماعية بوصفها زوجة رئيس الجمهورية الذي يخضع له الجميع.

كل تلك العوامل السابقة فرضت على أم كلثوم أن تنسحب تَدرُّجًا من الحياة الفنية، وأن يخفت دورها الوطني الذي بلغ ذروته في السنوات الأولى للهزيمة، وأن يتوارى صوتها في المرحلة الجديدة، التي بدا أنّها تتطلب بعضًا من الانكسار والتلون في وجه السلطة، خصوصًا مع تلك الحملة الضارية التي شنت على رجال العصر السابق ورموزه، وربما تكشف لنا محاولة تعقب حضور أم كلثوم في الصحافة المصرية في الفترة ما بين عامي 1972 حتى نهايات عام 1974 عن ذلك التغير الجوهري في تعامل الصحافة الرسمية مع السيدة أم كلثوم، فنلاحظ نُدرة أخبارها الفنية والشخصية، وتلاشي

حضورها المكثف السابق في الصحف والمجلات الفنية، واختفاء حتى أخبار مشاركتها في فعاليات المجهود الحربي، الذي تؤكد بعض الوثائق الرسمية استمرار بعض صوره حتى بعد حرب أكتوبر عام 1973، ليصبح دورها في تلك السنوات الأخيرة مثل المجهود الخفي الذي يصعب تحديد حجمه ومقداره. غير أن ما كشفته بعض رسائل أم كلثوم الخاصة يؤكد بقاء ذلك الدور الوطني الكبير حتى في تلك المرحلة القلقة من حياتها، وحتى مع تجاهل الصحافة لتحركاتها الوطنية. فبعد أن تقطعت حفلاتها الشهرية في عام 1972، لم تقدّم أم كلثوم لصالح المجهود الحربي إلا حفلًا واحدًا أخيرًا في خريف 1972، وذلك عقب عودتها من رحلة علاجية طويلة قضت بعدها معظم الصيف في منتجع «باد جاشتاين» (Bad Gastein) في النمسا، وقد أقيم ذلك الحفل ليلة الأحد 10 سبتمبر 1972 بقاعة «الاحتفالات الكبرى/ جمال عبد الناصر» بجامعة القاهرة، بعد أن روجت له صحيفة «الأهرام» طوال مدة رحلة أم كلثوم العلاجية الخارجية، ودعت إليه الصحيفة بوصفه سهرة العروبة الكبرى المرتقبة، وقد أشرف على تنظيم الحفل اللجنة الرياضية في محافظة القاهرة والمحافظ إبراهيم بغدادي (1925–2009) شَخْصِيًّا، إذ غنت أم كلثوم في وصلتها الأولى في تلك الليلة قصيدة «أغدًا ألقاك» للمرة الخامسة والأخيرة، وأغنية الموسم «يا مسهرني» التي سبق أن أطلقتها في حفل 6 أبريل 1972، وقد أذاع التليفزيون العربي وصلتي الحفل على الهواء مباشرة، لتكون تلك الليلة هي الوقفة الأخيرة والنهائية في سلسة حفلات أم كلثوم لصالح المجهود الحربي.

ورغم ما اعتادته الصحف المصرية من متابعة ومواكبة لتلك الليالي الوطنية لأم كلثوم، فإنّها لم تقدّم تحقيقًا صحفيًّا واحدًا عن تلك الليلة،

ولم نعرف بالتحديد مقدار ما أضافه دخل ذلك الحفل لمحصلة المجهود الحربي، غير أن بعد ذلك الحفل بأيام قليلة، تحديدًا يوم 16 سبتمبر 1972، أرسل الفريق أول محمد أحمد صادق (1917-1991) وزير الحربية ونائب رئيس الوزراء آنذاك رسالة رسمية إلى السيدة أم كلثوم، شكرها في بدايتها على مجهودها الوطني الكريم، ونفسها العامرة بالإيمان والوطنية التي وصفها في رسالته بأنّها «لا ترضى إلّا أنّ تقدم كل يوم عملًا صادقًا كريمًا لهذا الوطن»، وفي نهاية الرسالة أشار الفريق صادق إلى مراسلات سابقة تمت بين القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية والسيدة أم كلثوم، بشأن توفير الأصناف التي كانت تحتاج إليها القوات المسلحة في ذلك التوقيت، إذ أرفق الفريق صادق مع الرسالة ملحقًا صغيرًا ضمّ أسماء المواد التي تحتاج إليها القوات المسلحة، وأكد لها أن العبوات البلاستيكية التي سألت عن توافرها السيدة أم كلثوم غير مهمة في تلك المرحلة، وذلك لوجودها داخل المؤسسة العسكرية وفي السوق المحلي المصري.

لم تقدم أم كلثوم بعد حفلها الأخير لصالح المجهود الحربي في سبتمبر 1972 إلا حفلين شهريين: الأول في ليلة 7 ديسمبر 1972، الذي أطلقت فيه لقاء السحاب الأخير بينها وبين الموسيقار محمد عبد الوهاب أغنية «ليلة حب» من كلمات أحمد شفيق كامل، والحفل الثاني يوم 4 يناير 1973، الذي أعادت في وصلته الأولى غناء «ليلة حب» للمرة الثانية والأخيرة في أكثر من ساعتين، بدا فيهما جليًا حالة الإعياء الشديد على السيدة أم كلثوم، لكنها كانت تقاوم وتحاول جاهدة أن تؤدي الوصلة الأولى كما اعتادت أن تسمعها دائمًا الجماهير العربية، فارتجلت في المقطع الأخير من الأغنية، وقدمت في تلك الليلة أفضل وأكمل نسخة لتلك الرائعة الأخيرة. وبعد نهاية الوصلة

الأولى، وفي غرفتها وراء الكواليس، جلست أم كلثوم ترتاح بعدما تملكها التعب الشديد، ويروي المقربون منها أن الجميع قد نصحها في تلك الاستراحة أن تعتذر عن عدم أداء الوصلة الثانية، وتكتفي فقط بأداء أغنية واحدة في تلك الليلة، لكن صعوبة ذلك القرار عليها حال بينها وبين مطلب المقربين منها. ويروي الشاعر السوري أحمد الجندي (1910- 1990) أنّه دخل في تلك الليلة غرفتها الملحقة بالمسرح بين الوصلتين، فوجد طبيبها يحقنها لتقوى على الوقوف للوصلة الثانية، وطبيب آخر يعمل على تدليك قدميها؛ إذ كان معروفًا عن السيدة أم كلثوم أنّها تقع أسيرة التشنج بعد الغناء. وبعد أن أنهت مدة الاستراحة، صعدت أم كلثوم لتطل على الجماهير العربية طلتها الأخيرة، فقدمت في وصلتها الثانية أغنية «القلب يعشق كل جميل» للمرة الرابعة والأخيرة، وذلك بمناسبة دخول العشر الأوائل من شهر ذي الحجة لعام 1392هجريًا.

وربما تكون تلك الوصلة الأخيرة لهذه الليلة الغنائية هي الأكثر قسوة وحزنًا في مسيرة أم كلثوم المسرحية، فلم يكن انفلاتُ صوتها في نهاية الوصلة الشاهدَ الوحيد على حزن ذلك التسجيل، إذ تكرر هذا الانفلات الصوتي مرات عدة في الموسمين الأخيرين من حياتها الغنائية، وتحدث عنه الموسيقار محمد الموجي في حديث تليفزيوني فيما بعد، فأكد أنّها لم تؤدَّ قفلة أغنيته «أسال روحك» حين شدتْ بها للمرة الأولى في بداية عام 1970كما كان متفقًا عليه في البروفات، وأنّ الموسيقار محمد عبد الوهاب طلب منه أن يخفض الدرجة الموسيقية للأغنية، حتى وإن جاء ذلك على حساب أداء الآلات الموسيقية، لكن أم كلثوم كانت تتغلب في كل مرة على ذلك الانفلات الصوتي، وتستطيع بخبرتها التاريخية أن تؤدي اللحن بأقل الخسائر، وأن تعبر

فوق مظاهر الشيخوخة الغنائية التي بدت تتملك منها تمامًا منذ عام 1970. لكنّ الوهن الرهيب الذي أصابها في تلك الوصلة الأخيرة لم تكن تألفه الآذان العربية منها من قبل، فبدت المقاطع ذات الطبقات العليا في الأغنية عصية عليها، ليخونها صوتها في أكثر من موضع، خصوصًا وهي تؤدي مقاطع مثل «سلم لنا تسلم» والمقطع الشهير في نهاية كل كوبليه «أمّا تجلاّلي/ بالدمع ناجيته»، فكانت تمتنع عن أداء تلك المقاطع ذات الطبيعة الجوابية أو تضطر إلى غنائها بصوت هزيل منهك من ضربات الزمن.

ربما أدركت أم كلثوم ومعها الملايين العربية في تلك اللحظة التاريخية أن هذا هو المشهد المسرحي الأخير، وأن أم كلثوم لن تقوى على الوقوف والغناء على ذلك الركح التاريخي مرة ثانية، بعد أن كان شاهدًا على أمجادها الفنية عقودًا عدة. وربما أوحت تلك اللفتة الغريبة التي أقدمت عليها السيدة أم كلثوم في نهاية الوصلة إلى ترسيخ ذلك الشعور الغامض بقرب نهاية الرحلة، إذ لجأت في قلب ضعفها عند نهاية الأغنية إلى ارتجال شعري في كلمات الأغنية يليق بختام حياتها المسرحية المجيدة والمطوّلة، ويليق بتاريخها الوطني ومجهودها الحربي المُشرف، فبدلت فجأة في نهاية المقطع الأخير للأغنية، وتحديدًا في عبارة «يارب توعدهم يارب/ يارب واقبلنا»، شطرَ «يارب وأقبلنا» إلى «يا رب وانصرنا»، ليفاجأ الجمهور بذلك الدعاء المرتجل الذي خطر على بال أم كلثوم وهي تقاوم مرضها وآلامها في إطلالتها الأخيرة على المسرح، وتنتفض القاعة داعية وهاتفة لها بالصحة وطول العمر، ومطالبة بإعادة ذلك المقطع وهذا الدعاء الذي لامس حالة التعبئة العامة والشاملة التي شهدتها مصر قبيل حرب أكتوبر، فأعادت أم كلثوم المقطع كما طلبت الجماهير،

ودعت لمصر في الإعادة الثانية، لكنها في نهاية الوصلة تحشرج صوتها وانحبس تمامًا ولم تقدر على الإعادة الثالثة، لتطلب بإشارة خفية بيديها من عامل الستار إغلاقه عليها بعدما أدت قفلة الأغنية بصعوبة شديدة، وما إن أغلقت الستارة وتوارت أم كلثوم خلفها حتى وضعت وجهها في منديلها الأبيض وأنّهالت دموعها حزنًا على ما آلت إليه من ضعف جسدي وغنائي، إذ كان معروفًا عن أم كلثوم أنّها أقدر وأشجع الأصوات على أداء القفلة الغنائية، وأنّها تجتاز دائمًا ذلك الامتحان الغنائي الصعب بتمرس وثقة طربية لا ينافسها فيها مطرب آخر، لذا بدت تلك اللحظة في حياتها وكأنّها بداية النهاية، وأدركت وربما للمرة الأولى في حياتها أنّها غير قادرة إطلاقًا على امتلاك ناصية صوتها، ليشاء القدر أن تكون تلك الوقفة الأخيرة والمؤثرة هي ختام حياتها المسرحية، وأن تكون «القلب يعشق كل جميل» تلك المناجاة الصوفية هي تغريدة الكروان الأخيرة، وأن تودع سيدة الغناء الجماهير العربية بالدعاء لهم بالنصر والتمكين، في صورة درامية غريبة تلخص حقيقة توجها الوطني كاملًا منذ الهزيمة في الخامس من يونيو 1967.

وعلى امتداد الشهور التالية كان الانفعال بالمعركة المرتقبة يمور في صدر أم كلثوم، وتتمنى أن تعيش حتى تشهد يوم فرحة النصر وتغني له، فقبل أن تغادر القاهرة في رحلة علاجية طارئة إلى لندن يوم السبت 14 أبريل 1973، وذلك بعدما تعرضت لاحتقان شديد في المرارة عقب تسجيلها أغنية «حكم علينا الهوى» يوم 8 أبريل 1973 في الإذاعة المصرية، وألح أطباؤها عليها من أجل إلغاء حفلتيها الشهريتين في فبراير ومارس 1973، صرّحت السيدة أم كلثوم للصحفي كمال الملاخ ضمن حوار نشرته صحيفة «الأهرام» في عددها الصادر يوم 12 أبريل 1973: «أطلب من الله جل جلاله ليل نهار، أن أرى فرحة

النصر القريب وأغنيها بإذن الله»، لتتحقق نصف تلك الأمنية الغالية في نفسها، وتشهد السيدة أم كلثوم شروق يوم النصر بعد ذلك التاريخ بستة بأشهر، ويكلل مجهودها الوطني بالعبور في 6 أكتوبر 1973، لكن انتكاسة المرض وأزماتها الصحية المتتالية حالت بينها وبين النصف الآخر من الأمنية، وقد ظن عديد من المقربين من أم كلثوم آنذاك، أن معرفتها بأنباء العبور قد تخفف من معاناتها الصحية، وتدفعها إلى تجاوز مرضها والقيام بواجبها تجاه قضايا وطنها وأحداثه التاريخية، ومشاركة المصريين فرحتهم ببشائر النصر والعبور، كما سبق وشاركت في كل محفل ومهرجان وطني، لكن خاب ظن الجميع بعد ذلك؛ فلم تقدر أم كلثوم على تنفيذ مشاريعها الغنائية الوطنية، وخلت سجلات الإذاعة المصرية والرصيد الرائع والحماسي في تلك المرحلة من أغنية واحدة جديدة للسيدة أم كلثوم، فأذيعت بعض أغنياتها القديمة مع نهاية كل بيان عسكري، وعادت في تراجيدية غريبة أغنية «راجعين بقوة السلاح/ الله معك» لتذاع عبر موجات الإذاعة المصرية، بعدما كانت شاهدة على النكسة والهزيمة الفادحة، ليقدر لتلك الأغنية أن تضطلع بمهمة أخيرة وأن تصبح جسرًا بين غروب يونيو 1967وشروق أكتوبر 1973. وكما خاطبت أم كلثوم طلائع الجنود قبل محنة 1967 إذاعيًا، قررت مخاطبتهم وهم يردون الاعتبار ويغسلون العار السابق، فكتبت في مجلة «الكواكب» الصادرة يوم 23 أكتوبر 1973 كلمة صغيرة وجهتها إلى الجنود على خط المواجهة: «أبطالنا البواسل في كل ميدان قتال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ أَنّه كَانَ تَوَّابًا﴾ أيها الأبطال العظام.. ساعة النصر آتية لا ريب فيها، البشائر تهل علينا وعليكم، فإلى الأمام تحرسكم عين الله وترعاكم»، كما بعثت برسالة

شخصية إلى الرئيس أنور السادات تهنئه فيها على العبور، وتعلن تبرعها بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه مصري، من بينها عشرة آلاف لصالح المجهود الحربي، وخمسة آلاف لصالح جمعية «الهلال الأحمر»، ليكون ذلك المبلغ هو التبرع النهائي في مسيرة مجهودها الوطني في أعقاب الهزيمة، وقد رد عليها الرئيس السادات في يوم 11 نوفمبر 1973 برسالة شكر قال لها فيها:

«السيدة الفاضلة فنانة الشعب/ أم كلثوم إبراهيم

تحية طيبة وبعد:

فقد وصلتني رسالتك التي تعبر عن نبل مشاعرك، وصادق وطنيتك وروحك التي عبرت عن مثالية عالية، بتبرعك للمجهود الحربي لتدعيم القوات المسلحة، التي تخوض معركة من أشرف معاركها في الدفاع عن حقنا المغتصب، في أرضنا العربية العزيزة. وسنمضي فيها مزودين بالإيمان الذي يملأ قلوبنا، حتى يكلل الله نضالنا بالنصر لنبني صرح أمتنا شامخًا، على أسس قوية من الإيمان ودعائم ثابتة من العلم، والله يوفقنا ويسدد خطانا».

ومع سعادة أم كلثوم بيوم العبور، واعتبارها أنّه أول ضوء لبشائر النصر الكامل، فقد أقعدتها دوامة المرض الشديد عن الدور الوطني في تلك المرحلة الأخيرة، وغاب صوتها وحضورها كُلِيًّا عن المشهد الفني والوطني، وانتهت مرحلة المجهود الحربي في حياتها، بعدما شعرت أنّها قد أدت رسالتها الوطنية، وأكملت دورها الإنساني في هذه المرحلة الحاسمة، وعبرت مع بلدها سنوات المرارة واليأس، فكان آخر ظهور رسمي لها يوم دعاها الرئيس السادات مع قادة الجيش وأبطاله، لحضور حفل تكريم جرحى حرب أكتوبر يوم 9 مايو 1974، وذلك في مستشفى المعادي للقوات المسلحة، وهو المستشفى ذاتُه

الذي شهد بعد ذلك التاريخ بأشهر قليلة معركةَ أم كلثوم الأخيرة مع الموت ورحيلها الحزين يوم 3 فبراير 1975.

قُدّرَ أن تعيش أم كلثوم سنوات عقدها الأخير كمؤسسة فنية ووطنية مستقلة وقائمة بذاتها، ففي السن التي كان متوقعًا أن تتراجع فيها قدرات أم كلثوم الفنية وتنكمش قاعدتها الجماهيرية تَدريجًا، وفي الوقت الذي كان مفترضًا أن تعيش فيه على مُنجز ماضيها العريق وتستعيد سمعته السابقة، وقعت الهزيمة لتغير مسار سنوات حياتها الأخيرة، فواجهت النكسة ومرارتها بقدرة مثالية على الثبات والقتال، وأدركت أن الهزائم محتملة دائمًا في الثورات دون أن يعني ذلك انكسارًا لأهداف الوطن أو تخليًا عن أحلامه، فحولت كل إرثها الغنائي في تلك السنوات المضطربة إلى سلاح فعال في المعركة، لتؤكد بذلك نقاء أصلها وعظمة وخلود مشروعها الفني ذي البعد القومي، واشتبكت بطاقة شابة وفتية مع واقع النكسة الأليم، فجابت الأرض العربية من محيطها إلى خليجها في ظرف سنوات معدودة، وفي كل مرة كانت تعود إلى القاهرة بمبلغ كبير في يدها وحب ضخم يحوطها. تطلعت أم كلثوم بعد الهزيمة إلى مرحلة جديدة تتجاوز فيها مصر كبوة النكسة وتستأنف فيها دورها الإقليمي والعروبي، وذلك من خلال صوتها العظيم الذي كان وما زال أحد أهم روابط العروبة، والدليل المادي الملموس على أن تلك الأمة تملك شيئًا متجانسًا بين أرواح شعوبها.

في تلك المرحلة برزت قيمة السيدة أم كلثوم الفنية والتاريخية في سجل رموز القومية المصرية، إذ بدت في وسط الصراع المرير من أجل تصحيح المسار الوطني عقب الهزيمة بطلة قومية وقدوة فنية ونموذجًا إنسانيًا ملهمًا قلما يجود الدهر بمثله. عاصرت السيدة أم كلثوم ثورة يوليو 1952 واعتبرتها نهاية سلسلة الوطنية المصرية الحديثة، واقتربت

من نظامها السياسي وتغيرت مع متغيراته المتلاحقة، لكنها لم تؤسس لمشروع وطني متكامل إلا بعد هزيمة 1967. فبعد أن شهدت مأساة النكبة ومعركة التأميم والعدوان في 1956، وبعد أن غنّت للثورة والجلاء والمقاومة، ومدحت القائد الملهم وأحلامه وانتصاراته، وغنّت للوطن والقضية والإنسان والدين، جاءت محنة نكسة 1967 لتزيد فنها أهمية في تاريخنا المعاصر، وتنقلها من قمة الغناء إلى قمة الوطنية، لينمو تدريجيًّا تجاه شخصها شعور العرفان بالدور والأثر خصوصًا عند هؤلاء الذين قاتلوا على الجبهة المصرية عام 1973، وعند الذين قضوا ست سنوات كاملة في الخنادق ومعسكرات التدريب، وفي نفوس أبطال المهمات القتالية أثناء حرب الاستنزاف، وفي مشاعر أطفال المُهَجّرِين من أهل مدن القناة، الذين حاولت أن توفر لهم أم كلثوم بشتى الطرق حياة إنسانية كريمة.

استطاعت أم كلثوم تلك الريفية البسيطة أن تصمد في وجه التقلبات والأزمات والعواصف السياسية والثقافية والاجتماعية التي لحقت بالمجتمع المصري منذ قدومها إلى القاهرة في مطلع العشرينيات وحتى وفاتها في منتصف السبعينيات، وأن تثبت في كل معاركها الفنية والوطنية التي خاضتها على مدار حياتها الطويلة، أنّها وتر حساس في هذه الأمة، وحجر زاوية رئيسي في بناء وعيها ووجدانها، لكن تظل معركتها الوطنية بعد هزيمة 1967 قصة صعود وتجربة إنسانية فريدة، إذ حاولت تحمل المسؤولية وحدها من خلال صوتها، وعملت في هذه الظروف العصيبة على تهيئة الجبهة الداخلية والعربية للحرب والمعركة الفاصلة، فكان ذلك كافيًا لجعلها قديسة في الذاكرة الجماعية، تلك الذاكرة التي ما زالت إلى اليوم تمجّدها ابنةً وفيّةً لتراب وطنها، وتعتبرها من مصادر قوّتها المعنوية وفخرها الدائم.

تذكرة لآخر حفلات السيدة أم كلثوم لصالح المجهود الحربي، وقد أقيمت يوم الأحد 10 سبتمبر 1972.

السيدة أم كلثوم مع الصحفي علي أمين ومحافظ القاهرة حمدي عاشور والمهندس محمد الدسوقي، أثناء الإعداد لمشروعها الخيري عام 1972.

الرئيس محمد أنور السادات يستقبل السيدة أم كلثوم في حفل تكريم أبطال وجرحى حرب أكتوبر بمستشفى «المعادي» العسكري، يوم 9 مايو 1974.

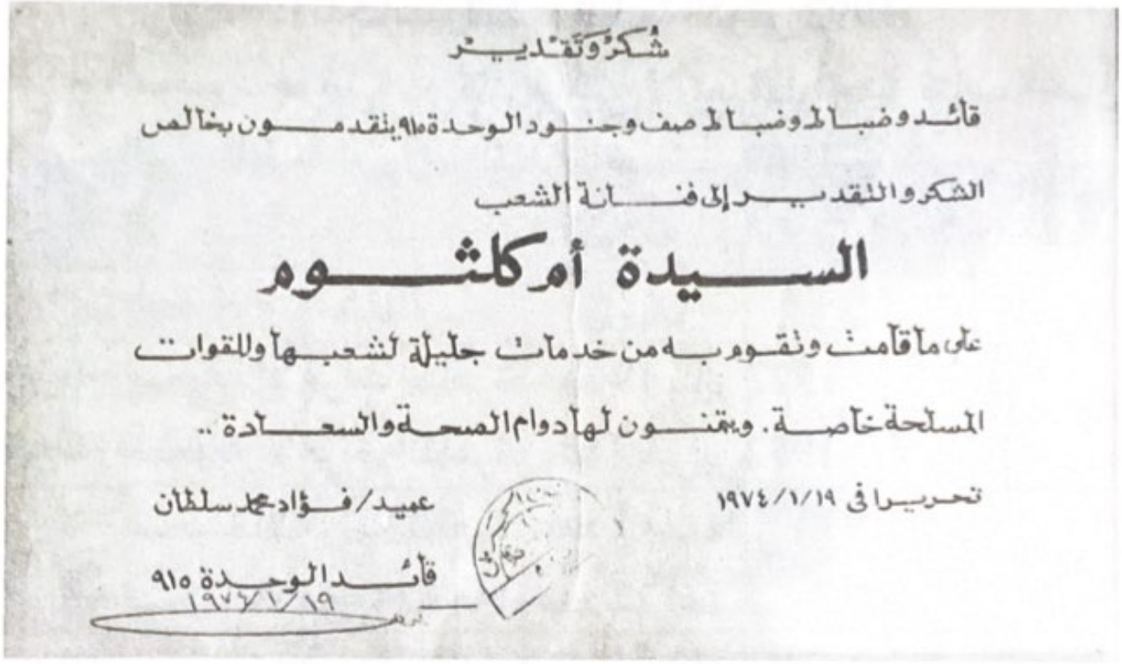

شكر وتقدير

قائد وضباط وضباط صف وجنود الوحدة ٩١٥ يتقدمون بخالص

الشكر والتقدير إلى فنانة الشعب

السيدة أم كلثوم

على ما قامت وتقوم به من خدمات جليلة لشعبها وللقوات

المسلحة خاصة. ويتمنون لها دوام الصحة والسعادة ..

تحريرا في ١٩٧٤/١/١٩

عميد/ فؤاد محمد سلطان

قائد الوحدة ٩١٥

١٩٧٤/١/١٩

رسالة من العميد فؤاد محمد سلطان قائد الوحدة 915 إلى السيدة أم كلثوم، يشكرها فيها باسمه واسم ضباط وجنود الوحدة على دورها في خدمة القوات المسلحة، والمجهود الحربي، يناير 1974.

مصادر هذا الفصل:

1- سعيد الشحات، أم كلثوم وحكام مصر، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010.

2- حنفي المحلاوي، أم كلثوم وخمسون سنة سياسة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 1999.

3- حنفي المحلاوي، عبد الناصر وأم كلثوم علاقة خاصة جدًا، مركز القادة للكتاب والنشر، الطبعة الأولى 1992.

4- محمود عوض، أم كلثوم التي لا يعرفها أحد، كتاب أخبار اليوم، الطبعة الأولى، القاهرة أغسطس 1969.

5- أنور عبد الله باشا، أم كلثوم عملاقة الغناء العربي حياتها وفنها، طبعة خاصة، 2015.

6- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 19 يناير 1972.

7- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 9 فبراير 1972.

8- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 1 أغسطس 1972.

9- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 22 أغسطس 1972.

10- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 28 أغسطس 1972.

11- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 1 أبريل 1973.

12- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 5 أبريل 1973.

13- صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد 12 أبريل 1973.

14- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 2 أكتوبر 1973.

15- مجلة الكواكب، القاهرة، عدد 23 أكتوبر 1973.

16- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 23 أبريل 1973.

17- مجلة الشبكة، لبنان، عدد 10 فبراير 1975.

18- مجلة الموعد، لبنان، عدد 12 فبراير 1983.

ملحق سجل حفلات السيدة أم كلثوم
ما بين عامي 1967 و1973

1ـ سجل الحفلات لعام 1967:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	الوصلة الثالثة	مكان الحفل
5/ 1/ 1967	الأطلال	فكروني	للصبر حدود	دار سينما قصر النيل
25/ 1/ 1967	الأطلال	فكروني	–	قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة
2/ 2/ 1967	فكروني	فات الميعاد	هو صحيح الهوى غلاب	دار سينما قصر النيل
3/ 3/ 1967	فكروني	فات الميعاد	الأطلال	دار سينما قصر النيل
16/ 3/ 1967	أمل حياتي	فات الميعاد	الأطلال	نادي بور توفيق بالسويس
6/ 4/ 1967	فكروني	فات الميعاد	الأطلال	دار سينما قصر النيل
4/ 5/ 1967	فكروني	حديث الروح	فات الميعاد	دار سينما قصر النيل
1/ 6/ 1967	الله معك	سلوا قلبي	حديث الروح	دار سينما قصر النيل
17/ 8/ 1967	أمل حياتي	فات الميعاد	–	مركز شباب مدينة دمنهور
31/ 8/ 1967	أنت عمري	الأطلال	–	إستاد مدينة الإسكندرية
13/ 11/ 1967	أنت عمري	الأطلال	بعيد عنك	مسرح الأولمبيا بباريس
15/ 11/ 1967	أمل حياتي	الأطلال	فات الميعاد	مسرح الأولمبيا بباريس
21/ 12/ 1967	غير محدد	غير محدد	–	سينما الهمبرا، الإسكندرية

2- سجل الحفلات لعام 1968:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	مكان الحفل
18/ 1/ 1968	غير محدد	غير محدد	دار سينما قصر النيل
1/ 2/ 1968	أمل حياتي	الأطلال	إستاد مدينة المنصورة
15/ 2/ 1968	الأطلال	فكروني	قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة
4/ 3/ 1968	أمل حياتي	الأطلال	مسرح محمد الخامس
8/ 3/ 1968	الأطلال	فات الميعاد	مسرح محمد الخامس، المغرب
12/ 3/ 1968	رباعيات الخيام	هو صحيح الهوى غلاب	مسرح محمد الخامس
16/ 3/ 1968	أنت عمري	فكروني	كازينو النادي السعدي بمراكش
14/ 4/ 1968	غير محدد	غير محدد	مسرح الهمبرا، الإسكندرية
25/ 4/ 1968	فات الميعاد	الأطلال	مسرح سينما الأندلس، الكويت
9/ 5/ 1968	غير محدد	غير محدد	دار سينما قصر النيل
31/ 5/ 1968	الأطلال	فكروني	إستاد قصر المنزه، تونس
3/ 6/ 1968	أنت عمري	بعيد عنك	إستاد قصر المنزه
12/ 7/ 1968	الأطلال	فكروني	قلعة بعلبك، لبنان
14/ 7/ 1968	أمل حياتي	بعيد عنك	قلعة بعلبك، لبنان
5/ 12/ 1968	الأطلال	هذه ليلتي	دار سينما قصر النيل
26/ 12/ 1968	الأطلال	هذه ليلتي	المسرح القومي، السودان
30/ 12/ 1968	فات الميعاد	هذه ليلتي	المسرح القومي، السودان

3ـ سجل الحفلات لعام 1969:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	مكان الحفل
9/ 1/ 1969	بعيد عنك	هذه ليلتي	دار سينما قصر النيل
6/ 2/ 1969	هذه ليلتي	ألف ليلة وليلة	دار سينما قصر النيل
12/ 3/ 1969	هذه ليلتي	الأطلال	مدينة طرابلس، ليبيا
19/ 3/ 1969	أمل حياتي	بعيد عنك	مدينة بنغازي، ليبيا
3/ 4/ 1969	هذه ليلتي	ألف ليلة وليلة	دار سينما قصر النيل
8/ 5/ 1969	هذه ليلتي	ألف ليلة وليلة	نادي طنطا الرياضي
19/ 6/ 1969	هذه ليلتي	الأطلال	مسرح أبو الهول بالهرم
4/ 12/ 1969	أقبل الليل	ألف ليلة وليلة	دار سينما قصر النيل

4، سجل الحفلات لعام 1970:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	مكان الحفل
1/ 1/ 1970	أقبل الليل	أسأل روحك	دار سينما قصر النيل
5/ 2/ 1970	أسال روحك	أقبل الليل	دار سينما قصر النيل
5/ 3/ 1970	ودارت الأيام	أسأل روحك	دار سينما قصر النيل
30/ 3/ 1970	ودارت الأيام	أسأل روحك	دار سينما قصر النيل
2/ 4/ 1970	ودارت الأيام	بعيد عنك	دار سينما قصر النيل
7/ 5/ 1970	أقبل الليل	ودارت الأيام	دار سينما قصر النيل
4/ 6/ 1970	هذه ليلتي	أسأل روحك	سينما الهمبرا، الإسكندرية
8/ 7/ 1970	هذه ليلتي	أسأل روحك	قلعة بعلبك، لبنان
11/ 7/ 1970	ودارت الأيام	أقبل الليل	قلعة بعلبك، لبنان

5- سجل الحفلات لعام 1971:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	مكان الحفل
7/ 1/ 1971	الحب كله	ودارت الأيام	دار سينما قصر النيل
4/ 2/ 1971	القلب يعشق كل جميل	الحب كله	دار سينما قصر النيل
6/ 5/ 1971	أغدًا ألقاك	القلب يعشق كل جميل	دار سينما قصر النيل
10/ 6/ 1971	أغدًا ألقاك	الحب كله	دار سينما قصر النيل
28/ 11/ 1971	الحب كله	أغدًا ألقاك	نادي وزارة الدفاع بأبو ظبي
30/ 11/ 1971	ودارت الأيام	القلب يعشق كل جميل	نادي وزارة الدفاع بأبو ظبي

6- سجل الحفلات لعام 1972:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	مكان الحفل
6/ 1/ 1972	من أجل عينيك	أغدًا ألقاك	دار سينما قصر النيل
6/ 4/ 1972	يا مسهرني	من أجل عينيك	دار سينما قصر النيل
4/ 5/ 1972	من أجل عينيك	يا مسهرني	دار سينما قصر النيل
10/ 9/ 1972	أغدًا ألقاك	يا مسهرني	قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة
7/ 12/ 1972	ليلة حب	يا مسهرني	دار سينما قصر النيل

7- سجل الحفلات لعام 1973:

تاريخ الحفل	الوصلة الأولى	الوصلة الثانية	مكان الحفل
4/ 1/ 1973	ليلة حب	القلب يعشق كل جميل	دار سينما قصر النيل

1، حصيلة الرحلات الخارجية من أجل المجهود الحربي لثماني دول ما بين عامي 1967 و1971:

الدولة	المبلغ
رحلة باريس نوفمبر 1967	14 ألف جنيه إسترليني
رحلة المغرب مارس 1968	36 ألف جنيه إسترليني
رحلة الكويت أبريل 1968	30 ألف جنيه إسترليني
رحلة تونس مايو 1968	100 ألف دينار تونسي
رحلتا بعلبك 1968، 1970	40 ألف جنيه إسترليني
رحلة السودان ديسمبر 1968	24 ألف جنيه إسترليني
رحلة ليبيا مارس 1969	176 ألف جنيه مصري
رحلة أبو ظبي نوفمبر 1971	44 ألف دينار إماراتي

2، حصيلة الرحلات الداخلية من أجل المجهود الحربي في أربع محافظات ما بين عامي 1967 و1969 [1]:

المحافظة	المبلغ
حفلة دمنهور أغسطس 1967	76 ألف جنيه مصري
حفلة الإسكندرية أغسطس 1967	100 ألف جنيه مصري
حفلة الدقهلية فبراير 1968	100 ألف جنيه مصري
حفلة الغربية مايو 1969	277 ألف جنيه مصري

(1) هذا بالطبع بخلاف مجموعة كبيرة من الحفلات الشهرية التي كانت تقيمها الإذاعة المصرية، وعدد لا بأس به من الحفلات الخيرية، التي ذهب دخلها بأكمله أو جزء منه لصالح المجهود الحربي.

شُكر واجب

كل الشُكْر والامتنان لمن أعطوني من وقتهم وجهدهم وساعدوا في إتمام هذا الكتاب، سواء كانت المساعدة بالمشورة أو بإتاحة المراجع والمصادر والمواد الأرشيفية والشهادات المسجَّلة والترجمة، أو بالصبر على رجوعي إليهم مرارًا وتكرارًا دون أن يبدوا مللًا أو ضجرًا، وأخص بالشُّكْر الأساتذة التالية أسماؤهم، مع الاعتذار عن عدم ذكر الألقاب والترتيب:

- ڤكتور سحاب (لبنان).
- كمال عزمي (مصر).
- أبو إلياس (المغرب).
- محب جميل (مصر).
- نزار ناصر (ليبيا).
- علي عنبوسي (فلسطين).
- محمد علي (مصر).

ولا أنسى أن أقدم عرفاني لكل العاملين في أرشيف «دار الكتب والوثائق القومية المصرية» بالقاهرة، والعاملين في «مكتبة البلدية» بالإسكندرية، على مجهودهم معي في الوصول إلى المادة الأرشيفية الكبيرة التي بني عليها معظم هذا الكتاب، كما أشكر رواد وأعضاء

«منتدى سماعي للطرب الأصيل» على ما أتاحوه لي من تحقيقات خاصة وتسجيلات نادرة كان لا غنى عنها أبدًا في اكتمال هذا الكتاب، وأخيرًا كل الشكر لجميع الأصدقاء (قائمتهم تطول) الذين دعموا هذا الكتاب بالتشجيع والقراءة والملاحظات القَيِّمَةِ التي أضافت لذلك الكتاب قطعًا الكثير والكثير.

قائمة المحتويات

إهداء 5
تقديم: بين الفن والسياسة علاقة لا تنفصم 7
مقدمة المؤلف 13
أم كلثوم معكم في المعركة 19
مصادر هذا الفصل:، 39
المواطنة الأولى 41
بعد منتصف الليل، كانت أم كلثوم لا تزال تغني! 77
حفنة من تراب المنصورة بثلاثة آلاف جنيه! 155
أيّام أم كلثوم في المغرب 169
السفيرة في الكويت! 221
عندما أعادت أم كلثوم العلاقات بين مصر وتونس 249
يوميات أم كلثوم في السودان 303
العاصفة في المملكة الليبية 353
أم المُهَجرِين في طنطا 405
خاتمة المطربات في مدينة الشمس 427
البكاء في ساحة الكرملين! 481
ودارت الأيام الحزينة 509

وطنيات الهزيمة 527
المحطة الأخيرة في أبو ظبي 549
نهاية الرحلة 583
ملحق سجل حفلات السيدة أم كلثوم 599
شُكر واجب 605